

3 جوائز
6 ملايين قارئ

جويل ديكر



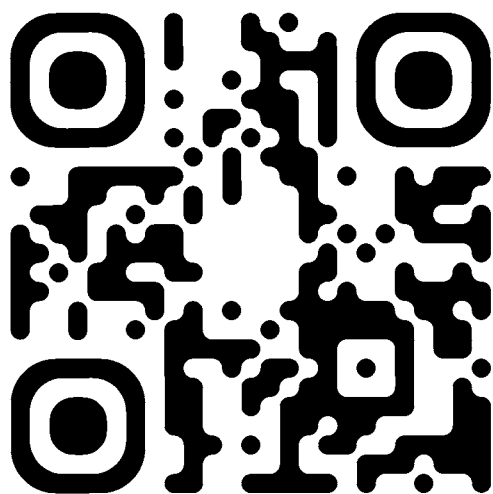
رواية

حقيقة قضية هاري كيپر

مكتبة

المركز الثقافي العربي





سجل في مكتبة
اضغط! الصفحة
SCAN QR

جويل ديكر
حقيقة قضية
هاري كير

العنوان الأصلي للرواية:

Joël Dicker

La Vérité sur l’Affaire

Harry Quebert

© JDCS, 2020

All rights reserved

مكتبة

t.me/soramnqraa

الكتاب

حقيقة قضية هاري كير

تأليف

جويل ديكر

ترجمة

دينا مندور

مراجعة

هيئة التحرير

في المركز الثقافي العربي

الطبعة

الأولى، 2024

الإيداع القانوني:

2022MO0909

الترقيم الدولي:

ISBN: 978-9920-657-34-1

جميع الحقوق محفوظة

© المركز الثقافي العربي

الناشر

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء - المغرب

ص.ب: 4006 (سيدنا)

42 الشارع الملكي (الأحباس)

هاتف: 0522 303339 - 0522 307651

فاكس: 212 522 305726+

Email: markaz.casablanca@gmail.com

جويل ديكر

مكتبة

t.me/soramnqraa

حقيقة قضية هاري كير

رواية

ترجمة: دينا مندور



المركز الثقافي العربي

إلى والديَّ

يوم الاختفاء

(السبت 30 أغسطس 1975)

- مركز الشرطة، ما هو بلاغك؟
- ألو؟ اسمي ديورا كوبر، أسكن في سايد كريك لين. أعتقد أنني رأيت لتوي فتاة في الغابة يتبعها رجل...
- ما الذي حدث بالضبط؟
- لا أدري! كنت بالقرب من النافذة أنظر باتجاه الغابة حين رأيت فتاة تركض وسط الأشجار... ويتبعها رجل... أعتقد أنها كانت تحاول الإفلات منه.
- أين هما الآن؟
- أنا... أنا لم أعد أراهما. إنهما في الغابة.
- سأرسل لك دورية على الفور، يا سيدتي.
- كان هذا هو البلاغ الذي ارتجت له مدينة أورورا، في ولاية نيو هامبشير. اختفت في ذلك اليوم نولا كيلرغان، فتاة من المنطقة في الخامسة عشرة من عمرها. ولم يتم العثور على أي أثر لها بعد ذلك أبداً.

مكتبة

t.me/soramnqraa

استهلال

أكتوبر 2008

(33 عاماً بعد الاختفاء)

استهلال

أكتوبر 2008

(33 عاماً بعد الاختفاء)

كان الجميع يتحدث عن الكتاب . لم يعد بإمكانني التحرك في
مانهاتن بسلام ، ولا ممارسة رياضة الجري في الشارع من دون أن
يلتفت إليّ المارة قائلين بتعجب : « هيه ، إنه غولدمان ! الكاتب ! » ، بل
قد يركض بعضهم بضع خطوات ليلحقوا بي ويطرحوا عليّ الأسئلة التي
تدور في رؤوسهم : « هل ما ذكرته في كتابك هو الحقيقة ؟ هل فعل
هاري كبير ذلك حقاً ؟ » . وفي مقهى وست فيليدج الذي أرتاده عادة ، لم
يعد بعض الزبائن يترددون في الجلوس إلى طاولتي للتحدث إليّ : « أنا
أقرأ كتابك الآن ، سيد غولدمان ، لا يمكنني التوقف ! كان الأول
جيداً ، أما هذا ! هل دفع لك مليون دولار حقاً لتكتبه ؟ كم عمرك ؟
ثلاثون عاماً بالكاد ؟ لم تكمل الثلاثين بعد ؟ وها أنت قد جمعت كل
هذه الأموال ! » . أما حارس البناية التي أسكن فيها والذي كنت أراه
يتقدّم في قراءته للرواية كلما فتح لي الباب ، فاحتجّزني طويلاً أمام
المصعد بعد أن انتهى من قراءة الكتاب ، ليفصح لي عن مكنون قلبه :
« أهذا ما حدث لنولا كيلرغان إذا ؟ يا للفضاعة ! لكن كيف يمكن أن
نصل إلى هنا ، يا سيد غولدمان ؟ هيه ؟ كيف يكون هذا ممكناً ؟ » .

كانت نيويورك بأكملها مفتونةً بكتابي ؛ لم يلبث أن ظهر منذ
أسبوعين وتصدّر قوائم المبيعات للعام في كل القارة الأمريكية ، إذ كان
الجميع يريدون معرفة ما حدث في أوروبا عام 1975 ، وتحديثوا عن

الأمر في كل مكان: في التلفزيون، والراديو، والصحف. لم أكن قد بلغت الثلاثين بعد، وأصبحت بهذا الكتاب، الذي لم يتعد كونه كتابي الثاني، الكاتب الأكثر شهرة في البلاد.

كانت القضية التي ألهمت أمريكا، والتي اتخذتها موضوعاً لروايتي، قد تفجرت منذ بضعة أشهر، في بداية الصيف حين تم العثور على رُفات فتاة اختفت قبل ثلاثة وثلاثين عاماً. هكذا بدأت الأحداث في ولاية نيو هامبشير كما سَردُ في هذه الصفحات، ولولاها لبقيت بكل تأكيد مدينة أورورا مجهولة بالنسبة إلى باقي أمريكا.

الجزء الأول

مرض الكُتَّاب

(ثمانية أشهر قبل صدور الكتاب)

في ثنايا الذاكرة

- «الفصل الأول، يا ماركوس، أساسي. إذا لم يحبه القراء، فلن يقرأوا بقية كتابك. بم تنوي أن تبدأ كتابك؟
- لا أعرف، يا هاري. أعتقد أنني سأستطيع ذلك يوماً؟
 - تستطيع ماذا؟
 - أن أولف كتاباً.
 - أنا متأكد من ذلك».

في بداية عام 2008، أي بعد حوالي عام ونصف العام من نجاح روايتي الأولى التي جعلتني أجتاح الساحة الأدبية الأمريكية، أصابني أزمة صفحة بيضاء رهيبة، وهي متلازمة شائعة على ما يبدو في أوساط الكتّاب الذين يحققون نجاحاً فورياً وكاسحاً. لم يحلّ المرض فجأة، بل استقر بداخلي ببطء، كما لو أن عقلي المصاب تجمد شيئاً فشيئاً. ومع ظهور الأعراض الأولى، لم أرغب في أن أعيرها اهتماماً: قلت لنفسي إن الإلهام سيعود غداً، أو بعد غد، أو اليوم الذي يليه ربما. لكن مرت الأيام، ثم الأسابيع والشهور من دون أن يعود الإلهام أبداً.

تألف هبوطي إلى الجحيم من ثلاث مراحل. الأولى، لا غنى عنها لكل سقوط مُدوّ، كانت صعوداً صاعقاً: بيع من روايتي الأولى مليوناً نسخة، ما دفع بي إلى مصاف كتّاب أحرزوا نجاحاً كبيراً. كان ذلك في خريف 2006، وفي غضون بضعة أسابيع، أصبح اسمي علماً: ظهرت في كل وسائل الإعلام؛ في التلفزيون، في الصحف، على أغلفة المجلات، وزيّن وجهي اللافتات الإعلانية الكبيرة في محطات المترو. وكان نقاد الجرائد اليومية القساة في حالة إجماع على أن الكاتب الشاب ماركوس غولدمان سيصبح كاتباً ذا شأن كبير جداً.

كتابٌ واحد فقط فتح لي أبواب حياة جديدة تماماً، حياة النجوم الشباب أصحاب الملايين. انتقلت من العيش في منزل والدَي في

مونتكلير، بولاية نيو جيرسي، لأعيش في شقة فخمة في حي فيلديج بنيويورك، وتخلّيت عن سيارتي الفورد المستعملة والتي كنت ثالث مالك لها، لأشتري رينج روفر جديدة سوداء براقّة بزجاج مظلل. اعتدت ارتياد المطاعم الفاخرة، وتمتعت بخدمات وكيل أدبي يدير جدول أعمالي ويشاهد معي البيسبول على شاشة ضخمة في منزلي الجديد. واستأجرت، على بعد بضعة خطوات من سنترال بارك، مكتباً تعمل فيه سكرتيرة عاشقة بعض الشيء تدعى دينيس، تحضّر القهوة وتصنف الوثائق المهمة والرسائل الواردة.

وخلال الشهور الستة التي تلت ظهور الكتاب، اكتفيت بالاستمتاع بعذوبة حياتي الجديدة. ففي الصباح، كنت أمرّ على مكثبي لأتصفح المقالات المتعلقة بكتابي وأقرأ عشرات الرسائل من المعجبين التي أتلقاها يومياً وترتبها دينيس في ملفات كبيرة بعد ذلك. ثم أذهب مسروراً بحالي ومعتقداً أنني اشتغلت بما يكفي، لأتسكع في شوارع مانهاتن، حيث يطلق المارة صيحاتهم عند مروري. وأكرس بقية النهار للاستفادة من الحقوق الجديدة التي كفلتها لي الشهرة: حق شراء كل ما أرغب فيه، وحق ارتياد منصة كبار الشخصيات في حديقة ماديسون سكوير غاردن لمشاهدة مباريات الرينجرز، وحق السير على السجادات الحمراء مع نجوم الموسيقى الذين أشتريت سابقاً كل أسطواناتهم، وحق مواعدة ليديا غلور، البطلة الرئيسية للمسلسل التلفزيوني الشهير آنذاك والتي تابعه كل العالم. كنت كاتباً مشهوراً، وبدا لي أنني أمارس أجمل مهنة في العالم. ولأنني كنت واثقاً أن نجاحي سيدوم إلى الأبد، لم أقلق من تنبيهات وكيلي الأدبي وناشري بضرورة العودة إلى العمل والبدء في كتابة روايتي الثانية.

أدركت خلال الستة أشهر التالية أن الأمور أخذت تتغير: باتت رسائل المعجبين أكثر ندرة، وأصبح الناس يستوقفونني بدرجة أقل في الشارع. وسرعان ما بدأ المارة الذين تعرّفوني يسألونني: «سيد

غولدمان، ما هو موضوع كتابك المقبل؟ ومتى سيصدر؟». فهمت أنه عليّ أن أشتغل عليه، واشتغلت عليه بالفعل: وضعت أفكاراً على الورق ودوّنت ملخصات على جهاز الكمبيوتر. لكن لم يكن هناك شيء جيد. فجئت بأفكار أخرى وملخصات أخرى، لكن بلا طائل أيضاً. ثم اشتريت جهاز كمبيوتر جديداً، على أمل أن يمدّني بأفكار جيدة وملخصات رائعة، لكن من دون جدوى. فحاولت أن أغير طريقتي: استقيتُ دينيس حتى وقت متأخر من الليل لأملّي عليها ما اعتقدت أنها عبارات عظيمة، وكلمات قوية، واستهلالات استثنائية. لكن في اليوم التالي، بدت لي الكلمات سطحية، والعبارات ركيكة، والاستهلالات عبثية. دخلت حينذاك المرحلة الثانية من مرضي.

في خريف عام 2007، كان قد مر عام على صدور روايتي الأولى، ولم أكن قد كتبت سطوراً واحداً من التالية. وحين لم تعد هناك رسائل لتصنف، ولم يعد أحدٌ يتعرف عليّ في الأماكن العامة، واختفت الإعلانات التي تحمل صورتني في المكتبات الكبرى في بروودواي، فهمت أن المجد زائل. إنه وحش جائع يستبدل من لا يطعمه: إذ استحوذ على نصيبي من الاهتمام السياسيون، وأبطال تلفزيون الواقع، وفرق الروك التي ما لبثت أن احترقت الساحة. لم يمر سوى اثني عشر شهراً على صدور كتابي: فترة زمنية قصيرة لدرجة السخرية في نظري، إلا أنها طويلة جداً على نطاق الإنسانية. فأثناء تلك السنة، في أمريكا وحدها، ولد مليون طفل، وتوفي مليون شخص، وأُطلقت النار على عشرات آلاف الأشخاص، وأدمن نصف مليون على المخدرات، وأصبح مليون شخص من أصحاب الملايين، وغير سبعة عشر مليون شخص هواتفهم المحمولة، وتوفي خمسون ألفاً في حوادث سير، وفي الظروف نفسها، جُرح مليوناً شخص بين جروح طفيفة وخطيرة. أما أنا، فلم أكتب سوى كتاب واحد.

كانت شميد وهانسون، دار النشر الكبيرة في نيويورك التي عرضت

عليّ مبلغاً مغرباً مقابل نشر روايتي الأولى وعلّقت عليّ آمالاً كبيرة، تطارد وكيللي الأدبي، دوغلاس كلارين، الذي كان يتعقبنني بدوره. قال إن الوقت يداهمنا وإنه لا بد أن أقدم مخطوطة جديدة، أما أنا فحرصت على تهدئته لأهدئ أنا من نفسي، مؤكداً له أنني أتقدم في روايتي الثانية بوتيرة جيدة، وأن لا داعي للقلق. لكن رغم قضائي ساعات محبوساً في مكتبي، ظلت صفحاتي بيضاء: كان الإلهام قد هجرني دون سابق إنذار ولم يعد. في الليل، وأنا في سريري أعاني من الأرق، كنت أشرد في فكرة أنه قريباً، وقبل حتى أن يصل عمر الثلاثين، لن يعود لماركوس غولدمان الشهير أي وجود. أفزعني هذه الفكرة لدرجة أنني قررت السفر في إجازة لتجديد طاقتي: قضيت شهراً في فندق فاخر بميامي، مقتنعاً أن الاسترخاء تحت النخيل سيعيد إليّ ملكاتي الإبداعية. لكن لم تكن فلوريدا سوى محاولة هروب مُقنّعة، إذ كان الفيلسوف سينيكا قد مرّ بالموقف المضني نفسه قبل ألفي عام، وعبر عنه قائلاً: أينما هربتم، فستسلك مشكلاتكم إلى حقائبكم وتلحق بكم أينما ذهبتم. كما لو أنه، حال وصولي إلى ميامي، ركض ورائي حامل حقائب كوبي لطيف لدى خروجي من المطار وقال لي:

- هل أنت السيد غولدمان؟

- نعم.

- هذا يخصك إذاً.

ومدّ لي مظروفاً فيه رزمة أوراق.

- أهى صفحاتي البيضاء؟

- نعم، يا سيد غولدمان. لم تكن لتغادر نيويورك دون أن تأخذها

معك، صحيح؟

وهكذا قضيت ذلك الشهر في فلوريدا وحدي، محبوساً في جناح فندقني مع شياطيني، بائساً وخائب الرجاء، وجهاز الكمبيوتر مفتوح ليل نهار، فيما ظلت الوثيقة المعنونة رواية جديدة.doc عذراء على نحوٍ

محيط . وعرفت أنني مصاب بمرض شائع في الأوساط الفنية في الليلة التي عرضت فيها مشروب مارغريتا على عازف البيانو في حانة الفندق . حكى لي وهو جالس عند المنضدة أنه لم يكتب سوى أغنية واحدة في حياته ، حققت نجاحاً كاسحاً ، لدرجة أنه لم يستطع أن يكتب شيئاً بعد ذلك ، فغدا يعزف لزبائن الفندق نجاحات الآخرين ، بعد أن خسر كل ماله . «أقمت حفلات رائعة في أكبر صالات العالم وقتذاك» ، قال ممسكاً بياقة قميصي . «كان الآلاف يصيحون باسمي ، وتلاحقني المعجبات في كل مكان . كان أمراً عجيباً» . وأضاف بعد أن لعق الملح حول كأسه مثل كلب صغير : «أقسم لك أنها الحقيقة» . والأسوأ أنني كنت أعرف أنها كذلك .

المرحلة الثالثة من مصائبي بدأت فور عودتي إلى نيويورك . ففي الطائرة التي أقلتني من ميامي ، قرأت مقالاً عن كاتب شاب صدرت له رواية أشاد بها النقاد ، ولدى وصولي إلى مطار لاغوارديا ، رأيت وجهه على إعلانات كبيرة في قاعة استلام الأمتعة . كانت الحياة تسخر مني : لم يتم نسياني فحسب ، بل تم استبدالي أيضاً . كان دوغلاس ، الذي جاء ليستقبلني في المطار ، مستاء للغاية : لقد نفذ صبر شמיד وهانسون ، وأرادوا دليلاً على أنني أتقدم في العمل وأنني شارفت أن أسلمهم مخطوطة جديدة مكتملة .

«نحن في وضع سيئ» ، قال لي في السيارة وهو يقلني إلى مانهاتن . «قل لي إن فلوريدا قد أنعشتك وإن لديك كتاباً شبه منجز ! هذا الكاتب الذي يتحدث عنه الجميع . . . كتابه سيكون صيحة أعياد الميلاد . وأنت ، يا ماركوس ؟ ماذا لديك لأعياد الميلاد ؟

- سأبأشر بالعمل عليه ! سأنجزه ! أجبت وقد انتابني الهلع . سنقيم حملة دعائية ضخمة وسيكون الأمر على ما يرام ! لقد أحب القراء الكتاب الأول ، وسيحبون التالي !

- مارك ، أنت لا ترى الأمور على ما هي عليه ، كان علينا أن

نفعل ذلك قبل بضعة أشهر. تلك كانت الاستراتيجية: أن نستفيد من نجاحك، ونطعم الجمهور، ونعطيه ما يطلبه. كان الجمهور يريد ماركوس غولدمان، لكن بما أن ماركوس غولدمان ذهب إلى فلوريدا ليستمتع بوقته، اشترى القراء كتاب كاتب آخر. هل درست الاقتصاد، يا ماركوس؟ لقد أصبحت الكتب منتجات قابلة للتبديل، فالناس يريدون كتاباً يروق لهم، ويريحهم، ويسليهم. وإن لم تكن أنت من سيمنحهم ذلك، فسيكون جارك إذاً، وسترى في سلة المهملات».

أرعبتني نبوءات دوغلاس، فانكبت على العمل كما لم أفعل أبداً من قبل: كنت أبدأ الكتابة عند السادسة صباحاً، ولا أتوقف قبل التاسعة أو العاشرة مساءً. أمضيت أياماً طويلة في مكتبي أكتب دون انقطاع، يدفعني اليأس إلى وضع الكلمات وتركيب العبارات وإيجاد أفكار للرواية. إلا أنني لم أنتج شيئاً ذا قيمة مع الأسف. ومن جهتها، قضت دينيس أيامها في قلق على حالتي، وبما أنه لم يعد لديها ما تفعله، إذ لم يعد هناك إملاءات لكتبتها، ولا رسائل لتصنفها، ولا قهوة لتعدّها، كانت تذرّع الرواق جيئة وذهاباً، وحينما لم تعد تطيق الانتظار، كانت تنقر على بابي، متوسلة.

- أرجوك يا ماركوس افتح الباب! اخرج من هذا المكتب. اذهب لتتنزه في الحديقة قليلاً. أنت لم تأكل شيئاً طوال اليوم! فأجيبها صارخاً:

- لست جائعاً! لست جائعاً! لا كتاب، فلا طعام! فترد عليّ وهي على وشك البكاء:

- لا تتفوه بالفضاعات، يا ماركوس. سأذهب إلى المطعم في زاوية الشارع وأحضر لك ساندويتش الروست بيف الذي تحبه. سأفعل ذلك حالاً!

كنت أسمعها تلتقط حقيبة يدها وتنطلق نحو باب المدخل قبل أن تلقي بنفسها نحو السلال، كما لو أن استعجالها سيغير شيئاً في

وضعي. فكنت قد أدركت أخيراً مدى الضرر الذي أصابني: بدا لي تأليف كتاب من الصفر أمراً هيناً، لكن الآن وقد تربعت على القمة، كان عليّ أن أؤكد موهبتي وأكرر المسيرة المنهكة نحو النجاح المتمثلة في كتابة رواية جيدة، ولم أشعر أنني قادر على ذلك. لقد أصابني مرض الكُتّاب، وما من أحد ليساعدني: فَمَنْ تحدثت إليهم في هذا الشأن قالوا إنه ليس بالأمر المهم، بل إنه أمر شائع جداً، وإن لم أكتب روايتي اليوم، فسأكتبها غداً. وحاولت طوال يومين أن أكتب في غرفتي القديمة في منزل والديّ في مونتكلير، حيث وجدت الإلهام لروايتي الأولى. لكن هذه المحاولة باءت بفشل ذريع، لم تكن أُمي غريبة عنه، إذ قضت اليومين جالسة إلى جانبي، تتفحص شاشة الحاسوب وتكرر: «هذا رائع، يا ماركي».

- أُمي، لم أكتب سطرًا واحدًا!
- لكني أشعر أنه سيكون رائعاً.
- أُمي، لو تركيني وحدي...
- لماذا وحدك؟ أتشكو من مغص في البطن؟ أتعاني من غازات؟ أخرجها يا حبيبي. لا تخجل. أنا أمك.
- لا، يا أُمي، لست بحاجة إلى ذلك.
- هل أنت جائع إذا؟ هل أحضر لك الفطائر؟ أو الكعك؟ أو شيئاً مالحاً؟ البيض مثلاً؟
- لا، لست جائعاً.
- لماذا تريدني أن أتركك إذا؟ أم أنك تحاول أن تقول إن وجود المرأة التي وهبتك الحياة يزعجك؟
- لا، أنت لا تزعجينني، لكن...
- لكن ماذا؟
- لا شيء، يا أُمي.

- أنت بحاجة إلى صديقة، يا ماركي. أعتقد أنني لا أعرف أنك قطعت علاقتك بتلك الممثلة؟ ما كان اسمها؟
- ليديا غلور. على أي حال، لم نكن معاً حقاً، يا أمي. أقصد: كانت مجرد قصة عابرة.

- قصة عابرة، قصة عابرة! هذا هو حال الشباب اليوم: يعيشون قصصاً عابرة ويجدون أنفسهم فجأة في عمر الخمسين صُلِعاً وبلا أسرة!

- ما علاقة ذلك بالصلع، يا أمي؟
- لا توجد علاقة. ولكن أتجد أنه من الطبيعي أن أكتشف من مجلة أنك تواعد تلك الفتاة؟ أي ابن يفعل ذلك بأمه؟ تصوّر أنني ذهبتُ عند شاينغيتز، الحلاق وليس الجزار، قبل سفرك إلى فلوريدا، ونظر إليّ الجميع بطريقة غريبة. فسألتهم عما يحدث، فأشارت السيدة بيرغ، والصبغة على شعرها، إلى المجلة التي بين يديها وقالت إن هناك صورة لك مع ليديا غلور هذه، في الشارع معاً، وأعلن عنوان المقال عن انفصالكما. كان الجميع في صالون الحلاقة يعرفون أنكما انفصلتما، وأنا لم أكن أعرف حتى أنك تواعدت تلك الفتاة! بطبيعة الحال، لم أرغب في أن أبدو بلهاء، فقلت إنها امرأة لطيفة، وإنها زارتنا في المنزل وتناولت معنا العشاء.

- أمي، أنا لم أحدثك عنها لأن الأمر لم يكن جدياً. لم تكن المرأة المناسبة، أتفهميني؟

- هنّ دائماً ما يكنّ غير مناسبات! أنت لا تقابل أي فتاة مناسبة، يا ماركي. هذه هي المشكلة. أعتقد أنه بإمكان ممثلة تلفزيونية الاعتناء بمنزل؟ أتعرف، لقد التقيت الأمس بالسيدة ليفي في المتجر: ابنتها عازبة أيضاً. ستكون مناسبة جداً لك. كما أن لها أسناناً جميلة جداً. أتريد أن أطلب منها أن تأتي الآن؟
- لا، يا أمي. فأنا أحاول أن أعمل.

وفي تلك اللحظة، طرق أحدهم الباب، فقالت أمي:

- أعتقد أنهما وصلتا.

- ماذا تعنين بأنهما وصلتا؟

- السيدة ليفي وابنتها. طلبتُ منهما أن تأتيا لتناول الشاي عند الرابعة، وها هي الرابعة بالضبط. المرأة التي تأتي في الموعد هي امرأة صالحة. ألا يجعلك ذلك تحبها؟

- دعوتيها لتناول الشاي؟ أخرجيهما من هنا يا أمي! أنا لا أرغب في رؤيتهما! لديّ كتاب لأكتبه، بحق الجحيم! أنا لست هنا لألعب. عليّ أن أكتب رواية!

- أوه، يا ماركي. أنت بحاجة إلى صديقة حقاً. صديقة تخطبها ثم تتزوجها. أنت تفكر في الكتب أكثر من اللازم، ولا تفكر في الزواج بما يكفي...

لم يكن أحد مدركاً لخطورة الوضع: كان عليّ أن أوّلّف كتاباً جديداً، على الأقل احتراماً لبنود العقد التي تربطني بدار النشر. فخلال شهر يناير 2008، استدعاني روي بارناسكي، المدير المهيّب لدار شמיד وهانسون، إلى مكتبه في الطابق 51 من ناطحة سحاب واقعة في شارع لكسينغتون لتوبيخي: «إذاً يا غولدمان»، قال صارخاً، «متى سأستلم مخطوطة كتابك الجديد؟ ينص التعاقد بيننا على خمسة كتب: عليك أن تعمل، وسريعاً! أريد نتائج! أريد مبيعات! أنت متأخر عن مواعيد التسليم! أنت متأخر في كل شيء! هل رأيت هذا الكاتب الذي أصدر كتابه قبل أعياد الميلاد؟ لقد حل محلك عند القراء! وأعلن وكيله الأدبي أن روايته التالية شبه جاهزة. وماذا عنك؟ أنت تجعلنا نخسر أموالاً! استيقظ وتدارك الموقف إذاً. اضرب ضربة كبيرة، واكتب لي كتاباً جيداً، وأنقذ نفسك. سأمهلك ستة أشهر، سأمهلك حتى نهاية شهر يونيو». ستة أشهر لتأليف كتاب، بينما كنت عاجزاً عن كتابة أي

شيء منذ عام ونصف العام تقريباً. كان الأمر مستحيلًا، بل أسوأ من ذلك، حين حدد لي بارناسكي موعد التسليم، لم يخبرني بالعواقب التي كنت أعرض نفسي لها في حال لم أسلم الكتاب في الموعد. دوغلاس هو مَنْ تكفل بالأمر بعد أسبوعين، أثناء محادثة جديدة دارت بيننا في شقتي. قال لي: «عليك أن تكتب يا صاح، لا مفر من ذلك. لقد وقّعت عقداً لخمسة كتب! خمسة كتب! بارناسكي غاضب، ولن يصبر أكثر من ذلك... قال لي إنه سيمهلك حتى شهر يونيو. أتدري ماذا سيحدث إذا لم تلتزم بالمهلة؟ سيفسخون عقدك، وسيلجؤون إلى القضاء، وسيجردونك من كل شيء حتى النخاع. سيأخذون كل أموالك، وستضطر أن تودّع حياتك الرغدة، وشقتك الفاخرة، وأحذيتك الإيطالية، وسيارتك الفارهة: لن يبقى لك شيء. سيمصّون دمك». وهكذا صرْتُ، بعد أن كنت قبل عام واحد بمثابة النجم الجديد للساحة الأدبية في هذه البلاد، صرت يائساً عظيماً، يرقانة سوق النشر في شمال أمريكا. الدرس رقم اثنان: فضلاً عن كونه زائلاً، للمجد عواقبه. في مساء اليوم الذي حذرنى فيه دوغلاس، أمسكت هاتفي وطلبت رقم الشخص الوحيد الذي اعتبرته قادراً على انتشالي من هذا الموقف الصعب: هاري كيبر، أستاذي السابق في الجامعة وأحد أهم وأشهر الكتّاب في أمريكا والذي ربطتني به علاقة وثيقة منذ ما يناهز عشر سنوات، أي منذ أن كنت تلميذه في جامعة بوروس في ولاية ماساتشوستس.

في تلك اللحظة، كان قد مضى أكثر من عام منذ آخر مرة رأيته فيها، ونفس الوقت تقريباً منذ أن هاتفته. اتصلت به في منزله في بلدة أورورا بولاية نيو هامبشير. عند سماع صوتي، قال بصوت ساخر: - أوه، ماركوس! أهذا أنت الذي يتصل بي؟ لا أصدق! منذ أن أصبحت نجماً، انقطعت أخبارك. حاولت الاتصال بك منذ حوالي الشهر وردت عليّ سكرتيرتك قائلة إنك لست متاحاً لأحد.

أجبتُ دون مواربة:

- لستُ على ما يرام، يا هاري! أعتقد أنني لم أعد كاتباً.
استعاد هيئته الجادة سريعاً:

- ما الذي تتفوه به، يا ماركوس؟

- لا أعرفُ ماذا أكتب، لقد انتهيت؛ صفحتي بيضاء منذ شهور
عديدة. عام ربما.

انفجر في ضحكة مطمئنة ودافئة.

- انسداد فكري يا ماركوس، هذا كل ما في الأمر! إن الصفحات
البيضاء سيئة بقدر الأعطال الجنسية المرتبطة بالأداء: إنه هلع الإبداع.
لا تشغل نفسك بكتابة عبقرية، بل صُفِّ الكلمات جنباً إلى جنب
فحسب، وستأتي العبقرية من تلقاء نفسها.
- أعتقد ذلك؟

- بل متأكد. لكن عليك أن تدع سهراتك الفاخرة ونشاطاتك
الاجتماعية جانباً لبعض الوقت، فالكتابة عمل جديّ. ظننتُ أنني
لَقِيتُك هذه الحقيقة.

- لكنني أعمل بجدّ! لا أفعل سوى ذلك! وبالرغم من ذلك، لا
أصل إلى شيء.

- إذاً، إن ما ينقصك هو جو موانٍ. نيويورك مدينة جميلة جداً،
لكنها صاخبة جداً جداً. لماذا لا تأتي إلى هنا، عندي، كما كنت تفعل
حين كنت تلميذي؟

أن أبتعد عن نيويورك وأغيّر الأجواء. لم أتلّق أبداً دعوة للمنفى
وجبهة إلى هذا الحد! أن أرحل، بحثاً عن الإلهام لكتاب جديد، إلى
الريف الأمريكي النائي بصحبة أستاذه القديم: هذا بالضبط ما كنت
بحاجة إليه. وهكذا، بعد أسبوع من مكالمتنا، أي في منتصف شهر
فبراير 2008، ذهبت لأستقرّ في أورورا بولاية نيو هامبشير. كان ذلك

قبل أشهر قليلة من اندلاع الأحداث المأسوية التي سارويها لكم في طيات هذا الكتاب.



قبل القضية التي هزت أمريكا طوال صيف 2008، لم يكن أحد قد سمع عن أورورا، بلدة صغيرة واقعة على ساحل المحيط، على بعد ربع ساعة من الحدود مع ولاية ماساتشوستس. يضم الشارع الرئيسي صالة سينما - برنامجها متأخر دائماً عن باقي سينمات أمريكا -، بعض المحال التجارية، مكتب بريد، مركز للشرطة، وحفنة من المطاعم، أشهرها كلاركس، وهو المطعم التاريخي للمدينة. أما الأحياء من حوله فهي هادئة، والمنازل مشيدة من ألواح خشبية ملونة ذات نوافذ مزخرفة، تعلوها أسقف حجرية، وتحيط بها حدائق مكسوة بعشب تمّ جزه بعناية. إنها أمريكا داخل أمريكا، حيث السكان لا يقفلون أبواب منازلهم بالمفاتيح، أحد تلك الأماكن التي لا توجد إلا في نيو إنغلاند، هادئة بحيث يعتقد المرء أنها في منأى عن كل شيء.

أعرف أورورا جيداً لكوني أتيت إليها مرات عديدة لزيارة هاري حين كنت تلميذه. كان يسكن في منزل رائع من الحجر وخشب الصنوبر، يقع خارج المدينة على الطريق رقم 1 في اتجاه ولاية مين، ويفترش جزءاً من ساحل المحيط يسمى على الخرائط بـ غوز كوف. إنه منزل كاتب، يطل على المحيط، بشرفة كبيرة للأيام المشمسة، تنطلق منها سلالم تؤدي إلى الشاطئ مباشرة، ويحيط به هدوء بري: غابة ساحلية، ومساحات من الحصى والصخور الضخمة، ويساتين السرخس الرطبة، وبعض الممرات للتنزه على طول الساحل الرملي. وقد نعتقد أننا في أقصى العالم ما لم نكن نعرف أننا على بعد بضعة أميال فقط من الحضارة. وقد نتخيل بسهولة الكاتب العجوز وهو ينتج

أعماله العظيمة جالساً على شرفته، مستمداً إلهامه من تتابع المد والجزر ومن الشمس الغاربة.

يوم 10 فبراير 2008، تركت نيويورك في عز أزمة صفحتي البيضاء، والبلاد منشغلة بالمراحل الأولى للانتخابات الرئاسية: قبل بضعة أيام، كان يوم الثلاثاء العظيم - الذي انعقد على نحو استثنائي في شهر فبراير بدلاً من شهر مارس، ما أنبأ بعام خارج عن المألوف - وقد اختار فيه الحزب الجمهوري السيناتور جون ماكين مرشحاً له، فيما كانت المعركة دائرة في الحزب الديمقراطي بين هيلاري كلينتون وباراك أوباما. قطعت المسافة بالسيارة حتى أوروبا دون توقف. كان فصل الشتاء مثلجاً وكانت المناظر الطبيعية التي تمر من حولي مشبعة باللون الأبيض. كنت أحب ولاية نيو هامبشير، أحب هدوءها وغاباتها الضخمة، والبرك المغطاة بالزنابق حيث نسبح صيفاً ونزلج شتاءً، وأحب فكرة أن المواطن لا يدفع ضريبة على المشتريات ولا ضرائب على الدخل. اعتبرت أنها دولة تحررية وشعارها أن نعيش أحراراً أو نموت، المطبوع على لوحات السيارات التي تجتازني على الطريق، يلخص جيداً الشعور القوي بالحرية الذي كان يجتاحني في كل إقامة لي في أوروبا. وأذكر أنني لدى وصولي إلى منزل هاري في ذلك اليوم، عصر يوم بارد وضبابي، شعرت براحة داخلية فورية. كان ينتظرني تحت سقيفة منزله، متدثراً في معطف شتوي ضخم. ترجلت من السيارة فجاء لملاقاتي، واضعاً يديه على كتفي، وتعلو وجهه ابتسامة عريضة مرحة.

- ماذا أصابك، يا ماركوس؟

- لا أعرف، يا هاري...

- لا بأس، لطالما كنت شاباً حساساً جداً.

وقبل حتى أن أفرغ محتويات حقائبي، جلسنا في غرفة المعيشة لتحدث قليلاً. أعد لنا القهوة. كانت النار ملتهبة في الموقد، فكان

الجو دافئاً في الداخل، فيما رأيت عبر النافذة الزجاجية الكبيرة المحيط هائجاً جرّاء الرياح الثلجية والثلوج الرطبة التي تتساقط فوق الصخور.
- نسيْتُ كم هو جميل المكان هنا، قلت هامساً.
أوماً برأسه.

- سترى يا صغيري ماركوس، سأعتني بك جيداً. وستقدم لنا رواية مدوية. لا تقلق، كل الكُتّاب الموهوبون يمرون بأوقات صعبة كهذه.

بدا مطمئناً وواثقاً من نفسه، كما عرفته دائماً. فأنا لم أره متردداً قط: كان يتمتع بكاريزما نادرة، كما كانت تنبعث من مجرد حضوره سلطة طبيعية. كان في السابعة والستين من عمره ومحتفظاً بهيئة جذابة، شعره فضي كثيف، عريض المنكبين، ذو بنية قوية تدل على ممارسته الطويلة للملاكمة. فهو كان ملاكماً، ومن خلال هذه الرياضة بالتحديد التي وازبت على ممارستها أنا نفسي، تألفنا في جامعة بوروس.

كانت العلاقة التي تجمعني بهاري قوية للغاية، وهو ما سأعود إليه لاحقاً في هذه الرواية. لقد دخل حياتي عام 1998، حين التحقت بجامعة بوروس في ولاية ماساتشوستس. كان في السابعة والخمسين من عمره آنذاك، وكان قد قضى خمسة عشر عاماً كنجم قسم الآداب في هذه الجامعة الريفية المتواضعة الهادئة، والتي ارتادها طلابٌ لطفاء ومهذبون. قبل ذلك، كنت أعرف هاري كبير الكاتب الشهير اسماً فقط، مثلي مثل باقي قرائه. أما في بوروس، فالتقيت بهاري فحسب، شخص سيصبح أحد أقرب أصدقائي رغم فارق السن بيننا، وسيعلمني كيف أصبح كاتباً. فهو نفسه عرف شهرة واسعة في منتصف السبعينات مع صدور كتابه الثاني أصول الشر والذي بيع منه خمسة عشر مليون نسخة ونال عنه الجائزة الوطنية لحلقة النقاد، والجائزة الوطنية للكتاب، وهما الجائزتان الأدبيتان الأكثر أهمية في أمريكا. ومنذ ذلك الحين وهو ينشر كتباً بوتيرة منتظمة ويكتب مقالاً شهرياً في جريدة بوسطن

غلوب يحظى بشعبية كبيرة. كان أحد أبرز المثقفين الأمريكيين: كان يلقي المحاضرات، ويُطلب منه المشاركة في الفعاليات الثقافية البارزة، ويعتد برأيه في الأمور السياسية. كان رجلاً يحظى باحترام كبير وأحد أسباب فخر الأمة؛ أفضل ما يمكن لأمریکا أن تنتجه. وأنا ذاهب لقضاء بضعة أسابيع برفقته، كنت آمل أن ينجح في أن يجعل مني كاتباً من جديد، وأن يعلمني كيف أجتاز هاوية الصفحة البيضاء. لكنني أدركت أنه رغم أن هاري وجد وضعي صعباً بلا شك، إلا أنه لم يعتبره أمراً غير طبيعي. «يعاني الكتاب من فجوات كهذه أحياناً، وهي من مخاطر المهنة. اعمل، وسترى، ستُحل العقدة من تلقاء نفسها». خصّص لي مكتبه في الطابق الأرضي، حيث كتب كل مؤلفاته ومنها أصول الشر، فقضيت فيه ساعات طويلة أحاول الكتابة بدوري، إلا أنني شردت في المحيط والثلوج على الجانب الآخر من النافذة. وحين كان يأتي ليحضر لي فنجاناً من القهوة أو شيئاً لآكله، كان ينظر إلى وجهي اليائس ويحاول أن يرفع من معنوياتي، وانتهى به الأمر في أن يقول لي ذات صباح:

- لا داعي لهذا اليأس يا ماركوس، من يراك يعتقد أنك على وشك الموت.

- الأمر شبيه بذلك...

- دعنا نقلق بشأن سير العالم المضطرب، وبشأن الحرب في العراق، وليس بشأن كتب بائسة... هذا مبكر جداً. أنت مثير للشفقة، أتعرف؟ أنت تثير كل هذه البلبلة لمجرد أنك غير قادر على كتابة بضعة أسطر. فلتنظر إلى الأمور على حقيقتها: لقد ألفت كتاباً رائعاً، وأصبحت ثرياً ومشهوراً، إلا أن كتابك الثاني يخرج من رأسك مع بعض الصعوبة. فما من شيء غريب أو مقلق في هذا الأمر...

- ماذا عنك... ألم تعانِ من هذه المشكلة أبداً؟

انفجر في ضحكة مجلجلة.

- الصفحة البيضاء؟ أتمزح؟ أكثر مما يمكن أن تتخيله، يا صديقي المسكين!

- قال ناشري إنه في حال لم أتمكن من تأليف كتاب جديد الآن، فسأنتهي.

- أتدري ما هو الناشر؟ إنه كاتب فاشل، يمتلك والده ما يكفي من المال ليجعله يشتري مواهب الآخرين. ستري يا ماركوس كيف سيعود كل شيء إلى مجراه سريعاً. فأمامك مسيرة أدبية عظيمة. كان كتابك الأول رائعاً، وسيكون الثاني حتى أفضل من الأول. لا تشغل بالك، سأساعدك على استعادة الإلهام.

لا أستطيع القول إن إقامتي في أورورا أعادت لي الإلهام، لكن لا أنكر أنني شعرتُ فيها بتحسّن ملحوظ. وكذلك الأمر بالنسبة إلى هاري، الذي أعرف عنه أنه غالباً ما يشعر بالوحدة: هو يعيش بلا أسرة وبلا الكثير من وسائل التسلية. قضينا أياماً سعيدة. في الحقيقة، كانت هذه أيامنا السعيدة الأخيرة معاً. قضيناها في نزعات طويلة على ساحل المحيط، وفي الاستماع لأسطوانات الأوبرا العظيمة، وفي المشي على الثلج، وفي حضور الفعاليات الثقافية المحلية، وفي رحلات استكشافية لمتاجر المنطقة، وفي البحث عن النفاق الصغيرة التي تباع لصالح قدامى المحاربين في الجيش الأمريكي، والتي كان هاري مولعاً بها. كما ترددنا كثيراً على مطعم كلاركس لتناول الغداء أو القهوة، لنقضي فيه كل فترة ما بعد الظهيرة وندرش كما كنا نفعل حين كنت تلميذه. كان الجميع في أورورا يعرفون هاري ويحترمونه، كما كانوا يعرفونني أنا أيضاً لكثرة زياراتي آنذاك. وكان أكثر شخصين مقربين إليّ هما جيني داون، صاحبة مطعم كلاركس، وإرني بينكاس، أمين المكتبة البلدية المتطوع المقرب من هاري، والذي كان يأتي أحياناً إلى غوز كوف في آخر النهار ليحتسي كأساً من الويسكي. ذهبت كل صباح إلى المكتبة لأقرأ جريدة نيويورك تايمز، حيث لاحظت في اليوم الأول أن

إرني كان قد وضع نسخة من كتابي في الواجهة بشكل واضح. أشار إليه بفخر قائلاً:

- أترى يا ماركوس، كتابك معروض في الصف الأول. إنه أكثر الكتب استعارة طوال العام الماضي. متى سيصدر كتابك المقبل؟
- في الحقيقة، أجد صعوبة في البدء على العمل عليه. ولهذا السبب أنا هنا.

- لا تشغل بالك، ستجد فكرة رائعة، أنا متأكد من ذلك. ستجد شيئاً مشوقاً.

- مثل ماذا؟

- لا أدري على وجه التحديد، فأنت الكاتب. لكن لا بد أن تجد موضوعاً يلهب الجماهير.

في مطعم كلاركس، كان هاري يشغل الطاولة نفسها منذ ثلاثة وثلاثين عاماً، الطاولة رقم 17، التي ألصقت عليها جيني لوحة معدنية صغيرة كُتب عليها:

على هذه الطاولة أَلَفَ الكاتب هاري

كيبير، في صيف 1975، روايته الشهيرة

أصول الشر.

كنت أعرف هذه اللوحة منذ زمن طويل، إلا أنني لم أعرها أي اهتمام. لكنني تفحصتها عن كثب أثناء هذه الإقامة، متأملاً إياها طويلاً، وسرعان ما أسرتني هذه الكلمات المتتابعة المحفورة في المعدن: وهو يجلس إلى هذه الطاولة الخشبية البائسة اللزجة من جراء الدهون وشراب القيقب، في هذا المطعم بتلك البلدة الصغيرة في نيو هامبشير، كتب هاري عمله الأعظم، ذاك الذي جعل منه أسطورة أدبية. كيف جاء بهذا الإلهام؟ أردت أنا أيضاً أن أجلس إلى هذه

الطاولة وتستحوذ عليّ العبقريّة الإبداعية. فجلست إليها بالفعل طوال
نهارين متتاليين، حاملاً أوراقى وأقلامى، لكن من دون جدوى. سألت
جيني في نهاية المطاف:

- إذاً، أكان يجلس إلى هذه الطاولة ويكتب؟
أومأت برأسها.

- طوال النهار، يا ماركوس، بلا توقف. كان ذلك في صيف
1975، أذكر ذلك جيداً.

شعرت بغضب شديد يلتهمني؛ أردت أنا أيضاً أن أكتب تحفة
أدبية، عملاً يصبح مرجعاً. أدرك هاري ذلك بعد حوالي شهر من
إقامتي في أورورا، حين لاحظ أنني لم أكتب سطرًا واحدًا. دار
المشهد أوائل شهر مارس وأنا أنتظر الوحي الإلهي في مكتب غوز
كوف حيث دخل عليّ هاري مرتدياً مئزراً نسائياً، وحاملاً حلوى أعدها
لتوه.

- هل من تقدّم؟ سألني.

- أنا أكتب شيئاً خارقاً، أجبته وأنا أمد له رزمة الأوراق التي كان
حامل الحقائق الكوبي قد أعطاني إياها قبل ثلاثة أشهر.
وضع الصينية التي كان يحملها وراح يحدّق في الأوراق إلى أن
أدرك أنها ليست سوى صفحات بيضاء.

- أنت لم تكتب شيئاً؟ طوال الأسابيع الثلاثة التي قضيتها هنا، لم
تكتب شيئاً؟
رددت منفعلًا:

- لا شيء! لا شيء! لا شيء يصلح! بضع أفكار لروايات رديئة
فحسب!

- لكن بالله عليك يا ماركوس، ماذا تريد أن تكتب إن لم تكن
رواية؟

رددت دون أن أفكر:

- تحفة أدبية! أريد أن أكتب تحفة أدبية!

- تحفة أدبية؟

- نعم، أريد أن أكتب رواية عظيمة، ذات أفكار عظيمة! أريد أن أولف كتاباً سيؤثر في النفوس.

حدّق فيّ هاري للحظة، ثم انفجر ضاحكاً.

- طموحك اللامحدود يستفزني يا ماركوس، لقد قلت لك ذلك مراراً. أنا أعلم أنك ستصبح كاتباً عظيماً، أنا مقتنع بذلك منذ أن عرفتكَ. لكن أتعلم ما هي مشكلتك؟ إنك متعجل للغاية! كم عمرك بالضبط؟

- سأكمل ثلاثين عاماً قريباً.

- أنت لم تكمل الثلاثين عاماً بعد وتريد أن تصبح نوعاً من المزيج من سول بيلو وآرثر ميلر؟ سيأتي المجد، لا تكن متعجلاً إلى هذا الحد. إنني في السابعة والستين من عمري وأشعر بالذعر: فالوقت يمر بسرعة كبيرة، وكل عام يمر هو عام لا يمكن استعادته. ماذا تعتقد يا ماركوس؟ أنك ستنجز كتابك الثاني بهذه السهولة؟ المسيرة الأدبية تبني يا صاح، وكتابة رواية عظيمة لا تستدعي أفكاراً عظيمة: اكتفِ بأن تكون على سجيتك وستصل بالتأكيد، إنني غير قلق بشأنك. أنا أدرّس الأدب منذ أكثر من عشرين عاماً، وأنت أكثر شخص موهبة قابلته.

- شكراً.

- لا تشكرني، إنها الحقيقة. ولكن لا تأتِ هنا لتنوح كالواهن لأنك لم تفز بجائزة نوبل بعدُ بحق الجحيم! روايات عظيمة! جائزة نوبل للهرءاء، هذا ما تستحقه.

- لكن كيف فعلتها يا هاري؟ كتابك أصول الشر الصادر عام 1976، إنه تحفة أدبية! وكان كتابك الثاني فقط... كيف فعلتها؟ كيف يكتب المرء تحفة أدبية؟

ابتسم ابتسامة حزينة.

- ماركوس، التحف الأدبية لا تُكْتَب. هي توجد من تلقاء نفسها. ويعتبر الكثيرون أنه العمل الوحيد الذي كتبه... إذ لم يلق أي من الكتب الأخرى التي تلتها النجاح نفسه. وحين يتحدث الناس عني، يخطر ببالهم فوراً أصول الشر، وهو لأمر محزن لأنه إذا قيل لي وأنا في الخامسة والثلاثين إنني بلغت قمة مسيرتي الأدبية، فكنت سألقي بنفسي في المحيط! لا تتعجل.

- هل تندم على هذا الكتاب؟

- ربما... قليلاً... لا أدري... فالندم مفهوم لا أحبه: فهو يعني أننا لا نتقبل ما كنا عليه.

- ماذا عليّ أن أفعل الآن؟

- ما فعلته دائماً على أفضل وجه: الكتابة. وإذا كان لي أن أنصحك يا ماركوس، فنصيحتي لك هي ألا تفعل مثلي. نحن متشابهان إلى درجة كبيرة، لذا أتوسل إليك، لا تكرر الأخطاء التي ارتكبتها.

- أي أخطاء؟

- أنا أيضاً، في الصيف الذي أتيت فيه إلى هنا عام 1975، أردت أن أكتب رواية عظيمة، كنت مهووساً بالفكرة والرغبة في أن أصبح كاتباً عظيماً.

- وقد نجحت في ذلك...

- أنت لم تفهم قصدي: أنا اليوم كاتب عظيم كما تقول، لكنني أعيش وحدي في هذا المنزل الكبير. حياتي فارغة، يا ماركوس. لا تفعل مثلي... لا تترك طموحك يلتهمك، وإلا ستعيش بقلب وحيد وقلم حزين. لماذا ليست لديك حبيبة؟

- ليست لدي حبيبة لأنني لم أصادف فتاة أعجبتني حقاً.

- بل أعتقد أنك تتعامل مع العلاقة العاطفية مثلما تتعامل مع

عملك؛ فإما الذروة المتقدمة أو العدم. ابحث عن فتاة لطيفة وامنحها فرصة. وافعل الشيء نفسه مع كتابك: أعط نفسك فرصة أنت أيضاً. أعط حياتك فرصة! أتعلم ما هو انشغالي الأساسي مؤخراً؟ إطعام النوارس. أجمع الخبز الجاف في تلك العلبة المعدنية الموجودة في المطبخ والمنقوش عليها عبارة ذكرى من روكلاند، مين وأرميها للنوارس. لا يتعين عليك أن تكتب طوال الوقت...

رغم النصائح التي حاول هاري أن يقدمها لي، فإنني بقيت مهووساً بهذه الفكرة: كيف استطاع وهو في مثل سني أن يأتيه الإلهام، لحظة العبقرية تلك التي جعلته يكتب أصول الشر؟ أسرني هذا السؤال أكثر فأكثر. وبما أن هاري كان قد أجلسني في مكتبه، سمحت لنفسي أن أتجسس في الأرجاء قليلاً، وما كنت لأتصور ما اكتشفته. بدأ الأمر حين فتحت درجاً باحثاً عن قلم، فوجدت دفترًا مكتوب فيه بخط اليد وبعض الأوراق المبعثرة: مخطوطات لهاري. شعرت بإثارة بالغة، إذ تلك كانت فرصتي لفهم كيفية عمل هاري، ومعرفة ما إذا كانت دفاتره تحوي الكثير من الشطب أم أن الإلهام كان أمراً تلقائياً بالنسبة إليه. رحلت أستكشف مكتبته بنهم شديد، بحثاً عن دفاتر أخرى. كان عليّ انتظار أن يخرج هاري من المنزل كي تخلو لي الساحة، وكان يوم الخميس هو اليوم الذي يدرّس فيه في بوروس، فهو يغادر باكراً في الصباح ولا يعود إلا في نهاية النهار. وهكذا، يوم الخميس 6 مارس 2008، وقع حدث قررت أن أنساه فوراً: اكتشفت أن هاري كان على علاقة بفتاة في الخامسة عشرة من عمرها فيما كان هو في الرابعة والثلاثين. حدث ذلك في منتصف السبعينات.

بعد تفتيش دقيق لرفوف مكتبه، اكتشفت سره حينما وجدت علبة خشبية كبيرة مخبأة وراء الكتب، ومغلقة بغطاء ذي مفصلات. شعرت وكأنني ربحت اليانصيب؛ إذ قد تكون مخطوطة أصول الشر. أمسكت العلبة وفتحتها، لكن لسوء حظي، لم يكن فيها مخطوطة، بل مجموعة

من الصور ومقالات من الصحف. الصور كانت لهاري في شبابه، في سنوات الثلاثينات المبهرة، ظهر فيها أنيقاً ومتباهياً، وبجانب فتاة. كانت هناك أربع أو خمس صور، ظهرت الفتاة فيها كلها. في واحدة منها، نرى هاري على الشاطئ، عاري الصدر، ببشرة برونزية، مفتول العضلات، يضم تلك الفتاة المبتسمة على صدره، وهي تضع نظارات شمسية مثبتة على شعرها الأشقر فيما كان يقبلها على خدها. وعلى ظهر الصورة، كانت هناك عبارة: أنا ونولا، مارثاس فينيارد، آخر شهر يوليو 1975. في تلك اللحظة، مفتون باكتشافي، لم أسمع هاري الذي عاد مبكراً عن مواعده من الجامعة: لم ألاحظ صرير إطارات سيارته الكورفيت على حصى طريق غوز كوف، ولا صوته حين دخل المنزل. لم أسمع شيئاً، إذ كنت قد وجدت داخل العلبة رسالة من دون تاريخ. كتابة طفولية على ورق جميل تقول:

لا تقلق يا هاري، لا تقلق بشأنني، سأندبر أمري
والتحق بك هناك. انتظرني في الغرفة رقم 8، أحب
هذا الرقم، إنه رقمي المفضل. انتظرني في تلك الغرفة
عند الساعة السابعة مساءً. ثم سرحل إلى الأبد.
أحبك كثيراً، قبلاتي

نولا

من تكون نولا تلك؟ أخذتُ أقلب في قصاصات الجرائد وقلبي يخفق: كانت المقالات جميعها تشير إلى الاختفاء المحير لفتاة تدعى نولا كيلرغان، في مساء أحد أيام شهر أغسطس 1975. وكانت نولا الموجودة في صور الصحف هي نولا نفسها الموجودة في صور هاري. في تلك اللحظة، دخل هاري إلى المكتب حاملاً صينية عليها فنجانا قهوة وطبق من البسكويت، أفلتت من يديه حين دفع الباب بقدمه،

ووجدني جاثياً على السجادة ومحتويات الصندوق السري مبعثرة أمامي .

- ما . . . ما الذي تفعله، يا ماركوس؟ صرخ في وجهي .
هل . . . هل تتجسس عليّ؟ أنا أدعوك إلى منزلي وأنت تفتش في أغراضي؟ أي نوع من الأصدقاء أنت؟
انطلقتُ في تبريرات رديئة:

- لقد وجدتُها بالصدفة، يا هاري . وجدت هذه العلبة بالصدفة .
ما كان يجب أن أفتحها . . . أنا آسف .

- ما كان يجب أن تفتحها فعلاً! بأي حق؟! بأي حق بحق
الجحيم؟!

انتزعَ الصور من بين يديّ، وأخذ يللملّم المقالات على عجل ورمى بكل شيء في العلبة وأخذها معه إلى غرفته حيث أغلق على نفسه . لم يسبق لي أن رأيته في هذه الحالة قط، ولم يكن بإمكانني تحديد إن كان ذلك بدافع الهلع أم الغضب . من وراء الباب المغلق، رحّت أعتذر إليه، شارحاً له أنني لم أقصد جرحه وأنني عثرت على العلبة بمحض الصدفة، لكن لم يؤثر فيه أي من ذلك . لم يخرج من غرفته إلا بعد ساعتين ونزل مباشرة إلى غرفة المعيشة ليحتسي بضع كؤوس من الويسكي . وحين بدا لي أنه هداً بعض الشيء، التحقت به .
- هاري . . . من هي تلك الفتاة؟ سألتَه برفق .

أخفض عينيه .

- نولا .

- من هي نولا؟

- لا تسألني من هي نولا . أرجوك .

- هاري، من هي نولا؟ كررت سؤالِي .

أوماً برأسه:

- لقد أحببتها، يا ماركوس . أحببتها كثيراً .

- لكن لماذا لم تخبرني عنها أبداً؟

- إنه أمر معقد...

- لا شيء معقد بين الأصدقاء.

هز كتفيه.

- بما أنك وجدت تلك الصور، فلا مانع في أن أخبرك... في

عام 1975، عند وصولي إلى أورورا، وقعت في حب تلك الفتاة التي لم تكن قد تجاوزت الخمسة عشر عاماً. كان اسمها نولا، وكانت حب حياتي.

صمت لحظة، فسألته، مضطرباً:

- ماذا حدث لنولا؟

- إنها قصة مقبلة، يا ماركوس. لقد اختفت. اختفت في إحدى

ليالي شهر أغسطس من عام 1975، بعد أن رأتها سيدة تسكن في الجوار. إذا فتحت العلبة، فلا بد أنك رأيت المقالات. لم يُعثر عليها أبداً، ولا أحد يعلم ما الذي حدث لها.

- يا للفضاعة!

هز رأسه طويلاً.

- أتعلم، لقد غيرت نولا حياتي. لم يكن ليهمني أن أصبح هاري

كبير العظیم، الكاتب الشهير. لم يكن ليهمني المجد، والمال ومصيري العظیم لو كنت استطعت أن أحتفظ بها. ما من شيء فعلت منذ أن خسرتها أعطى معنى لحياتي مثل ذلك الصيف الذي قضيته معها.

كانت هذه المرة الأولى التي رأيت فيها هاري مهزوماً إلى هذا

الحد. وبعد أن حدّق في وجهي للحظة، أضاف:

- ماركوس... لم يسمع أحد بهذه القصة قط. أنت الوحيد الذي

يعرف شيئاً عنها. وعليك أن تحفظ السر.

- بالتأكيد.

- عدني بذلك!

- أعدك يا هاري . سيكون سرنا .
- إذا علم أحد هنا في أورورا أنني كنت على علاقة بنولا كيلرغان ، فسيعني ذلك نهايتي . . .
- يمكنك أن تثق بي ، يا هاري .

كان هذا كل ما عرفته عن نولا كيلرغان . لم نتكلم عنها مجدداً ، ولا عن العلبة ، وقررت أن أدفن هذه الحلقة في قاع ذاكرتي إلى الأبد ، دون أن يخطر لي أن طيف نولا سيظهر في حياتنا من جديد بعد بضعة أشهر ، إثر سلسلة من الأحداث .

عدت إلى نيويورك في نهاية شهر مارس بعد قضاء ستة أسابيع في أورورا ، دون أن يتسنى لي كتابة روايتي الجديدة العظيمة . كنت على بعد ثلاثة أشهر من موعد التسليم الذي حدده بارناسكي ، وأيقنت أنني لن أستطيع إنقاذ مسيرتي الأدبية . كنت قد حرقت جناحي ، كنت قد دخلت رسمياً مرحلة الانحدار ، وكنت الأكثر بؤساً والأقل إنتاجية من بين كل الكتّاب المرموقين في نيويورك . مرت الأسابيع : كرّستُ معظم وقتي في تحضير فشلي . وجدت وظيفة جديدة لدنيس ، واتصلت ببعض المحامين استعداداً للحظة التي ستقرر فيها شמיד وهانسون ملاحقتي قضائياً ، وأعددت قائمة بالأشياء التي أنا حريص عليها لأخبئها عند والديّ قبل أن يطرق بابي المفوضون القضائيون . وعند بداية شهر يونيو ، الشهر المصيري ، شهر المقصلة ، بدأت أعد الأيام الباقية حتى موتي الأدبي : ثلاثون يوماً ، يليها استدعاء إلى مكتب بارناسكي ، ثم الإعدام . كان العد التنازلي قد بدأ . ولم أتخيّل أبداً أن حدثاً مفاجئاً سيغير الموازين .

المُبهر

«الفصل الثاني مهم جداً، يا ماركوس. يجب أن يكون قاطعاً وصادماً.

- كيف ذلك يا هاري؟

- كما في الملاكمة. أنت أيمن، لكن في وضع التأهب، دائماً ما تكون قبضتك اليسرى إلى الأمام: الضربة المباشرة الأولى تباغت خصمك، فتليها سلسلة قوية من اللكمات باليمنى تطرحه أرضاً. هذا ما يجب أن يكون عليه فصلك الثاني: ضربة بالقبضة اليمنى في فك قُرْائِك».

حدث ذلك يوم الخميس 12 يونيو 2008. كنت قد قضيت فترة الصباح في منزلي، أقرأ في غرفة المعيشة. كانت تمطر في الخارج رغم حرارة الجو: كانت نيويورك تُرَشُّ بالرذاذ طوال الأيام الثلاثة الأخيرة. في حوالي الساعة الواحدة ظهراً، رن الهاتف. أجبت على المكالمة، لكن لم أسمع صوت أحد على الجانب الآخر من الخط، ثم ميزت شهيقاً مكتوماً.

- ألو؟ ألو؟ من هذا؟

- لقد... لقد ماتت.

كان صوته بالكاد مسموعاً، لكنني ميّزته فوراً.

- هاري؟ هاري، أهذا أنت؟

- لقد ماتت، يا ماركوس.

- ماتت؟ من هي؟

- نولا.

- ماذا؟ وكيف حدث ذلك؟

- لقد ماتت، وأنا المسؤول، يا ماركوس... ماذا فعلت؟ يا

إلهي، ماذا فعلت؟

كان يبكي.

- عمّ تحدثني، يا هاري؟ ما الذي تحاول قوله؟

أغلق الخط، فطلبته في منزله، لكنه لم يجب. ثم اتصلت على هاتفه المحمول، لكن دون جدوى. كررت المحاولة عدة مرات تاركاً رسائل عديدة على مجيبه الآلي. لكن لم يجبني أحد. كنت قلقاً جداً. لم أكن أعلم حينذاك أنه في تلك اللحظة، كان هاري قد طلبني من المركز الرئيسي للشرطة في كونكورد. لم أفهم شيئاً مما كان يحدث إلى أن اتصل بي دوغلاس في حوالي الساعة الرابعة.

- مارك! هل أنت على علم بما يحدث؟

- على علم بماذا؟

- شغل التلفاز! الأمر يخص هاري كبير! إنه كبير!

- كبير؟ ما الذي حدث لكبير؟

- شغل تلفازك بحق الجحيم، يا ماركوس!

شغلته فوراً على قناة إخبارية، ورأيت مذهولاً صوراً لمنزل غوز كوف وسمعت المذيع يشرح: هنا في منزله بأورورا، في ولاية نيو هامبشير، ألقى القبض اليوم على الكاتب هاري كبير بعد أن استخرجت الشرطة رفاتاً بشرية من حديقته. ووفقاً للشواهد الأولى، يُعتقد أنها جثة نولا كيلرغان، فتاة من المنطقة في الخامسة عشرة، اختفت من منزلها في أغسطس من العام 1975، ولم يعرف أحد ما حدث لها... دار كل شيء من حولي فجأة، فارتميت على الأريكة في حالة ذهول تام. لم أعد أسمع شيئاً: لا التلفاز ولا دوغلاس على الجانب الآخر من الخط الذي كان يصرخ: «ماركوس؟ ماركوس... أما زلت هنا؟ ألو؟ هل قتل تلك الصبية؟ هل قتلها؟». اختلط كل شيء في رأسي كما لو كان حلماً سيئاً.

وهكذا عرفت، مثلي مثل باقي أمريكا المذهولة، ما حصل قبل بضع ساعات: في الصباح، جاءت شركة متخصصة في أعمال البستنة إلى غوز كوف بناء على طلب من هاري، لزرع شتلات من الكوبية بالقرب من المنزل. وأثناء حرث التربة، اكتشف البساتنة عظاماً بشرية

على عمق متر وأبلغوا الشرطة فوراً. وسرعان ما أخرجوا هيكلاً عظيماً كاملاً، فألقي القبض على هاري.

تالت الأحداث بسرعة على التلفاز. تناوب النقل المباشر بين أورورا حيث مسرح الجريمة وكونكورد، عاصمة نيو هامبشير التي تقع على بعد ستين ميلاً في الشمال الغربي، حيث كان هاري محتجزاً في مبني قسم التحقيقات الجنائية لشرطة الولاية. كانت فرق من الصحفيين قد أرسلت إلى المكان وتتابع التحقيقات عن كثب. وكان هناك كلام عن العثور على دليل مع الجثة جعل المحققين يعتقدون أنها جثة نولا كيلرغان، وصرح مسؤول في الشرطة أنه في حال تثبت الخبر، فسيعني ذلك أيضاً أنه سيوجه إصبع الاتهام إلى هاري ككير كمشتبه فيه في مقتل ديبورا كوبر، وهي آخر من شاهد نولا على قيد الحياة يوم 30 أغسطس 1975، والتي عُثر عليها مقتولة في اليوم نفسه، بعد أن اتصلت بالشرطة. كان أمراً لا يُصدق. انتشرت الإشاعات بسرعة هائلة، وعبرت الأخبار أمريكا من خلال التلفاز، والراديو، ووسائل التواصل الاجتماعي: هاري ككير البالغ من العمر سبعة وستين عاماً، وأحد أهم كُتّاب النصف الثاني من القرن العشرين، كان قاتل صبية حقيراً.

استغرق مني الأمر بعض الوقت لأستوعب ما كان يجري: عدة ساعات ربما. وفي الثامنة مساءً، وبدافع القلق عليّ، أتى دوغلاس إلى منزلي ليطمئن أنني متماسك، وأني لا أزال مقتنعاً أن كل هذا مجرد خطأ كبير.

- كيف يتهمونه بجريمتي قتل في حين أنهم ليسوا متأكدين أنها جثة نولا هذه!

- على كل حال، كانت هناك جثة مدفونة في حديقته.
- ولكن لماذا قام بحفر المكان الذي يفترض أنه دفن فيه الجثة؟
هذا غير منطقي! عليّ أن أذهب!
- إلى أين؟

- إلى نيو هامبشير. يجب عليّ أن أدافع عن هاري.
فردّ عليه دوغلاس بالحس العملي الذي يمتاز به سكان الغرب الأوسط:

- إياك يا ماركوس، لا تذهب إلى هناك. لا تغرق نفسك في هذا الوحل.

- لقد اتصل بي هاري...

- متى؟ اليوم؟

- في حوالي الساعة الواحدة ظهراً. أعتقد أنها كانت المكالمة الوحيدة التي يحق له بها. يجب أن أذهب لأسانده! إنه أمر مهم.

- مهم؟ ما هو مهم هو كتابك الثاني. أتمنى ألا تكون قد خدعتني، وأن تكون لديك مخطوطة لتقدمها في نهاية الشهر. بارناسكي على وشك التخلي عنك. هل تعي ما سيحدث لهاري؟ لا ترمي بنفسك في ذلك المستنقع، يا ماركوس. أنت في عز شبابك! لا تخرب مسيرتك.

لم أجب. على شاشة التلفاز، كان مساعد المدعي العام قد قدّم نفسه أمام جمع من الصحفيين، ثم قام بتعداد الاتهامات الموجهة إلى هاري: الخطف وجريمتا قتل. كان هاري رسمياً متهماً بقتل ديورا كوبر ونولا كيلرغان، أي كان يواجه عقوبة الإعدام.

لم يكن ذلك سوى بداية سقوط هاري. ففي اليوم التالي، عُرضت صور الجلسة الأولى في كل أمريكا. في عدسات عشرات الكاميرات التابعة للقنوات التلفزيونية، وتحت زخات الفلاش، رآه الناس وهو يصل إلى قاعة المحكمة، مكبل اليدين ومحاطاً برجال الشرطة. كان مظهره بائساً: وجهه قاتم، ذقنه غير حليق، شعره أشعث، أززار قميصه مفتوحة، وعيناه متورمتان. كان بنجامين روث، محاميه، إلى جانبه. كان روث محامياً مشهوراً في كونكورد، وكنت أعرفه لكوني التقيت به بضع مرات في غوز كوف.

وهكذا سمحت معجزة التلفاز لأمريكا بمتابعة، بالبت المباشر، هذه الجلسة التي أقر فيها هاري أنه غير مذنب فيما يتعلق بالجرائم التي اتُهم بها، وأمر فيها القاضي بحبسه مؤقتاً في السجن المركزي للرجال بولاية نيو هامبشير. ولم يكن ذلك سوى بداية العاصفة؛ ففي تلك اللحظة، كنت لا أزال آمل بمخرج سريع، لكن بعد انتهاء الجلسة بساعة، تلقيت اتصالاً من بنجامين روث.

- أعطاني هاري رقم هاتفك، قال لي. وأصر على أن أهاثفك، فهو يريد أن يقول لك إنه بريء وإنه لم يقتل أحداً.

- أعرف أنه بريء! أجبت. أنا واثق من ذلك. كيف حاله؟

- سيئ، كما يمكنك أن تتخيل. لقد ضغط عليه رجال الشرطة، فاعترف أنه كان على علاقة بنولا في الصيف الذي سبق اختفاءها.

- كنت على علم بشأن نولا، ولكن ماذا عن الباقي؟

تردد روث للحظة ثم أجاب:

- إنه ينكر، لكن...

توقف.

- لكن ماذا؟ سألته وقد انتابني القلق.

- لا أخفي عليك يا ماركوس أن الأمر سيكون صعباً. فما لديهم هو من العيار الثقيل.

- ماذا تعني بالعيار الثقيل؟ تكلم بحق الجحيم! يجب أن أعرف!

- شرط أن يبقى الأمر بيننا، وألا يعرفه أحد.

- لن أقول شيئاً، يمكنك أن تثق بي.

- لقد عثر المفتشون على مخطوطة أصول الشر مع جثة الفتاة.

- ماذا؟

- كما أقول لك: كانت مخطوطة هذا الكتاب اللعين مدفونة مع

الفتاة. هاري في ورطة حقيقية.

- هل قدّم أي تفسير لذلك؟

- نعم، قال إنه أَلَف هذا الكتاب من أجلها. وإنها كانت تقضي الكثير من وقتها عنده في غوز كوف، وإنها كانت تستعير أوراقه للقراءة أحياناً. قال إنها أخذت المخطوط معها قبل اختفائها ببضعة أيام.

- ماذا؟ صرخت قائلاً. هل أَلَف هذا الكتاب من أجلها؟

- نعم. لا ينبغي لهذا الخبر أن يذاع. يجب تجنب ذلك بأي ثمن! تخيل الفضيحة إذا عرفت وسائل الإعلام أن أحد أكثر الكتب مبيعاً في أمريكا خلال الخمسين سنة الماضية ليس قصة حب عادية كما تخيل الجميع، بل ثمرة علاقة عاطفية غير شرعية بين رجل في الرابعة والثلاثين وصبية لا يتجاوز عمرها الخامسة عشرة...

- أعتقد أن بإمكانك أن تُخلي سبيله بكفالة؟

- بكفالة؟ أنت لم تدرك خطورة الوضع، يا ماركوس! لا وجود للكفالة بالنسبة إلى الجرائم التي يُعاقَب عليها بالإعدام. هاري يواجه عقوبة الإعدام بالحقنة القاتلة. في غضون عشرة أيام، سيمثل أمام لجنة عليا ستبت في شأن متابعة الاتهامات الموجهة إليه ومحاكمته. هو إجراء شكلي غالباً، ولا شك أنها ستكون هناك محاكمة.

- وفي هذه الأثناء؟

- سيبقى في السجن.

- لكن ماذا لو كان بريئاً؟

- إنه القانون. أكرر، الوضع خطير جداً. فهو متهم بقتل شخصين.

سقطت منهاراً على الأريكة. كان عليّ أن أتحدث إلى هاري.

- اطلب منه أن يتصل بي! الأمر مهم جداً! قلت ملحاً على روث.

- سأوصل له الرسالة...

- قل له إنه من الضروري أن أتحدث إليه وإنني أنتظر اتصاله!

بعد أن أغلقت الخط، أخرجت فوراً أصول الشر من مكتبتني . في
الصفحة الأولى ، كان الإهداء من الأستاذ:

إلى ماركوس ، تلميذي الأكثر تألقاً .

مع كل صداقتي

هـ . ل . كبير ، مايو 1999

غصت من جديد في هذا الكتاب الذي لم أكن قد فتحت منذ
سنوات . كانت قصة حب تمزج بين السرد والمراسلة ؛ قصة رجل
وامرأة يحب أحدهما الآخر من دون أن يكون لهما الحق في ذلك .
وهكذا إذاً ، كان قد ألّف هذا الكتاب من أجل هذه الفتاة الغامضة التي
لم أكن أعرف عنها شيئاً بعد . وحين انتهيت من قراءته في ساعة متأخرة
من الليل ، توقفت مطولاً عند العنوان . ولأول مرة ، تساءلت عن معناه :
لماذا أصول الشر؟ عن أي شر تحدث هاري؟

*

مرّ يومان ، وفي أثنائهما أكّد تحليلُ الحمض النووي وبصمةُ
الأسنان أن الهيكل العظمي المستخرج من غوز كوف كان لنولا
كيلرغان فعلاً . كما أن فحص العظام أثبت أنها لطفل في حوالي
الخامسة عشرة ، ما أشار إلى أن نولا توفيت لحظة فترة اختفائها تقريباً .
وأكد كسرٌ في مؤخرة رأسها ، ثلاثون عاماً بعد الأحداث ، أن الضحية
توفيت إثر ضربة ، على الأقل ، كانت قد تلقفتها على رأسها : كانت نولا
كيلرغان قد ضُربت حتى الموت .

لم أتلّق أي خبر من هاري ، فحاولت أن أتواصل معه عن طريق
الشرطة ، وعن طريق السجن ، وكذلك روث ، لكن من دون جدوى .
كنت أطوف في شقتي ، تطاردني آلاف الأسئلة ، وتستحوذ عليّ مكالمته
الغامضة . وفي نهاية عطلة آخر الأسبوع ، لم أعد أحتمل أكثر من ذلك ،

فاعتبرت أنه لم يكن لدي من خيار سوى الذهاب لمعاينة ما يحدث في نيو هامبشير.

في ساعة مبكرة من يوم الاثنين 16 يونيو 2008، وضعت أمتعتي في صندوق سيارتي الرينج روفر وغادرت مانهاتن عبر طريق فرانكلين روزفلت المحاذي لمضيق إيست ريفر. مررت بنيويورك: هارلم ثم البرونكس قبل أن أنعطف عند الطريق I-95 في اتجاه الشمال. ولم أخبر والديّ بأنني في طريقي إلى نيو هامبشير إلا بعد أن قطعت مسافة طويلة في ولاية نيويورك، كي لا أغامر بالتراجع والعودة إلى منزلي مثل الطفل الطيع. بحسب أمي، كان ذلك ضرباً من الجنون:

- ما الذي تفعله، يا ماركى؟ هل ستذهب لتدافع عن هذا المجرم الهمجي؟

- إنه ليس مجرمًا، يا أمي. إنه صديق.
- أصدقائك مجرمون إذًا! أبوك بجواري ويقول إنك تهرب من نيويورك بسبب الكتب.

- أنا لا أهرب.
- تهرب بسبب امرأة إذًا؟

- قلت لك إنني لم أكن أهرب. وليس لدي صديقة هذه الأيام.
- ومتى سيكون لك صديقة؟ لقد فكرتُ ثانية في ناتالي تلك التي قدّمتهَا لنا العام الماضي. كانت فتاة لطيفة، لم لا تتصل بها؟
- كنت تكرهينها.

- ولماذا لم تعد تولّف الكتب؟ كان الجميع يحبونك حين كنت كاتباً مرموقاً.

- ما زلت كاتباً.
- عد إلى المنزل. سأعد لك الهوت دوغ وكعكة التفاح الساخنة مع آيس كريم بالفانيليا ستتركه ليسيح عليها.

- أمي، أستطيع أن أحضر الهوت دوغ لنفسني إذا أردت.
- تخيل، لم يعد مسموحاً لأبيك أكل الهوت دوغ. الطيب هو من قال له ذلك. (سمعت أبي يئن في الخلفية أنه يحق له أكل الهوت دوغ من وقت لآخر، وأمي تكرر له: «انتهى زمن الهوت دوغ وكل هذه اللحوم المصنعة!»). ماركسي حبيبي؟ يقول أبوك إنه ينبغي أن تكتب كتاباً عن كبير. وإن هذا سيعيد إحياء مسيرتك الأدبية. ما دام الجميع يتحدث عن كبير، فالجميع سيتحدث عن كتابك. لماذا لم تعد تأتي لتناول العشاء عندنا، يا ماركسي؟ أنت لم تأت منذ وقت طويل. ألم تشق إلى كعكة التفاح اللذيذة؟

بعد أن عبرت ولاية كونيتيكت، قطعت موسيقى الأوبرا التي كنت أستمع إليها لأنصت إلى الأخبار في الراديو، فعرفت بوجود تسريب صدر من الشرطة نفسها: لقد علمت وسائل الإعلام بأمر مخطوطة أصول الشر التي عُثِر عليها مع رفات نولا كيلرغان، وأن هاري قد اعترف بأن علاقته بها ألهمته موضوع الكتاب. وفي غضون صباح واحد، كانت هذه التطورات الجديدة قد لفت البلاد بأكملها. ففي متجر إحدى محطات الوقود التي توقفت فيها بعد تولاند بقليل، وجدت عامل المحطة متسماً أمام شاشة تلفاز تروي هذه الأخبار على مدار الساعة. وقفت إلى جانبه وطلبت منه أن يرفع الصوت، فسألني وهو ينظر إلى وجهي المذعور:

- ألا تعلم ما جرى؟ الجميع يتحدث في الأمر منذ ساعات. أين كنت؟ في كوكب المريخ؟

- بل في سيارتي.

- أها... أوليس لديك مذياع في سيارتك؟

- كنت أستمع إلى موسيقى الأوبرا، فهي تجدد أفكارني.

حدّق في وجهي للحظة.

- أنا أعرفك، أليس كذلك؟

- كلا .
- يبدو لي أنني أعرفك . . .
- وجهي مألوف فحسب .
- كلا ، أنا متأكد أنه سبق لي أن رأيتك . . . أنت ممن يظهرون في التلفاز ، أليس كذلك؟ ممثلاً؟
- كلا .
- ما هو مجال عملك؟
- أنا كاتب .
- أجل! اللعنة! لقد بعنا كتابك هنا العام الماضي . أتذكر ذلك جيداً ، كانت صورتك على الغلاف .
- تسلل بين الأرفف باحثاً عن الكتاب ، الذي لم يعد هناك بطبيعة الحال . وتذكر أخيراً نسخة في المخزن فعاد بها منتصراً .
- ها هو ذا ، إنه أنت! انظر ، إنه كتابك . ماركوس غولدمان ، اسمك مكتوب أعلى الغلاف .
- هذا صحيح .
- إذأ ، ما جديدك سيد غولدمان؟
- ليس بالكثير في الحقيقة .
- وإلى أين أنت ذاهب؟ إذا كان لي أن أسأل!
- إلى نيو هامبشير .
- مكان رائع ، خاصة في الصيف . ماذا ستفعل هناك؟ ستصطاد؟
- نعم .
- ماذا ستصطاد؟
- سأصطاد المتاعب على ما أظن . فأنا ذاهب لألتحق بصديق يواجه بعض المشاكل . مشاكل خطيرة .
- لا يمكن أن تكون بخطورة مشاكل هاري كبير!

انفجر ضاحكاً ثم صافحني بحرارة «لأنه قلّما نلتقي بالمشاهير هنا»، ثم قدّم لي كوباً من القهوة للطريق.

هزت الأخبار الرأي العام: لم تجرّم المخطوطة التي عُثِرَ عليها مع رفات نولا هاري فحسب، إنما الكشف عن أن مصدر إلهام هذا الكتاب كان قصة حب مع صبية في الخامسة عشرة من عمرها تسبب في استياء عارم. ما هو الشعور الذي أثاره هذا الكتاب في نفوس القراء الآن؟ هل قامت أمريكا بتمجيد مُخادع من خلال وضع هاري في مصاف الكُتّاب النجوم؟ وعلى خلفية هذه الفضيحة، راح الصحفيون يضعون الفرضيات المختلفة عن الأسباب التي قد تكون دفعت هاري لقتل نولا كيلرغان. هل هددته بكشف علاقتهما؟ هل أرادت أن تضع حداً لعلاقتها ففقد صوابه؟ لم أستطع منع نفسي من التفكير في كل هذه الأسئلة طوال الطريق، وصولاً إلى نيو هامبشير. حاولت تشتيت ذهني من خلال الانتقال من الراديو إلى الأوبرا من جديد، لكن كل النغمات ذكرتني بهاري، وما إن فكرت فيه حتى فكرت في تلك الصبية الراقدة تحت الأرض منذ ثلاثين عاماً، في جوار هذا المنزل الذي قضيت فيه أجمل سنوات حياتي.

بعد خمس ساعات من السير بالسيارة، وصلت أخيراً إلى غوز كوف. توجهت إلى هناك دون تفكير: لماذا أتيت إلى هنا بدلاً من الذهاب إلى كونكورد لمقابلة هاري وروث؟ رأيت شاحنات البث التلفزيوني مركونة إلى جانب الطريق 1، فيما وقف الصحفيون عند التقاطع مع طريق الحصى الصغير المؤدي إلى المنزل، ينقلون الأخبار بالبيت المباشر عبر القنوات التلفزيونية. وفي اللحظة التي أردت الانعطاف فيها، هرعوا جميعاً إلى سيارتي وقد سدّوا الطريق ليروا من في السيارة. تعرّف أحدهم عليّ فصاح: «هيه... إنه ذلك الكاتب، إنه ماركوس غولدمان!». زاد الحشد هيجاناً والتصقت عدسات الكاميرات

على زجاج السيارة وسمعتهم يصيحون موجهين إليّ الأسئلة: «هل تعتقد أن هاري كبير قتل تلك الفتاة؟». «أكنت تعلم أنه كتب أصول الشر من أجلها؟». «هل يجب سحب هذا الكتاب من السوق؟». لم أرغب في الإدلاء بأي تصريح، فتركت نوافذ السيارة مغلقة ونظارتني الشمسية مثبتة على عيني. ونجح رجال شرطة أورورا، الموجودون على الأرض لتنظيم جموع الصحفيين والفضوليين، في إفراح ممر لأعبر منه، فاستطعت أن أختفي على الطريق، محاطاً بشجيرات التوت وأشجار الصنوبر. سمعت أيضاً بعض الصحفيين يصيحون متوجهين إليّ: «سيد غولدمان، لماذا أتيت إلى أورورا؟ ماذا تفعل في منزل هاري كبير؟ سيد غولدمان، لماذا أنت هنا؟».

لماذا كنتُ هنا؟ لأن الأمر متعلق بهاري. لأنه كان صديقي المفضل ربما. لأن مهما بدا ذلك غريباً، كان أعز صديق على قلبي. ففي سنوات المدرسة الثانوية والجامعة، لم أكن قادراً على إقامة علاقات مقربة مع مَنْ هم في سني، من نوع الصداقات التي تدوم طوال الحياة. لم يكن لديّ سوى هاري في حياتي، والغريب أنني لم أكن مهتماً بمعرفة ما إذا كان مذنباً أم لا، إذ لن يغير الجواب على هذا السؤال شيئاً في شعور الصداقة العميقة التي كنت أكنّها له. كان شعوراً غريباً: ظننت أنني لو كرهته وبصقت في وجهه مثل باقي البلاد، لكان الأمر أسهل. لكن هذه القضية لم تؤثر في مشاعري تجاهه بشيء. ففي أسوأ الحالات قلت في نفسي، إنه رجل، والرجال لديهم شياطينهم. الجميع لديهم شياطينهم. تتلخص المسألة في معرفة إلى أي حد تبقى هذه الشياطين مقبولة.

ركنت السيارة في الموقف المفروش بالحصى، إلى جانب المدخل. كانت سيارته الكورفيت الحمراء مركونة هناك كالعادة، أمام الملحق الصغير الذي يُستخدم كمرآب. كما لو أن صاحب المنزل كان في الداخل، وأن كل شيء كان على ما يرام. أردت أن أدخل المنزل،

لكن الباب كان مقفلاً بالمفتاح. كانت هذه على ما أذكر أول مرة قاومني فيها الباب. جلست حول المنزل؛ لم يكن هناك أي رجال شرطة، لكن كانت هناك شرائط تحول دون الوصول إلى الجزء الخلفي من المنزل. اكتفيت، من بعيد، بتأمل المساحة الشاسعة التي حظرتها الشرطة، والتي وصلت إلى حدود الغابة. كانت هناك حفرة كبيرة تدل على الحفريات التي قامت بها الشرطة، على مقربة من نباتات الكوبية الملقاة على الأرض، والتي كان من المفترض أن تُزَرَع هناك.

قضيت على الأرجح ما يقارب الساعة في تأملي هذا، قبل أن أسمع صوت سيارة من خلفي. كان روث، آتياً من كونكورد. كان قد رأيَني على التلفزيون فانطلق فوراً لمقابلتي. تلك كانت كلماته الأولى:

- لقد جئت إذا؟

- نعم، لماذا؟

- قال لي هاري إنك ستأتي. قال إنك عنيد من الدرجة الأولى، وإنك ستأتي لتحشر أنفك في الملف.

- هاري يعرفني جيداً.

فتش روث في جيب سترته وأخرج ورقة صغيرة.

- لقد أرسل لك هذه.

فتحت الورقة التي حملت رسالة مكتوبة بخط اليد.

عزبي ماركوس

إذا كنت تقرأ هذه السطور، فهذا يعني أنك جئت إلى نيو هامبشير لتتبع أخبار صديقك القديم.

أنت شخص شجاع. أنا لم أشك في ذلك يوماً.

أقسم لك هنا أنني بريء من الاتهامات المنسوبة إليّ.

ومع ذلك، أعتقد أنني سأقضي بعض الوقت في

السجن، ولديك ما هو أهم من هذه القضية لتشغل

نفسك به. اهتم بمسيرتك الأدبية، واهتم بروايتك التي
يجب أن تسلمها لناشرك في نهاية الشهر. فمسيرتك هي
الأهم في نظري. لا تضيع وقتك معي.
تحياتي

هاري

ملاحظة: في حال أردت رغم ذلك أن تبقى في نيو
هامبشير لبعض الوقت، أو تأتي إليها من وقت لآخر،
فأنت تعلم أنك في ديارك في غوز كوف. تستطيع أن
تمكث فيها قدر ما تريد. ولا أطلب منك إلا خدمة
واحدة: أن تُطعم النوارس. ضع خبزاً على الشرفة.
أطعم النوارس، هذا أمر مهم.

- لا تتخلَّ عنه، قال لي روث. هاري بحاجة إليك.
أومات برأسي.

- كيف تبدو الأمور بالنسبة إليه؟

- سيئة. هل سمعت الأخبار؟ الجميع على علم بأمر الكتاب.
إنها كارثة. كلما تلقيت خبراً جديداً، زادت حيرتي في كيفية دفاعي
عنه.

- ما هو مصدر التسيريات؟

- من مكتب المدعي العام على ما أعتقد. يريدون زيادة الضغط
على هاري من خلال تحريض الرأي العام. يريدون اعترافات كاملة،
فهم يدركون أن في قضية قديمة كهذه تعود إلى أكثر من ثلاثين سنة، لا
شيء يضاهي الاعترافات.

- متى يمكنني أن أراه؟

- ابتداءً من صباح غد. يقع السجن المركزي عند مخرج
كونكورد. أين ستمضي إقامتك؟

- هنا، إذا كان هذا ممكناً.
- أشك في ذلك. لقد فتش رجال الشرطة المنزل، وهو مسرح جريمة الآن.
- أليس مسرح الجريمة هناك، حيث توجد الحفرة؟
- ذهب روث لتفقد باب المدخل، ثم دار حول المنزل قبل أن يعود إليّ وعلى وجهه ابتسامة.
- أنت تصلح لتكون محامياً، يا غولدمان. المنزل ليس مختوماً بالشمع الأحمر.
- أيعني هذا أنه يحق لي الإقامة فيه؟
- بل يعني أن ليس هناك ما يمنع إقامتك فيه.
- لست متأكداً من أنني فهمت.
- هذه روعة القانون في أمريكا، يا غولدمان. حين لا يكون هناك قانون، يمكنك أن تخترعه. وفي حال تمت مضايقتك، يمكنك اللجوء إلى المحكمة العليا التي ستنصرك وستصدر قراراً باسمك: غولدمان ضد ولاية نيو هامبشير. هل تدري لماذا تقرأ لك الشرطة حقوقك حين يتم توقيفك في هذه البلاد؟ لأنه في الستينات، حُكِمَ على شخص يدعى إرنستو ميراندا بتهمة الاغتصاب بناء على اعترافاته. ولك أن تتخيل أن محاميه جادل أن ميراندا المسكين لم يذهب إلى المدرسة، وبالتالي لم يكن يعلم أن شرعة الحقوق تخوله بعدم الاعتراف. أثار محاميه ضجة كبيرة، ولجأ إلى المحكمة العليا، وكسب هذا الأخرق القضية في نهاية المطاف! فتم إبطال الاعترافات، وبات قرار المحكمة في قضية ميراندا ضد ولاية أريزونا شهيراً جداً، ومنذ ذلك الحين، من واجب رجال الشرطة أن يتلوا عليك ما يلي عند توقيفك: «لديك الحق في التزام الصمت ولديك الحق في الحصول على محام. وإذا كنت لا تستطيع تحمّل تكاليف محام، فسيتم تعيين محام لك مجاناً». باختصار، هذا الخطاب الذي نسمعه في الأفلام، نحن مدينون به لصديقنا إرنستو!

وفي الخلاصة، إن العدالة في أمريكا هي عمل جماعي يا سيد غولدمان: بإمكان الجميع أن يشارك فيه. استقر في هذا المكان إذاً، إذ لا شيء يمنعك من ذلك، وفي حال أتت الشرطة وحشرت نفسها في الأمر، قل لهم إن هناك فراغاً قانونياً، واذكر المحكمة العليا وهددهم بالمطالبة بتعويضات ضخمة، فدائماً ما ينجح ذلك. لكن من جهة أخرى، مفاتيح المنزل ليست بحوزتي.

أخرجت مجموعة مفاتيح من جيبي.

- كان هاري قد ائتمني عليها منذ فترة.

- غولدمان، إنك ساحر! لكن أرجوك لا تعبر الشرائط التي وضعتها الشرطة، وإلا سنواجه المشاكل.

- أعدك ألا أفعل. على فكرة، عمّ أسفر تفتيش المنزل؟

- لا شيء، لم تجد الشرطة شيئاً. ولهذا السبب، لم يُمنع الدخول إلى المنزل.

غادر روث، ودخلتُ أنا إلى هذا المنزل الكبير المقفر. أقفلت الباب خلفي وتوجهت إلى المكتب مباشرة لأبحث عن العلبة الشهيرة. لكنها لم تعد موجودة هناك. ماذا يمكن أن يكون هاري فعل بها؟ كنت مصمماً على أن أعثر عليها، فرحت أفتش مكاتب المكتب وغرفة المعيشة، لكن دون جدوى. قررت أن أبحث في كل غرفة من المنزل، على أمل أن أجد ما قد يساعدني على فهم ما حدث هنا عام 1975. هل قُلت نولا كيلرغان في إحدى هذه الغرف؟

انتهى بي المطاف إلى العثور على بعض ألبومات الصور لم يسبق لي أن رأيتها أو لاحظتها من قبل. فتحت واحداً منها عشوائياً ووجدت فيه صوراً لي ولهاري من أيام الجامعة. في قاعات المحاضرات، في صالة الملاكمة، في الحرم الجامعي، في ذلك المطعم الذي اعتدنا أن نلتقي فيه. كانت هناك أيضاً صور من حفل تخرجي. وكان الألبوم التالي مليئاً بقصاصات الصحف عني وعن كتابي. كانت بعض المقاطع

محاطة باللون الأحمر أو مظلمة بقلم فلوري؛ أدركت حينذاك أن هاري لطالما تابع مسيرتي بكثير من الاهتمام، محتفظاً بعناية بكل ما تعلق بها. عثرت حتى على مقتطف من جريدة مونتكليير يعود إلى أكثر من عام ونصف العام يصف الاحتفال الذي نظمته على شرفي مدرستي الثانوية في فيلتون. كيف حصل على هذا المقال؟ أتذكر جيداً ذلك اليوم، كان قبل أعيد الميلاد بقليل، في عام 2006: كانت مبيعات روايتي الأولى قد تخطت المليون نسخة، فقرر مدير المدرسة، فخوراً بما حققته من نجاح، تكريمي تكريماً مستحقاً.

افتتح الاحتفال مع ضجة كبيرة بعد ظهيرة يوم سبت في القاعة الرئيسية للمدرسة، أمام حشد مختار من الطلبة، والطلبة القدامى، وصحافيين محليين. كانوا كلهم جالسين على كراسي قابلة للطي أمام ستارة كبيرة أزاحها المدير بعد خطبة عصماء، كاشفاً عن خزانة زجاجية منقوش عليها عبارة تكريماً لماركوس غولدمان، الملقب بـ «المبهر»، تلميذ هذه المدرسة من 1994 إلى 1998، وفي داخلها نسخة من روايتي، وبطاقات درجاتي القديمة، وبعض الصور، وقيص رياضة الكروس الخاص بي وقيص سباق الركض.

ابتسمت وأنا أعيد قراءة المقال. كانت إنجازاتي في مدرسة فيلتون الثانوية، ذلك المبنى الصغير الهادئ شمال مونتكليير المليئ بالمراهقين الوديعين، قد طُبعت في أذهان زملائي وأساتذتي لدرجة أنهم لقبوني بـ «المبهر». لكن في ذلك اليوم من ديسمبر 2006، ما كان الجميع يجهله وهم يصفقون لي أمام تلك الواجهة الزجاجية التي تعرض أمجادتي، هو أن كوني أصبحت نجم المدرسة لأربع سنوات متتالية، كان نتيجة سلسلة من حالات سوء الفهم، غير المقصودة في البداية، ثم المخطط لها بمكر من قبلي بعد ذلك.

بدأت ملحمة «المبهر» في سنتي الأولى بالثانوية، حين تعيّن عليّ اختيار رياضة كجزء من مقرري الدراسي. أردت أن تكون كرة القدم أو

كرة السلة، لكن عدد اللاعبين في هذين الفريقين كان محدوداً، ولسوء حظي، وصلت متأخراً جداً إلى مكتب التسجيل. «لقد أغلقت المكتب، قالت لي الموظفة البدينة المسؤولة عن التسجيلات، عُد في العام المقبل. - من فضلك يا سيدتي، قلت متوسلاً، لا بد أن أسجل نفسي في نشاط رياضي وإلا سأرسب! - ما اسمك؟ سألتني متنهدة - غولدمان، ماركوس غولدمان يا سيدتي. - أي رياضة؟ - كرة القدم أو كرة السلة. - الفريقان مكتملان. لم يتبقَّ لي سوى الرقص البهلواني أو الكروس».

الكروس أو الرقص البهلواني. خيار بين الطاعون والكليرا. كنت أعلم أن انضمامي إلى فريق الرقص سيثير سخرية زملائي، فضلت عليه الكروس. لكن منذ عشرين عاماً، لم يكن لفيلتون فريق كروس جيد، لدرجة أنه لم يعد أحد يرغب في الانضمام إليه، فكان أعضاؤه إما فاشلين في الرياضات الأخرى، أو أتوا متأخرين يوم التسجيل. وهكذا انضممت إلى فريق مهترئ وضعيف وأخرق، إلا أنه سيحقق لي المجد فيما بعد. وعلى أمل أن يقبل بي فريق كرة القدم في وقت لاحق من العام المدرسي، قررت أن أعمل على لفت الانتباه إليّ في فريق الكروس: تدربت بحماس منقطع النظير، وفي غضون أسبوعين رأى فيّ المدربُ النجمَ الذي لطالما انتظره، وسرعان ما تمت ترقيتي إلى رتبة كابتن الفريق، ولم يتطلب مني الأمر الكثير من الجهد لأُعتبر أفضل لاعب كروس في تاريخ الثانوية. حطمت بسهولة الأرقام القياسية للعشرين سنة الماضية، والتي كانت مخجلة تماماً، فسُجِّل اسمي على لوحة الشرف للثانوية، وهو ما لم يحدث لطالب من السنة الأولى أبداً. أدهش ذلك زملائي ولفت انتباه أساتذتي: علمتني هذه التجربة أنه كي تكون مبهرراً، يكفي أن توارب في علاقاتك مع الآخرين، فالأمر في نهاية المطاف ليس سوى مظاهر خادعة.

وسرعان ما انخرطت في اللعبة، ولم أعد أفكر في ترك فريق

الكروس لأن هوسي الوحيد أصبح أن أكون الأفضل بأية وسيلة، وأن أكون تحت الأضواء بأي ثمن. فكانت هناك مسابقة عامة للمشاريع الفردية في مجال العلوم، والتي فازت بها فتاة قصيرة موهوبة جداً اسمها سالي، أحرزْتُ أنا فيها المركز السادس عشر. عند تسليم الجوائز في قاعة الاحتفالات بالمدرسة، تدبّرت أمري لإلقاء كلمة زعمت فيها أنني قضيت عطلات نهاية الأسبوع في التطوع لخدمة المعاقين عقلياً، ما أضر بتقدم مشروعي، قبل أن أختتم بعينين مغرورتين بالدموع: «لا تهمني الجائزة الأولى إذا تسنى لي أن أمنح أصدقائي ذوي الإعاقة بريقاً من السعادة». تأثر الجميع بطبيعة الحال، ما جعلني أتفوّق على سالي في نظر المعلّمين وزملائي، بل وفي نظر سالي نفسها لأن أخاها كان من ذوي الإعاقة - وهو ما كنت أجهله - فرفضت جوائزها وأصرّت أن تُسلّم لي. وبفضل هذا المسلسل، أُدرج اسمي على قائمة الشرف في فئة الرياضة والعلوم وجائزة الزمالة، التي كنت قد أسميتها سرّاً قائمة عدم الجدارة لأنني كنت مدركاً لما كنت أقوم به من خداع. لكن لم يعد بإمكانني أن أتوقف: كنت مسكوناً. فبعد ذلك بأسبوع، حطمت الرقم القياسي في بيع بطاقات اليانصيب من خلال شرائها أنا نفسي بالمال الذي ادخرته خلال صيفين متتالين قضيتهما في تنظيف حوض السباحة التابع للبلدية. كان ذلك كفيلاً بأن تنتشر إشاعة في كل الثانوية: ماركوس غولدمان شخص ذو طبيعة استثنائية. وهذا الإقرار هو ما حثّ الطلاب والأساتذة على تلقيبي بـ «المبهر»، كما لو أنها علامة مسجلة أو ضمانة تفوق مطلق، فانتشرت هذه السمعة لتشمل حيناً في مونتكلير، ما ملأ والديّ بفخر عظيم.

دفعني هذه السمعة الزائفة لأن أمارس فن الملاكمة النبيل. فلطالما استهوتني الملاكمة، ولطالما كنت بارعاً في تسديد اللكمات، لكن ما دفعني لأتدرب سرّاً في نادٍ ببروكلين يبعد ساعة بالقطار عن منزلي - حيث لم يكن يعرفني أحد ولا وجود «للمبهر» - هو إمكانية أن أكون

قابلاً للهزيمة: كنت أذهب إلى هناك لأطالب بحقي في أن يهزماني من هو أقوى مني، حقي في ألا أحفظ ماء وجهي. كانت هذه الطريقة الوحيدة للهروب من شخصية الكمال المرهقة التي خلقتها: في صالة الملاكمة هذه، كان يمكن للمبهر أن يُهزَم، يمكن لأدائه أن يكون رديئاً، فيمكن لماركوس أن يكون. شيئاً فشيئاً، تخطى هوسي بأن أكون الرقم واحد المطلق الحدود: كلما فزت أكثر، خشيت الهزيمة أكثر.

في سنتي الثالثة بالثانوية، اضطر مدير الثانوية، لأسباب تخص الميزانية، إلى حل فريق الكروس الذي كان يكلف المدرسة أكثر بكثير مما يجلب لها، ولحظي العاثر، تعين عليّ أن أختار ممارسة رياضة أخرى: حاول فريقاً كرة القدم وكرة السلة استقطابي بطبيعة الحال، إلا أنني كنت أعلم أنني بانضمامي إلى أحدهما، سأواجه لاعبين أكثر موهبة وعزيمة من زملائي في فريق الكروس، وأجازف بأن يتدهور أدائي وتراجع سمعتي، بحيث يقال عني: بعد أن كان كابتن فريق الكروس وحطم الأرقام القياسية لعدد الأهداف المسددة في السنوات العشرين الأخيرة، يجلب ماركوس غولدمان الماء الآن لأعضاء فريق كرة القدم. عشت أسبوعين من القلق المستمر إلى أن سمعت عن فريق الجري المجهول المكوّن من طالبين بدينين قصيري القامة وآخر نحيل خائر القوى. كما أنه اتضح أن هذا الفريق هو الوحيد في فيلتون الذي لا يشارك في مسابقات دوري الثانويات، ما أكد لي أنني لن أواجه من هو أخطر مني. فانضمت من دون أدنى تردد إلى فريق فيلتون للجري، حيث حطمت بسهولة الأرقام القياسية لزملائي المسالمين، وذلك منذ التدريب الأول، تحت الأنظار المغرمة لمدير المدرسة وبعض المعجبات.

كان من الممكن أن يسير كل شيء على ما يرام لولا أن المدير، المفتون بنتائجي، قرر أن يقيم مسابقة بين ثانويات المنطقة، بهدف تلميع سمعة مدرسته، واثقاً أن المبهر سيفوز بكل تأكيد. وعند سماعي

الخبر، أصبت بالهلع فتدربت دون توقف مدة شهر كامل، لكنني كنت أعرف أنني لن أستطيع مواجهة عدائي الثانويات الأخرى، المعتادين على المسابقات. فأنا لم أكن سوى واجهة: كنت سأجعل من نفسي أضحوكة، وعلى ملعبى علاوة على ذلك.

يوم السباق، أتت لتشجيعي كل فيلتون إضافة إلى نصف الحي الذي أسكن فيه. انطلق السباق، وكما كنت أخشى، تجاوزني كل العدائين. كانت اللحظة حرجة: كانت سمعتي على المحك. كان سباق من ستة أميال، أي حوالي خمس وعشرين دورة حول الملعب. خمس وعشرون إهانة. كنت سأنتهي في المركز الأخير، مهزوماً ومهاناً. كان عليّ أن أنقذ المبهز بأي ثمن. استجمعت كل قواي وكل طاقتي، وفي غمرة من اليأس، انطلقت انطلاقاً مجنونة، وعلى مرأى من الحشد المتعاطف معي، تركزت في طليعة السباق. وفي تلك اللحظة، لجأت إلى الخطة الماكرة التي كنت قد وضعتها: بما أنني كنت مؤقتاً في المرتبة الأولى، وكنت قد استنزفت كل طاقتي، تظاهرت بالتعثر وارتيمت على الأرض في حركة استعراضية وسط هتافات الجماهير، ودفعت ثمن ذلك قدماً مكسورة، ما لم يكن في الحسابان بطبيعة الحال، إلا أنني أنقذت سمعتي، بعد عملية وأسبوعين في المستشفى. وفي الأسبوع الذي تلى هذه الحادثة، كتبت جريدة الثانوية بشأنى:

«أثناء سباق أسطوري كان فيه ماركوس غولدمان، الملقب بالمبهز، متفوقاً على منافسيه وفي طريقه إلى تحقيق نصر كاسح، وقع ضحية رداءة مضمار السباق فسقط بعنف وكسر قدمه».

كانت هذه نهاية مسيرتي كعداء وكرياضي، إذ تم إعفائي من الرياضة نهائياً بسبب إصابتي. واعترافاً بالتزامي وتضحيتي، وُضعت لوحة باسمي في خزانة الشرف الزجاجية، تحت قميصي لرياضة

الكروس. أما عن المدير، فقد لعن رداءة الأرضية في فيلتون، وأعاد تعبيد مضمار الركض منفقاً عليه أموالاً طائلة، ما حرم الطلاب من كل النشاطات الترفيهية في السنة التالية.

في نهاية سنوات الثانوية، كان عليّ أن أختار جامعة، محملاً بدرجات متفوقة وشهادات جدارة وخطابات توصية. وفي بعد ظهرية أحد الأيام، كنت في غرفتي، مستلقياً على السرير وأمامي ثلاث رسائل قبول: إحداها من جامعة هارفارد، والأخرى من ييل، والثالثة من بوروس وهي جامعة صغيرة في ماساتشوستس. لم أتردد للحظة: اخترت بوروس. فبالتحاقى بجامعة مرموقة، كنت أجازف في فقد لقب المبهر. باختياري هارفارد أو ييل، كنت سأضع السقف عالياً جداً: لم أكن أرغب في مواجهة النخب القادمة من كل أنحاء البلاد والذين سيحتلون كل لوائح الشرف. بدت لي لوائح شرف جامعة بوروس أسهل منالاً. لم يكن المبهر يرغب في حرق جناحيه، بل رغب المبهر في أن يظل المبهر. كانت بوروس مناسبة تماماً: جامعة متواضعة كنت متأكداً أنني سأتألق فيها. أقنعت والديّ بسهولة أن قسم الآداب في جامعة بوروس أعلى مستوى من مثليه في جامعتي هارفارد وييل، وهكذا انتقلت في خريف عام 1998 من مونتكلير إلى تلك المدينة الصناعية الصغيرة في ماساتشوستس حيث كنت سألتقي بهاري كير.

في بداية السهرة، فيما كنت جالساً في الشرفة أتصفح ألبومات الصور وأستعيد الذكريات، تلقيت اتصالاً هاتفياً من دوغلاس:

- ماركوس، يا إلهي! لا أصدق أنك ذهبت إلى نيو هامبشير دون أن تخبرني! تلقيت اتصالات من صحافيين سألوني عما تفعله هناك، في حين أنني لم أكن حتى على علم أنك هناك. كان عليّ أن أشغل التلفاز لأعرف ذلك. عُد إلى نيويورك. عُد إلى نيويورك قبل فوات الأوان. هذه القصة ستفلت عن سيطرتك تماماً! غادر تلك البلدة وعُد إلى

نيويورك غداً صباحاً. لدى كبير محام ممتاز. دعه يقوم بعمله وركز أنت على كتابك. يجب عليك أن تسلّم المخطوطة لبارناسكي بعد خمسة عشر يوماً.

- هاري بحاجة إلى صديق بجانبه، قلت له.
مرت لحظة صمت، ثم قال دوغلاس هامساً وكأنه أدرك لتوه شيئاً كان قد أفلت منه منذ شهور:

- لم تكتب شيئاً، صحيح؟ لم يتبق سوى أسبوعين على موعد التسليم الذي حدده بارناسكي، ولم تنجز هذا الكتاب اللعين! هذه هي الحقيقة، أليس كذلك؟ هل أنت هناك لتساعد صديقاً أم لتهرب من نيويورك؟

- اصمت يا دوغ.
مر صمت طويل آخر.
- مارك، قل لي إن لديك فكرة. قل لي إن لديك خطة، وإن هناك سبباً وجيهاً لذهابك إلى نيو هامبشير.

- سبب وجيه؟ الصداقة، أليست سبباً كافياً؟
- اللعنة! ما الذي تدين به لهاري كي تذهب إلى هناك؟
- أنا مدين له بكل شيء، كل شيء على الإطلاق.
- ماذا تعني بكل شيء؟
- إن الأمر معقد، يا دوغلاس.

- ما الذي تحاول أن تقوله لي، يا ماركوس؟
- دوغ، هناك حلقة من حياتي لم أخبرك بها... بعد تخرجي من الثانوية، كان من الممكن أن أسلك درباً منحرفاً، ثم قابلت هاري... لقد أنقذ حياتي، على نحوٍ ما. أنا مدين له... فمن دونه لم أكن لأصبح الكاتب الذي أصبحته. حدث ذلك في بوروس بماساتشوستس في عام 1988. أنا مدين له بكل شيء.

مكتبة

t.me/soramnqraa



هل يمكن الوقوع في حب فتاة في الخامسة عشرة؟

«أرغب في أن أعلمك الكتابة، يا ماركوس. ليس لكي تكتب
فحسب، بل لتصبح كاتباً. فتأليف الكتب ليس بالأمر الهين: يمكن
للجميع أن يكتبوا، لكن ليس الجميع كُتَّاباً.
- وكيف يعرف المرء أنه كاتب، يا هاري؟
- لا أحد يعرف أنه كاتب، بل الآخرون هم من يخبرونه بذلك».

كل من يذكرون نولا سيقولون إنها كانت فتاة رائعة. من أولئك الفتيات اللواتي يتركن بصمة في الأذهان: كانت رقيقة ومحبة، موهوبة ومشركة. كان حبها للحياة لا يضاهي، كفيل بأن ينير أكثر الأيام عتمةً. أيام السبت، كانت تعمل في مطعم كلاركس؛ تطوف بين الطاولات بخفة، وشعرها الأشقر المموج يتراقص في الهواء. كانت لديها كلمة لطيفة لكل زبون. لم نكن لنرى غيرها. كانت نولا عالماً بحد ذاتها.

كانت الابنة الوحيدة لديفيد ولويزا كيلرغان، وهما مبشران إنجيليان من الجنوب منحدران من مدينة جاكسون بولاية ألاباما، حيث ولدت هي في 12 أبريل 1960. استقرت عائلة كيلرغان في أورورا في خريف 1969، بعد أن عُيِّن الأب قساً في أبرشية سانت جيمس، وهي أهم جالية في أورورا، والتي شهدت إقبالاً كبيراً في تلك الفترة. كان معبد سانت جيمس الواقع في مدخل المدينة مبنى مهيباً من الخشب لم يتبقَّ منه شيء الآن، بعد أن اندمجت أبرشيتا أورورا ومونتييري لأسباب اقتصادية، ونظراً لقلّة المترددين عليهما، فاحتل مكانه مطعم ماكدونالدز. عند وصولهم، سكن آل كيلرغان في منزل جميل تابع للأبرشية، يقع في شارع تراس أفينيو برقم 245، ومكون من طابق واحد: بعد ذلك بست سنوات، هربت نولا من نافذة غرفتها على الأرجح يوم السبت 30 أغسطس 1975.

كانت هذه من بين المعلومات الأولى التي شاركني إياها مرتادو مطعم كلاركس حيث ذهبت في صباح اليوم التالي من وصولي إلى أورورا. كنت قد استيقظت تلقائياً عند الفجر، مشوش الذهن، يطاردني شعور مزجج بأنني لست متأكداً مما أفعله هنا. وبعد أن ركضت على الشاطئ، أطعمت النوارس، وتساءلت عما إذا كنت قد أتيت إلى نيو هامبشير فقط لأطعم طيور البحر هذه. كان موعدي مع بنجامين روث لزيارة هاري في الحادية عشرة، ولأنني لم أكن أرغب في البقاء وحدي حتى ذلك الحين، ذهبت لتناول البان كيك في مطعم كلاركس. حين كنت طالباً وكنت أقيم عنده، اعتاد هاري أن يجرنني إلى هناك في الساعات الأولى من الصباح: كان يوقظني قبل الفجر وهو يهزني ويقول إن الوقت حان لارتداء ملابسك الرياضية. كنا نزل إلى شاطئ المحيط بعد ذلك لنركض ونتلاكم. وإذا كان يشعر ببعض الضعف، كان يتظاهر بلعب دور المدرب: كان يوقف جهده ليصحح لي حركاتي ووضعياتي، إلا أنني كنت أعلم أنه كان بحاجة إلى التقاط أنفاسه. خلال هذه التمارين، كنا نقطع الأميال القليلة التي تربط غوز كوف بأورورا، ثم نصعد متسلقين صخور غراند بيتش ونعبر المدينة التي كانت لا تزال نائمة. وفي الشارع الرئيسي الغارق في العتمة، ومن بعيد، كان بإمكاننا رؤية الضوء المنبثق من النافذة الزجاجية لمطعم كلاركس، وهو المكان الوحيد المفتوح في هذا الوقت المبكر من النهار. في الداخل، كان يسود هدوء مطلق، إذ كان الزبائن القليلون يتناولون إفطارهم في صمت. وفي الخلفية البعيدة، كان يُسمع صوت الراديو الذي لطالما كان مُثبتاً على محطة الأخبار، إلا أن الصوت المنخفض لم يسمح بتمييز كلمات المذيع بوضوح. وفي الصباحات الحارة جداً، كانت المروحة المعلقة في السقف تخفق الهواء محدثة أزيزاً معدنياً، فيتراقص الغبار حول المصابيح. كنا نجلس إلى الطاولة رقم 17 وتأتي جيني لتقدم لنا القهوة، ولطالما كانت تبسم لي ابتسامة

أمومية عذبة وتقول لي: «ماركوس المسكين، إنه يجبرك على الاستيقاظ فجراً، أليس كذلك؟ منذ أن عرفته وهو يفعل ذلك». ونضحك جميعاً.

لكن في يوم 17 يونيو 2008 هذا، ورغم الصباح الباكر، كان مطعم كلاركس مكتظاً وصاخباً. كان الجميع يتحدثون عن القضية، وعند دخولي المكان، تحلق حولي الرواد الذين يعرفونني ليسألوني ما إذا كان ذلك صحيحاً، ما إذا كانت لهاري علاقة بنولا، وما إذا كان قد قتلها هي وديبورا كوبر. تهربت من الأسئلة وجلست إلى الطاولة 17 التي بقيت شاغرة، فاكشفت حينذاك أن اللوحة المعدنية التكريمية على شرف هاري كانت قد نزعَت من مكانها، ولم يبق هناك سوى ثقبَي المسمارين ولون الخشب الباهت أسفل اللوحة المنزوعة.

أت جيني لتقدم لي القهوة وحيّتي بلطف. بدا عليها الحزن.

- هل أتيت لتستقر في منزل هاري؟

- أعتقد ذلك. هل نزعَت اللوحة؟

- نعم.

- لماذا؟

- لأنه أَلَّف هذا الكتاب من أجل تلك الطفلة، يا ماركوس، طفلة

في الخامسة عشرة. لا يمكنني أن أترك اللوحة. إنه حب مقزز.

- أعتقد أن الأمر أكثر تعقيداً من ذلك.

- وأنا أعتقد أنه لا ينبغي أن تحشر نفسك في هذه القضية، يا

ماركوس. يُفضّل أن تعود إلى نيويورك وتبتعد عن كل هذا.

طلبت منها البان كيك والنقانق. كانت هناك على الطاولة نسخة

ملطخة بالدهون من جريدة أورورا ستار. في الصفحة الأولى، كانت

هناك صورة كبيرة لهاري وهو في قمة نجاحه، بهيئته الوقورة ونظرتة

العميقة الواثقة من نفسها، وتحتها صورة لدخوله قاعة المحكمة في

كونكورد، مكبلاً، مهزوماً، منكس الرأس، أشعث الشعر، شاحب

الوجه، مرهقاً، وإلى جانبها صورة لنولا وأخرى لديبورا كوبر، مع هذا العنوان: ماذا فعل هاري كبير؟

وصل إرنى بينكاس بعدي بقليل وجلس إلى طاولتي حاملاً قهوته.

- رأيتك في التلفزيون أمس، قال لي. هل جئت لتمكث هنا؟
- نعم، ربما.

- من أجل ماذا؟

- لا أدري. من أجل هاري.

- إنه بريء، أليس كذلك؟ لا أستطيع أن أصدق أنه فعل شيئاً كهذا... إنه كلام فارغ!
- لم أعد أعرف شيئاً، يا إرنى.

وبناء على طلبي، حكى لي بينكاس ما حدث قبل بضعة أيام، كيف نبشت الشرطة رفات نولا في غوز كوف على عمق متر تحت الأرض. ففي يوم الخميس ذلك، تفاجأ الجميع في أورورا بصوت صفارات سيارات الشرطة التي أتت من كل أنحاء المنطقة، وبدوريات الشرطة الجنائية على الطريق السريع، وبسيارة النقل التابعة للشرطة الجنائية.

- حين علمنا أنها قد تكون رفات نولا كيلرغان، صُدمنا جميعاً! من الصعب تصديق ذلك: طوال هذا الوقت، كانت الصغيرة هنا، تحت أعيننا. أقصد، كم من مرة أتيت فيها لأزور هاري، على تلك الشرفة، وأحتسي الويسكي... بجانبها... قل لي يا ماركوس، هل ألّف هذا الكتاب من أجلها فعلاً؟ لا يمكنني أن أصدق أنهما عاشا قصة حب... أكنت تعلم شيئاً عن ذلك؟

كي أتفادى الإجابة، رحت أدير ملعقتي في فنجانني إلى أن أحدثت دوامة، ثم قلت ببساطة:

- إنها فوضى كبيرة يا إرنى.

بعد ذلك بقليل، جاء ترافيس داون، رئيس شرطة أورورا وزوج

جيني، ليجلس إلى طاولتي. كان من بين الأشخاص الذين لطالما عرفتهم في أورورا: كان رجلاً ذا طبع هادئ، في الستين من العمر، شائب الشعر، أحد رجال شرطة الأقاليم الذين لم يعودوا يخيفون أحداً منذ زمن طويل.

- آسف يا بني، قال وهو يحييني.

- عن ماذا؟

- عن هذه القصة التي انفجرت في وجهك فجأة. أعرف أنك مقرب جداً من هاري. لا بد أن الأمر صعب عليك.

كان ترافيس أول من اهتم بما قد أشعر به. أومأت برأسي وسألت:

- لماذا لم أسمع أبداً، طوال الوقت الذي قضيته هنا، عن نولا كيلرغان؟

- لأن القصة، قبل أن يُعثر على جثتها في غوز كوف، كانت قصة قديمة. من نوع القصص الذي لا نحب تذكره.

- ما الذي حدث يوم 30 أغسطس 1975، يا ترافيس؟ وما الذي حصل لديبورا كوبر هذه؟

- قصة بغیضة، يا ماركوس، بغیضة جداً. عشتها في مراحلها الأولى لأنني كنت أقوم بدوريتي في ذلك اليوم. كنت ضابطاً بسيطاً آنذاك. أنا من تلقيت البلاغ من مركز الاتصال... كانت ديبورا كوبر سيدة عجوزاً لطيفة وضييلة البنية، تسكن وحدها في منزل معزول في سايد كريك لين منذ وفاة زوجها. أترى أين سايد كريك لين؟ إنه هناك حيث تبدأ الغابة، على بعد ميلين من غوز كوف. أذكر الأم كوبر جيداً: في تلك الفترة، لم يكن قد مضى على عملي في الشرطة مدة طويلة، وكانت تتصل بنا بانتظام، خاصة في الليل، لتبلغ عن أصوات مشبوهة حول منزلها. كانت تشعر بالخوف في ذلك المنزل الكبير القابع على

أطراف الغابة، وكانت بحاجة إلى مَنْ يأتي ويطمئنهما من وقت لآخر. وكانت دائماً ما تعتذر لنا على الإزعاج، وتقدم لرجال الشرطة الذين يأتون إلى منزلها الحلوى والقهوة، ثم تأتي إلى مخفر الشرطة في اليوم التالي لتقدم لنا هدية صغيرة. سيدة عجوز لطيفة حقاً. من النوع الذي تقدم لها الخدمة بصدر رحب. وفي 30 أغسطس 1975، اتصلت الأم كوبر بالشرطة لتبلغهم أنها رأت فتاة يتبعها رجل في الغابة. كنت الضابط الوحيد في الخدمة يومذاك فاتجهت إلى منزلها على الفور. كانت هذه المرة الأولى التي تتصل فيها نهاراً. عند وصولي، كانت تنتظر أمام منزلها، وقالت لي: «ترافيس، ستظن أنني مجنونة، لكنني رأيت شيئاً غريباً فعلاً هذه المرة». ذهبت لأنفحص مدخل الغابة، حيث رأت الفتاة: وجدت قطعة قماش أحمر، فارتأيت أنه من اللازم أخذ الأمر على محمل الجد فأبلغت الرئيس برات، رئيس شرطة أورورا آنذاك. كان في إجازة، لكنه جاء على الفور. كانت الغابة شاسعة وكان لا بد أن نتفقدها نحن الاثنين. توغلنا فيها معاً، وعلى بعد ميل تقريباً، وجدنا آثار دم، وشعراً أشقر، وقطعاً أخرى من القماش الأحمر. لكن لم يكن لدينا الوقت الكافي لتفتيش الغابة أكثر من ذلك، إذ سمعنا صوت إطلاق نار من جهة منزل ديورا كوبر... هرعنا إلى هناك، وعثرنا على الأم كوبر جثة هامدة في مطبخها، غارقة في دمها. ثم عرفنا بعد ذلك أنها اتصلت بالشرطة لتبلغ عن أن الفتاة التي رأتها منذ قليل عادت لتحتمي في منزلها.

- كانت الفتاة قد عادت إلى منزلها؟

- نعم، أثناء وجودنا في الغابة، ظهرت من جديد، وهي تنزف وتطلب المساعدة، لكن عند عودتنا إلى المنزل، لم يكن هناك أحد، عدا جثة الأم كوبر. كان موقفاً يبعث على الجنون.

- وهل كانت تلك الفتاة نولا؟ سألته.

- نعم، أدركنا ذلك سريعاً. أولاً، حين اتصل والدها وأبلغ عن

اختفائها بعد ذلك بقليل، وثانياً حين تعرفت عليها ديورا كوبر وأبلغت الشرطة بذلك في اتصالها.

- ماذا حدث بعد ذلك؟

- بعد الاتصال الثاني للأم كوبر، كانت وحدات من شرطة المنطقة قد انطلقت باتجاه سايد كريك، وعند وصولهم إلى حدود الغابة، لمح مساعدُ الرئيس سيارةً شيفروليه مونت كارلو سوداء تهرب في اتجاه الشمال، فتبعها إلا أنها أفلتت من الشرطة رغم الحواجز. قضينا الأسابيع التالية في البحث عن نولا: قلنا المنطقة بأكملها رأساً على عقب. فمن كان يظن أنها في غوز كوف، في منزل هاري كبير؟ كل الشواهد كانت تشير إلى أنها في مكان ما في تلك الغابة. قمنا بحملات هائلة، ولم نعثراً أبداً على السيارة ولا على الفتاة. ولو كان الأمر راجعاً إلينا، لقمنا بتفتيش البلاد كلها بحثاً عنها، لكننا اضطررنا إلى إنهاء الأبحاث بعد ثلاثة أسابيع، بعدما قررت شرطة الولاية أنها مكلفة جداً وأن النتائج غير مضمونة.

- هل كان لديكم مشتبه فيه آنذاك؟

تردد للحظة ثم قال:

- لم يكن الأمر رسمياً، لكن... كان هناك هاري. وكانت لدينا أسبابنا. وأقصد بذلك أنه بعد وصوله إلى أورورا بثلاثة أشهر فقط، اختفت كيلرغان الصغيرة. مصادفة غريبة، أليس كذلك؟ ثم أي سيارة كان يقود في تلك الفترة؟ شيفروليه مونت كارلو سوداء. لكن الأدلة ضده لم تكن كافية. وفي الواقع، هذه المخطوطة هي الدليل الذي كنا نبحث عنه قبل ثلاثة وثلاثين عاماً.

- لا أصدق ذلك، ليس هاري. فلماذا كان سيترك دليلاً قاطعاً كهذا مع الجثة؟ ولماذا أرسل بستانيين ليحفروا في المكان نفسه حيث دفن الجثة؟ هذا ليس منطقياً.

هز ترافيس كتفيه:

- ثق بخبرتي كرجل شرطة: نحن لا نعلم ما قد يقوم به الآخرون، خاصة أولئك الذين نعتقد أننا نعرفهم جيداً. وعند هذه الكلمات، نهض وحيّاني بلطف، وقال لي قبل أن يغادر:

- إذا كان هناك من شيء أستطيع القيام به لمساعدتك، فلا تردد في طلبه.

بينكاس الذي كان قد تابع المحادثة دون أن يتدخل، رد مشدوهاً: «يا إلهي... لم أكن أدري أن الشرطة شكت في هاري...». لم أقل شيئاً. اكتفيت بتمزيق الصفحة الأولى من الجريدة لآخذها معي، ومع أن الوقت كان مبكراً، توجهت إلى كونكورد.

*

يقع سجن ولاية نيو هامبشير للرجال في 281 شارع نورث ستيت، شمالي مدينة كونكورد. وللوصول إليه من أورورا، يكفي الخروج من الطريق السريع رقم 93 بعد مركز كابيتول التجاري، والانعطاف في شارع نورث ستريت عند زاوية فندق هوليداي إن، ثم مواصلة الطريق على نحوٍ مستقيم لمدة عشر دقائق. وبعد تجاوز مقبرة بلوسوم هيل وبحيرة صغيرة على شكل حدوة حصان تقع بالقرب من النهر، تظهر صفوف من الأسوار والأسلاك الشائكة تدل على طبيعة المكان بما لا يدع مجالاً للشك؛ وبعد ذلك بقليل، تعلن لافتة رسمية وجود السجن، ثم تتألى المباني الكثيبة المشيدة بالطوب الأحمر المحاطة بجدار سميك، قبل أن تظهر بعد ذلك قضبان المدخل الرئيسي. قبالة السجن، على الجانب الآخر من الطريق، يوجد معرض لبيع السيارات.

كان روث ينتظرني في موقف السيارات، يدخل سيجاراً من نوع رخيص. بدا هادئاً. ولإلقاء التحية اكتفى بالتربيت على كتفي، كما لو أننا صديقان قديمان.

- أهى أول مرة تزور السجن؟ سألنى .

- نعم .

- احرص على أن تكون مسترخياً هادئاً .

- من قال لك إنى لست كذلك؟

أشار إلى حشد من الصحافيين الواقفين بالقرب منا .

- إنهم فى كل مكان . لا تُجب أبداً على أسئلتهم . إنهم

مفترسون ، يا غولدمان . سيطاردونك بلا هوادة إلى أن ترمى لهم

معلومة ما . حافظ على رباطة جأشك وابق صامتاً . فأقل كلمة قد تتفوه

بها ستؤوّل على النحو الخطأ ، وتنقلب ضدنا وتهدد استراتيجيتى فى

الدفاع عن هارى .

- وما هى استراتيجيتك؟

نظر إليّ وقال بجدية تامة :

- إنكار كل شيء .

- إنكار كل شيء؟

- كل شيء . علاقتهما ، الخطف ، جريمتا القتل . سأقر أنه غير

مذنب ، سأبرىء هارى ، وسأطالب ولاية نيو هامبشير بملايين

الدولارات كتعويض عن الخسائر المادية والمعنوية .

- ماذا ستفعل بالمخطوطة التى عثرت عليها الشرطة مع الجثة؟

واعترافات هارى بشأن العلاقة التى جمعتة بنولا؟

- هذه المخطوطة لا تثبت شيئاً! أن تكتب لا يعنى أن تقتل . ثم

إن هارى قالها وتبريره منطقي : لقد أخذت نولا المخطوطة معها قبل

اختفائها . أما عن قصة جبهما القصيرة ، فهى عبارة عن بعض الشغف ،

ليس إلا . لا من شناعة فى ذلك . لا من إجرام . سترى ، لن يستطيع

المدعى العام إثبات أى شيء .

- لقد تحدثت إلى مساعد رئيس شرطة أورورا ، ترافيس داون .

قال إن هارى كان مشتبهاً فيه وقت الجريمة .

- هراء! رد روث الذي غالباً ما يلجأ إلى الكلام الفظ حين يعارضه أحدهم.
- يبدو أن المشتبه فيه وقتذاك كان يقود سيارة شيفروليه مونت كارلو سوداء، وقال ترافيس إنه كان بحوزة هاري سيارة من الطراز نفسه.
- هراء مكرر. لكن من المفيد معرفته. عمل جيد، يا غولدمان. هذا هو نوع المعلومات الذي أحتاج إليه. وبما أنك تعرف أولئك الريفيين في أورورا، استجوبهم لنعرف أي كلام فارغ سيقدمون للجنة المحلفين إذا عُينوا كشهود. وحاول أن تعرف من فيهم يبالغ في شرب الكحول ومن منهم يضرب زوجته: فمن يشرب كثيراً أو يضرب زوجته ليس بشخص يؤخذ بشهادته.
- ألا تعتقد أنه أسلوب مقرف بعض الشيء؟
- الحرب هي الحرب، يا غولدمان. لقد كذب بوش على الوطن بأجمعه كي يهاجم العراق.
- لكن أغلبية الأمريكيين عارضوا تلك الحرب. فهي لم تكن سوى كارثة كبرى.
- بدت عليه خيبة الأمل.
- لا! كنت متأكداً من ذلك...
- ماذا؟
- ستنتخب الحزب الديمقراطي، أليس كذلك؟
- بالطبع، سأنتخب الحزب الديمقراطي.
- ستري، سيفرضون ضرائب باهظة على الأثرياء من أمثالك. وسيكون الأوان قد فات على البكاء.
- أنت واسع المعرفة يا روث. على كل حال، لقد فاز الديمقراطيون بانتخابات الرئاسة. وحربك الرائعة كانت مرفوضة شعبياً بما يكفي لتقلب كفة الميزان.

- لا تقل لي إنك تصدّق ذلك! امرأة ورجل أسود، يا غولدمان!
امرأة وأسود! بالله عليك، أنت شاب ذكي، فلنكن جادّين بعض الشيء: مَنْ سينتخب امرأة أو رجلاً أسود على رأس الدولة؟ فلتؤلّف كتاباً عن الموضوع. كتاب خيال علمي. مَنْ سترشح في المرة المقبلة؟ امرأة سحاكية وقائد هندي؟!

بعد الإجراءات الإدارية، وبناء على طلبي، تركني روث مع هاري بمفردنا في القاعة حيث كان ينتظرنا. كان جالساً إلى طاولة بلاستيكية، مرتدياً بدلة السجن، والانكسار بادٍ عليه. لكن في اللحظة التي دخلت فيها القاعة، أشرق وجهه، وانتصب فاحتضنا أحدهنا الآخر طويلاً، قبل أن يأخذ كل منا موقعه في جهته من الطاولة، صامتين.

- أنا خائف، يا ماركوس، قال أخيراً.

- سنخرجك من هنا، يا هاري.

- لدينا تلفاز هنا. أنا أسمع كل ما يقال. لقد انتهيت. مسيرتي الأدبية انتهت. حياتي انتهت. إنها بداية سقوطي: أعتقد أنني أسقط.

- لا ينبغي لنا أن نخاف من السقوط، يا هاري.

علت وجهه ابتسامة حزينة.

- شكراً على مجيئك.

- هذا ما يفعله الأصدقاء. لقد استقررت في غوز كوف،

وأطعمت النوارس.

- أتعلم، إذا أردت العودة إلى نيويورك، فسأتفهم ذلك تماماً.

- لن أذهب إلى أي مكان. روث شخص غريب الأطوار، لكن يبدو عليه أنه يعرف ماذا يفعل: قال إنه سيقوم بتبرئتك. سأبقى هنا، سأساعده. سأفعل كل ما في وسعي لأكشف الحقيقة، وأدافع عن شرفك.

- وماذا عن روايتك الجديدة؟ الناشر ينتظرها في نهاية الشهر،
أليس كذلك؟
- طأطأت رأسي.
- لا توجد رواية. لم تعد لدي أفكار.
- ماذا تعني بلم تعد لديك أفكار؟
- لم أجب وغيرت الموضوع مخرجاً من جيبي صفحة الجريدة التي
حصلت عليها في مطعم كلاركس قبل بضع ساعات.
- هاري، أنا بحاجة لأن أفهم. أنا بحاجة لأن أعرف الحقيقة.
- لا أستطيع أن أمنع نفسي من التفكير في المكالمات التي أجريتها معي في
ذلك اليوم. كنت تتساءل عما فعلته بنولا...
- كان ذلك بمحض العاطفة، يا ماركوس. كانت الشرطة قد
أوقفتني للتو، وكان يحق لي بمكالمة هاتفية واحدة، والشخص الوحيد
الذي أردت إخباره هو أنت. ليس إخبارك بأنه قُبض عليّ، بل بأن نولا
ماتت. لأنك كنت الوحيد الذي يعرف بأمر نولا ولأنني كنت بحاجة
لأن أشارك حزني مع أحد... فطوال تلك السنوات، عشت على أمل
أن تكون حية في مكان ما. لكنها كانت ميتة وشعرت بنفسي مسؤولاً
عن ذلك، لشتى الأسباب. مسؤول عن أنني لم أستطع حمايتها ربما.
لكنني لم أؤذها أبداً. أقسم لك أنني بريء من كل ما يتهمونني به.
- إنني أصدقك. ماذا قلت لرجال الشرطة؟
- الحقيقة. أنني بريء. لماذا كنت سأزرع تلك الزهور في هذا
المكان؟ إنه أمر سخيف! قلت لهم إنني لا أعرف كيف وصلت تلك
المخطوطة إلى هناك، وإنني كتبت تلك الرواية من أجل نولا وعنها،
قبل اختفائها. وإننا، أنا ونولا، أحببنا أحداً الآخر. وإننا عشنا قصة
حب في الصيف الذي سبق اختفائها وإنني كتبت رواية عن ذلك،
كانت في حوزتي نسختان منها آنذاك: مخطوطة أصلية مكتوبة بخط
اليَد، ومخطوطة مطبوعة بالآلة الكاتبة. كانت نولا تهتم كثيراً بما

أكتبه، بل وساعدتني في نسخه على بياض. وذات يوم، لم أجد المخطوطة المطبوعة بالآلة الكاتبة، وكان ذلك في نهاية شهر أغسطس، قبل اختفائها مباشرة... ظننت أن نولا قد أخذتها لتقرأها، إذ كانت تفعل ذلك أحياناً. كانت تقرأ نصوصي وتشاركني رأيها بعد ذلك. كانت تأخذها من دون استئذان... لكن هذه المرة، لم أتمكن من أن أسألها ما إذا كانت قد أخذت المخطوطة، لأنها اختفت بعد ذلك. بقيت لديّ المخطوطة المكتوبة بخط اليد. كانت هذه الرواية هي أصول الشر، تلك التي حظيت بنجاح كبير بعد بضعة أشهر.

- لقد ألّفت هذا الكتاب من أجل نولا حقاً إذاً؟

- نعم، علمتُ من التلفزيون أنه قد يُسحب الكتاب من البيع.

- ما الذي حدث بينك وبين نولا؟

- قصة حب، يا ماركوس. لقد وقعت في غرامها، وأعتقد أن

هذا تسبب في ضياعي.

- هل لدى الشرطة شيء آخر ضدك؟

- لا أدري.

- والعلبة؟ أين هي تلك العلبة التي تحتوي على الصور والرسالة؟

لم أجدّها في منزلك.

لم يتمكن من الإجابة، إذ فُتح الباب وأشار لي بأن أصمت. كان روث. التحق بنا حول الطاولة، وبينما كان يستقر على الكرسي، أخذ هاري الدفتر الذي كنت قد وضعت على الطاولة أمامي وكتب فيه بضع كلمات لم أستطع قراءتها لحظتها.

راح روث يشرح لنا مطولاً عن سير القضية والإجراءات، وبعد نصف ساعة من الكلام، سأل هاري:

- هل هناك من تفاصيل نسيت أن تطلعني عليها بشأن نولا؟ لا بد أن أعرف كل شيء، إنه لأمر مهم للغاية.

ساد الصمت. حدّق فينا هاري طويلاً، ثم قال:

- هناك شيء يجب أن تعرفاه فعلاً. إنه بشأن يوم 30 أغسطس 1975. في ذلك المساء الذي اختفت فيه نولا، كان من المفترض أن تلتحق بي...

- تلتحق بك؟ كرر روث.

- سألني رجال الشرطة عما فعلته في مساء 30 أغسطس 1975، وقلت إنني كنت خارج المدينة. لقد كذبت. إنها النقطة الوحيدة التي لم أقل فيها الحقيقة. في تلك الليلة، كنت على مقربة من أورورا، في غرفة فندق صغير واقع على الطريق رقم 1، في اتجاه مين. فندق سي سايد. هو لا يزال موجوداً إلى يومنا هذا. كنت في الغرفة رقم 8، جالساً على السرير، متعطراً مثل فتى مراهق، وبحوزتي باقة من زهور الكوبية، الزهور المفضلة لديها. كان موعدنا عند الساعة مساءً، وأذكر أنني كنت أنتظرها وأنها لم تأت. عند الساعة التاسعة مساءً، كانت قد تأخرت لمدة ساعتين. لم يسبق لها أن تأخرت من قبل أبداً. أبداً. وضعت زهور الكوبية في حوض الحمام، وشغلت الراديو لألهي نفسي. كانت ليلة ثقيلة، عاصفة. كنت أشعر بالحر وكنت أختنق في بدلي. أخرجت الرسالة من جيبتي وقرأتها عشر مرات، أو مئة ربما. تلك الرسالة التي كتبتها لي قبل أيام قليلة، نص الحب ذاك الذي لن أنساه أبداً: لا تقلق يا هاري، لا تقلق بشأنني، سأندبر أمري وألتحق بك هناك. انتظرني في الغرفة رقم 8، أحب هذا الرقم، إنه رقمي المفضل. انتظرني في تلك الغرفة عند الساعة السابعة مساءً. ثم سرحل إلى الأبد. أحبك كثيراً، قبلاتي. نولا.

أذكر أن مذيع الراديو أعلن أنها الساعة العاشرة مساءً. العاشرة مساءً ولم تأت نولا. انتهى بي الحال نائماً، بكامل ملابسي، ممدداً على السرير. حين فتحت عيني من جديد، كان الليل قد انجلى والراديو يعلن نشرة الساعة صباحاً: ... تنبيه عام في منطقة أورورا بعد اختفاء مراهقة في الخامسة عشرة من عمرها، نولا كيلرغان، أمس،

حوالي الساعة السابعة مساءً. تبحث الشرطة عمن يمكن أن يزودها بالمعلومات... وقت اختفائها، كانت نولا ترتدي ثوباً أحمر... نهضت فجأة، مرعوباً. تخلصت من الزهور وغادرت على الفور متوجهاً إلى أورورا، بملابسي المجعدة وشعري الأشعث. كانت الغرفة مدفوعة مسبقاً.

«لم أكن قد رأيت من قبل هذا العدد الهائل من رجال الشرطة في أورورا. كانت هناك سيارات من كل مقاطعة. وعلى الطريق رقم 1، نُصب حاجز كبير لتفتيش السيارات التي تدخل البلدة وتخرج منها. رأيت رئيس الشرطة، غاريث برات، وفي يده بندقية:

- سيد الرئيس، لقد سمعت في الراديو للتو بشأن نولا. ما الذي يحدث؟

- قذارة، قذارة.

- ماذا حدث؟

- لا أحد يعرف: لقد اختفت من منزلها، وشوهدت بالقرب من سايد كريك لين مساء أمس، ومنذ ذلك الحين، لا يوجد أي أثر لها. المنطقة مغلقة بأكملها، ويتم تفتيش الغابة».

في الراديو، تردد نداء بانتظام، واصفاً إياها بدقة: صبية، بيضاء البشرة، طولها 5,2 أقدام، وزن مئة رطل، شعرها أشقر طويل، عيناها خضراوان، ترتدي فستاناً أحمر وتضع عقداً ذهبياً يحمل اسم نولا. فستان أحمر، فستان أحمر، فستان أحمر، كرر الراديو. كان الفستان الأحمر هو المفضل لديها. كانت قد ارتدته من أجلي. هذا ما فعلته ليلة 30 أغسطس 1975.

بقينا أنا وروث صامتتين، مذهولتين.

- كنتما ستهربان معاً؟ سأله. يوم اختفائها كنتما ستهربان معاً؟

- نعم.

- ألهذا قلت لي إنها ماتت بسببك حين اتصلت بي في ذلك

اليوم؟ لقد حددت ما موعداً واختفت هي بينما كانت في طريقها إليك...
أوماً برأسه:

- أعتقد أنها لولا هذا الموعد، لكانت ما تزال حية ربما...
حين خرجنا من القاعة، قال لي روث إن قصة الهروب المخطط
له تلك تعد كارثة وإنه يجب ألا تُسرَّب تحت أي ظرف من الظروف.
فإذا عرف بها الادعاء، ستكون نهاية هاري. افترقنا في موقف
السيارات، وما إن ركبت سيارتي حتى فتحت دفتري وقرأت ما كتب فيه
هاري:

ماركوس، على مكثبي، ستجد وعاء من الخزف،
بداخله مفتاح. إنه مفتاح خزانة ملابس في النادي
الرياضي بمونتييري. الخزانة رقم 201. كل شيء هناك.
احرق كل شيء. أنا في خطر.

كانت مونتييري مدينة مجاورة لأورورا، تقع على بعد عشرة أميال
تقريباً في اتجاه الداخل. ذهبت إلى هناك بعد ظهيرة اليوم نفسه، بعد
أن مررت بغوز كوف ووجدت المفتاح في الوعاء وسط مشابك الورق.
لم يكون هناك سوى نادي رياضي واحد في مونتييري، في مبنى حديث
ذي واجهة زجاجية، على الطريق الرئيسي للمدينة. في غرفة الملابس
الخالية من الناس، وجدت الخزانة رقم 201، التي فتحها المفتاح.
بداخلها، كانت هناك بدلة رياضية، وعدد من ألواح البروتين، وقفازان
من أجل حمل الأثقال، والعلبة التي كنت قد عثرت عليها في مكتب
هاري قبل بضعة أشهر. كان كل شيء لا يزال فيها: الصور،
والمقالات، والرسالة المكتوبة بخط يد نولا، كما وجدت فيها رزمة
من الورق المصفر والمربوط معاً. كانت الورقة الأولى بلا عنوان.
تصفحت الصفحات التالية: كان نصاً مكتوباً بخط اليد، وكفاني أن أقرأ
السطور الأولى لأدرك أنها المخطوطة الأصلية لأصول الشر. هذه

المخطوطة التي طالما بحثت عنها طوال الأشهر الماضية، كانت نائمة هنا في غرفة الملابس لنادٍ رياضي. جلست على مقعد وأخذت لحظة لأتمعن في كل صفحة، منبهراً ومحموماً: كانت الكتابة نظيفة، من دون أي شطب. دخل بعض الرجال لتغيير ملابسهم، إلا أنني لم أبال: لم يكن باستطاعتي أن أشيح بنظري عن النص. التحفة الأدبية التي لطالما رغبت في تأليفها، كتبها هاري. جلس إلى طاولة في مقهى وكتب تلك الكلمات العبقريّة، تلك العبارات الخلاّبة التي هزت أميركا بأكملها، حريصاً على أن يخفي بين سطورها عن قصة حبه مع نولا كيلرغان. عند عودتي إلى غوز كوف، أطعت رغبة هاري بأمانة. أشعلت المدفأة في غرفة المعيشة وألقيت فيها محتويات العلبة: الرسالة، الصور، قصاصات المقالات الصحفية، والمخطوطة. أنا في خطر، كتب لي. لكن عن أي خطر يتكلم؟ تضاعفت النيران: لم تعد رسالة نولا سوى رماد، كما التوت الصور حول نفسها إلى أن اختفت تماماً تحت تأثير الحرارة. أما المخطوطة، فتحوّلت إلى كتلة نار برتقالية ملتهبة وباتت صفحاتها غباراً. ظللت جالساً أمام المدفأة أشاهد اختفاء قصة هاري ونولا.

*

الثلاثاء 3 يونيو 1975

كان نهاراً ذا طقس رديء. كان الغروب على وشك أن يحل وكان الشاطئ مهجوراً. منذ وصوله إلى أورورا، لم يسبق له أن رأى السماء قاتمة وكالحة إلى هذا الحد. كانت العاصفة قد هيجت المحيط، المحتقن بالزبد والغضب: كانت السماء على وشك أن تمطر. الطقس الرديء هو ما شجعه على الخروج: نزل السلالم الخشبية التي تصل الشرفة بالشاطئ وجلس على الرمل. وضع دفتره على ركبتيه وترك قلمه ينساب على الورق: كانت العاصفة الوشيكة تلهمه، وكان لديه عدد من

الأفكار لروايته الرائعة. في الأسابيع الأخيرة، خطرت له عدة أفكار جيدة لكتابه الجديد، لكن لم تكتمل أي منها، فكانت إما تبدأ أو تنتهي على نحو سيئ.

سقطت القطرات الأولى من السماء. متفرقة في البداية، ثم ما لبثت أن تلاحقت. أراد أن يهرب ليحتمي بالداخل، لكنه رآها في تلك اللحظة: كانت تسير عارية القدمين، تحمل صندلها في يدها، على حافة المحيط، ترقص تحت المطر وتلعب مع الأمواج. ظل مشدوهاً، يتأملها بانبهار: كانت تتبّع رسومات التيار على الرمل، حريصة على ألا تبلل طرف فستانها. في لحظة من عدم الانتباه، باغتتها موجة وبللتها حتى كاحليها؛ فانفجرت ضاحكة. فغاصت أكثر في المحيط الرمادي، تدور حول نفسها وتنصهر في الاتساع اللامحدود، كما لو أن العالم ملكها. في شعرها الأشقر الذي يداعبه الريح، منع مشبك أصفر على شكل زهور الخصلات من أن ينسدل على وجهها. كانت سيول من الماء تنهمر الآن بغزارة من السماء.

حين انتبهت إلى وجوده على بعد بضعة أمتار منها، توقفت فجأة. بدا عليها الحرج، وصاحت قائلة:

- آسفة... لم ألاحظ وجودك.

شعر بقلبه يخفق بسرعة.

- لا تعتذري. تابعي. أرجوك، فهي المرة الأولى التي أرى فيها أحداً يُقدّر المطر إلى هذه الدرجة.

أشرق وجهها.

- أثنى عليه أنت أيضاً؟ سألت بحماس.

- ماذا؟

- المطر.

- لا... أنا... أنا أكرهه في الحقيقة.

ابتسمت ابتسامة فاتنة.

- كيف يمكن لأحد أن يكره المطر؟ لم أر في حياتي ما هو أجمل منه! انظر! انظر!
- رفع رأسه: انهمر المطر على وجهه. أخذ يتأمل ملايين القطرات تلك التي تخط المشهد ودار حول نفسه. قامت بالشيء نفسه. ضحكا. كانا مبتلين تماماً، فانهى بهما المطاف إلى الذهاب ليحتميا تحت سقف الشرفة. أخرج من جيبه علبة سجائر أفلتت جزئياً من زخات المطر وأشعل واحدة.
- ممكن واحدة؟ سألته.
- مد لها العلبة، وأخرجت سيجارة. كان مسحوراً.
- أنت الكاتب، أليس كذلك؟
- نعم.
- أتيت من نيويورك...
- نعم.
- لدي سؤال لك: ما الذي جعلك تترك نيويورك لتأتي إلى هذا المكان النائي؟
- ابتسم.
- أردت أن أغير الجو.
- كم أتمنى أن أزور نيويورك! سأسير فيها لساعات وأشاهد كل العروض في برودواي. أرى نفسي نجمة هناك. نجمة في نيويورك...
- اعذريني، قاطعها هاري، لكن هل سبق لنا أن تعارفنا؟
- ضحكت ضحكة خلاقة.
- كلا، لكن الجميع يعرف من أنت. أنت الكاتب. أهلاً بك في أورورا، يا سيدي. اسمي نولا، نولا كيلرغان.
- هاري كبير.
- أعرف، الجميع يعرف ذلك، كما قلت لك.

مد يده ليصافحها إلا أنها اتكأت على ذراعه وانتصبت على أطراف أصابعها، وطبعت قبلة على خده.

- عليّ أن أذهب. لن تقول إنني أدخن، اتفقنا؟
- كلا، أعدك.

- إلى اللقاء، سيدي الكاتب. أتمنى أن نلتقي مجدداً.
واختفت وسط المطر المنهمر.

كان مرتبكاً تماماً. من كانت تلك الفتاة؟ كان قلبه يدق بقوة. ظل ساكناً دون حراك على شرفته لوقت طويل، إلى أن حلت عتمة المساء. لم يعد يشعر بالمطر ولا بالليل. تساءل عن عمرها. بدت صغيرة جداً، كان يعرف ذلك. لكنه كان مغلوباً على أمره. كانت قد أشعلت النار في روحه.

*

أعاده اتصال هاتفي من دوغلاس إلى الواقع. كانت قد مضت ساعتان، وحل الليل. لم يتبق في المدفأة سوى جمرات.

- الجميع يتحدثون عنك، قال لي دوغلاس. لم يفهم أحد ما الذي أتيت لتفعله في نيو هامبشير... الجميع يرون أنك ترتكب أكبر حماقة في حياتك.

- الجميع يعلمون أنني وهاري صديقان. لا يمكنني ألا أفعل شيئاً فحسب.

- لكن الأمر مختلف هذه المرة، يا ماركوس. هناك جريمة قتل، وذلك الكتاب. أظن أنك لا تدرك حجم الفضيحة. بارناسكي يستشيط غضباً، وبدأ يشك بأنه ليست لديك رواية جديدة لتقدمها له. يقول إنك ذهبت لتختبئ في نيو هامبشير. وهو ليس مخطئاً... فها نحن يوم 17 يونيو، يا ماركوس. أي تنتهي المهلة بعد 13 يوماً... بعد 13 يوماً، ستنتهي أنت.

- بالله عليك! أعتقد أنني لا أعلم ذلك؟! ألهذا السبب اتصلت بي؟ لتذكّرني بموقفي الحرج؟
- لا، بل اتصلت بك لأنني أعتقد أن لديّ فكرة.
- فكرة؟ كلّي آذان مصغية.
- أُلّف كتاباً عن قضية هاري كبير.
- ماذا؟ لا، لا، لا نقاش في ذلك. لن أعيد إنعاش مسيرتي الأدبية على حساب هاري.
- لماذا على حسابه؟ لقد قلتَ لي إنك ذاهب للدفاع عنه. أثبت براءته إذاً وأُلّف كتاباً عن كل ذلك. هل تتخيل النجاح الذي سيلاقيه الكتاب؟
- كل هذا في أسبوعين؟
- لقد تحدثت في الأمر مع بارناسكي كي أهدئه...
- ماذا؟ أنت...
- اسمعني يا مارك، قبل أن تنفعل! يعتقد بارناسكي أنها فرصة من ذهب! قال إنه حين يروي ماركوس غولدمان قضية هاري كبير، فهي ضربة تجلب رقماً بسبعة أصفار! قد يكون كتاب الموسم! وهو جاهز لإعادة التفاوض حول عقدك. يعرض عليك البدء من الصفر: عقد جديد معه، يلغي السابق، إضافة إلى دفعة مسبقة بقيمة نصف مليون دولار. أتعلم ماذا يعني ذلك؟
- كان ذلك يعني أن تأليف هذا الكتاب سيطلق مسيرتي الأدبية من جديد. سيكون على قائمة أكثر الكتب مبيعاً، لا شك في ذلك، وسيجلب لي جبلاً من الأموال.
- لماذا قد يفعل بارناسكي ذلك من أجلي؟
- لا يفعله من أجلك، بل يفعله من أجل نفسه. ماركوس، أنت غير مدرك أن الجميع هنا يتحدثون عن هذه القضية. كتاب كهذا هو ضربة القرن!

- لا أعتقد أنني أستطيع فعل ذلك. لم أعد أستطيع الكتابة. ولا أدري ما إذا كنت قد استطعت حتى أن أكتب يوماً. أما عن التحقيقات... فالشرطة تقوم بذلك، فأنا لا أعلم كيف يمكنني أن أحقق في الأمر.

ظل دوغلاس مصراً.

- مارك، إنها فرصة العمر بالنسبة إليك.

- سأفكر في الأمر.

- هذا يعني أنك لن تفكر.

جعلتنا هذه العبارة نفجر ضاحكين معاً. كان يعرفني جيداً.

- دوغ... هل يمكن أن نقع في حب فتاة في الخامسة عشرة؟

- لا.

- كيف لك أن تكون متأكداً إلى هذا الحد؟

- أنا لست متأكداً من شيء.

- وما هو الحب؟

- مارك، بالله عليك، لا داعي للمناقشات الفلسفية الآن...

- لكنه أحبها، يا دوغلاس! لقد وقع هاري في غرام تلك الفتاة.

هو من حكى لي ذلك في السجن اليوم: كان جالساً على الشاطئ، أمام

منزله، وراها فأحبها فوراً. لماذا هي وليس فتاة أخرى؟

- لا أدري، يا مارك. لكنني أشعر بالفضول لمعرفة ما يربطك

بكبير على هذا النحو.

- المبهر، قلت له.

- ماذا؟

- المبهر. شاب لم يكن يستطيع التقدم في الحياة، إلى أن قابل

هاري. هاري هو من علمني أن أصبح كاتباً. هو من علمني أهمية أن

نعرف كيف نسقط.

- ما الذي تقوله، يا مارك؟ هل شربت؟ أنت كاتب لأنك موهوب.

- لا، وهنا مربوط الفرس. نحن لا نولد كُتَّاباً، بل نصبح كذلك.

- هل هذا ما جرى في بوروس عام 1998؟

- نعم، لقد نقل إليّ كل معرفته... أنا مدين له بكل شيء.

- أتريد أن تحدثني عن ذلك؟

- إذا أردت.

- في ذلك المساء، حكيت لدوغلاس القصة التي تجمعي

بهارى. وبعد محادثتنا، نزلت إلى الشاطئ إذ كنت بحاجة إلى هواء

منعش. رغم العتمة، كان بإمكانى رؤية السحب الكثيفة: كان الجو

ثقيلاً، وكانت العاصفة الرعدية على وشك الانفجار. هبت الرياح

فجأة، وأخذت الأشجار تهتز بعنف كما لو أن العالم نفسه كان يعلن

نهاية الكاتب الكبير هارى كير.

لم أعد إلى المنزل إلا متأخراً. وحين وصلت إلى الباب الرئيسى،

وجدت الرسالة ألتى أودعتها يد مجهولة أثناء غيابي. مظروف بسيط من

دون أي إشارة، بداخله رسالة مكتوبة على الحاسوب تقول:

«عد إلى ديارك، يا غولدمان».

أهمية أن تعرف كيف تسقط

(جامعة بوروس، ولاية ماساتشوستس، 1998-2002)

- «هاري، إذا تعيّن ألا يبقى سوى درس واحد بين كل دروسك، فأيهما سيكون؟
- سأرد السؤال إليك.
- بالنسبة إلي، سيكون أهمية أن تعرف كيف تسقط.
- أوافقك الرأي تماماً. فما الحياة إلا سقوط طويل، يا ماركوس. والأهم هو أن تعرف كيف تسقط».

عام 1998، فضلاً عن كونه عام الجليد العظيم الذي شل شمال الولايات المتحدة وجزءاً من كندا، تاركاً ملايين البؤساء في الظلام لعدة أيام، كان عامٌ لقائي بهاري. في ذلك الخريف، بعد تخرّجي من ثانوية فيلتون، التحقت بجامعة بوروس، والتي هي عبارة عن خليط من المباني مسبقة الصنع والمباني الفيكتورية، والمحاطة بمروج رائعة تمّ جزؤها بعناية فائقة. خُصّصت لي غرفة جميلة في الجناح الشرقي من السكن الجامعي، تشاركتها مع شاب لطيف ونحيل من مينيسوتا يدعى جاريد، فتى أسود يضع نظارات طبية، والذي ترك وراءه عائلة مسيطرة، إذ كان مرعوباً من حريته الجديدة، وكان دائماً ما يسأل ما إذا كان يحق له فعل شيء ما. «هل يحق لي أن أخرج لأشتري الكولا؟ هل يحق لي أن أعود إلى الحرم الجامعي بعد الساعة العاشرة ليلاً؟ هل يحق لي أن أحتفظ بالطعام في الغرفة؟ هل يحق ألا أحضر الدروس إذا كنت مريضاً؟». وكنت أجيبه بأنه اعتباراً من التعديل رقم 13 للدستور، الذي ألغى العبودية، كان يحق له أن يفعل كل ما يحلو له، وكان ذلك يجعل قلبه يشع من الفرح.

كان لدى جاريد هوسان: أن يراجع دروسه وأن يتصل بأمه ليخبرها أن كل شيء على ما يرام. أما أنا فلم يكن لدي سوى هوس واحد: أن أصبح كاتباً مشهوراً. كنت أقضي وقتي في كتابة القصص

القصيرة لمجلة الجامعة، إلا أن هذه الأخيرة لم تكن تنشر إلا قصة من كل اثنتين، وفي أسوأ الصفحات؛ صفحات الدعايات للشركات المحلية التي لم تكن تهم أحداً: مطبعة لوكاس، فورستر لتغيير الزيت، صالون فرانسوا للحلاقة، زهور جولي هو. كنت أرى الوضع شائناً وجائراً. في الحقيقة، منذ وصولي الجامعة، واجهت منافساً قوياً هو دومينيك رينهارتز، وهو طالب في السنة الثالثة ذو موهبة استثنائية في الكتابة، بحيث كنت أبدو باهتاً مقارنة به. كان يعامل بإجلال من قبل المجلة، ومع صدور كل عدد الجديد، كنت أسمع في المكتبة تعليقات الطلاب المعجبين بكتابات. والوحيد الذي كان يدعمني دعماً راسخاً كان جاريد: كان يقرأ قصصي بشغف فور خروجها من طابعتي ويقرأها مرة أخرى عند صدورها في المجلة. كنت دائماً ما أقدم له نسخة، إلا أنه كان يصبر على دفع ثمنها - دولارين - في مكتب المجلة بنقود كان يحصل عليها بصعوبة من عمله في فريق النظافة بالجامعة، أثناء عطل نهاية الأسبوع. أعتقد أنه كان يكنّ لي إعجاباً لا حدود له. كان غالباً ما يقول لي: «أنت شخص استثنائي يا ماركوس،... ما الذي تفعله في حفرة مثل بوروس بماساتشوستس؟». وذات مساء خريفي دافئ، كنا متمددَيْن على العشب نحتسي الجعة ونأمل السماء. بدأ جاريد بالسؤال عما إذا كان يحق لنا شرب الجعة داخل الحرم الجامعي، ثم سأل ما إذا كان يحق لنا الاستلقاء على العشب ليلاً، ثم لمح شهاباً في السماء وصرخ:

- تمنّ أمنية، يا ماركوس! تمنّ أمنية!

- أتمنى أن ننجح في الحياة، رددت. وأنت يا جاريد، ما هي

أمنيته؟

- أود أن أكون شخصاً صالحاً، يا مارك. وأنت؟

- أود أن أكون كاتباً عظيماً. وأن تباع من كتبي ملايين وملايين

النسخ.

جحظت عيناه ورأيت محجريه يلمعان في الليل كقمرين .
- أنا واثق من أنك ستممكن من ذلك يا ماركوس ، فأنت شخص استثنائي !

وقلت في نفسي إن الشهاب هو نجم جميل ، لكنه يخاف أن يلمع ، فيهرب إلى أبعد ما يستطيع ، مثلي تقريباً .

في أيام الخميس ، لم نكن أنا وجاريد نفوت أبداً محاضرات إحدى الشخصيات المحورية في الجامعة : الكاتب هاري كيبر . كان رجلاً مهيباً ، يتمتع بالكاريزما وبشخصية جذابة ، معلماً بارعاً ، يعشقه طلابه ويحترمه زملاؤه . كان شخصاً نافذاً ومؤثراً في الجامعة ، إذ كان الجميع يصغون إليه وينحازون إلى آرائه ، ليس لكونه هاري كيبر فسحب ، هاري كيبر العظيم ، قلم أميركا ، بل لأنه كان يفرض نفسه ، ببنيته الضخمة وأناقته الطبيعية وصوته الدافئ والمدوي في آن واحد . في أروقة الجامعة وممرات الحرم ، كان الجميع يلتفتون عند مروره لتحيته . كانت شعبيته عارمة : كان الطلاب ممتنين له لمنحه من وقته لجامعة صغيرة كهذه ، مدركين أنه كان بإمكانه ، بمكالمة واحدة ، أن ينضم إلى أهم الجامعات في أميركا . وكان الوحيد في الكلية الذي يلقي محاضراته في المدرج الكبير ، الذي يستخدم عادة في حفلات التخرج أو في العروض المسرحية .

كان عام 1998 عام قضية لوينسكي أيضاً ، عام الفضيحة الرئاسية ، حيث اكتشفت أميركا بذهول تسلل الانحراف الأخلاقي إلى أعلى المستويات في الدولة ، بحيث أجبر رئيسنا المبجل بيل كلينتون على تمثيل مشهد من الندم أمام الأمة بأكملها . كانت القضية على لسان الجميع : في الحرم الجامعي ، لم يكن الناس يتحدثون إلا عن ذلك وكان الجميع يتساءل عن مصير رئيسنا العزيز .

في صباح يوم خميس من شهر أكتوبر ، استهل هاري كيبر

محاضرتة كما يلي: «سيداتي سادتي، نحن جميعاً مهتمون بما يجري في واشنطن هذه الأيام، أليس كذلك؟ أقصد قضية لوينسكي... تخيلوا أنه منذ جورج واشنطن وطوال تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية، رُصد سببان أديا إلى إنهاء ولاية رئاسية: أن يكون الرئيس وغداً سيئ السمعة مثل ريتشارد نيكسون، أو أن يموت. وإلى يومنا هذا، انتهت ولايات تسعة رؤساء لأحد هذين السببين: استقال نيكسون، ومات الثمانية الآخرون، نصفهم عن طريق الاغتيال. وها هو ذا سبب ثالث يضاف إلى القائمة: العلاقة الحميمة. وشغل هذا السبب أمريكا لأنها تعشق الحكايات الجنسية والحكايات الأخلاقية. وسترون أنه بعد بضع سنوات، لن يتذكر أحد أن الرئيس كلينتون أعاد إحياء اقتصادنا المنهار، ولا أنه حكم بفطنة رغم وجود أغلبية جمهورية في مجلس الشيوخ، ولا أنه جعل إسحاق رابين وياسر عرفات يتصافحان. لكن الجميع سيتذكرون قضية لوينسكي، لأن العلاقات الحميمة، سيداتي وسادتي، تبقى عالقة في الذاكرة. ثم هل رئيسنا هو الوحيد الذي يحب العلاقات الحميمة؟ من، في هذه القاعة، يحب ذلك أيضاً؟».

وعند هذه الكلمات، توقف هاري عن الكلام وراح يتفحص الحضور. ساد صمت طويل: ظل معظم الطلاب ينظرون إلى أسفل، إلى أحذيتهم. وجاريد الجالس إلى جانبي، أغمض عينيه حتى لا ينظر في عيني هاري. أما أنا، فرفعت يدي. كنت جالساً في الصفوف الأخيرة وأشار إليّ هاري بإصبعه، قائلاً:

- قف يا صديقي الشاب، قف كي يراك الجميع وقل لنا ما يدور في خلدك.

وقفت متفاخراً فوق كرسي:

- اسمي ماركوس غولدمان، وأنا أحب العلاقات الحميمة كثيراً يا سيدي، شأني شأن رئيسنا العزيز.

حرك هاري نظارة القراءة إلى أسفل ونظر إليّ نظرة مرح. اعترف لي لاحقاً: «في ذلك اليوم، حين رأيتك يا ماركوس، حين رأيت هذا الشاب الفخور ذا البنية المتينة، واقفاً على كرسيه، قلت لنفسي: هذا شاب استثنائي». أما وقتذاك، فقد سألني ببساطة:

- قل لنا يا عزيزي، هل تحب أن تتشارك هذه العلاقات مع الفتيات أم الفتيان؟

- مع الفتيات بالطبع أستاذ كبير، فأنا مواطن أمريكي صالح، محب للجنس الآخر. فليحفظ الرب رئيسنا والجنس وأمريكا.

انفجر الجمهور ضاحكاً وصفق لي، وبدا هاري مسروراً، فراح يشرح لزملائي:

- أترون، من الآن فصاعداً، لن ينظر أحد إلى هذا الشاب المسكين كما من قبل، فالجميع سيقولون في أنفسهم: إنه شاب مقزز، يتباهى بحبه للعلاقات الحميمة. ومهما كانت مهاراته وصفاته الحميدة، فسيبقى إلى الأبد «سيد العلاقات الحميمة» (ثم استدار نحوي). سيد العلاقات الحميمة، هل يمكن أن تشرح لنا الآن لماذا اعترفت بهذا الأمر فيما أثر زملاؤك الصمت؟

- لأنه في جنة العلاقات الحميمة هذه، في أمريكا، يمكن للجنس أن يقضي عليك، لكن يمكن له أيضاً أن يرفعك إلى القمة، وبما أن عيون الحضور بأجمعه مثبتة عليّ الآن، أود أن أخبرهم بأنني أكتب قصصاً رائعة تُنشر في مجلة الجامعة، وأن النسخ ستباع بخمسة دولارات متواضعة بعد أن تنتهي هذه المحاضرة.

عند نهاية المحاضرة، التحق بي هاري عند باب الخروج، بعد أن استحوز زملائي على رصيدي من نسخ المجلة، فاشترى هو النسخة الأخيرة.

- كم نسخة بعت منها؟

- كل ما كان لديّ، أي 50 نسخة تقريباً، وقد طُلب مني 100

نسخة إضافية، مدفوعة مسبقاً. لقد دفعت ثمنها دولارين للنسخة الواحدة وقمت ببيعها بخمسة. بهذا أكون قد كسبت 450 دولاراً، بالإضافة إلى أن أحد العاملين في مكتب مدير المجلة طلب مني أن أصبح رئيس تحريرها. قال إنني قد قمت للتو بحملة دعائية هائلة للمجلة وإنه لم ير شيئاً كهذا من قبل. آه... وكدت أنسى، هناك حوالي عشر فتيات تركزن لي أرقام هواتفهن. أنت محق... نحن في جنة العلاقات الحميمة، وعلينا أن نستفيد من ذلك على أفضل وجه. ابتسم ومد لي يده.

- هاري كبير، قال معرفاً عن نفسه.
- أعرف تماماً من أنت، يا سيدي. أنا ماركوس غولدمان. أنا أحلم بأن أكون كاتباً كبيراً مثلك. أتمنى أن تنال قصتي إعجابك.
- تصافحنا بحرارة ثم قال لي:
- عزيزي ماركوس، ما من شك في أنك ستذهب بعيداً.

في الحقيقة، لم أذهب في ذلك اليوم أبعد من مكتب رئيس قسم الآداب، دوستان بيرغال، الذي استدعاني وهو يستشيط غضباً.

- أنت أيها الشاب، قال لي بصوت حاد، ممسكاً بمسندتي مقعده، هل تفوهت في المدرج الكبير اليوم بعبارات إباحية؟

- إباحية، لا.

- ألم تدافع أمام 300 من زملائك عن العلاقات الحميمة؟
- لقد تحدثت فعلاً عن العلاقات الحميمة، يا سيدي.
- تنهد تنهيدة طويلة.

- سيد غولدمان، أتعترف أنك استخدمت كلمات: الرب، حفظ، الجنس، محب للجنس الآخر، أمريكا، في نفس الجملة؟
- لا أتذكر الكلمات التي استخدمتها بالضبط، لكن نعم، قلت شيئاً من ذلك.

حاول المحافظة على هدوئه وتكلم ببطء مقصود.

- سيد غولدمان، أيمكنك أن تشرح لي أي نوع من الجمل الفاحشة يمكنها أن تتضمن كل هذه الكلمات معاً؟

- أوه، اطمئن يا سيدي، هي لم تكن فاحشة على الإطلاق. بل كان دعاء يخص أمريكا، والجنس، وكل الأنشطة التي يمكن أن تنتج عنها. أنت تعرف يا سيدي نحن الأمريكيين نحب الدعاء. إنه أمر ثقافي. كلما كنا سعداء، دعونا.

رفع عينيه إلى أعلى.

- وهل نصبت مكاناً عشوائياً لبيع مجلة الجامعة عند باب المدرج؟

- بكل تأكيد، يا سيدي. لكنها حالة قوة قاهرة سأشرحها هنا أمامكم بكل سرور. أترى، إنني أجتهد كثيراً لأكتب قصصاً لتُشر في مجلة الجامعة، لكن هيئة التحرير تكتفي بنشر قصصي في الصفحات الرديئة، لذلك كنت بحاجة إلى بعض الدعاية، لأن لا أحد يقرأ قصصي، فلماذا نكتب إذا كنا لن نُقرأ!

- هل هي قصة إباحية؟

- لا، يا سيدي.

- أود أن ألقى نظرة.

- بكل سرور، خمسة دولارات للنسخة.

انفجر بيرغال.

- سيد غولدمان، أعتقد أنك لا تدرك خطورة الموقف! لقد صدمت كلماتك الحضور! وقد اشتكى بعض الطلاب! إنه موقف مزعج بالنسبة إليك، وإليّ، والجميع. يبدو أنك قلت (قرأ ورقة في يده): «أنا أحب العلاقات الحميمة... أنا مواطن أمريكي صالح، محب للجنس الآخر. فليحفظ الرب رئيسنا والجنس وأمريكا». ما هذا السيرك بحق السماء!

- هذه ليست إلا الحقيقة، يا سيدي: أنا مواطن أمريكي صالح، وأنا محب للجنس الآخر.
- لا أريد أن أعرف ذلك! إن ميولك الجنسي لا يهم أحداً، سيد غولدمان.
- كل ما فعلته هو الإجابة عن أسئلة البروفيسور كبير.
- عند سماعه هذه الجملة الأخيرة، كاد بيرغال يهتق.
- ماذا... ماذا تقول؟ أسئلة البروفيسور كبير؟
- نعم، هو من سأل من منا يحب العلاقات الحميمة، فرفعت يدي، لأنه من غير اللائق أن لا تجيب عندما يطرح عليك أحدهم سؤالاً. هذا كل ما في الأمر.
- سألكم البروفيسور كبير ما إذا كنتم تحبون...؟
- تماماً. أترى سيدي العميد، إنه خطأ الرئيس كلينتون. فالجميع يريدون فعل ما يفعله الرئيس.
- نهض بيرغال لبحث عن مظروف بين ملفاته المبعثرة. جلس على مكتبه من جديد، ثم حدّق في عيني.
- من أنت، يا سيد غولدمان؟ حدثني عن نفسك. فأنا كلي فضول لأعرف من أين أتيت.
- قلت إنني ولدت في مونتكلير، بنيو جيرسي، لأم تعمل في أحد المحال التجارية وأب مهندس. عائلة من الطبقة المتوسطة، أمريكيان صالحان. ابن وحيد. طفولة ومراهقة سعيدتان رغم مستوى ذكاء أعلى من المعدل. ثانوية فيلتون. المبهر. مشجع لفريق جاينتس. دعامة للأسنان في سن الرابعة عشرة. جدان في فلوريدا، من أجل الشمس والبرتقال. لا شيء خارج المعتاد. لا حساسيات، ولا أمراض تُذكر. تسمّم غذائي جرّاء أكلة دجاج في معسكر للكشافة في سن الثامنة. أحب الكلاب لكن ليس القطط. الممارسة الرياضية: الكروس، والجري، والملاكمة. الطموح: أن أصبح كاتباً مشهوراً. لا أدخن لما

يسببه ذلك من سرطان للرئة ومن رائحة كريهة عند الاستيقاظ. أشرب باعتدال. طبقي المفضل: الستيك المشوي مع المكرونة بالجبنه. استهلاك موسمي لفواكه البحر، خاصة عند جوز ستون كراب في فلوريدا.

استمع بيرغال إلى سيرتي دون أن ينبس ببنت شفة. وحين انتهيت، قال لي ببساطة:

- سيد غولدمان، كف عن هذا الحديث... ممكن؟ لقد اطلعت على ملفك للتو، وقمت ببعض الاتصالات، تحدثت إلى ناظر ثانوية فيلتون. قال لي إنك طالب موهوب جداً، وإنه كان بإمكانك أن تلتحق بأكبر الجامعات، فما الذي تفعله هنا؟

- عذراً سيدي العميد!

- سيد غولدمان، من ذا الذي يفضل بوروس على هارفارد أو

ييل؟

كان ضربُ الجرأة ذاك في المدرج الكبير سيقلب حياتي رأساً على عقب، حتى وإن كاد يكلفني مقعدي في جامعة بوروس. كان بيرغال قد أنهى المقابلة حينذاك بقوله إنه سيفكر في مصيري، وفي نهاية المطاف، ظلت القضية بلا تداعيات بالنسبة إليّ. وعرفت بعد ذلك بسنوات أن بيرغال، المقتنع بأن الطالب الذي يثير المشاكل يوماً سيثيرها على الدوام، أراد أن يطردني من الجامعة، وأن هاري هو مَنْ أصر على بقائي في بوروس.

في اليوم التالي لهذا الحدث، تم اختياري لتولي زمام مجلة الجامعة، وإعطائها انطلاقة جديدة. وكوني المبهز، قررتُ أن تبدأ هذه الانطلاقة الجديدة بالتوقف عن نشر أعمال رينهارتز، وأن تتصدر أعمال غلاف المجلة في كل عدد. ثم، في يوم الاثنين التالي، صادفت هاري في صالة الملاكمة التابعة للجامعة والتي اعتدت ارتيادها

منذ مجيئي . كانت تلك المرة الأولى التي أراه فيها هناك . كان المكان قليلاً ما يتردد إليه الطلاب ، ففي بوروس ، الناس لا يمارسون الملاكمة ، وعداي كان الشخص الوحيد الذي يرتادها بانتظام هو جاريد ، الذي أفنعت به بأن يحضر مرة كل أسبوعين ، لأنني كنت بحاجة إلى خصم ، ضعيف إن أمكن ، لأكون متأكداً من أنني سأهزمه . وكنت أسحقه فعلاً مرة كل أسبوعين ، مستمتعاً بذلك ، مستمتعاً بكوني المبهز دائماً .

يوم الاثنين الذي جاء فيه هاري ، كنت أتدرب على وضعياتي أمام المرأة . بدا في ملابس الرياضة بالأناقة ذاتها التي بدا فيها في بدلاته الرسمية . حيّاني من بعيد عند دخوله ، وقال : « لم أكن أعلم أنك تحب الملاكمة أيضاً ، سيد غولدمان » . ثم تدرب على كيس الملاكمة ، في أحد الأركان . كانت حركاته صائبة ، رشيقة وسريعة . كنت أتحرق شوقاً لأتحدث إليه . لأحكي له كيف استدعاني بيرغال بعد محاضرتي ، ولأخبره بأنني أصبحت رئيس تحرير مجلة الجامعة ، وأعبر له عن إعجابي الشديد به . لكن من فرط إعجابي به ، لم أجروء على الاقتراب منه .

عاد إلى الصالة الاثنين التالي ، حيث حضر هزيمة جاريد المعتادة . راقبني طويلاً من حافة الحلبة ، وأنا أسدد اللكمات لخصمي بلا رحمة ، وبعد المباراة ، قال لي إنه وجدني ملاكماً جيداً وإنه كان هو نفسه يرغب في أن يستأنف التداريب بجدة للحفاظ على لياقته البدنية ، وإنه سيرحب بنصائحي في أي وقت . كان في الخمسينات من عمره آنذاك ، لكن ذا بنية عريضة وقوية : كان يضرب كيس الملاكمة بمهارة ، وكان توازنه جيداً ، وحركة ساقيه بطيئة شيئاً ما لكن ثابتة ، وردة فعله يقظة . عرضت عليه أن نتدرب على الكيس قليلاً ، فأنهى بنا المطاف إلى قضاء السهرة هناك .

وعاد يوم الاثنين التالي ، وما تلاه من أيام الاثنين . وأصبحت ،

على نحوٍ ما، مدربه الخاص. وهكذا، على مدار تدريبات الملاكمة، بدأت تربطنا أنا وهاري علاقة صداقة. كنا نتحدث قليلاً بعد التدريب، جالسَيْن جنباً إلى جنب على المقاعد الخشبية لغرفة تغيير الملابس، نجفف عرقنا. وبعد بضعة أسابيع، جاءت اللحظة التي كنت أخشاها، إذ أراد هاري أن يصعد إلى الحلبة ليكون خصمي في مباراة من ثلاث جولات. أنا لم أجرؤ على ضربه بطبيعة الحال، أما هو فلم يبخل في توجيه ضربات يمينية رنانة إلى ذقني، وفي طرحي أرضاً عدة مرات. كان يضحك ويقول إنه لم يقم بذلك منذ سنوات وإنه نسي كم كان هذا مُسلياً. وبعد أن ضربني ضرباً مبرحاً وبعثني بالواهن، عرض عليّ أن نتناول العشاء معاً، فذهبت به إلى مطعم متواضع للطلاب في أحد شوارع بوروس المكتظة، حيث طلبنا بيرغر تقطر منها الدهون وتحدثنا عن الكتب والكتابة.

- أنت طالب شاطر، قال لي. وواسع المعرفة.
- شكراً. هل قرأت قصتي؟
- ليس بعد.
- أتمنى أن أعرف رأيك فيها.
- إذا كان هذا يسعدك أيها الصديق، فأعدك أن أُلقي عليها نظرة وأن أشاركك رأيي.
- لا تردد في أن تكون قاسياً في نقدك.
- أعدك بذلك.

لقد نعتني بالـ صديق، وقد أفرحني ذلك إلى أقصى الحدود، فاتصلت بوالديّ في المساء نفسه لأُزف لهما الخبر: بعد بضعة أشهر فقط من التحاق بالجامعة، تناولت العشاء مع هاري كبير العظيم. فرحت أُمي كثيراً لهذا الخبر، فاتصلت بنصف ساكنة نيو جيرسي لتخبرهم بأن ابنها ماركوس المذهل، المبهّر، أقام علاقات قوية على أعلى مستويات الساحة الأدبية، وأنه سيصبح كاتباً كبيراً، هذا مؤكد.

أصبحت وجبات العشاء بعد الملائكة من طقوس أيام الاثنين، لا يمنعها أي ظرف من الظروف، وهو ما عزز شعوري بكوني المبهر. كنت أعيش علاقة مميزة مع هاري كبير؛ فأثناء محاضراته، كان ينادي الآخرين بالسيد أو السيدة، أما أنا فكان يناديني بماركوس.

بعد ذلك ببضعة أشهر - كنا في شهر يناير أو فبراير على ما أظن، أي بعد أعياد الميلاد بقليل -، أثناء أحد العشيات ليوم الاثنين، أصررت على هاري أن يعبر لي عن رأيه في قصتي، فهو لم يتطرق إليها أبداً. قال بعد لحظة تردد:

- أتريد حقاً أن تعرف رأيي، يا ماركوس؟

- بكل تأكيد. وأتمنى أن تكون ناقدًا، فأنا هنا لأتعلم.

- أنت تكتب جيداً. ولديك موهبة هائلة.

احمر وجهي من البهجة.

- وماذا أيضاً؟ صرخت بفضول.

- أنت موهوب، هذا أمر مؤكد.

كنت في قمة السعادة.

- هل هناك من جانب عليّ أن أحسنه، في نظرك؟

- أوه، طبعاً. أنت تتمتع بإمكانات كبيرة، لكن في الحقيقة، ما

قرأته سيئ، سيئ جداً بصراحة. عديم القيمة. وهو الحال بالنسبة إلى نصوصك الأخرى التي قرأتها في مجلة الجامعة. أن تُقطع الأشجار لتطبيع نصوص رديئة كهذه، هي جريمة. لا يوجد ما يكفي من الغابات نسبةً إلى العدد الهائل من الكُتاب الرديئين الذين يسكنون هذه البلاد. لا بد من بذل بعض الجهود.

تجمّد الدم في عروقي. شعرت كما لو أنني تلقيت ضربة على رأسي. اتضح لي أن هاري كبير، ملك الساحة الأدبية، كان ملك الحقارة أيضاً.

- أأنت دائماً هكذا؟ سألته بنبرة لاذعة.

ابتسم وبدأ مستمتعاً، وصدق فيّ بتعالٍ كما لو أنه يستمتع
باللحظة.

- كيف أبدو؟ سأل.

- لا تطاق.

انفجر ضاحكاً.

- أتعلم يا ماركوس، إنني أعرف جيداً أي صنف من البشر أنت:
شخص مغرور يظن أن مونتكليز هي مركز العالم. مثل الأوروبيين في
العصور الوسطى، قبل أن يعبروا البحار بمراكبهم ويكتشفوا أن معظم
الحضارات فيما وراء المحيطات هي أكثر تطوراً من حضارتهم. وهو
ما حاولوا إخفاءه من خلال اللجوء إلى المذابح. ما أود أن أقوله، يا
ماركوس، هو أنك شخص رائع، لكنك تخاطر بأن تنطفئ إذا لم تقم
بتحريك مؤخرتك! نصوصك جيدة، لكن يجب أن تعيد النظر في كل
شيء: الأسلوب، الجمل، المفاهيم، الأفكار. عليك أن تعيد تقييم
كل شيء وأن تعمل بجد أكثر بكثير. مشكلتك هي أنك لا تعمل بما
يكفي. أنت تكتفي بالقليل، فأنت تصف الكلمات دون انتقائها، ومن
يقرأك يشعر بذلك. أنت ترى نفسك عبقرية فذاً؟! أنت مخطئ. كتابتك
غير متقنة، وبالتالي عديمة القيمة. يجب عليك العمل على كل شيء.
أنت معي؟

- ليس حقاً...

كنت غاضباً. كيف يجرؤ، حتى وإن كان كبير العظيم؟ كيف يجرؤ
على التحدث إلى شخص لُقّب بـ المبرر على هذا النحو؟
استطرد قائلاً:

- سأعطيك مثلاً بسيطاً. أنت ملاكم جيد، هذه حقيقة. أنت
تعرف كيف تقاتل. ولكن انظر إلى نفسك؛ أنت لا تلاكم سوى هذا
المسكين، هذا النحيل البائس الذي تضربه بعنف، وبنوع من الرضا عن
النفس مشير للاشمئزاز. أنت لا تلاكم سواه لأنك متأكد من أنك

ستهزّمه . وهذا يجعل منك شخصاً ضعيفاً، يا ماركوس، شخصاً جباناً . لا شيء، نكرة، مدح ليس إلا . والأسوأ من ذلك هو أنك تكتفي بذلك تماماً . لاكم خصماً حقيقياً ! لتكن لديك تلك الشجاعة ! فالملاكمة لا تكذب أبداً، والصعود إلى الحلبة هو طريقة موثوقة لمعرفة قيمتنا : فإما أن نغلب أو نُغلب، لكن لا يمكننا أن نكذب على أنفسنا، ولا على الآخرين . أما أنت، فتراوغ لتفلت من كل ذلك، لذا أنت من يُسمى بالدجال . أتعرف لماذا كانت المجلة تضع نصوصك في الصفحات الأخيرة؟ لأنها رديئة، بكل بساطة . ولماذا حظيت نصوص رينهارتز بكل هذا التقدير؟ لأنها ممتازة . وكان بإمكان هذه الحقيقة أن تمدك بالرغبة في التفوق عليه، وبالعامل بجد أكثر، وإنتاج نص رائع، لكن كان من الأسهل أن تقوم بذلك الانقلاب، وتتخلص من رينهارتز، وتنشر نصوصك بنفسك بدلاً من أن تعيد النظر في قيمة عملك . دعني أخمن، يا ماركوس، أنت تصرفت على هذا النحو طوال حياتك، هل أنا مخطئ؟

كنت أستشيط غضباً . صرخت :

- أنت لا تعرف شيئاً، يا هاري ! كنت أحظى باحترام وتقدير الجميع في الثانوية . كنت المبهراً !

- لكن انظر إلى نفسك، يا ماركوس، أنت لا تعرف كيف تسقط ! أنت تخاف من السقوط . ولهذا السبب، إذا لم تغير من نفسك، فستصبح كائناً فارغاً وغير مثير للاهتمام . كيف يمكننا أن نعيش إذا كنا لا نعرف كيف نسقط؟ واجه نفسك، واسأل نفسك عما تفعله في بوروس ! لقد قرأت ملفك ! وتحدثتُ إلى بيرغال ! كان على وشك طردك من الجامعة، أيها العبقري ! كان بإمكانك أن تلتحق بهارفارد، أو ييل، أو أي جامعة مرموقة أخرى، لكنك اخترت أن تأتي إلى هنا، لأنك جبان وليست لديك الجرأة على مواجهة خصم حقيقي . كما أنني اتصلتُ بفيلتون أيضاً، وتحدثتُ إلى الناظر، هذا المسكين المغفل

الذي حدثني عن المبهر وصوته يخنق بدموع التأثير. بمجيئك إلى هنا، يا ماركوس، كنتَ تعلم أنك ستظل هذا الشخص الذي لا يُقهر والذي ابتدعته من الخيال، هذا الشخص غير المسلح لمواجهة الحياة الحقيقية. هنا، كنتَ تعلم مسبقاً أنك لن تسقط. لأنني أعتقد أن هذه هي مشكلتك الحقيقية: أنت لم تدرك بعد أهمية أن يعرف المرء كيف يسقط. وهذا ما سيتسبب في ضياعك إذا لم تستدرك الأمر.

عند هذه الكلمات، كتب على منديله عنواناً في مدينة لويل، بماساتشوستس، على بعد ربع ساعة من بوروس. قال إنه نادٍ للملاكمة، تُنظَّم فيه كل مساء خميس مباريات مفتوحة للجميع. ثم غادر وترك لي أن أدفع الحساب.

في يوم الاثنين التالي، لا وجود لكبير في صالة الملاكمة، ولا في أيام الاثنين التالية. وأثناء محاضراته، ناداني بالسيد مثل باقي زملائي. فقررت أن ألتقيه عند خروجه من إحدى المحاضرات.

- ألم تعد تأتي إلى الصالة؟ سألته.

- إنني أحبك يا ماركوس، لكن كما سبق أن قلت لك، أعتقد أنك فتى بكاء ومغرور، وليس لدي من وقت لأضيعه معك. أنت لست في مكانك الصحيح في بوروس، وأنا لا أرى من فائدة في رفقتك.

وهكذا، في يوم الخميس التالي، استعرت سيارة جاريد وذهبت، حانقاً، إلى صالة الملاكمة التي أشار إليها هاري. كان نادياً شاسعاً يقع في وسط المنطقة الصناعية. مكان مخيف مكتظ بالملاكمين، تفوح منه رائحة الدم والعرق. كانت هناك مباراة عنيفة على الحلقة الرئيسية، بحيث كانت حشود المتفرجين قد وصلت إلى الحبال التي تطوق الحلقة، وتطلق هتافات مرعبة. كنت خائفاً، ورغبت في الفرار وفي إعلان هزيمتي مسبقاً، لكن لم تتسنَّ لي الفرصة: ظهر أمامي رجل أسود ضخم الجثة، علمت لاحقاً أنه صاحب الصالة، وقال لي: «أأنت هنا لتلاكم، يا أبيض الصغير؟». رددت بالإيجاب، فأرسلني لأغير

ملا بـسي . وبعد ذلك بربع ساعة ، كنت على الحلبة ، في مواجهته ، في
مباراة ذي جولتين .

سأتذكر طوال حياتي الهزيمة النكراء التي ألحقها بي في تلك
الليلة ، لدرجة أنني اعتقدت أنني سأموت . كانت مذبحة بالمعنى
الحرفي للكلمة ، على مرأى ومسمع من الحاضرين المنتشين برؤية
الطالب الأشقر اللطيف القادم من مونتكلير تُهشم عظام وجهه . ورغم
حالتي المزرية ، عقدت العزم على الاستمرار حتى نهاية الوقت النظامي
للمباراة ، كمسألة كبرياء ، وانتظرت صوت الجرس لأنهار على
الأرض ، محطماً . وحين فتحت عيني من جديد ، خائر القوى لكن
شاكراً الرب أنني لم أمت ، رأيت هاري منحنياً فوقي ، وفي يده إسفنجة
وماء .

- هاري ، ماذا تفعل هنا ؟

مسح وجهي برفق ، مبتسماً .

- صغيري ماركوس ، لقد تخطيت توقعاتي : يفوق وزنُ هذا
الشخص وزنك بستين رطلاً على الأقل . . . لقد أدبت قتالاً رائعاً . أنا
فخور بك . . .

حاولت النهوض ، لكنه منعني .

- لا تتحرك ، أعتقد أن أنفك مكسور . أنت شاب دؤوب ! هذا ما
كنتُ أعتقد ، لكنك أثبتَّ لي ذلك للتو . بهذه المباراة ، لقد أثبتَّ لي أن
ما وضعته فيك من آمال منذ اليوم الذي التقينا فيه لم يذهب سدى . لقد
أثبتَّ لي للتو أنك قادر على مواجهة نفسك ، بل والتفوق عليها . فمن
الآن فصاعداً ، نستطيع أن نكون صديقين . كما أود أن أخبرك أنك أكثر
شخص موهبة قابلته في السنوات الأخيرة ، وما من شك في أنك
ستصبح كاتباً كبيراً . سأساعدك على ذلك .

بدأت صداقتنا الحقيقية في ذلك اليوم، بعد هزيمة لويل النكراء، وأصبح هاري كبير، أستاذي لمادة الآداب صباحاً، هاري فقط، شريك في الملاكمة يوم الاثنين مساءً، وصديقي، ومعلمي أحياناً بعد ظهيرة أيام العطل، حيث كان يعلمني كيف أصبح كاتباً. هذا النشاط الأخير كان عادة ما يحدث في أيام السبت. كنا نلتقي في مطعم صغير بالقرب من الحرم الجامعي، ونجلس إلى طاولة كبيرة حيث نضع الكتب والأوراق، فكان يقرأ نصوصي ويعطيني النصائح، ويحثني على البدء من جديد، وعدم الكف أبداً عن إعادة صياغة جملي. «لا وجود لنص جيد أبداً، كان يقول لي، بل توجد لحظة يكون فيها أقل سوءاً من ذي قبل». وبين لقاء وآخر، كنت أقضي ساعات طويلة في غرفتي أعمل على النصوص، أعيد صياغتها وأراجعها ثانية. وهكذا، أنا الذي لطالما أخذت الحياة بنوع من الخفة، ولطالما استطعت أن أخدع الناس من حولي، كنت قد واجهت عقبة في حياتي! وأي عقبة! هاري كبير بلحمه ودمه؛ الشخص الأول والوحيد الذي جعلني أواجه نفسي.

لم يكتف هاري بأن علّمني الكتابة، بل علّمني أن أفتح ذهني أيضاً. اصطحبني إلى المسرح، وإلى العروض الفنية، والسينما. وإلى السيمفوني هال في بوسطن أيضاً، إذ كان يقول إن الأوبرا الراقية كانت تبكيه. كان يرى أننا متشابهان، وكثيراً ما كان يحكي لي عن حياته الماضية ككاتب. كان يقول إن الكتابة غيّرت حياته، وإن ذلك حدث في منتصف السبعينيات. وأتذكر أنه ذات يوم ذهبنا فيه لنستمع إلى حفل كورال للمتقاعدين، فتح لي خزانة ذكرياته. وُلد عام 1941 في مدينة بينتون، بنيو جيرسي، لأم تعمل سكرتيرة وأب طبيب، وكان طفلهما الوحيد. أعتقد أنه كان طفلاً سعيداً، وأنه لم يكن من شيء يُذكر عن سنواته الأولى. في نظري، بدأت قصته الحقيقية في نهاية الستينيات، بعد أن أنهى دراساته في الآداب، متخرجاً من جامعة نيويورك، ووجد عملاً كمعلم في ثانوية بكوينز. لكن سرعان ما شعر بالضيق في أقسام

الدراسة؛ فلم يكن يراوده إلا حلم واحد: أن يصبح كاتباً. عام 1972، نُشرت روايته الأولى التي كان قد علق عليها آمالاً كبيرة، لكنها لم تحظ إلا بنجاح محدود جداً، فقرر أن ينتقل إلى مرحلة جديدة. «ذات يوم، قال لي، سحبت مدخراتي من البنك وانطلقت: قلت لنفسني إنه حان الوقت لتأليف كتاب جيد حقاً، فبدأت أبحث عن منزل على الشاطئ لأقضي فيه بضعة أشهر في هدوء وأعمل في سلام. وجدت منزلاً في أورورا، وعرفت على الفور أنه المنزل المناسب، فغادرت نيويورك في نهاية مايو عام 1975، واستقرت في نيو هامبشير، ولم أغادرها أبداً. لأن الكتاب الذي كتبته في ذلك الصيف قد فتح لي أبواب الشهرة: نعم يا ماركوس، كتبت أصول الشر في ذلك العام، بعد انتقالي إلى أورورا، واشترت المنزل بعد ذلك بالأموال التي تقاضيتها بموجب حقوق النشر، وما زلت أعيش فيه حتى الآن. إنه مكان خلاب، سترى، ينبغي بك أن تزورني هناك...».

ذهبت إلى أورورا لأول مرة في بداية يناير عام 2000، أثناء الإجازة الدراسية لأعياد الميلاد، وكان قد مضى على لقائي الأول بهاري عام ونصف العام. أتذكر أنني أتيت يومذاك حاملاً نبئاً له وزهوراً لزوجته. وحين رأى هاري الباقة الضخمة، نظر إليّ مستغرباً وقال:

- زهور؟ هذا مثير للاهتمام. هل لديك ما تعترف لي به، يا ماركوس؟ مكتبة سرّ من قرأ
- إنها لزوجتك.
- زوجتي؟ لكنني لست متزوجاً.

أدركت حينذاك أننا طوال المدة التي كنا نتقابل فيها، لم نتطرق أبداً إلى حياته الخاصة؛ لم تكن هناك من سيدة هاري كبير، ولم تكن هناك عائلة هاري كبير. لم يكن هناك سوى كبير. كبير وحده. كبير الذي يعيش حياة مملة في منزله لدرجة أنه تربطه علاقة صداقة مع أحد

تلاميذه. أدركت ذلك من خلال ثلاجته؛ فبعد وصولي بوقت وجيز، وفيما كنا جالسَيْن في غرفة المعيشة، غرفة رائعة ذات جدران مغطاة بالخشب والكتب، سألتني ما إذا كنت أرغب في أن أشرب شيئاً.

- ليمونادة؟ عرض عليّ.

- بكل سرور.

- يوجد إبريق من الليمونادة في الثلاجة، أعد لك خصيصاً. اسكب لنفسك ما تريد وأحضر لي كوباً كبيراً من فضلك.

نهضت لأنفذ ما طُلب مني، وحين فتحت الثلاجة، وجدتُها فارغة؛ لم يكن هناك سوى إبريق بائس من الليمونادة المحضرة بعناية، مع قطع من الثلج على شكل نجوم، وقشور الليمون، وأوراق النعناع. كانت ثلاجة رجل وحيد.

- ثلاجتك فارغة يا هاري، قلت وأنا عائد إلى غرفة المعيشة.

- أوه، سأذهب للتسوق فيما بعد. اعذرني، فلست معتاداً على استقبال الضيوف.

- هل تعيش وحدك هنا؟

- بالطبع. مع من تريدني أن أعيش؟

- أقصد، أليست لك أسرة؟

- لا.

- لا زوجة ولا أطفال؟

- لا شيء.

- صديقة؟

ابتسم ابتسامة حزينة.

- ولا صديقة. لا شيء.

جعلتني إقامتي الأولى في أورورا أدرك أن الصورة التي كنت قد كونتها عن هاري خاطئة: كان منزله على ساحل المحيط شاسعاً، لكنه فارغ. فهاري ل. كيبر، نجم الأدب الأمريكي، الأستاذ الجامعي

المحترم، المحبوب من طلابه، الجذاب، صاحب الكاريزما، الأنيق، الملاك، النافذ، يصبح هاري فقط عند رجوعه إلى منزله في تلك المدينة الصغيرة بنيو هامبشير. رجل محاصر وحزين أحياناً، يحب النزاهات الطويلة على الشاطئ أمام منزله، ويحرص على توزيع الخبز على النوارس، الخبز الذي يحتفظ به في علبة من الصفيح مكتوب عليها ذكرى من روكلاند، مين. وتساءلت عما قد يكون حدث لهذا الرجل لينتهي به الحال على هذا النحو.

لم تكن وحدة هاري لتشغلني لو لم تنتشر الإشاعات حول صداقتنا، فكان بقية الطلاب قد لاحظوا أن ثمة علاقة مميزة تجمعني بهاري، فراحوا يلمحون على أنها علاقة مثلية. انتهى بي الأمر إلى أنني سألته ذات صباح سبت:

- هاري... لماذا أنت وحيد؟

أوماً برأسه؛ ورأيت الدمعة في عينه.

- أنت تحاول أن تحدثني عن الحب، يا ماركوس، لكن الحب معقد. الحب معقد جداً. إنه أروع وأسوأ شيء يمكن أن يحدث للمرء في آن واحد. ستكتشف ذلك يوماً. يمكن أن يؤلمك ألماً شديداً. لكن يجب ألا تخاف السقوط، وخاصة السقوط في الحب، فالحب جميل جداً أيضاً، لكن مثل كل ما هو جميل، إنه يبهرك ويؤلم عينيك. لهذا السبب، غالباً ما نبكي بعده.

ومنذ ذلك اليوم، أصبحت زياراتي لهاري في أورورا منتظمة. كنت آتي من بوروس أحياناً لأقضي اليوم وأعود، وأقضي الليل هناك أحياناً أخرى. كان هاري يعلمني أن أصبح كاتباً، وحاولت أنا أن أجعله أقل شعوراً بالوحدة. وهكذا، في السنوات اللاحقة التي أدت إلى تخرجي من الجامعة، كنت ألتقي بهاري كبير، الكاتب النجم، في بوروس، وأرافق هاري فقط، الرجل الوحيد، في أورورا.

في صيف عام 2002، بعد قضائي أربع سنوات في بوروس، حصلت على شهادتي الجامعية في الآداب. وبعد حفل التخرج، الذي أقيم في المسرح الكبير للجامعة حيث ألقى كلمتي - بصفتي الأول في دفعتي - أمام أسرتي وبعض الأصدقاء الذين أتوا من مونتكليير فرأوا أنني كنت لا أزال المبهر، تنزهت مع هاري في الحرم الجامعي. تسكعنا تحت أشجار الدلب الكبيرة، وقادتنا نزهتنا بالصدفة إلى صالة الملاكمة. كانت الشمس مشرقة، كان يوماً رائعاً. طفنا مرة أخيرة بين أكياس الملاكمة والحلبات.

- هنا بدأ كل شيء، قال هاري. ماذا ستفعل الآن؟

- سأعود إلى نيو جيرسي، سأؤلف كتاباً، وسأصبح كاتباً، كما علمتني. سأكتب رواية عظيمة.

ابتسم.

- رواية عظيمة؟ تحلّ بالصبر، يا ماركوس، فأمامك العمر كله لتفعل ذلك. ستعود إلى هنا من وقت لآخر، أليس كذلك؟

- بكل تأكيد.

- مكانك محفوظ دائماً في أورورا.

- أعرف ذلك، يا هاري. شكراً.

نظر إليّ وأمسك بكتفيّ.

- مرت السنوات سريعة منذ لقائنا. لقد تغيرت كثيراً؛ أصبحت رجلاً. أنا متشوّق لقراءة روايتك الأولى.

حدّقنا أحدهنا في الآخر طويلاً ثم أضاف:

- لماذا تريد أن تكتب، يا ماركوس؟

- لا أعلم.

- هذا ليس جواباً.

- لأن الكتابة تجري في دمي... ولأنها هي أول ما يخطر لي

حين أستيقظ في الصباح. هذا كل ما يمكنني قوله. وأنت لماذا أصبحت كاتباً، يا هاري؟

- لأن الكتابة أعطت معنى لحياتي. وإذا لم تكن قد لاحظت ذلك، فالحياة، بشكل عام، لا معنى لها. إلا إذا اجتهدت لتمنحها المعنى وطلبت من الرب كل يوم أن يساعدك في تحقيق هذا الهدف. أنت موهوب، يا ماركوس: فأعطِ لحياتك معنى. دع رياح الانتصار تنفخ على اسمك. أن تكون كاتباً، يعني أن تكون حياً.

- وإذا لم أنجح في ذلك؟

- ستنجح. سيكون الأمر صعباً، لكنك ستنجح. في اليوم الذي ستمنح الكتابة معنى لحياتك، ستكون كاتباً حقيقياً. وحتى يأتي ذلك اليوم، لا تخف من السقوط.

الرواية التي كتبتها في العامين التاليين هي التي رفعتني إلى القمة. عرضت عليّ العديد من دور النشر شراء المخطوط، وفي نهاية المطاف، في عام 2005، وقعت عقداً في نيويورك مع دار نشر شמיד وهانسون المرموقة مقابل مبلغ مالي مغرٍ، وجعلني مديرها النافذ روي بارناسكي أوقع عقداً يشمل خمسة أعمال. وفور صدورهما في خريف عام 2006، حققت الرواية نجاحاً هائلاً، وأصبح المبهر لدى ثانوية فيلتون روائياً مشهوراً وتغيرت حياتي رأساً على عقب؛ لم يمضِ على تخرجي من الجامعة سوى القليل، حتى أصبحت ثرياً ومعروفاً. وكنت بعيداً كل البعد من معرفة أن درس هاري كان قد بدأ للتو.

هنا... حيث زُرعت زهور الكوبية

«هاري... لديّ شكوك حيال ما أكتبه، لا أدري إن كان جيداً أم لا. إن كان يستحق العناء...»

- ارتدّ سروال الرياضة، يا ماركوس، واذهب لتجري.

- الآن؟ إنها تمطر بغزارة!

- توقف عن الأنين، أيها الواهن. لم يقتل المطر أحداً يوماً، وإذا لم تكن لديك الشجاعة لتجري تحت المطر، فلن تكون لديك الشجاعة لتؤلف كتاباً.

- هل هي إحدى نصائحك الشهيرة؟

- نعم، وهي نصيحة تصلح لكل الشخصيات التي تحيا بداخلك: الرجل، والملاك، والكاتب. إذا راودتك الشكوك يوماً حيال ما تقوم به، فاذهب واجر. اجر حتى تفقد وعيك، ستشعر حينئذ بتلك الرغبة في الانتصار تولد بداخلك. أتعلم، يا ماركوس، أنا أيضاً كنت أكره المطر من قبل...»

- وما الذي جعلك تغيّر رأيك؟

- شخص ما.

- من؟

- هيا. اذهب الآن. ولا ترجع إلا وأنت منهك تماماً.

- كيف تريدني أن أتعلّم إن كنت لا تحكي لي شيئاً؟

- أنت تطرح الكثير من الأسئلة، يا ماركوس. جرياً ممتعاً.

كان رجلاً ضخماً لا يبدو عليه التساهل؛ رجل أمريكي أسود، يده مثل مضربين، يرتدي سترة ضيقة تفصح بنيته القوية والقصيرة. في المرة الأولى التي رأيته فيها، صوب مسدساً نحوي. وكان أول شخص في حياتي هددني بسلاح. دخل حياتي يوم الأربعاء 18 يونيو 2008، في اليوم الذي بدأت فيه فعلاً تحرّياتي في جريمتي قتل نولا كيلرغان وديبورا كوبر. في ذلك الصباح، بعد أن كنت قد قضيت يومين في غوز كوف، قررت أنه حان الوقت لأواجه الحفرة الكبيرة التي تم تفريغها على مسافة عشرين متراً من المنزل، والتي كنت قد اكتفيت حتى الآن بالنظر إليها من بعيد. بعد أن تسللت منحنيّاً تحت أشرطة الشرطة، فحصت عن كذب تلك الأرض التي كنت أعرفها جيداً. كانت غوز كوف محاطة بالشاطئ والغابة الساحلية، ولم يكن هناك أي حواجز أو ممرات محظورة تعيق الدخول إلى المكان، بحيث كان بإمكان أي أحد أن يدخل غوز كوف ويخرج منها، وكنا غالباً ما نرى متنزهين يسيرون بمحاذاة الشاطئ أو يعبرون الغابة القريبة. كانت الحفرة تقع على بقعة عشب أعلى من مستوى المحيط، بين الشرفة والغابة. عند وصولي إليها، راحت ملايين الأسئلة تدور في ذهني، من بينها عدد الساعات التي قضيتها على هذه الشرفة أو في مكتب هاري، فيما كانت جثة تلك الفتاة راقدة هنا تحت الأرض. التقطت بعض الصور ومقاطع الفيديو

أيضاً، محاولاً تخيل الجثة المتحللة التي وجدها رجال الشرطة. كنت مأخوذاً بموقع الجريمة لدرجة أنني لم أشعر بوجود شخص خلفي. وحين استدرت لأصور المسافة بين الشرفة ومكان الحفرة، رأيته شاهراً مسدسه على بعد بضعة أمتار مني. صرخت:

- لا تطلق النار! لا تطلق النار، بحق الجحيم! أنا ماركوس غولدمان! الكاتب!

خفض سلاحه فوراً.

- أنت ماركوس غولدمان؟

أدخل مسدسه في جيب مثبت على حزامه، ورأيت أنه كان يضع إشارة.

- هل أنت شرطي؟

- الرقيب بيرى غاهالوود، من الفرقة الجنائية لشرطة الولاية. ماذا تفعل هنا؟ إنه مسرح جريمة.

- هل أنت معتاد أن تصوب سلاحك نحو الناس هكذا؟ ماذا لو كنت عضواً في الشرطة الفيدرالية؟ كنت ستكون في ورطة، أليس كذلك؟ كنتُ فصلتك عن عملك على الفور.

انفجر ضاحكاً.

- أنت؟ شرطي؟ لقد راقبتك لمدة عشر دقائق وأنت تسير على أطراف أصابعك كي لا توسخ حذاءك! ثم إن الشرطيين الفيدراليين لا يصرخون عندما يرون مسدساً، بل يُخرجون مسدساتهم ويطلقون النار على كل ما يتحرك.

- ظننتك لصاً.

- لأنني أسود؟

- لا، لأنك تبدو كاللص. هل ربطت العنق التي ترتديها هندية؟

- نعم.

- موضعها قديمة جداً.

- هل ستقول لي ماذا تفعل هنا؟
- إني أسكن هنا.
- ماذا تعني بـ تسكن هنا؟
- إني صديق لهاري، وهو من طلب مني أن أهتم بالمنزل أثناء غيابه.
- أنت مجنون تماماً! إن هاري كبير متهم بجريمتي قتل، وقد فُتس منزله ومُنِع دخوله! سأقبض عليك، يا صغيري.
- أنت لم تختتم المنزل بالشمع الأحمر.
- ارتبك للحظة، ثم أجاب:
- لم أتخيل أن كاتباً هاوياً سيأتي ليحتل المنزل!
- كان عليك أن تفكر في ذلك. حتى وإن كان هذا أمراً صعباً على شرطي.
- سأقبض عليك مع ذلك.
- ثغرة قضائية، صحت في وجهه. لا شمع أحمر، لا حظر! سأبقى هنا. وإلا سأقاضيك أمام المحكمة العليا، وسألاحقك لأنك هددتني بسلاحك. سأطالب بالملايين كتعويض على الأضرار المادية والمعنوية. لقد صورت كل شيء.
- إنها تعليمات روث، ها؟ قال متنهداً.
- نعم.
- يا له من شيطان، إنه مستعد أن يُجلس أمه على الكرسي الكهربائي إذا كان ذلك سيبرئ أحد موكله!
- ثغرة قضائية، يا حضرة الرقيب. ثغرة قضائية. أتمنى أن لا تكون غاضباً مني.
- بل أنا كذلك. لكن المنزل لم يعد يهمنا على أية حال. لكني أمنعك من وضع قدمك وراء أشرطة الشرطة. ألا تعرف القراءة؟ إنه مكتوب عليها: مسرح جريمة، ممنوع العبور.

- كنت قد استعدت رباطة جأشي، فعدلت قميصي واقتربت بضع خطوات من الحفرة.
- فليكن بعلمك، يا حضرة الرقيب، شرحت له بنبرة جادة، أنني أحقق في القضية أنا أيضاً. فقل لي ما تعرفه عنها.
- راح يضحك من جديد.
- لا بد أنني أحلم! أنت تحقق؟ يا له من خبر! على فكرة، أنت مدين لي بخمسة عشر دولاراً.
- خمسة عشر دولاراً؟ لماذا؟
- ثمن روايتك. لقد قرأتها السنة الماضية. رواية رديئة جداً. قد تكون أسوأ ما قرأت في حياتي، وأود أن أسترجع مالي.
- حدقت في عينيه وقلت له:
- اغرب عن وجهي، يا حضرة الرقيب.
- ولأنني كنت لا أزال أتقدم دون أن أنظر من حولي، سقطتُ في الحفرة، وأخذت أصرخ من جديد كوني في المكان نفسه حيث ماتت نولا.
- مستحيل ما تفعله! صاح غاهالوود من أعلى.
- ثم مد لي يده وساعدني على الصعود، فتوجهنا إلى الشرفة وجلسنا هناك، ثم أعطيته ماله. لم يكن لدي سوى ورقة خمسين دولاراً.
- هل لديك فكرة؟ سألته.
- لا.
- احتفظ بالباقي إذاً.
- شكراً، أيها الكاتب.
- لم أعد كاتباً.
- أدركت سريعاً أن الرقيب غاهالوود رجل جلف عنيد. ومع ذلك، بعد بعض التوسل، حكى لي أن يوم اكتشاف الجثة، كان لديه دوام وكان من الأوائل الذين تجمعوا حول الحفرة.

- كانت هناك رفات بشرية، وحقيبة جلدية. حقيبة مكتوب عليها من الداخل اسم نولا كيلرغان. فتحتها، فكان بداخلها مخطوطة، في حالة جيدة نسبياً. أعتقد أن الجلد حافظ عليها.

- كيف عرفت أنها مخطوطة لهاري كيير؟

- في البداية، لم أكن أعلم ذلك. لكن حين أريته إياها في غرفة الاستجوابات، عرفها على الفور. كما أنني راجعتُ المخطوطة بنفسي بعد ذلك، فوجدت أنها مطابقة كلمة بكلمة مع روايته أصول الشر التي نُشرت عام 1976، أي بعد أقل من عام على اختفاء نولا. مصادفة غريبة، أليس كذلك؟

- حقيقة أنه كتب هذه الرواية عن نولا لا تثبت أنه قتلها. كما أنه قال إن المخطوطة كانت قد اختفت وإنه كان يحدث أن تأخذها نولا.

- لقد عثرنا على جثة الفتاة في حديقة منزله. مع مخطوطة كتابه. أعطني الدليل على براءته، أيها الكاتب، وقد أغير رأيي.

- أود أن أرى هذه المخطوطة.

- مستحيل، فهي أحد الأدلة.

- لكنني قلت لك إنني أحقق من جهتي أنا أيضاً.

- تحقيقك لا يهمني، أيها الكاتب. ستطلع على الملف بعد أن يُعرض كيير على هيئة المحلفين.

أردت أن أظهر له أنني لست بهاءٍ وأنني على علم ببعض تفاصيل القضية.

- لقد تحدثت مع ترافيس داون، الرئيس الحالي لشرطة أورورا.

يبدو أن وقت اختفاء نولا، كانت لديه بعض الشكوك حول سائق سيارة شيفروليه مونت كارلو سوداء.

- أنا أعلم ذلك. وتخيل، يا شرلوك هولمز: كان هاري كيير

يمتلك سيارة شيفروليه سوداء مونت كارلو آنذاك.

- كيف عرفت بأمر الشيفروليه؟

- لقد قرأت التقرير الذي حُرر وقتذاك .

فكرت للحظة ، ثم قلت :

- لحظة ، يا حضرة الرقيب ، بما أنك تعرف كل شيء ، لماذا أراد هاري أن يزرع زهوراً في المكان الذي يفترض أنه دفن فيه نولا ؟
- لقد اعتقد أن البستانيين لن يحفروا حتى ذلك العمق .
- هذا كلام غير منطقي ، وأنت تدرك ذلك . لم يقتل هاري نولا كيلرغان .

- كيف يمكنك أن تكون واثقاً من ذلك إلى هذا الحد ؟

- كان يحبها .

- جميعهم يقولون ذلك أثناء محاكمتهم : «أحببتها كثيراً ، فقتلتها» . من يحب لا يقتل .

وعند هذه الكلمات ، نهض غاهالوود من مقعده ليبين لي أنه انتهى من الكلام معي .

- هل ستغادر سريعاً هكذا ، يا حضرة الرقيب ؟ لقد بدأنا تحقيقنا للتو !

- تحقيقنا ؟ بل تحقيقي ، تقصد .

- متى سنلتقي مجدداً ؟

- لن نلتقي أبداً أيها الكاتب ، أبداً .

وانصرف دون أي تحية .

إذا كان غاهالوود هذا لم يأخذ كلامي على محمل الجد ، فهذا لم يكن الحال بالنسبة إلى ترافيس داون ، الذي رحل لأقابلة في مخفر شرطة أورورا بعد مغادرة غاهالوود بقليل ، لأحمل له الرسالة مجهولة المصدر التي وجدتها أمس مساءً .

- جئت لأراك لأنني وجدت هذه في غوز كوف ، قلت وأنا أمد له الورقة .

قرأها.

- عد إلى ديارك، يا غولدمان. متى وجدتها؟

- أمس مساء. ذهبت لأتنزه على الشاطئ، وعند عودتي وجدت هذه الرسالة عند باب المدخل.

- أتخيل أنك لم تر أحداً...

- صحيح.

- أهي المرة الأولى؟

- نعم، لكن لم يمر سوى يومين منذ وصولي إلى هنا...

- سأسجل شكوى لأفتح ملفاً، لكن عليك توخي الحذر، يا

ماركوس.

- ظننت أنني أنصت إلى أمي!

- لا، الأمر خطير. لا تقلل من شأن التأثير العاطفي لهذه القصة.

هل أستطيع الاحتفاظ بالرسالة؟

- بكل تأكيد.

- شكراً. كيف يمكنني أن أساعدك؟ لا أعتقد أنك جئت إلى هنا

لتكلمني عن قصاصة الورق هذه فحسب.

- أود أن تصطحبني إلى سايد كريك، إذا كان لديك الوقت. أريد

أن أرى المكان الذي حدث فيه كل شيء.

لم يقبل ترافيس أن يصطحبني فحسب، بل أخذني في رحلة عبر

الزمن عائداً بنا ثلاثة وثلاثين عاماً إلى الوراء. ففي سيارة الدورية،

اتبعنا المسار نفسه الذي كان قد سلكه بعد أن تلقى البلاغ الأول من

ديبورا كوبر. انطلقنا من أورورا، وتبعنا الطريق رقم 1 باتجاه مين

والذي يمتد بمحاذاة الساحل، فمررنا أمام غوز كوف، ثم بعد بضعة

أميال وصلنا إلى طرف غابة سايد كريك، وعند التقاطع مع سايد كريك

لين، وصلنا إلى الطريق المؤدية إلى منزل ديبورا كوبر. انعطف فيها

ترافيس فوصلنا أمام المنزل، وهو مبنى جميل من الألواح الخشبية،
مواجه للمحيط ومحاط بالغابات. كان مكاناً رائعاً، لكنه ناءً تماماً.
- لم يتغير شيء، قال ترافيس ونحن ندور حول المنزل. لقد أعيد
طلاؤه فحسب، فلونه أفتح قليلاً عما قبل. أما الباقي فهو كما كان
بالضبط.

- من الذي يسكنه الآن؟

- زوجان من بوسطن، يقضيان فيه الصيف. يأتيان في يوليو
ويغادران في نهاية أغسطس. ويبقى المنزل فارغاً عدا ذلك.

أشار إلى الباب الخلفي الذي يؤدي إلى المطبخ وواصل:

- المرة الأخيرة التي رأيت فيها ديبورا كوبر على قيد الحياة،
كانت واقفة أمام هذا الباب. كان الرئيس برات قد وصل لتوه: طلب
منها أن تظل هادئة في منزلها وألا تقلق، ثم ذهبنا نتفقد الغابة. من كان
يتصور أن بعد ذلك بعشرين دقيقة، كانت ستقتل برصاصة في الصدر؟
وهو يتحدث، اتجه نحو الغابة. فهمت أنه سلك المسار نفسه
الذي سلكه مع الرئيس برات قبل ثلاثة وثلاثين عاماً.

- ما جديد الرئيس برات؟ سألته وأنا أتبعه.

- إنه متقاعد. ما زال يقيم في أورورا، على ماونتن درايف. لا
بد أنك التقيت به. إنه رجل ذو بنية قوية، يرتدي سراويل الغولف في
جميع المناسبات.

توغّلنا بين صفوف الأشجار، حيث كان باستطاعتنا رؤية الشاطئ
عبر الغطاء النباتي الكثيف. وبعد ربع ساعة من المشي، توقف ترافيس
أمام ثلاث أشجار صنوبر مستقيمة تماماً.

- هنا، قال لي.

- هنا ماذا؟

- هنا عثرنا على الدم وخصلات الشعر الأشقر وقطعة القماش
الأحمر. كان مشهداً فظيماً! سأذكر هذا المكان طوال حياتي: لقد

ازدادت كمية الطحلب على الصخور، وكبرت الأشجار، لكن لم يتغير شيء بالنسبة إليّ.

- ماذا فعلتما بعد ذلك؟

- فهّمنا أن ثمة شيئاً خطيراً قد وقع، لكن الوقت داهمنا بحيث لم نستطع البقاء هنا لمدة أطول، إذ سمعنا طلقة النار تلك. كان جنوناً؛ نحن لم نر شيئاً... أقصد، لا بد أننا تقاطعنا مع الفتاة أو مع قاتلها في لحظة ما... لا أدري كيف مررنا بجوارهما دون أن نلاحظ شيئاً... أعتقد أنهما كانا مختبئين وسط الشجيرات وأنه كان يمنعها من الصراخ. الغابة كبيرة جداً، وليس من الصعب ألا يلاحظك أحد. أعتقد أنها استغلّت لحظة عدم انتباه من قبل المجرم لتفلت من قبضته وتركض إلى المنزل طالبة النجدة. فجاء هو للبحث عنها في المنزل، وتخلص من الأم كوبر.

- إذاً، حين سمعتما صوت الرصاص، عدتما إلى المنزل فوراً... نعم.

عدنا، أنا وترافيس، أدراجنا من حيث أتينا ورجعنا إلى المنزل. كل شيء حصل في المطبخ، قال ترافيس. لقد أتت نولا من الغابة طالبة النجدة، فاستقبلتها الأم كوبر ثم ذهبت إلى غرفة المعيشة لتتصل بالشرطة مرة أخرى وتبلغ أن الفتاة هنا. أنا أعرف أن الهاتف في غرفة المعيشة لأنني كنت قد استعملته قبل نصف ساعة لأتصل بالرئيس برات. وبينما كانت تجري المكالمة، دخل المجرم إلى المطبخ ليستعيد نولا، لكن في تلك اللحظة، ظهرت كوبر مجدداً فقتلها. ثم جرّ نولا إلى سيارته.

- أين كانت تلك السيارة؟

- على طرف الطريق رقم 1، الذي يمتد بمحاذاة تلك الغابة اللعينة. تعال، سأريك.

تركنا المنزل وراءنا، واصطحبني ترافيس نحو الغابة من جديد، إلا أنه سلك اتجاهًا مختلفاً تماماً هذه المرة، فقادني بين الأشجار بخطى واثقة. وسرعان ما وصلنا إلى الطريق رقم 1.

- كانت الشيفروليه السوداء هنا. وقتذاك، كانت المناطق المحيطة بالطريق تكسوها نباتات كثيفة حجبت الشيفروليه عن الأنظار.
- وكيف عرفت أن هذا هو الطريق الذي سلكه؟
- كانت هناك آثار دم من المنزل إلى هنا.
- والسيارة؟

- تبخرت. كما سبق أن قلت لك، أحد مساعدي الرئيس الذي أتى من هذا الطريق رآها بالصدفة. قام بمطاردتها، ونصبنا الحواجز في المنطقة بأكملها، لكنها أفلتت منا.
- لكن كيف استطاع القاتل أن يفلت من شبكة الشرطة المحكمة هذه؟

- هذا ما أود معرفته، وأعترف أنه تراودني منذ ثلاثة وثلاثين سنة العديد من الأسئلة بشأن هذه القضية. أعلم، لا يمر يوم دون أن أسأل نفسي وأنا أركب سيارة الشرطة، ما الذي كان سيحدث لو استطعنا الإمساك بتلك السيارة حينذاك. ربما كنا استطعنا إنقاذ تلك الفتاة المسكينة...

- هل تعتقد أنها كانت في السيارة؟
- الآن وقد عثرنا على جثتها على بعد ميلين من هنا، أنا متأكد من ذلك.

- وأتعتقد أيضاً أن هاري هو من كان يقود تلك السيارة الشيفروليه؟
هز كتفيه.

- لنقل إنه نظراً للمستجدات، لا أرى من قد يكون غيره.

أيد غاريث برات، الرئيس السابق لشرطة أوروبا والذي ذهب لزيارته في اليوم نفسه، رأي مساعده فيما يخص ارتكاب هاري الجريمتين. لقد استقبلني في الفناء الأمامي لمنزله، مرتدياً أحد سراويل الجولف المعهودة. أما زوجته إيمي، وبعد أن قدمت لنا شيئاً لنشربه، فتظاهرت بأنها تعتني بأحواض النباتات لتسترق السمع على محادثتنا، حتى دون أن تخفي ذلك، لأنها كانت تعلق على كلام زوجها.

- لقد سبق لي أن قابلتك، أليس كذلك؟ سألني برات.

- نعم، إنني آتي إلى أورورا بانتظام.

- إنه الشاب اللطيف الذي أَلَّف ذلك الكتاب، أوضحت زوجته.

- أنت الشاب الذي أَلَّف كتاباً، كرر لي.

- نعم. من بين أشياء أخرى.

- غاريث، لقد قلت لك ذلك لتوي! احتجت زوجته.

- حبيبتي، لا تقاطعينا من فضلك. فأنا من يستقبل الضيف،

شكراً جزيلاً لك. إذاً، سيد غولدمان، ما الداعي لتُشرفني بزيارتك هذه؟

- في الحقيقة، أنا أحاول الإجابة على بعض الأسئلة التي

أطرحها على نفسي بشأن مقتل نولا كيلرغان. لقد تحدثت إلى ترافيس داون، وقال لي إنه كانت لديك بعض الشكوك إزاء هاري كيبر حينذاك.

- صحيح.

- على أي أساس؟

- لقد أثارت بعض الأمور شكوكنا. المنحى الذي اتخذته مطاردة

السيارة على سبيل المثال: هو يدل على أن القاتل من المنطقة، فلا بد أنه كان يعرف المنطقة جيداً ليتمكن من الاختفاء هكذا، فيما كانت شرطة المنطقة بأكملها على قدم وساق. ثم إنه كانت هناك سيارة مونت كارلو السوداء تلك. لقد قمنا بجرد كل سكان المنطقة الذين يمتلكون

هذا الطراز، وكان الوحيد الذي لم تكن لديه حجة غياب هو هاري كبير.

- ومع ذلك، أنتم لم توجهوا التهم إلى هاري...
- كلا، فما عدا قصة السيارة هذه، لم يكن لدينا أي دليل حقيقي ضده. لقد قمنا بحذفه سريعاً من قائمة المشتبه فيهم. لكن أثبت العثور على جثة تلك الفتاة المسكينة في حديقة منزله أننا كنا مخطئين. الغريب في الأمر أنني لطالما شعرت بنوع من الود تجاه هذا الشخص. وقد يكون هذا ما أثر على حكمي عليه. فهو لطالما كان لبقاً وودوداً ومقنعاً... أقصد، أنت أيضاً يا سيد غولدلمان، تعرفه جيداً على ما أعتقد: فالآن وقد عرفت بأمر جثة تلك الفتاة في حديقته، ألم تسترجع شيئاً قد فعله أو قاله يوماً، كان بإمكانه أن يثير شكوكك؟
- لا، يا حضرة الرئيس. لا أذكر شيئاً من هذا القليل.

عند عودتي إلى غوز كوف، رأيت خلف أشرطة الشرطة نباتات الكوبية ذابلة عند حافة الحفرة، جذورها في الهواء. ذهبت إلى الملحق الذي كان يُستخدم مرآباً وأخذت منه مجرفة، ثم دخلت المنطقة المحظورة، وحفرت التربة الرخوة، وزرعت فيها الزهور.

*

30 أغسطس 2002

- هاري؟

كانت الساعة السادسة صباحاً. كان جالساً على الشرفة وفي يده فنجان قهوة. استدار نحوي.

- ماركوس؟ أنت تتصبب عرقاً... لا تقل لي إنك كنت تجري؟

- بلا، لقد ركضت أميالي الثمانية.

- آه! متى استيقظت من النوم؟

- باكراً. أتذكر حين بدأتُ آتي إلى هنا قبل عامين وكنتُ تجبرني

على الاستيقاظ فجراً؟ لقد اعتدت على ذلك. أنا أستيقظ باكراً الآن،
لأملك العالم. وأنت، ماذا تفعل على الشرفة؟
- أتأمل، يا ماركوس.

- ماذا تتأمل؟

- أترى ذلك الركن الصغير من العشب هناك، المحشور بين
أشجار الصنوبر والمُطل على الشاطئ؟ أرغب منذ وقت طويل في أن
أستعمله في شيء. إنه الجزء الوحيد المنبسط والصالح لتجهيز حديقة
صغيرة. أريد أن أخلق مكاناً جميلاً صغيراً لي، فيه مقعدان، وطاولة
من حديد، وحولها زهور الكوبية. الكثير والكثير من زهور الكوبية.

- لماذا الكوبية بالذات؟

- عرفت أحداً كان يحبها. أريد أن تكون لدي أعداد هائلة من
زهور الكوبية لتذكرني بها دائماً.

- أهي فتاة أحببتها؟

- نعم.

- يبدو عليك الحزن، يا هاري.

- لا تشغل بالك.

- هاري، لماذا لا تحدثني أبداً عن حياتك العاطفية؟

- لأنه ليس هناك ما يقال عنها. انظر، انظر جيداً، بل أغمض
عينيك! نعم، أغمضهما جيداً، بحيث لا يخترق الضوء جفنيك. أترى؟
هناك ذلك الطريق المرصوف الذي يبدأ من الشرفة ويصل إلى الكوبية.
وهناك أيضاً المقعدان المُطلان على المحيط وعلى الزهور الجميلة. ما
الذي يمكن أن يكون أجمل من رؤية المحيط والكوبية معاً؟ كما هناك
أيضاً بركة صغيرة تتوسطها نافورة على شكل تمثال. وإذا كانت كبيرة
بما يكفي، فسأضع بداخلها بعض الأسماك اليابانية الملونة.

- أسماك؟ لن تبقى على قيد الحياة ساعة واحدة، ستبتلعها

النوارس!

ابتسم.

- يحق للنوارس أن تفعل ما تشاء هنا، يا ماركوس. لكنك محقّ، لن أضع أسماكاً في البركة. هيا، اذهب وخذ حماماً ساخناً. قبل أن تصاب بنزلة برد فيظن والداك أنني لا أعطني بك جيداً. أما أنا، فسأعد الفطور. ماركوس...

- نعم، يا هاري؟

- لو كان لدي ابن...

- أعلم، يا هاري، أعلم.

*

في صباح يوم الخميس 19 يونيو 2008، ذهبت إلى فندق سي سايد. كان من السهل جداً الوصول إليه: انطلاقاً من سايد كريك لين، كل ما كان عليّ فعله هو قطع أربعة أميال على الطريق رقم 1 في اتجاه الشمال، إلى أن تظهر لافتة كبيرة مكتوب عليها:

فندق ومطعم سي سايد

منذ 1960

كان المكان الذي انتظر فيه هاري نولا لا يزال موجوداً، فلا بد أنني مررت من أمامه مئات المرات، لكنني لم أعره أدنى انتباه. كان مبنى من الخشب، يعلوه سقق أحمر، ومحاط بحديقة من الورود، تمتد الغابة وراءها. كانت كل الغرف في الطابق الأرضي تطل على المرآب، وكانت سلالم خارجية تؤدي إلى غرف الطابق العلوي.

وبحسب موظف الاستقبال الذي استجوبته، فإن المبنى لم يتغير منذ أن تم بناؤه، إذ تم تحديث الغرف فحسب، وأضيف مطعم ملاصق للمبنى. وليثبت ما قاله لي، أخرج كتاباً مصوراً طُبع بمناسبة مرور أربعين سنة على تأسيس الفندق، وأشار إلى صور قديمة.

- لماذا أنت مهتم بهذا المكان إلى هذا الحد؟ سألني أخيراً.
- لأنني أبحث عن معلومة مهمة.
- تفضل.

- أريد أن أعرف ما إذا كان شخص ما قد أمضى ليلة السبت 30 أغسطس 1975 هنا، في الغرفة رقم 8.

انفجر ضاحكاً.

- 1975؟ أنت جاد؟ منذ أن بدأنا نحتفظ بالمعلومات على الحاسوب، يمكن لنا أن نعود عامين إلى الوراء على الأكثر. يمكنني أن أخبرك مَنْ قضى الليل هنا في 30 أغسطس 2006، إذا أردت، رغم أنها معلومات لا يحق لي أن أطلعك عليها في الحقيقة.

- ما من طريقة للحصول على المعلومة إذاً؟

- ما عدا السجلات، المعلومات الوحيدة التي نحتفظ بها هي العناوين البريدية التي نرسل إليها نشرتنا الإخبارية. هل يهتمك الحصول على نشرتنا الإخبارية؟

- لا، شكراً. لكنني أود أن أزور الغرفة رقم 8 إن أمكن ذلك.

- لا يمكنك زيارتها، لكنها شاغرة. هل تريد كراءها مقابل مئة دولار لليلة؟

- اللافتة الخارجية تشير إلى أن جميع الغرف هي بخمسة وسبعين دولاراً. اسمعني، سأعطيك عشرين دولاراً وستريني الغرفة، وهكذا سيرضى الجميع.

- أنت مفاوض شرس. لكنني قبلت.

تقع الغرفة رقم 8 في الطابق الأول، وهي غرفة عادية جداً، سرير، وثلاجة صغيرة، وتلفاز، ومكتب صغير، وحمام.

- لماذا تهتمك هذه الغرفة إلى هذا الحد؟ سألني الموظف.

- إنه أمر معقد. قال لي صديق لي إنه قضى فيها ليلة عام 1975.

وإذا كان ذلك صحيحاً، فهذا يعني أنه بريء مما يتهمونه به.

- وبمَ يتهمونه؟

لم أجب على السؤال، بل سألته:

- لماذا يسمى هذا المكان بفندق سي سايد؟ فهو حتى لا يطل على البحر.

- صحيح، لكن هناك ممر صغير يؤدي إلى الشاطئ، عبر الغابة. هذا مكتوب في النشرة الإعلانية. لكن النزلاء لا يهتمهم الأمر: فأولئك الذين يتوقفون هنا لا يذهبون إلى الشاطئ.

- هل ما تقوله يعني أنه يمكن لنا أن نسير بمحاذاة البحر من أورورا، وأن نعبر الغابة، ونصل إلى هنا؟
- مبدئياً، نعم.

قضيت بقية النهار في المكتبة العامة، أراجع الأرشيف محاولاً استعادة خيط أحداث الماضي. ولهذا الغرض، كان إرني بينكاس خير عون لي، إذ لم يبخل بوقته إطلاقاً ليساعدني في أبحاثي.

وبحسب صحف تلك الفترة، لم يرَ أحدٌ أي شيء غريب يوم اختفاء نولا: لا نولا وهي تهرب، ولا أحداً يحوم حول منزلها. ففي نظر الجميع، كان هذا الاختفاء لغزاً كبيراً، أضاف إليه موت ديبورا كوبر مزيداً من الغموض. مع ذلك، أبلغ بعض الشهود - جيران على وجه الخصوص - عن سماع ضوضاء وصراخ في منزل كيلرغان في ذلك اليوم، في حين أكد آخرون أن الضوضاء كانت عبارة عن الموسيقى الصاخبة التي لطالما استمع إليها الكاهن كيلرغان. فتحقيقات جريدة أورورا ستار كشفت أن الأب كيلرغان كان دائماً ما يصلح الأغراض في المرآب ويستمع إلى الموسيقى أثناء ذلك. وكان يرفع صوت مشغل الموسيقى بما يكفي ليغطي على صوت أدواته، إذ كان يعتبر أن الموسيقى مهما كانت عالية، تظل أفضل من صوت المطرقة. لكن في حال حاولت ابنته طلب النجدة، فهو لم يكن يستطيع

التعليمية، وأنهت صحيفة بوسطن غلوب على نحوٍ أحادي التعاون بينهما؛ أما مجلس إدارة جامعة بوروس، فقرر فصله على الفور وإعفاءه من جميع مهامه الجامعية. كما سمحت الصحف لنفسها بتسميته بالمفترس الجنسي، وبات هاري محور كل النقاشات والمحادثات. وشمّ روي بارناسكي في كل هذه الفوضى فرصةً تجارية لا تُفوّت، فأراد إصدار كتاب عن القضية بأي ثمن، ولأن دوغلاس لم ينجح في إقناعي، فقد اتصل بي هو شخصياً ليعطيني درساً في اقتصاد السوق:

- الجمهور يريد هذا الكتاب، راح يشرح لي. بل إن هناك معجبين يهتفون باسمك أسفل بنايتنا.

وشغلّ الميكروفون وأشار لمساعديه فراحوا يهتفون: غولدمان! غولدمان! غولدمان!

- إنهم ليسوا معجبين يا روي، بل هم مساعدوك. صباح الخير، ماريزا...

- صباح الخير، سيد غولدمان، ردّت ماريزا. التقط بارناسكي السماعة من جديد.

- المهم، فكر قليلاً يا غولدمان، سنصدر الكتاب في الخريف، وسيكون نجاحه مضموناً! أيكفيك شهر ونصف الشهر لإنجاز الكتاب؟

- شهر ونصف الشهر! لقد استغرق مني كتابي الأول سنتين. ثم إنني لا أدري ماذا يمكنني أن أكتب، فلا نعلم ما جرى بعد.

- يمكنني أن أزودك بكاتب ظل لتسرع أكثر. ثم إننا لسنا بحاجة إلى كتابة أدبية رفيعة المستوى هنا، فما يريد أن يعرفه الناس على وجه الخصوص هو ما فعله كبير بالفتاة الصغيرة. فاكثفِ بسرد الأحداث مع شيء من الإثارة، والقذارة، والجنس طبعاً.

- الجنس؟

- هيا يا غولدمان، هل سأعلمك مهنتك؟ من سيريد أن يشتري هذا الكتاب إذا لم يكن هناك بعض المشاهد الإباحية بين العجوز

والفتاة ذات السنوات السبع؟ هذا ما يريده الناس . حتى إن لم يكن الكتاب جيداً، سنبيع منه الأطنان . هذا ما يهم، أليس كذلك؟
- كان هاري في الرابعة والثلاثين ونولا في الخامسة عشرة!
- لا تتوقف عند هذه التفاصيل . . . إذا أنجزت هذا الكتاب، فسألني عقدك السابق، وسأقدم لك نصف مليون دولار كدفعة مسبقة لأشكرك على تعاونك .

رفضت بشكل قاطع، ما أغضب بارناسكي .

- حسناً يا غولدمان، بما أنك مصر على تعقيد الأمور، فسأفعل الشيء نفسه : أنا في انتظار مخطوطتك بعد أحد عشر يوماً بالضبط، وإلا سيعني ذلك المحاكم والإفلاس!

وأغلق الخط في وجهي . وبعد ذلك بقليل، وبينما كنت أشتري بعض الأغراض من متجر في الشارع الرئيسي، تلقيت اتصالاً من دوغلاس، بإيعاز من بارناسكي بكل تأكيد، الذي حاول جاهداً إقناعي هو الآخر:

- مارك، لا أعتقد أنك في موقف يسمح لك بإملاء أي شروط . دعني أذكرك بأن بارناسكي ممسك بك من رقبتك! فعقدك السابق لا يزال سارياً، والطريقة الوحيدة لإبطاله هي أن تقبل عرضه الجديد . ثم إن هذا الكتاب سيمثل نقلة نوعية في مسيرتك الأدبية، كما أن نصف مليون دولار كدفعة مسبقة مبلغ لا بأس به .

- بارناسكي يريدني أن أكتب عملاً سوقياً! هذا أمر مرفوض تماماً! أنا لا أريد كتاباً كهذا، كتاباً أولّفه في أسبوعين ليُرمى في القمامة! فالكتب الجيدة تحتاج إلى الوقت .

- لكن هذه هي الأساليب الحديثة لكسب الأموال! الكُتّاب الذين يفكرون كثيراً وينتظرون أن يسقط عليهم الإلهام من السماء انتهوا! إن كتابك، حتى قبل أن يُكتب فيه سطر واحد، قد نجح مسبقاً لأن كل

الناس يريدون معرفة كل شيء! وفوراً. إن فرص السوق محدودة حالياً: ففي الخريف، هناك الانتخابات الرئاسية و...

- تماماً. لماذا قد يخاطر ناشر، في ذلك التوقيت، في إصدار كتاب لا علاقة له بالانتخابات الرئاسية؟

- لأنه بارناسكي! إنه وغد لعين لكنه يعرف تماماً ما يفعله. سترى، سيكون الكتاب نجاحاً كاسحاً. صدقني.

لكنني لم أعد أصدق شيئاً. دفعت ثمن مشترياتي وعدت إلى سيارتي المركونة في الشارع، فوجدت ورقة صغيرة أسفل إحدى مساحتي الزجاج، مكتوب عليها العبارة نفسها:

عد إلى ديارك، يا غولدمان.

نظرت من حولي: لا أحد. بعض الأشخاص الجالسين على شرفة مقهى قريب، وبعض الزبائن الذي يخرجون من المتجر. من كان يتعقبني؟ من كان لا يريدني أن أحقق في مقتل نولا كيلرغان؟

في اليوم التالي لهذه الحادثة الجديدة، الجمعة 20 يونيو، عدت لأزور هاري في السجن. وقبل أن أغادر أورورا، مررت بالمكتبة حيث كان قد وصل طردي.

- ما هذا؟ سألني بينكاس بفضول، آملاً أن أفتح الطرد أمامه.

- أداة أنا بحاجة إليها.

- أي نوع من الأدوات؟

- أداة تُستخدم في العمل. شكراً لاستلامك لها، يا إرني.

- لحظة، أترغب في كوب من القهوة؟ لقد أعددتها للتو. أتريد مقصاً لتفتح الطرد؟

- شكراً، يا إرني. سأشرب القهوة في المرة المقبلة. عليّ أن أذهب الآن.

عند وصولي إلى كونكورد، قررت أن أمر بمركز شرطة الولاية أولاً لأقابل الرقيب غاهالوود وأعرض عليه بعض الفرضيات التي توصلت إليها منذ لقائنا السابق.

كان مركز شرطة ولاية نيو هامبشير، الذي يضم أيضاً مكاتب الشرطة الجنائية، عبارة عن مبنى كبير من الطوب الأحمر يقع في 33 هيزن درايف، وسط مدينة كونكورد. كانت الساعة تشير إلى الواحدة ظهراً تقريباً، وقيل لي إن غاهالوود خرج ليتناول الغداء، وطلب مني أن أنتظره على مقعد في أحد الأروقة، إلى جانب طاولة عليها قهوة للبيع وبعض المجلات. وحين عاد، بعد ساعة تقريباً، ظهرت على وجهه التعابير الغاضبة نفسها.

- أهذا أنت؟ انفجر قائلاً. لقد اتصلوا بي وقالوا: أسرع، يا بيرى، هناك شخص ينتظرك منذ ساعة، فقطعت وجبتي لأعود بسرعة وأرى ما يجري، فقد يكون أمراً مهماً، لأجد الكاتب في انتظاري!
- لا تغضب مني... قلت لنفسي إن الظروف في المرة الماضية لم تكن مثالية...

- كن على يقين، أيها الكاتب، أنني أكرهك. زوجتي قرأت كتابك، وترى أنك وسيم وبارع. وظل وجهك الوسيم على ظهر ذلك الكتاب موضوعاً على منضدة السرير لأسابيع طويلة. لقد سكنت في غرفة نومنا! نمت معنا! تناولت العشاء معنا! سافرت في الإجازات معنا! تعرفت على صديقاتها! باختصار، لقد نغصت على حياتي!
- هل أنت متزوج، يا حضرة الرقيب؟ أنت فظ لدرجة أنني اعتقدت أن لا أسرة لك.

حنى رأسه وأخذ نفساً عميقاً.

- ماذا تريد، بحق السماء؟

- أن أفهم.

- هذا طموح جداً بالنسبة إلى شخص مثلك.

- أعلم ذلك .
- دع الشرطة تقوم بعملها ، ممكن؟
- أنا بحاجة إلى معلومات ، أيها الرقيب . أنا أحب أن أعرف كل شيء . إنه أمر مرضي ، أنا مصاب باضطراب القلق ، فأنا بحاجة لأن أتحكم بكل شيء .
- تحكم بنفسك إذاً!
- أيمكن أن ندخل إلى مكتبك؟
- لا .
- قل لي فقط ، هل توفيت نولا في عمر الخامسة عشرة؟
- نعم . تحليل العظام أكد ذلك .
- هي خُطفت وقُتلت في نفس الوقت إذاً؟
- نعم .
- لكن تلك الحقيقة . . . لماذا دُفنت مع حقيبتها؟
- لا أدري .
- وإذا كانت تحمل حقيبة ، فهل هذا يعني أنها هربت؟
- إذا كنت تحضر حقيبة من أجل الهروب ، كنت ستملؤها بالملابس ، أليس كذلك؟
- صحيح .
- لكن هنا ، لم يكن هناك سوى هذا الكتاب .
- نقطة لك ، قلت له . أبهرتني فصاحتك . لكن هذه الحقيقة . . .
- ما كان عليّ أن أحدثك عن تلك الحقيقة يومذاك ، لا أدري ماذا دهاني . . .
- وأنا كذلك لا أدري .
- الشفقة ، ربما . نعم ، شعرت بالشفقة نظراً إلى أنك بدوت ضائعاً فضلاً عن حذائك الملطخ بالطين .
- شكراً . إذا سمحت لي : ماذا يمكنك أن تخبرني بشأن تشريح

الجثة؟ وبالمناسبة، هل نستخدم مصطلح تشريح الجثة في الحديث عن هيكل عظمي؟

- لا أدري .

- هل مصطلح تحليلات الطب الشرعي أكثر ملاءمة؟

- لا يهمني المصطلح الدقيق! ما أستطيع أن أقوله لك هو أن

أحدهم كسر جمجمتها، كسرهما! بام! بام!

ولأنه قام بتقليد الحركة بيديه وكأنه يستخدم مضرباً، سألته:

- هل تم استخدام مضرب؟

- كيف لي أن أعرف، أيها المزعج!

- امرأة؟ أم رجل؟

- ماذا؟

- هل يمكن لامرأة أن تضرب ضربات كهذه؟ لماذا قد يكون من

اعتدى عليها رجلاً بالضرورة؟

- لأن شاهدة العيان الوحيدة آنذاك، ديورا كوبر، أفادت رسمياً

بأنها رأت رجلاً. حسن! هذه المحادثة انتهت، أيها الكاتب. لقد قمت

بمضايقتي بما يكفي.

- لكن ما رأيك أنت في هذه القضية؟

أخرج من محفظته صورة عائلية.

- أنا أب لابنتين، أيها الكاتب، أربعة عشر وسبعة عشر عاماً،

ولا يمكنني أن أتخيل حتى ما عاشه الأب كيلرغان. أريد الحقيقة.

أريد العدالة. العدالة ليست مجموع أحداث بسيطة، بل إنها عمل أكثر

تعقيداً بكثير، لذلك سأواصل تحقيقاتي، وإذا عثرت على دليل براءة

كبير، فسيُطلق سراحه، صدقني. لكن إذا كان مذنباً، فلن أدع روث

يخدع هيئة المحلفين لتبرئته، كما هو معروف عنه. لأن هذا أيضاً،

ليس بعدالة.

رغم فظاظته المعتمدة، كانت لدى غاهالود فلسفة أعجبتني.

- في الحقيقة، أنت شخص طيب، أيها الرقيب. هل يمكنني أن أعزمك على الحلوى لنكمل دردشتنا؟
- لا أريد حلواك. أريدك أن تغادر فحسب. فأنا لذي عمل لأقوم به.

- لكن يجب أن تشرح لي كيف نقوم بالتحقيقات، فأنا لا أعرف كيف أحقق. ماذا عليّ أن أفعل؟
- إلى اللقاء، أيها الكاتب. لقد رأيتك اليوم بما يكفيني لأسبوع كامل، بل لما يكفيني لآخر حياتي.

كنت خائب الأمل لأنني لم أؤخذ على محمل الجد، لكنني لم أُلح أكثر من ذلك. مددت يدي لأصافحه، فطحن أصابعي بقبضته الضخمة، ورحت إلى حال سبيلي. لكن في المرآب الخارجي، سمعته يناديني: «أيها الكاتب!»، فاستدرد ورأيته يهرول باتجاهي.

- اسمع، قال لي مقطوع الأنفاس، الشرطي الجيد لا يهتم بالقاتل... بل يهتم بالضحية. عليك أن تسأل نفسك عن الضحية. عليك أن تبدأ بالبداية، بما قبل جريمة القتل. وليس بالنهاية. فأنت تفضل الطريق بتركيزك على الجريمة. يجب أن تسأل نفسك من كانت الضحية... اسأل نفسك من كانت نولا كيلرغان...
- وديبورا كوبر؟

- إذا أردت رأيي، كل شيء مرتبط بنولا، ولم تكن ديبورا كوبر سوى ضحية جانبية. اعرف من هي نولا وستعرف من هو قاتلها، وقاتل ديبورا كوبر كذلك.

من كانت نولا كيلرغان؟ هذا هو السؤال الذي نويت طرحه على هاري وأنا في طريقي إلى سجن الولاية. بدا في حال سيئ، وبدا قلقاً جداً بشأن محتوى خزانة الملابس.
- هل وجدت كل شيء؟ سألني حتى قبل أن يحينني.

- نعم .
- وأحرقت كل شيء؟
- نعم .
- والمخطوطة أيضاً؟
- والمخطوطة أيضاً .
- لماذا لم تؤكد لي أنك فعلت؟ كدت أموت من القلق! وأين كنت طوال هذين اليومين؟
- كنت أجري تحقيقاتي . لماذا كانت تلك العلبة في خزانة ملابس بناي رياضي، يا هاري؟
- أعلم أنه سيبدو لك ذلك غريباً . . . لكن بعد زيارتك لأورورا في شهر مارس، خشيت أن يعثر شخص آخر على العلبة . قلت لنفسي إن أي أحد قد يعثر عليها: زائر متطفل، الخادمة . . . فقررت أن أكون أكثر حذراً وأن أخبئ ذكرياتي في مكان آخر .
- تخبئها؟! لكن هذا سيجعل منك مذنباً! وتلك المخطوطة . . .
- هل كانت مخطوطة أصول الشر؟
- نعم، النسخة الأولى .
- تعرفت على النص، إذ لم يكن هناك من عنوان على الغلاف . . .
- نعم، جاءني العنوان فيما بعد .
- أتقصد بعد اختفاء نولا؟
- نعم . لكن دعنا لا نتحدث عن هذه المخطوطة، يا ماركوس . إنها ملعونة، هي لم تجلب سوى الشرور من حولي، والدليل على ذلك أن نولا ماتت وأني في السجن الآن .
- حدقنا أحياناً في الآخر للحظة، ثم وضعت على الطاولة كيساً من البلاستيك بداخله محتوى الطرد الذي وصلني .
- ما هذا؟ سأل هاري .

ودون أن أجيب، أخرجتُ جهاز تسجيل صغيراً مجهزاً
بميكروفون، يستخدم في التسجيلات الصوتية، ووضعتُه أمام هاري.
- ماركوس، ما الذي تفعله؟ لا تقل لي إنك احتفظت بهذه الآلة
اللعينة...

- بالطبع، يا هاري. احتفظت بها بعناية شديدة.

- أبعد عني هذا الشيء لو سمحت.

- لا تنذر، يا هاري.

- ما الذي تريد أن تفعله بهذا الجهاز بحق الجحيم؟

- أريدك أن تحدثني عن نولا، وعن أورورا، وعن كل شيء. عن
صيف 1975، وعن كتابك. أنا بحاجة لأن أعرف كل شيء. الحقيقة
يا هاري، لا بد أنها متجسدة في مكان ما.

ابتسم بحزن. شغلت جهاز التسجيل وتركته يتكلم. كان مشهداً
جميلاً: في غرفة الزيارات التابعة للسجن هذه، حيث يقابل أزواجُ
زوجاتهم حول طاولات بلاستيكية، وآباءُ أبناءهم، قابلت أنا أستاذي
القديم الذي حكى لي قصته.

تناولت العشاء باكراً في ذلك المساء، في طريق العودة إلى
أورورا. وبعد ذلك، وبما أنني لم أكن أرغب في العودة إلى غوز كوف
على الفور لأجد نفسي وحيداً في ذلك المنزل الكبير، سرت بالسيارة
بمحاذاة الشاطئ. كانت الشمس تغرب والمحيط يتلألأ: كان كل شيء
رائعاً. مررت بفندق سي سايد، وبغابة سايد كريك، وبسايد كريك
لين، وبغوز كوف، وعبرت أورورا وصولاً إلى شاطئ غراند بيتش.
مشيت إلى حافة الماء، ثم جلست على الحصى لتأمل هبوط الليل.
كانت أضواء أورورا تتراقص في البعد على صفحة الأمواج، والنوارس
تُطلق صيحاتها الحادة. شغلت جهاز التسجيل، فانبعث صوت هاري
وسط الظلمة:

أتعرف شاطئ غراند بيتش، يا ماركوس؟ إنه أول شاطئ في أورورا عندما تكون آتياً من ماساتشوستس. أنا أذهب إلى هناك أحياناً لأتأمل هبوط الليل وأشاهد أنوار المدينة من بعيد. وأفكر في كل ما حدث على ذلك الشاطئ منذ ثلاث وثلاثين سنة. هذا الشاطئ هو الذي توقفت فيه يوم وصولي إلى أورورا في 20 مايو 1975. كنت في الرابعة والثلاثين من عمري. كنت قد أتيت من نيويورك حيث قررت أن أمسك بزمam مصيري: تركت كل شيء، تركت وظيفتي كمدرس للأدب، وجمعت مدخراتي وقررت أن أخوض مغامرة الكتابة: أن أعزل في نيو إنغلاند وأن أكتب فيها الرواية التي أحلم بها.

فكرت أولاً في أن أستأجر منزلاً في مين، لكن وكيلاً عقارياً من بوسطن أقنعني بأن أختار أورورا، وكلمني عن منزل رائع يتوافق تماماً مع ما كنت أبحث عنه: غوز كوف. وفي اللحظة التي وصلت فيها المنزل، وقعت في حبه فوراً. كان المكان المناسب لي تماماً: خلوة هادئة وبرية، دون أن أكون في عزلة تامة، كوني على بعد بضعة أميال فقط من أورورا. كما أن المدينة أعجبتني كثيراً؛ بدت الحياة فيها عذبة: الأطفال يلعبون في الشوارع بأمان، ونسبة الجريمة فيها منخفضة تقريباً. كانت مدينة جديدة بأن تصوّر على بطاقة بريدية. كان منزل غوز كوف يفوق إمكانياتي بكثير، لكن المكتب العقاري وافق على أن أدفع المبلغ على دفعتين، وقمت بحساباتي: فوجدت أنني إذا أنفقت مالاً قليلاً، فسأستطيع توفير الدفعتين. ثم إنه كان لدي شعور بأنني اتخذت القرار الصائب بمجيئي إلى هنا. وقد كنت على

حق، إذ غيّر هذا القرار حياتي: الكتاب الذي ألفته في ذلك الصيف كان سيجعل مني رجلاً مشهوراً وثرياً.

أعتقد أن أكثر ما أحببته في أورورا هو المكانة المميزة التي حظيت بها بسرعة: في نيويورك، لم أكن سوى مدرّس أدب وكاتب مجهول، لكن في أورورا، كنت هاري كبير، كاتب أتى من نيويورك ليكتب روايته المقبلة. أتعلم يا ماركوس، قصة «المبهر» هذه، حين كنت في المدرسة الثانوية واكتفيت بالتحايل بعلاقاتك مع الآخرين لتتفوق عليهم: هذا بالضبط ما حدث لي عند انتقالي إلى هنا. كنت شاباً واثقاً من نفسي، أنيقاً، ووسيماً، رياضياً، ومثقفاً، وأسكن في غوز كوف الخلابة إضافة إلى ذلك. فحتى وإن لم يكونوا يعرفونني بالاسم، فقد حكم سكان أورورا على نجاحي على أساس سلوكي والمكان الذي أسكن فيه. كان ذلك كافياً ليتصور السكان أنني نجم ساطع من نيويورك، وهكذا، بين ليلة وضحاها، أصبحت شخصاً ذا شأن. الكاتب المرموق الذي لم أكنه في نيويورك. أهديت إلى المكتبة العامة نسخاً من كتابي الأول كنت قد حملتها معي من نيويورك، وتخيل أن هذه الكومة البائسة من الأوراق التي تم إهمالها في نيويورك، أشعلت حماسة الناس هنا في أورورا. كان عام 1975، في مدينة صغيرة جداً تبحث عن سبب للوجود، قبل عصر الإنترنت وكل هذه التكنولوجيا، فوجدت فيّ النجم المحلي الذي لطالما حلمت به.

كانت الساعة حوالي الحادية عشرة حين عدت إلى غوز كوف .
وأنا أسلك ممر الحصى المؤدي إلى المنزل، رأيت في ضوء مصابيح
السيارة طيفاً مقنعاً يفرّ نحو الغابة . أوقفت السيارة فجأة وقفزت خارجاً
وأنا أصيح وعلى وشك أن ألاحقه، فلمحت حينذاك وميضاً : كان هناك
شيء يحترق بالقرب من المنزل . ركضت لأرى ما يجري : كانت سيارة
هاري الكورفيت تحترق . كانت ألسنة النار مخيفة فيما ارتفع في السماء
خط دخان كثيف . رحت أنادي طالباً المساعدة، لكن لم يكن أحد
هناك . لم يكن يحيط بي سوى الغابة . انفجر زجاج السيارة بفعل
الحرارة، وأخذ غطاء المحرك يذوب، والنيران تتضاعف ملتهمة جدران
المرآب . لم أكن أستطيع فعل شيء . كان كل شيء سيحترق .

ن. و. ل. ا.

(أورورا، نيو هامبشير، السبت 14 يونيو 1975)

«إذا كان الكُتَّاب مخلوقات هشة إلى هذه الدرجة، يا ماركوس، فهذا لأنه يمكنهم أن يعانون نوعين من الألم العاطفي، أي ضعف ما يعاني منه البشر العاديون: يعانون من ألم الحب ومن ألم الكتابة. فأن تؤلّف كتاباً هو مثل أن تحب أحداً: قد يصبح الأمر مؤلماً جداً».

مذكرة

إلى جميع العاملين في المطعم

لا بد أنكم لاحظتم أن هاري كيبر يأتي منذ أسبوع إلى مطعمنا كل يوم لتناول الغداء. السيد كيبر كاتب مشهور جاءنا من نيويورك، وعلينا إيلائه عناية خاصة وتلبية كل احتياجاته بأكثر قدر من التكتم، وعدم إزعاجه أبداً.

الطاولة رقم 17 مخصصة له إلى حين إشعار آخر. يجب أن تكون جاهزة لاستقباله طوال الوقت.

تامارا كوين

كان ثقل زجاجة شراب القيقب هو ما أدخل بتوازن الصينية. فحين وضعتها عليها، أفلتت الصينية من يدها؛ حاولت أن تعيد الإمساك بها، ففقدت توازنها هي الأخرى، ووسط ضجيج هائل، سقطت أرضاً، هي والصينية.

مرر هاري رأسه من فوق المنضدة.

- نولا؟ هل أنت بخير؟

نهضت، مشوّشة قليلاً.

- نعم نعم، إنني...

تفحصا حجم الضرر للحظة، ثم انفجرا ضاحكين.

- لا تضحك، يا هاري، فإذا عرفت السيدة كوين أنني أسقطتُ

صينية أخرى، فستوبّخني.

التفت حول المنضدة وراح يساعدها في لَمّ حطام الزجاج المنتشر
وسط خليط من الخردل، والمايونيز، والكاتشب، وشراب القيقب،
والزبدة، والسكر، والملح.

- بالمناسبة، قال لها، هل يمكن لأحد أن يشرح لي لماذا

تحضرون لي منذ أسبوع كل هذه الصلصات والتوابل كلما طلبت
شيئاً؟!

- بسبب المذكرة، ردت نولا.

- المذكرة؟

أشارت بنظرها إلى الورقة الملصقة على الجدار خلف المنضدة.

نهض هاري وأخذ يقرأها بصوت عالٍ.

- لا يا هاري! ما الذي تفعله؟ أنت مجنون! إذا عرفت السيدة

كوين...

- لا تقلقي، لا يوجد أحد هنا.

كانت الساعة السابعة صباحاً، وكان مطعم كلاركس لا يزال خالياً

من الزبائن.

- ما هذه المذكرة؟

- إنها تعليمات السيدة كوين.

- لمن؟

- لكل العاملين.

دخل بعض الزبائن، مقاطعين حديثهم، فعاد هاري إلى طاولته

بينما استأنفت هي عملها.

- سأحضر لك فوراً شرائح خبز أخرى، يا سيد كبير، أعلنت بنبرة رسمية قبل أن تختفي في المطبخ.

خلف الباب، وقفت تحلم للحظة وتبتسم لنفسها: إنها تحبه. منذ أن قابلته على الشاطئ، قبل أسبوعين، منذ ذلك اليوم الممطر الرائع الذي ذهبت فيه صدفةً للتنزه بالقرب من غوز كوف، كانت تحبه. كانت تعلم ذلك. إنه إحساس لا يكذب، ولا مثيل له: شعرت بنفسها مختلفة، شعرت بنفسها أكثر سعادة، كما بدت لها الأيام أجمل. وحين كان هنا في المطعم، كانت تشعر بقلبها يخفق بقوة.

بعد أول لقاء على الشاطئ، التقيا بالصدفة مرتين؛ أمام المتجر في الشارع الرئيسي، وفي مطعم كلاركس حيث تعمل أيام السبت. وفي كلا المراتين، طبع ذلك شيءٌ مميز. ومنذ ذلك الوقت، اعتاد أن يأتي إلى مطعم كلاركس كل يوم للكتابة، ما جعل تمارا كوين، صاحبة المطعم، تدعو «بناتها» - كما كانت تحب أن تناديهن - لاجتماع طارئ قبل ذلك بثلاثة أيام، لتطلعهن على المذكرة. جعلتهن يقفن في صف عسكري، ثم قالت لهن: «آنساتي، لا بد أنكن لاحظتن أن كاتب نيويورك الشهير هاري كبير أصبح يأتي إلى هنا كل يوم، ما يدل على أنه وجد في هذا المكان معايير الجودة والرقي التي تميز أفضل مطاعم نيويورك. إن مطعم كلاركس مؤسسة مرموقة، لذا علينا أن نثبت لزنائنا الأكثر تطلباً أننا في مستوى توقعاتهم. ولأن بعضكن بسيطات ولا يدركن ذلك، فقد كتبت هذه المذكرة لأذكركن كيف يُفترض أن تكون خدمة السيد كبير. يجب عليكن أن تقرأنها، وتعدن قراءتها، وتحفظنها عن ظهر قلب أيضاً! سأمتحنكن من حين إلى آخر، وسأعلق المذكرة في المطبخ وخلف المنضدة». ثم أعطت تمارا كوين تعليماتها: عدم إزعاج السيد كبير فهو بحاجة إلى الهدوء والتركيز. الاهتمام بالتفاصيل كي يشعر أنه في بيته: تشير إحصائيات زيارته السابقة أنه لا يطلب سوى القهوة السوداء، فلتُقدَّم له القهوة فور وصوله إلى المطعم ولا

شيء آخر. وإذا كان يرغب في شيء، إذا كان جائعاً مثلاً، فسيطلب الأكل هو، فلا داعي لحثه على الطلب كما تفعلن مع الزبائن الآخرين. وإذا طلب شيئاً ليأكله، إحضار كل الصلصات والتوابل كي لا يحتاج لطلبها: الخردل، والكاتشب، والمايونيز، والفلفل، والملح، والزبدة، والسكر وشراب القيقب، إذ لا ينبغي بالكتاب الكبار أن يضطروا إلى طلب شيء: ينبغي بعقلهم أن يكون حراً ليتمكنوا من الإبداع في سلام. فقد يكون هذا الكتاب الذي يؤلفه، هذه الملاحظات التي يدونها لساعات طويلة، جالساً إلى طاولته المعتادة، بواكير عمل عظيم، بحيث سيتحدث الجميع عن مطعم كلاركس قريباً. كانت تمارا كوين تحلم بأن يضيفي الكتاب على مطعمها الشهرة التي تمنتها: وبالأموال التي ستجنيها، ستفتح مطعماً ثانياً في كونكورد، ثم واحداً في بوسطن، وفي نيويورك، وكل المدن الكبرى على الساحل وصولاً إلى فلوريدا.

طلبت ميندي، إحدى النادلات، توضيحات إضافية:

- لكن يا سيدة كوين، كيف يمكن أن نكون متأكدات أن السيد كبير لا يرغب إلا في القهوة السوداء؟
- أنا أعلم ذلك. هذا كل شيء. في المطاعم المرموقة، لا يحتاج الزبائن المهمون لأن يطلبوا: فتكون عاداتهم معروفة لدى العاملين. ألسنا مطعماً مرموقاً؟

«نعم، يا سيدة كوين»، رددن جميعاً، فيما صرخت جيني، ابنتها: «نعم، يا أمي».

- لا تناديني بأمي هنا، أعلنت تمارا. فلسنا هنا في نزل ريفي.
- بَمَ أناديك إذاً، سألت جيني.
- لا تناديني. أنصتي إلى أوامري وأومئي برأسك فحسب. لست بحاجة لأن تتكلمي. مفهوم؟

هزت جيني رأسها علامة على الرد، فكررت أمها:

- مفهوم أم لا؟

- نعم، فهمت، يا أمي... عليّ أن أومئ برأسي...
- آه، برافو، يا حبيبتي. أترين كيف أنك تفهمين بسرعة...
والآن هيا يا بنات. أريد أن أرى منكن سلوكاً خائفاً... أجل...
ممتاز... والآن نومي برؤوسنا... هكذا... تماماً... من أعلى إلى
أسفل. جميل. يبدو وكأنه مشهد من قصر مارمون.
فصققت جميع العاملات لكونهن أومان برؤوسهن ببراعة.
- فلنقم ببروفة، قالت تمارا وهي في قمة الحماس. سأجلس إلى
الطاولة رقم 17، كما لو كنتُ هو.
وفرقت بأصابعها بتعالٍ لتجذب الانتباه، فأسرعت ميندي إلى
الطاولة:

- نعم، يا سيد كايابيير؟
- ميندي، لا تطلقي صيحات العصافير الغبية هذه! اسمه كبير،
ويُنطق كما في الفرنسية: كي-بير! أتعلمين لماذا؟ لأنه اسم راقٍ! كي-
بير. يُنطق بظرافة وخفة: كي-بير. هيا يا بناتي، إني أسمعكن!
وانطلق الكورال يردد مثل الضفادع: كي-بير، كي-بير، كي-بير.
فهنأت تمارا قطيعها المطيع وقد بدا عليها الرضا:
- جميل، يا بنات. أرايتن؟ لستن بهذا الغباء حين تحاولن بجدا!
لم تكن تمارا كوين المتحمسة الوحيدة لوجود هاري كبير في
أورورا، بل كانت المدينة بأكملها تعيش حالة من الفوران. قال البعض
إنه نجم كبير في نيويورك، فيما أكد آخرون الخبر كي لا يبدو جُهالاً.
إلا أن إرني بينكاس، الذي وضع بعض النسخ من رواية كبير الأولى
على رفوف المكتبة العمومية، قال إنه لم يسمع عنه من قبل، لكن
الناس لم يعيروا رأيَ عاملٍ مصنع غريب عن أوساط نيويورك الأدبية
الراقية أي اهتمام، خاصة وأنهم أجمعوا على أنه لا يمكن لأي كان أن
يقيم في منزل غوز كوف، الذي لم يستأجره أحد منذ سنوات.
أما الموضوع المثير الآخر الذي شغل الفتيات في عمر الزواج

ووالديهن في أورورا، فهو أن هاري كبير كان عازباً. كان قلباً متاحاً، تجعل منه شهرته، وثروته، وثقافته، وحسن مظهره فارس الأحلام. وسرعان ما فهم طاقم العمل في مطعم كلاركس أن جيني كوين، الفتاة الشقراء الجميلة الجذابة ذات الأربع وعشرين سنة، تستلطف هاري. وكانت جيني، التي تعمل في كلاركس أيام الأسبوع، هي الوحيدة التي لا تحترم تعليمات المذكرة، إذ كانت تتحدث إلى هاري طوال الوقت، وتقاطعه أثناء عمله، ولا تحضر له كل الصلصات والتوابل دفعة واحدة. ولم تكن جيني تعمل في عطلة نهاية الأسبوع، إذ كانت نولا هي من تعمل أيام السبت.

دق الطباخ جرس الخدمة، فانتزع نولا من أفكارها: كانت قطع خبز هاري جاهزة. وضعت الطبق على الصينية، وقبل أن تعود إلى الصالة، عدلت المشبك الذهبي الذي يمسك شعرها، ثم فتحت الباب بفخر، فهي كانت فتاة عاشقة منذ أسبوعين.

حملت إلى هاري طلبه. كان كلاركس يمتلئ شيئاً فشيئاً.

- شهية طيبة، سيد كبير، قالت له.

- ناديني بهاري...

- ليس هنا، همست له، فالسيدة كوين لن تقبل ذلك.

- هي ليست هنا. لن يعرف أحد...

أشارت بنظرها إلى الزبائن الآخرين، ثم اتجهت إلى طاولتهم.

ابتلع قضمة من خبزه وكتب بضعة سطور على ورقته. كتب

التاريخ: السبت 14 يونيو 1975. كان يملأ الصفحات دون أن يعرف ما الذي يكتبه بالضبط: ففي الأسابيع الثلاثة التي قضاها هنا، لم ينجح في البدء في روايته. لم تنتج الأفكار التي خطرت له شيئاً، وكلما حاول أكثر، تعثر أكثر. شعر بنفسه ينحرف ببطء، شعر بأنه مصاب بالمرض الذي يصيب أقرانه: كان قد أصيب بمرض الكُتَّاب. كان رعب الصفحة البيضاء يجتاحه شيئاً فشيئاً، لدرجة أنه بدأ يشك في

صواب مشروعه: كان قد أنفق كل مدخراته ليستأجر هذا المنزل الرائع على شاطئ المحيط حتى نهاية سبتمبر، منزل كاتب كما لطالما حلم به. لكن كيف له أن يلعب دور الكاتب إذا كان غير قادر على الكتابة؟ فعندما قرر استئجار المنزل، كانت خطته متماسكة: أن يكتب رواية عظيمة وأن يرسل الفصول الأولى إلى دور نشر مرموقة في نيويورك، فستهافت هذه الأخيرة وتتسابق للحصول على حقوق النشر، بحيث يحصل هو على دفعة مسبقة مهمة، يؤمن بها مستقبله المادي ويصبح نجماً أدبياً كما تمنى دائماً. لكن كان حلمه بطعم الرماد الآن: فهو لم يكتب سطرًا واحدًا. وبهذه الوتيرة، سيضطر إلى العودة إلى نيويورك في الخريف، من دون مال وبلا كتاب، وأن يتوسل إلى مدير المدرسة الثانوية التي كان يعمل فيها ليعيده إلى عمله، وينسى المجد إلى الأبد. وأن يبحث على عمل كحارس ليلي إذا اقتضى الأمر، ليدخر بعض المال.

نظر إلى نولا التي كانت تتحدث إلى أحد الزبائن. بدت مشرقة. سمع صوت ضحكتها وكتب:

نولا. نولا. نولا. نولا. نولا.

ن. و. ل. ا. ن. و. ل. ا.

ن. و. ل. ا. أربعة أحرف زعزعت عالمه. نولا، هذه المرأة الصغيرة التي أدارت رأسه منذ اللحظة التي رآها فيها. ن. و. ل. ا. بعد يومين من لقاءهما على الشاطئ، كان قد قابلها بالصدفة أمام المتجر الرئيسي، فسارا معاً في الشارع الرئيسي حتى وصلا إلى الميناء.

- الجميع يقولون إنك أتيت إلى أورورا لتؤلف كتاباً، قالت له.

- هذا صحيح.

أثار ذلك حماسها:

- أوه، يا هاري، إنه أمر مثير للغاية! أنت أول كاتب أقابله في حياتي! هناك الكثير من الأسئلة أود أن أطرحها عليك...
- ماذا على سبيل المثال؟
- كيف نكتب؟

- إنه أمر يحصل تلقائياً، أفكار تدور في رأسك إلى أن تصبح جُملاً تنبثق على الورق.

- لا بد أنه أمر رائع أن تكون كاتباً!
نظر إليها وشعر ببساطة أنه وقع في غرامها.

ن. و. ل. ا. قالت له إنها تعمل في مطعم كلاركس أيام السبت. ففي السبت التالي، كان هناك في مطلع النهار. قضى نهاره يتأملها، معجباً بكل حركة من حركاتها. ثم تذكر أنها كانت في الخامسة عشرة من عمرها وشعر بالخجل: إذا شك أحد في هذه المدينة في ما يشعر به تجاه النادلة الصغيرة التي تعمل في مطعم كلاركس، فسيكون في ورطة. بل قد يعني ذلك السجن بالنسبة إليه. ولكي يسكت الشكوك، قرر أن يتناول الغداء في مطعم كلاركس كل يوم. فمُنذ أكثر من أسبوع، هو يأتي إلى كلاركس يومياً ويتظاهر بالعمل هناك: لن يدع أحداً يعرف أن ضربات قلبه تتسارع كل يوم سبت، وأنه كل يوم، سواء كان في مطعم كلاركس أو على الشرفة في غوز كوف، هو لا يكتب سوى اسمها: ن. و. ل. ا. كان يكتب اسمها ويتأملها ويصفها على مدى صفحات كاملة. صفحات كان يمزقها أو يحرقها بعد ذلك خوفاً من أن يراها أحد فينتهي أمره.

عند منتصف النهار، أي في ذروة ساعة العمل وتقديم وجبة الغداء للزبائن، حلت ميندي محل نولا وهو ما لم يكن معتاداً. استأذنت من هاري بأدب وكان بصحبته رجل كبير السن نسبياً، فهم هاري أنه والدها، الكاهن ديفيد كيلرغان الذي جاء في نهاية الفترة الصباحية

وشرب شاياً مثلجاً عند المنضدة.

- إلى اللقاء يا سيد كبير، قالت نولا. لقد أنهيت دوامي اليوم. أود أن أقدم لك والدي، الكاهن كيلرغان.
- أنت الكاتب الشهير إذأ، قال الأب مبتسماً.
- ولا بد أنك الكاهن كيلرغان الذي يتحدث عنه الجميع هنا، رد هاري.

- لا تهتم كثيراً بما يقوله الناس، فهم يبالغون.
- أخرجت نولا من جيبتها ملصقاً صغيراً ومدته إلى هاري قائلة:
- اليوم عرض نهاية العام في المدرسة الثانوية، يا سيد كبير، لذا غادرت باكراً. يبدأ الحفل عند الساعة الخامسة بعد الظهر، هل ستأتي؟
- نولا، اتركي السيد كبير وشأنه، وبخها الكاهن. لماذا تريدينه أن يحضر حفلاً مدرسياً؟

- سيكون عرضاً جميلاً! ردت نولا بحماس.

شكر هاري نولا على دعوتها وودعها. وعبر الواجهة الزجاجية، شاهدها تختفي عند زاوية الشارع، ثم عاد إلى غوز كوف ليغرق في مسوداته من جديد.

كانت الساعة الثانية بعد الظهر. ن. و. ل. ا. كان جالساً إلى مكتبه منذ ساعتين، ولكنه لم يكتب شيئاً. كانت عيناه مثبتتين على ساعة يده. لم يكن ينبغي له أن يذهب إلى الثانوية. لكن لا الجدران ولا السجون كانت لتمنع رغبته في أن يكون معها. كان جسده محبوساً في غوز كوف، لكن روحه ترقص على الشاطئ مع نولا. وصلت الساعة إلى الثالثة ثم الرابعة عصراً. تعلق بقلمه كي لا يغادر مكتبه وكتب: ن. و. ل. ا. كانت في الخامسة عشرة من عمرها، فكان حباً محرماً. ن. و. ل. ا.

عند الرابعة وخمسين دقيقة، دخل هاري إلى المسرح الكبير بالمدرسة الثانوية، مرتدياً بدلة أنيقة داكنة اللون. كانت الصالة تعج بالحضور؛ كانت المدينة بأكملها موجودة هناك. وبينما هو يتقدم عبر الصفوف، شعر أن الجميع يوشوشون عند مروره، وأن الآباء الذين تقاطعت نظراته مع نظرتهم يقولون له: أنا أعلم لماذا أنت هنا. لم يشعر بنفسه مرتاحاً على الإطلاق، فاختر صفاً عشوائياً وغاص في مقعدٍ بحيث لا يعود يراه أحد.

بدأ العرض؛ سمع صوت الكورال ثم عزف الأبواق، وقامت مجموعة من الراقصات والمغنيين بأداء عرض رديء. ثم انطفأت الإضاءة تماماً، وانبثقت من الظلام هالة رسمت دائرة من النور على خشبة المسرح. فوصلت حينئذ، مرتدية فستاناً أزرق براقاً جعلها تتلألأ فيه. ن. و. ل. ا. ساد صمت تام. جلست على كرسي عالٍ، رتبت مشبك شعرها، وعدلت علو الميكروفون المثبت أمامها، ثم ابتسمت لجمهورها ابتسامتها المشرقة وأمسكت بغيتارها وغنت على طريقتها الخاصة أغنية لا يسعني إلا الوقوع في حبك.

انبهر الجمهور بأدائها، وفهم هاري في تلك اللحظة أن القدر أتى به إلى أورورا ليضعه في طريق نولا كيلرغان، أروع كائن لم ولن يقابل مثله أبداً. ربما لم يكن قدره أن يكون كاتباً عظيماً، بل أن يكون حبيب هذه الفتاة الاستثنائية. وهل كان هناك من قدر أجمل من ذلك؟ كان مشوش الذهن لدرجة أنه ما إن انتهى العرض، حتى نهض من مقعده وهرب مسرعاً من القاعة وسط التصفیقات. عاد إلى غوز كوف وجلس على شرفة المنزل، ثم راح يكتب بعصبية شديدة وهو يتتلع الويسكي: ن. و. ل. ا. ن. و. ل. ا. ن. و. ل. ا. لم يعد يعرف ما يجب عليه فعله. أيغادر أورورا؟ لكن إلى أين؟ إلى صخب نيويورك؟ كان قد استأجر هذا المنزل لأربعة أشهر وقد دفع نصف المبلغ. لقد جاء إلى هنا ليؤلف كتاباً، فعليه أن يستعيد رباطة جأشه ويتصرف ككاتب.

حين شعر بألم في معصمه من فرط الكتابة، وبالدوار بفعل
الويسكي، نزل إلى الشاطئ حزيناً بائساً، وجلس مستنداً إلى صخرة
كبيرة يتأمل الأفق، فسمع فجأة صوت خطى خلفه.

- هاري؟ هاري. ما الخطب؟

كانت نولا في فستانها الأزرق. هرعت نحوه وجثت على ركبتيها
على الرمل إلى جانبه.

- هاري، بحق السماء! هل أنت مريض؟

- ماذا... ماذا تفعلين هنا؟ سألتها بدوره.

- انتظرتك بعد العرض، ورأيتك تغادر أثناء التصفيفات ولم أرك
بعد ذلك. فقلقت عليك... لماذا غادرت بهذه السرعة؟

- لا ينبغي لك أن تظلي هنا، يا نولا.

- لماذا؟

- لأنني شربت. أعني، أنا ثمل قليلاً، وأنا نادم على ذلك الآن.

فلو كنت أعلم أنك ستأتين، لما شربت.

- ولماذا شربت، يا هاري؟ تبدو حزيناً...

- أشعر بالوحدة. أشعر بوحدة فظيعة.

اقتربت منه ونظرت في عينيه.

- أنت محاط بالناس، يا هاري!

- الوحدة تقتلني، يا نولا.

- سأمضي وقتاً برفقتك إذاً.

- لا ينبغي لك فعل ذلك...

- أنا أرغب في ذلك. إلا إذا كنت أضايقك.

- أنت لا تضايقينني أبداً.

- هاري... لماذا الكُتّاب أناس وحيدون؟ همغواي، ميلفل...

إنهم أكثر الناس وحدة في العالم!

- لا أدري إذا كان الكُتّاب وحيدين، أم أن الوحدة هي التي تدفع
إلى الكتابة...
- ولماذا ينتحر الكُتّاب جميعاً؟
- لا ينتحر الكُتّاب جميعاً، وإنما مَنْ لا نقرأ كتبهم فقط.
- لقد قرأتُ كتابك، استعرتَه من المكتبة العامة وقرأته في ليلة
واحدة! لقد أحببته كثيراً! أنت كاتب عظيم، يا هاري! أتعلم، لقد
غنيْتُ من أجلك اليوم!
ابتسم ونظر إليها، مررت يدها في شعره بحنان قبل أن تردد:
- أنت كاتب عظيم، يا هاري. لا ينبغي أن تشعر بالوحدة. أنا
هنا.

مكتبة
t.me/soramnqraa

بشأن نولا

«حقيقة، يا هاري، كيف يصبح المرء كاتباً؟

- حين لا يستسلم أبداً. أتعلم، يا ماركوس، إن الحرية، أو التطلع إلى الحرية هي حرب في حد ذاتها. فنحن نعيش في مجتمع من موظفي المكاتب الخانعين، ويجب علينا، للخروج من هذه الحالة البائسة، أن نحارب أنفسنا والعالم أجمع في آن واحد. إن الحرية هي معركة دائمة لا نعيها إلا قليلاً. وأنا لن أستسلم أبداً».

المشكلة في المدن الأمريكية الصغيرة النائية هي أنها ليست لديها سوى فرق من رجال الإطفاء المتطوعين، وهم أبطأ بكثير في التحرك من الفرق المحترفة. ففي مساء يوم 20 يونيو 2008، بعد أن رأيت النيران تنبعث من الكورفيت وتمتد إلى الملحق المستخدم كمرآب، مر بعض الوقت بين اللحظة التي اتصلت منها بمركز الإطفاء ووصولهم إلى غوز كوف. كانت معجزة أن المنزل نفسه لم تمسه النيران، حتى وإن رأى رئيس فرقة الإطفاء أن المعزة تكمن في أن الملحق مبنى منفصل، ما سمح باحتواء النيران سريعاً.

بينما كان رجال الشرطة والإطفاء يعملون في غوز كوف، وصل ترافيس داون بدوره وسألني وهو يهرع في اتجاهي:

- هل أصابك مكروه، يا ماركوس؟
- لا، أنا بخير، لكن كاد المنزل يحترق...
- ما الذي حدث؟
- كنت عائداً من شاطئ غراند بيتش، وعند دخولي الممر المؤدي إلى المنزل، رأيت طيف شخص يفر في اتجاه الغابة، ثم لمحت تلك النيران...

- هل استطعت أن تميز ذلك الشخص؟
- لا، حدث كل شيء بسرعة.

نادانا فجأة شرطي كان قد وصل مع رجال الإطفاء وتفقد الأرجاء
حول المنزل. كان قد عثر لتوه على رسالة محشورة في شق الباب،
مكتوب عليها:

عد إلى ديارك، يا غولدمان.

- اللعنة! لقد تلقيت رسالة أخرى مثلها أمس!

- رسالة أخرى؟ أين؟ سألني ترافيس.

- على سيارتي. توقفت مدة عشر دقائق عند المتجر الرئيسي،
وعند عودتي، وجدت نفس الرسالة مثبتة أسفل إحدى مساحتي
الزجاج.

- أتظن أن هناك من يتعقبك؟

- لا أعلم. لم أعر الأمر اهتماماً حتى الآن. ماذا يعني ذلك؟

- يبدو هذا الحريق إنذاراً، يا ماركوس.

- إنذار؟ لماذا قد يوجّه إليّ إنذار؟

- قد لا يحبذ أحدهم وجودك في أورورا، فالجميع يعرف أنك
تطرح الكثير من الأسئلة...

- هذا يعني أن أحداً ما يخشى ما قد أكتشفه بشأن نولا.

- ربما. على كل حال، لا يروق لي ما يحدث. القصة برمتها

تبعث على القلق. سأترك دورية هنا طوال الليل، هذا آمن.

- لا داعي لدورية، فإذا تعرض لي هذا الشخص، سأكون له في

المرصاد.

- اهدأ يا ماركوس. ستبقى دورية حراسة هنا هذه الليلة، سواء

أردت ذلك أو لم ترده. وإذا كان هذا الحريق إنذاراً كما أعتقد، فهذا

يعني أنه ستكون هناك أفعال أخرى في المستقبل. علينا أن نكون

حذرين.

- في اليوم التالي، ذهبت باكراً إلى سجن الولاية لأنقل لهاري حدث الحريق هذا.
- «عد إلى ديارك، يا ماركوس؟» ردد حين أخبرته بأمر الرسالة.
 - كما أخبرتك. مكتوبة على الحاسوب.
 - وماذا فعلت الشرطة؟
 - جاء ترافيس داون. أخذ الرسالة وقال إنه سيقوم بتحليلها. إنه إنذار بحسب رأيه، ربما من شخص لا يريدني أن أنبش في القضية أبعد من ذلك. شخص يرى فيك المذنب المثالي ولا يرغب في أن أحشر أنفي في الموضوع.
 - الشخص الذي قتل نولا وديبورا كوبر؟
 - مثلاً.
 - بدا مهموماً.
 - لقد أخبرني روث أنني سأمثل أمام هيئة المحلفين يوم الثلاثاء المقبل. حفنة من المواطنين الصالحين الذين سيدرسون حالتي ويقررون ما إذا كانت الاتهامات صائبة أم لا. يقال إن هيئة المحلفين دائماً ما تتبع المدعي العام... إنه كابوس، يا ماركوس. أشعر في كل يوم يمر أنني أغرق أكثر فأكثر. وأني أفقد توازني. تم القبض عليّ أولاً فقلت لنفسني إنه خطأ سيتم تداركه سريعاً والمسألة لن تتعدى بضع ساعات، لأجد نفسي الآن محبوساً هنا حتى موعد المحاكمة، التي لا يعلم موعدها إلا الله، مواجهاً عقوبة الإعدام. الإعدام، يا ماركوس! أفكر في الأمر طوال الوقت. أنا خائف، يا ماركوس.
 - بدا لي هاري مُستنزفاً تماماً. بالكاد مضى أسبوع على دخوله السجن، وكان من الواضح أنه لن يصمد شهراً.
 - سنخرجك من هنا، يا هاري، سنكتشف الحقيقة. روث محام ممتاز، عليك أن تثق بذلك. واصل حكايتك، يا هاري. احكِ لي عن نولا. استأنف سردك للأحداث. ماذا حدث بعد ذلك؟

- بعد ماذا؟

- بعد اللقاء على الشاطئ، حين جاءت نولا لمقابلتك يوم السبت ذاك بعد العرض المدرسي، وقالت لك إنه لا ينبغي أن تشعر بالوحدة. وأنا أواصل كلامي، وضعت جهاز التسجيل على الطاولة وشغلته. ابتسم هاري.

- أنت شاب ذكي، يا ماركوس. هذا المهم فعلاً: مجيء نولا يومذاك إلى الشاطئ وقولها لي إنني لست وحيداً، وإنها هنا من أجلي... فأنا لطالما كنت شخصاً وحيداً، وها قد اختلف الأمر فجأة، إذ شعرت مع نولا بأنني جزء من كل، وأننا نشكل معاً كياناً واحداً. فحين لم تكن إلى جانبي، كنت أشعر ب فراغ بداخلي، ويتتابني شعور بالوحشة لم أشعر به من قبل، كما لو أنني، منذ أن دخلت إلى حياتي، لم أعد قادراً على الاستغناء عنها. كنت أعلم أنها تشكّل عاملاً أساسياً لسعادتي، إلا أنني كنت واعياً في الوقت ذاته بأن وضعنا، أنا وهي، سيكون معقداً جداً. فكان ردُّ فعلي الأول كبت مشاعري: فهي كانت قصة مستحيلة. في ذلك السبت، بقينا على الشاطئ لبعض الوقت ثم قلت لها إنه يجب عليها أن تعود إلى منزلها قبل أن يقلق والداها، فأطاعتني. غادرت مشياً بمحاذاة الشاطئ، وشاهدتها وهي تبتعد، آملأ أن تستدير، ولو مرة، وتلوح لي بيدها. ن. و. ل. ا. لكن كان عليّ أن أخرجها من رأسي... لذا، طوال الأسبوع التالي، أجبرت نفسي على التقرب من جيني كي أنسى نولا، جيني هذه التي أصبحت حالياً صاحبة مطعم كلاركس.

- لحظة... أتقول لي إن جيني التي حدثتني عنها والتي كانت نادلة في كلاركس عام 1975، هي جيني داون، زوجة ترافيس التي تدير المطعم اليوم؟

- هي نفسها، لكن أكبر بثلاثة وثلاثين عاماً. كانت امرأة جميلة آنذاك. وهي ظلت كذلك بالمناسبة. أعلم، كانت بإمكانها أن تذهب

إلى هوليوود وتجرب حظها هناك كممثلة. كانت كثيراً ما تتحدث عن ذلك. أن تترك أورورا وتذهب لعيش حياة المشاهير في كاليفورنيا، لكنها لم تفعل شيئاً من ذلك: لقد بقيت هنا، واستلمت المطعم من والدتها، وهكذا فهي لم تفعل سوى بيع البرغر طوال حياتها. وهو خطؤها هي: فنحن نحظى بالحياة التي نختارها، يا ماركوس. وأنا أعلم عماذا أتحدث...

- لماذا تقول ذلك؟

- لا يهم... أنا أهذي وأتوه في الحديث. كنت أحدثك عن جيني. إذاً، في عمر الرابعة والعشرين، كانت جيني امرأة جميلة جداً: ملكة جمال المدرسة الثانوية، شقراء جذابة تدير رأس أعتى الرجال، بحيث كان الجميع يغازلها آنذاك. وكنت أنا أقضي أيامي في مطعم كلاركس، بصحبتها. كان لي حساب مفتوح هناك، يضاف إليه كل ما أطلبه. لم أكن أنتبه إلى نفقاتي إطلاقاً، رغم أنني كنت قد أنفقت معظم مدخراتي لاستئجار المنزل، فكانت ميزانيتي محدودة جداً.

*

الأربعاء 18 يونيو 1975

منذ قدوم هاري إلى أورورا، احتاجت جيني إلى ساعة إضافية لتحضّر نفسها كل صباح. كانت قد وقعت في حبه منذ اليوم الأول الذي رآته فيه. لم تخالجهأ أبداً مشاعر كهذه من قبل، فهو فارس أحلامها، كانت تعلم ذلك. هو الرجل الذي لطالما انتظرتة. وكلما رآته، تخيلت حياتهما معاً: زفافهما الأسطوري وحياتهما في نيويورك. أما غوز كوف، فسيكون منزل الصيف، حيث يراجع هاري مخطوطاته في هدوء، فيما تزور هي والديها. كان هو من سيأخذها بعيداً عن أورورا، فلن تضطر إلى تنظيف الطاولات المملطخة بالدهون ولا الحمامات في مطعم الأجلاف الريفيين هذا. كما أنها ستمثل في

برودواي، وتصوّر الأفلام في كاليفورنيا. كانوا سيتحدثون عنهما في الصحف.

لم يكن خيالها هو ما يخترع ذلك: كان جلياً أن هناك مشاعر بينها وبين هاري. فهو كان يحبها أيضاً، لا شك في ذلك، وإلا فلماذا كان يأتي إلى مطعم كلاركس كل يوم؟ كل يوم! وأحاديثهما عند المنضدة. كم كانت تحب أن يأتي ويجلس قبالتها ليدردش معها قليلاً. كان مختلفاً عن كل الرجال الذين قابلتهم حتى الآن، كان أكثر رقياً بكثير. وأعطت والدتها، تمارا، تعليماتها للنادل في كلاركس، ومنعتهم من التحدث إليه وتعطيله عن عمله، حتى أنها وبختها في المنزل لهذا السبب، معتبرة سلوكها معه غير ملائم. لكن والدتها لم تكن تفهم شيئاً، لم تفهم أن هاري كان يحبها لدرجة أنه كان يكتب كتاباً عنها.

كانت تشك في أمر الكتاب منذ عدة أيام، لكنها تأكدت من الأمر في ذلك الصباح. وصل هاري إلى كلاركس عند الفجر، حوالي الساعة السادسة والنصف صباحاً، عند فتح الأبواب. كان نادراً ما يأتي باكراً جداً. فسائقو الحافلات والبائعون المتجولون هم من يأتون في تلك الساعة عادة. وما إن استقر إلى طاولته حتى بدأ يكتب بشكل آلي وهو شبه ممدد فوق أوراقه، كما لو أنه يخشى أن يرى أحداً ما كلماته. كان يتوقف عن الكتابة أحياناً وينظر إليها طويلاً، فكانت تتظاهر بأنها لم تلاحظ شيئاً، ولكنها كانت تعلم أنه يلتهمها بعينه. في البداية، لم تكن تدرك سبب نظراته الملحاحة، لكن قبل الظهرية بقليل، أدركت أنه يؤلف كتاباً عنها. نعم، كانت هي، جيني كوين، الموضوع الرئيسي للعمل العظيم الجديد لهاري كمبر. لهذا لم يكن يريد أن يلمح أحداً أوراقه. وحالما تأكدت من ذلك، شعرت بإثارة هائلة تجتاحها، فانتهزت فرصة موعد الغداء لتحمل إليه قائمة الطعام وتدرش معه قليلاً.

كان قد قضى فترة الصباح يكتب الأحرف الأربعة المكوّنة لاسمها: ن. و. ل. ا. كانت صورتها لا تفارق خياله، ووجهها يجتاح أفكاره. كان أحياناً يغمض عينيه ليستحضرها ثم يجبر نفسه على النظر إلى جيني على أمل أن ينساها، محاولاً أن يشفي نفسه. كانت جيني امرأة جميلة جداً، فلماذا لا يستطيع أن يحبها؟

وحين رأى جيني تقترب منه حاملة قائمة الطعام، غطى أوراقه بورقة بيضاء، كما يفعل كلما اقترب منه أحد.

- حان الوقت لأن تأكل شيئاً، يا هاري، قالت له بنبرة أمومية، فأنت لم تتناول شيئاً سوى لتر ونصف اللتر من القهوة، وستصاب بقروح في المعدة إذا بقيت على هذه الحال.

أجبر نفسه على ابتسامة مهذبة وعلى الخوض في حديث معها.

شعر بجبهته تتعرق فمسحها بيده سريعاً.

- أنت تشعر بالحر، يا هاري، أنت تعمل كثيراً!

- ممكن.

- هل يأتيك الإلهام هذه الأيام؟

- نعم، يمكن أن نقول إن الأمور بخير هذه الفترة.

- أنت لم ترفع رأسك عن الورق طوال النهار.

- فعلاً.

ابتسمت جيني ابتسامة متواطئة، ملمّحة له أنها تعرف كل شيء بشأن الكتاب.

- هاري... قد يبدو ذلك جريئاً، لكن... هل أستطيع أن أقرأه؟ بضع صفحات فقط؟ إنني أتحرق شوقاً لأقرأ ما تكتبه. لا بد أنها كلمات رائعة.

لأنه لم يكتمل بما يكفي...

- ولكنه رائع بكل تأكيد.

- سنرى فيما بعد.

ابتسمت من جديد.

- دعني أحضر لك ليمونادا لتنعشك. أتريد أن تأكل شيئاً؟

- سأتناول البيض وشرائح اللحم المقدد.

انصرفت جيني إلى المطبخ وصاحت للطباخ: بيض ولحم مقدد

للكاتب الكبير!

أما أمها التي رأتها تثرثر في الصلاة، فوبختها قائلة:

- جيني، أريدك أن تكفي عن مضايقة السيد كبير!

- أضيائه؟ أمي أنت لا تفهمين! إنني ألهمه!

نظرت تمارا كوين إلى ابنتها، غير مقتنعة. كانت ابنتها جيني فتاة

لطيفة، ولكنها ساذجة.

- من الذي أدخل هذه التفاهات في رأسك؟

- أعرف أن هاري يستلطفني يا أمي، وأعتقد أنني أحظى بمكانة

مميزة في كتابه. نعم، يا أمي، لن تستمر ابتئك في تقديم اللحم المقدد والقهوة طوال حياتها، بل ستصبح شخصاً مرموقاً في المجتمع.

- ما الذي تقولينه؟

بالغت جيني بعض الشيء كي تفهم أمها:

- قريباً، سيكون ما بيننا، أنا وهاري، رسمياً.

وأعقبت جملتها بضحكة مأكرة وعادت إلى الصلاة بخطى منتصرة،

وكانها السيدة الأولى.

لم تستطع تمارا كوين أن تكبح ابتسامة رضا: في حال نجحت

ابنتها في رمي شباكها على كبير، فسيحدث البلد بأجمعه عن مطعم كلاركس. ومن يدري، لعل حفل الزفاف يتم هنا، فقد تنجح في إقناع هاري بذلك. سيُغلق الحي، وتُنصب الخيم في الشارع، وتُحدّد قائمة

الضيوف بعناية بالغة؛ نصفهم من صفوة المجتمع في نيويورك، وعشرات الصحفيين لتغطية الحدث، ترافقهم أضواء المصورين. كان

الرجلُ المنتظر فعلاً!

في ذلك اليوم، غادر هاري مطعم كلاركس عند الرابعة عصراً على عجل وكان الوقت قد داهمه. ركب سيارته المركونة أمام المطعم وانطلق بسرعة. لم يكن يرغب في أن يتأخر، لم يكن يرغب في أن تفوته رؤيتها. وبعد مغادرته بقليل، توقفت سيارة تابعة لشرطة أورورا مكان سيارته. تفحص الضابط ترافيس داون داخل المطعم بحذر، ممسكاً بعجلة القيادة بعصبية. ونظراً لعدد الزبائن في المطعم، لم يجرؤ على الدخول، مستغلاً انتظاره في السيارة في تكرار الجملة التي كان قد أعدها. جملة واحدة. كان بإمكانه لفظها، فلا ينبغي أن يكون خجولاً إلى هذا الحد. جملة بائسة وحيدة، لا تتعدى عشر كلمات. نظر إلى نفسه في مرآة السيارة وردد: مرحباً يا جيني، ما رأيك في الذهاب إلى السينما يوم السبت... اللعنة! لم تكن هذه الجملة الصحيحة! لم تكن سوى جملة تافهة ومع ذلك لم يستطع حفظها. فتح ورقة صغيرة وقرأ الكلمات التي كان قد كتبها بنفسه:

«مرحباً، يا جيني

إذا كنت متفرغة يوم السبت مساءً، فما رأيك في

الذهاب إلى السينما في مونتيري؟».

لم يكن ذلك بالأمر العسير: كان عليه أن يدخل إلى كلاركس، أن يتسّم، أن يجلس عند المنضدة، ويطلب القهوة. وبينما تصب له هي فنجان القهوة، يُلقى هو جملة. رتب شعره وتظاهر بأنه يتكلم في ميكروفون جهاز الإرسال ليبدو منشغلاً إذا ما رآه أحد. انتظر عشر دقائق: غادر أربعة زبائن مطعم كلاركس معاً. بات الطريق سالكاً. كان قلبه ينبض بعنف: شعر أنه يدق في صدره وفي رأسه ويديه، بل إن أطراف أصابعه بدت وكأنها تهتز مع كل نبضة من قلبه. ترجل من سيارته، ممسكاً بورقته الصغيرة. كان يحبها. منذ سنوات المدرسة الثانوية، كان يحبها. إنها أروع امرأة رأتها عيناه، ولقد بقي في أورورا

من أجلها: في أكاديمية الشرطة، ألقوا الضوء على كفاءاته واقترحوا عليه الالتحاق بما هو أفضل من الشرطة المحلية: شرطة الولاية أو الشرطة الفيدرالية حتى. وقد قال له رجل من واشنطن ذات مرة: «لا تضئ وقتك في هذه البلدة النائية، يا صغيري، فمكتب التحقيقات الفيدرالي بحاجة إلى عناصر وهو يوظف الآن». مكتب التحقيقات الفيدرالي. لقد عُرض عليه الانضمام إلى مكتب التحقيقات الفيدرالي. بل وكان بإمكانه طلب الالتحاق بالاستخبارات السرية المعنية بأمن الرئاسة وكبار الشخصيات في البلاد. لكن كانت هناك هذه الفتاة التي تعمل في مطعم كلاركس، هذه الفتاة التي أحبها منذ أن رآها، والتي لطالما تمنى أن تلقي عليه ولو نظرة: جيني كوين. فطلب أن يُعيّن في شرطة أورورا. فمن دون جيني، لم يكن لحياته معنى. وقف أمام باب المطعم، أخذ نفساً عميقاً، ثم دخل.

كانت تفكر في هاري وهي تجفف على نحوٍ آلي فناجين قهوة جافة بالفعل. في الفترة الأخيرة، كان دائماً يغادر عند الساعة الرابعة، فكانت تتساءل إلى أين يذهب كل يوم في نفس التوقيت. هل كان على موعد مع أحد؟ مع من؟ جلس زبون عند المنضدة فانتزعها من أفكارها.

- مرحباً، يا جيني.

كان ترافيس، زميلها اللطيف من أيام الثانوية، والذي أصبح شرطياً.

- أهلاً ترافيس. هل أعدّ لك قهوة؟

- ليتك تفعلين!

أغمض عينيه للحظة ليركز: كان لا بد أن يقول لها تلك الجملة. وضعت فناجناً أمامه وصبت فيه القهوة. كانت اللحظة المناسبة لينطق بجملته.

- جيني... ما رأيك...

- نعم؟

حدّقت عيناها الزرقاوان الواسعتان في عينيه فأفقده ذلك تركيزه .
 ماذا كانت بقية الجملة؟ السينما .
 - السينما، قال لها .
 - ماذا عنها؟
 - كانت هناك عملية سطو في سينما مانشستر .
 - حقاً؟ عملية سطو في سينما؟ يا لها من قصة عجيبة!
 - أقصد في مكتب بريد مانشستر .
 لماذا تحدث عن عملية السطو؟! يجب أن يتحدث عن السينما!
 - في مكتب البريد أم في السينما؟ سألت جيني .
 السينما . السينما . السينما . تحدث عن السينما! كاد قلبه
 ينفجر!
 - جيني... ما رأيك... قلت في نفسي ربما... إذا أردت
 طبعاً...
 في هذه اللحظة، نادى تمارا ابتئها من داخل المطبخ، وكان على
 جيني أن تقطع الحديث .
 - اعذرني يا ترافيس، يجب أن أذهب إليها، فمزاجها فظيع هذه
 الأيام .
 واختفت الشابة الجميلة خلف باب المطبخ دون أن تمنح الضابط
 الشاب وقتاً كافياً ليكمل جملة . تنهد وهمس: إذا كنت متفرّغة يوم
 السبت مساءً، فما رأيك في الذهاب إلى السينما في مونتيري؟ .
 ثم ترك خمسة دولارات ثمناً لقهوة سعرها خمسون سنتاً لم
 يشربها، وغادر كلاركس محبطاً وحزيناً .

*

- إلى أين كنت تذهب كل يوم عند الرابعة عصراً، يا هاري؟
 سألته .

لم يجبني على الفور. نظر عبر النافذة القريبة وبدأ لي أنه ابتسم
ابتسامة سعيدة، وقال أخيراً:

- كنت بحاجة لأن أراها...

- نولا، أليس كذلك؟

- نعم. أتعلم، كانت جيني فتاة رائعة، لكنها لم تكن نولا.
فبالنسبة إليّ، أن أكون مع نولا كان أن أعيش حقاً. لا يمكنني أن أعبر
عن ذلك بطريقة أخرى. فكانت كل ثانية بصحبته ثانية من حياة تُعاش
بالكامل. وهذا ما يعنيه الحب، على ما أعتقد. تلك الضحكة، يا
ماركوس، تلك الضحكة، أنا أسمعها تتردد في رأسي كل يوم منذ ثلاثة
وثلاثين سنة. وتلك النظرة العجيبة، وتلك العينان اللتان تتألقان حياة،
ما تزال هنا... أمامي... كذلك حركاتها، والطريقة التي تصفف بها
خصلات شعرها أو تعض بها شفتيها. ويتردد صدى صوتها بداخلي
أحياناً كما لو كانت هنا. وحين أذهب إلى وسط المدينة، أو إلى
الميناء، أو المتجر الرئيسي، أراها تحدثني عن الحياة وعن الكتب. ففي
يونيو 1975 ذاك، لم يكن قد مضى شهر واحد على دخولها عالمي،
وشعرت مع ذلك أنها لطالما كانت جزءاً من حياتي. وحين لم تكن
هناك، كنت أشعر بأن الحياة لا معنى لها: فيوم من دون أن أرى نولا
هو يوم ضائع. شعرت برغبة ملحة في أن أراها لدرجة أنني أصبحت لا
أطيق انتظار السبت التالي، فبدأت أنتظرها عند خروجها من المدرسة.
هذا ما كنت أفعله بعد مغادرتي كلاركس في الرابعة عصراً. كنت أركب
سيارتي وأتوجه إلى مدرسة أورورا الثانوية. أركن السيارة في الموقف
الخاص بالمعلمين، قبالة الباب الرئيسي، وأنتظر أن تخرج وأنا مختبئ
في سيارتي. وفور ظهورها، كنت أشعر بأنني أكثر حياة وأكثر قوة بكثير!
كانت السعادة التي أشعر بها عند رؤيتها تكفيني: كنت أراقبها إلى أن
تصعد حافلة المدرسة، وأنتظر لبعض الوقت إلى أن تختفي الحافلة على
الطريق. هل كنت مجنوناً، يا ماركوس؟

- لا ، لا أعتقد ذلك ، يا هاري .

- كل ما أعرفه هو أن نولا كانت تعيش بداخلي . بالمعنى الحرفي للعبارة . ثم جاء يوم السبت ، وكان ذلك السبت يوماً رائعاً . في ذلك اليوم ، شجع الطقس المشمس الناس على الذهاب إلى الشاطئ ، فكان مطعم كلاركس خالياً من الناس ، فاستطعنا أنا ونولا التحدث مطولاً . قالت إنها فكرت فيّ وفي كتابي كثيراً ، وإن ما كنت أكتبه حينذاك لا بد أن يكون عملاً عظيماً . وفي نهاية نوبة خدمتها ، أي عند حوالي السادسة مساءً ، عرضتُ عليها أن أصطحبها بسيارتي . أنزلتها على بعد مربع سكني من منزلها ، في زنقة هادئة ، بعيداً عن الأنظار . سألتني إن كنت أرغب في أن أتمشى معها قليلاً ، لكنني قلت إنني لا أحبذ ذلك لأن المدينة بأكملها ستحدث عنا إذا ما رأنا أحدهم نتنزه معاً . وأتذكر أنها أجابتني بهذه الكلمات : «أن نتمشى قليلاً ليس جريمة ، يا هاري . . . - أعرف يا نولا ، لكنني أعتقد أن الناس سيتساءلون عن ذلك» . عبست ثم قالت : «أنا أحب رفقتك كثيراً ، يا هاري . أنت شخص استثنائي . كم سيكون الأمر رائعاً لو كان بإمكاننا أن نمضي بعض الوقت معاً دون أن نضطر إلى أن نختبئ» .

*

السبت 28 يونيو 1975

كانت الساعة الواحدة ظهراً . كانت جيني كوين تعمل خلف المنضدة في مطعم كلاركس . وفي كل مرة يُفتح فيها الباب ، كانت تنظر آملة أن يكون هو . لكن لم يكن الحال كذلك أبداً . كانت متوترة ومتضايقة . فُتح الباب مرة أخرى ، ومرة أخرى لم يكن هاري ، بل كانت أمها تمارا التي تفاجأت من لباس ابنتها : كانت ترتدي طقمًا أنيقاً ذا لون سكري عادة ما احتفظت به للمناسبات .

- حبيتي ، لماذا ترتدين هذه الثياب؟ أين مئزرك؟

- ربما لم أعد أرغب في ارتداء تلك المآزر الشنيعة التي تجعلني أبدو قبيحة. من حقي أن أبدو جميلة من وقت لآخر، أم لا؟ أعتقد أنني أحب بيع البرغر طوال النهار؟
اغرورقت عينا جيني بالدموع.

- ما الخطب؟ سألتها أمها.

- إنه يوم السبت ولا يتعين عليّ أن أعمل اليوم! فأنا لا أعمل في عطلات نهاية الأسبوع أبداً!

- لكن أنت من أصررت أن تحلي محل نولا حين طلبت مني إجازة اليوم.

- نعم. ربما. لا أدري. أوه، أمي، أنا تعيسة جداً!

كانت جيني تلعب بزجاجة كتشاب، أفلتت من يديها فسقطت على الأرض: تهشمت الزجاجاة وتلطح حذاؤها الرياضي الأبيض الناصع ببقع حمراء. انفجرت باكياً.

- حبيتي، ماذا بك؟ قالت أمها وقد بدا عليها القلق.

- إني أنتظر هاري، يا أمي! فهو دائماً ما يأتي يوم السبت... لماذا لم يأت اليوم إذا؟ أوه، يا أمي، أنا لست سوى مغفلة! كيف اعتقدت أنه يحبني؟ فرجل مثل هاري لن يرغب أبداً في نادلة مثلي تقدم البرغر في مطعم! أنا لست سوى بلهاء.

- لا تقولي ذلك! قالت تمارا مواسية إياها. اذهبي واستمتعي بوقتك، خذي عطلة اليوم وسأعمل مكانك. لا أريدك أن تبكي. أنت فتاة رائعة وأنا واثقة أن هاري مغرم بك.

- لماذا لم يأت إذا؟

فكرت الأم كوين للحظة ثم قالت:

- هل كان يعلم أنك تعملين اليوم؟ أنت لا تعملين أيام السبت أبداً، فلماذا سيأتي إن لم تكوني هنا؟ أنت تعلمين ما أعتقد، يا

حبيبتي: لا بد أن هاري يشعر بالتعاسة يوم السبت، لأنه اليوم الذي لا يراك فيه.

أشرق وجه جيني.

- أوه، يا أمي! لماذا لم أفكر في الأمر على هذا النحو؟

- اذهبي لزيارته في منزله. أنا واثقة أنه سيسعد كثيراً لرؤيتك.

كان وجه جيني يشع نوراً الآن. كم كانت الفكرة التي اقترحتها أمها رائعة! أن تزور هاري في غوز كوف وأن تأخذ له وجبة لذيذة: لا بد أن المسكين عمل بجهد طوال الصباح فنسي أن يأكل. هرعت إلى المطبخ لتجلب بعض المؤن.

في اللحظة نفسها، على بعد مئة وثلاثين ميلاً من مطعم كلاركس في مدينة روكلاند الصغيرة بولاية مين، كان هاري ونولا يتنزهان في ممشي على ساحل المحيط. كانت نولا ترمي قطع خبز لنوارس ضخمة تطلق صيحات حادة.

- أنا أحب النوارس! صاحت نولا. إنها طيور المفضلة. ربما لأنني أحب المحيط، وأينما وجدت النوارس، وُجد المحيط. فحتى حين تحجب الأشجار الأفق، تحليق النوارس في السماء يذكرنا بأن المحيط خلفنا. هل ستذكر النوارس في كتابك، يا هاري؟

- إذا شئت. سأضع في كتابي كل ما تحببته.

- عمّ يتحدث؟

- كنت أود أن أخبرك، ولكني لا أستطيع.

- أهي قصة حب؟

- نوعاً ما.

نظر إليها، مبتهجاً. كان يمسك بدفتر صغير، فحاول رسم المشهد بقلم الرصاص.

- ماذا تفعل؟ سألته.

- رسم سريع .
- أترسم أيضاً؟ أنت متعدد المواهب حقاً! أرني، أريد أن أرى ما رسمت!

اقتربت منه وتحمست عند رؤيتها الرسم .
- إنه جميل، يا هاري، أنت موهوب حقاً!
ويحرّكة حنان تلقائية، أسندت رأسها إلى صدره فكانت ردة فعله أن يدفعها، ثم نظر من حوله ليتأكد أنه لم يرهما أحد .
- لماذا فعلت ذلك؟ قالت نولا، غاضبة . هل تخجل بي؟
- نولا، أنت في الخامسة عشرة . . . وأنا في الرابعة والثلاثين .
لن يتقبل الناس ذلك .
- الناس أغبياء!

ضحك ورسم ملامح وجهها الغاضبة ببضع ضربات قلم . أسندت رأسها إلى صدره من جديد وتركها تفعل هذه المرة، ثم شاهدا معاً النوارس وهي تتنازع قطع الخبز .
كانا قد قررا أمر هذه الرحلة قبل ذلك ببضعة أيام . انتظرها بالقرب من منزلها بعد خروجها من المدرسة، على مقربة من موقف حافلة المدرسة . كانت سعيدة ومتفاجئة برؤيته .
- هاري؟ ماذا تفعل هنا؟ سألته .

لا أعرف، حقيقةً . أردت أن أراك فحسب، أنا . . . أتعرفين يا نولا، لقد فكرت في اقتراحك . . .

- أن نقضي بعض الوقت وحدنا؟
- نعم . فكرت أنه يمكننا الذهاب معاً في رحلة في عطلة نهاية الأسبوع . ليس بعيداً . إلى روكلاند، مثلاً . حيث لا أحد يعرفنا . كي نشعر بأننا حرّان . إذا أردت ذلك، طبعاً .

- أوه، يا هاري، سيكون هذا رائعاً! لكن يجب أن يكون ذلك يوم السبت، فلا يمكنني أن أتغيب عن قداس يوم الأحد .

- سيكون السبت إذًا. أستطيعين ترتيب الأمر؟
- بالتأكيد! سأطلب إجازة من السيدة كوين، وأنا أعلم ما سأقوله لوالديّ. لا تقلق.
- أعلم ما سأقوله لوالديّ. حين لفظت هذه الكلمات، أدرك ما يعنيه أن يقع في حب فتاة مراهقة. وعلى شاطئ روكلاند هذا، فكر فيهما.
- فيم أنت سارح، يا هاري؟ سألته نولا وهي لا تزال تسند رأسها إلى صدره.
- فيما نفعله.
- وهل من شيء مشين فيما نفعله؟
- أنت تعرفين الجواب على هذا السؤال. أو ربما لا. ماذا قلت لوالديك؟
- هما يعتقدان أنني مع صديقتي نانسي هاتاواي، وأنا غادرنا مبكراً جداً هذا الصباح لنقضي النهار على مركب والد صديقها تيدي بابست.
- وأين هي نانسي؟
- على المركب مع تيدي. وحدهما. قالت إنني معها كي يسمح لهما والدا تيدي بأن يبحرا.
- إذًا، تعتقد أمها أنها معك، وتعتقد أمك أنك مع نانسي، وإذا اتصلت إحداهما بالأخرى، فسيؤكدان من الحكاية.
- تماماً. إنها خطة محكمة. لكن عليّ أن أعود عند الساعة الثامنة مساءً. هل سيكون لدينا ما يكفي من الوقت لنرقص؟ كم أرغب في أن نرقص معاً!

كانت الساعة الثالثة عصراً حين وصلت جيني إلى غوز كوف. وبينما كانت تركز سيارتها، لاحظت أن الشيفروليه السوداء لم تكن

هناك. قد يكون هاري قد خرج إذاً. قرعت الجرس رغم ذلك: لم يجب أحد، كما توقعت. دارت حول المنزل لترى إن كان على الشرفة، لكن ما من أحد هناك أيضاً، فقررت أن تدخل المنزل. لا شك أن يكون هاري قد خرج ليربح ذهنه قليلاً. كان يعمل كثيراً مؤخراً ويحتاج لفترات من الراحة. سيفرح عند عودته بكل تأكيد، حين يجد طعاماً لذيذاً ينتظره على الطاولة: سندويشات لحم، بيض، جبن، وخضروات طازجة تُغمَّس في صلصة أعشاب خاصة، وفطيرة بالفواكه الشهية.

لم تكن جيني قد رأت منزل غوز كوف من الداخل من قبل. كان كل شيء رائعاً في نظرها: المساحة الشاسعة، الديكور ذو الذوق الرفيع، العوارض الخشبية في السقف، المكتبات الكبيرة المثبتة على الجدران، الأرضيات من الخشب المصقول، والنوافذ الزجاجية الكبيرة التي تطل على المحيط في مشهد خلاب. لم تستطع أن تمنع نفسها من تخيل العيش هنا مع هاري: تناول وجبات الفطور معاً على الشرفة، وقضاء مواسم الشتاء بالقرب من مدفأة غرفة المعيشة حيث سيقراً لها هاري مقاطع من روايته الجديدة. ولماذا الذهاب إلى نيويورك؟ فمعاً، حتى هنا، سيكونان سعيدين. لن يحتاجا إلى شيء سوى نفسيهما. وضعت الطعام على طاولة غرفة الطعام ورتبت الأطباق، وحين انتهت، جلست على مقعد كبير تنتظر لتفاجئه.

انتظرت مدة ساعة. ما الذي كان يفعله؟ شعرت بالملل، فقررت أن تتجول في باقي المنزل. كانت أول حجرة دخلتها هي المكتب في الطابق الأرضي. كانت غرفة ضيقة بعض الشيء لكنها مجهزة على نحو عملي؛ مع خزانة، ووحدة أدراج من خشب الأبنوس، ومكتبة مثبتة على الجدار، ومكتب عريض عليه أوراق وأقلام مبعثرة. هنا كان يعمل هاري. اقتربت من المكتب لتلقي نظرة فحسب. لم تكن ترغب في انتهاك حرمة عمله، ولا في خيانة ثقته، بل أرادت أن تعرف ما الذي

كان يكتبه عنها طوال اليوم فحسب. كما أنه لن يعرف أحد شيئاً عن ذلك. وهكذا، مقتنعة بحسن نواياها، أمسكت بالورقة الأولى التي تعلق الحزمة، وبدأت تقرأ وقلبها يخفق. كانت السطور الأولى مشطوبة باللون الأسود بحيث لم تستطع أن تقرأ شيئاً، لكن السطور التالية كانت واضحة بما يكفي لتقرأها:

أنا لا أذهب إلى مطعم كلاركس إلا لأراها. لا أذهب إلى هناك إلا لأكون بقربها، فهي تجسد كل ما حلمت به مدى الحياة. أنا مسكون بها. لا يحق لي ذلك. لا ينبغي أن أستمّر. لا ينبغي أن أذهب إلى هناك، بل لا ينبغي أن أبقى هنا في مدينة الشوم هذه: يجب عليّ أن أرحل، أن أهرب، وألا أعود أبداً. لا يحق لي أن أحبها. إنه أمر محظور. هل أنا مجنون؟

كانت تشع سعادةً، وأخذت تقبل الورقة وتحتضنها. ثم راحت ترقص وتصرخ: «هاري يا حبيبي، أنت لست مجنوناً! أنا أيضاً أحبك ولك عليّ كل حقوق العالم. لا تهرب، يا حبيبي! أنا أحبك كثيراً!». وفي قمة الحماس والإثارة، أعادت الورقة إلى مكانها فوق المكتب بسرعة، قبل أن يفاجئها وصوله، وعادت إلى غرفة المعيشة. تمددت على الأريكة ورفعت تنورتها كي تعري ساقها وفكت أزرار قميصها لتبرز صدرها. لم يكتب لها أحد كلاماً بهذا الجمال من قبل. فقررت أن تمنحه نفسها فور عودته. أن تهبه عذريتها.

في ذات اللحظة، دخل ديفيد كيلرغان مطعم كلاركس وجلس عند المنضدة وطلب شاياً مثلجاً كالعادة.

- ابنتك ليست هنا اليوم، أيها الأب كيلرغان، قالت له تمارا وهي تقدم له الشاي. لقد أخذت إجازة اليوم.

- أعرف ذلك، يا سيدة كوين، إنها على الشاطئ مع أصدقائها. لقد غادرت المنزل عند الفجر. عرضت عليها أن أصرطحبها بالسيارة، ولكنها رفضت. طلبت مني أن أرتاح وأظل في السرير. صغیرتي بنت لطيفة.

- أنت محقّ، فأنا راضية عن عملها تمام الرضا.

ابتسم ديفيد كيلرغان. تأملت تمارا هذا الرجل المرح ذا الوجه الدافئ المحاط بنظارات طبية. كان في الخمسينات من عمره، نحيف بل هزيل البنية، لكن تنبعث منه قوة كبيرة. كان صوته هادئاً وخفيضاً دائماً. كانت قدره كثيراً، حالها حال باقي سكان المدينة، كما كانت تحب عظاته، رغم أنه كان يلقيها بلهجة أهل الجنوب. وكانت ابنته مثله: رقيقة، ودودة، خدومة، وبشوشة. كان ديفيد ونولا كيلرغان طبيين، وأمريكيين صالحين، ومسيحيين مؤمنين. كانا محبوبين جداً في أورورا.

- منذ متى وأنت في أورورا؟ سألتها تمارا كوين. يبدو لي كما لو أنك هنا منذ الأزل.

- منذ ست سنوات يا سيدة كوين، ست سنوات جميلة. ثم نظر إلى الزبائن من حوله، ولاحظ أن الطاولة رقم 17 كانت شاغرة.

- الكاتب ليس هنا اليوم؟! إنه أمر نادر، أليس كذلك؟

- ليس هنا اليوم. أعلم، إنه رجل لطيف.

- نعم، إنني أستلطفه أنا أيضاً. قابلته هنا من قبل، وقد جاء ليحضر عرض المدرسة الثانوية. أود أن أجعله ينضم إلى الأبرشية، فنحن بحاجة إلى شخصيات بارزة مثله كي تتقدم هذه المدينة.

فكرت تمارا في ابنتها فعلت ابتسامة وجهها، ولم تستطع منع نفسها من نشر الخبر:

- لا تخبر أحداً أيها الأب كيلرغان، إذ هناك شيء بينه وبين جيني.

ابتسم الأب كيلرغان وشرب جرعة كبيرة من شايه المثلج.

الساعة السادسة مساءً في روكلاند. كان هاري ونولا يحتسيان عصير الفواكه على شرفة مقهى مشمس. أرادت نولا أن يخبرها هاري عن حياته في نيويورك، أرادت أن تعرف كل شيء. «احكِ لي كل شيء. احكِ لي ماذا يعني أن تكون نجماً هناك». كان يعلم أنها تتخيل حياة من الحفلات والعشوات، فماذا كان يمكن أن يقول لها؟ أنه لم يكن شيئاً من هذا في نيويورك؟ وأن كتابه الأول مر مرور الكرام دون أن يلحظه أحد، وأنه حتى الآن، لم يكن سوى معلّم ثانوي لا يهم أمره أحداً؟ أنه لم يتبق له أي مال لأنه أنفق كل مدخراته في استئجار منزل غوز كوف؟ أنه لم يعد قادراً على الكتابة؟ أنه كان دجلاً؟ أن الكاتب العظيم هاري كبير الذي يسكن في منزل فاخر على الشاطئ ويقضي أيامه يكتب في المقاهي لن يكون له وجود سوى في هذا الصيف؟ لم يكن بإمكانه أن يخبرها بالحقيقة؛ فهو كان بذلك يخاطر بأن يفقدها. فقرر أن يخترع، أن يلعب دور حياته حتى النهاية: دور الكاتب الموهوب والمحترم، كاتب السجاجيد الحمراء والمحافل النيويوركية الذي أتى إلى مدينة صغيرة بولاية نيو هامبشير بحثاً عن الهدوء الذي يحتاج إليه لإبداعه.

- أنت محظوظ يا هاري! قالت له وقد بهرتها قصته. أي إثارة تلك التي تعيشها! أود أحياناً لو أرحل بعيداً عن هنا، بعيداً عن أورورا. أعلم، إنني أختنق هنا. والداي متزمتان. والذي رجل صالح، لكنه رجل دين: لديه أفكاره الخاصة. أما أمي، فهي قاسية جداً معي! يبدو الأمر كأنها لم تكن شابة في يوم من الأيام. ثم إن الذهاب إلى الكنيسة في كل صباح أحد أمر مزعج!

أمسكت يده بحنان وسألته :

- أيعق لنا ألا نحب أمهاتنا؟

- أعتقد ذلك . فالحب ليس واجباً .

- لكن في الوصايا العشر، الوصية الرابعة أو الخامسة، لا أذكر،

هي «أحب والديك» . أمي قاسية، فهي تحبسنني في غرفتي أحياناً،

تقول إنني وقحة . أنا لست وقحة، بل أحب أن أكون حرة فحسب .

أحب أن يكون لي الحق في الحلم . يا إلهي! إنها السادسة! كم أود لو

يتوقف الزمن! علينا أن نعود . لم يعد لدينا الوقت لنرقص .

- سنرقص يا نولا ، سنرقص . لدينا حياة أماننا لنرقص .

عند الساعة الثامنة، استيقظت جيني مفزوعة . كانت قد غفت من

طول انتظارها على الأريكة . كانت الشمس تغرب الآن، والمساء قد

حل . كانت مستلقية على الأريكة، ويسيل من طرف فمها خيطٌ من

اللعاب . عدلت ملابسها، وجمعت الأطعمة التي أتت بها، وغادرت

منزل غوز كوف وهي تشعر بالخجل .

وصلا إلى أورو را بعد بضع دقائق . أوقف هاري السيارة في شارع

صغير بالقرب من الميناء، كي تلتحق نولا بصديقتها نانسي وتعودا معاً .

بقيا برهة في السيارة . كان الشارع خاوياً من المارة، والليل قد حل .

أخرجت نولا حزمة من حقيبتها .

- ما هذا، يا نولا؟ سأل هاري .

- افتحها . إنها هدية لك . لقد اشتريتها من ذلك المحل الصغير

في وسط المدينة، حيث شربنا عصير الفواكه . إنها ذكرى كي لا تنسى

أبداً هذا اليوم الرائع .

فتح الحزمة . كانت علبة من الحديد محفور عليها ذكرى من

روكلاند، مين .

- إنها لتضع فيها قطع الخبز التي ستطعمها للنوارس. يجب أن
تطعم النوارس، إنه أمر مهم.
- شكراً. أعدك أن أطعم النوارس دائماً.
- قل لي كلمات رومانسية، حبيبي هاري. قل لي إنني نولا
حبيبتك.

- نولا حبيبتي...
ابتسمت وقربت وجهها من وجهه لتقبله.
تراجع إلى الوراء فجأة.
- نولا، هذا لا يجوز.
- آه، لماذا؟
- أنا وأنت... الأمر معقد جداً.
- ما المعقد فيه؟

- كل شيء، كل شيء، يا نولا. يجب أن تذهبي الآن وتلتحقي
بصديقتك، فالوقت متأخر. أعتقد... أعتقد أنه علينا أن نكف عن
اللقاء.

ترجل من السيارة بسرعة ليفتح لها الباب. كان عليها أن تذهب
سريعاً، لأنه كان من الصعب جداً عليه ألا يبوح لها... كم كان
يحبها.

*

- إذاً، علبة الخبز، تلك التي في المطبخ، هي ذكرى من رحلتكم
إلى روكلاندا؟ سألته.
- نعم، يا ماركوس. إنني أطعم النوارس لأن نولا طلبت مني
ذلك.

- وماذا حدث بعد روكلاندا؟

- كان هذا اليوم رائعاً لدرجة أنني شعرت بالخوف . كان الوضع رائعاً لكن معقداً جداً؛ لذا قررت أن أبتعد عن نولا وأن أصوب اهتمامي على فتاة أخرى، فتاة يحق لي أن أحبها . أتخمن من؟
- جيني .

- صحيح .

- و...؟

- سأحكي لك في مرة أخرى، يا ماركوس . لقد تحدثنا كثيراً وأنا مرهق جداً .

- طبعاً، أنفهم ذلك .

أطفأت جهاز التسجيل .

ذكريات العيد الوطني

«اتخذ وقفة الاستعداد، يا ماركوس.

- وقفة الاستعداد؟

- نعم، هيا! ارفع قبضتيك، وثبت ساقيك، واستعد للقتال. بماذا تشعر؟

- أشعر... أشعر بأنني جاهز لكل شيء.

- جميل. أترى، الكتابة والملاكمة شبيهتان جداً. نحن نتخذ وقفة الاستعداد، ونقرر الانخراط في القتال، ونرفع قبضتينا وننهال على الخصم. والكتاب هو نفس الشيء تقريباً. الكتاب هو قتال».

- «يجب أن توقف هذا التحقيق، يا ماركوس».

كانت هذه أول كلمات وجهتها لي جيني حين ذهبت لأقابلها في مطعم كلاركس كي تحدثني عن علاقتها بهاري عام 1975. كانوا قد ذكروا الحريق في الأخبار، فأخذ الخبر ينتشر شيئاً فشيئاً.

- لماذا سأوقفه، سألتها.

- لأنني قلقة جداً بشأنك. أنا لا أحب هذه القصص (كان في صوتها حنانٌ أمومي). يبدأ الأمر بحريق ولا ندري كيف ينتهي.

- لن أغادر هذه المدينة قبل أن أفهم ما الذي حدث فيها قبل ثلاثة وثلاثين عاماً.

- أنت غير معقول، يا ماركوس! أنت عنيد جداً، تماماً مثل هاري!

- سأعتبر ذلك مديحاً.

ابتسمت.

- حسن، ماذا بإمكانني أن أفعل من أجلك؟

- أرغب في الحديث قليلاً. يمكننا أن نتمشى في الخارج إذا كنت لا تمانعين.

تركتِ المطعم للعاملين فيه وسرنا حتى وصلنا الميناء، حيث جلسنا على مقعد قبالة المحيط، وتأملتُ تلك المرأة التي كانت في

السابعة والخمسين من عمرها، بحسب حساباتي. كان الزمن قد ترك آثاره عليها، بجسدها النحيل ووجهها المجعد وعينيها المحاطتين بهالات غامقة. حاولت أن أتخيلها كما وصفها لي هاري، شابة شقراء جميلة وجذابة، ملكة جمال مدرستها الثانوية. سألتني فجأة:

- ماركوس... ما الشعور الذي يسببه؟

- عمّ تتحدثين؟

- عن المجد.

- إنه مؤلم، ممتع، ولكنه مؤلم.

- أذكر حين كنت طالبةً وكنت تأتي إلى كلاركس مع هاري لتعمل على نصوصك. كان يجعلك تعمل مثل كلب. كنت تقضي ساعات هنا، جالساً إلى طاولته، تعيد القراءة، وتشطب، وتبدأ من جديد. أذكر إقاماتك هنا حين كنا نلتقي بكما أنت وهاري، تركضان عند الفجر بانضباط صارم. أتعلم، حين كنت تأتي، كان هاري يشع فرحاً. لم يكن الشخص ذاته. وكنا نعلم أنك ستأتي لأنه كان يعلن عن الخبر قبل وصولك بأيام. كان يكرر: «هل أخبرتك أن ماركوس سيأتي لزيارتي الأسبوع المقبل؟ يا له من شاب استثنائي. سيحقق نجاحات كبيرة، أنا أعلم ذلك». كانت زياراتك تغير حياته. كان حضورك يغير حياته. فنحن لسنا أغبياء، كنا نعلم كم كان هاري وحيداً في منزله الكبير. ففي اليوم الذي دخلت فيه حياته، تغير كل شيء. كان هذه أشبه بولادة جديدة بالنسبة إليه. كما لو أن العجوز الوحيد نجح أخيراً في أن يكون محبوباً من قبل شخص ما. كانت إقاماتك هنا تحسن من حاله كثيراً. وبعد مغادرتك، كان يظل يحدثنا عنك: قال ماركوس... فعل ماركوس... كان فخوراً بك فخراً شديداً، فخر أب بابنه. كنت الابن الذي لم ينجه. كان دائم الحديث عنك، فأنت لم تغادر أورورا قط، يا ماركوس. وذات يوم، رأيناك في الجريدة. ماركوس غولدمان النجم الظاهرة. كان كاتبٌ كبيرٌ قد ولد. اشترى هاري كل نسخ الجريدة من

المتجر العام وأهدى الشامبانيا إلى رواد كلاركس، وشرب نخبك الجميع. ثم رأيناك على التلفاز وسمعناك على الراديو، ولم يعد هذا البلد اللعين يتحدث سوى عنك وعن كتابك. اشترى من كتابك عشرات النسخ ووزعها في كل مكان، وكنا نسأله عنك وعن أخبارك وعن متى سنراك مجدداً، وكان يجيب بأنك بخير، إلا أنه لم يسمع منك مؤخراً. فقد توقفت عن السؤال عنه بين ليلة وضحاها. كنت مشغولاً بأن تكون شخصاً مهماً، وبأن تظهر في الصحف والتلفزيون، لدرجة أنك تخلت عنه. لم تعد إلى هنا بعد ذلك. فهو الذي كان فخوراً جداً بك انتظر منك إشارة صغيرة، لم تأت أبداً. لقد نجحت وحقت مجدك، فلم تعد بحاجة إليه.

- هذا غير صحيح! صرخت قائلاً. صحيح أنني انشغلت بنجاحي، لكنني كنت أفكر فيه. كل يوم. لكن لم تكن لدي دقيقة واحدة لنفسى.

- ولا دقيقة للاتصال به؟

- اتصلتُ به طبعاً!

- اتصلتُ به حين كنت غارقاً في الوحل حتى أذنيك، نعم. إذ بعد بيع ملايين النسخ من كتابه، أصبح السيد الكاتب الكبير غير قادر على الكتابة. هذا أيضاً علمنا به بالبريد المباشر، لهذا فأنا أعرف كل شيء. كان هاري جالساً عند منضدة كلاركس، قلقاً للغاية، بعد أن تلقى اتصالاً منك يفيد بأنك محبط ولا تعرف ماذا تكتب، وأن ناشرك سيستولي على أموالك. ثم عدت إلى أورورا فجأة، بعيني كلب حزين، وإذ بهاري يفعل كل ما بوسعه ليرفع من معنوياتك. الكاتب الشاب المسكين، ماذا ستكتب يا ترى؟ إلى أن جاءت تلك المعجزة منذ أسبوعين: انفجرت الفضيحة ومن الذي أتى إلى هنا؟ ماركوس الطيب اللطيف. ما الذي جاء بك إلى أورورا، يا ماركوس؟ هل جئت تبحث عن الإلهام لكتابك الجديد؟

- ما الذي جعلك تقولين ذلك؟

- حدسي .

لم أجب على الفور، مذهولاً، ثم قلت :

- لقد عرض عليّ ناشري أن أوّلف كتاباً عن القصة، لكنني لن أفعل .

- هذا ما أقصده : لا يمكن ألا تفعل، يا مارك ! لأن كتابك قد يكون الشيء الوحيد الذي يثبت لأمريكا أن هاري ليس وحشاً . فهو لم يفعل أياً من ذلك، أنا واثقة من ذلك . أعلم ذلك تماماً في قرارة نفسي . لا يمكنك أن تتخلى عنه، فهو ليس لديه أحد غيرك ليدافع عنه . أنت مشهور، والناس سيصغون إليك . يجب أن تؤلف كتاباً عن هاري، عن سنواتكما معاً . أن تحكي كم أنه رجل استثنائي .
تمت :

- أنت تحبينه، أليس كذلك؟

خففت عينيها :

- أعتقد أنني لا أعرف معنى أن تحب .

- بل أعتقد العكس تماماً . من الطريقة التي تتحدثين بها عنه، رغم كل ما تبذلينه من جهود لكي تكرهيه .

ابتسمت ابتسامة حزينة وقالت والدموع تُسمع في صوتها :

- أنا أفكر فيه كل يوم منذ أكثر من ثلاثين سنة . ثلاثين سنة وأنا أراه وحيداً رغم أنني كل ما رغبت فيه هو أن أجعله سعيداً . أما أنا، فانظر إليّ، يا ماركوس . حلمت بأن أكون نجمة سينما، ولم أصبح سوى نجمة زيت القلي . أنا لم أعش الحياة التي أردتها لنفسي .

شعرت أنها جاهزة للبوح لي بالماضي، فسألتها :

- جيني . . . حدثيني عن نولا، لو سمحت .

ابتسمت ابتسامة حزينة .

- كانت فتاة لطيفة جداً . كانت أُمي تحبها كثيراً وتذكر حسن

صفاتها طوال الوقت، وكان هذا يغيظني. لأنني، إلى حين وصول نولا، كنت أنا الأميرة الجميلة لهذه المدينة. الفتاة التي ينظر إليها الجميع. كانت في التاسعة من عمرها حين أتت إلى هنا، فلم تلفت انتباه أحد حينذاك. ثم فجأة، لاحظ الجميع أن نولا الصغيرة أصبحت فتاة يافعة جميلة، ذات ساقين رائعتين، وصدر بارز، ووجه ملائكي. فأصبحت نولا الجديدة في لباس السباحة تثير الكثير من الرغبات.

- هل كنت تغارين منها؟

- يمكن أن أعترف لك بذلك اليوم، إذ لم تعد للأمر أهمية: نعم، كنت أغار منها قليلاً. فكان الرجال ينظرون إليها، وكنت كامرأة ألاحظ ذلك.

- لكنها كانت في الخامسة عشرة من عمرها...

- لم تكن تبدو كفتاة صغيرة، صدقني. كانت امرأة، بل امرأة جميلة.

- هل شككت في أمرهما هي وهاري؟

- إطلاقاً! لم يتخيل أحدٌ هنا أمراً كهذا. لا مع هاري، ولا مع أي كان. صحيح أنها كانت فتاة جميلة جداً، إلا أنها كانت في الخامسة عشرة، وكان الجميع يعلم ذلك. كما أنها كانت ابنة الكاهن كيلرغان.

- إذاً، فلم تكن هناك أي منافسة بينكما من أجل هاري؟

- بالطبع لا، يا إلهي!

- وبينك أنت وهاري، هل كانت هناك قصة ما؟

- بالكاد. تقابلنا قليلاً. كان يحظى بإعجاب النساء هنا. كونه نجماً من نيويورك أتى إلى هذه الحفرة...

- جيني، لديّ سؤال قد يفاجئك، لكن... هل كنت تعرفين أنه عند وصوله إلى هنا، لم يكن معروفاً على الإطلاق؟ كان مجرد مدرّس ثانوية صغير أنفق كل مدخراته لاستئجار منزل غوز كوف.

- ماذا؟ لكنه كان كاتباً بالفعل...

- كان قد نشر رواية واحدة على نفقته، ولم تحظ بنجاح يذكر. اعتقد أنه حدث سوء فهم بشأن شهرته، فاستغل ذلك ليكون في أورورا ما تمنى أن يكونه في نيويورك. ولأنه كتب بعد ذلك أصول الشر التي أوصلته إلى النجومية، فاكتمل الوهم تماماً. ضحكت جيني.

- هكذا إذا! لم أكن أعرف ذلك. هاري العجيب... أذكر أول مرة تواعدنا فيها. شعرت بإثارة بالغة يومذاك. أذكر التاريخ جيداً لأنه كان يوافق العيد الوطني: يوم 4 يوليو 1975.

حسبتُ التواريخ سريعاً في رأسي فوجدت أن يوم 4 يوليو كان بعد مغامرة روكلاند ببضعة أيام، وهي الفترة التي قرر فيها هاري أن يخرج نولا من رأسه. شجعتُ جيني على مواصلة حديثها: - حدثيني عن يوم 4 يوليو هذا.

أغمضت عينيها كما لو كانت هناك من جديد.

- كان يوماً جميلاً. كان هاري قد أتى إلى كلاركس وعرض عليّ أن نذهب لمشاهدة الألعاب النارية معاً في كونكورد. قال إنه سيأتي ليصطحبني من المنزل عند الساعة السادسة مساءً. كنت أنهي عملي عند السادسة والنصف، لكنني قلت له إن ذلك يناسبني تماماً، وتركتني أمي أغادر باكراً لأنها.

*

الجمعة 4 يوليو 1975

كان منزل عائلة كوين في شارع نورفولك في حالة من الهياج الكبير. كانت الساعة الخامسة وخمس وأربعين دقيقة، ولم تكن جيني جاهزة بعد. كانت تصعد السلام وتنزلها بملابسها الداخلية، حاملة في كل مرة فستاناً مختلفاً.

- وهذا يا أمي، ما رأيك في هذا؟ سألت وهي تدخل للمرة السابعة غرفة المعيشة حيث تجلس أمها.

- لا، هذا لا، ردت تمارا بصرامة. إنه يُظهر ردّيك سمينتين. أتريدين أن يعتقد هاري كبير أنك تأكلين على مدار الساعة؟ جربي فستاناً آخر!

صعدت جيني إلى غرفتها من جديد، وهي تنتحب وتقول في نفسها إنها فتاة قبيحة، وإنه ليس لديها ما ترتديه، وإنها ستظل وحيدة وقبيحة مدى الحياة.

كانت تمارا متوترة جداً: كان لا بد لابنتها أن تكون في المستوى المطلوب، إذ كان هاري كبير رجلاً من فئة مختلفة تماماً عن بقية الشباب في أورورا، ولم يكن هناك من مجال للخطأ. فما إن أخبرتها ابنتها عن موعد المسائي حتى أمرتها بمغادرة كلاركس: رغم أنه كان وقت الغداء وكان المطعم مكتظاً بالزبائن، لم تكن لتجاوز بأن تبقى ابنتها دقيقة إضافية واحدة في روائح الطعام التي قد تلتصق ببشرتها وشعرها. كان يجب أن تبدو رائعة من أجل هاري، فأرسلتها إلى صالون التجميل لتصفف شعرها وتشذب أظافرها، فيما نظفت هي المنزل عن بكرة أبيه، وجهزت وجبة خفيفة «راقية» في حال قرر هاري أن يقرمش شيئاً. لم تكن جيني مخطئة إذاً، كان هاري كبير يغازلها بالفعل. كانت تشعر بإثارة بالغة، ولم تستطع منع نفسها عن التفكير في حفل الزفاف: كانت ابنتها ستزوج أخيراً. سمعت صوت الباب يُفتح: كان هذا زوجها، روبرت كوين، الذي كان يعمل مهندساً في مصنع قفازات بكونكورد، عائداً لتوه من المصنع حيث استُدعي على نحوٍ طارئ. جحظت عيناها من هول الصدمة.

لاحظ روبرت فوراً أن الطابق الأرضي قد نُظف ورُتب بعناية كبيرة، ووضعت باقة جميلة من زهور الليلك ومفارش للطاولات لم يرها من قبل.

- ما الذي يحدث هنا، يا حلوتي؟ سأل وهو يدخل غرفة المعيشة حيث رُتبت طاولة صغيرة، عليها مقبّلات مملّحة وحلويات صغيرة، إلى جانب زجاجة شامبانيا.

- أوه يا بوبي، بوبي العزيز، ردت تمارا منزعجة، لكنها تحاول أن تظل لطيفة. جئت في توقيت غير مناسب على الإطلاق، فأنا لست بحاجة لأن تلهيني الآن، فقد تركت لك رسالة في المصنع.

- لم تصلني. ماذا تقول؟

- ألا تعود إلى المنزل قبل الساعة مساءً.

- آه. لماذا؟

- لأن هاري كبير دعا جيني لمشاهدة الألعاب النارية في كونكورد هذا المساء.

- من هو هاري كبير؟

- أوه، يا بوبي، لا بد أن تطلع على الحياة الراقية ولو قليلاً! إنه الكاتب الكبير الذي جاء إلى هنا في نهاية شهر مايو.

- آه! ولماذا كان عليّ ألا أعود إلى المنزل؟

- آه؟ إنه يقول آه! كاتب كبير يغازل ابنتنا وأنت تقول آه. لهذا السبب تحديداً لم أكن أريدك أن تعود إلى المنزل، فأنت لا تعلم كيف تتحدث برقيّ. هاري كبير ليس شخصاً عادياً: إنه يقيم في منزل غوز كوف.

- منزل غوز كوف؟ يا إلهي.

- بالنسبة إليك، قد يمثل إيجاره مبلغاً كبيراً، أما بالنسبة إلى رجل مثله، فهو بصفة في الماء. إنه نجم في نيويورك!

- بصفة في الماء؟ لم أسمع بهذا التعبير من قبل.

- أوه، يا بوبي، أنت لا تعرف شيئاً.

عبس بوبي، ثم اقترب من البوفيه الصغير الذي أعدته زوجته.

- إياك أن تلمس شيئاً، يا بوبو!

- ما هذه الأشياء؟
- إنها ليست أشياء، بل هي مقبلات راقية. أنيقة جداً.
- لكنك قلت لي إننا سنذهب إلى حفلة شواء عند الجيران اللية!
- فنحن دائماً ما نذهب عند الجيران ليلة 4 يوليو.
- نعم سنذهب، لكن لاحقاً! وإياك أن تخبر هاري كبير أننا نأكل الهامبرغر مثل الناس البسطاء.
- لكننا أناس بسطاء. فأنا أحب الهامبرغر. وأنت نفسك تملكين مطعماً للهامبرغر.
- أنت لا تفهم شيئاً، يا بوبو! الأمر مختلف، ولديّ مشاريع كبرى.
- لم أكن أعلم، فأنت لم تخبريني بها.
- أنا لا أقول لك كل شيء.
- ولماذا لا تقولين لي كل شيء؟ فأنا أخبرك بكل صغيرة وكبيرة.
- فمثلاً شعرت بألم شديد في معدتي اليوم. كنت أعاني من غازات رهيبة، لدرجة أنني اضطررت أن أغلق على نفسي مكتبي وأجثو على ركبتي لأخرج الغازات من شدة الألم. أترين، أنا أحكي لك كل شيء.
- هذا يكفي، يا بوبو! أنت تشتت انتباهي!
- عادت جيني مرتدية قستاناً آخر.
- مبالغ فيه! صاحت تمارا. يجب أن تكوني أنيقة، لكن عفوية!
- استغل روبرت كوين انشغال زوجته واستقر في مقعده المفضل وصب لنفسه كأساً من الويسكي.
- ممنوع أن تجلس! صرخت تمارا. ستوسخ كل شيء. أتعلم كم من ساعة قضيتها لأنظف المكان؟ هيا، أسرع وغيّر ملابسك بدلاً من ذلك!
- أغيّر ملابسني؟

- ارتد بدلة، فلا نستقبل هاري كبير بنظرون المنزل!
- هل أخرجت زجاجة الشامبانيا التي احتفظنا بها لمناسبة مهمة؟
- إنها مناسبة مهمة بالفعل! ألا تريد أن تحظى ابنتنا بزيجة مميزة؟
هيا، اذهب وغيّر ملابسك سريعاً، بدلاً من الجدال، فلن يتأخر هاري عن الوصول.
اصطحبت تمارا زوجها إلى السلاالم كي تتأكد أنه سيطيع الأوامر، وفي تلك اللحظة عادت جيني، نصف عارية، تبكي وتقول منتحبة إنها ستلغي كل شيء لأن الأمر أكثر مما يمكنها تحمله. استغل روبرت ذلك لينوح هو الآخر، قائلاً إنه يرغب في قراءة جريدته وإنه غير مهتم بالخوض في محادثات معقدة مع هذا الكاتب الكبير، فهو لا يقرأ الكتب على أية حال لأنها تشعره بالنعاس، وإنه لن يعرف عما يحدثه. كانت الساعة الخامسة وخمسين دقيقة، أي عشر دقائق قبل الموعد، وكانوا ثلاثتهم يتشاجرون في ردهة المنزل، حين قُرع الجرس فجأة. كادت تمارا تصاب بسكتة قلبية. إنه هنا. كان الكاتب الكبير قد أتى قبل الموعد.

قرع أحدهم الجرس، فتوجه هاري نحو الباب. كان يرتدي بدلة من الكتان وطاقيّة خفيفة، وكان على وشك المغادرة ليذهب عند جيني. فتح الباب، وإذا بنولا واقفة هناك.
- نولا؟ ماذا تفعلين هنا؟
- قل «مرحباً». فالناس المهذبون يقولون «مرحباً» حين يتقابلون، وليس «ماذا تفعلين هنا؟».
ابتسم.

- مرحباً، نولا. اعذريني، لم أكن أتوقع رؤيتك فحسب.
- ماذا يجري، يا هاري؟ لم أسمع عنك شيئاً منذ اليوم الذي قضيناه في روكلاند. ولا خبراً واحداً منذ أسبوع! هل كنت سيئة معك؟

أو فظة؟ أوه، هاري، لكم أحببت يومنا في روكلاند، كان يوماً ساحراً!

- أنا لست مستاءً أبداً، يا نولا. وأنا أيضاً أحببت يومنا في روكلاند كثيراً.

- لماذا لم يصلني خبرٌ منك إذًا؟

- بسبب كتابي. كنت غارقاً في العمل.

- أود أن أقضي معك كل يوم، يا هاري. بل كل الحياة.

- أنت ملاك، يا نولا.

- نستطيع فعل ذلك الآن، فلم تعد هناك مدرسة!

- ما قصدك بـ «لم تعد هناك مدرسة»؟

- انتهت الدراسة، يا هاري. إنها الإجازة السنوية، ألا تعلم

ذلك؟

- لا.

بدت متحمسة.

- أليس هذا خبراً رائعاً؟ لقد فكرت في الأمر ورأيت أنه يمكنني

أن أعتني بك هنا. ستكون مرتاحاً أكثر هنا بدلاً من الضوضاء في

كلاركس. كما يمكنك أن تكتب على الشرفة، فالمحيط جميل جداً

وأنا واثقة أنه سيلهمك! أما أنا، فسأسهر على راحتك. أعدك أنني

سأعتني بك من كل قلبي، وأنني سأجعلك رجلاً سعيداً! أرجوك يا

هاري، امنحني الفرصة لأسعدك!

لاحظ أنها أحضرت سلة معها.

- لقد أحضرت وجبة لهذا المساء، وزجاجة نبيذ. يمكننا أن

نتناولها على الشاطئ، فسيكون الأمر رومانسياً جداً.

لم يكن يريد وجبة رومانسية، لم يكن يريد أن يكون قريباً منها،

لم يكن يريد لها: كان عليه أن ينساها. لقد ندم على يوم السبت الذي

قضياه في روكلاند: إنه ذهب إلى ولاية أخرى مع فتاة في الخامسة

عشرة من عمرها، دون علم أهلها. فلو أوقفته الشرطة، لاعتقدوا أنه خطفها. هذه الفتاة ستضيعه، كان عليه أن يخرجها من حياته.

- لا أستطيع ذلك، يا نولا، قال ببساطة.

بدت خائبة الأمل.

- لماذا؟

كان عليه أن يقول لها إنه على موعد مع امرأة أخرى. سيكون صعباً عليها سماع ذلك، لكن كان عليها أن تفهم أن قصتهما مستحيلة. لكنه لم يقدر على فعل ذلك، فكذب مرة أخرى:

- عليّ أن أذهب إلى كونكورد. سأقابل ناشري الذي سيكون موجوداً هناك بمناسبة عيد 4 يوليو. سيكون أمراً مملاً، وكنت أفضل أن أقضيه معك.

- هل أستطيع أن آتي معك؟

- لا. أقصد، ستشعرين بالملل.

- أنت وسيم جداً في هذا القميص، يا هاري.

- شكراً.

- هاري... أنا مغرمة بك، يا هاري. منذ ذلك اليوم الممطر الذي رأيتك فيه على الشاطئ وأنا مغرمة بك. وأود أن أقضي بقية عمري معك.

- كفى، يا نولا. لا تقولي ذلك.

- لماذا؟ إنها الحقيقة! أنا لا أطيق أن أقضي ولو يوماً واحداً بعيداً عنك! وكلما رأيتك، شعرت بأن حياتي أجمل! لكنك تكرهني، أليس كذلك؟

- لا! بالطبع لا!

- أعلم أنك تراني قبيحة. وأنت وجدتني مملة في روكلاند. ولهذا، لم أسمع عنك منذ ذلك اليوم. فأنت ترى أنني فتاة صغيرة قبيحة ومملة.

- لا تقولي حماقات كهذه. هيا، دعيني أصطحبك إلى منزلك.
- قل لي نولا حبيبتي، قلها لي من جديد...
- لا أستطيع ذلك. هذه الكلمات محرمة علينا!
- لماذا؟ لماذا بحق السماء؟ لماذا لا نستطيع أن نحب أحداً الآخر إذا كنا نحب أحداً الآخر؟
- هيا يا نولا، سأصطحبك بالسيارة إلى منزلك، كرر من جديد.
- لكن يا هاري، لماذا نعيش إذا لم يكن يحق لنا أن نحب؟
- لم يجب بشيء وقادها إلى الشيفروليه السوداء وهي تبكي.

لم يكن هاري كبير من قرع الجرس، بل إيمي برات، زوجة رئيس شرطة أورورا. بصفتها منظمّة حفل الصيف الراقص، كانت تدور على المنازل للترويج لهذا الحدث الذي يعتبر إحدى أهم فعاليات المدينة، والذي كان سيُقام يوم السبت 19 يوليو. وفي اللحظة التي قرع فيها الجرس، أرسلت تمارا ابنتها نصف العارية وزوجها إلى الطابق العلوي، قبل أن تلاحظ بارتياح كبير أن من كان يقف خلف الباب لم يكن ضيفهم المنتظر، بل إيمي برات التي جاءت لتبيع تذاكر اليانصيب لليلة الحفل. كانت الجائزة الأولى لهذا العام إقامةً لمدة أسبوع في فندق رائع على جزيرة مارثا فينيارد بولاية ماساتشوستس، حيث يقضي عدد من النجوم عطلمهم. وحين علمت تمارا بالجائزة الأولى، لمعت عيناها واشترت دفتريّن من التذاكر، ومع أن أصول الضيافة كانت تقتضي أن تقدم عصيراً لضيفتها - التي كانت امرأة تقدرها - إلا أنها تخلصت منها بسرعة ومن دون تردد لأن الساعة كانت الآن الخامسة وخمساً وخمسين دقيقة. وبعد أن هدأت، نزلت جيني هذه المرة مرتدية فستاناً صيفياً أخضر اللون بدت فيه فاتنة، يليها والدها مرتدياً بدلة من ثلاث قطع.

- لم يكن هذا هاري، بل إيمي برات، أعلنت تمارا. كنت أعلم أنه ليس هو. أوه، لو رأيتما نفسيكما كيف فررتما مثل الأرانب. أما

أنا، فكنت أعلم أنه ليس هو، فلا يمكن لشخص راقٍ مثله أن يأتي قبل الموعد، فالأمر أسوأ من أن يأتي متأخراً. احفظ ذلك جيداً يا بوبو، أنت الذي تخشى دائماً أن تتأخر عن مواعيدك.

دقت ساعة غرفة المعيشة ست دقائق، فاصطفت عائلة كوين خلف باب المدخل.

- كونا طبيعيتين! توسلت جيني.

- نحن طبيعيان جداً! أجابت أمها. ألسنا كذلك، يا بوبو، طبيعيتين؟

- نعم، يا حلوتي، لكن أعتقد أن الغازات قد عادت من جديد: أشعر بنفسي مثل قدر ضغط على وشك الانفجار.

بعد بضع دقائق، قرع هاري جرس منزل آل كوين. كان قد أوصل نولا إلى مكان على بعد شارع من منزلها، حرصاً منه ألا يراها أحد معاً. كان قد تركها وهي غارقة في دموعها.

*

حكّت لي جيني أن ليلة 4 يوليو تلك كانت رائعة بالنسبة إليها، ووصفت لي، متأثرة، الاحتفالات، وعشاءهما معاً، والألعاب النارية التي غطت سماء كونكورد.

وأدركت من طريقة كلامها أنها لم تكف طوال حياتها عن حب هاري، وأن ما أبدته من نفور تجاهه اليوم لم يكن سوى تعبير عن الألم الذي شعرت به جراء تفضيله نولا عليها، نادلة يوم السبت الصغيرة، التي كتب من أجلها تحفة أدبية. سألتها قبل أن أتركها:

- جيني، في رأيك، من يمكنه أن يمدني بالمعلومات بشأن نولا؟

- بشأن نولا؟ والدها، طبعاً.

والدها. طبعاً.

من عرفوها جيداً

«والشخصيات؟ ممّن تستلهم شخصياتك؟».

- من الجميع. من صديق، من الخادمة، من موظف الشباك في البنك. لكن انتبه: ليس الأشخاص أنفسهم الذين يلهمونك، بل أفعالهم، فالطريقة التي يتصرفون بها تجعلك تفكر فيما يمكن أن تفعله إحدى شخصيات روايتك. فالكُتّاب الذين يقولون إنهم لا يستلهمون شخصياتهم من أحدٍ يكذبون، لكنهم محقّون في أن يفعلوا؛ فهم بذلك يوفرون على أنفسهم متاعب كثيرة.

- كيف ذلك؟

- ميزة الكاتب، يا ماركوس، هو أنه يستطيع أن يصفى حساباته مع الناس بواسطة كتابه. والقاعدة الوحيدة هنا هي ألا تذكرهم بالاسم. لا أسماء على الإطلاق، وإلا ستفتح باباً لا يغلق على القضايا والمحاكم. إلى أي رقم وصلنا في القائمة؟

- 23.

- سيكون هذا الدرس رقم 23 إذأ، يا ماركوس: لا تكتب إلا خيلاً. فالباقى لن يجلب لك سوى المتاعب».

قابلتُ الكاهن ديفيد كيلرغان لأول مرة يوم الأحد 22 يونيو 2008. كان أحد أيام الصيف الرمادية تلك التي لا وجود لها سوى في نيو إنغلاند، حيث غشاوة المحيط كثيفة لدرجة أنها تبقى عالقة في قمم الأشجار وأسقف المنازل. كان منزل آل كيلرغان يقع في تراس أفينيو رقم 245، وسط حي سكني جميل، قيل لي إنه بقي على حاله منذ وصول العائلة إلى أورورا؛ لون الجدران نفسه والشجيرات التي تحيط به نفسها، إلا أن شجيرات الورد تحولت إلى شتلات كبيرة واستبدلت شجرة الكرز بأخرى من نفس الصنف بعد موت الأولى قبل عشر سنوات.

عند وصولي، كانت موسيقى تصم الآذان تنبعث من المنزل. قرعت الجرس عدة مرات، لكن لم يجب أحد. خرج أخيراً أحد الجيران وصاح لي: «إذا كنت تبحث عن الأب كيلرغان، فلا جدوى من قرع الجرس، فهو في المرآب». ذهبت أطرق باب المرآب الذي كانت تنبعث منه الموسيقى فعلاً. وبعد طرقي الباب بإصرار، فُتح الباب أخيراً: فوجدت أمامي رجلاً مسناً ضئيلاً واهناً، رمادي الشعر والبشرة، يرتدي مئزر عمل ونظارات واقية. كان ديفيد كيلرغان البالغ من العمر خمسة وثمانين سنة.

- ما الأمر؟ صاح ولكن بلطف، ليُسمع صوته رغم الموسيقى الصاخبة.

وضعت يدي حول فمي في وضع مكبر الصوت كي يسمعي :
- اسمي ماركوس غولدمان، أنت لا تعرفني، إنني أحقق في مقتل
نولا .

- هل أنت من الشرطة؟
- لا، أنا كاتب. هل تسمح بأن توقف الموسيقى أو تخفض
صوتها قليلاً؟

- مستحيل. أنا لا أوقف الموسيقى، ولكن بإمكاننا أن نجلس في
غرفة المعيشة إذا أردت ذلك .

أدخلني من المرائب: كان المكان قد حُوِّل بالكامل إلى ورشة
تتوسطها دراجة نارية هارلي-ديفيدسون عتيقة. وفي أحد الأركان، كان
مشغل أسطوانات قديم موصول بجهاز استيريو يصدح بموسيقى الجاز.
كنت أتوقع أن يستقبلني بفضاظة. ظننت أن الأب كيلرغان، بعد
أن ضايقه الصحفيون، سيرغب في بعض الهدوء، إلا أنه كان على
عكس ذلك ودوداً جداً. رغم إقاماتي المتعددة في أورورا، فإنني لم
ألتق به من قبل. بدا واضحاً أنه لا يعلم شيئاً عن علاقتي بهاري،
وحرصت من جهتي ألا أذكرها. أعدّ لنا كوبين من الشاي المثلج
وجلسنا في غرفة المعيشة. ظل مرتدياً النظارات الواقية استعداداً للعودة
إلى دراجته النارية في أي لحظة، كما كانت الموسيقى الصاخبة لا تزال
تُسمع في الخلفية. حاولت تخيل هذا الرجل قبل ثلاثة وثلاثين عاماً،
حين كان الكاهن النشيط لأبرشية سانت جيمس .

- ما الذي أتى بك إلى هنا، يا سيد غولدمان؟ قال لي بعد أن
تفحص وجهي بفضول. أهو كتاب؟
- لا أدري بالضبط، يا سيدي الكاهن. إنني أسعى إلى معرفة ما
حدث لنولا، قبل كل شيء .

- لا تنعني بالكاهن، فلم أعد كاهناً .
- أنا آسف لما حدث لابتك، يا سيدي .

ابتسم ابتسامة دافئة على نحوٍ غريب .

- شكراً . إنك أول من يقدم لي تعازيه ، يا سيد غولدمان ، فالمدينة
بأكملها تتحدث عن ابنتي منذ أسبوعين : يتهافت الجميع على الصحف
لمعرفة آخر المستجدات ، لكن لم يأت أحد إلى هنا ليعرف كيف حالي .
فالأشخاص الوحيدون الذي يطرقون بابي ، ما عدا الصحفيين ، هم
الجيران الذين يشكون من صوت الموسيقى . ألا تعتقد أن من حق الآباء
الذين هم في حالة حداد أن يستمعوا إلى الموسيقى؟

- تماماً ، يا سيدي .

- أنت تؤلف كتاباً إذاً؟

- لا أدري إن كنت قادراً على الكتابة ، فالكتابة الجيدة أمر صعب
ومعقد . لقد طلب مني ناشري أن أكتب عن هذه القضية . قال إن هذا
سيعيد إحياء مسيرتي الأدبية . هل تعارض فكرة كتاب عن نولا؟
هز كتفيه .

- لا ، إذا كان هذا سيساعد الآباء على أن يكونوا أكثر حذراً .
أتعلم ، في اليوم الذي اختفت فيه ابنتي ، كانت في غرفتها . وكنت
أعمل في المرآب ، مع الموسيقى ، فلم أسمع شيئاً . وعندما ذهبت
لأراها لم تكن في المنزل . كانت نافذة غرفتها مفتوحة . بدا الأمر
وكأنها تبخرت . لقد أخفقتُ في رعاية ابنتي . أَلَّفَ كتاباً للآباء ، يا سيد
غولدمان . فعلى الآباء أن يتنبهوا لأولادهم جيداً .

- ماذا كنت تفعل في المرآب في ذلك اليوم؟

- كنت أصلح هذه الدراجة النارية . الهارلي التي رأيتَ .

- إنها قطعة جميلة .

- شكراً . كنت قد اشتريتها آنذاك من ميكانيكي في مونتيري . قال
إنه لن يستطيع بيعها ، فتركها لي مقابل خمسة دولارات رمزية . هذا ما
كنت أفعله لحظة اختفاء ابنتي : كنت منشغلاً بتلك الدراجة النارية
اللينة .

- هل تعيش بمفردك هنا؟

- نعم. لقد توفيت زوجتي منذ زمن طويل.

نهض وأحضر لي ألبوم صور. أراني صوراً لنولا وهي صغيرة ولزوجته لويزا. بدوا سعداء. فاجأتني السهولة التي باح بها عن خصوصيات أسرته، رغم أنه كان بالكاد يعرفني. أعتقد أنه أراد أن يحيي ذكرى ابنته فحسب. حكى لي أنهم جاؤوا إلى أورورا في خريف 1969، قادمين من جاكسون بولاية ألاباما. فعلى الرغم من تزايد أعضاء الأبرشية هناك، إلا أن أورورا كانت بحاجة إلى كاهن جديد فالتحق بأبرشيته. وكان السبب الرئيسي للانتقال إلى أورورا هو إيجاد مكان هادئ لتربية نولا. ففي تلك الفترة، كانت البلاد في حالة غليان داخلي، بين خلافات سياسية، وانقسامات، والحرب في فيتنام. كانت أحداث الستينات في الجنوب - من وحشية الشرطة، وحركة كو كلوكس كلان، وحرائق كنائس السود، وأعمال الشغب التي أعقبت اغتيال مارتن لوثر كينغ وبوبي كيندي - قد دفعتهم إلى البحث عن مكان آمن، يحميهم من ذلك الهيجان. وحين اقتربت سيارته الصغيرة المنهكة جراء ثقل الحمولة من برك مونتيري الكبيرة المغطاة بالزنابق، قبل الهبوط نحو أورورا، ورأى تلك المدينة الصغيرة الجميلة الهادئة من بعيد، هنا ديفيد كيلرغان نفسه على اختياره الموفق. فكيف كان له أن يتخيل أن ابنته الوحيدة في هذا المكان، بعد ست سنوات، ستختفي؟

- لقد مررت أمام موقع أبرشيتك السابقة، قلت. يشغله الآن مطعم ماكدونالدز.

- العالم بأكمله في طريقه ليصبح مطعم ماكدونالدز، يا سيد غولدمان.

- ماذا حدث للأبرشية؟

- كان الإقبال عليها رائعاً لسنوات طويلة، ثم جاء اختفاء نولا، فتغير كل شيء؛ تصرفت بلامبالاة غير مقبولة، لكن لم يجرؤ أحد على

طردي. تبعثرت الجالية شيئاً فشيئاً، فتم دمج أبرشية أورورا مع أبرشية مونتيري لأسباب اقتصادية قبل خمسة عشر عاماً. باعوا المبنى، بحيث يذهب المصلون الآن إلى مونتيري أيام الأحاد. لم أعد قادراً على استئناف نشاطي بعد اختفاء نولا، إلا أنني لم أستقل إلا بعد ذلك بست سنوات. لا تزال الأبرشية تخصّص لي معاشاً، كما أنها تركت لي المنزل مقابل مبلغ رمزي.

ثم حكى لي ديفيد كيلرغان عن السنوات السعيدة والهائلة التي عاشتها العائلة في أورورا. أجمل سنوات حياته بحسب قوله. تذكر ليالي الصيف تلك التي كان يسمح فيها لنولا بالسهر لتقرأ في الفناء الأمامي، وتمنى لو لم ينتهِ الصيف أبداً. وأخبرني أن ابنته كانت تدخر ما تتقاضاه في مطعم كلاركس كل يوم سبت لتذهب به إلى كاليفورنيا وتصبح ممثلة. وكم كان يشعر بالفخر حين يذهب إلى كلاركس ويستمع إلى آراء الزبائن والسيدة كوين الراضية عن نولا وعن حسن سلوكها. وظل لوقت طويل بعد اختفائها يتساءل ما إذا كانت قد رحلت إلى كاليفورنيا بالفعل.

- لماذا «رحلت»؟ هل تقصد أنها قد تكون هربت؟

- هربت؟ لماذا قد تهرب؟ سأل مستاءً.

- وهاري كبير؟ هل تعرفه معرفة قريبة؟

- لا. بالكاد. التقيت به بضع مرات فحسب.

- بالكاد؟ قلت متفاجئاً. مع أنكما تسكنان المدينة نفسها منذ أكثر

من ثلاثين عاماً.

- أنا لا أعرف كل الناس، يا سيد غولدمان. كما أنني أعيش

منعزلاً. هل ما يقال هو الحقيقة؟ هاري كبير ونولا؟ هل أُلّف ذلك

الكتاب من أجلها؟ ماذا يعنيه ذلك الكتاب، يا سيد غولدمان؟

- لأكون صريحاً معك، أعتقد أن ابنتك كانت تحب هاري وأنه

كان يبادلها الشعور. ويحكي هذا الكتاب قصة حب مستحيلة بين شخصين لا ينتميان إلى نفس الطبقة الاجتماعية.

- أعلم، صرخ قائلاً، أعلم! فإذاً، لقد استبدل كبير مصطلح «انحراف» بـ «طبقة اجتماعية» ليضفي بعض الشرف على نفسه، وباع ملايين النسخ؟ من كتاب يحكي قصص فاحشة مع ابنتي، مع نولا صغيرتي، كتاب قرأته أمريكا بأكملها وأعجبت به!

كان الأب كيلرغان يستشيط غضباً، وحملت كلماته الأخيرة قدراً من العنف لم أتصوره من رجل بتلك الهيئة الواهية. سكت للحظة وراح يدور في الغرفة وكأنه كان بحاجة إلى التنفيس عن غضبه. كانت الموسيقى لا تزال تصدح في الخلفية.

- هاري كبير لم يقتل نولا.

- كيف يمكنك أن تكون واثقاً من ذلك؟

- لا يمكن للمرء أن يكون واثقاً من شيء، يا سيد كيلرغان. لهذا السبب تكون الحياة شديدة التعقيد أحياناً. قطب حاجبيه.

- ماذا تريد أن تعرف، يا سيد غولدلمان؟ بما أنك هنا، فلا بد أن لديك أسئلة لتطرحها عليّ.

- إنني أحاول أن أفهم ما حدث. ليلة اختفاء ابنتك، ألم تسمع شيئاً؟

- لا شيء على الإطلاق.

- أفاد بعض الجيران بأنهم سمعوا صراخاً.

- صراخاً؟ لم يكن هناك أي صراخ. لم يكن هناك أي صراخ في هذا المنزل على الإطلاق. ولماذا قد يكون هناك صراخ؟ في ذلك اليوم، كنت أعمل في المرآب. طوال فترة بعد الظهر. وعند الساعة مساءً، بدأت في تحضير العشاء وذهبت إلى غرفة نولا كي تأتي وتساعدني، إلا أنها لم تكن هناك. في البداية، قلت لنفسني إنها قد

تكون خرجت لتتمشى قليلاً، رغم أن هذا لم يكن من عاداتها. انتظرت قليلاً، وحين شعرت بالقلق، خرجت لألقي نظرة في الحي. لم أقطع مئة متر على الرصيف حتى وجدت جمعاً من الجيران يقولون إن فتاة شوهدت في سايد كريك ملطخة بالدماء، وإن سيارات الشرطة أتت من كل المنطقة وأغلقت منافذ المدينة بأكملها. هرعت إلى أقرب منزل لأتصل بالشرطة، وأخبرهم أنها قد تكون نولا. . . كانت غرفتها في الطابق الأرضي، يا سيد غولدمان. لقد قضيت ثلاثين عاماً أتساءل عما حدث لابنتي، وأقول لنفسي لو كان لي أطفال آخرون، لجعلتهم ينامون في العلية. لكن لم يكن هناك أطفال آخرون.

- هل لاحظت سلوكاً غريباً لابنتك في الصيف الذي اختفت فيه؟
- لا. لا أعلم. لا أظن ذلك. هذا سؤال آخر طرحته على نفسي مراراً ولم أستطع الإجابة عليه.

لكنه تذكّر أنه في ذلك الصيف، ومع بداية العطلة المدرسية، بدت له نولا حزينة، إلا أنه برر ذلك بمرحلة المراهقة المضطربة. سألته إذا كان بإمكانه دخول غرفتها، فاصطحبني إليها وحذرني على طريقة حراس المتاحف: «إياك أن تلمس شيئاً». فمنذ اختفائها، كان قد ترك الغرفة على حالها تماماً. كان كل شيء كما هو: السرير، الرف وعليه الدمى، المكتبة الصغيرة، المكتب الذي تبعثرت عليه الأقلام، ومسطرة طويلة من حديد، وأوراق مصفرة. كان ورق مراسلات، الورق نفسه الذي كُتبت عليه الرسالة القصيرة لهاري.

- كانت تشتري هذا الورق من مكتبة في مونتيري، شرح لي الأب ملاحظاً اهتمامي. كانت تعشقه ودائماً ما تأخذه معها وتكتب عليه ملاحظاتها ورسائلها القصيرة. هذا الورق، كان هي! كان دائماً لديها مخزون احتياطي منه.

كانت هناك أيضاً في ركن من الغرفة آلة كاتبة محمولة.

- هل هي لنولا؟ سألته.

- إنها آلتى، ولكنها كانت تستعملها أيضاً. واستخدمتها كثيراً في الصيف الذي اختفت فيه. قالت إن لديها وثائق مهمة لتطبعها. كما كانت تأخذها خارج المنزل أحياناً. كنت كثيراً ما أعرض عليها أن أصطحبها، لكنها كانت ترفض دائماً. كانت تذهب سيراً على الأقدام حاملة الآلة الكاتبة في كلتا يديها.

- إذاً، الغرفة على حالها منذ اختفاء ابنتك؟

- كان كل شيء في هذا الرضع تماماً. هذه الغرفة الفارغة هي التي رأيت حين جئت لأبحث عنها. كانت النافذة مفتوحة على مصراعها وريح خفيف يهز الستائر.

- هل تعتقد أن أحداً ما قد دخل غرفتها في تلك الليلة وأخرجها عنوة؟

- لا أستطيع أن أجيبك، فأنا لم أسمع شيئاً. لكن كما ترى، ليس هناك من أثر لأي مقاومة.

- عثرت الشرطة على حقيبة معها. حقيبة حُفر عليها اسمها في الداخل.

- نعم، لقد طلبوا مني التعرف عليها. كانت هذه هديتي لها في عيد ميلادها الخامس عشر. كانت قد رأت تلك الحقيبة في مونتيري يوم كنا فيه هناك معاً. أذكر المحل إلى يومنا هذا، على الشارع الرئيسي. لقد عدت إليه في اليوم التالي لأشتريها، وأخذتها لسراج ليحضر اسمها من الداخل.

- إذاً، إذا كانت تلك الحقيبة حقيبتها، فهذا يعني أنها أخذتها معها. وإذا أخذتها معها، فهذا يعني أنها كانت ذاهبة إلى مكان ما، أليس كذلك؟ سيد كيلرغان، أعلم أن هذا الافتراض قاسٍ، لكن هل تعتقد أنه من الممكن أن تكون هربت؟

- لم أعد أعرف، يا سيد غولدمان. لقد طرح عليّ رجال الشرطة هذا السؤال منذ ثلاثة وثلاثين عاماً، وطرحوه مجدداً منذ بضعة أيام.

لكن لا ينقص شيء هنا؛ لا ملابس ولا نقود. بل إن حصالتها هنا (مد يده وسحب علبة بسكويت قديمة موضوعة على الرف العلوي). انظر، فيها 120 دولاراً! لماذا قد تترك 120 دولاراً هنا إذا كانت تنوي الهرب؟ قال رجال الشرطة إن ذلك الكتاب اللعين كان في حقيبتها. هل هذا صحيح؟

- نعم.

ظلت الأسئلة تتراقص في ذهني: لماذا هربت نولا دون أن تأخذ ملابس ولا نقوداً؟ لماذا لم تأخذ معها سوى المخطوطة؟ توقفت الموسيقى في المرآب بعدما وصلت الأسطوانة إلى نهايتها، فهرع الأب ليعيد تشغيلها منذ البداية. لم أشأ إزعاجه أكثر من ذلك، فحييته وانصرفت، ملتقطاً صورة للهاري-ديفيدسون في طريقي.

عند عودتي إلى غوز كوف، ذهبت لأمارس الملاكمة على الشاطئ، حيث فوجئت بظهور الرقيب غاهالود آتياً من المنزل. كنت واضعاً سماعتين في أذني، فلم أنتبه إلى وجوده إلا بعد أن ربت على كتفي.

- تبدو في أحسن حال، قال وهو يتأمل صدري العاري، ويمسح يده المبتلة بعرقى على بنطاله.

- أحاول أن أحافظ على لياقتي.

أخرجت جهاز التسجيل من جيبي لأطفئه.

- مشغل أسطوانات صغير! قال بنبرة المتعالية. هل تعلم أن شركة أبل قامت بثورة قلبت العالم بحيث تستطيع الآن أن تسجل كل الموسيقى التي تريدها على جهاز صغير اسمه آي بود؟

- أنا لا أستمع إلى الموسيقى، يا حضرة الرقيب.

- إلى ماذا تستمع وأنت تمارس رياضتك إذاً؟

- لا يهم. قل لي ما الداعي لتشرّفي بزيارتك هذه، ويوم أحد علاوة على ذلك.

- لقد تلقيت اتصالاً من الرئيس داون، وحكى لي عن حريق يوم الجمعة. إنه قلق وهو محق في شعوره، فأنا لا أحب أن تأخذ الأمور هذا المنحى.

- هل أنت تقول لي إنك قلق على سلامتي؟

- إطلاقاً. أريد فقط أن نتفادى أن تزيد الأمور سوءاً. فنحن نعلم أن الجرائم المتعلقة بالأطفال تثير الكثير من الغضب لدى الساكنة. فأناؤكد لك أنه كلما ذكر اسم نولا على التلفزيون، هناك عدد كبير من الآباء مستعدون لخصي كبير إذا اقتضى الأمر.

- لكن أنا من كنت مستهدفاً في هذه الحالة.

- ولهذا تحديداً أنا هنا. لماذا لم تخبرني بأنك تلقيت رسالة تهديد؟

- لأنك طردتني من مكتبك.

- لن أكذب ذلك.

- هل أدعوك لاحتساء البيرة، يا حضرة الرقيب؟

تردد للحظة، ثم أبدى موافقته. صعدنا إلى المنزل وأحضرت زجاجتين شربناهما على الشرفة. حكيت له كيف رأيت الشخص الذي أشعل الحريق عند عودتي من غراند بيتش يوم الجمعة ذاك.

- لا يمكنني أن أصفه، قلت. كان مقنعاً. كان مجرد طيف. ثم وجدت الرسالة نفسها: عُد إلى ديارك، يا غولدمان. كانت هذه الرسالة الثالثة.

- لقد حدثني عنها الرئيس داون. من يعرف أنك تقوم بتحقيقك الخاص؟

- الجميع. أقصد أنني أقضي وقتي أطرح الأسئلة على كل من

- أقابله، أياً كان. فيمَ تفكر؟ هل تعتقد أن ثمة شخصاً ما لا يريدني أن أتوغل في القضية أكثر من ذلك؟
- شخص لا يريدك أن تكتشف الحقيقة بشأن نولا. أين وصلت في تحقيقك بالمناسبة؟
- تحقيقي؟ لماذا؟ لأنك تهتم به الآن؟
- ربما. لنقل إن مصداقيتك لديّ قد تعززت منذ أن وُجهت إليك التهديدات لإسكاتك.
- لقد تحدثت إلى الأب كيلرغان. إنه رجل ودود. سمح لي بزيارة غرفة نولا. أعتقد أنك زرتها أنت أيضاً...
- نعم.
- إذا كان الأمر فراراً، فكيف تفسر أنها لم تأخذ معها شيئاً؟ لا ملابس ولا نقود؟
- لم يكن فراراً، ردّ غاهاالوود.
- إذا كان اختطافاً إذّا، فلماذا لا توجد آثار مقاومة؟ ولماذا أخذت معها حقيبتها وتلك المخطوطة.
- ربما لأنها كانت تعرف قاتلها، وقد تكون على علاقة به أيضاً. قد يكون أتى إلى نافذتها كما كانت يفعل أحياناً، وأقنعها بأن تلتحق به. للمشي خارجاً معه مثلاً.
- أنت تقصد هاري، هنا.
- نعم.
- ثم ماذا؟ أخذت المخطوطة وخرجت من النافذة؟
- من قال لك إنها أخذت المخطوطة معها؟ من قال لك إن تلك المخطوطة كانت في حوزتها أصلاً؟ هذا تفسير كبير، طريقته ليبرر وجود المخطوطة مع جثة نولا.
- ترددت ثواني قليلة في أن أحكي ما أعرفه عن علاقة هاري ونولا، وأنه كان من المفترض أن يلتقيا في فندق سي سايد ليهربا معاً. لكنني

فضلت ألا أقول شيئاً آنذاك، كي لا أؤذي هاري. فسألت غاهالوود بدلاً من ذلك:

- ما هو افتراضك إذا؟

- قتل كبير الفتاة ودفن المخطوطة معها. ربما من باب تأنيب الضمير. فكان هذا الكتاب عن حبهما، وحبهما قتلها.

- ما الذي يجعلك تقول هذا؟

- هناك عبارة بخط اليد على المخطوطة.

- عبارة؟ أي عبارة؟

- لا يمكنني أن أخبرك. إنها معلومة سرية.

- أوه، كف عن الكلام الفارغ، يا حضرة الرقيب. لقد قلت لي الكثير، فلا يمكنك أن تختبئ وراء سرية التحقيق حين يناسبك ذلك. تنهد، مستسلماً.

- مكتوب عليها: وداعاً، نولا حبيبتي.

صُدمت. نولا حبيبتي. ألم تطلب نولا من هاري أن يناديها بهاتين الكلمتين عندما كانا في روكلانج؟ حاولت أن أظل هادئاً.

- ماذا ستفعل بهذه العبارة؟

- سنستعين بخبير خطوط، علنا نصل إلى شيء.

كنت مشوشاً تماماً بفعل هذا الاعتراف. نولا حبيبتي. إنهما الكلمتان نفسهما اللتان لفظهما هاري، الكلمتان اللتان سجلتهما!

قضيت جزءاً من سهرتي أفكر في الموضوع، لا أعرف ماذا أفعل. وعند الساعة التاسعة مساءً، تلقيت اتصالاً من أمي. كانت أخبار التلفزيون قد ذكرت الحريق. قالت لي:

- بحق السماء، يا ماركي، هل تريد أن تموت دفاعاً عن هذا

المجرم الشيطان؟

- اهدئي يا أمي، اهدئي.

- الجميع هنا لا يتحدثون سوى عنك، لكن ليس بالمديح

بصراحة. الناس يتساءلون في الحي هنا... يسألون لماذا تصر على البقاء مع هاري هذا.

- أمي، من دون هاري، ما كنت لأصبح غولدمان العظيم.
- أنت محقّ. من دونه، كنت ستصبح غولدمان العظيم جداً. لقد تغيرت منذ أن تعرفت عليه في الجامعة. أنت المبهّر، يا ماركي. أتذكر؟ فحتى السيدة لانج، أمينة الصندوق في السوبرماركت، لا تزال تسألني عنك دائماً: كيف حال المبهّر؟

- أمي... لم يكن للمبهّر وجود أبداً.
- لم يكن للمبهّر وجود أبداً؟ أتقول إنه لم يكن له وجود أبداً؟ (نادت أبي). نيثن، تعال إلى هنا من فضلك. ماركي يقول إنه لم يكن المبهّر أبداً (سمعت أبي يتمم شيئاً من بعيد). أترى، إن والدك يقول الشيء نفسه: كنت المبهّر في الثانوية. لقد التقيتُ أمس بناظرك السابق وقال إنه يحتفظ بذكريات رائعة عنك... ظننت أنه سيبيكي من فرط التأثر، ثم قال لي: «آه، يا سيدة غولدمان، لا أدري أي مصيبة أقحم ابنك نفسه فيها». رأيت كم أن الأمر محزن! حتى ناظرك السابق يتحدث في الأمر! وماذا عنّا؟ لماذا تسارع إلى مساندة أستاذك القديم بدلاً من البحث عن زوجة صالحة؟ لقد قاربت الثلاثين ولم تتزوج بعد! أتريد أن نموت دون أن نراك متزوجاً؟

- أنت في الثانية والخمسين يا أمي، لا يزال لدينا بعض الوقت.
- كُفّ عن الجدال! لقد تعلمت الجدال مؤخراً، أليس كذلك؟ وهو شيء آخر تعلمته من كبير اللعين! لماذا لا تهتم بأن تدخل علينا شابة جميلة؟ هه؟ لماذا؟ توقفت عن الرد الآن!
- لم أقابل أحداً أعجبني مؤخراً، يا أمي. فبين كتابي، وجولتي، وكتابي التالي...

- أعذار، هذا كل ما في الأمر! وكتابك التالي؟ عما سيكون؟ عن ممارسات جنسية منحرفة؟ في الحقيقة، أنا لم أعد أعرفك، يا

ماركي... ماركي حبيبي، يجب أن أسألك: هل أنت مغرم بهاري
هذا؟ هل تربطك به علاقة شاذة؟
- لا! إطلاقاً!

سمعتها تقول لأبي: يقول لا... أي يعني ذلك نعم. ثم سألتني،
هامسة:

- هل أنت مصاب بذلك المرض؟ أمك ستحبك حتى لو كنت
مريضاً.

- ماذا؟ أي مرض؟

- مرض الرجال الذين لا يحبون النساء.

- أتسأليني إن كنت مثلياً؟ لا، يا أمي، أنا أحب النساء!

- النساء؟ ماذا تعني بالنساء؟ اكتفِ بواحدة، أحبيها وتزوجها!
النساء! أتقول لي إنك غير قادر على أن تكون مخلصاً لامرأة واحدة؟
هل أنت مهووس جنسياً، يا ماركي؟ هل تود أن تعرض نفسك على
طبيب نفسي ليساعدك؟

انتهى بي الأمر في أنني قطعت المكالمات، من شدة غيظي. شعرت
بوحدة فظيعة. جلست في مكتب هاري، شغلت جهاز التسجيل ورحت
أستمع إلى صوته. كنت بحاجة إلى عنصر جديد، دليل ملموس يغيّر
مجرى التحقيق، شيء يساعدني على حل هذه الأحجية التي اقتصرت
حالياً على هاري، ومخطوطة، وفتاة مقتولة. وكلما فكرت في
الموضوع، غمرني شعور غريب لم أشعر به منذ وقت طويل: شعرت
برغبة في الكتابة. كتابة ما كنت أعيشه، ما كنت أشعر به. وسرعان ما
تزاحمت الأفكار في رأسي، فتحوّلت الرغبة في الكتابة إلى حاجة
للكتابة. لم أشعر بذلك منذ عام ونصف العام. وكأنه بركان يستيقظ
فجأة ويستعد للانفجار. هرعت إلى حاسوب، وبعد أن فكرت للحظة
كيف سأبدأ هذه القصة، رحت أنقر السطور الأولى لما سيصبح كتابي
المقبل:

في ربيع عام 2008، أي حوالي عام بعد أن أصبحت النجم الجديد للأدب الأمريكي، وقع حدثٌ قررت أن أدفنه عميقاً في ذاكرتي: اكتشفت أن أستاذي الجامعي، هاري كبير، البالغ من العمر سبعة وستين عاماً، وأحد أكثر الكُتّاب شهرة في البلاد، كان على علاقة مع فتاة في الخامسة عشرة من عمرها حين كان هو في الرابعة والثلاثين. حدث ذلك في صيف 1975.

*

يوم الأربعاء 24 يونيو 2008، أكدت هيئة المحلفين وجاهة الاتهامات الموجهة من مكتب المدعي العام، واتهمت هاري كبير رسمياً بتهمة الخطف والقتل المزدوج. وحين أبلغني روث بقرار هيئة المحلفين، انفجرت على الهاتف: «أنت الذي درست القانون، اشرح لي على أي أساس أصدرت هذه الحماقات». وكانت الإجابة بسيطة: «على أساس ملف الشرطة». وبصفتنا المدافعين عن الموكل، أتاح لنا الادعاء الاطلاع على الملف. سيطر التوتر على الصباح الذي قضيناه معاً لدراسة الوثائق، فكلما قرأ وثيقة، ردد: «أوه، لا، هذا ليس جيداً. ليس جيداً على الإطلاق!». فكنت أجيب: «ليس جيداً؟ هذا كل ما لديك؟! أنت من عليه أن يكون جيداً!». وكان يجيبني بتعابير وجه مرتبكة جعلتني أشكّك في قدراته كمحام.

ضم الملف صوراً، وشهادات، وتقارير، وآراء خبراء، ومحاضر استجوابات. كان جزء من الصور يعود إلى عام 1975: صور لمنزل ديورا كوبر، ثم جسدها الممدد على أرضية المطبخ، غارقاً في بركة من الدم، وأخيراً الموقع في الغابة الذي عُثر فيه على آثار الدم، وخصلات الشعر، وقطع القماش. ثم انتقلنا بعد ذلك ثلاثة وثلاثين عاماً إلى الأمام، لنجد نفسينا في غوز كوف، حيث رأينا في الحفرة التي نبشها رجال الشرطة هيكلًا عظمياً في وضعية الجنين. كانت لا

تزال هناك في بعض الأماكن قطع لحم عالقة على العظام وخصل شعر متناثرة أعلى الرأس، كما كان الهيكل يرتدي فستاناً نصف متحلل وإلى جانبه الحقيبة الجلدية الشهيرة. شعرت بالغثان.

- أهذه نولا؟ سألت.

- إنها هي. وفي هذه الحقيبة كانت مخطوطة كبير. المخطوطة ولا شيء غيرها. قال المدعي العام إن فتاة ترغب في الهرب لا تغادر دون أن تأخذ معها شيئاً.

كشف تقرير الطب الشرعي عن كسر واضح في الجمجمة. كانت نولا قد تلقت ضربة عنيفة جداً، كسرت عظمة مؤخرة الرأس. وأفاد الطبيب الشرعي أن القاتل قد استخدم عصاً ثقيلة جداً أو غرضاً مشابهاً، كالمضرب أو الهراوة على سبيل المثال.

ثم اطلعنا على شهادات مختلفة؛ شهادات البستانيين، وشهادة هاري نفسه، وشهادة موقعة بيد تمارا كوين، أفادت فيها أنها كانت قد اكتشفت آنذاك أن هاري كان واقعاً بحب نولا، إلا أن الدليل الذي كان بحوزتها قد تبخر بعد ذلك، وبالتالي لم يصدقها أحد.

- هل يؤخذ بشهاداتها؟ سألت، قلقاً.

- أمام محلفين، نعم، قدر روث. وليس لدينا ما نقدّمه كهجوم مضاد. فهاري نفسه اعترف بعلاقته بنولا أثناء استجوابه.

- حسناً إذًا، ما الذي لدينا في هذا الملف والذي لا يدينه؟

عن هذه النقطة، كان لدى روث إجابة: أخذ يقلب الوثائق ومد لي رزمة سميكة من الأوراق، مربوطة بقطعة شريط لاصق.

- لدينا نسخة من المخطوطة الشهيرة، قال لي.

كانت صفحة الغلاف بيضاء، من دون عنوان. فعلى ما يبدو، لم تأت لهاري فكرة العنوان إلا فيما بعد. وكانت هناك، في وسط الصفحة، ثلاث كلمات مكتوبة بخط اليد، يمكن قراءتها بوضوح:

وداعاً، نولا حبيبتي

شرع روث في شرح طويل؛ كان يرى أن استخدام هذه المخطوطة كدليل أساسي ضد هاري هو خطأ فادح من قِبَل مكتب المدعي العام: كانوا سيطلبون رأي خبير خطوط، وحين تُعلن النتائج، كان واثقاً أنها ستبرئ هاري، وسينهار الملف كمزول من أوراق اللعب.

- إنه الجزء الأساسي من دفاعي، قال لي متتصراً. ومع القليل من الحظ، لن نكون بحاجة إلى المثل أمام المحكمة.

- ولكن ماذا سيحدث لو اتضح أن الخط هو خط هاري؟ سألتها. نظر إليّ روث نظرة غريبة.

- ولماذا سيكون خطه، بحق الجحيم؟

- أريد أن أخبرك بشيء خطير: لقد حكى لي هاري أنه قضى يوماً في روكلاند مع نولا، وأنها طلبت منه أن يناديهما بـ نولا حبيبتي.

- شحب وجه روث. قال لي: «أنت تدرك أنه لو كان، بطريقة أو بأخرى، هو من كتب هذه العبارة...»، وحتى قبل أن ينهي جملته، لملم أغراضه وجرتني إلى طريق سجن الولاية. كان يستشيط غضباً.

ما إن دخل روث قاعة الزيارات حتى لَوّح بالمخطوطة أمام هاري وصرخ:

- هل طلبت منك أن تناديهما بـ نولا حبيبتي؟

- نعم، أجب هاري مطأطئ الرأس.

- أترى ما هو مكتوب هنا؟ على الصفحة الأولى من مخطوطتك

اللعينة؟ متى كنت تنوي إخباري بحق الجحيم؟

- أؤكد لك أنه ليس خطي. أنا لم أقتلها! لم أقتل نولا! يا إلهي!

أنت تعرف ذلك، أليس كذلك؟ تعرف أنني لست قاتل طفلة!

هدأ روث وجلس.

- نحن نعرف ذلك يا هاري، لكن كل هذه الصدف مريبة.

الفرار، تلك العبارة... وأنا عليّ أن أدافع عنك أمام هيئة من

المواطنين الصالحين الذين سيرغبون في الحكم عليك بالإعدام حتى قبل أن تبدأ المحاكمة.

بدا هاري في حال سيئة جداً. نهض وراح يدور في الغرفة الإسمتية.

- أعلم أن البلد ينقلب ضدي. وقريباً سيتمنى الجميع نهايتي، إن لم يكن الأمر كذلك بالفعل. فالناس ينعنونني بالفاظ لا يدركون أبعادها، من قبيل: متحرش بالأطفال، منحرف، مختل... إنهم يلطخون سمعتي ويحرقون كتيبي. لكن عليكما أن تعرفا وأقولها لكما للمرة الأخيرة: أنا لست ذلك الممسوس الذي يصورونه. نولا هي المرأة الوحيدة التي أحببت في حياتي، ولسوء حظي، كانت في الخامسة عشرة من العمر: الحب، هذا اللعين، لا يمكن التحكم فيه!

- لكننا نتحدث هنا عن فتاة في الخامسة عشرة! انفعل روث.

بدا على هاري خيبة الأمل، فاستدار نحوي.

- وأنت، أتعقد نفس الشيء، يا ماركوس؟

- هاري، ما يربكني هو أنك لم تحكِ لي عن أي من هذا قط... فطوال عشر سنوات من الصداقة، لم تذكر نولا أبداً. كنت أعتقد أننا مقربان.

- ماذا كان بإمكانني أن أقول لك، بحق السماء؟ «آه، عزيزي ماركوس، بالمناسبة، لم أقل لك إنني في عام 1975، عند وصولي إلى أورورا، وقعت في حب فتاة في الخامسة عشرة من عمرها، صبية غيرت حياتي ثم اختفت بعد ذلك بثلاثة أشهر، في إحدى ليالي الصيف، ومنذ ذلك اليوم لم أتعاف تماماً...»؟

ثم ركل أحد الكراسي البلاستيكية فطار بعيداً ليصطدم بالحائط.

- هاري، قال روث، إذا كنت أنت لم تكتب هذه العبارة، وأنا أصدقك، هل لديك فكرة عمن قد يكون كتبها؟

- لا.

- من كان على علم بأمركما أنت ونولا؟ صرحت تمارا كوين أنها كانت تشك في أمركما منذ البداية.
- لا أدري! قد تكون نولا تحدثت عنا مع بعض صديقاتها...
- لكن هل تعتقد أنه من المحتمل أن يكون أحد ما قد علم بالأمر؟ واصل روث.
- ساد الصمت للحظة. بدا هاري حزيناً ومكسوراً بحيث إنه فطر قلبي.
- هيا، أصرّ روث ليحث هاري على الحديث، أنا أشعر أنك لم تخبرني بكل شيء. كيف تريدني أن أدافع عنك إذا كنت تخفي عني بعض المعلومات؟
- كانت... كانت هناك رسائل مجهولة المصدر.
- أي رسائل مجهولة المصدر؟
- مباشرة بعد اختفاء نولا، بدأت أتلقي رسائل مجهولة المصدر. كنت دائماً ما أعرّ عليها مثبتة على إطار الباب، بعد عودتي إلى المنزل. شعرت بالخوف آنذاك. كان هذا يعني أن أحداً ما كان يراقبني، ويعرف بأوقات غيابي. في فترة ما، كنت خائفاً لدرجة أنني كنت أتصل بالشرطة كلما تلقيت رسالة. كنت أقول إنني لمحت شخصاً متطفلاً حول المنزل، فكانت تأتي دورية شرطة، وكان ذلك يطمئني. لم أكن قادراً على ذكر السبب الحقيقي لقلقي، بطبيعة الحال.
- لكن من قد يكون الشخص الذي أرسل لك تلك الرسائل؟ سألته روث. من الذي كان يعلم بأمركما أنت ونولا؟
- ليست لدي أدنى فكرة. استمر ذلك أربعة أشهر على أي حال، ولا شيء بعد ذلك.
- هل احتفظت بها؟
- نعم، في المنزل، وسط صفحات موسوعة كبيرة في مكتبي.
- أتصور أن الشرطة لم تعثر عليها، إذ لم يذكرها لي أحد.

عند عودتي إلى غوز كوف، عثرت فوراً على الموسوعة التي أشار إليها، حيث وجدت، متوارياً بين صفحاتها، مظروفاً يضم حوالي عشر أوراق صغيرة. رسائل على ورق مصفر، يظهر على كل منها النص نفسه، مطبوع على الآلة الكاتبة:

أعرف ما فعلته بتلك الفتاة ذات الخمس عشرة سنة.
وقريباً ستعرف المدينة بأكملها.

إذاً، كان أحد ما يعرف بأمر هاري ونولا. أحد التزم الصمت لثلاث وثلاثين سنة.

*

خلال اليومين التاليين، حاولت أن أستجوب كل من كان يعرف نولا، بطريقة أو بأخرى. ومرة أخرى، أسدى إليّ إرنى بينكاس مساعدة كبيرة في هذه المهمة: أخرج من أرشيف المكتبة الكتاب السنوي الخاص بثانوية أورورا لعام 1975، واستطاع أن يضع، بفضل الإنترنت ودليل أرقام الهواتف، قائمة بأرقام وعناوين قسم كبير من زملاء نولا في المدرسة الذين كان لا يزالون يعيشون في المنطقة. مع الأسف، لم تثمر هذه المبادرة شيئاً يذكر، فكان معظمهم في الخمسينات من عمرهم، ولم يحكوا لي سوى ذكريات تعود إلى الطفولة، عديمة الفائدة بالنسبة إلى التحقيق. إلى أن قرأت اسماً لم يكن مجهولاً بالنسبة لي: نانسي هاتاواي، تلك التي حكى لي هاري أنها سترت على نولا يوم ذهباً إلى روكلاند.

ووفقاً لمعلومات بينكاس، كان لدى نانسي محل خياطة في منطقة صناعية غير بعيدة خارج المدينة، على الطريق رقم 1 في اتجاه ماساتشوستس. ذهبت إلى هناك للمرة الأولى يوم الخميس 26 يونيو 2008. كان محلاً جميلاً، واجهته تنبض بالألوان، يقع بين مطعم

للموجبات السريعة ومحل خردوات. كان الشخص الوحيد الموجود في المحل هو سيدة في أوائل الخمسينات من العمر، شعرها قصير ويميل للرمادي. كانت تجلس خلف مكتب، واضعة نظارات طبية. بعد أن حيّتي بلباقة سألتها:

- هل حضرتك نانسي هاتاواي؟
- نعم، قالت وهي تهتمّ بالوقوف. هل نعرف أحداً الآخر؟ يبدو لي وجهك مألوفاً.
- اسمي ماركوس غولدمان. أنا...
- كاتب، قاطعتني. أذكر الآن. يقال إنك تطرح الكثير من الأسئلة عن نولا.

- بدت في وضعية دفاع، وأضافت على الفور:
- لا أعتقد أنك هنا من أجل أعمال الخياطة خاصتي.
- صحيح. كما أنه صحيح أنني مهتم بموت نولا كيلرغان.
- وما علاقتي بذلك؟
- إذا كنت من أظنها فعلاً، فأنت عرفتِ نولا جيداً حين كنتِ في الخامسة عشرة.

- من قال لك ذلك؟
- هاري كبير.

نهضت واتجهت نحو الباب بخطى حازمة. ظننتها ستطلب مني أن أغادر، إلا أنها قلبت اللافتة المعلقة على الزجاج لتظهر مغلق، وأقفلت الباب، ثم التفتت نحوي وسألتني:

- كيف تحب قهوتك، يا سيد غولدمان؟
- قضينا أكثر من ساعة في مكتبها الخلفي، وكانت هي بالفعل نانسي صديقة نولا التي حدثني عنها هاري. لم تتزوج، ولذا ظل اسمها على ما كان عليه: نانسي هاتاواي.
- ألم تغادري أورورا أبداً؟ سألتها.

- أبدأً. أنا متعلقة جداً بهذه المدينة. كيف عثرت عليّ؟
- عبر الإنترنت، على ما أظن. الإنترنت تصنع المعجزات.
- إذاً؟ سألتني. ما الذي تريد أن تعرفه بالضبط، يا سيد غولدمان؟

- ناديني بماركوس. أحتاج أن يكلمني أحدٌ عن نولا.
ابتسمت.

- أنا ونولا كنا زميلتين في نفس الفصل في المدرسة. تصاحبنا منذ وصولها إلى أورورا. كنا نسكن في شارع تراس أفينيو على بعد بضعة أمتار إحدانا من الأخرى، وكانت تأتي إلى منزلي كثيراً. كانت تقول إنها تحب أن تزورني لأن عائلتي طبيعية.

- طبيعية؟ ماذا يعني ذلك؟

- أتخيل أنك قابلت الأب كيلرغان...

- نعم.

- كان شخصاً صارماً جداً. من الصعب التصور أنه كانت له ابنة مثل نولا: ذكية، رقيقة، لطيفة، وبشوشة.

- ما تقولينه عن الكاهن كيلرغان غريب، يا سيدة هاتاواي. لقد قابلته قبل بضعة أيام، وأعطاني انطباعاً أنه شخص ودود.

- بإمكانه أن يعطي هذا الانطباع، أمام الناس على الأقل. كان قد استُدعي لإعادة إحياء أبرشية سانت جيمس التي كانت في حالة مزرية، بعد أن أبلى بلاء حسناً في ألاباما، على ما يبدو. وبالفعل، بعد أن تولّاها، سرعان ما أصبحت الأبرشية تعج بالناس في أيام الآحاد. لكن، خارج هذا السياق، من الصعب القول ما كان يحدث في منزل آل كيلرغان...

- ماذا تقصدين؟

- كانت نولا طفلة معقّفة.

- ماذا؟

هذه الحادثة التي روتها لي نانسي هاتاواي حصلت، بحسب حساباتي، يوم الاثنين 7 يوليو 1975، أي خلال الفترة التي أبعد فيها هاري نولا عنه.

*

الاثنين 7 يوليو 1975

كانت فترة العطلة الصيفية. كان الطقس رائعاً وكانت نانسي قد أتت إلى منزل نولا لتذهباً معاً إلى الشاطئ. وفيما كانتا تسيران على طول شارع تراس أفينيو، سألتها نولا فجأة:

- هل أنا فتاة شقية، يا نانسي؟
- فتاة شقية؟ بالطبع لا! لماذا تسألين هذا السؤال؟
- لأنه يقال لي في البيت إنني فتاة شقية.
- ماذا؟ لماذا يقال لك كلمات كهذه؟
- لا يهم. أين سنسبح؟
- في غراند بيتش. نولا، أجيبي، لماذا يقال لك ذلك؟
- قد تكون الحقيقة، قالت نولا. قد يكون ذلك بسبب ما حدث حين كنا في ألاباما.
- في ألاباما؟ وماذا حدث في ألاباما؟
- لا يهم.
- تبدين حزينة، يا نولا.
- أنا حزينة فعلاً.
- حزينة؟ إنها العطلة الصيفية! كيف يمكنك أن تكوني حزينة ونحن في العطلة الصيفية؟
- إن الأمر معقد، يا نانسي.
- هل تواجهين المتاعب؟ إذا كان الأمر كذلك، فعليك أن تخبريني.

- أنا مغرمة بشخص لا يحبني .
- من هو؟
- لا أريد الحديث عنه .
- أهو كودي، زميلنا في الصف العاشر؟ كنت أعلم أنك معجبة به! لكنه تافه، أليس كذلك؟ أتعلمين، أن يكون في فريق كرة السلة لا يعني أنه ظريف . هل هو من ذهبت معه يوم السبت الماضي؟
- لا .
- من هو إذاً؟ هيا، أخبريني . هل مارستما الجنس؟
- لا، بالطبع لا! أنا لن أفعل إلا مع زوجي!
- مع من كنت يوم السبت إذاً؟
- إنه شخص أكبر مني سنًا . لكن لا يهم، فهو لا يحبني، ولن يحبني أبدًا . كما لن يحبني أحد أبدًا .
- وصلتا إلى غراند بيتش . لم يكن شاطئاً جميلاً، لكن كالعادة، لم يكن هناك أحد . كما أن موجات المد التي كانت تصل إلى عمق ثلاثة أمتار على الشاطئ، كانت تترك أحواض سباحة صغيرة بين الصخور، تدفئها الشمس بعد ذلك . كانتا تحبان الاسترخاء فيها، خاصة وأن درجة حرارة الماء كانت أدفأ من المحيط . ولأن الشاطئ كان خالياً من الناس، قامتا بارتداء ثياب الاستحمام هناك، فلاحظت نانسي وجود كدمات على صدر نولا .
- نولا، ما هذا! ماذا أصابك هنا؟
- غطت نولا صدرها .
- لا تنظري!
- لكنني رأيت! لديك كدمات . . .
- إنها لا شيء .
- ليست لا شيء! ما هذه؟
- أومي ضربتني يوم السبت .

- ماذا؟ لا تقولي حماقات...
- بل إنها الحقيقة! فهي من تقول لي إنني فتاة شقية.
- ما هذه الحكايات الخيالية، يا نولا؟
- إنها الحقيقة! لماذا لا يصدقني أحد؟!
- لم تجرؤ نانسي على طرح المزيد من الأسئلة وغيّرت الموضوع.
- وبعد السباحة، ذهبتا إلى منزل آل هاتاواي، حيث أحضرت نانسي مرهماً طيباً من صيدلية حمام والدتها ودهنت به صدر صديقتها.
- نولا، قالت، بالنسبة إلى والدتك... أعتقد أنه عليك أن تخبري أحداً. السيدة ساندرز، ممرضة المدرسة مثلاً...
- فلننس ذلك يا نانسي. أرجوك...



- متذكّرة صيفها الأخير مع نولا، اغرورقت عينا نانسي بالدموع.
- ما الذي حدث في ألاباما؟ سألتها.
- لا أدري. لم أعرف ذلك أبداً. فنولا لم تخبرني.
- ألهذا علاقة برحيلهم من هناك؟
- لا أدري. كان بودي أن أساعدك، لكنني فعلاً لا أدري.
- وقصة الحب الحزينة تلك، أتعرفين مع من كانت؟
- لا، أجابت نانسي.
- كنت أعلم أنها قصتها مع هاري، لكنني أردت أن أعرف ما إذا كانت هي نفسها على علم بذلك.
- لكنك كنت تعرفين أنها تواعد أحداً، قلت لها. فإذا لم أكن مخطئاً، كانت كلُّ منكما تغطي على الأخرى لمقابلة الفتیان.
- ابتسمت نانسي.

- أرى أن معلوماتك دقيقة... المرات الأولى التي قمنا فيها بذلك، كان ذلك لقضاء يوم في كونكورد. فبالنسبة إلينا، كانت

كونكورد تمثل المغامرة الكبرى، إذ دائماً ما كان لدينا ما نفعله هناك. في البداية، قمنا بذلك لنشعر أننا فتاتان راشدتان. وبعد ذلك، كذبنا لسبب مختلف، أنا لأذهب وحدي على المركب مع صديقي، وهي... أتعلم، كنت أشك وقتذاك أنها تواعد شخصاً أكبر منها سناً، فهي كانت تلمح لي بالأمر.

- فأنت كنت تعرفين بأمرها هي وهاري كبير إذاً.
ردت بتلقائية:

- يا إلهي، بالطبع لا!
- كيف لا! قلت لتوك إن نولا كانت تواعد شخصاً أكبر منها سناً.

سادت لحظة صمت، فأدركت أنه كان لدى نانسي معلومة لا ترغب في مشاركتها.

- من كان هذا الرجل؟ سألتها. لم يكن هاري كبير، أليس كذلك؟ سيدة هاتاواي، أعلم أنك لا تعرفيني، وأنني هبطت على المكان دون موعد مسبق وأجبرتكم على الرجوع في ذاكرتكم سنوات طويلة إلى الوراء. لكن لو كان لديّ المزيد من الوقت، لفعلت الأمور على نحو أفضل. فالوقت يداهمنا: هاري كبير يقبع داخل السجن وأنا متيقن أنه لم يقتل نولا. لذلك، إذا كنت تعلمين شيئاً من شأنه أن يساعدني، فعليك إخباري به.

- لم أكن أعلم شيئاً عن هاري، أكدت لي. فنولا لم تخبرني بذلك أبداً، وأنا علمت بالأمر من التلفزيون قبل عشرة أيام، مثل كل الناس... لكنها حدثتني عن رجل. نعم، أعلم أنها كانت على علاقة برجل أكبر منها سناً بكثير، لكن هذا الرجل لم يكن هاري كبير. بقيت مصعوقاً للحظة.

- متى كان ذلك؟ سألتها.

- لا أذكر القصة بتفاصيلها، فقد مر على ذلك وقت طويل جداً،

لكنني أؤكد لك أنه في صيف عام 1975، حين أتى هاري كيبر إلى هنا، كانت نولا تقابل رجلاً في الأربعينات من العمر.

- في الأربعينات؟ أتذكرين اسمه؟

- بل لا يمكنني أن أنساه. إنه إليجاه ستيرن، أحد أغنى رجال نيو

هامبشير.

- إليجاه ستيرن؟

- نعم. قالت لي إنه كان عليها أن تتعري أمامه، وتطيعه، وتتركه يفعل بها ما يشاء. كان عليها أن تذهب إلى منزله في كونكورد. كان ستيرن يرسل أحد رجاله ليصطحبها إلى هناك، شخص غريب الأطوار يدعى لوثر كاليب. كان يأتي إلى أورورا ويأخذها معه إلى منزل ستيرن. أعلم ذلك لأنني رأيته بأم عيني.

تحقيق الشرطة

- «هاري، كيف يمكن التأكد من أننا سَنتمتع دائماً بالقدرة على الكتابة؟
- البعض لديه هذه القدرة، والبعض الآخر لا. أنت ستكون لديك هذه القدرة، يا ماركوس. أنا أعلم ذلك.
- ما الذي يجعلك متأكداً من ذلك إلى هذا الحد؟
- لأنها تسكنك. فهي على نحوٍ ما كالمرض، إذ مرض الكتاب يا ماركوس، لا يعني أنك لا تعود قادراً على الكتابة، بل أنك لا تعود راغباً في الكتابة، إلا أنك لا تستطيع أن تمنع نفسك عنها».

مقتطف من قضية هاري كيبر

الجمعة 27 يونيو 2008. الساعة السابعة والنصف صباحاً. أنا في انتظار الرقيب بيرى غاهالوود. لم يمض سوى عشرة أيام على بداية هذه القضية، لكنني أشعر وكأنه مضى عليها شهور. أعتقد أن مدينة أورورا الصغيرة تخفي أسراراً غريبة، وأن سكانها يبوحون بأقل بكثير مما يعرفونه حقاً. والسؤال الذي يُطرح هو لماذا يسكت الجميع... وجدت رسالة جديدة مساء أمس: عد إلى ديارك، يا غولدمان. أحمّد ما يعبث بأعصابي.

تساءلت عما قد يقوله غاهالوود بشأن ما اكتشفته بشأن إليجاه ستيرن. لقد تحرّيت عنه على الإنترنت: هو الوريث الأخير لإمبراطورية مالية يديرها بنجاح. وُلد عام 1933 في كونكورد، حيث يعيش إلى يومنا هذا. يبلغ من العمر خمسة وسبعين عاماً.

كتبت هذه السطور وأنا أنظر غاهالوود أمام مكتبه، في أحد أروقة مركز شرطة الولاية في كونكورد. قطع صوت الرقيب غاهالوود الحاد أفكارى فجأة:

- ماذا تفعل هنا أيها الكاتب؟
- لقد قمت باكتشافات عجيبة، يا حضرة الرقيب، أود أن أطلعك عليها.

فتح باب مكتبه، وضع كوب القهوة على طاولة جانبية، ألقى بسترته على كرسي، فتح الستائر، ثم قال لي وهو يواصل ترتيباته:
- أتعلم، كان بإمكانك أن تتصل هاتفياً، فهذا ما يفعله الناس المتحضرون. فنحدد موعداً وتأتي إلى هنا في ساعة تناسب كلينا. أي أن تقوم بالأمور على النحو الصحيح.
قلت دفعة واحدة:

- كان لنولا عشيق، شخص يدعى إلبجاه ستيرن. لقد تلقى هاري رسائل من مجهول في فترة علاقته بنولا، ما يعني أن أحداً ما كان على علم بعلاقتهم.
حدق فيّ، مندهشاً.

- كيف عرفت كل ذلك، بحق الجحيم؟
- أنا أقوم بتحقيقي الخاص، لقد سبق أن قلت لك ذلك.
استعاد على الفور تعابير وجهه الممتعة.
- أنت تزعجني، أيها الكاتب. وتثير الفوضى في التحقيق الذي أجريه.

- هل مزاجك سيئ، يا حضرة الرقيب؟
- نعم. لأنها السابعة صباحاً، وأنت هنا تثرثر في مكثبي.
سألته ما إذا كانت هناك لوحة أستطيع الكتابة عليها. بدا عليه الاستسلام وقادني إلى غرفة صغيرة مجاورة لمكتبه. كانت هناك صور لسايد كريك ولأورورا ملصقة على لوحة حائطية من الفلين. أشار إلى لوحة بيضاء إلى جوارها ومد لي قلماً.
- تفضل، إنني أسمعك، قال متنهداً.

كتبت على اللوحة اسم نولا، ورسمت أسهماً متصلة بالأسماء

المتعلقة بهذه القضية. كان الاسم الأول هو إليجاه ستيرن، تلاه اسم نانسي هاتاواي.

- ماذا لو لم تكن نولا تلك الفتاة الصغيرة النموذجية التي يصفها لنا الجميع؟ قلت له. نعلم أنها كانت على علاقة بهاري. وأعلم أنا الآن أنها كانت، في الوقت نفسه، على علاقة بشخص آخر يدعى إليجاه ستيرن.

- إليجاه ستيرن، رجل الأعمال؟

- هو بعينه.

- من الذي قال لك هذه الخرافات؟

- أقرب صديقات نولا في ذلك الوقت، نانسي هاتاواي.

- كيف عثرت عليها؟

- من الكتاب السنوي لثانوية أوروارا، عام 1975.

- حسنٌ. ماذا تحاول أن تقول لي، أيها الكاتب؟

- إن نولا كانت فتاة حزينة. في بداية صيف 1975، كانت قصتها

مع هاري معقدة: هو صدّها فأصيبت بالإحباط. أما عن أمها، فكانت تنهال عليها بالضرب. حضرة الرقيب: كلما فكرت في القضية، اقتنعت أكثر أن اختفاء نولا كان نتيجة مجموعة من الأحداث الغريبة التي وقعت في ذلك الصيف، على عكس ما يحاول إقناعنا به الجميع.

- تابع.

- لديّ قناعة راسخة أن أشخاصاً آخرين كانوا على علم بعلاقة

هاري ونولا. من بينهم نانسي هاتاواي ربما، لكنني لست متأكداً: قالت إنها لم تكن تعلم أيّاً من ذلك، وهي تبدو لي صادقة. لكن على أية حال، كان أحد ما يكتب لهاري رسائل مجهولة المصدر...

- بشأن نولا؟

- نعم، انظر. عثرتُ على هذه في منزله، قلت وأنا أريه إحدى

الرسائل التي أحضرتها معي.

- في منزله؟ ولكننا قمنا بتفتيش المنزل.

- لا يهم. لكن هذا يعني أن أحداً ما كان على علم بما يجري منذ البداية.

قرأ غاهالوود الرسالة بصوت عالٍ:

- أعرف ما فعلته بتلك الفتاة ذات الخمس عشرة سنة. وقريباً ستعرف المدينة بأكملها. متى تلقى كبير هذه الرسائل؟
- بعد اختفاء نولا مباشرة.

- هل لديه فكرة عمن كتبها؟

- ولا أدنى فكرة، مع الأسف.

استدرت نحو لوحة الفلين التي تحمل الصور والملاحظات.

- هل هذا هو تحقيقك، أيها الرقيب؟

- تماماً. فلنلخص منذ البداية، إذا سمحت. لقد اختفت نولا

كيلرغان مساء يوم 30 أغسطس عام 1975. وأشار تقرير الشرطة آنذاك إلى عدم إمكانية الحسم ما إذا كان ذلك اختطافاً أم فراراً انتهى نهاية مأسوية: فلا أثر لأي مقاومة، ولا شاهد عيان. إلا أننا نميل الآن إلى فرضية الاختطاف؛ خاصة وأنها لم تأخذ معها مالاً ولا أمتعة.

- أعتقد أنها فرت، قلت.

- حسنٌ. فلنأخذ بهذه الفرضية، اقترح غاهالوود. لقد خرجت من

نافذة غرفتها وفرت. إلى أين ذهبت؟

كان الوقت قد حان لأكشف عما كنت أعلم به.

- ذهبت لتلحق بهاري.

- أعتقد ذلك؟

- بل أعرف ذلك. هو من أخبرني. لم أذكر الأمر من قبل خوفاً

من أن يدينه ذلك، لكن أعتقد أنه آن الأوان لأن نضع كل الأوراق على الطاولة: في المساء الذي اختفت فيه نولا، كان من المفترض أن تلحق بهاري في فندق على الطريق رقم 1، ليهربا معاً.

- ليهربا؟ لماذا؟ وكيف؟ وأين؟

- هذا ما لا أعرفه بعد، ولكنني سأسعى إلى معرفته. على أية حال، في تلك الليلة، كان هاري ينتظر نولا في غرفة بهذا الفندق. كانت قد تركت له رسالة تخبره فيها بأنها ستلحق به. لقد انتظرها طوال الليل، لكنها لم تأت أبداً.

- أي فندق؟ وأين هذه الرسالة؟

- فندق سي سايد، على بعد بضعة أميال من سايد كريك. مررت به، فهو لا يزال هناك. أما عن الرسالة... فقد أحرقتها. لأحمي هاري...

- أحرقتها؟ هل جننت، أيها الكاتب؟ ماذا دهاك؟ أتريد أن تحاكم بتهمة إتلاف أدلة جنائية؟
- ما كان يجب أن أفعل ذلك. لقد ندمت على فعلتي، يا حضرة الرقيب.

أمسك غاهالوود، متذمراً، بخارطة لمدينة أورورا وبسطها على الطاولة. أشار إلى وسط المدينة، وإلى الطريق رقم 1 الذي يمتد بمحاذاة الساحل، ثم إلى غوز كوف، وبعد ذلك إلى غابة سايد كريك. فكر بصوت عالٍ:

- لو أنني صبية أرادت الفرار دون أن يلحظها أحد، لتوجهت إلى الشاطئ الأقرب من منزلي، وسرت بمحاذاة ساحل البحر إلى أن أصل إلى الطريق رقم 1. أي إما في اتجاه غوز كوف أو في اتجاه...

- سايد كريك، قلت، فهناك طريق يمر بالغابة، يصل شاطئ المحيط بالفندق.

- تماماً! صرخ غاهالوود. إذأ، في حال فرت الفتاة من منزلها فعلاً، فمن الممكن تخيل خط سيرها. تراس أفينو هنا... والشاطئ الأقرب هو... غراند بيتش! من هناك، سارت بمحاذاة المحيط حتى بلغت الغابة. لكن ماذا حصل بعد ذلك في تلك الغابة اللعينة؟

- أثناء مرورها بالغابة، من الممكن أن تكون قد صادفت قاتلها.
مختل حاول التحرش بها، ثم أمسك غصناً صلباً وضربها به فقتلها.
- من الممكن، أيها الكاتب، لكنك تتجاهل تفصيلاً يطرح علينا
أسئلة محورية: المخطوطة. وتلك العبارة المكتوبة بخط اليد. وداعاً،
نولا حبيبتي. هذا يعني أن من قتل نولا ودفنها كان يعرفها، ويكنّ لها
مشاعر. وإذا افترضنا أن هذا الشخص لم يكن هاري، فسيتعين على
أحد أن يشرح لي كيف عُثر عليها والمخطوطة بحوزتها.
- لقد أخذتها نولا معها. بكل تأكيد. فرغم أنها نوت الفرار، لم
ترغب في أخذ أي أمتعة معها كي لا تلفت الأنظار، خاصة في حال
فاجأها والداها وهي تخرج من المنزل. ثم إنها كانت تعتقد أنها لن
تكون بحاجة إلى شيء، إذ كانت تعتقد أن هاري ثري وأنه سيشتري كل
ما سيلزمهما في حياتهما الجديدة. ما هو الشيء الوحيد الذي أخذته
معهما إذا؟ الشيء الوحيد الذي لا يُعوّض: مخطوطة الكتاب الذي ألّفه
هاري لتوه والتي أخذتها معها لتقرأها، كما اعتادت أن تفعل. فهي
تعلم كم هذه المخطوطة مهمة لهاري. فوضعتها في حقيبتها وفرت من
منزلها.

فكر غاهاالوود في نظريتي للحظة.

- إذاً، في نظرك، لقد دفن القاتل الحقيقية والمخطوطة معها
ليتخلص من الأدلة؟
- تماماً.

- لكن هذا لا يفسر لنا وجود عبارة الحب هذه المكتوبة على
المخطوطة.

- نقطة وجيهة، اعترفت له. قد يكون ذلك دليلاً على أن قاتل
نولا كان يحبها. هل نسلك فرضية الجريمة العاطفية في هذه الحالة؟
نوبة جنون دفعت القاتل إلى أن يكتب هذه العبارة كي لا يترك القتيلة
مجهولة؟ شخص أحب نولا ولم يتحمل علاقتها مع هاري؟ شخص

- كان على علم بنيتها في الفرار ولم ينجح في ردعها، ففضل أن يقتلها على أن يخسرها؟ إنها فرضية معقولة، أليس كذلك؟
- معقولة، أيها الكاتب. لكن كما تقول، إنها فرضية فحسب، ويتعين الآن التحقق منها. كما يتعين التحقق من الفرضيات الأخرى. أهلاً بك في عمل رجال الشرطة الصعب والدقيق.
- ماذا تقترح، يا حضرة الرقيب؟
- لقد قمنا باختبار خط كبير، إلا أن النتائج ستستغرق بعض الوقت. وتبقى لدينا نقطة أخيرة علينا إيضاحها: لماذا تم دفن نولا في غوز كوف؟ هي على مقربة من سايد كريك: فلماذا نقل الجثة لدفنها على مسافة ميلين فقط؟
- لا جثة، لا جريمة قتل، قلت مقترحاً.
- هذا ما قلته لنفسى أيضاً. قد يكون القاتل قد شعر بنفسه محاصراً من قبل الشرطة، فاكتمى بدفن الجثة في مكان قريب...
- تأملنا اللوحة البيضاء التي انتهت من كتابة قائمة الأسماء عليها:
- | | |
|----------------------|--------------------|
| تمارا كوين | هاري كبير |
| ديفيد ولويزا كيلرغان | نولا نانسي هاناواي |
| لوثر كاليب | أليجاه ستيرن |
- كل هؤلاء الناس تربطهم علاقة محتملة بنولا أو بالقضية، قلت. بل قد تكون قائمة قتلة محتملين.
- إنها قائمة مشوشة للذهن، بالأحرى.
- تجاهلت تدمره، وحاولت تنقيح القائمة.
- كانت نانسي في الخامسة عشرة آنذاك ولم يكن لديها أي دافع، فأعتقد أنه يمكننا حذفها من القائمة. أما تمارا كوين، فهي تردد للقاصي والداني أنها كانت على علم بعلاقة نولا وهاري... فقد تكون كاتبة الرسائل المرسلة لهاري.

- لا أعتقد أن القاتل امرأة، قاطعني غاهالوود. فيستدعي كسر
جمعمة على هذا النحو قوة كبيرة، لذا فقد أميل إلى أن يكون رجلاً.
خاصة وأن ديورا كوبر أكدت أنها رأت رجلاً يلاحق نولا في الغابة.
- وماذا عن الأبوين كيلرغان؟ كانت الأم تضرب ابنتها...

- أن تضرب ابنتها ليس بالأمر المشرف، لكنه بعيد كل البعد عن
الاعتداء الوحشي الذي تعرضت له نولا.

- قرأت على الإنترنت أنه في حالات اختفاء الأطفال، فإن
المذنب غالباً ما يكون من المحيط العائلي.
رفع غاهالوود عينيه إلى أعلى.

- قرأت على الإنترنت أنك كاتب عظيم. أنت ترى بنفسك كيف
أن الإنترنت ليست إلا كتلة من الأكاذيب.

- علينا ألا ننسى إليجاه ستيرن. أعتقد أن علينا استجوابه بلا
تأخير. قالت نانسي هاتاواي إنه كان يرسل سائقه، لوثر كاليب،
ليصطحب نولا إلى منزله في كونكورد.

- اهدأ، أيها الكاتب. إليجاه ستيرن رجل ذو مكانة وتأثير،
وينتمي إلى عائلة مرموقة. إنه رجل نافذ جداً، بحيث لن يجازف
المدعي العام باستدعائه إن لم تكن لديه أدلة دامغة يستند إليها. فماذا
لديك ضده، عدا شاهدة كانت طفلة وقت الأحداث؟ كما أن شهادتها
لن يؤخذ بها الآن. لا بد من عناصر متينة، أدلة قاطعة. لقد نقبت في
تقارير شرطة أورورا آنذاك: فلا ذكر فيها لهاري، ولا لستيرن، ولا
للوثر كاليب هذا.

- لكن بدت لي نانسي هاتاواي شخصاً موثقاً به...
- أنا لم أقل عكس ذلك، إلا أنني لا أثق بالذكريات التي تعود
بعد ثلاثين عاماً، أيها الكاتب. سأحاول التحري عن هذه القصة،
لكنني بحاجة إلى المزيد من الأدلة كي آخذ خيط ستيرن على محمل

الجد. فأنا لن أجازف في استجواب شخص يلعب الغولف مع المحافظ من دون حد أدنى من الأدلة.

- يضاف إلى ذلك أن عائلة كيلرغان انتقلت من ألاباما إلى أورورا لسبب محدد، لا يعلم به أحد. فالأب كيلرغان يقول إنهم جاؤوا بحثاً عن البيئة الملائمة لتربية ابنتهم، إلا أن نانسي هاتاواي أشارت إلى أن نولا ذكرت لها حادثة وقعت حين كانت العائلة تسكن في مدينة جاكسون.

- اممم. يجب نبش كل ذلك إذاً، أيها الكاتب.

*

قررت ألا أذكر قصة إليجاه ستيرن لهاري إلى أن أحصل على معلومات أكثر صلابة. لكنني آثرت أن أذكرها لروث لاعتقادي أنها قد تمثل عنصراً محورياً في الدفاع عن هاري.

- نولا كيلرغان كانت على علاقة بإليجاه ستيرن؟! صرخ مذهولاً.

- كما أقول لك. لقد حصلت على المعلومات من مصدر موثوق

به.

- عمل جيد، يا ماركوس. سنطلب مثوله أمام القضاة، وندينه، ونقلب الموقف رأساً على عقب. تخيل وجوه هيئة المحلفين حين يخبرهم ستيرن، بعد أن يقسم على الكتاب المقدس، عن تفاصيل مغامراته المثيرة مع كيلرغان الصغيرة.

- لا تقل شيئاً لهاري من فضلك. ليس قبل أن أعرف أكثر عن ستيرن.

ذهبت في اليوم نفسه إلى السجن لزيارة هاري، الذي أكد لي كلام نانسي هاتاواي.

- أوه، يا ماركوس، كان موضوع الضرب هذا فظيلاً...

- قالت لي أيضاً إن نولا بدت حزينة وكثيبة جداً في بداية الصيف.

هز هاري رأسه بحزن.

- حين حاولت صد نولا، تسببت لها بحزن عميق، ونتج عن ذلك كوارث رهيبة. فبعد نزهتي مع جيني إلى كونكورد عشية العيد الوطني، كنت متأثراً جداً بمشاعري تجاه نولا. كان عليّ أن أبتعد عنها مهما كلف الأمر. ففي اليوم التالي، يوم السبت، قررت عدم الذهاب إلى كلاركس.

وفيما كنت أسجل ما يحكيه لي هاري عن عطلة نهاية الأسبوع الكارثية يومي 5 و6 يوليو 1975، أدركت أن أصول الشر يرصد بدقة قصته مع نولا، مازجاً بين السرد ومقاطع من مراسلات حقيقية. هاري لم يخف شيئاً عن قصتهما إذاً: فمنذ البداية، لقد اعترف لأمريكا بأكملها بقصة حبه المستحيلة. قاطعته قائلاً:

- لكن كل شيء مذكور في كتابك، يا هاري!

- كل شيء، يا ماركوس، كل شيء. لكن لم يكلف أحد نفسه عناء الفهم. انشغل الجميع بتحاليل معقدة للنصوص، وتحديثوا عن الاستعارات، والمجاز، والتميز الأسلوبى، وهي أمور لم تخطر لي قط. فكل ما فعلته هو أنني ألّفت كتاباً عني وعن نولا.

*

السبت 5 يوليو 1975

كانت الساعة الرابعة والنصف فجراً. كانت الشوارع مهجورة، ولم يُسمع شيء سوى وقع خطاه. لم يكن يفكر إلا فيها. فمنذ أن قرر التوقف عن مقابلتها، لم يعد قادراً على النوم. كان يستيقظ تلقائياً قبل الفجر، ولا يستطيع معاودة النوم، فكان يرتدي ملابس الرياضة ويذهب ليركض. كان يركض على الشاطئ، يلاحق النوارس، ويقلد حركة طيرانها، ويقفز إلى أن يصل إلى أورورا. كانت تبعد عن غوز كوف ستة أميال تقريباً، كان يقطعها كالسهم. وبعد أن يعبر المدينة من طرف إلى

آخر، كان يسلك طريق ماساتشوستس وكأنه سيغادر من المدينة، ثم يتوقف في غراند بيتش حيث يشاهد شروق الشمس. لكن في ذلك الصباح، حين وصل إلى شارع تراس أفينو، توقف ليلتقط أنفاسه، ومشى بين صفوف المنازل لبرهة، وهو يتصبب عرقاً وصدغاه ينبضان بقوة.

مرّ أمام منزل آل كوين. كانت ليلة أمس التي قضّاها بصحبة جيني هي الأكثر مللاً في حياته على الإطلاق. جيني فتاة رائعة، لكنها لم تكن تضحكه ولا تجعله يحلم. فالوحيدة التي كانت تجعله يحلم هي نولا. استمر في السير إلى أن وصل إلى المنزل المحرم: منزل آل كيلرغان، هنا حيث ترك أمس نولا غارقة في دموعها. حاول جاهداً أن يبدو بارداً عديم الإحساس كي تفهم، لكنها لم تفهم شيئاً، فقد قالت: «لماذا تفعل بي ذلك يا هاري، لماذا تعاملني بهذه القسوة؟». ظل يفكر فيها طوال السهرة، حتى إنه استأذن للحظة أثناء العشاء وذهب ليجري اتصالاً هاتفياً. طلب من موظفة الاتصال أن تتصل بمنزل كيلرغان في أورورا بنيو هامبشير، وما إن سمع الرنة حتى أغلق الخط. وحين عاد إلى الطاولة، سأله جيني ما إذا كان بخير.

وقف ساكناً على الرصيف، يتفحص النوافذ. حاول أن يتخيل في أي غرفة تنام. ن. و. ل. ا. نولا حبيبتي. ظل هناك مدة طويلة. خُيّل إليه فجأة أنه سمع صوتاً؛ أراد أن يبتعد لكنه تعثر بحاويات القمامة المعدنية، فانقلبت محدثة ضجيجاً مخيفاً. أشعل ضوء في المنزل، فركض هاري فاراً من هناك بكل سرعته. عاد إلى غوز كوف وجلس في مكتبه محاولاً الكتابة. كان شهر يوليو قد بدأ وهو لم يبدأ في كتابة روايته العظيمة بعد. ماذا سيصبح يا ترى؟ ماذا سيحدث له إذا لم يستطع الكتابة؟ سيعود إلى حياته البائسة. لن يكون كاتباً أبداً. لن يكون شيئاً أبداً. ولأول مرة في حياته، فكر في الانتحار. وفي حوالي الساعة السابعة صباحاً، غفا على مكتبه ورأسه على المسودات الممزقة والمليئة بالشطب.

في الثانية عشرة والنصف ظهراً، في حمام موظفي كلاركس، كانت نولا تغسل وجهها لتزيل الاحمرار في عينيها، إذ كانت قد قضت الفترة الصباحية كلها تبكي. كان يوم سبت، ولم يأت هاري. لم يعد يرغب في رؤيتها. كانت أيام السبت في كلاركس هي مواعدهما الثابت: كانت هذه المرة الأولى التي يتخلف فيها عن هذا الموعد. وحين استيقظت صباحاً، كان أملها كبيراً في أن يأتي ويعتذر منها عن فظاظته بالأمس، وكانت ستسامحه بالطبع. وكانت مجرد فكرة أنها ستراه قد أنارت مزاجها، حتى أنها وضعت بعضاً من أحمر الخدود وهي تستعد في الصباح، كي تبدو له جميلة. لكن أمها وبختها بقسوة على مائدة الطعام أثناء الإفطار:

- نولا، أريد أن أعرف ماذا تخفين عني.

- أنا لا أخفي عنك شيئاً، يا أمي.

- لا تكذبي على أمك! أعتقدين أنني لا ألاحظ؟ أظننني أنني

غبية؟

- أوه لا، يا أمي! أنا لا أعتقد شيئاً كهذا أبداً!

- أعتقدين أنني لا ألاحظ أنك تقضين كل وقتك خارج المنزل،

وأنت مبتهجة، وأنت تضعين مساحيق التجميل على وجهك؟

- أنا لا أفعل شيئاً خاطئاً، يا أمي، أعدك أنني لا أفعل!

- أعتقدين أنني لا أعلم أنك ذهبت إلى كونكورد مع نانسي

هاتاواي الفاسقة تلك! أنت فتاة شقية، يا نولا! أنا أشعر بالخزي

بسببك!

كان الأب كيلرغان قد غادر المطبخ وذهب ليغلق على نفسه في المرآب، فهو دائماً ما يفعل ذلك عند نشوب المشاجرات، فلم يكن يرغب في أن يتدخل. شغل جهاز الموسيقى الخاص به ورفع الصوت كي لا يسمع صوت الضرب.

- أمي، أعدك أنني لا أفعل شيئاً خاطئاً، رددت نولا.

حدقت لويزا كيلرغان في وجه ابنتها بمزيج من الاشمئزاز والاحتقار.

- لا تفعلين شيئاً خاطئاً؟ أنت تعلمين لماذا رحلنا من ألاباما... تعلمين ذلك، أليس كذلك؟ أم تريدني أن أذكرك؟ تعالي إلي هنا! فسحبته من ذراعها وجرتّها إلى غرفتها، ثم جعلتها تخلع ملابسها وشاهدتها وهي ترتعش خوفاً في ملابسها الداخلية.

- لماذا ترتدين حمالة صدر؟ سألتها لويزا كيلرغان.

- لأن لي ثديين، يا أمي!

- لا يتعين أن يكون لك ثديان! فما زلت صغيرة على ذلك! اخلي حمالة صدرك وتعالي إلي هنا!

خلعتها نولا واقتربت من أمها، التي أمسكت بمسطرة من حديد كانت على مكتب ابنتها. أخذت تنظر إليها من أعلى إلى أسفل، ثم رفعت المسطرة وهوت بها على حلمتيها. ضربتها بعنف شديد، عدة مرات، وحين كانت تنكمش على نفسها من شدة الألم، كانت تأمرها بأن تبقى ثابتة، وإلا ستنال ما هو أسوأ. وبينما كانت لويزا تضرب ابنتها، كانت تردد لها: «يجب ألا تكذبي على أمك. يجب ألا تكوني فتاة شقية، أفهمين؟ كفي عن الاعتقاد أنني غبية!». وفي هذه الأثناء، كانت تنبعث من المرآب موسيقى صاخبة تصم الآذان.

لم تقوَ نولا على الذهاب إلى عملها في كلاركس ذلك الصباح، إلا لأنها كانت تعلم أنها ستلتقي بهاري هناك؛ فكان الوحيد الذي يمدّها بالقوة لتستمر في العيش، وكانت تريد أن تحيا من أجله. إلا أنه لم يأت. شعرت بالضياح وقضت الصباح تبكي، مختبئة في الحمام. نظرت إلى وجهها في المرآة ورفعت قميصها لتأمل ثدييها المؤلمين: كانت تغطيها الكدمات. قالت في نفسها إن أمها محقة: إنها فتاة شقية وقيحة، ولهذا السبب لم يعد هاري يرغب بها.

دق أحدهم الباب فجأة. كانت جيني:

- نولا، ماذا تفعلين؟ المطعم مكتظ! هيا اخرجي إلى العمل!
فتحت نولا الباب مفزوعة: هل اشتكى الموظفون لجيني من كونها
قضت الصباح في الحمام فأنت هذه الأخيرة لتعيدها إلى العمل؟ لكن
جيني كانت قد أتت إلى المطعم صدفة. أو بالأحرى أملاً في مقابلة
هاري. وعند وصولها، لاحظت أن الخدمة في الصالة لم تكن على ما
يرام.

- أتبكين؟ سألتها جيني بعدما رأت وجهها البائس.

- أنا... أشعر أنني لست بخير.

- اغسلي وجهك بالماء البارد واتبعيني إلى صالة الطعام.
سأساعدك في الخدمة، إنه وقت الذروة والعاملون في المطبخ غارقون.
بعد أن مرت فترة الغداء وعاد الهدوء، أحضرت جيني كوباً من
الليمونادة لنولا لتواسيها.

- اشربي هذه... ستشعرين بالتحسن، قالت لها بلطف.

- شكراً. هل ستخبرين والدتك أنني لم أعمل على نحو جيد
اليوم؟

- لا تقلقي، لن أقول شيئاً. فكلنا معرضون للحظة إحباط. ماذا
يحدث لك؟

- قصة حب حزينة.

ابتسمت جيني:

- ما زلت صغيرة على ذلك! ستقابلين الرجل المناسب يوماً ما.

- لا أدري...

- هيا، هيا، ابتسمي للحياة! سترين، كل شيء سيأتي.
أتعرفين... حتى وقت قريب، كنت في الموقف نفسه. كنت وحيدة
وبائسة، ثم أتى هاري إلى المدينة...

- هاري؟ هاري كبير؟

- نعم! إنه رائع! اسمعي... الأمر ليس رسمياً بعد، ولا ينبغي لي أن أخبرك، لكن نحن صديقتان، أليس كذلك؟ وأنا سعيدة أنني أستطيع البوح لأحد: هاري يحبني. إنه يحبني! هو يكتب نصوصاً عن حبه لي. وقد اصطحبني إلى كونكورد مساء أمس، للاحتفال بالعيد الوطني. كانت ليلة رومانسية بامتياز.

- مساء أمس؟ ألم يكن مع ناشره؟

- لقد كان معي، أقول لك! شاهدنا معاً الألعاب النارية فوق النهر هناك، كان مشهداً رائعاً!

- إذاً، أنت وهاري... مرتبطان؟

- نعم! أوه، نولا، ألسنت سعيدة لأجلي؟ لكن أرجوك لا تخبري أحداً. لا أريد أن يعرف أحد بالأمر، فأنت تعرفين الناس وغيرتهم!

شعرت نولا بقلبها يعتصر، وساءت حالها فتمنت لو تموت: كان هاري يحب فتاة أخرى. كان يحب جيني كوين هذه! كان كل شيء قد انتهى إذاً. هو لم يعد يرغب بها. بل كان قد استبدلها بأخرى... كان كل شيء يدور في رأسها.

عند انتهاء دوامها في السادسة مساءً، مرت بمنزلها سريعاً ثم ذهبت إلى غوز كوف. لم تكن سيارة هاري هناك. أين عساه يكون؟ مع جيني؟ زادت هذه الفكرة من ألمها، وحاولت جاهدة أن تمنع دموعها. صعدت درجات السلالم القليلة المؤدية إلى المدخل وأخرجت المظروف الذي أعدته من أجله وثبته في إطار الباب. كانت في المظروف صورتان التَّقَطتا في روكلاند. إحداهما لسرب من النوارس على شاطئ البحر، والأخرى لهما أثناء نزهتهما. كما كانت هناك رسالة قصيرة مكتوبة على ورقها المفضل:

هاري حبيبي

أعلم أنك لا تحبني، لكنني سأحبك دائماً.

أرفق لك هنا صورة للعصافير التي ترسمها ببراعة،
وصورة لنا كي لا تنساني أبداً.

أعلم أنك لم تعد ترغب في رؤيتي، لكن اكتب لي
على الأقل، ولو لمرة واحدة. بضع كلمات فقط أحتفظ
بها كذكرى منك.

لن أنساك أبداً، فأنت أكثر شخص استثنائي قابلته في
حياتي.

أحبك إلى الأبد.

ثم فرت راکضة. نزلت إلى الشاطئ، خلعت حذاءها، وجرت
على الماء كما فعلت في ذلك اليوم الذي قابلته فيه.

مقتطفات من: أصول الشر، لهاري ل. كيبر

بدأت الرسائل حين تركت له رسالة قصيرة عند باب المنزل .
كانت رسالة حب تخبره فيها بكل ما تشعر به تجاهه .

حبيبي،

أعلم أنك لا تحبني، لكنني سأحبك دائماً.

أرفق لك هنا صورة للعصافير التي ترسمها ببراعة،
وصورة لنا كي لا ننساني أبداً.

أعلم أنك لم تعد ترغب في رؤيتي، لكن اكتب لي على
الأقل، ولو لمرة واحدة. بضع كلمات فقط أحتفظ بها
كذكرى منك.

لن أنساك أبداً، فأنت أكثر شخص استثنائي قابلته في
حياتي.

أحبك إلى الأبد.

رد على رسالتها بعد بضعة أيام، بعدما وجد في نفسه الشجاعة
ليكتب لها. فأن يكتب، لم يكن بالأمر المعقد. لكن أن يكتب لها
هي، فكان هذا أشبه بالملحمة.

حبيبتني،

كيف تقولين إنني لا أحبك؟ إليك كلمات حب، كلمات
خالدة تنبع من أعماق قلبي، كلمات تقول لك إنني أفكر

فيك كل صباح حين أستيقظ، وكل مساء حين أذهب
إلى السرير. وجهك محفور في روحي، وحين أغمض
عيني، تكونين هناك.

اليوم أيضاً، وقفت أمام منزلك عند الفجر. يجب أن
أعترف لك: أنا أقوم بذلك كثيراً.

راقبت نافذتك من بعيد، وكانت كل الأضواء مطفأة،
فتخيلتك نائمة كالملاك. وبعد ذلك، رأيتك في فستانك
الجميل، فستان ذي زهور يناسبك تماماً. بدوت حزينة
شيئاً ما.

لماذا أنت حزينة؟ أخبريني وسأحزن معك.

ملاحظة: ابعثني لي مراسلاتك عبر البريد، فهذا
أضمن.

أحبك كثيراً. كل يوم. وكل ليلة.

حبيبي،

أكتب لك حالما قرأت رسالتك. في الحقيقة، لقد
قرأتها عشر مرات، مئة ربما! كتابتك رائعة. فكل كلمة
من كلماتك تحفة بحد ذاتها. أنت موهوب جداً.

لماذا لا تأتي لتقابلني؟ لماذا تكتفي بأن تظل مختبئاً؟
لماذا لا تريد أن تتحدث إليّ؟ لماذا تأتي حتى نافذتي
إذا لم يكن ذلك كي تقابلني؟

اظهر أرجوك! فأنا حزينة منذ لم تعد تكلمني.

اكتب لي بسرعة، فأنا أنتظر رسائلك على أحر من
الجمر.

كانا يعرفان أن الكتابة تعني الحب في حالتها، بما أنه لا يحق
لها أن يعيش قصة حبهم في العلن، فكانا يقبلان ورق الرسائل بنفس
الشوق كما لو كانا يقبلان أحدهما الآخر، ومنتظران توزيع البريد بنفس
التوق كما لو كانا على رصيف محطة قطار.

وكان أحياناً، في سرية تامة، يذهب ليختبئ في شارعها، ومنتظر
مرور ساعي البريد. كان يراها وهي تخرج من المنزل على عجل،
وتهرع نحو صندوق البريد لتحصل على الرسالة الثمينة. كانت لا تحيا
إلا من أجل كلمات الحب هذه. كان مشهداً رائعاً ومأسوياً في آن
واحد؛ فالحب كان كنزهما الثمين، لكنه كان محرماً عليهما.

حييتي الغالية،

أنا لا أستطيع أن أظهر نفسي لأن هذا سيؤذيها جداً.
نحن لا ننتهي إلى نفس العالم، والناس لن يفهموا.

كم أعاني لأنني جئت إلى هذا العالم! لماذا علينا أن
نحيا وفقاً لعادات الآخرين؟ لماذا لا يحق لنا أن نحب
أحدنا الآخر ببساطة رغم اختلافاتنا؟ هذا هو عالم
اليوم:

عالم لا يستطيع فيه شخصان متحابان أن يمسك
أحدهما بيد الآخر.

هذا هو عالم اليوم: مليء بالشفرات والقواعد، لكنها
قواعد سوداء تقيّد البشر وتقهر قلوبهم. أما نحن،
فقلبان صافيان لا يقيّدان.

أحبك حباً عظيماً وأبدياً. منذ اليوم الأول.

حبي،

شكراً على رسالتك الأخيرة. لا تتوقف أبداً عن الكتابة، كم هي جميلة كلماتك.

أمي تتساءل عمن يكتب لي بهذه الوتيرة، تريد أن تعرف لماذا أفتش في صندوق البريد طوال الوقت. وكبي أطمئنها، قلت لها إنها صديقة تعرفت عليها في المخيم الصيفي الماضي. لا أحب أن أكذب، لكن الأمور أبسط هكذا. نحن لا نستطيع أن نعبر عما بيننا، أعلم أنك محق في ذلك: فالناس سيؤذونك. رغم أنني أتألم كثيراً حين أبعث لك رسائلتي عبر البريد، في حين أننا قريبان جداً.

عن صعوبة الحب

«أتعرف، يا ماركوس، ما هي الوسيلة الوحيدة لقياس مدى حبك
 لشخصٍ ما؟
 - لا .
 - أن تخسره» .

يوجد على طريق مونتبيري بحيرة صغيرة معروفة في المنطقة، تجتاحها العائلات ومخيمات الأطفال في أيام الصيف المشمسة. يكتظ المكان بالناس منذ الصباح الباكر، فتغطي مناشفُ البحر الممرات ويجلس الآباء تحت المظلات فيما يمرح أطفالهم في ماء خضراء دافئة، ومزبدة في الأماكن التي تتجمع فيها مخلفات نزواتهم التي حملها التيار. ومنذ أن خطا طفل على حقنة مستعملة - قبل سنتين تقريباً - حرصت بلدية مونبيري على تنظيف وتنظيم محيط البحيرة، فجُهِز المكان بطاولات ومعدات الشواء لتفادي النيران العشوائية المضرة للعشب، ووُضعت حاويات للقمامة، ونُصبت دورات مياه مسبقة الصنع، وتم توسيع وتزفيت موقف السيارات، إضافة إلى توظيف فريق يقوم يومياً، في الفترة الممتدة من يونيو إلى أغسطس، بتنظيف الضفاف من النفايات وفضلات الكلاب.

في اليوم الذي ذهبْتُ فيه إلى البحيرة لدواعٍ خاصة بتأليف كتابي، كان أطفالاً قد أمسكوا بضفدع - ربما الكائن الحي الوحيد في هذا المستنقع - ويحاولون نزع أطرافه بجرّ قدميه الخلفيتين معاً.

رأى إرني بينكاس أن هذه البحيرة تعكس الانحطاط البشري الذي يصيب المجتمع الأمريكي كما بقية العالم. فقبل ثلاثة وثلاثين عاماً، كانت البحيرة نادراً ما يتردد إليها الناس، إذ كان الوصول إليها صعباً:

كان لا بد من ترك السيارة على جانب الطريق، والمرور بشريط عبر الغابة، ثم السير لمسافة نصف ميل تقريباً بين الأعشاب العالية وأشجار الورد البري، إلا أن الأمر كان يستحق العناء؛ فالبحيرة كانت رائعة، تغطيها أزهار الزنبق زهرية اللون وتحيط بها أشجار الصفصاف الضخمة. وفي أحد أطرافها، كان هناك شاطئ من الرمل الرمادي. على شاطئ تلك البحيرة، جاء هاري ليختبئ من نولا، فهو كان هناك يوم السبت 5 يوليو، حين أودعت رسالتها الأولى عند باب منزله.

*

السبت 5 يوليو 1975

كانت الساعة تقارب الثانية عشرة ظهراً حين وصل إلى محيط البحيرة. كان إرني بينكاس ينتظره هناك، مسترخياً على الضفة. - إذاً، لقد قررت المجيء أخيراً، قال بينكاس مداعباً حين رآه. أن أقابلك خارج كلاركس هو صدمة بحد ذاتها. ابتسم هاري. - كان لا بد أن آتي بعد كل ما أخبرتني عن هذه البحيرة. - المكان جميل، أليس كذلك؟ - بل رائع. - هذه هي نيو إنغلاند يا هاري، إنها جنة محمية، وهذا ما يعجبني فيها. ففي باقي البلاد، يبنون المنشآت في كل شبر تطاله أيديهم. لكن الأمر مختلف هنا: أراهن أن هذا المكان، بعد ثلاثين سنة، سيظل على ما هو عليه. بعد أن سباحا في الماء المنشعة، جلسا ليحفا في الشمس، وتحدثا عن الأدب. - على ذكر الكتب، كيف تتقدم في كتابك؟ سأله بينكاس.

- لا بأس، رد هاري بإيجاز.
- لا تكن متشائماً، أنا واثق أنه جيد جداً.
- لا، بل أعتقد أنه رديء جداً.
- دعني أقرأه، وسأعطيك رأيي بموضوعية، أعدك بذلك. ما الذي لا تحبه فيه؟
- كل شيء. أنا أفتقر إلى الإلهام. لا أعرف كيف أبدأ. وأعتقد أنني لا أعرف حتى عما أتحدث.
- ما هي قصته؟
- إنها قصة حب.
- آه، الحب... تنهد بينكاس. هل أنت مغرم؟
- نعم.
- إنها بداية جيدة. قل لي، يا هاري، هل تفتقد حياة الأزواء؟
- لا، أنا بخير هنا. كنت بحاجة إلى الهدوء.
- ماذا تفعل في نيويورك بالضبط؟
- أنا... أنا كاتب.
- تردد بينكاس قليلاً قبل أن يعارضه:
- هاري... لا تتضايق مما سأقوله، لكنني تحدثت إلى أحد أصدقائي المقيمين في نيويورك...
- ثم؟
- قال إنه لم يسمع بك من قبل أبدأ.
- من الطبيعي ألا يعرفني كل الناس... هل تعلم كم من شخص يعيش في نيويورك؟
- ابتسم بينكاس، ليثبت حسن نواياه.
- أعتقد أن لا أحد يعرفك، يا هاري. لقد اتصلت بالدار التي نشرت كتابك... أردت أن أطلب المزيد من النسخ... لم أسمع بهذا الناشر من قبل، فظننت أنني الجاهل في القصة... إلى أن اكتشفت

أنها مطبعة في بروكلين... اتصلت بهم، يا هاري... وعرفت أنك
دفعت مالا للمطبعة كي تطبع كتابك...
طأطأ هاري رأسه، خجلاً.
- لقد عرفت كل شيء إذاً، قال هامساً.
- عرفت كل شيء عماذا؟
- أني لست سوى مدع!
وضع بينكاس يداً ودية على كتفه.
- مدع؟ لا تقل هذه الحماقات! لقد قرأت كتابك وأحبته كثيراً!
ولهذا أردت أن أطلب منه نسخاً إضافية. إنه كتاب رائع، يا هاري!
لماذا يجب أن تكون كاتباً مشهوراً لتكون كاتباً جيداً؟ لديك موهبة
عظيمة وأنا متأكد أنك ستصبح مشهوراً قريباً. من يعلم: قد يكون هذا
الكتاب الذي تؤلفه حالياً عملاً عظيماً.
- وإذا لم أنجح في ذلك؟
- ستنجح. أنا أعلم ذلك.
- شكراً، يا إرني.
- لا تشكرني، إنها الحقيقة. ولا تقلق، لن أقول شيئاً لأحد.
سيظل كل هذا بيننا.

*

الأحد 6 يوليو 1975

في تمام الساعة الثالثة عصراً، أرغمت تمارا كوين زوجها على أن
يتسمر أمام مدخل البيت أسفل التسقيفة، مع كأس شامبانيا في يده،
وسيجار في فمه.
- لا تتحرك، أمرته.
- لكن قميصي يحكني، يا حلوتي.

- اصمت، يا بوبو! هذه القمصان غالية جداً. وما هو غالٍ لا يحك.
- كانت تمارا قد اشترت القمصان الجديدة من محل شهير في كونكورد.
- ولماذا لم يعد بإمكانني ارتداء قمصاني الأخرى؟ سأل بوبو.
- سبق أن قلت لك: لا أريدك أن ترتدي تلك الخرق البالية حين يأتي كاتب شهير لزيارتنا!
- وأنا لا أحب طعم السيجار...
- اقلبه، يا مغفل! لقد وضعته في فمك بالعكس. ألم ترَ الحلقة التي تدل على وضع الشفتين؟
- اعتقدتها زينة.
- ألا تعرف شيئاً عن الأناقة؟
- الأناقة؟
- الأناقة أي السلوكيات والأشياء الأنيقة! في الحقيقة، أنت لا تعرف شيئاً، يا بوبو المسكين! هاري سيصل في غضون ربع ساعة: حاول أن تبدو راقياً. وحاول أن تبهره.
- وكيف أفعل ذلك؟
- دخن سيجارك وكأنك شارد الذهن، تفكر. مثل رجل أعمال كبير، وحين يتحدث إليك، تظاهر بالتعالي.
- وكيف أتظاهر بالتعالي؟
- سؤال وجيه: بما أنك غبي ولا تفهم شيئاً، يجب أن تبدو مراوغاً ومحيراً. يجب أن تجيب على السؤال بسؤال. فإذا سألك مثلاً: «هل كنت مع أم ضد الحرب في فيتنام؟» تجيبه: «إن طرحت لهذا السؤال يعني أن لديك رأياً محدداً في الموضوع». وهنا تقدم له الشامبانيا لتشتت انتباهه.
- حسناً، يا حلوتي.

- لا تخيب أملي .

- حسناً ، يا حلوتي .

دخلت تمارا إلى المنزل وجلس روبرت على كرسي من الخوص ، محبطاً . كان يكره هاري كبير ، ملك الكتابة المزعوم ذاك ، في حين أنه ملك التفاهات في الحقيقة . وكان يكره رؤية زوجته تتراقص كالبهلوان من أجله . هو لم يطعها إلا لأنها وعدته بأن يكون روبرت حبيبها الليلة ، وقد تسمح له حتى أن ينام في غرفتها - إذ ينام الزوجان كوين في غرفتين مستقلتين . فهي في العادة توافق على أن ينام معها مرة كل ثلاثة أو أربعة أشهر ، غالباً بعد توسلات عديدة ، ولكن كان قد مضى وقت طويل منذ أن سُمح له قضاء ليلة معها .

في المنزل ، في الطابق العلوي ، كانت جيني جاهزة : كانت ترتدي فستان سهرة فخماً ، واسعاً بكتفين مبطنين ، وحلي زائفة ، والكثير من أحمر الشفاه . عدلت تمارا فستان ابنتها وابتسمت لها .

- تبدين رائعة ، يا حبيبتي . سيسقط كبير صريعاً حين يراك !

- شكراً ، يا أمي . ألم نبالغ قليلاً ؟

- نبالغ ؟ إطلاقاً . مظهرك مناسب تماماً .

- لكننا ذاهبان إلى السينما فحسب .

- وبعد ذلك ؟ ماذا لو دعاك إلى عشاء فاخر بعد ذلك ؟ هل فكّرتِ

في ذلك ؟

- ليست هناك مطاعم فاخرة في أورورا .

- قد يكون هاري قد حجز طاولةً لخطيبته في مطعم فاخر

بكونكورد .

- أمي . . . نحن لسنا مخطوبين بعد !

- أوه ، يا حبيبتي ، قريباً ، أنا متأكدة من ذلك . هل قبّلك ؟

- ليس بعد .

- على أية حال ، إذا أراد أن يداعبك ، دعيه يفعل ، بحق السماء !

- حاضر، يا أمي.

- ويا لها من فكرة لطيفة أن يدعوك إلى السينما!

- في الحقيقة، كانت فكرتي. استجمعت شجاعتي واتصلت به،
وقلت له: «هاري حبيبي، أنت تعمل كثيراً! تعال نذهب إلى السينما
هذا المساء».

- فوافق...

- على الفور! دون أن يتردد ولو ثانية واحدة!

- أترين، الأمر أشبه بأن تكون فكرته.

- أنا دائماً ما أتجنب مقاطعته عن الكتاب... كونه يكتب نصوصاً
عني. أنا أعلم ذلك، لأنني رأيت أحد هذه النصوص. قال فيها إنه لا
يأتي إلى كلاركس إلا كي يراني.
- أوه، يا حبيبيتي. كم هذا مثير!

تناولت تمارا علبة أحمر خدود ودهنت وجه ابنتها، شاردة الذهن.
كان يكتب كتاباً من أجلها: قريباً، ستحدث نيويورك بأكملها عن مطعم
كلاركس وعن جيني، وقد ينتجون فيلماً أيضاً. يا له من أفق رائع! كبير
هذا كان الاستجابة لكل صلواتها! فلأنهم متدينون مخلصون، ها هم
مكافؤون! فكرت بسرعة: كان لا بد من إقامة حفل في الحديقة يوم
الأحد القادم لإضفاء صفة الرسمية على الموضوع. كان التوقيت قريباً،
لكن كان الوقت يداهمهم: فيوم السبت التالي، سيكون حفل الصيف
الراقص، وسيرى كل أهل المدينة، مصعوقين وحاسدين، صغيرتها
جيني تتأبط ذراع الكاتب الكبير. إذًا، كان ينبغي أن ترى صديقاتها
جيني وهاري معاً قبل الحفل، كي تلف الشائعة المدينة، بحيث يكونان
موضع الاهتمام في حفل الصيف الراقص. آه، يا للسعادة! فلطالما
شعرت بالقلق بشأن ابنتها: كان من الممكن أن ينتهي بها المطاف
مرتبطة بسائق شاحنة، أو أسوأ من ذلك: باشتراكيّ، أو حتى أسوأ:
بأسود! ارتجفت حين خطر لها هذا الاحتمال: صغيرتها جيني وأسود

مريع! وفجأة، تملكها قلق مخيف: كثير من كبار الكُتَّاب كانوا يهوداً. فماذا لو كان كبير يهودياً؟ يا للفظاعة! أو قد يكون يهودياً اشتراكياً! انزعجت لفكرة أن اليهود قد يكونون ذوي بشرة بيضاء، لأن ذلك يجعل تمييزهم غير ممكن. على الأقل، كان السود سوداً بكل وضوح. لكن اليهود ماكرون. شعرت بتشنجات في بطنها: كانت معدتها تلتوي، فمند قضية روزنبرغ وهي تخاف بشدة من اليهود، فهم من أعطوا القنبلة النووية للسوفييت. لكن كيف يمكنها أن تعرف إن كان كبير يهودياً؟ خطرت لها فكرة فجأة. نظرت إلى ساعتها: كان لديها ما يكفي من الوقت لتذهب إلى المتجر العام وتعود قبل قدوم كبير. فأسرعت لتقوم بذلك.

عند الثالثة وعشرين دقيقة عصراً، توقفت سيارة شيفروليه مونت كارلو سوداء أمام منزل آل كوين. تفاجأ روبرت كوين حين رأى هاري كبير يترجل منها، إذ كان هذا طراز السيارات التي يحب. كما لاحظ أن الكاتب الكبير كان يرتدي ملابس غير رسمية ومريحة. وجه له تحية رسمية رغم ذلك، وعرض عليه مشروباً «أنيقاً»، كما علمته زوجته.

- شامبانيا؟ صاح في اتجاهه.

- اممم، في الحقيقة لست من هواة الشامبانيا، أجب هاري. سأكتفي ببيرة، إذا توفرت...

- بالتأكيد! تحمس روبرت فجأة بطلاقة.

كان يعرف البيرة جيداً، بل كان لديه كتاب عن كل أنواع البيرة التي تصنعها أمريكا. أسرع ليحضر زجاجتين باردتين من الشلاجة، مغتتماً الفرصة ليعلن للسيدتين في الطابق العلوي أن السيد المبجل هاري كبير قد وصل. جلس الرجلان في فناء المنزل الأمامي، مشمرين أكمامهما، يتبادلان الأنخاب ويتحدثان عن السيارات.

- لماذا اخترت المونت كارلو؟ سأل روبرت. أعني، نظراً إلى

وضعتك، يمكنك أن تشتري السيارة التي تريدها، ومع ذلك، اخترت المونت كارلو...

- إنها سيارة رياضية وعملية في آن واحد، كما أنني أحب شكلها.

- أنا أيضاً! كدت أشتريها العام الماضي!

- كان عليك أن تفعل.

- لم ترغب زوجتي.

- كان عليك أن تشتري السيارة أولاً، وتطلب رأيها بعد ذلك.

انفجر روبرت ضاحكاً؛ كان كبير هذا بسيطاً جداً، وودوداً، وخفيف الظل. في تلك اللحظة، انضمت إليهما تمارا حاملة ما ذهبت إلى المتجر لتحضره: طبق كبير من سندويشات لحم الخنزير.

- مرحباً، سيد كبير! أهلاً وسهلاً بك! هل ترغب في سندويش من لحم الخنزير؟

حياها هاري وتناول واحداً. شعرت تمارا بارتياح دافئ يغمرها وهي تشاهد ضيفها يأكل لحم الخنزير. إنه الزوج المناسب: لم يكن أسود ولا يهودياً.

بعد أن استعادت رباطة جأشها، لاحظت أن روبرت كان قد خلع ربطة عنقه وأن الرجلين كانا يشربان البيرة من الزجاجات نفسها.

- ما الذي تفعلانه؟ ألا تشربان الشامبانيا؟ وأنت يا روبرت، لماذا خلعت نصف ثيابك؟

- أشعر بالحر! تدمر بوبو.

- وأنا أفضل البيرة، شرح هاري.

وصلت حينذاك جيني، وبدت رائعة في فستان السهرة المبالغ فيه.

في نفس الوقت، في المنزل رقم 245 في تراس أفينيو، وجد الكاهن كيلرغان ابنته غارقة في دموعها بغرفتها.

- ماذا يحدث، يا حبيبتي؟
- أوه، أبي، أنا حزينة جداً...
- لماذا؟
- بسبب أمي...
- لا تقولي ذلك...
كانت نولا جالسة على الأرض، وعيناها مغرورتان بالدموع.
شعر الكاهن بحزن شديد من أجلها.
- ما رأيك لو ذهبنا إلى السينما؟ اقترح ليواسيها. أنا وأنت وعلبة
فشار كبيرة! العرض في الرابعة عصراً، فما زال أماننا الوقت.

- ابنتي جيني فتاة مميزة جداً، قالت تمارا فيما كان زوجها يبتلع
السندويشات مستغلاً انشغالها بالحديث. تصور أنها في سن العاشرة،
كانت ملكة جمال كل مسابقات المنطقة. أتذكرين ذلك، جيني حبيبتي؟
- نعم يا أمي، أذكر، تنهدت جيني، متضايقة.
- ما رأيكم لو تصفّحنا ألبومات الصور القديمة؟ اقترح روبرت
بفم ممتلئ، محاولاً تنفيذ المسرحية التي دربته عليها زوجته.
- أوه، نعم! ألبومات الصور! تحمست تمارا.
وأسرعت لتحضر كومة من ألبومات الصور التي تخلد سنوات
جيني الأربع والعشرين الأولى. وطوال تصفّح الصفحات، كانت
تصيح: «من تلك الفتاة الرائعة؟»، ثم تجيب هي وروبرت كما لو أنهما
كورال: «إنها جيني!».

بعد الصور، أمرت تمارا زوجها بأن يملأ كؤوس الشامبانيا،
وقررت أن تتحدث عن الحفل في الحديقة الذي كانت تنوي إقامته
الأحد المقبل.

- إذا كنت متفرّغاً يوم الأحد المقبل، يا سيد كبير، تفضل وتناول
الغداء معنا.

- بكل سرور، ردّ عليها.
- ولا تقلق، سيكون لقاء بسيطاً. أعرف أنك أتيت إلى هنا لتبتعد
عن صخب الحياة الاجتماعية في نيويورك. سيكون غداء في الحديقة
فحسب، مع مجموعة لطيفة من الأصدقاء.

قبل الرابعة بعشر دقائق، دخلت نولا ووالدها إلى السينما، في
حين توقفت سيارة شيفروليه سوداء أمام السينما.
- احجزي لنا مقعدين، وسأشتري أنا الفشار، اقترح الأب
كيلرغان على ابنته.

دخلت نولا إلى القاعة في اللحظة التي دخل فيها هاري وجيني
إلى السينما.
- احجز لنا مقعدين، وسأمر سريعاً على الحمام، اقترحت جيني
على هاري.

دخل هاري القاعة، ووسط حشد المشاهدين، وجد نفسه وجهاً
لوجه مع نولا.

حين رآها، شعر بقلبه ينفطر. كان يفتقدها بشدة.
حين رأيته، شعرت بقلبها ينفطر. كان عليها أن تكلمه؛ فإذا كان
مع جيني تلك، كان عليه أن يخبرها. كانت بحاجة أن تسمعها منه.
- هاري، قالت، إنني...
- نولا...

في تلك اللحظة، ظهرت جيني من بين الحشد. وحين رأتها،
أدركت نولا أنها أتت مع هاري، فغادرت القاعة مسرعة.
- هل أنت بخير، يا هاري؟ سألت جيني التي لم تكن قد لمحت
نولا. تبدو غريباً بعض الشيء.

- نعم... سأعود فوراً. احجزي مقعدينا. سأشتري الفشار.
- نعم! فشار! اطلبه مع الكثير من الزبدة.

خرج هاري من القاعة، ورأى نولا تعبر بهو السينما الرئيسي وتصعد إلى الشرفة في الطابق العلوي، المغلقة أمام الجمهور. صعد السلالم قفزاً فوق الدرجات ليلحق بها.

كان الطابق خالياً. أمسك بها وثبتها على الحائط.

- اتركني، قالت، اتركني وإلا سأصرخ!

- نولا! نولا، لا تغضبي مني، أرجوك.

- لماذا تتفاداني؟ لماذا لم تعد تأتي إلى كلاركس؟

- أنا آسف...

- أنت لا تراني جميلة، أليس كذلك؟ لماذا لم تخبرني بأنك

وجيني مخطوبان؟

- ماذا؟! لسنا مخطوبين، من قال لك ذلك؟

ابتسمت ابتسامة ارتياح عريضة.

- جيني وأنت... غير مرتبطين؟

- لا! قلت لك لا!

- أنت لا تراني قبيحة إذاً؟

- قبيحة؟ نولا... أنت جميلة جداً.

- حقاً؟ لقد كنت حزينة جداً... اعتقدت أنك لم تعد ترغب في.

بل وأردت أن ألقى بنفسي من النافذة.

- لا تقولي هذا الكلام، أرجوك.

- قل لي من جديد إنني جميلة إذاً...

- أنا أراك جميلة جداً، وأنا آسف لأنني سببت لك كل هذا

الألم.

ابتسمت مجدداً. لم تكن هذه القصة سوى سوء تفاهم! كان

يحبها. كانا يحبان أحدهما الآخر.

- دعنا لا نتكلم عن الأمر. ضمني إلى صدرك... كم تبدو لي

متألقاً، ووسيماً، وأنيقاً...

- لا أستطيع ذلك، يا نولا...
- لماذا؟ إذا كنت تراني جميلة فعلاً، فلن تصدني!
- أنا أراك جميلة جداً، لكنك طفلة...
- لست طفلة!
- نولا... أنا وأنت... قصتنا... مستحيلة.
- لماذا أنت قاسٍ معي إلى هذه الدرجة؟ أنا لا أريد أن أكلّمك بعد الآن!
- نولا... أنا...
- اتركني الآن. اتركني ولا تكلمني بعد الآن! لا تكلمني وإلا سأقول للجميع إنك منحرف. اذهب والْحَقْ بحبيبتك! هي التي قالت لي إنكما مرتبطان. أنا أعرف كل شيء! أعرف كل شيء وأكرهك، يا هاري... ارحل، ارحل!
- دفعته، ثم نزلت السلالم بسرعة وخرجت من السينما، فعاد هاري محبطاً إلى القاعة. وبينما هو يدفع الباب، ظهر أمامه الأب كيلرغان.
- مرحباً، هاري.
- الأب كيلرغان!
- إني أبحث عن ابنتي، هل رأيتها؟ طلبت منها أن تحجز لنا مقعدين، لكنها اختفت!
- أعتقد... أعتقد أنها غادرت لتوها.
- غادرت؟ كيف ذلك؟ الفيلم سيبدأ...
- بعد السينما، ذهباً لياكلا بيتزا في مونتبيري. وفي طريق العودة، كانت جيني تشع فرحاً: كانت أمسية رائعة. أرادت أن تقضي كل أمسياتها وكل حياتها مع هذا الرجل.
- هاري، لا تأخذني إلى المنزل الآن، توصلت إليه. كان كل

شيء بديعاً... أرغب في تمديد الأمسية. يمكننا أن نذهب إلى الشاطئ.

- الشاطئ؟ ولماذا الشاطئ؟ سألها.

- لأنه رومانسي جداً! اركن السيارة بالقرب من غراند بيتش، فلا أحد هناك. يمكننا أن نشاهد النجوم ونستمتع بالليل. أرجوك...
أراد أن يرفض لكنها أصرت، فعرض عليها أن يذهباً إلى الغابة بدلاً من الشاطئ؛ فالشاطئ كان لنولا فقط. ركن السيارة بالقرب من سايد كريك لين، وما إن أطفأ محرك السيارة حتى انقضت عليه جيني لتقبله، فأمسكت برأسه وخنقته بلسانها، دون أن تستأذنه. كانت جيني امرأة رائعة، وكانت لتصبح زوجة مثالية، وهي لم تطلب أكثر من ذلك. كان ليتزوجها فوراً لو أن الأمر بيده؛ فامرأة مثلها هي حلم الكثير من الرجال، لكن في قلبه هو، لم يكن هناك سوى أربعة أحرف تشغل المكان بأكمله: ن. و. ل. ا.

- هاري، قالت جيني، أنت الرجل الذي طالما انتظرت.

- شكراً.

- هل أنت سعيد معي؟

لم يجب واكتفى بأن يدفعها بلطف.

- يجب علينا أن نعود يا جيني. لم أنتبه أن الوقت تأخر إلى هذا الحد.

أدار محرك السيارة وأخذ اتجاه أورورا.

حين أنزلها من السيارة أمام منزلها، لم ينتبه إلى أنها كانت تبكي. لماذا لم يحبها؟ ألم يكن يحبها؟ لماذا شعرت بنفسها وحيدة إلى هذا الحد؟ فهي لم تكن تطلب الكثير: كل ما كانت تحلم به هو رجل لطيف يحبها ويحميها، يقدم لها الزهور من حين لآخر، ويصطحبها إلى العشاء. حتى لو كان هوت-دوغ! لم تكن تريد سوى متعة الخروج معاً. ففي النهاية، لا يهمها الذهاب إلى هوليوود، إذا وجدت رجلاً

تحبه ويحبها في المقابل . شاهدت الشيفروليه السوداء تبتعد فأجهشت بالبكاء . دفنت وجهها بين يديها كي لا يسمعها والداها ، وخاصة أمها ؛ فلم تكن ترغب أن تُحمّله مسؤولية ذلك . ستنتظر إلى أن تنطفئ الأضواء في الطابق العلوي ثم تدخل . سمعت فجأة صوت محرك سيارة ، فرفعت رأسها وكلها أمل أن يكون هاري قد عاد ليضمها ويواسيها . لكن السيارة التي توقفت أمام المنزل كانت سيارة شرطة ، لمحت بداخلها ترافيس داون ، الذي صادف أن دوريته قادتة إلى منزل آل كوين .

- جيني ! هل كل شيء على ما يرام ؟ سألتها عبر شباك السيارة المفتوح .

هزت كتفيها . أطفأ محرك السيارة وفتح الباب ، وقبل أن يخرج ، أخرج ورقة من جيبه وقرأ محتواها بسرعة :

أنا : أهلاً جيني ، هل أنت بخير ؟

هي : أهلاً ترافيس ! ماذا لديك ؟

أنا : مررت من هنا بالصدفة . أنت رائعة . أنت في

~~أحسن حال~~ . تبدين في أحسن حال . هل هناك من

سيرافك إلى حفل الصيف الراقص ؟ فكرت أنه يمكننا

أن نذهب معاً .

---- ارتجال ----

اقترح عليها نزهة أو ميلك شيك .

مكتبة

t.me/soramnqraa

لحق بها في الفناء الأمامي للمنزل .

- ما الأمر ؟ قال قلقاً .

- لا شيء ، قالت جيني وهي تمسح عينيها .

- بل هناك شيء ، أنا أرى جيداً أنك تبكين .

- لقد آذاني شخص ما .

- ماذا؟ من؟ أخبريني من هو! يمكنك أن تخبريني بكل شيء...
وسألقنه درساً، سترين!
- ابتسمت بحزن ووضعت رأسها على كتفه.
- لا يهم، لكن شكراً يا ترافيس، أنت لطيف وأنا سعيدة أنك هنا.
- تجراً ومد ذراعاً مطمئنة حول كتفها.
- أتعرف يا ترافيس، واصلت جيني، تلقيت رسالة أمس من إيميلي كونينغهام، زميلتنا السابقة في المدرسة الثانوية. هي تعيش في نيويورك الآن. لقد وجدت وظيفة جيدة، وهي حامل بطفلها الأول. أفكر أحياناً أن الجميع رحل من هنا. الجميع، عدا أنا وأنت. صحيح... لماذا بقينا في أورورا، يا ترافيس؟
- لا أدري، الأمر يتوقف على...
- أنت مثلاً، لماذا بقيت هنا؟
- لأنني رغبت في أن أبقى بقرب شخص أحبه.
- من هي؟ هل أعرفها؟
- حسناً... أتعلمين يا جيني، كنت أريد أن... أريد أن أطلب منك... أقصد، إذا كنت... بشأن...
- شدّ على الورقة في جيبه وحاول أن يبقى متماسكاً: اقترح عليها أن ترافقها إلى حفل الصيف. لم يكن بالأمر الصعب. لكن في تلك اللحظة، فُتح باب المنزل على مصراعيه، فظهرت تمارا في ثياب النوم، وعلى رأسها بكرات للشعر.
- جيني حبيبتي؟ ماذا تفعلين في الخارج؟ سمعت أصواتاً...
أهذا أنت يا ترافيس العزيز؟ كيف حالك يا بني؟
- مساء الخير، سيدة كوين.
- جيني، لقد عدت في الوقت المناسب. تعالي لتساعديني، أريد أن أزيل هذه البكرات من رأسي، وأبوك، كعادته، لا يصلح لشيء.

نهضت جيني وودعت ترافيس بحركة من يدها، ثم اختفت داخل المنزل فيما بقي هو جالساً تحت السقيفة لوقت طويل.

عند منتصف الليل، في الليلة ذاتها، خرجت نولا من نافذة غرفتها وذهبت لتقابل هاري. كانت تريد أن تعرف لماذا لم يعد يرغب بها. لماذا لم يُجب على رسالتها؟ لماذا لم يكتب لها؟ استغرق منها الطريق إلى غوز كوف نصف ساعة من المشي. رأت ضوءاً في الشرفة: كان هاري جالساً إلى الطاولة الخشبية الكبيرة، ينظر إلى المحيط. انتفض حين نادته باسمه.

- يا إلهي! نولا! لقد أرعبتني!

- أهذا ما ألهمك به؟ الرعب؟

- أنت تعرفين أن هذا ليس صحيحاً... ماذا تفعلين هنا؟

راحت دموعها تنهمر على خديها.

- لا أدري... إني أحبك جداً. لم أشعر بذلك من قبل أبداً...

- هل هربت من منزلك؟

- نعم. أنا أحبك، يا هاري. أسمعني؟ أنا أحبك كما لم ولن

أحب أبداً بعد ذلك.

- لا تقولي ذلك يا نولا...

- لماذا؟

كان يشعر بانقباض في المعدة. أمامه، كانت الورقة التي يحاول إخفاءها هي الفصل الأول من روايته. كان قد استطاع أخيراً أن يبدأها. كان كتاباً عنها. كان يكتب لها كتاباً. كان يحبها لدرجة أنه كان يكتب لها كتاباً. لكن مع ذلك، لم يجرؤ على البوح لها بمشاعره، فكان مرعوباً مما قد يحدث إذا أحبّها.

- لا يمكنني أن أحبك، قال بلامبالاة مفتعلة.

تركت دموعها تنهمر على خديها.

- أنت تكذب! أنت حقير وكذاب! لماذا ذهبنا إلى روكلاند إذا؟
لماذا كل هذا؟

- كان خطأ، قال بلووم مقصود.

- لا! لا! اعتقدت أن ما بيننا شيء مميز! هل هذا بسبب جيني؟
أنت تحبها، أليس كذلك؟ ما الذي يعجبك فيها ولا تراه في؟
إلا أن هاري، غير القادر على قول شيء، رأى نولا تفر بسرعة
وتختفي في الظلام.



«كانت ليلة رهيبة، حكى لي هاري في قاعة الزيارات بسجن
الولاية. أنا ونولا، كان يربطنا شيء قوي. قوي جداً، أتفهمني؟ كان
جنوناً تاماً! حب كما لن نعرفه سوى مرة واحدة في الحياة! ما زلت
أراها تجري على الشاطئ في تلك الليلة، وأنا أفكر ماذا عليّ أن
أفعل: هل أركض وراءها؟ أو هل أظل مكاني؟ هل عليّ أن أجد
الشجاعة لأغادر هذه المدينة؟ قضيت الأيام التالية في بحيرة مونتيري،
فقط كي لا أبقى في غوز كوف، كي لا تجدني إذا جاءت إلى هناك.
أما كتابي الذي جئت إلى هذه المدينة من أجله وضحيّت بمدخراتي في
سبيله، فلم يكن يتقدم. أو أسوأ من ذلك. كنت قد كتبت الصفحات
الأولى، ثم أصبحت غير قادر على الكتابة من جديد. كان كتاباً عن
نولا، فكيف أكتب عنها من دونها؟ كيف أكتب قصة حب مألها الفشل؟
كنت أجلس لساعات طويلة أمام أوراقي، لأكتب بضع كلمات، سطور
قليلة جداً. وصلت إلى تلك الحالة البائسة التي تكره فيها كل ما له
علاقة بالكتب والكتابة، لأن كل شيء أفضل مما تكتبه، لدرجة أن حتى
قائمة الطعام في المطعم قد تبدو لك وكأنها كُتبت بموهبة كبيرة. كان
الوضع مأسوياً، يا ماركوس. كنت بائساً لأقصى الحدود، وبسببي

كانت نولا بائسة أيضاً. تفاديتها قدر الإمكان أسبوعاً كاملاً، عادت فيه عدة مرات إلى غوز كوف. كانت تأتي ليلاً، حاملة أزهاراً برية قطفتها من أجلي وتطرق الباب، متوسلة: «هاري حبيبي، أنا بحاجة إليك. دعني أدخل، أرجوك. دعني أتحدث إليك على الأقل». وأنا كنت أتجاهلها. كنت أسمعها تنهار على الباب وتدق وتدق وهي تنتحب، فيما كنت عند الجهة الأخرى من الباب، ساكناً بلا حراك. أنتظر. كانت تبقى على هذه الحال ساعة أو أكثر أحياناً. فأسمعها تضع الزهور أمام الباب وتغادر، فأسرع لأنظر من نافذة المطبخ وأراها تبتعد سائرة على الحصى في الممر الضيق. كنت أود لو أخلع قلبي من فرط حبي لها، لكن الفتاة التي كنت مولعاً بها كانت في الخامسة عشرة من العمر! كنت أفتح الباب بعد ذلك وأخذ الزهور وأضعها في مزهنية بغرفة المعيشة، إلى جانب الزهور الأخرى التي أحضرتها، وأظل أتأمل تلك الزهور لساعات وساعات. كم كنت حزيناً ووحيداً. ثم، يوم الأحد 13 يوليو 1975، حصل ذلك الحدث الرهيب».

*

الأحد 13 يوليو 1975

تجمع حشد غفير أمام المنزل رقم 245 في تراس أفينو، إذ كان الخبر قد انتشر في المدينة بأكملها. كان قد انطلق من رئيس الشرطة برات، أو من زوجته إيمي بالأحرى، بعد أن تم استدعاء زوجها لإغاثة عاجلة عند منزل آل كيلرغان. أخبرت إيمي برات جارتها التي اتصلت بصديقة، اتصلت بدورها بأختها فركب أطفال هذه الأخيرة على دراجاتهم ودقوا على أبواب زملائهم ليخبروهم: لقد حدث شيء خطير! كانت هناك سيارتا شرطة وسيارة إسعاف أمام منزل آل كيلرغان؛ وكان الضابط ترافيس داون يحاول احتواء المتطفلين على الرصيف، في حين انبعث من المرآب موسيقى صاخبة تصم الآذان.

كان إرني بينكاس هو من أخبر هاري بالأمر في حوالي العاشرة صباحاً. دق على باب منزله بالبحاح، وأدرك أنه أيقظه من النوم حين رآه بلباس النوم وشعره أشعث.

- جئت لأخبرك لاعتقادي أن أحداً لم يفعل.

- تخبرني بماذا؟

- نولا.

- ما بها؟

- لقد حاولت الانتحار.

يوم الحفل في الحديقة

«هاري... هل هناك من ترتيب محدد لكل ما تخبرني به؟

- نعم، بكل تأكيد...

- ما هو؟

- اممم، لم أعد متأكداً... قد لا يكون هناك ترتيب في

الحقيقة.

- هاري، الأمر مهم! لن أنجح إذا لم تساعدني!

- حسنٌ، لا يهم ترتيبي. فترتيبك هو المهم في النهاية. إلى أي

درس وصلنا الآن؟ 19؟

- بل 20.

- إذاً، الدرس رقم 20: النصر بداخلك، يا ماركوس. كل ما

عليك فعله هو أن تفسح له المجال ليخرج».

- اتصل بي روي بارناسكي صباح يوم السبت 28 يونيو .
- عزيزي غولدمان، قال لي، أتعرف أي تاريخ سيوافق يوم الاثنين المقبل؟
- 30 يونيو .
- 30 يونيو . صحيح! من المدهش كم يمر الوقت بسرعة! وماذا سيحدث يا ترى يوم 30 يونيو؟
- إنه العيد الوطني للنيازك، أجبته . لقد قرأت مقالاً عن الموضوع للتو .
- بل 30 يونيو هو يوم انتهاء مهلتك، يا سيد غولدمان! وإليك ما سيحدث في هذا اليوم؛ لقد تحدثت مع دوغلاس كلارين للتو، وكيلك الأدبي، وهو غاضب جداً، يقول إنه لم يعد يتصل بك لأنك خرجت عن السيطرة. «غولدمان حصان مجنون»، هذا ما قاله لي . نحاول جميعاً أن نمد لك يد العون وأن نصل معاً إلى اتفاق ما، إلا أنك تفضل الركض الأرعن والاصطدام بالحائط!
- يد العون؟! بل تريدني أن أخترع قصة إباحية عن نولا كيلرغان .
- كالعادة، عبارات ماركوس الرنانة! كل ما أرغب فيه هو تسلية الجمهور . فالقراء باتوا يشترون الكتب أقل فأقل، إلا حين توفر لهم قصصاً مريعة تذكّرهم بنزعاتهم الشائنة .

- لن أكتب كتاباً يليق بحاوية القمامة لمجرد أن أحافظ على مسيرتي الأدبية.

- كما تشاء. هذا ما سيحدث إذاً يوم 30 يونيو: ستأتي ماريزا، سكرتيرتي التي تعرفها جيداً، إلى مكثبي من أجل موعد العاشرة والنصف صباحاً. فكل يوم اثنين، عند العاشرة والنصف صباحاً، نحن نستعرض تواريخ الاستحقاق للأسبوع. ستقول لي: «لقد انتهت مهلة ماركوس غولدمان اليوم، ولم نستلم منه أي مخطوط». فسأومئ برأسي على نحو جاد، وسأؤجل مهمتي الصعبة إلى آخر النهار، ثم عند الساعة الخامسة والنصف مساءً، سأتصل بريتشاردسون، رئيس القسم القانوني، لأطلعه على الموقف. سأطلب منه اتخاذ الإجراءات القانونية اللازمة على الفور، لعدم احترام بنود العقد المبرم بيننا، وسنطالب بتعويض عن الأضرار الناجمة عن ذلك، والتي تصل قيمتها عشرة ملايين دولار.

- عشرة ملايين دولار؟ أنت سخيف، يا بارناسكي.

- أنت محقّ. سنطالب بخمسة عشر مليون دولار.

- أنت حقير، يا بارناسكي.

- أنت مخطئ هنا، يا غولدمان، فالحقير هو أنت! أنت تريد أن تلعب في ميدان الكبار، لكنك لا تريد أن تحترم القواعد، والأمور لا تسير على هذا النحو أبداً. وأريدك أن تعلم أنني سأدفع جزءاً من المال الذي سأجنيه من القضية لكاتب شاب طموح ليحكّي قصة ماركوس غولدمان، قصة شخص واعد لكن مشاعره جياشة، خرّب مسيرته الأدبية ومستقبله. وسيأتي ليُجري معك مقابلة في كوخك الحقير في فلوريدا حيث ستقضي بقية عمرك تشرب الويسكي من العاشرة صباحاً كي لا تجتر ذكريات الماضي. إلى اللقاء، يا غولدمان. موعدنا أمام القاضي.

أغلق الخط.

بعد هذا الاتصال البتء بقليل ، ذهبت إلى مطعم كلاركس لأتناول الغداء ، فصادفت عائلة كوين في نسختها الحديثة ؛ نسخة 2008 . كانت تمارا عند المنضدة ، توبخ ابنتها لأنها لم تفعل هذا الشيء على هذا النحو ، أو ذلك الشيء على ذلك النحو . أما روبرت ، فكان مختبئاً في ركن من الصالة ، جالساً إلى طاولة صغيرة يأكل بيضاً مخفوقاً ويقرأ نشرة كونكورد هيرالد الرياضية . جلسْتُ إلى جانب تمارا ، وفتحت جريدة مدعياً أنني أقرأها ، لأنصت إلى ما كانت تقوله ، وهي تشكو من أن المطبخ غير نظيف ، وأن الخدمة لم تكن سريعة بما يكفي ، وأن القهوة باردة ، وأن زجاجات شراب القيقب لزجة ، وأن السكريات فارغة ، وأن الطاومات ملطخة بآثار الدهون ، وأن الجو حار جداً في الداخل ، وأن خبزها لم يكن لذيذاً ، وأنها ما كانت لتدفع سنتاً واحداً مقابل طبقها ، وأن دولارين ثمناً للقهوة يُعد سرقة ، وأنها ما كانت لتتنازل لها عن هذا المطعم أبداً لو كانت تعلم أنها ستحوطه إلى مطعم من الدرجة الثانية ، هي التي كانت لديها طموحات كبيرة لهذه المؤسسة ، التي كان يقصدها الناس من جميع أرجاء الولاية في عهدها هي ، ليأكلوا الهامبرغر الذي يقال إنه الألد في المنطقة على الإطلاق . وحين لاحظت تمارا أنني كنت أستمع إلى حديثها ، نظرت إليّ باحتقار وسألتنني :

- أنت ، أيها الشاب هناك ، لماذا تسترق السمع هكذا؟

رسمت على وجهي اندهاشاً ملائكياً ، واستدرت نحوها .

- أنا؟ أنا لا أنصت إليك يا سيدتي .

- بل تفعل ، بدليل أنك تجيبني ! من أين أنت؟

- من نيويورك ، يا سيدتي .

هدأت فوراً ، وكأن كلمة «نيويورك» لها مفعول السحر عليها ،

وسألتنني بصوت معسول :

- وماذا جاء يفعل شاب وسيم من نيويورك في أورورا؟

- إني أولف كتاباً.

عبست للحظة، ثم راحت تصرخ:

- كتاب؟ أنت كاتب؟ إني أكره الكُتّاب! إنهم جنس كسول، واستغلالي، وكذاب. كيف تكسب قوتك؟ من إعانات الدولة؟ ابنتي هي مَنْ تدير هذا المطعم، وأنا أحذرك، فهي لن تتركك تطلب على الحساب! فإن كنت لا تنوي الدفع، فاخرج من هنا فوراً قبل أن أتصل بالشرطة. فرئيس الشرطة هو زوج ابنتي.

بدا الأسف على جيني، الواقفة خلف المنضدة.

- أمي، إنه ماركوس غولدمان، إنه كاتب معروف.

اخذت الأم كوين بقهوتها:

- يا إلهي! أهو أنت، ذلك الوغد الصغير الذي كان يدور في فلك كبير؟

- نعم، يا سيدتي.

- لقد كبرت... حتى أنك أصبحت لا بأس بك. أتريد أن تعرف

رأيي في صديقك كبير؟

- لا، شكراً، يا سيدتي.

- بل سأقول لك: إنه ابن عاهرة، يستحق أن ينتهي به الحال على

الكرسي الكهربائي!

- أمي! احتجت جيني.

- إنها الحقيقة!

- أمي، توقف!

- اخرسي، يا جيني! أنا من يتكلم. سجّل عندك، أيها الكاتب

التعيس. إذا كانت لديك ذرة أمانة، فلتكتب الحقيقة عن هاري كبير:

إنه أخطّ الرجال، منحرف، حقير، وقاتل؛ لقد قتل نولا الصغيرة،

والأم كوبر، وقتل صغيرتي جيني على نحوٍ ما.

فرّت جيني إلى المطبخ، وأعتقد أنها كانت تبكي. وحكت لي

تمارا كوين، وهي جالسة على كرسيها أمام المنضدة، منتصبّة الظهر، وعيناها تلمعان من الغضب، وإصبعها يلوح في الهواء أمامها، عن سبب غضبها وكيف لظّخ هاري كبير اسم عائلتها. وقع الحدث الذي شاركتني إياه يوم الأحد 13 يوليو 1975، يوم كان من المفترض أن يكون ذكرى خالدة لعائلة كوين التي نظمت يومذاك حفلاً على العشب النضر لحديقتهما، وذلك عند الساعة الثانية عشرة ظهراً، كما جاء على بطاقات الدعوة التي أرسلت إلى عدد محدود جداً من الضيوف.

*

13 يوليو 1975

كان حدثاً مهماً، وأرادته تمارا كوين مبهرًا: خيمة منصوبة في الحديقة، أوّانٍ من الفضة ومفارش بيضاء على الطاولة، غداء مقدّم على شكل بوفيه، أعدّه متعهد في كونكورد، ومكوّن مما لذ وطاب من الكركند، وفواكه البحر المتنوعة، والسلطات. كما كان من المقرر أن يأتي نادل ذو خبرة لتقديم المشروبات الباردة والنبذ الإيطالي. كان لا بد أن يكون كل شيء رائعاً. كان هذا الغداء بمنزلة حدث اجتماعي راقٍ ذي أهمية قصوى: كانت جيني ستقدم صديقها الجديد رسمياً لعدد من الشخصيات المرموقة من مجتمع أورورا.

كانت الساعة الثانية عشرة إلّا عشر دقائق: تأملت تمارا ترتيبات الحديقة بفخر: كان كل شيء جاهزاً ومعداً بدقة. ستنتظر اللحظة الأخيرة لتقدم الطعام، كي لا يفسد بسبب الحرارة. آه، تخيلت المدعوين وهم يستمتعون بفواكه البحر، والقريدس، وذيل الكركند، ويستمعون إلى حديث هاري كبير الأسر، وتتأبط ذراعه ابنتها جيني الرائعة. كانت ترتجف من الفرح وهي تتصور المشهد المهيّب. تأملت ترتيباتها مجدداً، ثم راجعت للمرة الأخيرة خارطة طاولة الطعام التي دوّنتها على ورقة صغيرة وحاولت أن تحفظها عن ظهر قلب. كان كل

شيء ممتازاً، ولم يتبق إلا وصول المدعوين.

كانت تمارا قد دعت أربعاً من صديقاتها وأزواجهن. فكانت قد فكرت طويلاً في عدد المدعوين، إذ كان هذا اختياراً صعباً: فدعوة عدد قليل جداً من الأشخاص سيعطي انطباعاً أن الحفل فاشل، ودعوة عدد كبير سيجعله يشبه السوق الخيرية. فقررت في الأخير أن تنتقي من النساء أولئك اللواتي يغذّين المدينة بالشائعات، واللواتي سيعرف الجميع بفضلهن أن تمارا كوين قد تقيم حفلات راقية تنتقي فيها ضيوفها بعناية، منذ أن ارتبطت ابنتها بنجم الساحة الأدبية الأمريكية. فدعت إيمي برات لأنها كانت منظمّة حفل الصيف الراقص، وبيل كارلتون التي اعتبرت نفسها ملكة الذوق الرفيع لأن زوجها يبدل سيارته كل سنة، وسيندي ترستن التي كانت تترأس عدداً من النوادي النسائية، ودونا ميتشل، وهي سيدة ثرثرة تقضي وقتها في التباهي بنجاح أبنائها. كانت تمارا ستثير إعجابهن جميعاً. وفور تلقيهن الدعوات، اتصلن جميعهن بها ليسألن عن مناسبة هذا الاحتفال، إلا أنها أطالت فترة الإثارة باستمرارها في المراوغة: «سأعلن عن خبر سارا!». كانت لا تطيق صبراً لترى وجوههن حين يرين صغيرتها الجميلة جيني والكاتب الكبير هاري كبير معاً، لبقية الحياة. وبذلك، كانت عائلة كوين ستصبح موضوع كل أحاديث المدينة وحسدها.

لانشغالها بتحضير حفل الغداء، كانت تمارا إحدى نساء أورورا القليلات اللواتي لم يكن واقفات أمام منزل آل كيلرغان لحظتها. كانت قد علمت بالخبر في الصباح مثلها مثل الجميع، وشعرت بالقلق بشأن حفلها في الحديقة: لقد حاولت نولا الانتحار. لكن بفضل الرب، لم تنجح الصغيرة في محاولتها، فشعرت تمارا بنفسها محظوظة مرتين؛ مرة لأنها لو ماتت نولا، لاضطرت إلى إلغاء الحفل، إذ ليس من اللائق إقامة احتفال في ظروف كهذه. ومرة أخرى لأن الحفل كان يوم أحد وليس يوم سبت، فلو كانت نولا قد حاولت الانتحار يوم سبت،

لاضطرت تمارا أن تجد مَنْ يحل مكانها في كلاركس، ولكن ذلك
أمراً معقداً. فخيراً فعلت نولا الطيبة باختيار يوم الأحد لفعلتها
وبإخفاقها فيها.

بعد أن اطمأنت على الخارج، توجهت تمارا للتحقق من سير
الأمر داخل المنزل، حيث وجدت جيني في الموقع المحدد لها عند
المدخل، مستعدة لاستقبال المدعويين، فيما تعيّن توبيخ بوبو المسكين
الذي ارتدى قميصاً وربطة عنق لكنه لم يرتدِ بنطاله، إذ كان يُسمح له أن
يقرأ جريدته في غرفة المعيشة يوم الأحد مرتدياً فقط ملابسه الداخلية.
- ألم تنته عادة السير عارياً؟ وبّخته زوجته. هل ستجول في

المنزل هكذا بعد أن يصبح هاري كبير صهرنا؟
- أتعرفين، لا أعتقد أنه كما نظنه. ففي الحقيقة، إنه شاب
بسيط، يحب محركات السيارات والبيرة الباردة، ولا أعتقد أنه
سيتضايق من رؤيتي بملابس يوم الأحد، سأسأله عن هذا الأمر...

- لن تسأل عن أي شيء على الإطلاق! يجب ألا تنطق بأي من
تلك التفاهات أثناء الحفل! ببساطة، لا أريد أن أسمع صوتك. آه، يا
بوبو، لو كان بإمكانني ربط شفتيك لفعلت، كي لا تستطيع الكلام بعد
ذلك؛ فكل مرة تفتح فيها فمك، تنطق بالحماقات. من الآن فصاعداً،
سترتدي قميصاً وبنطالاً أيام الأحد. نقطة على السطر. لا أريد أن
أراك تتجول في المنزل بملابسك الداخلية بعد الآن، فنحن الآن أناس
مهمون.

وبينما هي تتحدث، لاحظت أن زوجها كتب بعض السطور على
بطاقة أمامه، فوق الطاولة الصغيرة.

- ما هذا؟ صرخت فيه.

- إنه شيء ما.

- أرني!

- لا، رفض بوبو وهو يمسك بالبطاقة.

- بوبو، أرني!
- إنها رسالة شخصية.
- أوه! السيد بوبو يكتب رسائل شخصية الآن! أرني، قلت لك!
- فأنا من يقرر في هذا المنزل، أليس كذلك؟
- انتزعت من بين يديه البطاقة التي حاول إخفاءها تحت الجريدة.
- كانت صورة كلب صغير، فقرأت النص بصوت ساخر:

العزيزة نولا،

نتمنى لك الشفاء العاجل كما نتمنى أن نراك في
كلاركس قريباً.

نرسل لك هذه السكاكر لنضفي الحلاوة على
حياتك.

أمنياتنا الطيبة،

عائلة كوين

- ما هذه التفاهة؟ صرخت تمارا.
- إنها بطاقة لنولا. سأشتري السكاكر وأرسلها لها مع البطاقة.
- سيسعدها ذلك، ألا تعتقدين؟
- أنت سخييف يا بوبو! وهذه البطاقة مع هذا الكلب الصغير
- سخييفة وهذا النص الذي كتبته سخييف كذلك! نتمنى أن نراك في
- كلاركس قريباً؟! لقد حاولت أن تنتحر: أعتقد حقاً أنها تريد أن تعود
- لتقدم القهوة؟ والسكاكر؟ ترسل لها السكاكر؟ ماذا تريدها أن تفعل
- بالسكاكر؟
- ستأكلها، أعتقد أن هذا سيسعدها. أترين؟ أنت تفسدين كل
- شيء، لذلك لم أكن أرغب في أن أريك البطاقة.
- كف عن هذا النحيب، يا بوبو، قالت تمارا بانزعاج وهي تمزق

البطاقة إلى أربع قطع. سأرسل زهوراً، زهوراً راقية من محل أنيق في مونتيري، وليس سكاكرك التي ستشتريها من متجر عمومي. وسأكتب النص بنفسي، على بطاقة بيضاء: «أصدق أمنيأتنا بالشفاء، عائلة كوين وهاري كيدر». هيا، ارتدِ بنطالك فوراً، لن يتأخر المدعوون في المجيء.

قرعت دونا ميتشل وزوجها جرس الباب في الثانية عشر ظهراً بالضبط، فتلاهما إيمي برات والرئيس برات. أمرت تمارا النادل بتقديم مشروب الترحيب، الذي شربوه في الحديقة. حكى الرئيس برات كيف أنه استيقظ على رنين الهاتف صباحاً:

- حاولت كيلرغان الصغيرة أن تبتلع كمية كبيرة من العقاقير. أعتقد أنها ابتلعت كل ما وجدته، بما في ذلك أقراص منومة. لكن حالتها ليست خطيرة. لقد نُقلت إلى مستشفى مونتيري لإجراء عملية غسيل المعدة. الأب كيلرغان هو من وجدها ملقاة في الحمام. هو يؤكد أنها كانت مصابة بحمى وأنها تعاطت الأدوية الخطأ، وهذا ما كنت لأقوله أنا أيضاً... لكن على أية حال، المهم هو أن الصغيرة بخير.

- من حسن الحظ أن ذلك حدث في الصباح وليس ظهراً، وإلا لم تكن لتستطيع المجيء، قالت تمارا.

- تماماً، ماذا لديك لتخبرينا به؟ سألت دونا التي لم تعد تطيق صبراً.

ابتسمت تمارا ابتسامة عريضة وأجابت أنها تفضل أن تنتظر إلى أن يصل باقي المدعوين لتعلن المفاجأة أمام الجميع. وصل الزوجان تيرستن بعد ذلك بقليل، والزوجان كارلتون عند الثانية عشرة وعشرين دقيقة، مبررين تأخرهما بمشكلة في مقود سيارتهما الجديدة. كان الجميع قد وصل إذاً، الجميع عدا هاري كيدر. اقترحت تمارا أن يشربوا كأساً آخر من مشروب الترحيب.

- ماذا ننتظر؟ سألت دوناً .

- سترين، ردت تماراً .

ابتسمت جيني؛ سيكون يوماً رائعاً .

في الثانية عشرة وأربعين دقيقة، لم يكن هاري قد وصل بعد .
فقدموا كأساً ثالثاً من مشروب الترحيب، أعقبه كأس رابع في الثانية
عشرة وثمانٍ وخمسين دقيقة .

- مشروب ترحيب آخر؟ تذمرت إيمي برات .

- لأنكم جميعاً مرحب بكم جداً! قالت تماراً التي بدأت تقلق
حقاً لتأخر ضيفها النجم .

كانت الشمس قوية، فبدأت الرؤوس تدور بفعل الشراب
والحرارة . إنني جائع، قال بوبو أخيراً، ليتلقى صفة على مؤخرة عنقه .
ثم صارت الساعة الواحدة والربع ظهراً ولم يظهر هاري بعد . شعرت
تماراً بمعدتها تتشنج .

*

- انتظرنا طويلاً، أخبرتني تماراً ونحن جالسان عند منضدة
كلاركس، طويلاً جداً! كانت الحرارة مميتة، بحيث كان الجميع يتعرق
بغزارة . . .

- شعرت يومذاك بعطش لم أشعر به في حياتي! صرخ بوبي
محاولاً المشاركة في المحادثة .

- اخرس! فأنا من يتم استجوابها، على حد علمي! فالكُتّاب
الكبار من قبيل السيد غولدمان لا يهتمون بالحمير أمثالك .
ألقت بشوكة في اتجاهه ثم استدارت نحوي مجدداً، لتكمل
حديثها :

- باختصار، لقد انتظرنا حتى الساعة الواحدة والنصف ظهراً .

*

تمنت تمارا لو أن عطلاً ما قد وقع للسيارة أو حتى حادثاً. أي شيء، إلا أن يتغيب عن الدعوة! تذرعت بأنها تتابع ما يجري في المطبخ، فدخلت المنزل واتصلت به عدة مرات في منزل غوز كوف، إلا أن أحداً لم يجب. فأصغت إلى الأخبار على الراديو، إلا أنه لم يُذكر أي حادث في المنطقة، كما أنه لم يتوفَّ أي كاتب شهير في نيو هامبشير في ذلك اليوم. وسمعت صوت سيارة أمام المنزل مرتين، فقفز قلبها في كل مرة: إنه هو! ليتضح أنهم جيرانها الأغبياء.

لم يعد ضيوفها يحتملون الحرارة، فاتخذوا أماكن داخل الخيمة، وقاية من أشعة الشمس. خيم الملل على الحضور، في أجواء من الصمت الرتيب. «أتمنى أن يكون خبراً يستحق كل هذا»، قالت دوناً أخيراً. «إذا شربت كأساً آخر من هذا المشروب، فسأتقيأ»، أضافت إيمي. فطلبت تمارا أخيراً من النادل أن يضع الأطباق على طاولة البوفيه ودعت ضيوفها للمباشرة في تناول الغداء.

في الثانية بعد الظهر، كان الضيوف يتناولون وجبتهم، لكن لا أثر لهاري بعد. كانت جيني تشعر بانقباض في معدتها، فلم تأكل شيئاً، بل حاولت جاهدة أن تتمالك نفسها وألا تجهش بالبكاء أمام الجميع. أما تمارا، فكانت ترتجف من الغضب: ساعتاً تأخير، هو لن يأتي إذًا. كيف تجرّأ على أن يفعل بها ذلك؟ وأي نوع من رجال المجتمع يتصرفون على هذا النحو؟ علاوة على ذلك، راحت دوناً تسأل بالباح عن الخبر المهم الذي أرادت تمارا أن تشاركهم إياه. بقيت تمارا صامتة، فحاول المسكين بوبو إنقاذ الموقف وإنقاذ ماء وجه زوجته، فنهض وأمسك بكأسه ليشربوا نخب الخبر السعيد، وأعلن لضيوفه بفخر ووقار: «أصدقائي الأعزاء، نود أن نعلن لكم أننا اشترينا جهاز تلفزيون جديداً».

خيمت لحظة صمتٍ وعدم فهمٍ طويلة. لم تحتل تمارا أن تكون موضع سخرية، فنهضت بدورها وأعلنت: «إن روبرت مصاب

بالسرطان، وسيموت قريباً». فتعاطف جميع المدعوين، بما في ذلك روبرت نفسه الذي لم يكن يعلم أنه سيموت، وتساءل متى اتصل طبيبه بالمنزل، ولماذا لم تخبره زوجته بشيء، ثم انفجر بالبكاء لأنه سيفتقد الحياة: عائلته، ابنته، مدينته الصغيرة، سيفتقد كل ذلك. فراح الجميع يواسونه ويعدونه بأن يزوروه في المستشفى حتى آخر نفس، وأنهم لن ينسوه أبداً.

إذا كان هاري لم يحضر حفل تمارا كوين، فهذا لأنه كان إلى جانب نولا، فحالما أخبره بينكاس بحالتها، ذهب إلى مستشفى مونتبيري حيث نُقلت. ظل في سيارته في الموقف عدة ساعات، لا يعرف ماذا يفعل. شعر بالذنب: إذا أرادت أنت تموت، فكان هذا بسببه. وجعلته هذه الفكرة يرغب في الانتحار هو أيضاً. أطلق العنان لمشاعره، وأدرك مدى حبه لها، ولعن الحب. فحين كانت قريبة منه، كان يقنع نفسه بأنه لا يكرّ لها مشاعر عميقة، وأنه يستطيع أن يخرجها من حياته، لكن الآن وقد كاد يخسرها، لم يعد يتخيل العيش من دونها. نولا، نولا حبيبتي. ن. و. ل. ا. كان يحبها كثيراً.

كانت الساعة الخامسة عصراً حين تجرّأ أخيراً على دخول المستشفى. تمنى ألا يقابل أحداً، لكنه صادف في البهو الرئيسي الأب كيلرغان، وعيناه محمرتان من كثرة البكاء.

- أيها الكاهن... لقد علمت بأمر نولا. أنا آسف جداً.

- هذا لطف منك أن تأتي، يا هاري. ستسمع بالتأكيد بأن نولا حاولت الانتحار، إلا أنها كذبة بائسة. لقد أصيبت بصداع شديد وأخذت الدواء الخطأ، هذا كل ما في الأمر. إنها شاردة الذهن، مثل جميع الأطفال.

- بالتأكيد، يا سيدي. يا لقدارة الأدوية. في أي غرفة توجد نولا؟ أرغب في زيارتها.

- هذا لطف منك، لكن أتعلم، من الأفضل أن تتجنب الزيارات في الوقت الحالي، فهي بحاجة إلى الراحة.
- كان الأب كيلرغان يمسك بكتيب صغير يمكن أن يوقع عليه الزوار، فكتب فيه هاري: تمنياتي بالشفاء العاجل. هـ. ل. كبير، ثم تظاهر بأنه يغادر وتوقع داخل سيارته، حيث ظل منتظراً قرابة الساعة، وما إن رأى الأب كيلرغان يعبر موقف السيارات ليركب سيارته، حتى ترحل من السيارة متخفياً وعاد إلى المبنى الرئيسي للمستشفى وسأل عن رقم غرفة نولا. الغرفة 26 في الطابق الثاني. دق الباب وقلبه يخفق. لا جواب. فتح الباب بهدوء: كانت نولا وحدها، جالسة على طرف السرير. لمعت عيناها عند رؤيته، ثم نظرت إليه بحزن.
- دعني وشأني، يا هاري... اتركني وإلا استدعيت الممرضات.
- نولا... أنا لا أستطيع أن أتركك...
- لقد عاملتني بقسوة شديدة، يا هاري. أنا لا أريد أن أراك. رؤيتك تؤلمني. لقد أردتُ الموت بسببك.
- سامحيني، يا نولا...
- لن أسامحك إلا إذا أردتني في حياتك، وإلا، فلترحل وتتركني وحدي.
- نظرت في عينيه؛ بدا عليه الحزن والشعور بالذنب، فلم تستطع منع نفسها من الابتسام.
- أوه، هاري حبيبي، لا تنظر إليّ كالطفل التيس. عِدني أنك لن تعاملني بتلك القسوة ثانية أبداً؟
- أعدك.
- اعتذر مني عن كل تلك الأيام التي تركتني فيها أبكي أمام بابك دون أن تفتحه لي.
- أنا آسف، يا نولا، وأعتذر منك.

- اعتذر بطريقة أفضل. اجثُ على ركبتك، على ركبتك، يا هاري، واطلب مني السماح.
جثا على ركبتيه دون تفكير ووضع رأسه على ركبتيها العاريتين.
مدت يدها لتداعب وجهه.
- انهض، يا هاري، واحتضني، يا حبيبي. أنا أحبك، أحبك منذ اللحظة التي رأيتك فيها لأول مرة. كم أتمنى أن أكون زوجتك إلى الأبد.

بينما كان هاري ونولا يتصالحان في غرفة المستشفى، في أورورا، وبعد انتهاء الحفل بعدة ساعات، كانت جيني وحدها في غرفتها، تبكي من الخزي والألم. حاول روبرت أن يدخل ليواسيها، إلا أنها رفضت أن تفتح الباب. أما تمارا، فسيطر عليها غضب أسود، حتى أنها ذهبت إلى منزل هاري لتحصل على تفسير لما حدث، ولذا فاتها أن تقابل الزائر الذي قرع الجرس بعد مغادرتها بدقائق. كان روبرت هو من فتح الباب، فرأى ترافيس داون بعينين مغمضتين، مرتدياً زي المواكب، ويقدم له باقة من الزهور ويقول دفعة واحدة:
- جيني... هل ترغبين في مرافقتي إلى حفل الصيف الراقص؟
وشكراً.

ضحك روبرت.

- أهلاً ترافيس، أنت ترغب في الحديث إلى جيني ربما؟

فتح ترافيس عينيه وصرخ من الصدمة.

- سيد كوين؟ أنا... أنا آسف. أنا أحمق. كنت أرغب فقط...

هل تمانع أن أصطحب ابنتك إلى حفل الصيف الراقص؟ إذا قبلت هي بالطبع. فقد يكون لديها رفيق آخر... هي تواعد أحداً، أليس كذلك؟
كنت متأكداً من ذلك. كم أنا غبي!

ربت روبرت على كتف ترافيس.

- تعال يا بني، ادخل. لقد جئت في الوقت المناسب.
قاد الشرطي الشاب إلى المطبخ، وأخرج زجاجة بيرة من
الثلاجة.

- شكراً، قال ترافيس وهو يضع باقة الزهور على المنضدة.
- لا، هذه لي، قال روبرت. فأنت بحاجة إلى مشروب أقوى.
أخرج زجاجة ويسكي وصب كمية مضاعفة على مكعبات ثلج في
كأس طويل.

- اشرب هذا دفعة واحدة.
أطاعه ترافيس، فتابع روبرت:
- تبدو لي متوتراً جداً، يا بني. عليك أن تسترخي، فالفتيات لا
يحببن الفتيان المتوترين. صدقني، فأنا أعلم عن هذا الأمر الكثير.
- مع أنني لست خجولاً، لكن حين أرى جيني، أتمسر مكاني. لا
أعرف سبب ذلك...

- إنه الحب، يا بني.
- أعتقد ذلك؟
- بكل تأكيد.
- صحيح أن ابنتك رائعة، يا سيد كوين. إنها رقيقة وذكية وجميلة
جداً! لا أدري ما إذا كان من اللائق أن أخبرك بذلك، لكنني أحياناً
أمام كلاركس فقط لأراها من خلال الواجهة الزجاجية. أنظر إليها...
أنظر إليها وأشعر بقلبي ينفجر في صدري، وبنفسي تختنق في زِيي
الرسمي. أهو الحب أيضاً؟
- بكل تأكيد.

- وفي تلك اللحظة، أرغب في الترحل من سيارتي ودخول
كلاركس، لأحييها وأسألها ما إذا كانت ترغب في الذهاب إلى السينما
معي بعد انتهاء دوامي، لكنني لا أجروء أبداً! أهو الحب أيضاً؟
- لا، هذه حماقة. فهكذا تضيع منك الفتاة التي تحبها. لا ينبغي

أن تكون خجولاً يا بني، فأنت شاب وسيم وناجح وفيك كل الصفات الحسنة.

- ماذا عليّ أن أفعل إذاً، يا سيد كوين؟
صب له روبرت مزيداً من الويسكي.

- كنت أود أن أنادي جيني، لكنها قضت يوماً صعباً. إذا أردت نصيحتي، اشرب هذا وعد إلى منزلك، وبدّل الزي الرسمي هذا بقميص، واتصل بالمنزل هنا، واقترح على جيني اصطحابها إلى عشاء هامبرغر في مونتيري، فيوجد مطعم تحبه هناك، سأعطيك عنوانه. وأثناء السهرة، حين ترى الجو مناسباً، اعرض عليها نزهة ليلية. اجلسا على مقعد، وشاهدا النجوم، وأرهما الكواكب...

- الكواكب؟ قاطعه ترافيس، لكنني لا أعرف أيّاً منها!

- اكتفِ بالإشارة إلى كوكب الدب الأكبر.

- الدب الأكبر؟ لا أستطيع تمييزه! آه، يا إلهي، ماذا سأفعل؟

- أرها أي نقطة مضيئة في السماء واخترع اسماً لها إذاً. فالنساء يجدن الأمر رومانسياً حين يفهم الرجل في الفلك والأبراج. احرص فقط على ألا تخلط بين نجم سائر وطائرة في السماء. وبعدئذٍ، اطلب منها أن تكون رفيقتك في الحفل الراقص.

- أتظن أنها ستوافق؟

- أنا متأكد من ذلك.

- شكراً، يا سيد كوين، شكراً جزيلاً!

بعد أن أرسل ترافيس إلى منزله، عمل روبرت على إخراج جيني من غرفتها، فأكلا الآيس كريم في المطبخ.

- مع من سأذهب إلى الحفل الراقص الآن، يا أبي؟ سألت جيني بحزن. سأكون وحدي وسيسخر مني الجميع.

- لا تقولي حماقات كهذه. أنا متأكد أن شباناً كثيراً يتمنون مرافقتك.

ابتلعت جيني ملعقة آيس كريم كبيرة.
- أود أن أعرف من هم هؤلاء الشبان، ناحت جيني بملء فمها،
فأنا لا أعرف أيأ منهم!
رن الهاتف حينذاك، فترك روبرت ابنته تجيب وسمعها تقول: «آه،
أهلاً ترافيس»، «نعم؟»، «نعم، بكل سرور»، «بعد نصف ساعة مناسب
جداً. إلى اللقاء». أغلقت الخط وهرعت لتحكي لوالدها أن صديقها
ترافيس داون عرض عليها العشاء في مونتيري، فادعى روبرت الدهشة:
- أترين؟ قلت لك إنك لن تذهبي إلى الحفل الراقص بمفردك.

في اللحظة نفسها، في غوز كوف، كانت تمارا تتجسس في
المنزل الخالي من صاحبه. كانت قد طرقت الباب طويلاً ولم يجب
أحد: إذا كان هاري يختبئ، فستدخل وتواجهه. إلا أنه لم يكن هناك
أحد، فقررت أن تقوم بجولة استقصاء سريعة. بدأت بغرفة المعيشة،
ثم غرف النوم، وصولاً إلى مكتب هاري، حيث راحت تقلب الأوراق
المبعثرة على الطاولة، إلى أن وصلت إلى الورقة التي كتبها لتوه:

نولا، نولا حبيبتي، نولا حبي. ما الذي فعلته؟
لماذا رغبت في الموت؟ أهذا بسببي؟ أحبك، أحبك
أكثر من أي شيء في العالم. لا تتركيني. إذا مت،
فسأمت. كل ما يهم في حياتي هو أنت، يا نولا،
أنت. أربعة أحرف: ن. و. ل. ا.

أخذت تمارا الورقة، مذهولة، عاقدة العزم على تدمير هاري
كبير.

قضية هاري كبير

«إن الكُتَّاب الذين يقضون لياليهم يكتبون وهم يشربون القهوة ويدخنون السجائر الملفوفة، ما هم إلا خرافة، يا ماركوس. يجب أن تكون منضبطاً، تماماً كما في تدريبات الملاكمة. فهناك ساعات عمل يجب الالتزام بها، وتمارين يجب أن تُكرر: حافظ على وتيرتك، كن مثابراً، والتزم بنظام صارم في تسيير عملك؛ إنها المتاريس الثلاثة التي ستحميك من الدَّعدو للكُتَّاب.

- من هو هذا العدو؟

- موعد التسليم. أتعرف عماذا أتحدث؟

- لا.

- هذا يعني أن على عقلك، غير الملتزم بطبيعته، أن ينجز عملاً في فترة زمنية حددها شخصٌ آخر. تماماً كما لو كنت عامل توصيل، وأراد رئيسك أن تصل إلى مكان محدد في ساعة معينة: عليك أن تتصرف، ولا يهم ما إذا كانت حركة السير بطيئة أو كان هناك ثقب في إطار السيارة. لا يمكنك أن تتأخر، وإلا قُضي عليك. هذا ما يحدث بالصبط مع تواريخ التسليم التي يفرضها عليك ناشرك. فناشرك هو زوجتك ورئيسك في آن واحد: من دونه أنت لا تساوي شيئاً، لكنك لا تستطيع منع نفسك من أن تكرهه. احترم مواعيد التسليم، يا ماركوس، لكن إذا كنت قادراً على عدم احترامها، اعبث بها، فهذا أمتع بكثير!«.

كانت تمارا كوين هي من أخبرتني بسرقتها للورقة التي وجدتھا عند هاري. اعترفت لي بذلك في اليوم الذي تلا لقاءنا في كلاركس. كان حديثھا قد أثار فضولي، فذهبت إلى منزلھا لأسمع المزيد. استقبلتني في غرفة المعيشة، متحمسة لما أوليه لها من اهتمام. ذكرتُ شهادتها للشرطة قبل أسبوعين، وسألتها كيف عرفت بأمر العلاقة بين هاري ونولا، فحكّت لي عن زيارتها لغوز كوف يوم الأحد مساءً بعد الحفل في الحديقة.

- أثار ذلك النص الذي وجدته على مكتبه اشمئزازي! قالت لي. كلمات بغیضة عن نولا الصغيرة!
فهمت من الطريقة التي تحدثت بها أنها لم تخطر لها قط فرضية وجود علاقة بين هاري ونولا.

- ألم تفترضی أبداً أنهما قد يكونان مغرمين أحدها بالآخر؟
- مغرمين؟ لا تقل الحماقات! كبير شخص منحرف، غدا هذا معروفاً الآن. لكن لا يمكنني أن أتخيل للحظة أي استجابة من طرف نولا، والرب وحده يعلم ما فعله بها... المسكينة!

- ومع ذلك؟ ماذا فعلت بتلك الورقة؟

- أخذتها معي.

- لأي غاية؟

- لإيذاء كبير. أردت إرساله إلى السجن.

- وهل أخبرت أحداً عن هذه الورقة؟

- طبعاً!

- من؟

- الرئيس برات. في الأيام التي تلت عثوري عليها.

- الرئيس برات فقط؟

- تحدثت عنها على نطاق أوسع بعد اختفاء نولا، إذ كان هاري

خيطاً لا يمكن للشرطة تجاهله.

- إذأ، كما فهمتُ، لقد اكتشفتُ أن هاري كان يتعقب نولا ولم

تخبري أحداً بالأمر إلا بعد اختفاء الفتاة، أي بعد شهرين تقريباً.

- صحيح.

- سيدة كوين، اعذريني... لكن من معرفتي المتواضعة بك، لا

أفهم لماذا لم تستخدمي تلك الورقة عند عثورك عليها لإيذاء هاري،

بعد تصرفه المسيء لك ولعائلتك، بعدم حضور الحفل... فمع كل

احترامي لك، أنت من النوع الذي كان ليعلق تلك الورقة على جدران

المدينة، أو يوزعها على صناديق بريد الجيران.

خففت نظرها.

- ألم تفهم إذأ؟ شعرتُ بخجل رهيب! هاري كبير، الكاتب

الشهير الذي جاءنا من نيويورك، تخلى عن ابنتي من أجل فتاة في

الخامسة عشرة. ابنتي! هل تتخيل بماذا شعرت؟ شعرتُ بالذل

والإهانة! بعد أن نشرت خبر ارتباط جيني بهاري، تخيل وجوه الناس

إذا نشرت الخبر... كما أن جيني كانت مغرمة به، وكانت لتموت إذا

علمت بالأمر. فقررت الاحتفاظ بذلك لنفسي. ورغم ذلك، بدت

جيني حزينة جداً في حفل الصيف الراقص في الأسبوع الموالي، حتى

وإن أتت مع ترافيس.

- والرئيس برات؟ ماذا قال لك حين أخبرته بالورقة؟
- قال إنه سيبحث في الأمر. وذكرته له مجدداً حين اختفت نولا،
فقال إنه قد يكون خيطاً في التحقيق. لكن المشكلة هي أن الورقة
اختفت بعد ذلك.

- اختفت؟ كيف ذلك؟

- احتفظت بها في خزانة كلاركس، وكنت الوحيدة التي يمكنها
فتحها. ثم، في أوائل أغسطس 1975، اختفت تلك الورقة في ظروف
غامضة. لا ورقة، لا دليل ضد هاري.

- من الذي أخذها يا ترى؟

- ليست لدي أي فكرة! إنه لغز حقيقي! فهي خزانة كبيرة وأنا
الوحيدة التي أمتلك مفتاحها، توجد داخلها كل محاسبة كلاركس،
ورواتب الموظفين، وبعض العملة النقدية لزوم طلبات المطعم. وذات
صباح، اكتشفت أن الورقة لم تكون هناك. لم يكن هناك أثر لأي ضرر
في الخزانة، كما أن جميع المحتويات كانت موجودة، ما عدا تلك
الورقة اللعينة. لسيت لديّ أدنى فكرة عما حدث.

دوّنتُ كل ما قالته لي؛ كانت الأمور تزداد إثارة.

- للأمانة، يا سيدة كوين، حين علمت بمشاعر هاري تجاه نولا،
بماذا شعرت؟

- بالغضب، والاشمئزاز.

- ألم تحاولي الانتقام بإرسال رسائل مجهولة المصدر لهاري؟
- رسائل مجهولة المصدر؟ هل أبدو لك كشخص يقوم بحقارات
كهذه؟

لم أجب، بل واصلت أسئلتني:

- أعتقدين أن نولا كانت على علاقة برجال آخرين في أورورا؟
اختنقت بالشاي المثلج الذي كانت تشربه.

- أنت لا تعلم عماذا تتكلم! بل لا تعلم شيئاً! كانت نولا طفلة لطيفة، جميلة وخدمية، ذكية، وتقوم بعملها على أحسن وجه. من أي خيال أتيت بهذه القصص المشينة؟

- مجرد سؤال عابر. هل تعرفين شخصاً يدعى إlijah ستيرن؟
- طبعاً، أجابت بعفوية كأنه شيء بديهي، قبل أن تضيف: إنه المالك السابق، قبل هاري.
- مالك ماذا؟ سألتها.

- منزل غوز كوف طبعاً. فهو كان ملكاً لإlijah ستيرن من قبل، وكان يأتي إليه بانتظام. إنه منزل عائلته في الأساس، على ما أظن. كنا نصادفه كثيراً في أورورا في فترة ما، لكن حين استلم أعمال والده في كونكورد، لم يعد لديه الوقت ليأتي إلى هنا، فعرض غوز كوف للإيجار، قبل أن يبيعه لهاري في نهاية المطاف.
صُعِبَ عليّ تصديق الأمر.

- كان منزل غوز كوف ملكاً لإlijah ستيرن؟!

- نعم. ماذا أصابك، يا ابن نيويورك؟ تبدو شاحب الوجه...



في نيويورك، يوم الاثنين 30 يونيو 2008، عند العاشرة والنصف صباحاً، في الطابق الحادي والخمسين من برج شמיד وهانسون في شارع لكسينغتون، بدأ روي بارناسكي اجتماعه الأسبوعي مع ماريزا، سكرتيرته:

- اليوم هو الموعد النهائي ليرسل لك ماركوس غولدمان كتابه، ذكركه ماريزا.

- هو لم يرسل لك شيئاً، على ما أظن...

- لا شيء، يا سيد بارناسكي.

- هذا ما اعتقدته. لقد تحدثت إليه يوم السبت، إنه عنيد جداً. يا للأسف.

- ماذا يتعين عليّ أن أفعل، يا سيدي؟
- أخبري ريتشاردسون عن الأمر. أخبريه أننا نريد أن نلاحقه قضائياً.

في تلك اللحظة، دخلت مساعدة ماريزا، مقاطعة الاجتماع بطرقها الباب. كانت تمسك بورقة بين يديها.

- أعلم أنك في اجتماع، يا سيد بارناسكي، قالت معذرة، لكنك تلقيت رسالة إلكترونية وأعتقد أنها مهمة جداً.

- ممن؟ سأل بارناسكي بانزعاج.

- من ماركوس غولدمان.

- غولدمان؟ أعطيني إياها فوراً!

من: m.goldman@nobooks.com

التاريخ: الاثنين 30 يونيو 2008 - 10:24

عزيري روي،

إنه ليس كتاباً سوقياً يستغل حالة الهيجان العام
كي يجد من يقرأه.

إنه ليس كتاباً ليلبي طلباتك.

إنه ليس كتاباً لينقذني.

بل إنه كتاب لأنني كاتب.

إنه كتاب يحكي شيئاً.

إنه كتاب عن تاريخ شخص أدين له بكل شيء.

ستجد بالمرفق الصفحات الأولى.

إذا أحببتها، اتصل بي.

وإذا لم تحبها، اتصل بريتشاردسون مباشرة وموعدا
في المحكمة.
تمنيتي باجتماع موفق مع ماريزا، أوصل إليها تحياتي.
ماركوس غولدمان

- هل طبعت الملف المرفق؟
- لا، يا سيد بارناسكي.
- اذهبي واطبعيه فوراً!
- حاضر، يا سيد بارناسكي.

قضية هاري كيبر (عنوان مؤقت) تأليف: ماركوس غولدمان

في ربيع عام 2008، أي حوالي عام بعد أن أصبحت
النجم الجديد للأدب الأمريكي، وقع حدثٌ قررت أن أدفنه
عميقاً في ذاكرتي: اكتشفت أن أستاذي الجامعي، هاري
كيبر، البالغ من العمر سبعة وستين عاماً، وأحد أكثر
الكُتّاب شهرة في البلاد، كان على علاقة مع فتاة في
الخامسة عشرة من عمرها حين كان هو في الرابعة
والثلاثين. حدث ذلك في صيف 1975.

اكتشفت ذلك في أحد أيام شهر مارس، حين أقمت في
منزله بأورورا، في ولاية نيو هامبشير. وأنا أقلب في
مكتبته، عثرت على رسالة وبعض الصور. لم يخطر لي
حينذاك أنني كنت أعيش مقدمة ما سيصبح إحدى أكبر
فضائح عام 2008.

سمعتُ لأول مرة باسم إليجاه ستيرن من صديقة قديمة لنولا كانت زميلتها في الفصل، تدعى نانسي هاتاواي، والتي ما زالت تعيش في أورورا. كانت نولا قد أخبرتها حينذاك أنها على علاقة برجل أعمال يعيش في كونكورد اسمه إليجاه ستيرن، وكان هذا الأخير يرسل سائقه المدعو لوثر كاليب ليقْلها إلى منزله.

ليست لدي أي معلومات عن لوثر كاليب. أما عن ستيرن، فالرقيب غاهالوود يرفض استجوابه حالياً. هو يعتبر أن لا شيء يبرر إقحام اسمه في التحقيق في هذه المرحلة. لذلك سأنهض لأزوره بنفسه. علمت من الإنترنت أنه درس في جامعة هارفارد وأنه منخرط في جمعيات قدامى الطلاب، كما أنه مهتم بالفن وأنه أحد رعااته المعترف بهم. باختصار، هو يبدو رجلاً صالحاً على جميع الصعد. لكن تجدر الإشارة إلى مصادفة غريبة: منزل غوز كوف، حيث يعيش هاري، كان ملكاً لإليجاه ستيرن قبل ذلك.

كانت هذه الفقرات الأولى التي كتبتها عن إليجاه ستيرن. كنت قد أنهيتها لتوي حين ضمنتها إلى بقية الوثيقة المرسلة إلى روي بارناسكي صباح يوم الاثنين 30 يونيو 2008. توجهت بعد ذلك مباشرة إلى كونكورد، عازماً على لقاء إليجاه ستيرن هذا وفهم ما يربطه بنولا. وكان قد مرّ نصف ساعة وأنا في طريقي إليه، حين رن هاتفي.

- ألو؟

- ماركوس؟ أنا روي بارناسكي.

- روي! هل وصلتك رسالتي الإلكترونية؟

- كتابك رائع يا غولدمان! سأشره!

- حقاً؟

- بكل تأكيد! لقد أحببته! أحببته كثيراً! فهو مشوق بحيث نرغب في معرفة النهاية منذ الصفحات الأولى.

- أنا أيضاً متشوق لمعرفة نهاية هذه القصة.

- اسمع يا غولدمان، أُلّف هذا الكتاب وسنلغي العقد السابق.

- سأنجز هذا الكتاب، لكن على طريقتي. لا أريد أن أسمع أي من مقترحاتك الرديئة. لا أريد أفكارك ولن أقبل بأي رقابة.

- افعل ما يحلو لك، يا غولدمان. ليس لديّ سوى شرط واحد:

أن يصدر هذا الكتاب في الخريف. فمنذ أن أصبح أوباما مرشح الحزب الديمقراطي وكتابه يباعان كالخبز! يجب أن نصدر كتاباً عن هذه القضية سريعاً، قبل أن يغمرنا جنون الانتخابات الرئاسية. أحتاج إلى المخطوطة في نهاية أغسطس.

- نهاية أغسطس؟ هذا يمنحني بالكاد شهرين.

- تماماً.

- إنه وقت قصير جداً.

- تدبّر الأمر! سأجعل منك نجم الخريف المقبل. هل كبير على

علم بذلك؟

- لا. ليس بعد.

- أخبره، نصيحة من صديق. وأبلغني بالتطورات.

كنت أستعد لإغلاق الخط حين سألني:

- غولدمان، انتظر!

- ماذا؟

- ما الذي جعلك تغيّر رأيك؟

- تلقيت تهديدات. عدة مرات. يبدو أن هناك مَنْ يشعر بالقلق

مما قد أكتشفه. فقلت لنفسي قد تستحق الحقيقة كتاباً. من أجل

هاري، من أجل نولا. إنه جزء من مهنة الكاتب، أليس كذلك؟

لم يكن بارناسكي يصغي إليّ، إذ ظل عالقاً عند مسألة التهديدات.

- تهديدات؟ رائع! سيروج ذلك للكتاب على نحو جنوني! تخيل أن تتعرض لمحاولة اغتيال. سيمكنك إضافة صفر إلى عدد النسخ المباعة. وضعفها إذا مت!

- بشرط أن أموت بعد أن أنهي الكتاب.
- هذا أمر بديهي. أين أنت؟ الإرسال ضعيف.
- أنا على الطريق السريع، ذاهب إلى إليجاه ستيرن.
- إذاً أنت تعتقد حقاً أنه متورط في هذه القضية؟
- هذا ما أعتزم معرفته.
- أنت مجنون، يا غولدمان، وهذا ما أحبه فيك.

كان إليجاه ستيرن يسكن في قصر في مرتفعات كونكورد. كانت البوابة الخارجية مفتوحة، فدخلتُ بسيارتي. كان طريق مرصوف يؤدي إلى منزل من حجر، محاطاً بشتلات زهور رائعة، أمامه ساحة يتوسطها تمثال من البرونز على شكل أسد، حيث وقف سائق بزيّ رسمي يلّمع مقعد سيارة فارغة.

تركت سيارتي وسط الساحة وألقيت التحية على السائق من بعيد كما لو أنني أعرفه، وتوجهت بخطى واثقة إلى الباب الرئيسي وقرعت الجرس. فتحت لي مدبرة منزل، فأعطيتها اسمي وطلبت مقابلة السيد ستيرن.

- هل لديك موعد؟

- لا.

- لن يكون هذا ممكناً إذاً. السيد ستيرن لا يستقبل الضيوف من دون موعد مسبق. كيف وصلت إلى هنا؟

- كانت البوابة مفتوحة. كيف نأخذ موعداً من سيدك؟

- السيد ستيرن هو من يحدد المواعيد.

- دعيني أراه بضع دقائق، فلن أطيل الزيارة.

- هذا غير ممكن.

- أخبريه أنني جئت من طرف نولا كيلرغان. أعتقد أن هذا الاسم سيعني له شيئاً.

تركتني الموظفة أنتظر في الخارج، ثم عادت إليّ سريعاً. «سيستقبلك السيد ستيرن. لا بد أنك شخص مهم جداً». قادتنني عبر الطابق الأرضي إلى مكتب يغطي جدرانه الخشب والسجاد، حيث جلس على مقعد عريض رجل شديد الأناقة تفحصني بنظرة حادة. كان هذا إليجاه ستيرن.

- اسمي ماركوس غولدمان، قلت له. شكراً على استقبالي.

- غولدمان، الكاتب؟

- نعم.

- وما سبب هذه الزيارة المرتجلة؟

- إنني أحقق في قضية كيلرغان.

- لم أكن أعلم أن هناك قضية بهذا الاسم.

- فلنقل إن هناك ألغازاً غير محلولة.

- أليس هذا عمل الشرطة؟

- أنا صديق لهاري كير.

- وما شأني بذلك؟

- عرفتُ أنك سكنتَ في أورورا، وأنت كنت المالك السابق

لمنزل غوز كوف حيث يعيش هاري الآن. أردت أن أتأكد من صحة هذه المعلومة.

أشار إليّ بالجلوس.

- معلوماتك صحيحة، قال لي. لقد بعته المنزل عام 1976، بعد

النجاح الذي حققه.

- أنت تعرف هاري كبير إذا؟
- قليلاً جداً. لقد قابلته بضع مرات آنذاك، ولم نبقَ على تواصل بعد ذلك.

- هل يمكن أن أسألك عن علاقتك بأورورا؟
رمقني بنظرة قاسية.

- هل هذا استجواب، يا سيد غولدمان؟
- إطلافاً. تملّكني الفضول لأعرف لماذا شخص مثلك كان يمتلك منزلاً في مدينة صغيرة مثل أورورا. هذا كل شيء.
- شخص مثلي؟ تقصد ثرياً جداً؟

- نعم، فمقارنة بمدن أخرى على الساحل، أورورا بلدة رتيبة.
- أبي هو الذي بنى هذا المنزل. كان يريد مكاناً على شاطئ المحيط، وقريباً من كونكورد. ثم إن أورورا مدينة لطيفة، تقع بين بوسطن وكونكورد. لقد قضيت فيها مواسم صيف جميلة حين كنت طفلاً.

- ولماذا باعت المنزل؟

- حين توفي والدي، ورثت تركة ضخمة، فلم يعد لديّ الوقت لأذهب إلى غوز كوف، فقررت أن أؤجره، لما يقارب العشر سنوات. لكن غداً من الصعب العثور على مستأجرين، فبقي المنزل فارغاً لفترات طويلة. فحين عرض عليّ هاري شراءه، وافقت على الفور. وقد بعته له بمبلغ مناسب جداً بالمناسبة، فأنا لم أبعه لأربح المال، بل كنت سعيداً أن أرى المنزل مليئاً بالحياة. وبشكل عام، لطالما أحببت أورورا. فحين كنت أذهب إلى بوسطن لإدارة بعض الأعمال، كنت غالباً ما أتوقف فيها، وقد موّلت طويلاً حفلات الصيف الراقصة. كما أن مطعم كلاركس يقدم ألد هامبرغر في المنطقة، أو كان يفعل في ذلك الوقت على الأقل.

- ونولا كيلرغان؟ هل كنت تعرفها؟

- بالكاد. لنقل إن الجميع سمع عنها عند اختفائها. كانت قصة فظيعة، وها قد عُثر على جثتها في غوز كوف... وهذا الكتاب الذي كتبه كبير من أجلها... أمر شنيع فعلاً. هل أشعر بالندم على بيعه غوز كوف؟ طبعاً. ولكن كيف كان باستطاعتي حينذاك أن أعرف؟

- لكن فعلياً، حين اختفت نولا، كنت أنت مالك المنزل...
- ما الذي تلمح إليه؟ أنني قد أكون متورطاً في موت نولا؟
أتعرف، منذ عشرة أيام وأنا أسأل نفسي ما إذا كان هاري كبير قد اشترى مني ذلك المنزل فقط ليتأكد أن أحداً لن يكتشف الجثة المدفونة في الحديقة.

قال ستيرن إنه كان بالكاد يعرف نولا. هل عليّ أن أكشف له أن لديّ شاهداً أكّد أن علاقة كانت تجمع بينهما؟ قررت أن أحتفظ بهذه الورقة في جيبِي حالياً، إلا أنني قصدت أن أذكر اسم كاليب لكي أؤخّزه قليلاً.

- ولوثر كاليب؟ سألته
- ماذا، لوثر كاليب؟
- هل تعرف شخصاً يدعى لوثر كاليب؟
- إذا كنت تطرح عليّ هذا السؤال، فهذا يعني أنك تعرف أنه كان سائقي لسنوات طويلة. إلّا ترمي، يا سيد غولدمان؟
- هناك شاهد رأى نولا تستقل معه السيارة عدة مرات في الصيف الذي اختفت فيه.

وجّه نحوي إصبعاً مهدداً.
- لا توقظ الموتى، يا سيد غولدمان. كان لوثر رجلاً شريفاً، وشجاعاً، ووفياً. ولن أسمح بأن يلطخ اسمه بعد أن رحل ولن يستطيع الدفاع عن نفسه.

- هل توفي؟
- نعم، منذ زمن بعيد. قد تكون سمعت أنه كان يذهب إلى

أورورا بانتظام، وهي الحقيقة: فقد كان يشرف على المنزل حين كنت أؤجره، ويحافظ عليه في حال جيدة. كان شخصاً طيباً ولن أسمح لك أن تأتي إلى هنا لتلوث ذكراه. قد يخبرك بعض التافهين في أورورا أنه كان غريب الأطوار: فهو كان حقاً مختلفاً عن عامة الناس. على جميع الصعد. كان قبيح المظهر: كان وجهه مشوهاً على نحو مخيف، وكان فكاه غير مصطفين، ما جعل نطقه صعب الفهم. لكن كان طيب القلب، وشديد الإحساس.

- أنت لا تعتقد أنه قد تكون له صلة باختفاء نولا؟

- لا. وأنا جازم في هذا الخصوص. ظننت هاري كبير مذنّباً، وهو قابع في السجن في الوقت الحالي، على ما أظن...

- أنا غير مقتنع بكونه مذنّباً، ولهذا أنا هنا.

- لقد عُثر على الفتاة في حديقته، وعلى مخطوطة أحد كتبه إلى جانب الجثة. كتاب كتبه من أجلها... ماذا تريد أكثر من ذلك؟

- الكتابة لا تعني القتل، يا سيدي.

- لا بد أن تحقيقك في نقطة الصفر كي تأتي إلى هنا لتحديثي عن ماضي وعن لوثر الطيب. هذه المقابلة انتهت، يا سيد غولدمان.

نادى مديرة المنزل لتصطحبني إلى الخارج.

غادرت مكتب ستيرن ولديّ شعور مزعج بأن اللقاء لم يفدني بشيء. وندمت على أنني لم أواجهه باتهامات نانسي هاتاواي، لكن لم تكن لديّ ما يكفي من أدلة لاتهامه. كان غاهالوود قد حذرني: هذه الشهادة الوحيدة غير كافية، فستكون كلمتها ضد كلمة ستيرن. كنت بحاجة إلى دليل ملموس. فقلت لنفسي إنه عليّ أن أتجول في هذا المنزل قليلاً.

عند وصولنا إلى بهو المدخل الشاسع، طلبت من مديرة المنزل الإذن لدخول الحمام قبل أن أغادر، فقادتني إلى حمام الضيوف في الطابق الأرضي وقالت إنها ستنتظرنني عند باب المدخل. وحالما

انصرفت، هرعت إلى الرواق لأستكشف الجناح الذي كنت فيه. لم أكن أعلم ما كنت أبحث عنه، لكنني كنت أعلم أنه كان عليّ التحرك سريعاً. كانت هذه فرصتي الوحيدة للعثور على شيء يربط ستيرن بنولا. وفيما كان قلبي يخفق بقوة، فتحت بعض الأبواب عشوائياً، وأنا أصلي لئلا يكون فيها أحد. لكن كانت كل الغرف فارغة: كانت كلها صالونات مؤثثة بأناقة وترف باهظ. وعبر الواجهة الزجاجية، استطعت أن أرى الحديقة الرائعة. واصلت تفتيشي، وأنا أصغي السمع إلى الأصوات من حولي. أفضى باب آخر إلى مكتب صغير، دخلته سريعاً، وفتحت الخزائن: كانت هناك ملفات وأكوام من الوثائق. تصفحت بعضها إلا أنها لم تكن تهمني. كنت أبحث عن شيء ما، لكن ما هو؟ ما الذي يوجد في هذا المنزل والذي بإمكانه أن يظهر في وجهي فجأة ويساعدني، بعد ثلاثة وثلاثين عاماً؟ كان الوقت يداهمني: كانت مدبرة المنزل ستعود للبحث عني في الحمام إذا لم أعد بسرعة. وصلت إلى رواقٍ ثانٍ قادني إلى غرفة وحيدة دخلتها على الفور: كانت تطل على شرفة شاسعة محاطة بنباتات متسلقة تحجبها عن الأنظار المتطفلة. كانت هناك بعض الحوامل الخشبية واللوحات غير المكتملة والفراشي المبعثرة على طاولة صغيرة. كان مرسماً! وقد عُلِّقت على الجدران سلسلة من اللوحات، جميعها رائعة. لفتت إحداها انتباهي، إذ تعرفت على الفور على الجسر المعلق الموجود عند مدخل أورورا، على شاطئ المحيط. فأدركت أن كل اللوحات كانت تجسد مشاهد من أورورا؛ غراند بيتش، الشارع الرئيسي، وحتى مطعم كلاركس. كانت واقعيته صادمة، كما كانت جميعها موقعة بحرفي ل.

ك. ولم تتعد التواريخ عام 1975. ثم لاحظت لوحة أخرى، أكبر من الأخرى، معلقة عند إحدى الزاويا: كان هناك مقعد قبالتها ويعلوها مصدر إنارة. كان بورتريه امرأة شابة. ومع أنه يتوقف عند أعلى الصدر، إلا أننا نتبين أنها كانت عارية. اقتربت من اللوحة: لم يكن

هذا الوجه غريباً عني . تفحصته للحظة قبل أن أصاب بالذهول : كان بورترية لنولا . كانت هي ، بلا أدنى شك . التقطت بعض الصور بهاتفي ثم فررت من الغرفة مسرعاً . كانت مدبرة المنزل تنتظرني عند باب المدخل بنفاد صبر ، فودعتها بأدب وغادرت وأنا أرتجف وأتصبب عرقاً .

*

بعد نصف ساعة على اكتشافي هذا ، دخلت على عجل مكتب غاهالوود في المقر الرئيسي لشرطة الولاية . كان بطبيعة الحال غاضباً من ذهابي لزيارة ستيرن دون أن أخبره .

- أنت لا تُؤتمن ، أيها الكاتب . لا تُؤتمن !

- لم أفعل سوى زيارته ، قلت مدافعاً عن نفسي . طرقت بابه ،

طلبت مقابلته ، واستقبلني . ما الخطأ في ذلك ؟ !

- قلت لك أن تنتظر !

- أنتظر ماذا ، أيها الرقيب ؟ مباركاتك المقدسة ؟ أن تسقط الأدلة

من السماء ؟ لقد بكيت واشتكيته من أنه لا يمكنك الاقتراب منه ،

ففعلت ! أنت تبكي ، وأنا أفعل ! انظر ما وجدت في منزله !

أريته الصور على هاتفي .

- لوحة ؟ قال غاهالوود بازدراء .

- انظر جيداً .

- يا إلهي . . . إنها تشبه . . .

- نولا ! هناك لوحة لنولا كيلرغان في منزل إليجاه ستيرن .

أرسلت له الصور عبر الإيميل فطبعها في حجم كبير .

- إنها هي فعلاً ، إنها نولا ، أكد غاهالوود وهو يقارن الصور

المطبوعة بأخرى كانت في ملف القضية .

لم تكن الصور ذات جودة عالية ، لكن لم يكن من مجال للشك .

- إذًا، هناك صلة بين ستيرن ونولا، قلت. قالت نانسي هاتاواي إن نولا كانت على علاقة بستيرن، وها أنا أجد بورترية لنولا في مرسومه. ولم أقل لك كل شيء بعد: كان منزل هاري ملكاً للإيجاه ستيرن حتى عام 1976. أي فعلياً، حين اختفت نولا، كان المنزل ملكاً للإيجاه ستيرن. إنها مصادفة غريبة، ألا تعتقد؟ باختصار، اطلب تفويضاً واستدع فرقة، سنفتش منزل ستيرن ونقبض عليه.

- تفويض لتفتيش منزله؟ آه، يا صديقي المسكين... أنت مجنون! على أي أساس؟ على أساس صورك؟ إنها غير قانونية! هذه الأدلة لا قيمة لها: لقد فتشت منزلاً من دون إذن. أنا مكبل اليدين. يلزمنا شيء آخر لتعرض لستيرن، ومن الآن حتى ذلك الحين، سيكون قد تخلص من اللوحة بكل تأكيد.

- إلا أنه لا يعلم أنني رأيت اللوحة. لقد حدثته عن لوثر كاليب، فأثار ذلك غضبه. أما نولا، فقد ادّعى أنه بالكاد يعرفها، في حين أن لديه لوحة عنها في منزله وهي نصف عارية. لا أعلم من رسم هذه اللوحة، لكن هناك لوحات أخرى في المرسوم موقعة بحرفي ل. ك. لوثر كاليب ربما؟

- لا يعجبني المسار الذي تتخذه هذه القصة. إذا تعرضت لستيرن وأخفقت في إثبات شيء عليه، فسأدفع الثمن غالباً.
- أعلم ذلك، أيها الرقيب.

- اذهب وتحدث عن ستيرن مع هاري. حاول أن تعرف المزيد. وأنا من جهتي سأحاول النبش في حياة لوثر كاليب هذا. نحن بحاجة إلى معلومات موثوقة.

وأنا في السيارة، في طريقي من مقر شرطة الولاية إلى السجن، علمت من الراديو أن مجمل كتب هاري كبير تم سحبها من المقررات المدرسية في جميع الولايات. كان ذلك قاع القاع بالنسبة إلى هاري:

ففي أقل من أسبوعين، كان هاري قد خسر كل شيء؛ لقد أصبح كاتباً محظوراً، وأستاذاً مفصولاً، وشخصاً مكروهاً من بلد بأكمله. ومهما تكن نتيجة التحقيقات والمحاكمة، فقد تلطخ اسمه إلى الأبد، إذ من غير الممكن ذكر أعماله دون الإشارة إلى الجدل الكبير حول ذلك الصيف الذي قضاه مع نولا، وتجنباً للفضائح، لن تجازف أي من الفعاليات الثقافية في إدراج هاري كيبير في برامجها. كان ذلك بمثابة كرسي كهربائي فكري. والأسوأ أن هاري كان مدركاً تماماً لرداءة الموقف؛ فعند وصولي إلى قاعة الزيارات، كان أول ما قاله لي:

- وماذا لو قتلوني؟

- لن يقتلك أحد، يا هاري.

- ألسْتُ ميتاً بالفعل؟

- لا، أنت لست ميتاً! أنت هاري كيبير العظيم! المهم هو أن تعرف كيف تسقط، أتذكر؟ ليس المهم السقوط، لأن السقوط لا يمكن تفاديه، المهم هو أن تعرف كيف تنهض من جديد. ونحن سننهض من جديد، يا هاري.

- أنت شخص طيب، يا ماركوس، لكن نظارات الصداقة تمنعك من رؤية الحقيقة، فالمسألة ليست هل قتلت نولا، أو ديبورا كوبر، أو حتى الرئيس كيندي. المسألة هي أنني كنت على علاقة مع تلك الفتاة وهو أمر لا يغتفر. وماذا عن الكتاب؟ ما الذي حملني على كتابة هذا الكتاب!

كررت قائلاً:

- نحن سننهض من جديد، سترى. هل تذكر تلك الضربة القاضية التي تلقيتها في صالة الملاكمة في لويل؟ لم أنهض في حياتي مثلما نهضت من جديد بعد ذلك.

أرغم نفسه على الابتسام، ثم سألني:

- وأنت؟ هل تلقيت تهديدات جديدة؟

- فلنقل إنني في كل مرة أعود بها إلى غوز كوف، أتساءل عما ينتظرني هناك.
- جد من يفعل ذلك، يا ماركوس! جده ولقنه درساً. أنا لا أحتمل فكرة أن يهددك أحدهم.
- لا تشغل بالك.
- وماذا عن تحقيقك؟
- إنه يتقدم... هاري، لقد باشرت في تأليف كتاب.
- هذا خبر رائع!
- إنه كتاب عنك. أتحدث فيه عنا، عن بوروس، عن قصتك مع نولا. إنه كتاب عن الحب. فأنا أو من بقصة حبكما.
- إنه تكريم جميل. مكتبة سر من قرأ
- أنت تبارك الخطوة إذًا؟
- طبعاً، يا ماركوس. أتعلم، لقد كنت أحد أقرب أصدقائي، وأنت كاتب رائع، فيشرفني أن أكون موضوع كتابك المقبل.
- لماذا تستخدم صيغة الماضي؟ لماذا تقول إنني كنت أحد أقرب أصدقائك؟ نحن ما زلنا صديقين، أليس كذلك؟
- نظر إليّ نظرة حزينة.
- لقد قلتها هكذا، دون أن أقصد شيئاً.
- أمسكت بكتفيه.
- سنظل صديقين إلى الأبد، يا هاري. لن أتخلى عنك أبداً.
- فهذا الكتاب هو برهان على صداقتي الوفية لك.
- شكراً، يا ماركوس. كلامك مؤثر. لكن لا ينبغي أن تكون الصداقة الدافع وراء هذا الكتاب.
- كيف ذلك؟
- أتذكر محادثتنا يوم تخرجك من جامعة بوروس؟
- نعم، لقد مشينا طويلاً في الحرم الجامعي، وصولاً إلى صالة

الملاكمة. سألتني ما الذي أنوي فعله الآن، وأجبتك بأنني سأؤلف كتاباً. وهنا سألتني لماذا أكتب. فأجبتك أنني أكتب لأنني أحب ذلك، فأجبتني...

- نعم، ماذا أجبتك؟

- أن الحياة بشكل عام تفتقر إلى المعنى، وأن الكتابة تضيف عليها المعنى.

- تماماً، يا ماركوس، وهذا هو الخطأ الذي ارتكبته منذ بضعة أشهر، حين طلب منك بارناسكي مخطوطاً جديداً. رحّت تكتب لأنه كان عليك أن تؤلف كتاباً، لا لتعطي معنى لحياتك. الفعل من أجل الفعل لا يعني شيئاً، فلا عجب من أنك لم تتمكن من كتابة ولو سطر واحد، فالكتابة هبة ليس لأنك تكتب على نحو جيد، بل لأنك تستطيع أن تعطي معنى لحياتك. فالناس يولدون ويموتون كل يوم. وقوافل من العاملين مجهولي الأسماء يجولون في مبانٍ رمادية كبيرة كل يوم. وثم هناك الكتاب. فالكتاب يعيشون الحياة بشغف أكثر من الآخرين، كما أعتقد. فلا تكتب باسم صداقتنا، يا ماركوس؛ بل اكتب لتجعل من هذا الشيء الصغير التافه المسمى الحياة تجربة صالحة ومجزية.

أمعنت فيه النظر طويلاً. شعرت وكأنني أحضر آخر درس للأستاذ. كان شعوراً لا يُحتمل. انتهى به الأمر إلى أن يقول:

- كانت تحب الأوبرا، يا ماركوس. اذكر ذلك في الكتاب. كانت الأوبرا المفضلة لديها هي مدام بترفلاي. كانت تقول إن أجمل الأوبرات هي قصص الحب الحزينة.

- من؟ نولا؟

- نعم. تلك الفتاة الصغيرة ذات الخمسة عشر عاماً كانت تعشق الأوبرا. بعد محاولتها الانتحار، ذهبت لتقضي عشرة أيام في شارلوتس هيل، وهي مؤسسة للاستشفاء والنقاهاة، وهو ما قد نسميه اليوم مصحة نفسية. كنت أذهب لزيارتها خلسة، وكنت أحمل لها

أسطوانات الأوبرا وكنا نشغلها على جهاز محمول. كانت تتأثر إلى درجة البكاء وتقول إذا لم تصبح ممثلة في هوليوود، فستصبح مطربة في برودواي، فكنت أقول لها إنها ستصبح أعظم مطربة في تاريخ أمريكا. أتعلم يا ماركوس، أعتقد أن نولا كيلرغان كانت لتضع بصمتها على هذا البلد...

- هل تعتقد أنه قد يكون لوالديها يد في الموضوع؟

- لا، لا أعتقد ذلك. ثم إن هناك المخطوطة، وتلك العبارة المكتوبة عليها... وعلى أية حال، لا يمكنني تخيل ديفيد كيلرغان كقاتل ابنته.

- لكن كان هناك هذا الضرب الذي تلتقاه...

- هذا الضرب... كانت قصته غريبة...

- وماذا عن ألاباما؟ هل حدثك نولا عن ألاباما؟

- ألاباما؟ لقد أتت عائلة كيلرغان من ألاباما، نعم.

- لا، هناك شيء آخر، يا هاري. أعتقد أن أمراً ما قد حدث في ألاباما، وقد يكون لهذا الأمر علاقة برحيلهم من هناك... لكنني لا أعلم ما هو، ومن قد بإمكانه أن يخبرني.

- مسكين، يا ماركوس، لدي انطباع أنه كلما نبشت في هذه القضية، أخرجت المزيد من الألغاز...

- هذا ليس انطباعاً فحسب، يا هاري، بل الحقيقة... فقد اكتشفتُ أن تمارا كوين كانت تعلم بأمركما أنت ونولا، هي من أخبرتني. ففي اليوم الذي حاولت فيه نولا الانتحار، أتت تمارا إلى منزلك غاضبةً بسبب تغيبك عن حضور حفلها في الحديقة، لكنك لم تكن هناك، ففتشت مكتبك ووجدت ورقة كنت قد كتبتها لتوك عن نولا.

- وأنت تحدثني عن هذا الأمر الآن، تذكرت أن هناك ورقة كنت قد فقدتها بالفعل، وبحثت عنها طويلاً لكن من دون جدوى. ظننت

أنها ضاعت مني، وهذا ما أدهشني حينذاك لأنني لطالما كنت منظماً جداً... ماذا فعلتُ بها؟

- قالت إنها لم تعد بحوزتها...

- هل هي من أرسلت الرسائل مجهولة المصدر؟

- أشك في ذلك. هي لم تتخيل أنه قد تكونان أنت ونولا على علاقة، بل اعتقدت أنك كنت متيماً بها فحسب. بالمناسبة، هل

استجوبك في هذا الخصوص الرئيس برات وقت اختفاء نولا؟

- الرئيس برات؟ لا، أبداً.

غريب! لماذا لم يستجوب الرئيس برات هاري في إطار التحقيقات، في حين قالت تمارا إنها أخبرته بما اكتشفت؟ ودون أن أذكر لا نولا ولا اللوحة، ألقيت باسم ستيرن في المحادثة.

- ستيرن؟ قال هاري. نعم، إنني أعرفه. كان مالك منزل غوز كوف، فقد اشتريته منه بعد نجاح أصول الشر.

- أتعرفه جيداً؟

- لا، لقد التقيت به مرة أو مرتين في ذلك الصيف. المرة الأولى كانت في حفل الصيف الراقص، حيث كنا جالسَيْن إلى نفس الطاولة. إنه رجل لطيف، وقد قابلته بضع مرات بعد ذلك. كان كريماً، ويؤمن بي. لقد فعل الكثير لخدمة الثقافة. إنه رجل طيب بامتياز.

- متى كانت آخر مرة رأيته فيها؟

- آخر مرة؟ حين اشتريت المنزل على ما أظن، في أواخر عام

1976. لكن لماذا تحدثني عنه فجأة هكذا بحق الجحيم؟

- لا من سبب معين. قل لي، يا هاري، الحفل الراقص الذي

ذكرته الآن هو نفسه الذي تمنيت تمارا كوين أن تصطحب إليه ابنتها؟

- هو نفسه. لقد ذهبت إليه بمفردي في نهاية المطاف. يا لها من

سهرة... تصور أنني ربحت الجائزة الأولى في اليانصيب: أسبوع عطلة في مارثاز فينيارد.

- وهل ذهبت إلى هناك؟

- طبعاً.

في ذلك المساء، عند عودتي إلى غوز كوف، تلقيت رسالة إلكترونية من روي بارناسكي تحمل عرضاً لا يمكن لأي كاتب أن يرفضه.

من: r.barnaski@schmidandhanson.com

التاريخ: الاثنين 30 يونيو 2008 - 19:54

عزيزي ماركوس،

لقد أحببت كتابك. وعطفاً على مكالمتنا الهاتفية هذا الصباح، أرسل لك بالمرفق اقتراحاً لعقد جديد، لن ترفضه على ما أظن.

أرسل لي صفحات جديدة في أسرع وقت.

كما سبق أن قلت لك، أنا أهدف إلى نشره في الخريف. أعتقد أنه سيحقق نجاحاً كبيراً، بل أنا متأكد من ذلك. كما أن شركة وارنر براذرز أعربت عن رغبتها في تحويله إلى فيلم، وستفاوض على الحقوق السينمائية لاحقاً بطبيعة الحال.

وفي الوثيقة المرفقة، وجدت مسودة عقد تتضمن دفعة مسبقة بمليون دولار.

سهرت طويلاً في تلك الليلة، فريسةً لأفكاري. وفي حوالي العاشرة والنصف، تلقيت مكالمة من أمي. كانت توشوش، وكانت هناك أصوات في الخلفية.

- أمي؟

- ماركي! ماركي، لن تخمن أبداً مع من أنا الآن!

- مع أبي؟

- نعم. لا! قررنا اليوم أنا ووالدك أن نقضي السهرة في نيويورك، فذهبنا إلى ذلك المطعم الإيطالي بالقرب من كولومبوس سيركل، لتناول العشاء. ومن التقينا أمام باب المطعم؟ دينيس! سكرتيرتك! - حقاً؟!

- لا تدّعي البراءة! أعتقد أنني لا أعرف ما فعلته! لقد حكّت لي كل شيء! كل شيء!

- ماذا حكّت لك؟

- أنك طردتها!

- أنا لم أطردها يا أمي، بل دبّرت لها وظيفة جيدة عند شמיד وهانسون، فلم يعد لديّ ما أقدمه لها، لا كتب، ولا مشاريع، ولا أي شيء! كنت حريصاً على تأمين مستقبلها، فوجدت لها وظيفة من ذهب في قسم التسويق.

- أوه، يا ماركي، لقد تعانقنا طويلاً، وقالت إنها تفتقدك.

- أرجوك، يا أمي!

راحت توشوش بصوت خفيض أكثر، حتى أنني كنت بالكاد أسمعها.

- خطرت لي فكرة، يا ماركي.

- ما هي؟

- هل تعرف سولجنيتسين العظيم؟

- الكاتب؟ نعم، ما العلاقة؟

لقد شاهدت فيلماً وثائقياً عنه مساء أمس. يا للمصادفة السماوية! أنني شاهدت هذا البرنامج! تخيل أنه تزوج من سكرتيرته. سكرتيرته! وبمن التقيت الليلة؟ بسكرتيرتك! إنها إشارة، يا ماركي! هي ليست قبيحة، وتفيض بهرمون الأستروجين! أنا أعلم ذلك، فالنساء يشعرون

بهذه الأمور! إنها خصبة، ومطبعة، وستنجب لك طفلاً كل تسعة أشهر! سأعلمها كيف تربي الأطفال، وبذلك سيكونون كما أريدهم! أليس هذا رائعاً؟

- انسي الأمر، يا أمي. إنها لا تعجبني، وهي كبيرة في السن نسبةً إليّ، ولديها صديق. ثم إننا لا نتزوج من سكرتيراتنا!
- لكن إذا كان سولجنيتسين العظيم فعلها، فهذا يعني أنه أمر مقبول. صحيح أنها كانت مع رجل، لكنه تافه! وتفوح منه رائحة عطر السوبر ماركت! أما أنت، فإنك كاتب كبير، يا ماركي، أنت المبهر!
- المبهر هزمه ماركوس غولدمان، يا أمي. وحينئذ بدأت أحيا.
- ماذا تقصد؟

- لا شيء يا أمي. لكن اتركي دينيس تتناول عشاءها في هدوء، لو سمحت.

بعد ذلك بساعة، مرت دورية شرطة لتأكد من أن كل شيء على ما يرام. ضابطان شابان في نفس عمري تقريباً، ولطيفان جداً. قدمت لهما القهوة وقالوا إنهما سيبقيان أمام المنزل لبعض الوقت. كانت ليلة دافئة، وسمعتهما عبر النافذة المفتوحة يدردشان ويتمازحان وهما جالسان فوق مقدمة السيارة، يدخان السجائر. وأنا أنصت إليهما، شعرت بنفسي وحيداً فجأة، وبعيداً عن العالم. كان قد عُرض عليّ للتو مبلغ خيالي من المال لإصدار كتاب سيعيدني إلى مقدمة الساحة الأدبية على نحوٍ مؤكد، كما كنت أعيش حياةً يتمناها ملايين الأمريكيين، ومع ذلك، كان ينقصني شيء: حياة حقيقية. كنت قد قضيت الجزء الأول من حياتي في تحقيق طموحاتي، فيما دخلت الجزء الثاني محاولاً الحفاظ على نتائج تلك الطموحات، وها أنا أتساءل متى سأقرر أن أعيش، بكل بساطة. على حساب فيسبوك الخاص بي، ألقيت نظرة سريعة على قائمة أصدقائي الافتراضيين الذين يُعدّون بالآلاف، إلا أنه لم يكن من بينهم شخص واحد يمكنني أن أتصل به لنخرج ونشرب

البيرة معاً. كنت أرغب في مجموعة من الأصحاب المقربين أشاهد معهم بطولة الهوكي، ونذهب للتخييم في عطل نهاية الأسبوع. كنت أرغب في خطيبة لطيفة ورقيقة تضحكني وتجعلني أحلم قليلاً. لم أعد أرغب في أن أكون وحيداً.

في مكتب هاري، تأملت طويلاً صور اللوحة التي التقطتها والتي أعطاني منها غاهالوود نسخاً مكبرة. من الذي رسمها يا ترى؟ كاليب؟ ستيرن؟ كانت، على أية حال، لوحة رائعة. شغلت المسجل الصوتي لأعيد سماع المحادثة التي جرت بيني وبين هاري اليوم.

- شكراً، يا ماركوس. كلامك مؤثر. لكن لا ينبغي أن تكون الصداقة الدافع وراء هذا الكتاب.
- كيف ذلك؟

- أتذكر محادثتنا يوم تخرجك من جامعة بوروس؟
- نعم، لقد مشينا طويلاً في الحرم الجامعي، وصولاً إلى صالة الملاكمة. سألتني ما الذي أنوي فعله الآن، وأجبتك بأنني سأؤلف كتاباً. وهنا سألتني لماذا أكتب. فأجبتك أنني أكتب لأنني أحب ذلك، فأجبتني...

- نعم، ماذا أجبتك؟
- أن الحياة بشكل عام تفتقر إلى المعنى، وأن الكتابة تضيف عليها المعنى.

تبعاً لنصيحة هاري، جلست أمام حاسوبي لأواصل الكتابة.

غوز كوف، منتصف الليل. عبر النافذة المفتوحة، يدخل ريح المحيط الخفيف إلى الغرفة، التي تفوح منها رائحة عطلة لطيفة. يضيء القمر الساطع كل شيء في الخارج.

التحقيق يتقدم، أو على الأقل، أنا والرقيب غاهالوود
نكتشف شيئاً فشيئاً حجم القضية وتشعبات.

أعتقد أن تداعياتها أبعد بكثير من مجرد قصة حب
ممنوع أو حدث شنيع يفيد بأن فتاة فرّت من منزلها
ووقعت ضحية متسكع في إحدى ليالي الصيف. لا تزال
هناك العديد من الأسئلة العالقة:

- عام 1969، تركت عائلة كيلرغان مدينة جاكسون
بولاية ألاباما حيث كان ديفيد، الأب، يرأس أبرشية مزدهرة.
لماذا؟

- في صيف 1975، عاشت نولا قصة حب مع هاري
كبير، ستلهمه كتابة أصول الشر. لكن نولا كانت على
علاقة باليجاه ستيرن أيضاً، الذي أنجز لها بورتريهاً وهي
عارية. من هي نولا في الحقيقة؟ ملهمة من نوع ما؟

- ما هو دور لوثر كاليب، الذي أخبرتني نانسي
هاتاواي بأنه كان يأتي إلى أورورا ليُقلّ نولا إلى كونكورد؟
- من، عدا تمارا كوين، كان يعلم بأمر هاري ونولا؟ من
أرسل الرسائل مجهولة المصدر إلى هاري؟

- لماذا لم يستجوب الرئيس برات، الذي كان يدير
التحقيق آنذاك، هاري كبير بعد تصريحات تمارا كوين؟ هل
استجوب ستيرن؟

- من الذي قتل ديبورا كوبر ونولا كيلرغان بحق
الجحيم؟

- ومن هو هذا الطيف الذي يريد منعي من أن أحكي
هذه القصة؟

مقتطفات من: أصول الشر، لهاري ل. كبير

حدثت المأساة يوم أحد. كانت تعيسة فحاولت الانتحار. لم يعد قلبها يقوى على النبض ما لم ينبض من أجله. كانت بحاجة إليه لتحيا. ومنذ أن أدرك ذلك، بات يأتي إلى المستشفى كل يوم ليراقبها في السر. كيف يمكن لشخص بهذا الجمال أن يرغب في قتل نفسه؟ كان يشعر بالذنب. كما لو أنه هو من أذاها.

كان يجلس كل يوم على مقعد خشبي في الحديقة العامة المحيطة بالمستشفى، ينتظر اللحظة التي ستخرج فيها لتستفيد من أشعة الشمس. كان يشاهدها وهي تحيا. كان من المهم أن تحيا. وكان يستغل كونها خارج غرفتها ليتسلل ويضع رسالة تحت وصادتها.

حبيتي الرقيقة

لا ينبغي أن تموتي أبداً، فأنت ملاك، والملائكة لا تموت أبداً.

فلتعلمي أنني لست بعيداً عنك أبداً، امسحي دموعك، أرجوك، فأنا لا أتحمل أن أراك حزينة.
أقبلُك لأخفف عنك آلامك.

حبي الغالي،

يا لها من مفاجأة أن أجد رسالتك وأنا أخلد إلى النوم! أكتب إليك خلسة: ففي الليل، لا يحق لنا أن نسهر بعد إطفاء الأضواء، والمرضات هنا صارمات جداً. لكني

لم أستطع المقاومة: فما إن قرأت سطورك، حتى
رغبت في الرد فوراً. فقط لأقول لك إنني أحبك.

أحلم بأن أرقص معك. أنا متأكدة أنك ترقص أفضل
من أيّ كان. كنت لأطلب منك أن تصطحبني إلى حفل
الصيف الراقص، لكنني أعلم أنك لن تقبل. ستقول إنه
إذا رأونا معاً، فستكون نهايتنا. أعتقد أنني لن أكون قد
خرجت من هنا على أية حال. لكن لماذا نعيش إذا كنا
لن نستطيع أن نحب؟ هذا هو السؤال الذي طرحته على
نفسي حين فعلت ما فعلت.

أنا ملكك إلى الأبد.

ملاكي الساحر،

سنرقص يوماً. أعدك. سيأتي يوم ينتصر فيه الحب
ونعيش حبنا في وضوح النهار، وسنرقص، سنرقص على
الشواطئ. على الشاطئ مثل أول مرة. فأنت رائعة
الجمال حين تكونين على الشاطئ.
تعافني سريعاً! سنرقص يوماً، على الشواطئ.

حبي الغالي،

أن نرقص على الشواطئ، هذا ما أحلم به.
قل لي إنك ستأخذني يوماً لنرقص على الشواطئ، أنت
وأنا فقط...

مارثاز فينيارد

(ماساتشوستس، أواخر شهر يوليو 1975)

«في مجتمعاتنا، يا ماركوس، نحن نُعجب بمن يَشيدون الجسور،
وناطحات السحاب، والإمبراطوريات. لكن في الواقع، مَنْ يستحق
الفخر والإعجاب هم الذين ينجحون في تشييد الحب. لأن ما مِنْ
إنجاز أكبر وأصعب من ذلك».

كانت ترقص على الشاطئ. كانت تلعب مع الأمواج، وتركض على الرمل، وشعرها يتطاير في الهواء؛ كانت تضحك، كانت سعيدة لأنها تحيا. من شرفة الفندق، تأملها هاري للحظة، ثم عاد إلى الأوراق التي تغطي الطاولة التي كان يجلس إليها. كان يكتب بسرعة، وعلى نحو جيد. فمنذ وصوله إلى هنا، كان قد كتب عشرات الصفحات، ويتقدم بوتيرة ممتازة. كان ذلك بفضلها. نولا، نولا حبيبته، حياته، إلهامه. ن. و. ل. ا. ها هو ذا أخيراً يكتب روايته العظيمة. رواية حب.

«هاري، صاحت من بعيد، خذ استراحة قصيرة! تعال لتسبح!». سمح لنفسه بالتوقف عن الكتابة قليلاً وصعد إلى غرفتهما، ووضع الأوراق في حقيبته بعناية، ثم ارتدى لباس السباحة. التحق بها على الشاطئ، ومشيا معاً بمحاذاة المحيط مبتعدين عن الفندق، وعن الشرفة، وعن النزلاء، وعن السباحين. عبرا حاجزاً من الصخور ووصلا إلى خليج صغير منعزل. هنا، كان بإمكانهما أن يتصرفا بحرية.

- خذني بين ذراعيك، هاري حبيبي، قالت له حالما أصبحا بعيدين عن الأنظار.

عانقها وتمسك بعنقه بقوة. ثم غطسا في المحيط ولعبا في

الماء، قبل أن يتمددا على منشفتين بيضاوين كبيرتين للفندق ليجفا تحت الشمس. وضعت رأسها على صدره.

- أنا أحبك يا هاري... أحبك كما لم أحب أبداً من قبل.
تبادلا الابتسامة.

- إنها أجمل عطلة في حياتي، قال هاري.
أشرق وجه نولا.

- فلنلتقط صوراً، فلنلتقط صوراً كي لا ننسى أبداً! هل الكاميرا بحوزتك؟

أخرج الكاميرا من حقيبته وأعطاه إياها. اقتربت منه ومدت يدها ووجهت عدسة الكاميرا إلى وجهيهما، وقبل أن تضغط على الزر، أدارت وجهها وقبلته قبلة طويلة على خده، فضحكا.

- أظن أنها ستكون صورة جميلة، قالت. تحتفظ بها طوال حياتك...

- طوال حياتي. هذه الصورة لن تفارقني.
كانا هناك منذ أربعة أيام.

*

قبل أسبوعين

كان يوم السبت 19 يوليو، أي يوم حفل الصيف الراقص السنوي. وللعام الثالث على التوالي، لم يُقَمَّ الحفل في أورورا بل في نادي مونتيري، أي المكان الوحيد الذي يليق باستقبال حدث كهذا بحسب إيمي برات، والتي منذ أن تولت مسؤولية تنظيمه وهي تجتهد لتجعل منه سهرة من الطراز الرفيع. فقد رفضت إقامته في صالة الألعاب الرياضية لثانوية أورورا، واستبدلت طاولات البوفيه الكبيرة بموائد عشاء راقية ومحددة الأماكن، كما فرضت على الرجال ارتداء

ربطات العنق، وأدخلت اليانصيب لإنعاش الأجواء في الفترة ما بين انتهاء العشاء وبداية الرقص.

ففي الفترة التي سبقت الحفل بشهر، جالت إيمي المدينة لتبيع بأثمان باهظة تذاكر اليانصيب، التي لم يرفض أحد شراءها خوفاً من أن يُخصَّص له مكان رديء يوم الحفل. وبحسب البعض، كانت الأرباح تذهب مباشرة إلى جيبتها، لكن لم يجرؤ أحد على التحدث عن ذلك في العلن، حريصين على الحفاظ على علاقات طيبة معها. فقبل إنها ذات سنة، تناست أن تخصص مكاناً لإحدى السيدات التي تشاجرت معها، فوجدت المسكينة نفسها واقفة وسط القاعة.

كان هاري قد قرر عدم حضور الحفل في البداية، مع أنه اشترى تذكرته قبل أسابيع، إلا أن حالته المزاجية لم تسمح له بالخروج والتسلية، مع نولا في المستشفى. كان حزيناً ويريد أن يظل وحيداً. لكن صباح يوم الحفل، جاءت إيمي برات لتطرق بابه: لم يره أحد في المدينة منذ أيام، كما لم يعد يذهب إلى مطعم كلاركس. أرادت أن تتأكد من أنه لن يتغيب عن الحفل، بل كان لا بد أن يحضره، فقد أخبرت الجميع بحضوره. فهي المرة الأولى التي سيحضر فيها نجم من نيويورك حفلها السنوي، ومن يدري، ربما في العام المقبل، سيعود هاري ومعه صفوة المجتمع. وفي غضون سنوات قليلة، سيأتي كل نجوم هوليوود ونجوم بروودواي إلى نيو هامبشير ليحضرُوا ما سيصبح أهم حدث على الساحل الشرقي. «ستأتي اليوم، يا هاري؟ ستأتي؟» توسلت إليه أمام باب منزله، فأنتهى به الحال إلى أن يعدها بالحضور، كما نجحت في انتزاع خمسين دولاراً منه ثمناً لتذاكر اليانصيب.

بعد ذلك بقليل، ذهب لزيارة نولا في المستشفى، وكان قد اشترى على الطريق أسطوانات أوبرا أخرى من محل في مونتيري، فهو لم يكن قادراً عن منع نفسه عن ذلك، إذ كان يعلم أن الموسيقى تسعدها. لكنه كان ينفق الكثير من المال، فلم يعد قادراً على الاستمرار على هذا

النحو. لم يرغب في التفكير بحالة حسابه في البنك ولا في المبلغ المتبقي فيه. كانت مدخراته تتبخر، وبهذه الوتيرة، لن يتبقى له ما يسدّد به قسط إيجار المنزل حتى آخر الصيف.

في المستشفى، تنزّها في الحديقة، وخلف إحدى الشجيرات، عانقته نولا.

- هاري... أريد أن أرحل.

- يقول الأطباء إنه سيمكنك المغادرة في غضون أيام قليلة.

- أنت لم تفهمني، أريد أن أرحل من أورورا. معك. فهنا لن نكون سعيدين أبداً.

- يوماً ما.

- ماذا تعني بـ يوماً ما؟

- يوماً ما، سنرحل من هنا.

أشرق وجهها.

- حقاً؟ حقاً، يا هاري؟ ستأخذني بعيداً؟

- بعيداً جداً. وسنكون سعيدين.

- نعم، سعيدين جداً.

احتضنته بقوة. وكل مرة اقتربت منه فيها، سرت في جسده قشعريرة.

- الحفل الراقص سيقام اليوم، قالت له.

- نعم.

- هل ستذهب؟

- لا أدري. لقد وعدت إيمي برات أن أحضره، لكن مزاجي لا

يسمح بذلك.

- أوه، اذهب، أرجوك! لطالما حلمت أن يصطحبني أحدهم إلى

حفل الصيف الراقص، لكنني لن أذهب أبداً... لن تسمح لي أمي.

- ماذا سأفعل هناك، وحدي؟

- لن تكون وحدك، يا هاري. سأكون معك، في ذهنك. سترقص معاً! مهما حدث، سأظل في ذهنك إلى الأبد!

شعر بالغضب عند سماعه تلك الكلمات.

- ماذا تعنين بـ «مهما حدث»؟ ماذا تعنين بالضبط؟!

- لا شيء، يا هاري، هاري حبيبي، لا تغضب. أردت فقط أن أقول لك إنني سأحبك إلى الأبد.

من أجل عيني نولا، ذهب هاري إلى الحفل إذاً، على مضض، ووحيداً. وما إن وصل، حتى ندم على قراره: شعر بالضيق وسط الحشد. فليتظاهر بالراحة، جلس إلى المنضدة وطلب بضع كؤوس من المارتيني وهو ينظر إلى المدعوين يتوافدون تبعاً. امتلأت القاعة سريعاً وعلا صوت المحادثات. كان مقتنعاً أن نظرات الناس مركزة عليه، كما لو أن الجميع يعرفون أنه واقع في حب فتاة في الخامسة عشرة من عمرها. شعر بنفسه يترنح، فتوجه إلى الحمام وغسل وجهه بالماء الباردة، ثم أغلق على نفسه مقصورة إحدى دورات المياه وجلس على حوض المرحاض ليستعيد رباطة جأشه. أخذ نفساً عميقاً: كان لا بد أن يحتفظ بهدوئه. لا ينبغي أن يعلم أحد بأمره هو ونولا. لطالما كانا متحفظين وكتومين. فما من سبب يدعو للقلق. كان عليه أن يبقى طبيعياً فحسب. انتهى به المطاف إلى طمأننة نفسه، فشعر بمعدته تسترخي. فتح باب المقصورة، وحينذاك رأى هذه العبارة التي كُتبت على المرأة بأحمر الشفاه:

متحرش بطفلة

شعر بالهلع. من كان هناك؟ نادى وفتح أبواب كل المقصورات: لم يكن هناك أحد. كان الحمام مقفراً. سحب منديلاً على عجل وبلّله ثم مسح العبارة، التي تحولت إلى خط طويل دهني وأحمر، ثم فرّ من الحمام خشية أن يفاجئه أحد. كان يشعر بالغثيان ويتصبب عرقاً

وصدغاه ينبضان بقوة، إلا أنه انضم إلى السهرة كما لو أن شيئاً لم يحدث. من كان يعلم بأمره هو ونولا يا ترى؟

في القاعة، كان قد أُعلن عن العشاء فتوجه المدعوون إلى طاولاتهم. شعر بنفسه يفقد صوابه. أمسكت يده بكتفه. انتفض وهو لا يزال يتصبب عرقاً. كانت هذه إيمي برات.

- هل كل شيء على ما يرام، يا هاري؟ سألته.

- نعم... نعم... الجو حار قليلاً فحسب.

- ستجلس إلى طاولة الشرف. تفضل، إنها هناك.

قادته إلى طاولة كبيرة عليها زهور، حيث كان جالساً رجل في الأربعينات من عمره، يبدو عليه الملل الرهيب.

- هاري كبير، قالت إيمي بصوت احتفائي، دعني أقدمك لإليجاه ستيرن، الذي يمول هذا الحفل بسخاء، فلولا لما بيعت التذاكر بهذا السعر الزهيد، كما أنه مالك المنزل الذي تقيم فيه في غوز كوف.

مد إليجاه يده مبتسماً، فانفجر هاري ضاحكاً.

- حضرتك مالك منزلي، يا سيد ستيرن؟

- نادني بإليجاه. يسعدني لقاءك.

بعد تناول الطبق الرئيسي، خرج الرجلان ليدخنا ويمشيا قليلاً على عشب النادي.

- هل أعجبك المنزل؟ سأل ستيرن.

- جداً. إنه رائع.

سحب إليجاه نفساً عميقاً من سيجارته ثم حكى لهاري بحنين كيف أن منزل غوز كوف كان منزل عطلة العائلة لسنوات طويلة، فقد بناه والده لأن والدته كانت تعاني من نوبات صداع نصفي رهيبه وأنه، بحسب الطبيب، كان هواء البحر سيساعدها على التحسن.

- حين رأى أبي قطعة الأرض هذه على شاطئ المحيط، وقع في غرامها فوراً، واشترها من دون تردد ليبنى عليها منزلاً. هو من رسم

التصاميم. لقد عشقت ذلك المكان، فقد قضينا فيه العديد من فصول الصيف الرائعة، لكن مرت الأيام، وتوفي والدي، واستقرت والدتي في كاليفورنيا ولم يعد غوز كوف مأهولاً. إنني أحب هذا المنزل كثيراً، حتى أنني قمت بترميمه منذ بضع سنوات، لكنني لست متزوجاً وليس لي أطفال، فلا أستمتع بهذا المنزل الذي هو كبير جداً بالنسبة إليّ على أية حال. لهذا عهدت به لوكالة عقارات لتأجيريه، ففكرة ألا يكون مأهولاً وأن يُهمل هي فكرة لا يمكننا تحملها. ويسعدني أن يسكنه شخص مثلك.

ثم أوضح لي ستيرن أنه عاش طفولته في أورورا، وفيها كانت أولى سهراته الراقصة وأولى تجارب الحب، ومنذ ذلك الحين وهو يأتي مرة في العام لحضور الحفل الراقص، تكريماً لذكرى تلك السنوات.

أشعلا سيجارة ثانية وجلسا لبرهة على مقعد من حجر.

- على ماذا تعمل الآن، يا هاري؟

- على رواية حب... أعني، أحاول. أتعلم، الجميع هنا يظنون

أنني كاتب كبير، لكنه سوء فهم على نحوٍ ما.

كان هاري يعلم أن ستيرن ليس شخصاً سيصدق خرافات كهذه.

- الناس هنا يبالغون في الأمور، والدليل على ذلك طقوس هذا

الحفل الراقص المضحكة. أنت تكتب رواية حب إذاً؟

- نعم.

- وأين وصلت فيها؟

- ما زلت في البداية. في الحقيقة، إنني أواجه صعوبات في

الكتابة.

- آه، هذا مؤسف بالنسبة إلى كاتب. هل من هموم؟

- يمكننا قول ذلك.

- أنت مغرم؟

- لماذا تسألني هذا السؤال؟

- من باب الفضول. تساءلت إن كان عليك أن تكون مغرمًا كي تكتب رواية حب. على أية حال، أنا منبهر بالكتاب، ربما لأنني رغبت في أن أكون كاتبًا أنا نفسي. أو فنانًا بشكل عام. فأنا أحب الرسم، إلا أنني لست موهوبًا في الفنون. ما هو عنوان روايتك؟

- لا أعلم بعد.

- وأي نوع من قصص الحب هذه؟

- قصة حب ممنوع.

- تبدو رواية مشوّقة، تحمس ستيرن، أتمنى أن نلتقي من جديد عند صدورها.

عند التاسعة والنصف، بعد تناول الحلوى، أعلنت إيمي برات بدء فقرة اليانصيب التي يقدمها زوجها كل عام. قرّب الرئيس برات الميكروفون من فمه ثم قام بفضّ الجوائز. كانت الجوائز المقدّمة معظمها من محال تجارية محلية ومتواضعة، ما عدا الجائزة الأولى التي أثارت حماساً كبيراً؛ فكانت عبارة عن أسبوع لشخصين في فندق فاخر في مارثاز فينيارد. «انتباه من فضلكم، صاح الرئيس برات، الفائز بالجائزة الأولى هو... انتباه... التذكرة رقم 1385!». خيم الصمت للحظة، ثم أدرك هاري أنها إحدى تذاكره، فنهض مندهشاً، وصفق له الحضور بحرارة وتوجه نحوه عدد من المدعوين لتهنئته، كما ظلت عيون الحضور مسلطة عليه حتى نهاية السهرة: كان محور العالم. إلا أن عينيه هو لم تكونا مسطّتين على أحد، لأن محور عالمه كان راقداً في غرفة صغيرة بأحد المشافي على بعد خمسة عشر ميلاً.

حين غادر الحفل في حوالي الثانية صباحاً، التقى هاري بستيرن عند حجرة إيداع المعاطف، إذ كان يغادر هو الآخر.

- جائزة اليانصيب الأولى، قال ستيرن مبتسماً. لقد حالفك الحظ حقاً.

- نعم... مع أنني لم أكن راغباً في شراء التذاكر...
- هل تريدني أن أقلك إلى المنزل؟ سأل ستيرن.
- شكراً إليجاه، لديّ سيارة.

سارا معاً حتى الموقف. كانت هناك سيارة سوداء فخمة تنتظر ستيرن، أمامها رجل يدخن سيجاره. أشار إليه ستيرن وقال:

- هاري، أود أن أقدم لك رجلاً يحظى بكل ثقتي، إنه شخص رائع. وبالمناسبة، إذا لم يكن لديك مانع، فسأرسله إلى غوز كوف ليعتني بشجيرات الورد، فموسم التقليم على الأبواب، وهو بستاني موهوب جداً، على عكس الفاشلين الذين ترسلهم الوكالة العقارية والذين أفسدوا كل نباتاتي الصيف الماضي.

- بكل سرور. إنه منزلك، يا إليجاه.

لاحظ هاري، وهو يقترب من الرجل، أن مظهره مرعب: كان عريض البنية ومفتول العضلات، ووجهه ملتوياً ومشوّهاً. صافحه هاري، قائلاً:

- اسمي هاري كبير.
- مفاء الخير فيد كبير، افمي لوثر كاليب، رد الرجل مع لثغة واضحة في النطق.

عمّت الإثارة أورورا في اليوم التالي للحفل الراقص: مع مَنْ سيذهب هاري كبير إلى مارثاز فينيارد؟ فلم يكن أحدٌ يعرف له رفيقة. هل كانت لديه صديقة في نيويورك؟ نجمة سينمائية ربما. أم كانت ستصطحبه فتاة من أورورا؟ هل لديه حبيبة هنا، هو الشخص المتحفظ؟ هل سيتحدثون عن ذلك في صحف المشاهير؟

الوحيد الذي لم ينشغل بهذه الرحلة كان هاري نفسه. ففي صباح يوم الاثنين 21 يوليو، كان في منزله، مريضاً من القلق: من الذي يعلم بأمره هو ونولا؟ من الذي تبعه حتى الحمام؟ من كانت لديه الجرأة

ليلوث المرأة بتلك العبارة المقيتة؟ بأحمر شفاء: كانت امرأة بكل تأكيد، لكن من هي؟ وكى يصرف ذهنه عن الموضوع، جلس إلى مكتبه وراح يرتب أوراقه، وإذا به يلاحظ أن هناك ورقة ناقصة؛ ورقة عن نولا، كتبها في اليوم الذي حاولت فيه الانتحار. كان يذكر ذلك جيداً: لقد تركها هنا. فهو ترك المسودات تتراكم فوق مكتبه لمدة أسبوع، لكنه كان دائماً ما يرقمها، حسب ترتيب زمني دقيق، كي يستطيع تصنيفها فيما بعد. والآن وقد رتب الأوراق، تأكد من عدم وجود تلك الورقة. كانت ورقة مهمة، وهو يتذكرها جيداً. كرر عملية الترتيب مرتين، لكن ما من ورقة. مستحيل! عند مغادرته كلاكس، كان يحرص دائماً على التأكد أنه لم ينس شيئاً على الطاولة. وفي غوز كوف، هو لم يكن يعمل إلا في مكتبه، وإذا جلس في الشرفة من حين إلى آخر، كان يضع ما كتبه على مكتبه. لا يمكن أن يكون قد أضاع تلك الورقة، فأين هي إذا؟ بعد أن فتش المنزل من دون جدوى، تساءل ما إذا كان أحدهم قد دخل المنزل بحثاً عن أدلة تدينه. هل كان الشخص نفسه الذي كتب تلك العبارة على مرآة الحمام مساء الحفل؟ شعر بمغص في معدته لدرجة الغثيان.

في اليوم نفسه، خرجت نولا من مستشفى شارلوتس هيل وعادت إلى أورورا، وفور عودتها، كان أول ما فكرت فيه هو رؤية هاري، فذهبت إلى غوز كوف آخر النهار. كان على الشاطئ، ومعه علبته الحديدية. هرعت نحوه حين رآته فرفعها في الهواء ودار بها.

- أوه هاري، هاري حبيبي! كم افتقدت أن أكون هنا معك!

ضمها بأقصى ما يستطيع من قوة.

- نولا، نولا حبيبي...

- كيف حالك، يا هاري؟ لقد أخبرتني نانسي أنك فزت بالجائزة

الأولى لليانصيب؟

- نعم! أتخيلين؟

- عطلة لشخصين في مارثاز فينيارد! متى الرحلة؟
- التواريخ غير محددة، وكل ما عليّ فعله هو الاتصال بالفندق
لأحجز الأسبوع الذي يناسبني.
- هل ستأخذني معك؟ أوه هاري، خذني معك، سنكون
سعيدين، دون أن نضطر إلى الاختباء!
لم يجب بشيء، وسارا معاً بضع خطوات على الحصى. شاهدنا
الأمواج وهي تنهي رحلتها على الرمل.
- من أين تأتي الأمواج؟ سألت نولا.
- من بعيد، رد هاري. تأتي من بعيد لترى ساحل أمريكا الكبرى
وتموت.

حدق في نولا ثم أمسك بوجهها فجأة في نوبة من الغضب.
- بحق السماء، يا نولا! لماذا رغبت في الموت؟
- الأمر ليس رغبة في الموت بقدر ما هو عدم القدرة على
الحياة.

- لكن أتذكرين ذلك اليوم حين كنا هنا على الشاطئ، بعد
العرض، وقلت لي ألا أحزن لأنك هنا إلى جانبي؟ فكيف ستعتنين بي
إذا قتلت نفسك؟

- أعرف يا هاري. سامحني، أرجوك.
وعلى هذا الشاطئ حيث تقابلا وأحبا أحدهما الآخر منذ النظرة
الأولى، جثت على ركبتيها ليسامحها. ثم عادت لتطلب من جديد:
«خذني معك، يا هاري، خذني معك إلى مارثاز فينيارد، خذني معك
ولنحب بعضنا إلى الأبد». وفي نشوة اللحظة، وعدها أن يفعل. لكن
حين غادرت بعد ذلك بقليل، وهو ينظر إليها تبتعد على طريق غوز
كوف وتعود إلى منزلها، فكر أنه لا يستطيع أن يأخذها معه. كان ذاك
مستحيلاً، إذ كان هناك من يعرف بأمرهما، وإذا ذهباً معاً، فستعرف
المدينة بأكملها، وسيكون مصيره السجن حتماً. لم يكن بإمكانه أخذها

معه، وإذا طلبت منه ذلك من جديد، فسيؤجل الرحلة الممنوعة، سيؤجلها إلى الأبد.

في اليوم التالي، ذهب إلى كلاركس لأول مرة منذ وقت طويل. كانت أوقات عمل جيني، كالعادة. لمعت عيناها حين رآته: لقد عاد. ألماذا علاقة بالحفل الراقص؟ هل شعر بالغيرة حين رآها مع ترافيس؟ هل كان سيعرض عليها أن ترافقه إلى مارثاز فينيارد؟ إذا ذهب من دونها، فهذا يعني أنه لا يحبها. شغلها هذا السؤال لدرجة أنها سألته قبل حتى أن تدون طلبه:

- من ستأخذ معك إلى مارثاز فينيارد، يا هاري؟

- لا أدري، رد عليها. قد لا آخذ أحداً. قد أذهب وحدي وأستغل الفرصة لأتقدم في كتابي.

- رحلة جميلة كهذه، وستذهب وحدك؟ إنه لأمر مؤسف.

كانت تتمنى سراً لو يجيئها: «أنت على حق، يا جيني، لنسافر معاً يا حبيبتي ونستمتع بغروب الشمس هناك». لكن كان كل ما نطق به: «قهوة، من فضلك»، فنقذت جيني الأوامر كالعادة. في تلك اللحظة، ظهرت تمارا كوين، آتية من مكتبها في الصالة الخلفية حيث كانت تدير محاسبة المؤسسة. وحين رأت هاري جالساً إلى طاولته المعتادة، هرعت نحوه وقالت له بحق ومرارة، دون حتى أن تلقي عليه التحية:

- كنت أراجع الحسابات للتو. لم نعد نقبل إرجاء الدفع إلى وقت لاحق، يا سيد كبير.

- أنفهم الأمر، قال هاري تفادياً لأي تصعيد، وأنا آسف بشأن دعوتك يوم الأحد الماضي... لقد كنت...

- اعتذارك لا يهمني. لقد استلمت زهورك وألقيت بها في القمامة. أرجو أن تسدد حسابك قبل نهاية الأسبوع.

- بكل تأكيد. أعطيني الفاتورة، وسأدفع المبلغ دون تأخير.

أحضرت فاتورة مفصلة، وكاد يخنق حين رآها: 500 دولار. لقد

أنفق دون حساب: 500 دولار من الأكل والشرب، 500 دولار رماها من النافذة، فقط ليكون مع نولا. وإضافة إلى ذلك، وصلته في الصباح التالي رسالة من الوكالة العقارية. كان قد سدد نصف إيجار إقامته في غوز كوف، أي حتى نهاية شهر يوليو، وأفادت الرسالة بضرورة دفع 1000 دولار إضافية للبقاء في المنزل حتى نهاية سبتمبر، لكن لم يكن لديه الـ 1000 دولار هذه، بل إنه لم يعد لديه أي مال، فقد تركته فاتورة كلاركس مفلساً، ولم يعد بإمكانه استئجار منزل كهذا. لن يستطيع أن يبقى فيه. ماذا عليه أن يفعل؟ يتصل بالإيجاه ستيرن ويشرح له الموقف؟ ولكن ما الفائدة من ذلك؟ فهو لم يكتب الرواية العظيمة التي طمح إليها، ولم يكن سوى مدع.

بعد أن أخذ وقته في التفكير، اتصل بفندق مارثا فينيارد. هذا ما سيفعله: سيترك هذا المنزل ويوقف هذه المسرحية. سيسافر ويقضي أسبوعاً مع نولا ليعيشا حبهما مرة أخيرة، ثم سيختفي. أخبرته إدارة الفندق أن هناك غرفة شاغرة في الفترة ما بين 28 يوليو و3 أغسطس. هذا ما كان عليه فعله إذاً: أن يحب نولا مرة أخيرة، فيغادر هذه المدينة إلى الأبد.

بعد أن أكّد الحجز في الفندق، اتصل بالوكالة العقارية وأخبرهم أنه نظراً لأسباب طارئة هو مضطر للعودة إلى نيويورك، فطلب أن ينتهي العقد في 1 أغسطس، فيما استطاع إقناع الموظف أن يمهلته حتى الاثنين 4 أغسطس لينهي بعض الأمور ويسلم المفاتيح في فرعهم في بوسطن وهو في طريقه إلى نيويورك. كان على وشك البكاء وهو يتحدث على الهاتف: هكذا تنتهي تجربة من يسمى بالكاتب الكبير هاري كيبر، غير القادر على كتابة ثلاثة أسطر من العمل العظيم الذي كان يطمح إليه. أغلق الخط وهو على وشك الانهيار، بعد لفظه هذه الكلمات: «تمام، يا سيدي. سأسلمك مفاتيح غوز كوف في وكالتكم ببوسطن يوم الاثنين 4 أغسطس، في طريقي إلى نيويورك». وهو يعيد

سماعة الهاتف، انتفض عند سماعه صوت حزين خلفه: «هل سترحل، يا هاري؟». كانت هذه نولا. كانت قد دخلت إلى المنزل خلصة وسمعت المحادثة. رددت والدموع تملأ عينيها:

- هل سترحل، يا هاري؟ ماذا يحدث؟

- نولا... إني أواجه بعض المشاكل.

هرعت نحوه.

- مشاكل؟ أي مشاكل؟ لا يمكنك أن ترحل! لا يمكنك أن

ترحل، يا هاري! إذا رحلت فسوف أموت!

- لا! لا تقولي ذلك أبداً!

جثت على ركبتيها.

- لا ترحل، يا هاري! بحق السماء! فأنا لا شيء من دونك.

انزلق أرضاً إلى جانبها.

- نولا... يجب أن أخبرك... لقد كذبت منذ البداية. أنا لست

كاتباً مشهوراً... لقد كذبت! كذبت بشأن كل شيء! بشأني وبشأن

مسيرتي الأدبية! كما لم يعد لدي أي مال! لم يعد لدي أي شيء! لم

تعد إمكانياتي تسمح لي بالبقاء في هذا المنزل. لم يعد بإمكانني البقاء

في أورورا.

- سنجد حلاً! ليس لدي أدنى شك في أنك ستصبح كاتباً كبيراً،

وستجني الكثير من الأموال! كتابك الأول كان رائعاً، وكتابك الذي

تكتبه الآن بكل هذه الحماسة سيكون عظيماً، أنا متأكدة من ذلك، فأنا

لا أخطئ أبداً.

- هذا الكتاب، يا نولا، ليس سوى فظاعات، ليس سوى كلمات

فظيعة.

- ما هي الكلمات الفظيعة؟

- إنها كلمات عنك لا ينبغي أن أكتبها، لكنني أكتبها بسبب ما

أشعر به.

- وما الذي تشعر به، يا هاري؟

- بالحب، أشعر بحب كبير!

- اجعل من هذه الكلمات كلمات جميلة إذاً. هيا، إلى العمل، يا

هاري! اكتب كلمات جميلة!

أخذه من يده وأجلسته على الشرفة، وأحضرت له أوراقه ودفاتره وأقلامه، ثم أعدت له القهوة، وشغلت أسطوانة أوبرا، وفتحت نوافذ غرفة المعيشة لكي يسمعها بوضوح. كانت تعلم أن الموسيقى تساعد على التركيز. أطاعها واستعاد رباطة جأشه ثم بدأ من جديد؛ راح يكتب قصة حب، كما لو أن قصته، هو ونولا، كانت ممكنة. كتب لمدة ساعتين متواصلتين، وكانت الكلمات تأتي تلقائياً والجمل ترسم بانسيابية وسلاسة؛ تنبثق من قلمه الذي كان يرقص على الورق. وللمرة الأولى منذ أن أتى إلى هنا، شعر بأن روايته كانت تولد.

حين رفع عينيه عن ورقته، لاحظ أن نولا، التي حرصت أن تجلس في مقعد من الخوص بعيداً شيئاً ما كي لا تزعجه، كانت نائمة. كانت الشمس رائعة والجو حاراً جداً. وفجأة، مع كتابه، ومع نولا، ومع هذا المنزل على شاطئ المحيط، شعر بأن حياته رائعة، بل إن قرار ترك أورورا لم يكن قراراً سيئاً، إذ إنه سيكمل روايته في نيويورك، ويصبح كاتباً مشهوراً، وينتظر نولا. ففي الأخير، أن يغادر لا يعني أن يخسرها، بل على العكس ربما. فحالما تنهي دراستها الثانوية، سيتمكنها أن تلتحق بجامعة في نيويورك، وسيكونان معاً. وفي غضون ذلك، ستراسلان ويتقابلان في العطل، وستمر السنوات، ولن يظل حُبهما حباً ممنوعاً. أيقظ نولا بلطف، فابتسمت وتمططت.

- هل توفقت في الكتابة؟

- جداً.

- رائع! هل يمكن أن أقرأ ما كتبت؟

- قريباً، أعدك.

مر سربُ من النوارس فوق الماء.

- لا تنس النوارس! ضَع النوارس في روايتك!

- ستكون حاضرة في كل صفحة، يا نولا. ما رأيك في أن نذهب

لنقضي تلك العطلة في مارثاز فينيارد؟ هناك غرفة شاغرة الأسبوع المقبل.

أشرق وجهها:

- نعم! لنذهب! لنذهب معاً.

- لكن ماذا ستقولين لوالديك؟

- لا تقلق، هاري حبيبي. سأتولى أمر والديّ. ركّز أنت على

عملك العظيم وعلى حبك لي فحسب. هل ستبقى في أورورا إذا؟

- لا، يا نولا. عليّ أن أرحل في نهاية الشهر لأنه لم يعد

بإمكانني استئجار منزل كهذا.

- نهاية الشهر؟ لكن ها نحن في نهاية الشهر.

- أعلم ذلك.

اغرورقت عيناها بالدموع.

- لا ترحل، يا هاري!

- نيويورك ليست بعيدة. ستأتين لزيارتي، وسنتراسل، ونتكلم

على الهاتف. ولم لا تلتحقين بجامعة هناك؟ قلت لي إنك تحلمين
بزيارة نيويورك.

- الجامعة؟ سيكون ذلك بعد ثلاث سنوات! ثلاث سنوات من

دونك، يا هاري، لا أستطيع ذلك! لن أحتمله!

- لا تشغلي بالك، سيمرّ الوقت بسرعة، فالوقت يجري حين

نكون واقعين في الحب.

- لا تتركني، يا هاري، أرجوك. لا أرغب في أن تكون مارثاز

فينيارد رحلة وداع بالنسبة إلينا.

- نولا، لم يعد لديّ المال. لا يمكنني البقاء هنا.

- لا، يا هاري، أرجوك. سنجد حلاً. هل تحبني؟

- نعم.

- إذاً، إذا كنا نحب أحداً الآخر، فسنجد حلاً. فالناس الذين يحبون بعضهم بعضاً دائماً ما يجدون حلاً ليحبوا بعضهم أكثر. عدني أن تفكر في الأمر على الأقل.

- أعدك.

سافرا بعد ذلك بأسبوع، في فجر يوم الاثنين 28 يوليو 1975، دون أن يتحدثا ثانية في أمر الرحيل هذا، الذي أصبح حتماً بالنسبة إلى هاري. وقد لام نفسه على انجرافه في طموحاته وأحلام العظمة خاصته: كيف أمكن له أن يكون من السذاجة بحيث أراد أن يكتب عملاً عظيماً في غضون فصل صيف واحد؟

التقيا عند الرابعة صباحاً، في موقف السيارات التابع للميناء. كانت أورورا نائمة. قاد السيارة حتى بوسطن حيث تناولا الفطور، ثم واصلوا الطريق إلى فالماوث حيث استقلا العبّارة، فوصلا إلى جزيرة مارثاز فينيارد في منتصف الصباح. ومنذ ذلك الحين وهما يعيشان كأنهما في حلم، في هذا الفندق الرائع على شاطئ المحيط. كانا يسبحان في المحيط، ويتنزهان، ويتناولان العشاء معاً في قاعة الفندق الكبيرة، دون أن ينظر إليهما أحد أو يوجه إليهما الأسئلة. في مارثاز فينيارد، كانا يستطيعان العيش.

*

لقد مضى أربعة أيام على وصولهم إلى هنا. ممدّين على الرمال الساخنة، وفي مأمن من العالم الخارجي، كانا لا يباليان إلا بسعادتهما وبكونهما معاً؛ كانت تلهو بكاميرا التصوير، وكان هو يفكر في كتابه.

قالت لهاري إن والديها اعتقداها عند صديقة لها، لكنها كذبت، فقد هربت من المنزل من دون أن تخبر أحداً. كان تبرير غيابها لمدة

أسبوع أمراً صعباً، فغادرت دون أن تقول شيئاً. خرجت عند الفجر من نافذة غرفتها فحسب. وبينما كانت هي وهاري مسترخيين على الشاطئ، كان الأب كيلرغان في أورورا يعاني من قلق شديد. ففي صباح يوم الاثنين، وجد غرفتها فارغة. لم يخبر الشرطة؛ فكانت هناك محاولة الانتحار أولاً، ثم هذا الهروب. إذا أبلغ الشرطة، فسيعرف الجميع. أمهل نفسه سبعة أيام ليعثر عليها: سيجول المنطقة بسيارته بحثاً عن ابنته. وبعد سبعة أيام، سيستعين بالسلطات المعنية.

لم يشك هاري في شيء. كان الحب يعميه، كما أنه لم يلاحظ الطيف الجاثم في العتمة والذي كان يراقبهما، حين لحقت به نولا عند الفجر في موقف السيارات التابع للميناء.

عادا إلى أورورا بعد ظهر يوم الأحد 3 أغسطس، وعند عبورهما الحدود بين ماساتشوستس ونيو هامبشير، راحت نولا تبكي. قالت لهاري إنها لن تستطيع العيش من دونه، وإنه لا يحق له أن يرحل ويتركها، وإن حباً كحبهما لا يحدث سوى مرة واحدة في الحياة. «لا تتركني يا هاري، لا تتركني هنا»، توسلت إليه. قالت إنه تقدم في كتابه كثيراً في الأيام القليلة الأخيرة، ولا يمكن له أن يجازف بأن يفقد إلهامه. «سأعتني بك، بحيث لا يكون لديك سوى أن تركز على كتابتك، فأنت بصدد كتابة عمل عظيم، ولا يحق لك أن تفسد كل شيء». كانت محققة، فهي كانت ملهمته، إلهامه، ولولاها لما استطاع أن يكتب بهذه الجودة وهذه الوتيرة. لكن جاء كل هذا متأخراً جداً، فهو لم يعد لديه المال ليدفع إيجار المنزل. كان عليه أن يرحل.

أنزل نولا قبل منزلها ببضع مربعات سكنية وقبلها مرة أخيرة؛ كانت وجنتاها مبللتين بالدموع، كما أنها تمسكت به كي تحتفظ به.

- قل لي إنك ستكون هنا غداً صباحاً!

- نولا، أنا...

- سأحضر لك مخبوزات ساخنة وسأعدّ القهوة. سأفعل كل شيء. سأكون زوجتك وستكون أنت كاتباً عظيماً. قل لي إنك ستكون هنا. . .

- سأكون هنا.

أشرق وجهها.

- حقاً؟

- سأكون هنا. أعدك.

- أن تعدني ليس كافياً يا هاري. أقسم، أقسم بحبنا أنك لن تتركني.
- أقسم لك، يا نولا.

لقد كذب عليها، لأن الأمر كان صعباً جداً. وفور اختفائها في زاوية الشارع، عاد مسرعاً إلى غوز كوف. كان عليه أن يتحرك بسرعة، فلن يجازف بأن تعود وتفاجئه وهو يهرب. سيكون في بوسطن هذا المساء. في المنزل، حزم أمتعته على عجل: كدس حقائبه في صندوق السيارة وألقى ما بقي منها على المقعد الخلفي، ثم أغلق النوافذ وقطع الغاز والماء والكهرباء. كان يهرب، يهرب من الحب.

أراد أن يترك لها رسالة. فخط بضعة سطور: نولا حبيبتي، كان عليّ أن أرحل. سأكتب لك، أحبك إلى الأبد، خطها على عجل على ورقة صغيرة وضعها في إطار الباب، قبل أن يزيلها خشية أن يعثر عليها أحد. أغلق الباب بالمفتاح، ركب سيارته وأدار المحرك، وهرب بكل سرعة. وداعاً غوز كوف، وداعاً نيو هامبشير، وداعاً نولا.
انتهى الأمر إلى الأبد.

محاولة هروب

«يجب عليك أن تحضّر نصوصك كما تحضّر لمباراة ملاكمة، يا ماركوس: في الأيام التي تسبق القتال، ينبغي أن تتمرن في حدود 70% من طاقتك فقط، لتترك ذلك الغضب يغلي ويتصاعد بداخلك ولا تتركه ينفجر إلا في يوم المباراة.

- ماذا يعني ذلك؟

- أنه حين تكون لديك فكرة، بدلاً من أن تستخدمها فوراً في إحدى قصصك التي لا يقرأها أحد والتي تنشرها في الصفحة الأولى من المجلة التي تديرها، يجب عليك أن تبقّيها بداخلك لتسمح لها بأن تنضج. يجب عليك أن تمنعها من الخروج، يجب عليك أن تتركها تكبر بداخلك إلى أن تشعر أن الوقت قد حان. سيكون هذا الدرس رقم... إلى أي وصلنا؟

- 18.

- لا، وصلنا إلى الرقم 17.

- ولماذا تسألني إذا كنت تعلم؟

- لأرى ما إذا كنت تتابع، يا ماركوس.

- إذاً، رقم 17، يا هاري... اجعل من أفكارك...

- إضاءات تنويرية.

يوم الثلاثاء 1 يوليو 2008، حكى لي هاري، الذي كنت أصغي إليه بشغف، في قاعة الزيارات بسجن الولاية بنيو هامبشير، أنه حين كان على وشك مغادرة أورورا، وبعد أن سلك لتوه الطريق رقم 1 بسرعة كبيرة، تقاطع مع سيارة أخرى استدارت فجأة وراحت تطارده.

*

مساء الأحد 3 أغسطس 1975

ظن في البداية أنها سيارة شرطة، لكن لم تكن لها شارة ضوئية ولا صفارة إنذار. كانت هناك سيارة تتعقبه وتطلق بوقها دون أن يعرف السبب، فخشي من أن يكون قد وقع ضحية قطاع طرق. حاول أن يزيد من سرعته، إلا أن ملاحقه نجح في تخطيه وأجبره على التوقف على جانب الطريق بعد أن قطع الطريق أمامه. قفز هاري خارج السيارة، متأهباً للفرار، قبل أن يتعرف إلى سائق ستيرن، لوثر كاليب، الذي خرج من سيارته هو الآخر.

- أنت مجنون حقاً! صرخ هاري.

- اعذرني، يا فيد كبير، لم أقصد أن أخيفك، لكن الفيد فتين يرغب في رؤيتك لأمر ضروري. فأنا أبحث عنك منذ عدة أيام.

- وماذا يريد مني السيد ستيرن؟

كان هاري يرتجف، وكاد الأدرينالين يفتك بقلبه.

- لا أعلم، يا فيد كبير، لكنه قال إن الأمر مهم. هو ينتظرك في منزله.

أمام إصرار لوثر، قَبِل هاري على مضض بأن يتبعه إلى كونكورد. كان الليل قد حل. وصلاً إلى منزل ستيرن الضخم، حيث قاد لوثر هاري إلى شرفة شاسعة، دون أن ينطق بكلمة. كان الإيجاه ستيرن جالساً أمام طاولة، يحتسي الليموناضة، مرتدياً روباً منزلياً خفيفاً. وحالماً رأى هاري، نهض وتوجه نحوه، وقد بدا عليه الارتياح.

- أوه، عزيزي هاري، ظننت أنني لن أعرث عليك أبداً! أشكرك على مجيئك إلى هنا في وقت متأخر كهذا. لقد اتصلت بك في المنزل وكتبت لك رسالة. أرسلت لوثر كل يوم. لكن لا خبر عنك. أين كنت بحق الجحيم؟

- كنت خارج المدينة. ما هو الأمر المهم لهذه الدرجة؟
- إنني أعرف كل شيء! كل شيء! رغم أنك أردت أن تخفي عني الحقيقة.

شعر بنفسه يتصدع: كان ستيرن يعلم بأمر نولا.

- عمّ تتحدث؟ تتمم هاري.

- عن منزل غوز كوف، يا صديقي! لماذا لم تخبرني بأنك كنت ستغادر المنزل بسبب المال؟ وكالة بوسطن هي التي أخبرتني بذلك. قالوا إنكم اتفقتم على أن تسلمهم المفاتيح غداً، ما جعل الأمر عاجلاً بالنسبة إليّ. كان عليّ أن أتحدث إليك! من المؤسف أن ترحل! أنا لست بحاجة إلى المال الذي أجنيه من تأجير هذا المنزل، وأرغب في دعم مشروعي الأدبي. أرغب في أن تبقى في غوز كوف حتى تنتهي من روايتك، ما رأيك؟ لقد أخبرتني أن المكان يلهمك، فلماذا الرحيل؟ لقد رتبْتُ كل الأمور مع الوكالة. أنا أعشق الفن والثقافة: إذا كنت مرتاحاً في هذا المنزل، ابقَ فيه بضعة أشهر إضافية! سأكون

فخوراً جداً أنني ساهمت في نجاح رواية عظيمة. لا ترفض، أرجوك،
فأنا لا أعرف كُتَّاباً كثيرين. . . وأرغب في مساعدتك حقاً.

تنهد هاري تنهيدة ارتياح وترك نفسه يسقط على كرسي، وقَبِلَ
عرض الإيجاه ستيرن فوراً. كانت فرصة لا تُفوت: أن يستفيد من غوز
كوف بضعة أشهر إضافية، وأن ينهي روايته بفضل إلهام نولا. إذا عاش
على نحو متواضع، بعد أن أعفي من إيجار المنزل، كان بإمكانه أن
يؤمن احتياجاته. بقي مع ستيرن في الشرفة لبعض الوقت، يتحدثان عن
الأدب، ليكون مهذباً مع مضيفه فحسب، إذ كانت رغبته الوحيدة هي
أن يعود إلى أورورا ليقابل نولا ويخبرها بأنه وجد حلاً. ثم فكر أنها
قد تكون قد ذهبت إلى غوز كوف. هل وجدت الباب مغلقاً؟ هل
اكتشفت أنه فرّ؟ أنه كان مستعداً لأن يتركها؟ شعر بمعدته تنقبض،
وحالما بدا الوقت مناسباً، استأذن وعاد مسرعاً إلى غوز كوف، حيث
أسرع إلى فتح الباب، والنوافذ، والغاز، والكهرباء، والماء، ثم رتب
أغراضه في مكانها ومحا كل أثر لمحاولة الهروب. لا يجب أن تعرف
نولا بهذا الأمر أبداً. نولا، ملهمته. تلك التي من دونها لا يستطيع أن
يفعل شيئاً.



- هكذا استطعت البقاء في منزل غوز كوف ومواصلة العمل على
كتابي، قال لي هاري. ففي الأسابيع التالية، لم أفعل سوى ذلك:
الكتابة. كتبت كالمجنون، كتبت كأنني محموم، كتبت حتى فقدت
الشعور بالليل والنهار، بالجوع والشبع. كتبت بلا توقف، كتبت حتى
ألمتني عيناوي، ورسغاي، ورأسي. كتبت حتى شعرت بالغثيان. طوال
ثلاثة أسابيع، كتبت ليلاً نهاراً. وأثناء ذلك، كانت نولا تعتني بي،
تأتي لترعاني وتطعمني، وتأخذني إلى السرير لأنام، وتصطحبني في
نزهة إذا رأنتني منهكاً. كانت متفانية في خدمتي، وبفضلها، كان كل

شيء ممكنًا. كما كانت تطبع ما أكتبه على آلة كاتبة، آلة ريمington صغيرة محمولة. وغالباً ما كانت تحمل معها جزءاً من المخطوطة لتقرأه، دون أن تطلب إذني، فتأتي في اليوم التالي لتطلعني على ملاحظاتها، التي غالباً ما كانت إطنائية؛ تقول إنه نص رائع، وإنها أجمل كلمات قرأتها، وتمدني، بعينها المغرمتين، بثقة عجيبة.

- ماذا قلت لها بشأن المنزل؟

- قلت إنني أحبها كثيراً، وإنني أرغب في البقاء معها، وإنني استطعت أن أرتب الأمور مع البنك بحيث يمكنني أن أستمّر في استئجار المنزل. وبفضلها استطعت أن أوّلّف هذا الكتاب، يا ماركوس. لم أعد أذهب إلى كلاركس ولم يعد يراني أحد في المدينة. كانت تحرص على راحتي، كانت تهتم بكل شيء. كانت تقول لي إنني لا أجد التسوق وحدي لأنني لا أعلم ما أنا بحاجة إليه، فكنا نذهب للتسوق معاً في متاجر بعيدة، حيث كنا ننعم بالراحة. وإذا عرفت أنني لم أكل وجبة، أو تعشيت بالبسكويت، كانت تغضب. لكن يا له من غضب رائع... كم وددت لو رافقني هذا الغضب العذب طوال حياتي.

- إذاً، فقد كتبت أصول الشر في بضعة أسابيع حقاً؟

- نعم، لقد كنت مسكوناً بنوع من الحمى الإبداعية، لم أعرفها بعد ذلك أبداً. هل سبّب الحب ذلك؟ من دون أدنى شك. أعتقد أنه حين اختفت نولا، اختفى معها جزء من موهبتي، فأنت تفهم الآن لماذا أتوسل إليك ألا تقلق حين يتهرب منك الإلهام.

دخل علينا حارس ليخبرنا أن الزيارة على وشك الانتهاء وأنه يتعين علينا إنهاء حديثنا.

- كانت نولا تأخذ المخطوطة معها إذاً؟ واصلت بسرعة كي لا أقطع خط المحادثة.

- كانت تأخذ الأجزاء التي طبعتها. كانت تقرأها وتشاركني

رأيها. أتعلم يا ماركوس، كان شهر أغسطس 1975 هذا جنة حقيقية، كنت سعيداً جداً، كنا سعيدين جداً، إلا أن فكرة أن شخصاً ما كان يعرف بأمرنا كانت تؤرقني. شخص مستعد أن يلطخ مرآة بتلك القذارات. كما كان بإمكانه أن يتجسس علينا من الغابة ويرى كل شيء. كانت هذه الفكرة ترعبني.

- ألهذا أردتما الرحيل؟ هذا الرحيل الذي خطتتما له معاً ليكون مساء يوم 30 أغسطس. لماذا؟

- آه، يا ماركوس، بسبب قصة رهيبة. هل أنت تسجل الآن؟

- نعم.

- سأحكي لك فقرة خطيرة. لتفهم. لكني لا أريد أن يعرف أحد بذلك.

- اعتمد عليّ.

- أتعلم، حين كنا في مارتاز فينيارد، بدل أن تقول نولا لوالديها إنها كانت تقضي عطلتها مع صديقتها، قالت إنها فرت بكل بساطة. غادرت المنزل دون أن تخبر أحداً. وحين رأيتهما من جديد في اليوم التالي لعودتنا، بدت حزينة جداً، وأخبرتني أن أمها ضربتها. قالت لي يومذاك إنها دائماً ما تعاقبها، ولأنفه الأسباب. تضربها بمسطرة من حديد، وتملاً حوضاً بالماء وتمسكها من شعرها وتغطس وجهها في الماء. كانت تقول إنها تفعل ذلك لتحررها.

- لتحررها؟

- لتحررها من الشر. لم أصدقها في البداية، لكن كانت الإثباتات والأدلة واضحة. فسألتها - من الذي يفعل بك ذلك؟ - ماما. - ولماذا لا يتدخل والدك؟ - «والدي يغلق على نفسه في المرآب ويصغي إلى الموسيقى بصوت عالٍ جداً حين تعاقبني أُمي. هو لا يريد أن يسمع». لم يكن بإمكان نولا التحمل أكثر من ذلك، يا ماركوس. أردت التدخل، أردت الذهاب لمقابلة والديها. كان على هذا التعنيف

أن يتوقف. لكنها توسلت إليّ ألا أفعل. قالت إن هذا سيسبب لها المتاعب، وإن والديها سيبعدانها عن المدينة فلن نرى بعضنا بعد ذلك. لكن لم يكن من الممكن أن تستمر الأمور على هذا النحو، لذلك، في نهاية شهر أغسطس، يوم 20 أغسطس تقريباً، قررنا أن نرحل. سريعاً. وفي سرية تامة طبعاً. وحددنا يوم 30 أغسطس لفعل ذلك. كنا نريد أن نذهب بالسيارة إلى حدود كندا، ثم نعبر حدود فيرمونت وصولاً إلى كولومبيا البريطانية، حيث أردنا أن نعيش في كوخ من الخشب. حياة هادئة على شاطئ بحيرة، لن يعرف بها أحد.

- أكان هذا هو السبب وراء رغبتكما في الرحيل معاً إذاً؟

- نعم.

- لكن لماذا لا تريدني أن أخبر أحداً؟

- هذه ليست سوى بداية القصة، يا ماركوس، فقد اكتشفت لاحقاً شيئاً رهيباً بشأن والدة نولا. . . .

في هذه اللحظة، دخل الحارس ليعلن نهاية الزيارة.

- سنستأنف هذه المحادثة في الزيارة المقبلة، يا ماركوس، قال هاري وهو ينهض. إلى ذلك الحين، احتفظ بالقصة لنفسك.

- أعدك أن أفعل، يا هاري. لكن قل لي: ماذا كنت ستفعل بالكتاب لو هربت؟

- كنت أصبحت كاتباً منفياً. أو لم أكن لأصبح كاتباً أصلاً. ففي تلك اللحظة، لم يعد ذلك يهم. كانت وحدها نولا هي التي تعينني. كانت نولا عالمي. لم يكن الباقي يهم.

بقيت مشدوهاً لبعض الوقت. كانت هذه إذاً الخطة المتهورة التي وضعها هاري قبل ثلاثة وثلاثين سنة؛ أن يهرب إلى كندا مع هذه الفتاة التي وقع في حبها. أن يغادر مع نولا ويعيش مختبئاً في كوخ على شاطئ بحيرة، دون أن يتخيل أن نولا، في تلك الليلة، ستختفي

وتُقتل، وأن الكتاب الذي أُلّفه في وقت قياسي حينذاك، سيصبح من أنجح الكتب للنصف الثاني من القرن، ويحقق مبيعات خيالية.

أثناء لقائنا الثاني، حكّت لي نانسي هاتاواي عن أسبوع مارثا فينيارد من زاويتها. أخبرتني أنه في الأسبوع الذي تلا عودة نولا من مشفى شارلوتس هيل، ذهبنا كل يوم لتسبحا في غراند بيتش، وأن نولا تناولت العشاء عندها عدة مرات. لكن يوم الاثنين التالي، حين طرقت نانسي باب المنزل رقم 245 بتراس أفينيو لتذهب ونولا إلى الشاطئ، كما في الأيام السابقة، قيل لها إن نولا مريضة وإنها بحاجة إلى الراحة.

- لقد سمعت الكلام نفسه طوال أسبوع كامل: «نولا مريضة، لا يمكنها أن تستقبل الزيارات». وحتى أُمي التي جاءت لتستقصي عن الأخبار لم تعبر عتبة الباب. كدت أجن، علمت أن هناك خطباً ما. ثم فهمت: كانت نولا قد اختفت.

- ما الذي جعلك تعتقدين ذلك؟ من الممكن أن تكون مريضة بالفعل...

- كانت أُمي من لاحظت هذا التفصيل آنذاك: لم تعد هناك أي موسيقى. طوال الأسبوع، لم نسمع الموسيقى ولو لمرة واحدة. لعبت دور محامي الشيطان:

- إذا كانت مريضة حقاً، قلت، فقد يعني ذلك أنهما لم يرغباً في إزعاجها بالموسيقى.

- كانت هذه المرة الأولى منذ وقت طويل التي لم نسمع فيها الموسيقى. كان أمراً غير معتاد على الإطلاق. فأردت أن أتأكد من الأمر بنفسي، وبعد أن سمعتُ للمرة الألف أن نولا مريضة وملتزمة الفراش، تسللت إلى الجزء الخلفي من المنزل، ونظرت من نافذة غرفة نولا. كانت الغرفة فارغة والسرير مرتباً. نولا لم تكن موجودة، كان

هذا مؤكداً. ثم عادت الموسيقى تنبعث من مرآب المنزل ابتداءً من مساء الأحد، وفي اليوم التالي، ظهرت نولا من جديد. أيمن أن تكون مجرد مصادفة؟ جاءت عندنا في آخر النهار ومشينا معاً حتى حديقة الشارع الرئيسي، وهنا انهلْتُ عليها بالأسئلة، خاصة وأنه كانت هناك كدمات على ظهرها: كنت قد أجبرتها على رفع فستانها خلف الشجيرات، ورأيت أنها تعرضت إلى ضرب مبرح. أصررتُ على أن أعرف السبب، فانتهى بها المطاف إلى أن تخبرني أنها عوقبت لأنها قضت أسبوعاً خارج المنزل، قضته مع رجل، رجل يكبرها سناً. ستيرن، على الأرجح. قالت إنها أمضت وقتاً رائعاً، وإنه يستحق ما نالته من عقاب عند عودتها إلى المنزل.

تحفظت على إخبارها أن نولا قضت ذلك الأسبوع مع هاري في مارثا فينيارد، وليس مع إيجاه ستيرن. وقد بدا أنها لم تكن تعلم الكثير عن علاقة نولا بستيرن.

- أعتقد أن علاقتها بستيرن كانت قدرة، واصلتُ، خاصة حين أفكر فيها الآن. كان لوثر كاليب يأتي ليأخذها من أورورا في سيارة موستانغ زرقاء، وأعلم أنه كان يقودها إلى ستيرن. كان كل شيء يحدث في الخفاء طبعاً، لكنني كنت شاهدة على الأمر ذات مرة. قالت لي نولا حينذاك: «لا تخبري أحداً! أستحلفك بصدقتنا، وإلا سنواجه المتاعب نحن الاثنين». فسألتها: «لكن لماذا تذهبين إلى منزل هذا الرجل العجوز، يا نولا؟»، فأجابت: «بدافع الحب».

- متى بدأ ذلك؟ سألتها.

- لا يمكنني القول بالتحديد. عرفت به في الصيف، لكنني لا أذكر متى تحديداً، فقد حدثت أمور كثيرة في ذلك الصيف. من يدري، قد تكون تلك القصة قد بدأت منذ وقت طويل، منذ سنوات ربما.

- لكنك حدثت أحداً عنها في الأخير، أليس كذلك؟ حين اختفت

نولا.

- طبعاً! أخبرت الرئيس برات. أخبرته بكل ما أعرفه، كل ما قلته لك، فطلب مني ألا أقلق، وأكد لي أنه سيقوم باللائم.
- وهل أنت مستعدة للبوح بكل ذلك أمام المحكمة؟
- بالتأكيد، إذا لزم الأمر.

كانت لدي رغبة في إجراء حديث ثانٍ مع الأب كيلرغان في حضور الرقيب غاهالوود، فاتصلت بالآخر لأقترح عليه الفكرة.

- أن نستجوب الأب كيلرغان معاً؟ أتصور أن لديك غاية محددة من ذلك.

- نعم ولا. أريد أن أحدثه عن العناصر الجديدة للتحقيق: علاقات ابنته، والضرب الذي كانت تتعرض له في المنزل.
- ماذا تريد مني؟ أن أذهب إلى الأب كيلرغان وأسأله عما إذا كانت ابنته فاسقة؟

- بالله عليك أيها الرقيب، أنت تعلم أننا في صدد كشف معلومات مهمة، وأنه في غضون أسبوع، نُسفت كل قناعاتك. هل يمكنك أن تخبرني اليوم من كانت نولا كيلرغان حقيقة؟

- حسنٌ، أيها الكاتب، لقد أقنعتني. سأتي إلى أورورا غداً. هل تعرف مطعم كلاركس؟

- بالتأكيد، لماذا؟

- موعدنا هناك عند العاشرة صباحاً. سأشرح لك.

ذهبتُ في اليوم التالي إلى مطعم كلاركس قبل الموعد المحدد، لأتحدث قليلاً عن الماضي مع جيني. ذكرت لها حفل صيف 1975 الراقص، وحكت لي أنه كان من أسوأ ذكرياتها، هي التي تخيلت نفسها تحضره برفقة هاري. وحين ربح هاري الجائزة الأولى في اليانصيب، تمنيت سراً أن تكون سعيدة الحظ التي سيأتي هاري ذات صباح ليأخذها تقضي معه أسبوع حب تحت الشمس.

- كان لديّ أمل، قالت لي. تمنيت من كل قلبي أن يختارني أنا. لقد انتظرته كل يوم، ثم، في نهاية شهر يوليو، اختفى لمدة أسبوع، ففهمت أنه قد يكون ذهب إلى مارثاز فينيارد من دوني. لا أدري مع من ذهب...

كذبتُ مراعاةً لشعورها:

- وحده، قلت. لقد ذهب وحده.

ابتسمت، وكأنها شعرت بالارتياح، ثم قالت:

- منذ أن عرفت بأمر هاري ونولا، منذ أن عرفت أنه أُلّف هذا

الكتاب من أجلها وأنا لا أشعر بنفسي أنى. لماذا اختارها هي؟

- هذه الأشياء لا يمكن التحكم فيها. ألم تشكّي أبداً في شأن

نولا وهاري؟

- هاري ونولا؟ من كان ليتخيل أمراً كهذا؟

- أمك؟ هي تقول إنها كانت على علم بالأمر منذ البداية. ألم

تحدثك عن ذلك من قبل؟

- لم تذكر علاقة بينهما أبداً، لكن صحيح أنها بعد اختفاء نولا،

قالت إنها تشك في هاري. أتذكّر أنه عندما كان يسعى لمغازلتي، كان

يأتي أحياناً ليتناول الغداء معنا يوم الأحد، فكانت أُمي لا تكف عن

ترديد: «أنا متأكدة أن لهاري علاقة باختفاء الصغيرة!»، فكان يجيب

ترافيس: «لا بد من أدلة، يا سيدة كوين، وإلا فهذا لن يفيد في شيء»،

فتردد أُمي أيضاً: «كان لدي دليل، دليل قاطع، لكنني فقدته». أنا لم

أصدّقها أبداً، فأُمي كانت تتمنى لهاري الموت بعد قصة حفل الحديقة.

وصل غاهالوود إلى كلاركس في العاشرة بالضبط، وكانت جيني

وقتذاك قد عادت إلى المطبخ.

قال لي وهو يجلس بجانبني عند المنضدة:

- لقد وضعت إصبعك على المكان الصحيح، أيها الكاتب.

- لماذا؟

- لقد تحريث عن لوثر كاليب هذا. لم يكن الأمر سهلاً، وإليك ما وجدت: لقد وُلد عام 1945 في بورتلاند، بولاية مين. لا أعرف ما الذي أتى به إلى المنطقة، لكن بين عامي 1970 و1975، دُون اسمه في سجلات الشرطة في كونكورد ومونتيري وأورورا بسبب سلوكه غير اللائق تجاه النساء. كان يتسكع في الشوارع، ويضايق النساء، حتى أن شكوى قُدمت ضده من طرف سيدة تدعى جيني كوين، أصبحت جيني داون. هي التي تدير هذه المؤسسة. شكوى بالتحرش، قُدمت في أغسطس 1975. لهذا السبب أردت أن نلتقي هنا.

- قدمت جيني شكوى ضد لوثر كاليب؟

- أتعرفها؟

- بالتأكيد.

- نادِها إذاً، لو سمحت.

طلبْتُ من إحدى النادللات أن تذهب وتحضر جيني من المطبخ، فقدّم غاهالوود نفسه لها وطلب منها أن تحدثه عن لوثر. هزت كتفها: - ليس هناك الكثيرة لأقوله. كان شاباً لطيفاً رغم مظهره. كان يأتي إلى هنا في كلاركس من وقت لآخر، وكنت أقدم له القهوة وساندويتشاً، ولم أطلب منه الدفع يوماً، فكان مسكيناً. كنت أشعر بالأسف عليه.

- لكنك قدمت شكوى ضده، لاحظ غاهالوود.

بدت الدهشة على جيني:

- أرى أن معلوماتك دقيقة، أيها الرقيب. لقد حدث ذلك منذ زمن طويل. كان ترافيس من حثني على تقديم تلك الشكوى. كان يقول حينذاك إن لوثر شخص خطير وينبغي إبعاده.

- لماذا خطير؟

- في ذلك الصيف، كان يأتي إلى أورورا كثيراً، وصدر منه تصرفات مزعجة تجاهي.

- لماذا تصرف لوثر كاليب بعنف؟
- العنف كلمة مبالغ فيها، فلنقل إنه كان ملحاحاً، إذ كان يصر على أن... قد يبدو لك الأمر سخيلاً...
- أخبرينا بكل شيء يا سيدتي، فقد يكون تفصيلاً مهماً.
- أومأت برأسي لأشجع جيني على الكلام.
- كان يصر على أن يرسمني، قالت.
- يرسمك؟
- نعم. كان يقول إنني امرأة جميلة، وإنه يراني رائعة، وكل ما يريده هو أن يرسمني.
- ماذا جرى له؟ سألتها.
- فجأة، لم نعد نراه في المدينة، ردت جيني. قيل إنه مات في حادث سير. اسأل ترافيس، قد يعرف أكثر عن الموضوع.
- أكد لي غاهالوود أن لوثر كاليب توفي في حادث سير. يوم 26 سبتمبر 1975، أي أربعة أسابيع بعد اختفاء نولا، عُثر على سيارته أسفل جرف بالقرب من ساغامور في ماساتشوستس، على بعد حوالي مئة وعشرين ميلاً من أورورا. وبحسب غاهالوود، كان لوثر كاليب قد التحق بكلية الفنون الجميلة في بورتلاند، فكان من الممكن تصديق أنه هو من رسم لوحة نولا.
- قال لي غاهالوود:
- لوثر هذا قصته غريبة، قال غاهالوود. هل حاول التحرش بنولا؟ هل حاول الاعتداء عليها في غابة سايد كريك؟ قتلها في نوبة من العنف ثم تخلص من جسدها قبل أن يهرب إلى ماساتشوستس. ثم شعر بالذنب، وعرف أنه ملاحق، فألقى بنفسه وهو في سيارته من أعلى الجرف. له أخت في بورتلاند بمين، حاولت الاتصال بها لكن من دون جدوى. سأحاول من جديد.

- لماذا لم تتبنّ الشرطة هذه الفرضية آنذاك؟

- كي تفعل، كان لا بد اعتبار كاليب مشتبهاً فيه، إلا أنه لم يكن هناك عنصر في ملف القضية يشير إليه كمشتبه فيه.

- هل يمكن أن نستجوب ستيرن؟ سألته. على نحوٍ رسمي. وتفتيش منزله ربما؟

بدا على غاهاالوود الهزيمة.

- ستيرن شخص نافذ جداً. وبما أنه ليست لدينا أمور ملموسة، فالمدعي العام لن يدعمنا. لا بد لنا من عناصر متينة. أدلة حقيقية، أيها الكاتب، يلزمنا أدلة. لدينا اللوحة.

- اللوحة دليل غير قانوني، كم من مرة أحتاج أن أقول لك ذلك؟ والآن، أخبرني ما الذي تنوي فعله عند الأب كيلرغان.

- أريد أن أستوضح بعض النقاط، فكلما ازدادت معلوماتي عنه وعن زوجته، تكاثرت أسئلتي.

أشرتُ إلى رحلة هاري ونولا إلى مارثاز فينيارد والضربات المتكررة التي كانت تتلقاها من أمها، فيما كان الأب يختبئ في المرآب. كان هناك برأيي لغز كبير حول نولا: فتاة مشرقة ومنطفئة في آنٍ واحد، إذ رآها الجميع مشرقة، لكنها حاولت أن تنتحر في الوقت نفسه. تناولنا الفطور ثم اتجهنا إلى منزل الأب كيلرغان.

كان باب منزل تراس أفينيو مفتوحاً، لكنه لم يكن هناك؛ لم تنبعث أي موسيقى من المرآب. انتظرناه في الفناء الأمامي. وصل بعد نصف ساعة على دراجة نارية: الهارلي ديفيدسون التي قضى السنوات الثلاث والثلاثين الأخيرة في إصلاحها. كان يقودها عاري الرأس، وفي أذنيه سماعتان موصولتان إلى جهاز محمول لتشغيل الأسطوانات. حيّانا وهو يصيح بسبب صوت الموسيقى المرتفع في أذنيه، وفور

دخوله المرآب، أوقف الجهاز المحمول وأدار مشغل الموسيقى، الذي أصم المنزل بأكمله.

- لقد تدخلت الشرطة عدة مرات، فقد اشتكى كل الجيران من صوت الموسيقى المرتفع، قال لنا. وقد أتى الرئيس ترافيس داون بنفسه ليقنعني بالتخلي عن موسيقي، فأجبت: «ماذا تريد مني؟ الموسيقى هي عقابي». فاشتري لي مشغل الموسيقى المحمول هذا مع أسطوانات صغيرة، لأفجر طبلية أذني دون أن أفجر خدمة الهاتف لدى الشرطة بشكاوى الجيران، على حد قوله.

- وماذا عن الدراجة النارية؟ سألته.

- لقد انتهيت من إصلاحها. إنها جميلة، أليس كذلك؟

الآن وقد علم بمصير ابنته، استطاع أن ينهي تصليح الدراجة النارية التي كان يعمل عليها منذ المساء الذي اختفت فيه. أجلسنا ديفيد كيلرغان في مطبخه وقدم لنا شايًا مثلجاً.

- متى ستسلمونني جثة ابنتي، أيها الرقيب؟ سأل غاهالوود. يجب أن ندفنها الآن.

- قريباً، يا سيدي. أعلم أنه أمر صعب.

عبث الأب كيلرغان بكوبه.

- كانت تحب الشاي المثلج، قال لنا. في ليالي الصيف، غالباً ما كنا نأخذ زجاجة كبيرة منه ونذهب إلى الشاطئ لنشاهد النوارس وهي ترقص في السماء. كانت تحب النوارس. كانت تحبها كثيراً، أتعلم ذلك؟

أومأت بالإيجاب، ثم قلت له:

- هناك نقاط غامضة في الملف، يا سيد كيلرغان، لهذا جئنا إلى هنا، أنا والرقيب غاهالوود.

- نقاط غامضة؟ أتصور ذلك... لقد قُتلت ابنتي ودُفنت في حديقة. هل من جديد؟

- سيد كيلرغان، هل تعرف أحداً يدعى إلبجاه ستيرن؟ سأله غاهالوود.
- ليس شخصياً. لقد صادفته بضع مرات في أورورا، لكن منذ زمن طويل. إنه رجل ثري جداً.
- وماذا عن مساعده؟ لوثر كاليب؟
- لوثر كاليب... لا أعرف أحداً بهذا الاسم. لكن قد أكون نسيت، فقد مضى وقت طويل. لماذا هذه الأسئلة؟
- تشير المعلومات إلى أن نولا كانت على صلة بهذين الشخصين.
- على صلة؟ كرر الأب كيلرغان الذي لم يكن غيباً. ما الذي تعنيه «على صلة» باللغة الدبلوماسية للشرطة؟
- نعتقد أن نولا كانت على علاقة بالسيد ستيرن. يؤسفني أن أخبرك بذلك على نحوٍ فظ.
- احمرّ وجه الأب.
- نولا؟ ما الذي تحاول التلميح إليه؟ أن ابنتي كانت عاهرة؟ ابنتي ضحية هذا المنحرف هاري كبير: متحرش بالأطفال كُشف أمره، سينتهي به الحال في طابور الإعدام! اذهب واهتم بأمره بدلاً من تلطّيح سمعة الموتى، أيها الرقيب! هذه المحادثة انتهت. إلى اللقاء، أيها السيدان.
- نهض غاهالوود مطيعاً، لكن كانت لا تزال هناك نقاط أرغب في استيضاحها، فقلت له:
- كانت زوجتك تضربها، أليس كذلك؟
- المَعذرة؟ قال كيلرغان وهو يكاد يختنق بكلامه.
- زوجتك، كانت تنهال على نولا بالضرب، أليس كذلك؟
- أنت مجنون!
- لم أتركه يكمل:

- لقد فرّت نولا من المنزل في نهاية شهر يوليو 1975. لقد فرّت ولم تخبر أنت أحداً بالأمر، هل أنا مخطئ؟ لماذا؟ هل شعرت بالخزي؟ لماذا لم تبلغ الشرطة حين هربت من المنزل في نهاية شهر يوليو 1975؟

- كانت ستعود... والدليل على ذلك أنها كانت هنا في المنزل بعد أسبوع.

- أسبوع! لقد انتظرت أسبوعاً! مع أنك في ليلة اختفائها، أبلغت الشرطة بعد ساعة واحدة من ملاحظتك ذلك. لماذا؟

راح الأب يصرخ:

- لأنني في تلك الليلة، وأنا أبحث عنها في الحي، سمعت بأمر تلك الفتاة التي عُثر عليها ملطخة بالدم في سايد كريك، فربطت الأمرين! ما الذي تريده مني، يا غولدمان؟ لم تعد لديّ أسرة، لم يعد لديّ شيء! لماذا تعود لتتكأ جروحي من جديد؟ اخرج من هنا، الآن! اخرج من هنا!

لم أدعه يزعرع عزيمتي:

- ما الذي حدث في ألاباما، يا سيد كيلرغان؟ لماذا جئتم إلى أورورا؟ وما الذي حدث هنا عام 1975؟ أجبني! أجبني بحق السماء! أنت مدين بذلك لابنتك!

نهض كيلرغان مثل المجنون وانقض عليّ. أمسك بياقة قميصي بقوة لم أتوقعها منه أبداً، وقال صارخاً وهو يدفع بي إلى الوراء: «اخرج من هنا! اخرج من منزلي!». وكنت لأسقط أرضاً على الأرجح لولا أن غاهاالوود أمسك بي وأخرجني من المنزل.

- هل أنت معتوه، أيها الكاتب؟ وبّخني ونحن في طريقنا إلى سيارته. أم أنك غبي فحسب؟ أتريد أن يستاء منا كل الشهود؟ عليك أن تعترف أن الأمر غريب...

- ما الغريب في الأمر؟ لقد نعتنا ابنته بالفاسقة فغضب، ما

- الغريب في ذلك؟ لكنه كان على وشك تلقينك درساً، فالرجل العجوز لا يزال قوياً، لم أتخيل ذلك منه أبداً!
- أنا آسف، أيها الرقيب. لا أعرف ماذا دهاني.
- وما قصة ألاباما هذه؟ سألني.
- لقد سبق أن حدثتك عنها: لقد رحل آل كيلرغان من ألاباما ليأتوا إلى هنا، وأنا مقتنع بأن هناك سبباً وجيهاً دفعهم إلى ذلك.
- سأتحري عن الأمر. إذا وعدتني أن تتصرف بحكمة في المستقبل.
- سننجح، أيها الرقيب، أليس كذلك؟ أقصد: هاري في طريقه نحو البراءة، أليس كذلك؟
- حدّق في غاهالوود:
- إن ما يضايقني، أيها الكاتب، هو أنت. فأنا أقوم بعملتي، أحقق في مقتل ضحيتين. أما أنت، فتبدو مهووساً بتبرئة هاري، كما لو أردت أن تقول لسائر الناس: رأيتم؟ إنه بريء. علامَ تلومون هذا الكاتب الطيب؟ لكن ما نلومه عليه، يا غولدمان، هو أنه أغرم بفتاة في الخامسة عشرة!
- أنا أعلم ذلك جيداً! وليكن بعلمك أنني أفكر فيه طوال الوقت!
- لماذا إذاً لا تتحدث عن الأمر أبداً؟
- لقد جئت إلى هنا بعد الفضيحة، دون أن أفكر. فكرت في صديقي قبل كل شيء، في أخي الأكبر هاري. ففي ظروف طبيعية، كنت لأبقى يومين أو ثلاثة، لأريح ضميري لا أكثر، ثم أعود إلى نيويورك مباشرة.
- فلماذا إذاً لا تزال هنا تضايقني؟
- لأن هاري كبير هو صديقي الوحيد. لقد علمني كل شيء، وكان بمثابة الأخ طوال السنوات العشر الأخيرة. فلولا، لما صرت شيئاً.

أعتقد أن غاهالوود شعر بالشفقة تجاهي في تلك اللحظة، لأنه دعاني لتناول العشاء عنده. «تعال الليلة، أيها الكاتب. سنناقش مستجدات التحقيق ونأكل معاً. وستقابل زوجتي». ولأنه لن يقبل على نفسه أن يكون لطيفاً حقاً، أضاف باستهزاء: «في الحقيقة، زوجتي هي التي ستسعد بهذه الزيارة، فهي تلح عليّ منذ فترة أن أدعوك إلى المنزل. إنها تحلم بأن تقابلك. يا له من حلم غريب!».

*

كانت عائلة غاهالوود تسكن في منزل صغير جميل في حي سكني شرق مدينة كونكورد. وكانت هيلين، زوجة الرقيب، أنيقة ولطيفة جداً، أي نقيض زوجها تماماً. استقبلتني بحفاوة بالغة. «لقد أحببت كتابك جداً، قالت لي. أصبح أنك تحقق مع بيرى؟». تمتم زوجها بأنني لم أكن أحقق، وأنه هو الرئيس، وأنني لست سوى مبعوث من القدر أتى لينغص عليه حياته. وكانت ابتناه مراهقتين لطيفتين، بدتا مرتاحتين وواثقتين من نفسيهما، أتتا لتلقيا عليّ التحية ثم عادتا إلى غرفتهما. قلت لغاهالوود:

- يبدو لي أنك الوحيد الذي لا يحبني في هذا المنزل.
ابتسم.

- اصمت، أيها الكاتب. اصمت وتعال إلى الخارج لتشرب زجاجة بيرة باردة، فالجو لطيف جداً.

أمضينا وقتاً طويلاً على الشرفة، جالسَيْن على مقاعد وثيرة، نحسِّي البيرة. كان يرتدي بدلة، لكنه انتعل نعلاً قديماً مريحاً. كان الجو حاراً جداً في أول السهرة، وكنا نسمع أصوات أطفال يلعبون في الشارع. كانت أجواء صيفٍ لطيفة بامتياز.

- عائلتك ظريفة جداً، قلت له.

- شكراً. وأنت؟ هل لك زوجة؟ أطفال؟

- لا ، لا شيء من ذلك .

- كلب؟

- لا .

- ليس لديك كلب حتى؟! لا بد أنك تشعر بوحدة فظيعة، أيها الكاتب... دعني أخمن: أنت تسكن في شقة كبيرة جداً، في حي راقٍ بنيويورك. شقة كبيرة وفارغة.
لم أحاول حتى أن أنكر.

- كان وكيللي الأدبي يأتي عندي ليشاهد البيسبول، كنا نحضر الناشو بالجبن معاً. كان وقتاً لطيفاً، لكن مع هذه القصة، لا أعلم ما إذا كان وكيللي سيرغب في زيارتي من جديد. أنا لم أسمع عنه منذ أسبوعين.

- أنت خائف، أيها الكاتب، أليس كذلك؟

- نعم، لكن الأسوأ هو أنني لا أدري لماذا أنا خائف. أنا أولّف كتاباً عن هذه القضية سيدّر عليّ مليون دولار على الأقل، كما أنني سأبيع منه أعداداً هائلة، لكن في أعماقي، أنا شخص حزين. ماذا عليّ أن أفعل في رأيك؟
نظر إليّ متفاجئاً.

- أنت تطلب النصيحة من شخص يتقاضى 50000 دولار في السنة؟

- نعم.

- لا أعلم ما عساي أقوله لك، أيها الكاتب.

- لو كنت ابنك، بمَ كنت ستنصّحني؟

- أنت؟ ابني؟ اشمأزت نفسي من الفكرة! اذهب إلى معالج نفسي، أيها الكاتب. أتعلم، لديّ ابن. إنه أصغر منك سناً، هو في العشرين من العمر.

- لم أكن أعلم ذلك.

فتش في جيبه وأخرج صورة صغيرة ملصقة على قطعة من الكرتون كي تحافظ عليها. كانت لشاب بالزي العسكري.

- ابنك التحق بالجيش؟

- الكتيبة الثانية من المشاة. لقد أرسل إلى العراق. أذكر جيداً يوم التحاقه بالجيش: كان هناك مكتب متنقل للتوظيف في الجيش الأمريكي مركوناً في مرآب المركز التجاري. كان الأمر بديهياً بالنسبة إليه. عاد إلى المنزل وأخبرني بأنه اختار: سيترك الجامعة ويذهب ليحارب. كان ذلك بسبب صور 11 سبتمبر التي كانت لطالما تدور في ذهنه. فأخرجتُ خارطة العالم وسألته: «أين توجد العراق؟ وأجابني: العراق هي حيث يجب أن أكون». ما رأيك، يا ماركوس؟ كانت هذه المرة الأولى التي يناديني باسمي. هل كان محقاً أم مخطئاً؟

- لا أعلم.

- أنا كذلك لا أعلم. كل ما أعلمه هو أن الحياة سلسلة متتالية من الخيارات علينا أن نتحمل مسؤوليتها.

كانت أمسية جميلة. لم أشعر منذ وقت طويل بنفسى محاطاً بهذا الدفء. بعد تناول وجبة العشاء، بقيت وحدي على الشرفة بينما كان غاهالوود يساعد زوجته في ترتيب الأطباق بالمطبخ. كان الليل قد حل، والسماء أظلمت. ميزت فيها كوكبة الدب الأكبر. كانت الأجواء هادئة جداً. كان الأطفال قد غادروا الشارع ولم يعد يُسمع سوى غناء صراصير الليل المهدئ. وحين التحق بي غاهالوود، تحدثنا عن سير التحقيقات. أخبرته كيف أن ستيرن سمح لهاري أن يسكن في غوز كوف بالمجان.

- هل هو ستيرن نفسه الذي كانت تربطه علاقة مع نولا؟ كل هذا غريب جداً.

- تماماً. وأؤكد لك أن أحداً ما كان يعلم بأمر نولا وهاري

آنذاك. لقد حكى لي هاري أنه في حفل الصيف الراقص، كتب أحدهم على مرآة الحمام متحرش بطفلة. بالمناسبة، هل من جديد بالنسبة إلى العبارة التي حُطت على المخطوطة؟ متى ستحصل على نتائج اختبارات الخط؟

- في غضون أسبوع، مبدئياً.

- سنعرف قريباً إذاً.

- لقد درست تقرير الشرطة عن اختفاء نولا، قال غاهالوود. التقرير الذي كتبه الرئيس برات. أؤكد لك أن لا ذكر لستيرن ولا لهاري إطلاقاً.

- هذا غريب، فقد أكدت لي نانسي هاتاواي وتمارا كوين أنهما أخبرتا الرئيس برات بشكوكهما بشأن هاري وستيرن وقت اختفاء نولا. - رغم أن التقرير موقع من برات نفسه. هل كان يعلم ولم يفعل شيئاً؟

- ما الذي قد يعنيه ذلك؟ سألته.

نظر إليّ غاهالوود نظرة قاتمة.

- أنه قد يكون هو الآخر على علاقة بنولا كيلرغان.

- هو أيضاً؟ هل تظن أن... يا إلهي... الرئيس برات ونولا؟

- أول شيء سنفعله غداً صباحاً، أيها الكاتب، هو أن نذهب ونسأله.

*

صباح يوم الخميس 3 يوليو 2008، أتى الرقيب غاهالوود إلى غوز كوف ليصطحبني إلى منزل الرئيس برات في ماونت درايف. كان برات نفسه من فتح لنا الباب. لم ير في البداية سواي فاستقبلني بحفاوة.

- سيد غولدمان، أي ربح طيبة أتت بك إلى هنا؟ يقولون في المدينة إنك تجري تحقيقاتك الخاصة...

سمعتُ إيمي تسأل عمّن بالباب، فأجابها برات: «إنه الكاتب غولدمان»، ثم لاحظ وجود غاهالوود واقفاً خلفي، فقال:

- إنها زيارة رسمية إذاً...

أوماً غاهالوود برأسه.

- لدينا بعض الأسئلة فقط، يا حضرة الرئيس. فالتحقيق يتعمّق وتنقصنا بعض المعلومات. أنا واثق أنك تتفهم.

جلسنا في غرفة المعيشة وجاءت إيمي برات لتحيينا. أمرها زوجها بالخروج إلى الحديقة، فارتدت طاقية وخرجت لتعطني بزهورها. وكان يمكن للمشاهد أن يدعو إلى الضحك لولا أن الجو في غرفة معيشة آل برات لم يكن قد توتر فجأة.

تركت غاهالوود يدير تحقيقه. كان رقيباً ممتازاً وعلى دراية جيدة بالنفس البشرية، رغم سلوكه العدائي أحياناً. طرح في البداية بعض الأسئلة؛ طلب من برات أن يذكره باختصار بتسلسل الأحداث التي أدت إلى اختفاء نولا كيلرغان. إلا أن برات سرعان ما فقد صبره: قال إنه حرّر تقريره عام 1975 وإن كل ما كان علينا فعله هو قراءته، فهنا أجابه غاهالوود:

- في الحقيقة، لأكون صادقاً معك، لقد قرأت تقريرك ولست مقتنعاً بما وجدت فيه. على سبيل المثال، أنا أعلم أن الأم كوين أخبرتك بما كانت تعرفه عن هاري ونولا، إلا أن هذا ليس مذكوراً في تقريرك إطلاقاً.

لم يُبدِ برات أي ردّ فعل.

- نعم، لقد جاءت إليّ الأم كوين وأخبرتني بأنها تعرف كل شيء، بأن هاري كان متيماً بنولا. لكن لم يكن لديها أي دليل على ذلك، ولا أنا أيضاً.

- أنت تكذب، قاطعته، لقد أرتك ورقة مكتوبة بخط يد هاري،
تدينه بشكل قاطع.

- لقد أرتني إياها مرة واحدة، ثم اختفت تلك الورقة! لم يكن
لديها شيء! ماذا كنت تريدني أن أفعل؟

- وإليجاه ستيرن؟ سأل غاهالوود متظاهراً بتلطيف الجو. ماذا
كنت تعرف عن ستيرن؟

- ستيرن؟ ردد برات، إليجاه ستيرن؟ ما علاقة ستيرن بهذه القصة؟
قال غاهالوود بصوت هادئ جداً لكن لا يسمح بأي مرواغة:

- كف عن مسرحياتك، يا برات، أنا على علم بكل شيء. أعلم
أنك لم تقم بتحقيقاتك كما كان ينبغي أن تفعل. أعلم أن وقت اختفاء
نولا، شاركتك تمارا كوين شكوكها حول كبير، وأن نانسي هاتاواي
أخبرتكم بأن نولا كانت تقيم علاقة جنسية مع ستيرن. كان عليك أن
تلقني القبض على هاري وستيرن، كان عليك أن تستجوبهما على الأقل
وأن تفتش منزليهما، أن توضح هذه القصة وتذكرها في تقريرك. إنه
الإجراء الطبيعي. لكنك لم تفعل شيئاً من ذلك! لماذا؟ كانت لديك
امرأة مقتولة وفتاة مختفية بحق السماء!

شعرت بأن برات تفاجأ بهذه الكلمات، لكنه رفع صوته ليستعيد
كبرياءه:

- لقد جبت المنطقة بأكملها لأسابيع بحثاً عنها، حتى في أيام
إجازاتني، صرخ قائلاً. فعلت كل ما في وسعي لأعثر على هذه الفتاة!
فلا تأتيا إلى هنا الآن، إلى منزلي، لتشتamani وتتهماني بالتقصير في
عملي! رجال الشرطة لا يفعلون ذلك بزملائهم!

- لقد نبشت الأرض وسبرت أعماق البحار بحثاً عنها، لكنك
كنت تعلم أن ثمة أشخاصاً ينبغي استجوابهم ولم تفعل! لماذا بحق
الرب؟ ماذا كان لديك لتستّر عليه؟

خيّم صمت طويل . نظرت إلى غاهالوود، بدا مهيباً . كان يحدّق ببرات بهدوء عاصف .

- ماذا كان لديك لتستّر عليه؟ ردّد برات . تكلم ! تكلم بحق السماء! ما الذي حدث مع هذه الصبية؟

أشاح برات بعينه عنا، ثم نهض وتوجه نحو النافذة، ليتحاشى نظراتنا . حدّق للحظة في زوجته، التي كانت في الخارج، تُقلم الشجيرات .

- كان ذلك في بداية شهر أغسطس، قال بصوت يكاد لا يُسمع . بداية شهر أغسطس من سنة 1975 اللعينة تلك . صدّقاً أو لا تصدّقاً، جاءت الصغيرة ذات ظهيرة إلى مكّتي في مخفر الشرطة . سمعت طرّقاً على الباب ودخلت نولا دون أن تنتظر مني الإذن . كنت جالساً إلى مكّتي، أقرأ ملفاً . فاجأتني رؤيتها . ألقيت عليها التحية ثم سألتها ماذا بها، إذ بدت غريبة بعض الشيء . لم تنبس بكلمة . أغلقت الباب، وأدارت المفتاح في القفل، حدّقت فيّ بثبات، ثم توجهت نحوي، نحو المكّتب، وهنا . . .

توقف برات عن الكلام . بدا عليه التأثر، ووجد صعوبة في العثور على الكلمات المناسبة، إلا أن غاهالوود لم يبدِ أي تعاطف، بل سأله بجفاء :

- وهنا ماذا، أيها الرئيس برات؟

- صدّق أو لا تصدّق، أيها الرقيب، اقتربت مني وداعبتني . بجرأة عجيبة .

- ما هذه القصة؟ قلت مستنكراً .

- الحقيقة . داعبتني وتركتها تفعل . قالت لي : «أطلق لنفسك العنان، يا حضرة الرئيس» . وحين انتهى كل شيء، قالت لي وهي تمسح فمها : «أنت مجرم الآن» .

بقينا مشدوهين : لهذا لم يستجوب برات ستيرن ولا هاري . لأنه هو أيضاً كان متورطاً في هذه القضية ، مثله مثلهما .

الآن وقد بدأ ضميره يستريح ، أراد برات أن يفرغ كل ما لديه . فأخبرنا أنه كانت هناك مرة أخرى ، وإذا كانت الأولى بمبادرة من نولا ، فقد أجبرها هو على تكرار الأمر في المرة الثانية . حكى لنا أنه كان في دورية وحده في سيارة الشرطة وصادف نولا عائدة من الشاطئ مشياً . كان ذلك بالقرب من غوز كوف . كانت تحمل آلتها الكاتبة الصغيرة ، فعرض عليها أن يصطحبها ، لكن بدلاً من أن يسلك طريق أورورا ، ذهب في اتجاه غابة سايد كريك . قال لنا :

- قبل اختفائها ببضعة أسابيع ، كنت في سايد كريك معها . ركنت السيارة في مدخل الغابة ، إذ لا يأتي أحد إلى هناك . أمسكتُ بيدها وطلبت منها أن تفعل ما فعلته في المرة السابقة . . . لا أدري ماذا دهاني . منذ أكثر من ثلاثين عاماً وأنا أتعذب وأشعر بالذنب حيال ذلك ! لم أعد أحتمل ! اقبض عليّ أيها الرقيب ، أريد أن أستجوب ، أريد أن أحاكم ، أريد أن أسامح . سامحيني ، يا نولا ! سامحيني !

حين رأت إيمي برات زوجها يخرج من المنزل مكبل اليدين ، راحت تصرخ صراخاً نبه الحي بأكمله ، فخرج الفضوليون إلى حدائقهم ليروا ما كان يحدث ، وسمعت امرأة تنادي زوجها كي لا يفوته المشهد : « رجال الشرطة يأخذون غاريث برات ! » .

وضع غاهالوود برات في سيارته وانطلق مشغلاً صفارات الإنذار في اتجاه المركز الرئيسي لشرطة الولاية بكونكوردر . بقيتُ أنا في الفناء الأمامي لمنزل آل برات ، حيث كانت إيمي تبكي وهي جاثية على ركبتيها بالقرب من زهورها . أما الجيران ، وجيران الجيران ، وسكان الشارع ، وسكان الحي ، ثم نصف سكان المدينة ، فسرعان ما توجهوا إلى منزل ماونت درايف .

مشدوهاً مما سمعته لتوي، جلست على صنبور إطفاء الحرائق واتصلت بروت لأطلعته على الموقف. لم تكن لدي الشجاعة لأواجه هاري: لم أرد أن أكون أنا من ينقل إليه الخبر. وقد تولى التلفزيون المهمة في الساعات القليلة التالية، إذ أذاعت كل المحطات الإعلامية الخبر: اعترف غاريث برات، رئيس شرطة أورورا السابق، بارتكاب أفعال ذات طبيعة جنسية مع نولا كيلرغان، وقد أصبح مشتبهاً فيه في هذه القضية. اتصل بي هاري من السجن في بداية فترة بعد الظهيرة عبر مكالمة على حساب المتلقي، وكان يبكي. طلب مني أن آتي لزيارته، فلم يكن ليصدق أن كل ذلك حقيقي.

في قاعة الزيارات، حكيت له ما حدث مع الرئيس برات. كان منهاراً تماماً، ولم تكف عيناه عن البكاء. ثم قلت له:

- هذا ليس كل شيء... أعتقد أنه حان الوقت لأن تعرف...
- أعرف ماذا؟ أنت تخيفني، يا ماركوس.
- لقد حدثتكَ عن ستيرن في زيارتي السابقة لأنني ذهبت إلى منزله.

- ثم؟

- وجدت هناك لوحة لنولا.
- لوحة؟ ماذا تعني بلوحة؟!
- ستيرن لديه لوحة تمثل نولا عارية، في منزله.
- كنت قد أحضرت معي الصورة المكبرة فأريته إياها.
- إنها هي! صرخ هاري. إنها نولا! ماذا يعني هذا؟ ما هذه القذارة؟

نبهه حارس إلى ضرورة التزام الهدوء في القاعة.

- هاري، حاول أن تهدأ، أرجوك.
- لكن ما علاقة ستيرن بهذه القضية؟
- لا أدري... ألم تحدثك عنه نولا أبداً؟

- أبدأ! أبدأ!

- هاري، بحسب علمي، فقد كانت نولا على علاقة بإليجاه ستيرن في صيف 1975 ذاك نفسه.

- ماذا؟ ماذا؟ ماذا يعني ذلك، يا ماركوس؟

- أعتقد... بحسب ما فهمت... هاري، عليك أن تتقبل فكرة أنك قد لا تكون الرجل الوحيد في حياة نولا.

فقد صوابه عند سماعه ذلك. نهض فجأة وألقى بكرسيه البلاستيكي على الحائط وهو يصرخ:

- مستحيل! مستحيل! أنا من كانت تحب! أسمع؟ أنا من كانت تحب!

انقض عليه الحراس ليقيدوه ويقتادوه خارج القاعة، فسمعه يصرخ وهو يبتعد: «لماذا تفعل ذلك، يا ماركوس؟ لماذا تلطخ كل شيء؟ عليكم اللعنة، أنت وبرات وستيرن!». بعد هذه الحلقة من الأحداث، انكبت على كتابة قصة نولا كيلرغان، فتاة في الخامسة عشرة، دوّخت مدينة صغيرة بأكملها في الريف الأمريكي النائي.

مكتبة
t.me/soramnqraa

أصول الشر

(أورورا، نيو هامبشير، 11-20 أغسطس 1975)

«هاري، كم يلزم من الوقت لتأليف كتاب؟

- يتوقف الأمر...

- على ماذا؟

- على كل شيء».

11 أغسطس 1975

- هاري! هاري حبيبي!

دخلتُ إلى المنزل وهي تجري، والمخطوطة بين يديها. كان الوقت مبكراً، قبل التاسعة صباحاً. كان هاري في مكتبه، يقلب أكواماً من الورق. وقفتُ عند عتبة الباب ممسكة بالحقيبة التي تضم المخطوطة الثمينة.

- أين كانت؟ سأل هاري بانزعاج. أين كانت هذه المخطوطة

اللعينة بحق الجحيم؟

- اعذرني يا هاري، هاري حبيبي... لا تغضب مني. لقد أخذتها أمس مساء. كنت نائماً فأخذتها معي لأقرأها... لم يكن ينبغي أن أفعل... لكنها رائعة! بل استثنائية! إنها رائعة!

- هل أعجبتك إذا؟

- هل أعجبتني؟ أتسأل إذا كانت أعجبتني؟ لقد عشقتها! إنها أجمل ما قرأت في حياتي. أنت كاتب استثنائي! وهذا الكتاب سيحقق نجاحاً عظيماً! ستصبح مشهوراً، يا هاري. أسمعني؟ ستصبح مشهوراً!

وراحت ترقص عند هذه الكلمات. رقصت في الرواق، ورقصت وصولاً إلى غرفة المعيشة، ورقصت على الشرفة. رقصت فرحاً، فقد

كانت سعيدة جداً. جهزت الطاولة على الشرفة؛ مسحتها من الندى، وبسطت عليها مفرشاً وأعدتها للعمل، وضعت عليها أقلامه، ودفأته، ومسوداته، وحصى منتقاة بعناية من الشاطئ لتثبيت الأوراق كي لا تطير. وأحضرت بعد ذلك القهوة والبسكويت والفاكهة، ثم وضعت مسنداً خلف ظهره ليجلس مرتاحاً. كانت تتأكد من أن كل شيء جاهز ليعمل في أفضل الظروف. وحين يبدأ بالكتابة، كانت تدخل المنزل لترتبه وتحضر الطعام؛ كانت تهتم بكل شيء كي لا يشغل نفسه إلا بالكتابة. الكتابة ولا شيء غير ذلك. وهو يتقدم في مخطوطته، كانت تأخذ ما يكتبه وتعيد قراءته وتجري بعض التصويبات ثم تطبعه على الآلة الكاتبة، بشغفٍ وتفاني أكثر الكاتبات إخلاصاً. وحين تنتهي من كل تلك المهام، تسمح لنفسها بالجلوس بالقرب من هاري - ليس قريباً جداً كي لا تزعجه - لتتأمل إليه وهو يكتب، وتسعد بذلك. كانت زوجة الكاتب.

في ذلك اليوم، غادرت المنزل قبل الظهيرة بقليل، وأعطته تعليماتها كالعادة قبل أن تتركه وحده:

- لقد حضرت لك السندويشات. إنها في المطبخ. وهناك شاي مثلج في الشلاجة. كُل وخذ قسطاً من الراحة، وإلا ستصاب بنوبة صداع. فأنت تعرف هاري حبيبي ماذا يصيبك حين تعمل كثيراً: تتوتر وتصاب بنوبات الصداع الفظيعة تلك. عانقته.

- هل ستأتين ثانية اليوم؟ سأل هاري.
- لا، يا هاري. أنا مشغولة.
- بِمَ أنت مشغولة؟ ولماذا تغادرين باكراً؟
- مشغولة فحسب. يجب أن تظل النساء غامضات. قرأت ذلك في إحدى المجلات.
ابتسم.

- نولا... .

- نعم؟

- شكراً.

- علامَ تشكرني؟

- على كل شيء. أنا... أنا أولف كتاباً الآن... وإذا كنت قادراً أخيراً على ذلك، فهذا بفضلك.

- هاري حبيبي، هذا ما أود فعله طوال حياتي: أن أعنتني بك، أن أكون موجودة إلى جانبك، أن أساعدك في إنجاز كتبك، أن أؤسس أسرة معك! تخيل كم سنكون سعداء كلنا معاً! كم طفلاً تريد، يا هاري؟

- ثلاثة على الأقل!

- نعم! حتى أربعة! صبيين وبنيتين، كي لا يتشاجروا كثيراً. أود أن أصبح السيدة نولا كبير! المرأة الأكثر فخراً بزوجها في العالم! غادرت وسارت على طريق غوز كوف إلى أن سلكت الطريق رقم 1. ومرة أخرى، لم تلاحظ الطيف الذي كان يراقبها، جاثياً بين الشجيرات.

استغرقتها الوصول إلى أورورا ساعة من المشي. كانت تقطع هذه المسافة مرتين في اليوم. وعند وصولها إلى المدينة، انعطفت نحو الشارع الرئيسي وصولاً إلى الحديقة حيث كانت تنتظرها نانسي هاتاواي.

- لماذا الحديقة وليس الشاطئ؟ اشتكت نانسي حين رأتها.

فالجو حار جداً!

- لدي موعد بعد الظهر... .

- ماذا؟ لا، لا تقولي لي إنك ستذهبين عند ستيرن!

- لا تلفظي اسمه!

- وطلبت مني أن آتي كي أعطي عليك؟

- أرجوك، افعلني...
- لكنني أعطيت عليك طوال الوقت...
- مرة أخرى، مرة واحدة فقط. أرجوك.
- لا تذهبي إلى هناك! توسلت نانسي. لا تذهبي عند ذلك الرجل، يجب أن يتوقف ذلك! إنني أخاف عليك. ماذا تفعلان معاً؟
- تمارسان الجنس، أليس كذلك؟
- تكلمت نولا بنبرة رقيقة ومطمئنة:
- لا تقلقي يا نانسي، لا تقلقي أبداً. ستغطين عليّ، أليس كذلك؟ عديني أن تفعلني، فأنت تعلمين ما يحدث حين يُكشف كذبي. تعلمين ما يُفعل بي في المنزل...
- تنهدت نانسي، مستسلمة:
- حسناً، سأبقى هنا إلى أن تعودني، لكن ليس بعد السادسة والنصف مساءً وإلا ستوبخني أُمي.
- اتفقنا. وفي حال سُئِلت، ماذا كنا نفعل؟
- دردشنا هنا طوال فترة بعد الظهر، رددت نانسي كاللبغاء.
- لكنني لم أعد أتحمّل الكذب من أجلك! لماذا تفعلين ذلك؟ هه؟
- لأنني أحبه! أحبه كثيراً! وقد أفعل أي شيء من أجله!
- إنه أمر مقزز. ولا أريد حتى التفكير فيه.
- وصلت سيارة موستانغ زرقاء إلى أحد الشوارع المحيطة بالحديقة، وتوقفت على جانب الطريق، فرأتها نولا.
- ها هو ذا. عليّ أن أذهب. أراك لاحقاً، يا نانسي. شكراً، أنت صديقة بحق.
- توجهت مسرعة إلى السيارة وركبت فيها. «مرحباً، لوثر»، قالت للسائق وهي تجلس على المقعد الخلفي. انطلقت السيارة فوراً، ولم يلاحظ أحد، باستثناء نانسي، تلك المناورة الغريبة التي دارت للتو.
- بعد ذلك بساعة، وصلت السيارة إلى ساحة منزل إليجاه ستيرن،

في كونكورد، حيث قاد لوثر الصبية إلى الداخل . كانت تعرف الطريق إلى الغرفة الآن.

- اخلعي ملابسك، طلب منها لوثر بلطف . فأخبر الفيد فترين أنك وصلت .

*

12 أغسطس 1975

ككل صباح منذ إقامتهما في مارثاز فينيارد، منذ أن عاد إليه الإلهام، استيقظ هاري عند الفجر وخرج ليركض قبل أن يباشر العمل . ككل صباح، ركض حتى أورورا . وككل صباح، توقف في الميناء ليقوم ببعض تمارين الضغط . لم تكن الساعة قد بلغت السادسة بعد . كانت المدينة نائمة . تفادى المرور أمام كلاركس، إذ كان المطعم يفتح أبوابه عند السادسة صباحاً، ولم يرد أن يجازف بأن يلتقي بجيني . كانت فتاة رائعة ولا تستحق الطريقة التي عاملها بها . بقي للحظة يتأمل المحيط على خلفية ألوان الشروق الخلابة . انتفض حين لفظت اسمه :

- هاري؟ أهذا صحيح إذا؟ أنت تستيقظ باكراً جداً لتركض؟

استدار: كانت جيني في زي العمل . اقتربت منه وحاولت أن تعانقه، على نحو أخرق .

- أحب أن أرى شروق الشمس، قال .

ابتسمت، وقالت في نفسها إنه إذا كان يأتي إلى هنا، فهذا يعني أنه يحبها ولو قليلاً .

- هل ترغب في شرب فنجان قهوة في كلاركس، اقترحت عليه .

- شكراً، لكنني لا أريد أن أكسر إيقاعي . . .

كتمت خيبة أملها .

- لنجلس قليلاً على الأقل .

- لا أريد أن أتوقف لوقت طويل .

بدا عليها الحزن:

- لم أسمع أخبارك مؤخراً! لم تعد تأتي إلى كلاركس...

- أنا آسف، كنت مستغرقاً في العمل على كتابي.

- هناك أمور أخرى في الحياة غير الكتب! تعال وزرني من وقت

لآخر، سيسعدني ذلك. وأعدك أن أتي لن تزعجك. فما كان عليها أن
تطالبك بكل حسابك دفعة واحدة.

- لا بأس في ذلك.

- عليّ أن أذهب وأبدأ دوامي، فالمطعم يفتح عند السادسة. هل

أنت متأكد أنك لا ترغب في فنجان قهوة؟

- متأكد، شكراً.

- هل ستأتي فيما بعد؟

- لا، لا أعتقد.

- إذا كنت تأتي إلى هنا كل صباح، يمكنني أن أنتظرك في

الميناء... إذا كنت ترغب في ذلك طبعاً. لألقي عليك تحية الصباح
فحسب.

- لا تتعب نفسك.

- حسن. على أية حال، أنا أعمل حتى الثالثة عصراً اليوم. فإذا

أردت أن تأتي لتكتب... فلن أزعجك. أعدك بذلك. أتمنى ألا تكون

قد غضبت مني لأنني ذهبت إلى الحفل الراقص مع ترافيس... أعلم،

أنا لا أحبه. إنه مجرد صديق. أريد... أريد أن أخبرك، يا هاري...

أني أحبك. أحبك كما لم أحب أحداً من قبل.

- لا تقولي ذلك، يا جيني...

دقت ساعة البلدية ست دقائق: لقد تأخرت. طبعت قبلة على خده

وفرت. لم يكن ينبغي أن تخبره بأنها تحبه، لامت نفسها. كم كانت

غبية. وهي تصعد الشارع المؤدي إلى كلاركس، استدارت لتلوح له

بيدها، لكنه كان قد اختفى. قالت لنفسها إنه إذا أتى إلى كلاركس،

فقد يعني ذلك أنه يحبها قليلاً، وأنه قد يكون هناك بصيص من الأمل .
أسرعت الخطى لكن قبل أن تبلغ أعلى الشارع، ظهر ظل عريض من
خلف السياج وسد الطريق أمامها . تفاجأت جيني ولم تستطع أن تكتم
صرختها، ثم تعرفت على لوثر .

- لوثر! لقد أفرغتني!

كشف ضوء مصباح الإنارة عن وجهه المشوه وجسده القوي .

- مافا كان يريد منك؟

- لا شيء، يا لوثر .

أمسك بذراعها وشد عليها بقوة:

- لا . . . لا . . . لا . . . تفخري مني! مافا كان يريد منك؟

- إنه صديق! اتركني الآن، إنك تؤلمني . اتركني وإلا سأخبره!

أرخص قبضته وسألها:

- هل فكرت في عرضي؟

- الجواب هو لا، يا لوثر! لا أريدك أن ترسمني! والآن دعني

أمر! وإلا سأقول إنك تتسكع هنا وستواجه المشاكل .

فرّ لوثر عند سماع ذلك، وراح يركض في الفجر مثل حيوان
مجنون . كانت خائفة، فأخذت تبكي . ثم أسرع لتصل إلى المطعم،
وقبل أن تتخطى الباب، مسحت عينيها كي لا تلاحظ أمها دموعها .

استأنف هاري الركض، عابراً المدينة من طرف إلى آخر، كي
يلحق بالطريق رقم 1 ويعود إلى غوز كوف . كان يفكر في جيني؛ لا
ينبغي أن يمنحها آمال زائفة . كان يشعر بالأسف عليها . حين وصل إلى
التقاطع مع الطريق رقم 1، شعر بعضلات ساقيه تتشنج، وكان وحده
في طريق مقفر . ندم على أنه ذهب حتى أورورا، فلن يستطيع العودة
إلى غوز كوف ركضاً . في تلك اللحظة، توقفت إلى جانبه سيارة

مويستانغ زرقاء لم يكن قد لاحظها . أنزل السائق زجاج النافذة فتعرف هاري فوراً على لوثر كاليب :

- أحتاج المفاعدة؟

- لقد ركضت كثيراً ، وأعتقد أنني آذيت نفسي .

- اركب . فأقلّك .

- من حسن حظي أنني قابلتك ، قال هاري وهو يجلس على

المقعد الأمامي . ماذا تفعل في أورورا في هذه الساعة المبكرة؟

لم يُجب كاليب ، وأوصل راكبه إلى غوز كوف دون أن ينبس بكلمة . وبعد أن أنزله ، عادت المويستانغ أدراجها لكن بدلاً من أن تسلك طريق كونكورد ، انعطفت يساراً في اتجاه أورورا ، لتسلك مساراً ضيقاً في الغابة ، غير نافذ . ركن لوثر السيارة وسط أشجار الصنوبر ، ثم عبر بخطوات رشيقة صفوف الأشجار واختبأ وسط الشجيرات على مقربة من المنزل . كانت الساعة السادسة والرّبع . استند إلى جذع شجرة وانتظر .

حوالي الساعة التاسعة ، وصلت نولا إلى غوز كوف لتعتني

بحبيبها .

*

13 أغسطس 1975

- أتفهمني ، يا دكتور أشكروفت ، أنا دائماً ما أفعل ذلك ، ثم

أشعر بالذنب بعد ذلك .

- كيف يحدث لك ذلك؟

- لا أدري . كما لو أنه يخرج رغماً عني . . . نوع من الدافع ، لا

أستطيع أن أمنع نفسي ، إلا أنه يحزنني ! لكنني لا أستطيع أن أمنع نفسي .

حدّق الدكتور أشكروفت في تمارا كوين ، ثم سألها :

- هل بإمكانك أن تقولي للناس ما تشعرين به تجاههم؟
- أنا... لا، لا أقول ذلك أبداً.
- لماذا؟
- لأنهم يعرفونه.
- هل أنت متأكدة؟
- طبعاً!
- كيف سيعرفون إذا كنت لا تقولينه أبداً؟
- هزت كتفيها:
- لا أدري، يا دكتور...
- هل تعلم أسرتك أنك تأتين لزيارتي؟
- لا، لا! أنا... إنه أمر لا يخصهم.
- أتعرفين، يا سيدة كوين، يجب أن تكتبي ما تشعرين به،
فالكثابة تريحنا أحياناً.
- أنا أفعل ذلك. أنا أكتب كل شيء. فمنذ أن تحدثنا عن الأمر
معاً وأنا أكتب في دفتر أحتفظ به بعناية.
- وهل يساعدك ذلك؟
- لا أدري. قليلاً، نعم... أعتقد ذلك.
- سنتحدث في ذلك الأسبوع المقبل، فقد انتهى وقت الزيارة.
- نهضت تمارا كوين وودعت الطبيب مصافحة إياه، ثم غادرت
العيادة.

*

14 أغسطس 1975

كانت الساعة حوالي الحادية عشرة صباحاً. منذ مطلع الصباح،
كانت نولا تطبع أوراق المخطوطة على آلتها الكاتبة، جالسة على شرفة
غوز كوف، قبالة هاري الذي كان يواصل الكتابة. «إنها رائعة، كانت

تقول وهي تكتشف الكلمات، رائعة حقاً!». فكان هاري يبتسم رداً على ذلك، وهو يشعر بنفسه مفعماً بإلهام أبدي.

كان الجو حاراً. لاحظت نولا أن هاري لم يعد لديه شيء ليشربه، فذهبت إلى المطبخ لتحضر الشاي المثليج. وما إن دخلت المنزل حتى ظهر زائر على الشرفة، آتٍ من الحديقة: إليجاه ستيرن. - هاري كبير، أنت تعمل بكدا! صاح بصوتٍ رنان جعل هاري ينتفض، إذ لم يسمعه يقترب. أصيب بالهلع: يجب ألا يرى أحد نولا هنا.

- إليجاه ستيرن! صرخ هاري بأعلى صوته كي تسمعه نولا وتبقى داخل المنزل.

- هاري كبير! صرخ ستيرن بصوت أعلى، رغم أنه لم يفهم لماذا هاري كان يصرخ على هذا النحو. لقد قرعَتْ الجرس لكن دون جدوى. وحين رأيت سيارتك، قلت لنفسني إنك قد تكون على الشرفة، فسمحت لنفسني بالدخول من الخلف.

- حسناً فعلت! صرخ هاري مجدداً. لاحظ ستيرن الأوراق، ثم الآلة الكاتبة على الجانب الآخر من الطاولة.

- هل أنت تكتب وتطبع على الآلة الكاتبة في الوقت نفسه؟ سأل بفضول.

- نعم، أنا... أنا أكتب عدة صفحات معاً. ترك ستيرن نفسه يتهاوى على كرسي، كان يتصبب عرقاً. - عدة صفحات معاً؟ أنت كاتب عبقرى، يا هاري. كنت في الجوار وقلت لنفسني إنني سأمر على أورورا. يا لها من مدينة رائعة. ركنت سيارتي في الشارع الرئيسي ورحت أتمشى، وها أنا وصلت إلى هنا. إنه تأثير العادة على الأرجح.

- هذا المنزل، يا إليجاه... إنه رائع. إنه مكان خلاب.

- أنا سعيد أنك استطعت أن تبقى .
- شكراً على كرمك ، أنا مدين لك بكل شيء .
- لا تشكرني أرجوك ، أنت لست مديناً لي بشيء .
- يوماً ما ، سيكون لدي المال ، وسأشتري هذا المنزل .
- بالتوفيق ، يا هاري . هذا ما أتمناه لك . فسأكون سعيداً أن يحيا
المنزل معك من جديد . اسمح لي ، أنا أتصيب عرقاً ، وميت من
العطش !

نظر هاري بعصبية في اتجاه المطبخ ، آملاً أن تكون نولا قد
سمعتهما وأن تبقى مختبئة في الداخل . كان عليه أن يجد طريقة
للتخلص من ستيرن .

- ليس لديّ ما أقدمه لك سوى الماء ، مع الأسف . . .
انفجر ستيرن ضاحكاً .

- لا عليك ، يا صديقي . . . أعلم أنه ليس لديك ما تأكله أو
تشربه في هذا المنزل ، وهذا بالذات ما يقلقني : من الجيد أن تكتب ،
لكن حذارٍ من أن تهمل نفسك ! حان الوقت لتتزوج وليكون لك شخص
يعتني بك . أتعلم ، اصطحبني إلى المدينة ، وسأدعوك إلى الغداء .
سيتيح لنا ذلك الفرصة لندردش قليلاً ، إذا رغبت في ذلك طبعاً .
- بكل سرور ! رد هاري بارتياح . بكل سرور ! دعني أحضر مفاتيح
السيارة فحسب .

دخل إلى المنزل . وهو يمر أمام المطبخ ، رأى نولا مختبئة تحت
الطاولة ، فابتسمت له ابتسامة رائعة ، ابتسامة متواطئة ، واضعة إصبعها
أمام شفيتها . ابتسم لها بالمقابل ، ثم التحق بستيرن .

ركبا معاً الشيفروليه السوداء وتوجها إلى كلاركس ، حيث جلسا
على الشرفة وطلبا البيض والخبز المحمص وفطائر البانكيك . لمعت
عينا جيني عند رؤيتها هاري ، فهو لم يأت منذ وقت طويل .

- هذا جنون ، قال ستيرن . كنت أنوي السير بضع خطوات

فحسب، ووجدت نفسي فجأة في غوز كوف! كما لو أن المشهد شدني.

- الساحل بين أورورا وغوز كوف غاية في الجمال. أنا لا أمل منه أبداً.

- هل تذهب إلى هناك؟

- كل صباح تقريباً. أنا أركض. إنها طريقة جميلة لتبدأ بها يومك. أستيقظ فجراً، وأركض مع شروق الشمس. إنه شعور فريد.

- أنت رياضي، يا عزيزي. وددت لو كان لدي مثل هذا الانضباط.

- لست متأكداً من كوني رياضياً، فأول أمس على سبيل المثال، أصبت بتشنجات رهيبة في سائقي، في طريق العودة من أورورا إلى غوز كوف. لم أكن قادراً على المواصلة، لكن لحسن الحظ، مر سائقك من هناك، واصطحبني إلى المنزل بكل لطف.

ابتسم ستيرن ابتسامة متوترة.

- لوثر كان هنا أول أمس صباحاً؟ سألته.

قاطعتهما جيني لتقدم لهما القهوة ثم غادرت سريعاً.

- نعم، واصل هاري. أنا أيضاً تفاجأت من رؤيته في أورورا في تلك الساعة المبكرة. هل يسكن في المنطقة؟

- لا، إنه يسكن في منزلي، لدي مبنى خاص بالموظفين. لكن يحب هذه الأنحاء، فإن أورورا خلاصة وقت الفجر.

- ألم تقل لي إنه يهتم بشجيرات الورد في غوز كوف؟ فأنا لم أره هناك أبداً...

- لكن النباتات ظلت جميلة، أليس كذلك؟ هذا يعني أنه يعمل بتكتم.

- لكنني غالباً ما أكون في المنزل... طوال الوقت تقريباً.

- لوثر شخص متكتم.

- كنت أتساءل عما حدث له... فطريقة كلامه غريبة جداً...
- حادثة. قصة قديمة. أتعلم، إنه شخص ذو أخلاق عالية...
- قد يبدو مخيفاً أحياناً، لكنه شخص جميل من الداخل.
- لا أشك في ذلك.
- عادت جيني لتملأ فنجاني القهوة للذين كانا لا يزالان مملوءين.
- رتبت المناديل، وملأت المملحة الصغيرة، وغيّرت زجاجة الكاتشاب،
- ثم ابتسمت لستيرن ولوحت بيدها لهاري قبل أن تختفي في الداخل.
- هل تتقدم في كتابك؟ سأل ستيرن.
- على نحوٍ ممتاز. شكراً مجدداً على السماح لي بالبقاء في
- المنزل، فأنا أجد فيه إلهاماً كبيراً.
- إلهام مصدره تلك الفتاة، قال ستيرن مبتسماً.
- عفواً؟! قال هاري وهو يكاد يختنق.
- أنا بارع في تخمين تلك الأمور. أنت تواعدها، أليس كذلك؟
- عفواً؟! -
- لا داعي لكل هذا الإرباك، يا صديقي. فلا عيب في ذلك.
- النادلة جيني، أنت تواعدها، أليس كذلك؟ لأن تصرفها منذ وصولنا
- يدل على أنها تواعد أحداً، وبما أنه ليس أنا، فأستنتج أنه أنت. إنه
- خيار موفق على أية حال، فهي فتاة جميلة. أرايت كم أني دقيق
- الملاحظة؟
- أجبر كبير نفسه على الابتسام.
- أنا وجيني لسنا مرتبطين، قال له. لنقل إننا تبادلنا الغزل لفترة
- فحسب. إنها فتاة لطيفة، لكن لأكون صريحاً معك، إنني أشعر بالملل
- برفقتها... فأنا أرغب في فتاة يربطني بها حب عميق، فتاة مميزة...
- مختلفة...
- أنا لست قلقاً بشأنك. سينتهي بك المطاف إلى العثور على
- الجوهرة النادرة التي ستسعد قلبك.

بينما كان هاري وستيرن يتناولان الغداء، على الطريق رقم 1 الذي تغمره أشعة الشمس، كانت نولا عائدة إلى منزلها، حاملة آلتها الكاتبة، وإذ بسيارة آتية من خلفها تتوقف إلى جنبها. كان ذلك الرئيس برات، في سيارة شرطة أورورا.

- إلى أين أنت ذاهبة بتلك الآلهة الكاتبة؟ سألها.

- إلى المنزل، يا حضرة الرئيس.

- مشياً؟ من أين أنت آتية بحق الجحيم؟ لا يهم، اركبي،

سأوصلك.

- شكراً، أيها الرئيس برات، لكنني أفضل المشي.

- لا تكوني سخيفة. الجو حار جداً.

- لا شكراً، يا حضرة الرئيس.

اكتسى صوته فجأة نبرة عدائية.

- لماذا لا تريدان أن أصطحبك؟ اركبي، قلت لك! اركبي!

قبلت نولا على مضض، فطلب منها برات أن تجلس بجانبه، على المقعد الأمامي. لكن بدلاً من أن يواصل طريقه باتجاه المدينة، استدار بالسيارة وأخذ الاتجاه المعاكس.

- أين نحن ذاهبان، أيها الرئيس؟ أورورا في الاتجاه الآخر.

- لا تقلقي، يا صغيرتي. أريد أن أريك شيئاً جميلاً فحسب.

أنت لست خائفة، أليس كذلك؟ أريد أن أريك الغابة، إنه مكان جميل. أنت تريدان أن ترين مكاناً جميلاً، أليس كذلك؟ كل الناس يحبون الأماكن الجميلة.

لم تتفوه نولا بكلمة. سارت السيارة إلى سايد كريك، ثم انعطفت في طريق ضيق وسط الغابة، وتوقفت وسط الأشجار. هنا أمسك الرئيس برات بيد نولا وأمرها أن تفعل ما سبق لها أن فعلته في مكتبه ببراعة.

*

في الثامنة صباحاً، دخلت لويزا كيلرغان إلى غرفة ابنتها. كانت نولا تنتظرها جالسة على سريرها، مرتدية ملابسها الداخلية. كان هذا هو اليوم. كانت تعلم ذلك. ابتسمت لويزا لابنتها ابتسامة ملؤها الحنان.

- أنت تعرفين لماذا أفعل ذلك، يا نولا...

- نعم، يا أمي.

- أفعله لمصلحتك. كي تدخلني الجنة. أنت تريد أن تكوني ملاكاً، أليس كذلك؟

- لا أدري ما إذا كنت أريد أن أكون ملاكاً، يا أمي.

- لا تتفوهي بالحماقات. هيا، تعالي، يا حبيبي.

نهضت نولا بطاعة وتبعت أمها إلى الحمام، حيث كان الحوض الكبير جاهزاً على الأرض، مملوءاً بالماء. نظرت نولا إلى أمها: كانت امرأة جميلة، شعرها رائع، أشقر ومموج، وكان الجميع يقولون إنها تشبهها كثيراً.

- أحبك يا أمي، قالت نولا.

- أنا أيضاً أحبك، يا حبيبي.

- أنا آسفة لكوني فتاة شقية.

- لست فتاة شقية.

جثت نولا على ركبتيهما أمام الحوض، فأمسكت أمها برأسها وغطسته في الماء وهي تمسكها من شعرها. عدت إلى العشرين ببطء وقسوة، ثم أخرجت من الماء المثلج رأس نولا التي أطلقت صرخة فزع. «هيا يا ابنتي، هذا لتطهيرك»، قالت لويزا، ثم غطت رأسها في الماء المثلج من جديد.

أما الأب كيلرغان، فكان مغلقاً على نفسه في المرآب، يستمع إلى موسيقاه.

كان مذعوراً مما سمعه للتو.

- أملك تغرقك؟ قال هاري، مذهولاً.

كانت الساعة الثانية عشرة ظهراً، وكانت نولا قد وصلت لتوها إلى غوز كوف. كانت قد بكت طوال الصباح، ورغم جهودها لتمسح عينيها المحمرتين، كان هاري قد لاحظ على الفور أن شيئاً ما لا يسير على ما يرام.

- هي تضع رأسي في الحوض الكبير، قالت له نولا، حيث الماء مثلج. تضع رأسي هناك وتضغط عليه. وفي كل مرة تفعل ذلك، أشعر أنني سأموت... لم أعد أتحمل، يا هاري. ساعدني أرجوك.

تكوّرت في حضنه، فعرض عليها هاري أن ينزلا إلى الشاطئ، فلطالما كان الشاطئ يفرحها. حمل معه العلبة الحديدية المكتوب عليها ذكرى من روكلاند، مين، وراحا يوزعان الخبز على النوارس، ثم جلسا على الرمل وتأملا الأفق.

- أريد أن أرحل، يا هاري! صاحت نولا. أريدك أن تأخذني بعيداً عن هنا!

- أن ترحلي؟

- أنا وأنت، بعيداً عن هنا. لقد قلت لي إننا سنرحل من هنا يوماً. أريد أن أكون في مأمن من العالم. ألا تريد أن تبتعد عن العالم لتكون معي؟ فلنرحل، أرجوك. لنرحل في نهاية هذا الشهر الفظيع. لنقل في 30 أغسطس، ما يمنحنا خمسة عشر يوماً لتحضير أنفسنا.

- 30 أغسطس؟ تريدنا أن نغادر المدينة أنا وأنت يوم 30 أغسطس؟ هذا جنون!

- جنون؟ الجنون هو العيش في هذه المدينة البائسة، يا هاري! الجنون هو أن نحب بعضنا إلى هذا الحد دون أن يكون لنا الحق في ذلك! الجنون هو أن نضطر إلى الاختباء، كما لو كنا حيوانات غريبة! لم أعد أتحمل، يا هاري. أنا سأرحل. في ليلة 30 أغسطس، سأغادر

هذه المدينة. لا أستطيع البقاء فيها أكثر من ذلك. تعال معي، أرجوك، لا تتركني وحدي.

- وإذا تم توقيفنا؟

- من الذي سيوقفنا؟ سنكون في كندا في غضون ثلاث ساعات. ولأي سبب سيوقفوننا؟ فالرحيل ليس جريمة، الرحيل يعني أن نكون حُرِّين، فمن بإمكانه أن يمنعنا عن ذلك؟ فالحرية هي أساس أمريكا! إنها مذكورة في دستورنا. سأرحل، يا هاري، لقد قررت: بعد خمسة عشر يوماً، سأغادر مدينة البؤس هذه. هل ستأتي معي؟

أجاب من دون أن يفكر:

- نعم! بالتأكيد! لا أتخيل العيش من دونك. يوم 30 أغسطس، سنغادر معاً.

- أوه، يا هاري حبيبي، أنا سعيدة جداً! لكن ماذا عن كتابك؟

- كتابي شبه مُنجز.

- شبه مُنجز؟ هذا رائع! أنت تقدمت فيه بسرعة مذهلة!

- لم يعد يهمني أمر الكتاب. فإذا هربت معك، أعتقد أنه لن يعود بإمكانني أن أكون كاتباً. لكن لا يهم! فكل ما يهم هو أنت! كل ما يهم هو نحن! كل ما يهم هو أن نكون سعيدين.

- بل ستكون كاتباً بكل تأكيد! سنرسل المخطوطة إلى نيويورك عبر البريد! أنا أعشق روايتك الجديدة! قد تكون أجمل رواية قرأتها في حياتي. ستصبح كاتباً كبيراً، يا هاري. أنا أوّمن بك! يوم 30 أغسطس إذاً؟ بعد خمسة عشر يوماً، سنهرب من هنا، أنا وأنت! وفي غضون ثلاث ساعات، سنكون في كندا. سنكون سعيدين، سترى. الحب يا هاري، الحب هو الشيء الوحيد الذي بإمكانه أن يجعل الحياة جميلة حقاً، فالباقي ليس سوى قشور.

كان جالساً خلف مقود سيارة الدورية، ينظر إليها عبر الواجهة الزجاجية لمطعم كلاركس. كانا بالكاد تحدثا منذ الحفل الراقص؛ كانت تحافظ على مسافة بينهما، وقد أحزنه ذلك. أما هي، فبدت له حزينة مؤخراً. تساءل ما إذا كانت له علاقة بسلوكها، ثم تذكر تلك المرة التي وجدها فيها باكية في الفناء الأمامي لمنزلها، حيث قالت له إن أحدهم آذاها. ماذا قصدت بالأذى؟ هل كانت لديها مشاكل؟ أو أسوأ: هل ضربها أحدهم؟ مَنْ؟ ماذا كان يحدث؟ قرر أن يتحلى بالشجاعة ويذهب ليكلمها. وكما يفعل دائماً، انتظر حتى خفت الحضور قليلاً، قبل أن يتجرأ ويدخل إلى المطعم. وحين دخل أخيراً، كانت جيني تنظف إحدى الطاولات.

- أهلاً، جيني، قال وقلبه يخفق بقوة.

- أهلاً، ترافيس.

- هل أنت بخير؟

- انا بخير.

- لم تتح لنا الفرصة للتلقي حقاً منذ الحفل الراقص.

- كان لديّ الكثير لأفعله هنا.

- أردت أن أقول لك إنني كنت سعيداً جداً بكوني رفيقك في

الحفل.

- شكراً.

بدت شاردة الذهن.

- جيني، أنت تتصرفين معي بجفاء في الآونة الأخيرة.

- لا، يا ترافيس... أنا... ليس للأمر علاقة بك.

كانت تفكر في هاري، تفكر فيه ليلاً نهاراً. لماذا كان يرفضها؟

منذ بضعة أيام، جاء إلى هنا بصحبة إليجاه ستيرن وكان بالكاد قد وجّه

لها الكلام. بل إنها لاحظت أنهما كانا يهزءان منها!

- جيني، إذا كنت تواجهين المشاكل، فأنت تعلمين أنه بإمكانك أن تحكي لي كل شيء.
- أنا أعلم ذلك. أنت لطيف جداً معي، يا ترافيس، لكن عليّ أن أنهى تنظيف الطاولات الآن.
- توجهت إلى المطبخ.
- انتظري، قال ترافيس.
- أراد أن يمسكها من معصمها، لكن رغم حركته الخفيفة، أطلقت جيني صرخة ألم وأفلتت الأطباق من يديها، فتهشمت على الأرض. كان قد ضغط على الكدمة التي تشكلت على ذراعها منذ أن شد عليها لوثر بقوة، وحاولت أن تخفيها بارتداء ملابس ذات أكمام طويلة، رغم الحرارة.
- أنا آسف حقاً، اعتذر ترافيس وهو يهرع ليللمم الأطباق من الأرض معها.
- ليس خطأك.
- ذهب معها إلى المطبخ وأخذ مكنسة لينظف أرضية الصالة. وحين عاد، كانت تغسل يديها مشمرة أكمامها كي لا تبتل، فلاحظ الكدمة الزرقاء على معصمها.
- ما هذا؟ سألتها.
- لا شيء، لقد اصطدمت بالباب منذ بضعة أيام.
- اصطدمت بالباب؟ لا تقولي لي الأكاذيب! لقد عنفك أحدهم.
- من فعل بك ذلك؟
- الأمر غير مهم.
- بل مهم بكل تأكيد! أنا أطالب بأن أعرف من هو هذا الرجل الذي يؤذيكَ هكذا. أخبريني، فأنا لن أذهب من هنا قبل أن أعرف ذلك.
- إنه... إنه لوثر كاليب من فعل بي ذلك. سائق ستيرن. إنه...

كان ذلك في الصباح، كان غاضباً. لقد أمسك بمعصمي وآذاني، لكن لم يفعل ذلك عن قصد. هو لم يكن مدركاً لقوته.

- بل الأمر خطير يا جيني! خطير جداً! إذا عاد إلى هنا، أريدك أن تخبريني فوراً.

*

20 أغسطس 1975

كانت تغني وهي على طريق غوز كوف. كانت تشعر بإحساس عذب يسري فيها: بعد عشرة أيام، سيرحلان معاً. بعد عشرة أيام، ستحيا أخيراً. كانت تعدّ الليالي حتى اليوم الموعد: لقد غدا قريباً جداً. حين لمحت المنزل في نهاية طريق الحصى، أسرعت الخطى، متلهفة لترى هاري. وكالعادة، لم تلاحظ الطيف الجاثي وراء الشجيرات، الذي كان يراقبها. دخلت إلى المنزل من الباب الرئيسي، دون أن تقرع الجرس، كما باتت تفعل كل يوم.

- هاري حبيبي! صاحت معلنة عن نفسها.

لا جواب. بدا المنزل خالياً. نادت من جديد. صمت مطبق. عبرت غرفة الطعام وغرفة المعيشة، دون أن تعثر عليه. لم يكن في مكتبه. ولا على الشرفة. فنزلت السلم وصولاً إلى الشاطئ وراحت تناديه. قد يكون ذهب ليسبح في المحيط؟ كان يفعل ذلك أحياناً حين يعمل كثيراً. لكن لم يكن هناك أحد على الشاطئ. شعرت بالهلع يجتاحها: أين عساه أن يكون؟ عادت إلى المنزل ونادته مجدداً. لا أحد. تفقدت جميع غرف الطابق الأرضي، ثم صعدت إلى الطابق العلوي. ولما فتحت باب غرفة النوم، وجدته جالساً على السرير، يقرأ رزمة من الأوراق.

- هاري! أنت هنا؟ أنا أبحث عنك في كل مكان منذ عشر دقائق...

انتفض حين سمعها .

- عذراً، يا نولا، كنت أقرأ... لم أسمعك .

نهض، جمع رزمة الأوراق التي كان يمسك بها، ووضعها في درج منضدة السرير .

ابتسمت .

- وما الشيء المشوّق الذي كنت تقرأه بشغف، لدرجة أنك لم

تسمعي أنادي اسمك في كل أرجاء المنزل؟

- لا شيء ذا أهمية .

- أهي تتمة روايتك؟ أرني!

- لا شيء ذا أهمية . سأريك إياها في الوقت المناسب .

نظرت إليه نظرة تمرد .

- أنت متأكد أن كل شيء على ما يرام، يا هاري؟

ضحك .

- كل الأمور بخير، يا نولا .

خرجوا إلى الشاطئ، إذ كانت تريد أن ترى النوارس . فتحت

ذراعيها عن آخرهما، كما لو كانا جناحين، وراحت تجري راسمة دوائر كبيرة .

- كم أود أن أطيّر، يا هاري . لم يتبق سوى عشرة أيام . عشرة

أيام وسنطير! سنغادر مدينة النحس هذه إلى الأبد!

كانا يظنان نفسيهما وحيدين على الشاطئ . لم يشك هاري ولا نولا

أن لوثر كاليب كان يراقبهما من الغابة، من أعلى الصخور . انتظر حتى

عادا إلى المنزل ليخرج من مخبئه : ركض بمحاذاة طريق غوز كوف

وعاد إلى المستانغ المركونة على طريق الغابة الموازي . ذهب إلى

أورورا وركن سيارته أمام مطعم كلاركس، وهرع إلى الداخل : كان لا

بد أن يتحدث إلى جيني . كان لا بد لأحدهم أن يعرف بالأمر . كان

لديه حدس داخلي سيئ . لكن لم تكن جيني ترغب في رؤيته .

- لوثر؟ لا ينبغي بك أن تكون هنا، قالت له إذ وقف أمام المنضدة.

- جيني... أنا آف على ما حذف ذلك الصباح، ما كان يجب أن أمفك بذراعك كما فعلت.

- لديّ كدمة جراء ذلك...

- أنا آف.

- يجب أن تغادر الآن.

- لا، لحظة...

لقد قدمتُ شكوى ضدك، يا لوثر. طلب مني ترافيس أن أتصل به في حال عدت إلى المدينة، ليتولى أمرك بنفسه، فمن الأفضل أن تغادر قبل أن يراك هنا.

بدت على العملاق خيبة الأمل.

- قدمتِ شكوى ضدي؟

- نعم، لقد أرعبتني ذلك الصباح...

- لكن يفب أن أحذفك عن شيء مهم.

- ما من شيء مهم، يا لوثر، هيا ارحل...

- إنه بشأن هاري كبير...

- هاري؟

- نعم، قل لي رأيك في هاري كبير...

- لماذا تحدثني عنه؟

- هل تفقن به؟

- هل أثق به؟ نعم، طبعاً. لماذا تسألني هذه السؤال؟

- يفب أن أخبرك بأمر ما...

- تخبرني بأمر ما؟ ما هو؟

في اللحظة التي كان سيرد فيها لوثر، ظهرت سيارة شرطة في الساحة المقابلة لمطعم كلاركس.

- إنه ترافيس! صرخت جيني. اهرب، يا لوثر، اهرب! لا أريد لك المتاعب!

أسرع كاليب بالخروج، ورأته جيني يركب سيارته وينطلق بسرعة. وبعد لحظات، هرع ترافيس إلى المطعم.

- هل رأيتُ للتو لوثر كاليب يخرج من هنا؟ سألها.

- نعم، ردت جيني. لكنه لم يكن يريد مني شيئاً. إنه فتى لطيف، وأنا نادمة أنني قدمْتُ شكوى ضده.

- طلبت منك أن تخبريني إذا عاد! لا يحق لأحد أن يمد يده عليك! أبداً!

عاد ترافيس مسرعاً إلى سيارته، فلحقت به جيني وأوقفته على الرصيف.

- أرجوك يا ترافيس، لا تسبب له المتاعب. أرجوك. أعتقد أنه فهم الآن.

نظر إليها ترافيس وأدرك فجأة ما كان غائباً عنه. لهذا إذاً كانت تعامله بجفاء في الآونة الأخيرة.

- لا، يا جيني، لا تقولي لي إنك..

- إني ماذا؟

- إنك معجبة بهذا المعتوه!

- ماذا؟ ما الذي تقوله؟!

- يا إلهي! كيف كنت غيباً إلى هذا الحد!

- لا، يا ترافيس، ما الذي تقوله...؟

لم يعد يسمعها. ركب سيارته وانطلق كالمجنون، مطلقاً صفارة الإنذار والشارة الضوئية.

على الطريق رقم 1، قبل سايد كريك لين بقليل، رأى لوثر في مرآته الخلفية سيارة الشرطة تلاحقه، فتوقف على جانب الطريق. كان

خائفاً. خرج ترافيس من سيارته، يستشيط غضباً. كانت آلاف الأفكار تدور في رأسه: كيف يمكن لجيني أن تُعَجِّب بهذا الوحش؟ كيف يمكن لها أن تفضله عليه؟ هو الذي كان يفعل كل شيء من أجلها، هو الذي بقي في أورورا ليكون قريباً منها... ليحل محله هذا الشخص في الأخير. أمر لوثر بالخروج من سيارته وحقق فيه من أعلى إلى أسفل.

- أيها المعتوه، هل تؤذي جيني؟

- لا، يا ترافيف، أقم لك إني لم أفعل ما تظنه!

- لقد رأيت الكدمات على معصمها.

- لم أتحكم في قوتي. وأنا نادم حقاً على ما فعلت، أرفوك، لا أريد المشاكل.

- لا تريد المشاكل؟ لكن أنت من يثير المشاكل! هل تواعد

جيني؟

- ماذا؟

- جيني وأنت، هل تربطكما علاقة؟

- لا! لا!

- أنا... أنا أفعل كل شيء لأسعدها، وأنت من يحظى بها في

النهاية! يا إلهي، ماذا يحدث في هذا العالم؟

- ترافيف... الأمر ليف كما تعتقد...

- اخرس! صرخ ترافيس وهو يمسك لوثر من ياقة قميصه قبل أن

يطرحه أرضاً.

لم يكن يعرف ما الذي عليه فعله تحديداً: فكر في جيني التي

تصده، فشعر بنفسه مهاناً وبائساً. كان غاضباً أيضاً، فهو لم يعد يتحمل

أن يُداس عليه طوال الوقت. كان الوقت قد حان ليتصرف كرجل.

سحب هراوته من حزامه، ورفعها في الهواء، وبحركة مجنونة، راح

ينهاه على لوثر بالضرب على نحوٍ وحشيّ.

قبل العاصفة

«ما رأيك؟»

- لا بأس به . لكنني أعتقد أنك تولي أهمية كبيرة للكلمات .

- الكلمات؟ لكنها مهمة حين نكتب ، أليس كذلك؟

- نعم ولا . فمعنى الكلمة أهم من الكلمة بحد ذاتها .

- ماذا تعني؟

- الكلمة هي مجرد كلمة والكلمات متاحة للجميع . فيكفي أن تفتح قاموساً وتختار منه كلمة . لكن هل يمكنك أن تمنح هذه الكلمة معنى خاصاً؟ حينئذٍ فقط يصبح الأمر مثيراً للاهتمام .

- كيف ذلك؟

- فلتأخذ كلمة وتكررها في كتاب من كتبك . لنختار كلمة عشوائياً: كلمة نورس على سبيل المثال . سيقول الناس عند الحديث عنك: «غولدمان، ذلك الكاتب الذي يتحدث عن النوارس». وفي مناسبات أخرى، حين يرون النوارس، هؤلاء الناس أنفسهم سيفكرون فيك . سينظرون إلى تلك الطيور الصائحة وسيقولون في أنفسهم: «أتساءل عما يحب فيها غولدمان». ثم سيربطون بين النوارس وغولدمان . وفي كل مرة يرون فيها النوارس، سيفكرون في كتابك بل وفي كل أعمالك . لن يروا تلك الطيور كما كانوا يرونها من قبل .

حينذاك فقط، ستعلم أنك تكتب فعلاً. فالكلمات متاحة للجميع، إلى أن تثبت أنك قادر على امتلاكها. هذا ما يجعل الكاتب كاتباً. وسترى، يا ماركوس، سيرغب البعض بإقناعك أن الكتاب هو علاقة مع الكلمات، لكن هذا غير صحيح: الكتاب هو علاقة مع الناس».

الاثنين 7 يوليو 2008، بوسطن، ماساتشوستس

بعد أربعة أيام من اعتقال الرئيس برات، قابلتُ روي بارناسكي في صالون خاص بفندق بارك بلازا في بوسطن لتوقيع عقد بقيمة مليون دولار لكتابي عن قضية هاري كير. كان دوغلاس حاضراً هو الآخر، وبدأ مبتهجاً لهذه النهاية السعيدة لوضعي.

- تحول مفاجئ، قال بارناسكي. غولدمان العظيم يعود إلى العمل، فليصفق الجميع!

لم أجب بشيء، وإنما اكتفيت بإخراج رزمة أوراق من حقيبتي وتسليمها له. ابتسم ابتسامة عريضة:

- ها هي ذي الصفحات الخمسون الأولى إذاً...

- نعم.

- أسمح لي ببعض الوقت لألقي عليها نظرة؟

- بكل سرور.

غادرنا أنا ودوغلاس الغرفة لندعه يقرأ في هدوء ونزلنا إلى حانة الفندق حيث طلبنا البيرة.

- أنت بخير ماركوس؟ سألني دوغلاس.

- أنا بخير، لكن الأيام الأربعة الأخيرة كانت جنونية...

هزّ رأسه وأضاف:

- كل هذه القصة جنونية! سيلاقي كتابك نجاحاً لا تتخيله!
بارناسكي يعلم ذلك جيداً، لذلك عرض عليك هذا القدر من المال،
فالمليون دولار هذه لا تمثل شيئاً نسبة لما سيجنيه. كان عليك أن ترى
ما يحدث في نيويورك: الجميع لا يتحدثون إلا عن القضية، كما أن
الاستوديوهات تتحدث منذ الآن عن تحويلها إلى فيلم، وكل دور النشر
تريد إصدار كتب عن كبير. لكن الجميع يعلمون أن الوحيد الذي يمكن
أن يؤلف هذا الكتاب هو أنت؛ فأنت الوحيد الذي يعرف كبير، وأنت
الوحيد الذي يعرف أورورا من الداخل. يريد بارناسكي أن يمتلك هذه
القضية قبل الجميع: يقول إنه إذا كنا أول من أصدر كتاباً عن القضية،
فقد تصبح نولا كيلرغان ماركة مسجلة لدار نشر شميد وهانسون.

- وأنت، ما رأيك في الأمر؟ سألته.

- إنها مغامرة لطيفة بالنسبة إلى كاتب، وطريقة جميلة لمواجهة
الفضاعات التي قيلت عن كبير؛ فالدفاع عنه كان رغبتك منذ البداية،
أليس كذلك؟

أومأت برأسي ثم نظرت إلى أعلى، في اتجاه الطوابق العلوية
حيث كان بارناسكي يكتشف جزءاً من روايتي التي سمحت أحداث
الأيام الأخيرة ببلورتها على نحو كبير.

*

3 يوليو 2008، أربعة أيام قبل توقيع العقد

كان ذلك بعد بضع ساعات على اعتقال الرئيس برات. كنت عائداً
من سجن الولاية حيث فقد هاري صوابه وكاد يُلقى كرسياً عليّ بعد أن
أخبرته بوجود لوحة لنولا في منزل إليجاه ستيرن. ركنت السيارة أمام
المنزل ولاحظت على الفور الورقة الصغيرة المثبتة في إطار باب
المدخل: رسالة جديدة. لكن كانت النبذة قد تغيرت هذه المرة:

الإنذار الأخير، يا غولدمان.

لم أكثرث للأمر: الإنذار الأول أو الأخير، ماذا كان ذلك سيغير؟ رميت الرسالة في سلة القمامة بالمطبخ وقمت بتشغيل التلفاز. كانت كل القنوات تتحدث عن اعتقال الرئيس برات: فذهب البعض إلى التشكيك في التحقيق الذي أجراه وقتذاك، وتساءلوا عما إذا كانت التحريات قد أهملت عمداً من قبل رئيس الشرطة السابق.

حل الليل لطيفاً عذباً؛ كانت إحدى أمسيات الصيف تلك التي تُقضى مع الأصدقاء في شواء اللحم وشرب البيرة. لم يكن لي أصدقاء، لكنني اعتقدت أن لدي اللحم والبيرة. ذهبت وفتحت الثلاجة، لكنها كانت فارغة: لقد نسيت أن أتسوق. أدركت حينذاك أن ثلاجتي كانت مثل ثلاجة هاري: ثلاجة رجل وحيد. طلبت البيتزا وأكلتها على الشرفة. كانت لدي على الأقل الشرفة والمحيط، ولم يكن ينقصني سوى الشواء، والأصدقاء، وحبية لتكتمل السهرة. تلقيت في تلك اللحظة مكالمة من أحد أصدقائي القليلين جداً الذي لم أسمع أخباراً عنه منذ فترة: دوغلاس.

- مارك، ما الجديد؟

- ما الجديد؟ لم أسمع أخبارك منذ أسبوعين! أين كنت؟ أنت وكيلى الأدبي حقاً؟

- أعلم، يا ماركوس. أنا آسف. لقد مررنا بظروف صعبة. أقصد أنا وأنت. لكن إذا كنت لا تزال ترغب في أن أكون وكيلك الأدبي، فأنا يشرفني أن أستمّر في تعاوننا.

- بالتأكيد، لكن لدي شرط: أن تأتي إلى منزلي لنشاهد بطولة اليبسبول معاً.
ضحك.

- اتفقنا. أنت تحضر البيرة وأنا الناشو بالجبنه.
- لقد عرض عليّ بارناسكي عقداً مغرياً، قلت له.
- أعلم. لقد حدثني عنه. هل ستوافق؟

- أعتقد ذلك، نعم.
- إن بارناسكي متحمس جداً، ويريد أن يراك في أسرع وقت.
- يراني من أجل ماذا؟
- من أجل توقيع العقد.
- بهذه السرعة؟
- نعم، أعتقد أنه يريد التأكد من أن عملك يتقدم بسرعة. فتاريخ التسليم سيكون قريباً: سيتعين عليك أن تكتب بسرعة، فهو مهووس بالحملة الانتخابية. أشعر بنفسك جاهزاً؟
- سأكون بخير. لقد عدت أكتب من جديد، لكني لا أعلم ما ينبغي لي فعله: هل أحكي كل ما أعرفه؟ أحكي أن هاري كان قد قرر الهروب مع فتاة مراهقة؟ هذه القصة، يا دوغلاس، هي هذيان خالص. لا أعتقد أنك تدرك ذلك تماماً.
- الحقيقة، يا مارك. قل الحقيقة بشأن نولا كيلرغان، ببساطة.
- وإذا كانت هذه الحقيقة ستضر هاري؟
- أن تقول الحقيقة هو مسؤوليتك ككاتب. حتى وإن كانت الحقيقة صعبة. هذه نصيحتي لك كصديق.
- ونصيحتك كوكيل أدبي؟
- أمّن نفسك، احرص على ألا تدخل في قضايا كثيرة مع سكان نيو هامبشير، على سبيل المثال هل قلت لي إن الصغيرة كانت تتعرض للضرب على يد والديها؟
- نعم، من أمها.
- إذاً، فلتكتف بأن تقول إن نولا كانت فتاة بائسة وتعامل معاملة سيئة والجميع سيفهمون أن أبويها هما من كانا يعاملانها بقسوة، لكن من دون شرح محدد. . . في هذه الحالة لا يمكن لأحد أن يلاحقك قضائياً.
- لكن الأم تلعب دوراً محورياً في القصة.

- نصيحة وكيلك الأدبي يا ماركوس: لا بد لك من أدلة دامغة كي تدين البشر، وإلا ستدهسك قاعات المحاكم، وأعتقد أن لديك ما يكفيك من المتاعب في الأشهر الأخيرة. فلتجد شهوداً على أن الأم كانت سيئة وكانت تعاقب الصبية بشدة وإلا فلتكتف بالعبرة السابقة: «فتاة بائسة وتعامل معاملة سيئة»، كذلك علينا تفادي أن يوقف قاضٍ بيع الكتاب بسبب ما قد يسميه افتراءات. في المقابل، تستطيع، فيما يتعلق ببرات الآن، أن تخوض في التفاصيل، بما أن كل الناس تعرف القصة، فتلک التفاصيل الحقیرة ستزید المبيعات.

عرض بارناسكي أن نتقابل يوم الاثنين 7 يوليو في بوسطن، لأنها مدينة تبعد ساعة واحدة بالطائرة عن نيويورك وساعة بالسيارة عن أورورا وهو ما قبلته، منحني هذا الاتفاق فرصة أربعة أيام لأكتب بضعة فصول لأقدمها له.

- اتصل بي إذا احتجت إلى أي شيء.

- سأفعل، أشكرك يا دوغلاس... انتظر.

- نعم؟

- كنت تصنع كوكتيل الموخيتو، هل تتذكر؟

سمعه يضحك:

- أتذكر جيداً.

- كانت أوقات جميلة، أليس كذلك؟

- وما زالت أوقات جميلة يا ماركوس، حيواتنا رائعة، حتى وإن مررنا بأوقات صعبة أحياناً.

*

1 ديسمبر 2006، مدينة نيويورك

- دوغ، يمكنك تحضير المزيد من الموخيتو؟

خلف منضدة مطبخي، كان دوغلاس يقف مرتدياً مئزر مطبخ عليه

صورة امرأة، وصرخ مداعباً وأمسك زجاجة من الروم وأفرغها في دورق مليء بمكعبات الثلج.

كان ذلك بعد ثلاثة أشهر من صدور كتابي الأول؛ كنت في قمة مجدي، وكانت هذه السهرة الخامسة التي أنظمها في فترة ثلاثة أسابيع، أي منذ أن انتقلت إلى شقتي الجديدة. كان عشرات الأشخاص يتكدسون في غرفة المعيشة، لا أعرف منهم ربعهم. كنت أحب أن يروي دوغلاس المدعويين بالموخيتو، في حين أحضر أنا الوايت راشن الذي اعتبره الكوكيتل الوحيد الصالح للشرب.

- يا لها من سهرة، قال لي دوغلاس. هل الرجل الذي يرقص في الصالون هو حارس المبنى؟

- نعم، لقد دعوته.

- وهناك ليديا غلور أيضاً! هل تصدق ذلك؟! ليديا غلور في شقتك!

- من هي ليديا غلور؟

- بالله عليك، يا ماركوس. يُفترض بك أن تعرفها! إنها نجمة الموسم! هي بطلة المسلسل الذي يشاهده الجميع... ما عداك على ما يبدو. كيف نجحت في دعوتها إلى هنا؟

- لا أدري. يقرع الناس الجرس وأنا أفتح لهم... البيت بيتكم!

حملت بعض الحلوى والمشروبات وعدت إلى غرفة المعيشة حيث رأيت عبر النوافذ الثلج يتساقط، فشعرت فجأة برغبة في أن أخرج إلى الهواء الطلق، فخرجت إلى الشرفة وأنا أرتدي قميصاً فقط؛ كان الجو جليدياً. تأملت ضخامة نيويورك الممتدة أمامي وملايين نقاط الضوء على مرأى العين، وصرخت بكل قواي: «أنا ماركوس غولدمان!». في تلك اللحظة، سمعت صوتاً من خلفي: كان لفتاة شقراء جميلة في سني تقريباً، لم أرها من قبل في حياتي.

- ماركوس غولدمان، صديقك دوغلاس يخبرك أن هاتفك المحمول يرن.

كان وجهها مألوفاً بعض الشيء.

- لقد سبق لي أن رأيتك من قبل، أليس كذلك؟ سألتها.

- في التلفزيون على الأرجح.

- أنت ليديا غلور...

- نعم.

- أوه!

رجوتها أن تنتظرنني في الشرفة وهرعت إلى المطبخ لأجيب على الهاتف.

- آلو.

- ماركوس؟ أنا هاري.

- هاري! كم أنا سعيد لسماع صوتك! كيف حالك.

- لا بأس. أردت فقط أن أسلم عليك. إني أسمع ضوضاء في الخلفية... هل لديك ضيوف؟ قد أكون اتصلت في وقت غير مناسب...

- إني أقيم حفلاً صغيراً في شقتي الجديدة.

- هل تركت مونتكلير؟

- نعم، لقد اشتريت شقة في حي قرية غرينتش. أنا أسكن في نيويورك الآن! لا بد أن تأتي لزيارتي، فالمشهد من هنا يحبس الأنفاس.

- أنا واثق من ذلك. على أية حال، يبدو أنك مستمتع بوقتك،

وأنا سعيد بذلك. ولا بد أن لك الكثير من الأصدقاء...

- بالأكوام! لكن هذا ليس كل شيء: تخيل أن هناك ممثلة في

غاية الجمال تنتظرنني الآن على شرفتي. ها ها، أكاد لا أصدق! الحياة

أكثر من رائعة، يا هاري! أكثر من رائعة! وأنت يا هاري؟ ماذا ستفعل هذا المساء؟

- أنا... لدي سهرة صغيرة في منزلي؛ بعض الأصدقاء، وحفل شواء، وبيرة. ماذا يمكن أن أطلب أكثر من ذلك؟ نحن نقضي وقتاً طيباً، ولا ينقصنا سوى وجودك. اسمح لي... اسمع من يقرع الجرس، يا ماركوس. لقد وصل مدعوون آخرون. عليّ أن أتركك لأفتح لهم. لا أدري ما إذا كان المنزل سيسعنا جميعاً، رغم اتساعه!

- سهرة ممتعة، يا هاري. سأتصل بك لاحقاً بكل تأكيد.

عدت إلى الشرفة، وفي ذلك اليوم، بدأت علاقتي بليديا غلور، التي ستسميها أُمِّي «الممثلة التلفزيونية». في غوز كوف، ذهب هاري ليفتح الباب: كان عامل توصيل البيتزا. استلم طلبه وجلس أمام التلفاز ليتناول عشاءه.

وكما وعدته، اتصلت بهاري بعد هذه السهرة، لكن كان قد مرّ أكثر من عام بين المكالمتين. كان ذلك في فبراير 2008.

- أوه، ماركوس! أهذا أنت الذي يتصل بي؟ لا أصدق! منذ أن أصبحت نجماً، انقطعت أخبارك. حاولت الاتصال بك منذ حوالي الشهر وردت عليّ سكرتيرتك قائلة إنك لست متاحاً لأحد.

أجبت دون مواربة:

- لستُ على ما يرام، يا هاري! أعتقد أنني لم أعد كاتباً.

استعاد هيئته الجادة سريعاً:

- ما الذي تتفوه به، يا ماركوس؟

- لا أعرفُ ماذا أكتب، لقد انتهيت؛ صفحتي بيضاء منذ شهور عديدة. عام ربما.

انفجر في ضحكة مطمئنة ودافئة.

- انسداد فكري يا ماركوس، هذا كل ما في الأمر! إن الصفحات

البیضاء سیئة بقدر الأعطال الجنسية المرتبطة بالأداء: إنه هلع الإبداع. لا تشغل نفسك بكتابة عبقرية، بل صُفِّ الكلمات جنباً إلى جنب فحسب، وستأتي العبقرية من تلقاء نفسها.

- أعتقد ذلك؟

- بل متأكد. لكن عليك أن تدع سهراتك الفاخرة ونشاطاتك الاجتماعية جانباً لبعض الوقت، فالكتابة عمل جديّ. ظننتُ أنني لَقنْتُك هذه الحقيقة.

- لكنني أعمل بجدّاً! لا أفعل سوى ذلك! وبالرغم من ذلك، لا أصل إلى شيء.

- إذاً، إن ما ينقصك هو جو مواتٍ. نيويورك مدينة جميلة جداً، لكنها صاحبة جداً جداً. لماذا لا تأتي إلى هنا، عندي، كما كنت تفعل حين كنت تلميذي؟



4-6 يوليو 2008

في الأيام التي سبقت لقائي ببارناسكي في بوسطن، تقدم التحقيق على نحو مذهل.

أولاً، وُجهت للرئيس برات تهمة استغلال جنسي لقاصر عمرها دون الستة عشر عاماً، ثم أُخلي سبيله في اليوم التالي مقابل كفالة مالية، فأقام بشكل مؤقت في فندق صغير في مونتيبيري، فيما غادرت زوجته إيمي المدينة لتقيم عند أختها التي تعيش في ولاية أخرى. وأفادت تحقيقات الشرطة الجنائية مع برات أن تمارا كوين لم تطلعه على الورقة التي عثرت عليها عند هاري بشأن نولا فحسب، بل إن نانسي هاتاواي أيضاً أخبرته بما كانت تعرفه بشأن إlijah ستيرن. والسبب الذي جعل برات يتجاهل الأمرين عمداً كان خوفه من أن

تكون نولا قد تكلمت عما وقع بينهما مع إحداهما، فلم يرغب في أن يخاطر باستجوابهما. لكنه أقسم أنه لم تكن لديه أي علاقة بموت نولا وديورا كوبر، وأنه أدار التحقيقات على نحو لا تشوبه شائبة.

إثر هذه الاعترافات، استطاع غاهالوود أن يقنع مكتب المدعي العام بإصدار إذن بتفتيش منزل إليجاه ستيرن، الذي جرى صباح يوم الجمعة 4 يوليو، أي يوم عيد وطني، فوجدت لوحة نولا في المرسم وتم الاستلاء عليها، كما اصطُحِب إليجاه ستيرن إلى مقر الشرطة لتأخذ أقواله لكن لم يوجَّه إليه أي اتهام. إلا أن هذا التطور الجديد زاد من فضول الرأي العام أكثر فأكثر: فبعد اعتقال الكاتب الشهير هاري كيبر، وغاريث برات رئيس الشرطة السابق، ها هو الرجل الأكثر ثراء في نيو هامبشير يجد نفسه متورطاً هو الآخر في موت كيلرغان الصغيرة.

حكى لي غاهالوود استجواب ستيرن بالتفاصيل المملة. «إنه شخص مهيب، قال لي، ذو هدوء رهيب. حتى إنه أمر جيش محاميه بالبقاء في الخارج. ذلك الحضور، نظرته الزرقاء الفولاذية، أعترف أنني كنت غير مرتاح وأنا جالس قبالة، رغم اعتيادي على الاستجوابات. وحين أريته اللوحة، أكد لي أنها لنولا فعلاً».

- لماذا تحتفظ بتلك اللوحة في منزلك؟ سأله غاهالوود.

فأجاب ستيرن كأنه أمر بديهي:

- لأنها لوحتي. هل هناك قانون في هذه الولاية يمنع امتلاك

اللوحات وتعليقها على الجدران؟

- لا، لكنها لوحة لفتاة مقتولة.

- وإذا كانت لديّ لوحة لجون لينون، الذي مات مقتولاً هو

الآخر، فهل سيكون ذلك أمراً خطيراً؟

- أنت تعرف تماماً ما أود قوله، يا سيد ستيرن. من أين أتت هذه

اللوحة؟

- لقد رسمها أحد موظفيّ آنذاك، لوثر كاليب.

- ولماذا رسم هذه اللوحة؟
- لأنه كان يحب الرسم.
- ومتى رسم هذه اللوحة؟
- في صيف 1975. في يوليو، أغسطس إذا أسعفتني الذاكرة.
- أي قبل اختفاء الصغيرة مباشرة.
- نعم.
- كيف رسمها؟
- بفرشٍ على ما أظن.
- توقف عن التظاهر بالغباء، لو سمحت. من أين كان يعرف نولا؟
- الجميع كانوا يعرفون نولا في أورورا. كانت ملهمته لهذه اللوحة.
- ولم يزعجك أن تحتفظ في منزلك بلوحة لصبية مختفية؟
- لا، إنها لوحة جميلة. هذا ما يسمى بـ «الفن». والفن الحقيقي يسبب الإزعاج؛ لأن الفن التوافقي ليس إلا نتيجة انحطاط العالم الفاسد بسبب الصوائية السياسية.
- هل تعلم أن امتلاك لوحة لفتاة عارية في الخامسة عشرة يمكن أن يعرضك للمضايقات، يا سيد ستيرن؟
- عارية؟ لا يظهر في اللوحة لا ثدياها ولا أعضاؤها التناسلية.
- لكن من الواضح أنها عارية.
- هل أنت مستعد لأن تدافع عن وجهة نظرك أمام محكمة، يا حضرة الرقيب؟ لأنك ستخسر، وأنت تعرف ذلك مثلي تماماً.
- أود فقط أن أعرف لماذا رسم لوثر كاليب نولا كيلرغان.
- لقد أجبت عن هذا السؤال: كان يحب الرسم.
- هل كنت تعرف نولا كيلرغان؟

- قليلاً . مثل الجميع في أورورا .

- فقط ؟

- فقط .

- أنت تكذب ، يا سيد ستيرن . لدي شهود يؤكدون وجود علاقة بينكما وأنك كنت تحضرها إلى منزلك .
انفجر ستيرن ضاحكاً .

- هل لديك أدلة على ما تدّعيه ؟ أشك في ذلك ، لأنه غير صحيح ؛ أنا لم ألمس تلك الصغيرة إطلاقاً . اسمع أيها الرقيب ، لقد أثرت شفقتي : من الواضح أن تحقيقك متعثر وأنك تواجه صعوبة في صياغة أسئلتك ، لذا سأساعدك : نولا كيلرغان هي التي أتت إليّ . جاءت إلى منزلي ذات يوم وقالت إنها بحاجة إلى المال ، وقبلت أن تكون موديلاً للوحة .

- هل دفعت لها لتفعل ذلك ؟

- نعم ، كان لدى لوثر موهبة كبيرة في الرسم . موهبة رهيبة ! كان قد رسم لي لوحات رائعة من قبل ، مناظر لنيو هامبشير ومشاهد من الحياة اليومية في بلادنا الجميلة وكنت مفتوناً بها . بحسب رأيي ، كان بإمكان لوثر أن يصبح أحد أهم فنّانين هذا القرن ، وقلت لنفسني إنه قد ينجز شيئاً عظيماً إذا رسم تلك الفتاة الرائعة . والدليل على ذلك أنني إذا بعث هذه اللوحة الآن في ظل كل ما يحيط بهذه القضية من فضول واهتمام ، فسأبيعها بمليون أو مليوني دولار على الأقل . هل تعرف فنّانين معاصرين كثيراً تباع لوحاتهم بهذا السعر ؟

بعد أن أنهى شرحه ، أعلن ستيرن أنه أضاع ما يكفي من وقته وأن الإدلاء بشهادته قد انتهى ، وغادر المكان يتبعه فريق من المحامين ، تاركاً غاهالوود صامتاً ، ومضئاً المزيد من الغموض على القضية .

- هل فهمت شيئاً أيها الكاتب ؟ سألني غاهالوود بعد أن حكى لي

- أقوال ستيرن. لقد ذهبت الفتاة إلى منزل ستيرن ذات يوم لتعرض عليه أن يتم رسمها مقابل مبلغ من المال. هل تصدق ذلك؟
- أمر عجيب. لماذا كانت بحاجة إلى المال؟ من أجل الهرب؟
- ربما. لكنها لم تأخذ معها مدخراتها، إذ توجد في غرفتها علبة بسكويت فيها مئة وعشرون دولاراً.
- وماذا فعلتم باللوحة؟ سألته.
- احتفظنا بها عندنا في الوقت الحالي، كدليل للإدانة.
- إدانة من إذا كان ستيرن ليس متهماً؟
- إدانة كاليب.
- إذاً أنت تشبه فيه حقاً؟
- لا أدري، أيها الكاتب. ستيرن كان مهتماً بالرسم، وبرات كان يستغل الفتاة لمتعته الخاصة، لكن ما دافعهما في قتل نولا؟
- الخوف من أن تتكلم؟ قد تكون هددت أحدهما بأن تحكي كل شيء، وفي لحظة هلع ضربها حتى قتلها، قبل أن يدفنها في الغابة.
- لكن لماذا يترك هذه العبارة على المخطوطة؟ وداعاً، نولا حبيبتي. إنه شخص يحب تلك الصغيرة، والوحيد الذي كان يحبها هو هاري كير. كل الخيوط تقودنا إلى كير. وماذا لو كان كير قد عرف بأمر برات وستيرن فجن جنونه وقتل نولا؟ قد تكون هذه القصة جريمة عاطفية. وهي فرضيتك أصلاً.
- هاري، يرتكب جريمة عاطفية؟ لا، هذا غير معقول. متى ستصل نتائج فحص الخط اللعين ذاك؟
- قريباً، في غضون أيام، على ما أظن. ماركوس، يجب أن أخبرك بشيء: مكتب المدعي العام سيعرض اتفاقاً على كير. سيسقط تهمة الاختطاف مقابل اعترافه بارتكاب جريمة عاطفية. عشرون عاماً من السجن، ستُخفّض إلى خمسة عشر عاماً في حال حسن السلوك. لا إعدام.

- اتفاق؟ لماذا اتفاق؟ هاري ليس مذنباً بشيء.

شعرت بأننا غفلنا عن شيء ما، تفصيل يمكن أن يفسر كل شيء. استعدت الأيام الأخيرة في حياة نولا، لكن ما من حدث مميز وقع في أغسطس من عام 1975 في أورورا، حتى مساء يوم 30 أغسطس ذاك. والحقيقة أنه بعد الحديث مع جيني داون وتمارا كوين وبعض سكان المدينة، بدا لي أن الأسابيع الثلاثة الأخيرة لنولا كيلرغان كانت سعيدة. حكى لي هاري عن مشاهد التعذيب بالماء تلك، واعترف برات بإجبارها على القيام ببعض الممارسات الشائنة، وحدثني نانسي عن لقاءات قدرة مع لوثر كاليب، إلا أن أقوال جيني وتمارا كانت مختلفة تماماً: فوفقاً لروايتهما، لم يكن هناك شيء يشي بأن نولا كانت بائسة أو تتعرض للضرب، بل إن تمارا كوين أخبرتني أنها طلبت منها أن تعود إلى عملها في كلاركس مع بداية العام الدراسي، وأنها وافقت. وهو أمر أدهشني، حتى أنني طلبت منها تأكيديه مرتين. لماذا سعت نولا إلى العودة إلى عملها إذا كانت تنوي الهرب؟ أما روبرت كوين فذكر لي أنه كان يلتقي بها وهي تحمل آلة كاتبة وتسير بخفة وتغني، وكأن أورورا في شهر أغسطس من عام 1975 كانت جنة على الأرض. حتى أنني بدأت أتساءل ما إذا نوت مغادرة المدينة حقاً. ثم اجتاحني شك فظيع: ما الذي يضمن لي أن هاري كان يقول لي الحقيقة؟ ما الذي يؤكد أن نولا طلبت منه الرحيل معه حقاً؟ ماذا لو كانت تلك القصة مناورة ليبرئ نفسه من جريمة القتل؟ وماذا لو كان غاهالوود محقاً منذ البداية؟

رأيت هاري مجدداً بعد ظهيرة يوم 5 يوليو. كان وجهه كئيماً، رمادي اللون، كما ظهرت على جبهته خطوط لم أعدها من قبل.

- مكتب المدعي العام يريد أن يعرض عليك صفقة.

- أعلم ذلك. لقد حدثني عنها روث؛ جريمة عاطفية، وبهذا سأتمكن من الخروج بعد خمسة عشر عاماً.

- عرفت من صوته أنه كان مستعداً للتفكير في العرض .
- لا تقل لي إنك ستقبل العرض ! قلت منفعلاً .
- لا أدري ، يا ماركوس ، لكنها وسيلة لتفادي عقوبة الإعدام .
- تفادي عقوبة الإعدام؟ ماذا يعني ذلك؟ أنك مذنب؟
- لا ! لكن كل شيء يدينني ! وليست لدي أي رغبة في المخاطرة مع هيئة محلفين حكمت عليّ مسبقاً . فخمسة عشر عاماً أفضل من المؤبد أو طابور الموت .
- هاري ، سأسألك هذا السؤال للمرة الأخيرة : هل قتلت نولا؟
- طبعاً لا ، بحق السماء ! كم مرة سأقول لك ذلك؟
- سنثبت ذلك إذا !
- أخرجت جهاز التسجيل ووضعته على الطاولة .
- ارحمني يا ماركوس ، لا أطيق هذا الجهاز !
- يجب أن نفهم ما حدث .
- لا أريدك أن تسجل كلامي ، لو سمحت .
- حسناً ، لكنني سأدون الملاحظات .
- أخرجتُ دفترًا وقلمًا .
- أود أن نستأنف محادثتنا عن موضوع هروبكما في 30 أغسطس 1975 . إذا كنتُ قد فهمت جيداً ، ففي الوقت الذي قررتما فيه الهروب أنت ونولا ، كنتَ على وشك الانتهاء من تأليف كتابك . . .
- لقد أنهيته قبل موعد الرحيل ببضعة أيام . كتبت بسرعة ، بسرعة هائلة ، وكأنني مسكون . كان كل شيء مميزاً جداً : كانت نولا موجودة طوال الوقت ، تقرأ ، وتراجع ، وتطبع على الآلة الكاتبة . قد أبدو لك ساذجاً ، لكن كان كل شيء ساحراً . لقد أنهيت الكتاب يوم 27 أغسطس ، أذكر التاريخ جيداً لأنها كانت آخر مرة رأيت فيها نولا . اتفقنا على أن أغادر المدينة قبلها بيومين أو ثلاثة كي لا نثير الشكوك . كان يوم 27 أغسطس إذاً آخر يوم لنا معاً . كنت قد أنجزت الرواية في

شهر. كان ذلك جنوناً. كنت فخوراً جداً بنفسي. أذكر تينك المخطوطتين الموضوعتين على طاولة الشرفة: واحدة أصلية مكتوبة بخط اليد والأخرى تمثل العمل العملاق الذي أنجزته نولا بنقلها المخطوطة على الآلة الكاتبة. قضينا بعض الوقت على الشاطئ حيث التقينا قبل ثلاثة أشهر. مشينا طويلاً. أمسكت نولا بيدي وقالت لي: «لقد غير لقائنا حياتي، يا هاري. ستري كم سنكون سعيدين معاً». واصلنا المشي ووضعنا اللمسات الأخيرة على خطتنا: كنت سأغادر أورورا صباح اليوم التالي بعد أن أمر على مطعم كلاركس كي يراني الناس وأخبرهم بأنني سأغيب لمدة أسبوع أو أسبوعين للاهتمام ببعض الأمور العاجلة في بوسطن. وكنت سأبقى يومين في بوسطن بعد ذلك وأحتفظ بفواتير الفندق في حال استجوبتني الشرطة لاحقاً، ثم، في يوم 30 أغسطس، كنت سأستأجر غرفة في فندق سي سايد على الطريق رقم 1. الغرفة رقم 8 أوصتني نولا، لأنها تحب الرقم 8. سألتها كيف ستلحق بي في ذلك الفندق الذي يبعد بضعة أميال عن أورورا، فقالت لي ألا أشغل بالي، وإنها ستمشي بسرعة وأنها تعرف طريقاً مختصراً عبر الشاطئ، وإنها ستلحق بي في الغرفة عند الساعة السابعة مساءً. كما كان من المخطط أن يغادر إلى كندا فوراً بحثاً عن مكان آمن، شقة صغيرة للإيجار، ثم أعود بعد بضعة أيام إلى أورورا وكأن شيئاً لم يكن. توقعنا أن تبحث الشرطة عن نولا، فكان عليّ أن أحافظ على هدوئي: إذا تم استجوابي، أجب بأنني كنت في بوسطن وأريهم فواتير الفندق، كما كان عليّ أن أمكث في أورورا لمدة أسبوع كي لا أثير الشكوك، فيما تظل هي في شقتنا تنتظرنني. ثم أترك غوز كوف بعد ذلك وأغادر أورورا بحجة أنني أنهيت روايتي وأن عليّ السعي إلى نشرها الآن، لأعود بعد ذلك إلى نولا وأرسل المخطوطة عبر البريد إلى بعض الناشرين في نيويورك، ثم أتنقل بين مخبئنا في كندا ونيويورك لأضمن صدور الكتاب.

- وماذا كان يُفترض بنولا أن تفعل؟
- كنا سندبر لها وثائق مزورة، فتكمل دراستها الثانوية وتلتحق بالجامعة، وننتظر إلى أن تبلغ سن الثامنة عشرة لتصبح السيدة هاري كبير.

- وثائق مزورة؟ هذا جنون!
- أعلم ذلك. كان جنوناً محضاً!
- وماذا حدث بعد ذلك؟

- في يوم 27 أغسطس ذاك، راجعنا الخطة عدة مرات ثم عدنا إلى المنزل حيث جلسنا على أريكة غرفة المعيشة القديمة - هي لم تكن قديمة حينذاك لكنها أصبحت كذلك الآن لأنني لم أستطع التخلي عنها أبداً - ودارت بيننا محادثتنا الأخيرة. كانت هذه كلماتها الأخيرة، يا ماركوس، لن أنساها أبداً: «سكون سعيدين جداً، يا هاري، سأصبح زوجتك وستكون أنت كاتباً كبيراً، وأستاذاً جامعياً. فلطالما حلمت بأن أتزوج أستاذاً جامعياً. معك، سأكون أسعد امرأة في العالم. وسيكون لدينا كلب كبير بلون الشمس، كلب من فصيلة لابرادور سنسميه «ستورم». انتظرنِي، أرجوك انتظرنِي». فأجبتها: «سأنتظرك طوال حياتي إذا لزم الأمر، يا نولا». كانت هذه كلماتها الأخيرة، يا ماركوس. غفوت بعد ذلك، وحين استيقظت كانت الشمس قد غربت، وكانت نولا قد غادرت. كان ضوءٌ وردي ينعكس على المحيط، الذي يحلّق فوقه سرب من النوارس الصارخة. هذه النوارس التي أحببتها كثيراً. لم يتبقَّ على طاولة الشرفة سوى مخطوطة واحدة: المخطوطة الأصلية بخط يدي، وإلى جانبها تلك الرسالة التي عثرتَ عليها في العلبة والمكتوب عليها: لا تقلق يا هاري، لا تقلق بشأنِي، سأندبر أمري وألتحق بك هناك. انتظرنِي في الغرفة رقم 8، أحب هذا الرقم، إنه رقمي المفضل. انتظرنِي في تلك الغرفة عند الساعة السابعة مساءً. ثم سَنرحل إلى الأبد. لم أبحث عن المخطوطة:

فهمت أنها أخذتها لتقرأها مرة أخرى . أو ربما لتتأكد من أنني سأتي إلى الموعد في الفندق يوم 30 أغسطس . لقد أخذت تلك المخطوطة اللعينة ، يا ماركوس ، كما كانت تفعل أحياناً . أما أنا ، فغادرت المدينة في اليوم التالي كما كنا قد اتفقنا . مررت عمداً على كلاركس حيث تناولت القهوة ، ليراني الناس ولأقول إنني سأغيب لبعض الوقت . كانت جيني موجودة هناك ككل صباح ، وقلت لها إن لدي ما أفعله في بوسطن ، وإن كتابي كان شبه منتهٍ ، وإنه كانت لدي مواعيد مهمة ، ثم غادرت . غادرت دون أن أشك للحظة في أنني لن أرى نولا ثانية أبداً . وضعتُ قلمي . كان هاري يبكي .

*

7 يوليو 2008

في بوسطن ، في صالون فندق بارك بلازا ، استغرق بارناسكي نصف ساعة ليقراً الخمسين صفحة التي أحضرتها له ، ثم أرسل يستدعينا للالتحاق به .

- إذا؟ سألته وأنا أدخل الغرفة .

نظر إليّ بعينين براقيتين :

- إنه عمل عبقرى ، يا غولدمان ! عبقرى ! كنت أعلم أنك رجل الموقف .

- لكن انتبه ، هذه الصفحات هي كتاباتي وملاحظاتى ، فهناك بعض الأحداث فيها لا ينبغي أن تنشر .

- بالتأكيد ، يا غولدمان ! بالتأكيد . على أية حال ، سيتعين عليك أن توافق على البروفة النهائية .

طلب زجاجة من الشامبانيا وبسط أوراق العقد على الطاولة ولخص محتواه :

- تسليم المخطوطة في نهاية أغسطس . ستكون الإعلانات

جاهزة. التحرير والإخراج في غضون أسبوعين. الطباعة خلال شهر سبتمبر. الصدور متوقع في الأسبوع الأخير من سبتمبر. على أبعد تقدير. يا له من توقيت رائع! قبل الانتخابات الرئاسية مباشرة وخلال محاكمة كبير! ضربة تسويقية مذهلة، يا عزيزي غولدمان!

- وإذا لم يكن التحقيق قد انتهى بعد؟ سألته. كيف سأنتهي الكتاب؟

كان جواب بارناسكي جاهزاً وموافقاً عليه من قسمه القانوني: - إذا انتهى التحقيق، فسيكون سرداً لأحداث حقيقية. وإذا لم ينته، سنترك النهاية مفتوحة أو نؤلف نهاية من خيالك وستكون رواية. فمن الناحية القانونية، الأمر سليم تماماً، وبالنسبة إلى القراء، فلا فرق بين الاثنين. بل وربما سيكون أفضل لنا ألا ينتهي التحقيق: سيمكننا إصدار جزء ثانٍ من الكتاب. إنها فرصة ذهبية!

نظر إليّ نظرة متواطئة. أحضر نادلاً زجاجة الشامبانيا، وأصر بارناسكي على أن يفتحها بنفسه. وقّعت أنا العقد، طيّر السدادة وجعل الشامبانيا تندفق في كل مكان، ثم صب كأسين وأعطى إحداهما لدوغلاس والأخرى لي: - ألن تشرب؟ سألته.

بدا مشمئزاً وهو يجفف يديه بإحدى الوسائد. - أنا لا أحبها، فالشامبانيا هي لغايات العرض فقط؛ فالعرض، يا غولدمان، يمثل تسعين في المئة من الأهمية التي يوليها الناس للمنتج النهائي!

ثم أخرج هاتفه واتصل بشركة وارنر براذرز ليناقدح حقوق الفيلم.

بعد ظهيرة اليوم نفسه، وأنا عائد إلى أورورا، تلقيت اتصالاً من روث: كان في حالة إثارة بالغة.

- لقد ظهرت النتائج، يا غولدمان!

- أي نتائج؟

- الخط! ليس خط هاري! ليس هو من كتب تلك العبارة على

المخطوطة!

أطلقت صيحة فرح.

- وماذا يعني ذلك عملياً؟ سألته.

- لا أعلم بعد، لكن إذا لم يكن الخطُّ خطّه، فهذا يعني أن

المخطوطة لم تكن بحوزته لحظة مقتل نولا، والمخطوطة هي أحد الأدلة الأساسية لاتهامه. لقد حدد القاضي جلسة جديدة للمثول أمامه يوم الخميس المقبل 10 يوليو عند الساعة الثانية بعد الظهر. استدعاء

سريع، فهو على الأرجح خبر طيب بالنسبة إلى هاري!

كنت فرحاً جداً: سيُطلق سراح هاري قريباً. كان يقول الحقيقة

منذ البداية إذاً، كان بريئاً. انتظرت يوم الخميس بفارغ الصبر، لكن قبل ذلك بيوم، أي يوم الأربعاء 9 يوليو، وقعت كارثة. في ذلك اليوم، في حوالي الخامسة مساءً، كنت في غوز كوف، في مكتب هاري، أراجع ملاحظاتي بشأن نولا. تلقيت حينذاك مكالمة من بارناسكي على هاتفي المحمول. كان صوته يرتعش:

- ماركوس، لديّ خبر فظيع، قال من دون مقدمات.

- ماذا حدث؟

- سرقة...

- سرقة ماذا؟

- أوراقل... تلك التي أعطيتني إياها في بوسطن.

- ماذا؟ كيف حدث ذلك؟

- كانت في أحد أدراج مكتبي، لكنني لم أجدها أمس صباحاً...

ظننت أن ماريزا رتبت المكتب ووضعتها في الخزانة فهي تفعل ذلك أحياناً، لكن حين سألتها، قالت إنها لم تلمسها، فبحثت عنها أمس طوال اليوم لكن من دون جدوى.

كان قلبي يخفق بقوة. استشعرت بعاصفة.

- وما الذي جعلك تعتقد أنها سُرقت؟ سألته.

خيّم صمت طويل ثم أجاب:

- تلقيت اتصالات طوال فترة بعد الظهر: غلوب ويو إس إي تو

داي ونيويورك تايمز. . . لقد سرّب أحدهم نسخاً من أوراقك لكل الصحف الوطنية، التي تستعد لنشرها. ماركوس: قد تطلع البلاد بأكملها غداً على محتوى كتابك.

الجزء الثاني

شفاء الكُتَّاب

(تأليف الكتاب)

يوم 30 أغسطس 1975

«أترى، يا ماركوس، لقد صُئِم مجتمعا ليكون علينا دائماً الاختيار بين العقل والشغف. العقل لم ينفع أحداً يوماً، والشغف غالباً ما يكون مدمراً. لذلك سيكون من الصعب عليّ مساعدتك.

- لماذا تقول لي ذلك، يا هاري؟

- بلا سبب محدد. الحياة خدعة.

- هل ستأكل ما تبقى من البطاطس المقلية؟

- لا، تفضل.

- شكراً، يا هاري.

- ألا يهملك ما أقوله لك؟

- بل يهمني كثيراً. فأنا أصغي إليك باهتمام. رقم 14: الحياة

خدعة.

- يا إلهي، يا ماركوس، أنت لم تفهم شيئاً. أشعر أحياناً وكأنني

أتحدث إلى أبله.

الساعة الرابعة عصرًا

كان يوماً رائعاً. أحد أيام السبت المشمسة من نهاية الصيف، حيث تغرق أورورا في أجواء هادئة عذبة. كان الناس يتسكعون وسط المدينة ويقفون أمام واجهات المحال للاستمتاع بما تبقى من أيام جميلة، فيما نظم الأطفال سباقات الدراجات والزلاجات في شوارع الأحياء السكنية الخالية من السيارات، وجلس آباؤهم في ظلال مداخل المنازل يشربون الليمونادا ويتصفحون الجرائد.

للمرة الثالثة في أقل من ساعة، عبر ترافيس داون بسيارة الشرطة حي تراس أفينيو ومر أمام منزل آل كوين. كانت بعد ظهيرة هادئة تماماً، إذ لم يتلقَ أي اتصال من مركز الشرطة. لقد قام ببعض الدوريات الروتينية ليشغل نفسه، إلا أن عقله كان في مكان آخر؛ فهو لم يكن يستطيع أن يفكر في شيء عدا جيني. كانت جالسة هناك، تحت سقيفة المنزل، مع والدها، يحلان الكلمات المتقاطعة بينما كانت تمارا تقلم الشجيرات تمهيداً للخريف. وعند اقترابه من المنزل، خفض ترافيس من سرعته آملاً أن تلاحظه جيني، أن تدير رأسها وتراه، فتلوح له بيدها، بحركة ودية تشجعه على التوقف للحظة ليحييها عبر زجاج السيارة. وقد تقدم له شاياً مثلجاً، ويتحدثان قليلاً. لكنها لم تلتفت، ولم تره. كانت تضحك مع والدها والفرح بادٍ على محياها.

واصل طريقه وتوقف بعد بضعة أمتار، بعيداً عن الأنظار. تأمل باقة الورد على المقعد المجاور وأمسك بالورقة الصغيرة التي كانت إلى جانبها، حيث دوّن ما كان يريد أن يقوله لها:

«مرحباً جيني، يا له من يوم جميل. إذا كنت متفرّغة هذا المساء، يمكننا أن نذهب لنتنزه على الشاطئ. أو نذهب إلى السينما ربما؟ لديهم أفلام جديدة في مونتييري». (أعطها الورد).

كان عليه أن يعرض عليها نزهة أو الذهاب إلى السينما. كان أمراً بسيطاً. لكنه لم يجرؤ على الترحل من سيارته. أدار المحرك واستأنف دوريته، سالكاً نفس الطريق التي ستعيده إلى منزل آل كوين بعد عشرين دقيقة. وضع الزهور تحت المقعد كي لا يلاحظها أحد. كانت وروداً برية، قطعها بالقرب من مونتييري على حافة بحيرة حدثه عنها إرني بينكاس. للوهلة الأولى، بدت أقل جمالاً من الورد المزروعة، إلا أن ألوانها كانت أنصع. لطالما رغب في الذهاب مع جيني إلى هناك، حتى أنه كان قد وضع خطة لذلك؛ كان سيعصب عينيها ويقودها إلى أرضية الورد ولا يفك الوشاح إلا أمام الورد كي تنفجر آلاف الألوان أمامها كما لو كانت ألعاباً نارية. ثم كانا سيتناولان الغداء على ضفة البحيرة، لكنه لم يمتلك الشجاعة الكافية ليعرض عليها ذلك أبداً. كان يعبر تراس أفينيو الآن فمر أمام منزل آل كيلرغان، لكن دون أن يعير ذلك انتباهه، إذ كان ذهنه في مكان آخر.

رغم الطقس الجميل، قضى الأب كيلرغان طوال فترة بعد الظهر في المرآب يصلح دراجة هارلي ديفيدسون قديمة، آملاً أن يجعلها تسير يوماً ما. ووفقاً لتقرير شرطة أورورا، لم يترك مكانه إلا ليذهب إلى المطبخ ويشرب الماء، فرأى نولا في غرفة المعيشة تقرأ في هدوء.



كان النهار يوشك على الانتهاء، فكانت شوارع وسط المدينة تفرغ شيئاً فشيئاً، فيما عاد الأطفال في الأحياء السكنية إلى منازلهم استعداداً لتناول العشاء، بحيث لم يبقَ في الفناءات الأمامية سوى كراسي فارغة وصحف مبعثرة.

عاد رئيس الشرطة غاريث برات، الذي كان في إجازة، وزوجته إيمي إلى المنزل بعد أن قضيا نهارهما لدى أصدقاء خارج المدينة. في الوقت نفسه، رجعت عائلة هاتاواي - أي نانسي وأخوها ووالداها - إلى منزلهم في تراس أفنيو بعد أن قضوا النهار على شاطئ غراند بيتش. وأفاد تقرير الشرطة أن السيدة هاتاواي، والدة نانسي، قالت إن الموسيقى كانت تنبعث بصوت عالٍ جداً من منزل آل كيلرغان.

على بعد بضعة أميال من هناك، وصل هاري إلى فندق سي سايد، حيث حجز الغرفة رقم 8 باسم مستعار ودفع مسبقاً كي لا يضطر إلى إظهار بطاقة الهوية. كان قد اشترى زهوراً على الطريق. كان كل شيء جاهزاً. لم يتبق سوى ساعة ونصف على وصول نولا. فور وصولها، سيحتفلان بلم شملهما ثم يغادران سريعاً. وعند العاشرة ليلاً، سيكونان في كندا. سيستمتعان بوقتتهما معاً. لن تكون حزينة أبداً بعد الآن.



جلست ديورا كوبر، امرأة في الواحدة والستين من عمرها، تعيش وحيدة منذ وفاة زوجها في منزل منعزل يقع عند مدخل غابة سايد كريك، إلى طاولة المطبخ لتعد فطيرة تفاح. وبعد أن قشرت وقطعت الفاكهة، ألقت ببعض القطع خارج النافذة لحيوانات الراكون وظلت خلف النافذة تتقرب وصولها. لمحت في تلك اللحظة طيفاً يجري بين

صفوف الأشجار، فركزت أكثر فاستطاعت أن تميز فتاة بفستان أحمر يتبعها رجل، قبل أن يختفيا وسط الغطاء النباتي. هرعت إلى غرفة المعيشة حيث يوجد الهاتف كي تتصل بالشرطة، وأشار تقرير الشرطة أن الاتصال تم عند السادسة وإحدى وعشرين دقيقة، واستغرق سبعاً وعشرين ثانية. كان بلاغها موثقاً كالتالي :

- مركز الشرطة، ما هو بلاغك؟
- ألو؟ اسمي ديبورا كوبر، أسكن في سايد كريك لين. أعتقد أنني رأيت لتوي فتاة في الغابة يتبعها رجل...
- ما الذي حدث بالضبط؟
- لا أدري! كنت بالقرب من النافذة أنظر باتجاه الغابة حين رأيت فتاة تركض وسط الأشجار... ويتبعها رجل... أعتقد أنها كانت تحاول الإفلات منه.
- أين هما الآن؟
- أنا... أنا لم أعد أراهما. إنهما في الغابة.
- سأرسل لك دورية على الفور، يا سيدتي.
- شكراً، أسرعوا من فضلكم.

بعد أن أغلقت الخط، عادت ديبورا كوبر فوراً إلى نافذة مطبخها. لم تعد ترى شيئاً. فكرت أنه قد يكون نظرها خانها، إلا أنه كان من الأفضل أن تأتي الشرطة لتتفقد الأرجاء، فخرجت من منزلها لتستقبل الدورية.

أشار تقرير الشرطة أنه تم تحويل البلاغ إلى شرطة أورورا فتلقاه ترافيس داون الذي كان الضابط الوحيد في الخدمة في ذلك اليوم. وصل إلى سايد كريك لين بعد أربع دقائق من البلاغ تقريباً.

بعد أن شُرح له الوضع، قام الضابط داون بتفتيش أولي للغابة. وبعد بضعة أمتار من توغله بين صفوف الأشجار، عثر على قطعة قماش حمراء. قدّر حينذاك أن الوضع قد يكون خطيراً، فقرر أن يبلغ الرئيس برات، رغم أن هذا الأخير كان في إجازة. اتصل به في منزله من عند ديورا كوبر. كانت الساعة السادسة وخمساً وأربعين دقيقة.



السابعة مساءً

اعتبر الرئيس برات القضية خطيرة بما يكفي ليحضر بنفسه ويتولى زمام الأمور: لم يكن ليزعجه ترافيس داون في منزله إن لم يكن الأمر استثنائياً.

عند وصوله إلى سايد كريك لين، أوصى ديورا كوبر بالبقاء داخل منزلها إلى أن يقوموا هو وترافيس بجولة أكثر تعمقاً في الغابة. سلكا الطريق المحادية لشاطئ المحيط في الاتجاه الذي بدت الفتاة ذات الثوب الأحمر أنها أخذته. ووفقاً لتقرير الشرطة، عثر الشرطيان، بعد مشيهما ميلاً تقريباً، على آثار دم وخصلات شعر أشقر في جزء مفتوح من الغابة بالقرب من شاطئ المحيط. كانت الساعة السابعة والنصف مساءً.

كان من المحتمل أن تكون ديورا كوبر قد بقيت عند نافذة مطبخها لتحاول متابعة الشرطيين. كانا قد اختفيا منذ فترة حين رأت فتاة تظهر فجأة من الغابة بثوبها الممزق ووجهها الملطخ بالدم، تطلب النجدة وتسرع راكضة نحو المنزل. تملك ديورا كوبر الفزع ففتحت قفل باب المطبخ لتستقبلها، ثم هرعت إلى غرفة المعيشة لتتصل بالشرطة مجدداً. أفاد تقرير الشرطة أن الاتصال الثاني لديورا كوبر جاء عند السابعة وثلاث وثلاثين دقيقة واستمر لأكثر من أربعين ثانية. كان بلاغها موثقاً كالتالي:

- مركز الشرطة، ما هو بلاغك؟
- ألو؟ (صوت مفزوع). معك ديبورا كوبر، أنا... أنا اتصلت منذ قليل كي... كي أبلغ عن فتاة ملاحقة في الغابة، إنها هنا! إنها في مطبخي!
- اهديني، يا سيدتي، ما الذي حدث؟
- لا أعلم! لقد أتت من الغابة. هناك رجلا شرطة في الغابة حالياً، لكن أعتقد أنهما لم يرياها! لقد استقبلتها في مطبخي. أعتقد أنها... أنها ابنة الكاهن... الصغيرة التي تعمل في مطعم كلاركس... أعتقد أنها هي...
- ما هو عنوانك؟
- ديبورا كوبر، سايد كريك لين في أورورا. لقد اتصلت بكم من قبل! الفتاة هنا، أنفهم؟ وجهها ملطخ بالدم! تعالوا بسرعة!
- لا تتحركي، يا سيدتي. سأرسل قوة إضافية فوراً.

كان الشرطيان يتفقدان آثار الدم حين سمعا صوت طلقات نارية آتياً من المنزل. دون أن يفكرا ثانية، عادا أدراجهما راكضين وسلاحهما مشهر.

في نفس الوقت، لم يستطع موظف مركز الشرطة أن يتواصل مع الضابط ترافيس ولا مع الرئيس برات على جهاز السيارة الخاص بهما، فنظراً إلى خطورة الموقف، قرر أن يطلب مساعدة مكتب الشريف وشرطة الولاية، وأن يرسل الوحدات المتاحة إلى سايد كريك لين.

*

وصل الضابط ترافيس والرئيس برات إلى المنزل مقطوعي الأنفاس. دخلا من الباب الخلفي المؤدي إلى المطبخ، حيث وجدا ديورا كوبر مقتولة، ممددة على الأرض وغارقة في دمها، مع رصاصة في قلبها. وبعد تفقد سريع للطابق الأرضي للمنزل، هرع الرئيس برات إلى سيارته لينبغ مركز الشرطة ويطلب قوات إضافية. كان بلاغه موثقاً كالتالي:

- هنا الرئيس برات، شرطة أورورا. أطلب قوات إضافية عاجلة إلى سايد كريك لين، عند التقاطع مع الطريق رقم 1. لدينا امرأة مقتولة بالرصاص وفتاة مفقودة على ما يبدو.

- أيها الرئيس برات، لقد سبق أن تلقينا نداء استغاثة من السيدة ديورا كوبر في سايد كريك لين عند السابعة وثلاث وثلاثين دقيقة، أبلغتنا فيه أن فتاة قد لجأت إلى منزلها. هل الحدثن مرتبطان؟

- ماذا؟ ديورا كوبر هي من قُتلت. ولا يوجد أحد في المنزل. أرسل كل القوات المتاحة! يحدث أمر فظيع الآن!

- الوحدات في طريقها إليكم أيها الرئيس، سأرسل المزيد.

قبل حتى أن ينهي الاتصال، سمع برات صوت صفارة إنذار: لقد وصلت الوحدات بالفعل. لم يكذ يخبر ترافيس بالموقف ويأمره أن يتفقد المنزل من جديد، حتى سمع جهاز اللاسلكي يصدر صوت خشخشة: انطلقت مطاردة على الطريق رقم 1 على بعد بضع مئات الأمتار من المكان، بين سيارة تابعة لمكتب الشريف وسيارة مشتبه

فيها، عند أطراف الغابة. كان مساعد الشريف بول سوموند، وهو أول من وصل من بين القوات الإضافية، قد تقاطع صدفة مع سيارة شيفروليه مونت كارلو سوداء لوحتها غير مقروءة، خرجت من بين الأشجار وفرت بسرعة رغم أنه أمرها بالتوقف. كانت تتجه شمالاً.

قفز الرئيس برات في سيارته وانطلق ليساعد سوموند. سار في طريق غابي موازٍ للطريق رقم 1 بهدف قطع الطريق على الطريد في نقطة أبعد: وصل إل الطريق الرئيسي على مسافة ثلاثة أميال من سايد كريك لين، وكاد يعترض طريق الشيفروليه، إلا أنها أفلتت منه.

كانت السيارات تسير بسرعة جنونية. تابعت الشيفروليه سباقها على الطريق رقم 1 في اتجاه الشمال، وأطلق الرئيس برات نداءً عبر جهاز اللاسلكي إلى جميع الوحدات المتاحة ليقيموا الحواجز وطلب إرسال طائرة مروحية. انعطفت الشيفروليه، بعد أداء بعض الحركات البهلوانية في طريق ثانوية، ثم سلكت طريقاً ثانوية أخرى، مواصلة سيرها بسرعة قصوى، حتى أنه تعذر على مركبات الشرطة ملاحقتها. عبر جهازه اللاسلكي، كان برات يصرخ بأنها كانت تفلت منهم.

استمرت المطاردة في طرق ضيقة: كان السائق يعلم تماماً أين هو ذاهب، فازدادت المسافة بينه وبين الشرطة أكثر فأكثر. عند أحد التقاطعات، تفادت الشيفروليه الاصطدام مع إحدى المركبات الآتية في الاتجاه المعاكس والتي توقفت وسط الطريق. استطاع برات أن يتفادها بأن مرَّ على العشب عند جانب الطريق، لكن سوموند الذي كان آتياً من خلفه لم يتمكن من تفادي الاصطدام الذي لم يكن خطيراً لحسن الحظ. أما برات الذي بات وحده في مطاردة الشيفروليه، فقد حاول قدر الإمكان أن يقود القوات الإضافية. لم يعد يرى السيارة للحظة، ثم لمحها من جديد على طريق مونتيري، قبل أن تبتعد نهائياً. وحين رأى دوريات قادمة في الاتجاه المعاكس، أدرك أن السيارة المشتبه فيها أفلتت منهم، فطلب فوراً إغلاق جميع الطرق السريعة،

وتفتيش المنطقة بأكملها، وإرسال وحدات من شرطة الولاية. في سايد كريك لين، كان ترافيس داون حاسماً: لم يكن هناك أي أثر للفتاة ذات الفستان الأحمر، لا في المنزل ولا في الأنحاء المجاورة.

*

الثامنة مساءً

اتصل الأب كيلرغان، مذعوراً، بالشرطة ليبلغ عن اختفاء ابنته نولا، ذات الخمسة عشر عاماً. كان أحد مساعدي الشريف، الذي استُدعي للمساعدة، أول من وصل إلى 245 تراس أفينيو، يتبعه ترافيس داون. عند الثامنة والربع، وصل الرئيس برات بدوره إلى المكان. لم تترك مكالمة ديبورا كوبر مع موظف مركز الشرطة أي مجال للشك حول هوية الفتاة: نولا كيلرغان هي من لوحظت في سايد كريك لين. في الثامنة وخمس وعشرين دقيقة، أطلق الرئيس برات إنذاراً عاماً جديداً يؤكد اختفاء نولا كيلرغان ذات الخمسة عشر عاماً، التي شوهدت آخر مرة قبل ساعة في سايد كريك لين.

توافدت قوات من الشرطة من جميع المقاطعة. وبينما بدأت عمليات بحث في الغابة وعلى الشاطئ أملاً في العثور على نولا كيلرغان قبل حلول الليل، جابت الدوريات المنطقة بحثاً عن الشيفروليه السوداء التي اختفى أثرها كلياً.

*

التاسعة مساءً

في التاسعة مساءً، وصلت وحدات من شرطة الولاية إلى سايد كريك لين، بقيادة النقيب نيل روديك، كما وصلت فرق من الشرطة الجنائية إلى منزل ديبورا كوبر وإلى الغابة حيث عُثر على آثار الدم.

- ووضعت أنظمة إضاءة قوية لإضاءة المكان، فغُثِر على خصلات شعر أشقر وشظايا أسنان، وقطع من القماش الأحمر.
- وهما يتابعان المشهد عن بعد، ناقش روديك وبرات الوضع:
- يبدو أنها كانت مجزرة حقيقية، قال برات.
- أوما روديك برأسه ثم سأل:
- وهل تظن أنها لا تزال في الغابة؟
- إما أنها اختفت في تلك السيارة، أو أنها لا تزال في الغابة، فالشاطئ تم مسحه بدقة ولا يوجد ما هو جدير بالذكر.
- ظل روديك يفكر لبعض الوقت، ثم قال:
- ما الذي قد يكون حدث؟ هل أخذت بعيداً من هنا؟ هل هي ملقاة في مكان ما في الغابة؟
- لا أفهم في الأمر شيئاً، قال برات متنهداً. كل ما أرغب فيه هو أن أعر على تلك الفتاة حية وبسرعة.
- أعلم ذلك، أيها الرئيس، لكن مع كل ما فقدته من دم، إذا كانت لا تزال حية في تلك الغابة، ستكون في حالة يرثى لها، حتى أنني أتعجب كيف استطاعت الوصول إلى هذا المنزل وهي في تلك الحالة. إنها قوة اليأس على الأرجح.
- بلا شك.
- هل من أخبار عن السيارة؟ سأل روديك.
- لا شيء، إنه لغز حقيقي، مع أنه كانت هناك حواجز أمنية في كل مكان، وفي كل الاتجاهات الممكنة.
- عندما اكتشف شرطيون آثار دم مؤدية من منزل ديبورا كوبر إلى المكان الذي كانت فيه السيارة، بدا الاستسلام على وجه روديك:
- لا أريد أن أكون نذير شؤم، لكن إما أنها جرّت نفسها إلى مكان ما لتموت فيه، أو أنها ماتت في صندوق تلك السيارة.

في التاسعة وخمس وأربعين دقيقة، حين لم يعد ضوء النهار سوى خط شاحب أعلى الأفق، طلب روديكر من برات أن يوقف عمليات البحث أثناء الليل.

- أوقف البحث؟ اعترض برات، أنت لا تعني ذلك، يا سيدي! تصور أن تكون هنا في مكان ما، على قيد الحياة وتنتظر الإغاثة. لن نترك هذه الفتاة هكذا وسط الغابة! فليقض الرجال الليل هنا إذا اقتضى الأمر، لكن إذا كانت هناك، فسيعثرون عليها.

كان روديكر ضابطاً خبيراً في العمليات الميدانية. كان يدرك أن رجال الشرطة المحلية ساذجون أحياناً وأنه يتعين عليه أن يقنع رؤسائهم بحقيقة الموقف.

- بل عليك أن توقف البحث، أيها الرئيس برات. هذه الغابة شاسعة، ولم نعد نرى شيئاً. التفتيش ليلاً لن يفيد، ففي أحسن الأحوال، ستستنزف مواردك وسيتعين عليك أن تبدأ من جديد غداً. وفي أسوأ الأحوال، ستفقد بعض العناصر في تلك الغابة وسيتعين عليك البحث عنهم أيضاً. فلديك ما يكفي من متاعب في الوقت الراهن.

- لكن علينا أن نعثر عليها!

- ثق بخبرتي، أيها الرئيس: قضاء الليل في الخارج لن يفيد في شيء. إذا كانت الصبية على قيد الحياة، فسنعثر عليها في الصباح، حتى وإن كانت مصابة.

في هذه الأثناء، في أورورا، كان السكان في حالة استنفار قصوى. تجتمع المئات منهم حول منزل آل كيلرغان، يحتويهم بصعوبة رجال الشرطة. كان الجميع يريد أن يعرف ما الذي حدث. وحين عاد الرئيس برات إلى هناك، اضطر أن يؤكد ما انتشر من شائعات: كانت ديبورا كوبر قد قُتلت، ونولا كيلرغان قد اختفت. صدرت صرخات

ذعر بين الحشود، وعادت الأمهات بأطفالهن إلى المنازل وأقفلن الأبواب عليهن، فيما أخرج الآباء بنادقهم القديمة ونظموا لجناً شعبية لحماية الأحياء. تعقدت مهمة الرئيس برات: لم يكن ينبغي أن تصاب المدينة بالهلع. قامت الشرطة بدوريات تجوب الشوارع دون توقف لطمأنة السكان، فيما طرق رجال شرطة الولاية أبواب المنازل ليستمعوا إلى شهادات الجيران في شارع تراس أفينيو.

*

الحادية عشرة ليلاً

في قاعة الاجتماعات بمركز شرطة أورورا، جلس الرئيس برات والنقيب روديك ليناقشا آخر المستجدات. أشارت المعلومات الأولية إلى عدم وجود أي أثر لاقتحام أو شجارٍ في غرفة نولا كيلرغان. كانت النافذة مفتوحة على مصراعها فحسب.

- هل أخذت الصغيرة أغراضاً معها؟ سأل روديك.

- لا، لا أغراض ولا مال. بقيت حصالتها كما هي، فيها مئة وعشرون دولاراً.

- يبدو لي الأمر وكأنه اختطاف.

- لم يلحظ أحد من الجيران أي شيء.

- هذا لا يفاجئني. قد يكون هناك من أقنع الفتاة بأن تتبعه.

- من النافذة؟

- ربما. وربما لا. نحن في شهر أغسطس، وكل الناس يتركون النوافذ مفتوحة. قد تكون خرجت لتتنزه وصادفت شخصاً غير مرغوب فيه.

- هناك شاهد اسمه غريغوري ستارك قال إنه سمع صراخاً صادراً من منزل كيلرغان وهو يمشي كلبه. كان ذلك حوالي الساعة الخامسة بعد الظهر، لكنه غير متأكد.

- ماذا يعني غير متأكد؟ سأل روديك.

- قال إنه كانت هناك موسيقى عالية في منزل كيلرغان. موسيقى صاخبة.

- ليس لدينا شيء، قال روديك مستاءً: لا أدلة ولا آثار. كأنه شبح. لدينا فقط تلك الصبية التي شوهدت لبضع لحظات، ملطخة بالدم، مذعورة، وتطلب المساعدة.

- في رأيك، ما الذي ينبغي فعله الآن؟ سأل برات.

- صدقني، لقد فعلت كل ما يمكن فعله هذه الليلة. عليك أن تركز الآن على ما هو آتٍ. أرسل الجميع ليرتاحوا، لكن حافظ على الحواجز الأمنية على الطرقات. وضع خطة تمشيط للغابة، إذ ينبغي أن نستأنف الأبحاث عند الفجر؛ أنت الوحيد الذي يمكن أن يدير هذه الأبحاث لأنك تعرف الغابة عن ظهر قلب. وأرسل بلاغاً لكل مراكز الشرطة، توضح فيه معلومات تفصيلية عن نولا. حلي كانت ترتديه، تفصيل في شكلها الخارجي يميزها ويسمح لمن يراها بأن يتعرف عليها. وسأنقل أنا هذه المعلومات إلى مكتب التحقيقات الفيدرالي، وإلى مراكز شرطة الولايات المجاورة، وإلى شرطة الحدود. وسأطلب طائرة مروحية لتساعدنا غداً وكلاباً بوليسية. وحاول أن تنام قليلاً، إذا استطعت ذلك. وصل. أنا أحب مهنتي، أيها الرئيس، لكن خطف الأطفال هو أكثر مما يمكنني تحمّله.

ظلت المدينة طوال الليل تعج بسيارات الشرطة، وبالمتطفلين في نواحي تراس أفينيو. أراد البعض أن يذهبوا إلى الغابة، فيما أقبل البعض الآخر على مركز الشرطة ليعرض المشاركة في عمليات البحث. كان الهلع يسيطر على السكان.

*

ضربت المنطقة موجةً من الأمطار الثلجية والضباب الكثيف. عند الخامسة صباحاً، بالقرب من منزل ديبورا كوبر وتحت خيمة نُصبت على عجل، وقف الرئيس برات والتقيب روديك، يوجهان التعليمات للمجموعات الأولى من رجال الشرطة والمتطوعين. قُسمت الغابة إلى قطاعات على خارطة كبيرة وتولى كلُّ فريقٍ تفتيشَ قطاعٍ منها، كما كان من المنتظر أن ينضم إلى الفرق في الصباح كلابٌ بوليسية وعناصر من حرس الغابات لتعزيز عمليات البحث وتأمين المنوبات، إلا أنه تم إلغاء مشاركة المروحية مؤقتاً، نظراً لسوء الأحوال الجوية.

في الساعة السابعة صباحاً، في الغرفة رقم 8 من فندق سايد كريك، استيقظ هاري مفزوعاً: كان قد نام بملابسه. كان الراديو لا يزال مشغلاً ويذيع نشرة الأخبار: ... نداء عام في منطقة أورورا بعد اختفاء مراهقة في الخامسة عشرة من عمرها، نولا كيلرغان، أمس في حوالي السابعة مساءً. الشرطة تبحث عن أي أحد يمكنه أن يزودها بالمعلومات... كانت نولا ترتدي لحظة اختفائها فستاناً أحمر...

نولا! لقد غفوا ونسيا أن يغادرا! قفز من السرير وناداه. اعتقد للحظة أنها في الغرفة معه، ثم تذكر أنها لم تأت إلى الموعد. لماذا تركته؟ لماذا لم تأت؟ ذكر الراديو اختفاءها، فقد هربت من منزلها إذاً كما كان مخططاً له. لكن لماذا غادرت من دونه؟ هل استجد عليها شيء ما؟ هل ذهبت لتختبئ في غوز كوف؟ لقد تحوّل فرارهما إلى كارثة.

وقبل أن يدرك خطورة الموقف، تخلص من الزهور وغادر الغرفة على عجل حتى دون أن يرتب شعره أو يربط ربطة عنقه. ألقي بحقائبه في صندوق السيارة وأدار المحرك ليعود مسرعاً إلى غوز كوف. وبعد

حوالي ميلين، صادف حاجزاً أمنياً. كان الرئيس غاريث برات قد أتى ليتفقد صحة سير إجراءات التفتيش وفي يده بندقية. كان الجميع في حالة تأهب قصوى. تعرّف برات على سيارة هاري وسط طابور السيارات المتوقفة واقترب منها:

- أيها الرئيس، لقد علمت من الراديو للتو بأمر نولا، قال له هاري عبر نافذة السيارة المفتوحة. ما الذي حدث؟

- لا أحد يعلم: لقد اختفت من منزلها وشوهدت بالقرب من سايد كريك لين مساء أمس، وما من أثر لها منذ ذلك الوقت. المنطقة بأكملها محاصرة، والغابة يجري تفتيشها.

شعر هاري بأن قلبه يكاد يتوقف. كان سايد كريك لين في الطريق إلى الفندق. هل أصيبت بأذى وهي في طريقها إلى موعدهما؟ هل خافت، حين شوهدت في الطريق، من أن يأتي رجال الشرطة إلى الفندق ويقبضوا عليهما معاً؟ أين اختبأت إذا؟

لاحظ الرئيس برات وجه هاري المنهك وصندوق سيارته المملوء بالحقائب.

- هل أنت عائد من رحلة؟ سأله.

قرر أنه ينبغي الآن أن يستخدم الغطاء الذي اتفق بشأنه مع نولا:

- كنت في بوسطن، من أجل كتابي.

- بوسطن؟ لكنك قادم من الشمال...

- أعلم، تمتم هاري. لقد مررت على كونكورد.

نظر إليه برات نظرة ارتياح. كان هاري يقود سيارة شيفروليه مونت كارلو سوداء، فأمره بأن يوقف المحرك.

- هل من مشكلة؟ سأل هاري.

- نحن نبحث عن سيارة مثل سيارتك، قد تكون متورطة في هذه القضية.

- سيارة مونت كارلو؟

- نعم .

فتش شرطيان السيارة، لكنهما لم يعثرا على شيء فسمح برات لهاري بأن يكمل طريقه قائلاً: «سأطلب منك ألا تغادر المنطقة. من باب الاحتياط فحسب». استمر الراديو في إذاعة مواصفات نولا. صبية، بيضاء البشرة، طولها 5,2 أقدام، وزن مئة رطل، شعرها أشقر طويل، عيناها خضراوان، ترتدي فستاناً أحمر وتضع عقداً ذهبياً يحمل اسم نولا.

لم تكن في غوز كوف. لا على الشاطئ، ولا على الشرفة، ولا داخل المنزل. لم تكن في أي مكان. ناداها، غير مبالٍ إن سمعه أحد. ذرع الشاطئ جيئةً وذهاباً مثل المجنون. بدأ الهلع يجتاحه. لماذا هربت إذا لم يكن ذلك لتلحق به؟

لم يعد يعرف ماذا يفعل، فذهب إلى كلاركس حيث علم أن ديبورا كوبر رأت نولا ملطخة بالدم قبل أن يُعثر عليها مقتولة. لم يكن بإمكانه تصديق ما سمع. ما الذي حدث؟ لماذا وافق على أن تأتي إليه وحدها؟ كان عليه أن يقابلها في أورورا. مشى عبر المدينة حتى وصل إلى منزل آل كيلرغان المحاط بسيارات الشرطة وتدخل في محادثات المتفرجين محاولاً أن يفهم ما حدث. عاد إلى غوز كوف في نهاية الصباح وجلس على الشرفة ومعه منظاره وخبز للنوارس. انتظر. لقد تاهت، وستعود. ستعود بالتأكيد. تفحص الشاطئ بمنظاره، وانتظر. إلى أن حل الليل.

مكتبة

t.me/soramnqraa

العاصفة

«إن خطر الكتب، يا عزيزي ماركوس، هو أنك تفقد السيطرة عليها أحياناً. فنشرها يعني أن ما كتبته وحيداً يفلت منك فجأة ليتبدد في الفضاء العام. إنها لحظة خطر كبير: يجب أن تظل متحكماً في الموقف في كل وقت، ففقدان السيطرة على كتابك هو كارثة».

مقتطفات من أهم جرائد الساحل الشرقي

10 يوليو 2008

مقتطف من نيويورك تايمز

ماركوس غولدمان يستعد لكشف النقاب عن قضية

هاري كيبير

انتشرت منذ بضعة أيام في الأوساط الأدبية شائعات تفيد بأن الكاتب ماركوس غولدمان سيؤلف كتاباً عن هاري كيبير. وتأكدت هذه الشائعات من خلال تسريبات لأوراق من هذا العمل، وصلت أمس إلى هيئات تحرير عدة صحف وطنية. يسرد هذا الكتاب التحقيق الدؤوب الذي أجراه ماركوس غولدمان ليفك لغز أحداث صيف 1975 التي أدت إلى مقتل نولا كيلرغان، التي اختفت يوم 30 أغسطس 1975 وعُثر عليها مدفونة في حديقة هاري كيبير في أورورا يوم 12 يونيو 2008.

وقد حصلت على حقوق الكتاب مقابل مليون دولار دار النشر المرموقة شמיד وهانسون، ومقرها في نيويورك. وصرح المدير التنفيذي للدار، روي بارناسكي، الذي رفض الإدلاء بأي تعليق آخر، بأن الكتاب سيصدر في الخريف المقبل تحت عنوان: قضية هاري كيبير. (. . .)

ما كشف عنه ماركوس غولدمان

(...) يحكي غولدمان، المقرب جداً من هاري كيبر، إذ كان تلميذه السابق في الجامعة، الأحداث الأخيرة التي جرت في أورورا، من قلب الحدث. تبدأ روايته باكتشاف العلاقة التي جمعت هاري كيبر بنولا كيلرغان البالغة من العمر خمس عشرة سنة.

«في ربيع عام 2008، أي حوالي عام بعد أن أصبحتُ النجم الجديد للأدب الأمريكي، وقع حدثٌ قررت أن أدفنه عميقاً في ذاكرتي: اكتشفت أن أستاذي الجامعي، هاري كيبر، البالغ من العمر سبعة وستين عاماً، وأحد أكثر الكُتّاب شهرة في البلاد، كان على علاقة مع فتاة في الخامسة عشرة من عمرها حين كان هو في الرابعة والثلاثين. حدث ذلك في صيف 1975».

مقتطف من جريدة واشنطن بوست

قنبلة ماركوس غولدمان

(...) كلما حقق في القضية، انتقل ماركوس غولدمان من اكتشاف إلى اكتشاف. يروي أن نولا كانت فتاة تائهة ومعنّفة، وأن صداقتها وقربها من هاري كيبر حقّقا لها استقراراً لم تعرفه من قبل، جعلها تحلم بحياة أفضل. (...)

الحياة المنحلة لنولا كيلرغان

يكشف ماركوس غولدمان عن أمور لم تعلم بها الصحافة حتى اليوم.

كانت نولا كيلرغان تمثل لعبة جنسية لرجل الأعمال النافذ إ. س. من كونكورد، الذي كان يرسل سائقه ليأتي بها من أورورا كما لو كانت لهما طازجاً. كانت نصف طفلة ونصف امرأة، ومصدر رغبة لرجال أورورا، وأصبحت أيضاً فريسة رئيس الشرطة المحلية الذي أجبرها على ممارسات شائنة. وهو رئيس الشرطة نفسه الذي تولى عمليات البحث عنها عند اختفائها. (...)

وها أنا قد فقدتُ السيطرة على كتاب لم يوجد بعد .
في الساعات الأولى من صباح الخميس 10 يوليو، اكتشفتُ
العناوين الرنانة للصحافة: عرضت كل الصحف الوطنية مقتطفات مما
كتبته لكن بعد تقطيع جملي وانتزاعها من سياقها. فصُورت فرضياتي
على أنها أقوال بغیضة، واقتراحاتي على أنها حقائق مؤكدة، وأفكاري
على أنها أحكام شخصية. لقد فككوا عملي، ونهبوا أفكاري،
واغتصبوا فكري. وقتلوا غولدمان، الكاتب الذي كان في طريقه إلى
التعافي، يحاول جاهداً أن يعود إلى طريق الكتابة.

ما إن استيقظتُ أورو را، حتى عمّ الذهول في المدينة: كان
السكان يقرأون ويعيدون قراءة مقالات الجرائد، مشدوهين. لم يتوقف
هاتف المنزل عن الرنين، كما جاء بعض الغاضبين حتى باب منزلي
ليحصلوا على توضيحات. كان عليّ أن أختار بين المواجهة أو
الاختباء؛ قررت أن أواجه. في حوالي العاشرة صباحاً، ابتلعت بضع
جرعات من الويسكي وتوجهت إلى مطعم كلاركس.

وأنا أعبر باب المطعم الزجاجي، شعرت بنظرات الموجودين
تخترقني كالخناجر. جلست إلى الطاولة رقم 17 وقلبي يخفق،
فأسرعت جيني نحوي غاضبةً لتتعتني بالحثالة، حتى أنني اعتقدت أنها
ستلقي بإبريق القهوة على وجهي.

- هل جئت إلى هنا لتكسب المال على ظهورنا؟ لتكتب حقارات
عنا فحسب؟
- كانت عيناها قد اغرورقتا بالدموع، فحاولت أن أهدئ الأجواء:
- جيني، أنت تعرفين أن هذا غير صحيح. هذه المقتطفات لم
يكن ينبغي أن تُنشر أبداً.
- أكتبت تلك الفظاعات حقاً؟
- تلك الجمل، مجردة من سياقها على هذا النحو، هي
كريهة...
- لكنك كتبت هذه الكلمات؟
- نعم، لكن...
- لا من لكن، يا ماركوس!
- أقسم لك أنني لم أرد أن أخرج أحداً...
- لم ترد أن تجرح أحداً؟ أتريدني أن أقتبس من عملك العظيم؟
(فردت الجريدة) انظر ما هو مكتوب هنا: جيني كوين، النادلة التي
تعمل في مطعم كلاركس، كانت مغرمة بهاري منذ اليوم الأول...
- هكذا تعرّف بي إذا؟ كخادمة؟ كفتاة قدرة يسيل لعابها حين تفكر في
هاري؟
- أنت تعلمين أن هذا غير صحيح...
- لكنه مكتوب هنا، بحق الجحيم! مكتوب في كل جرائد البلد!
وسيقراه الجميع: أصدقائي، وعائلي، وزوجي!
- كانت جيني تصرخ والزبائن يتابعون المشهد في صمت، ففضلتُ
أن أغادر المكان حتى تهدأ النفوس، وذهبت إلى المكتبة العمومية آملاً
أن أجد في إرني بينكاس حليفاً يفهم الكارثة التي قد تعنيها الكلمات
التي يُساء استخدامها، لكنه لم يرغب في رؤيتي هو أيضاً.
- ها هو ذا غولدمان العظيم، قال حين رأيته. هل جئت بحثاً عن
فضاعات أخرى لتكتبها عن هذه المدينة؟

- أنا مفجوع من هذا التسريب، يا إرني .

- مفجوع؟ كف عن التمثيل! العالم كله يتحدث عن كتابك :

الصحف، والإنترنت، والتلفزيون، لم يعد هناك حديث إلا أنت! على أية حال، أتمنى أن تكون قد استفدت من المعلومات التي زودتك بها .
ماركوس غولدمان، سيد أورورا النافذ، ماركوس الذي أتى إلى هنا وقال لي: أنا بحاجة أن أعرف هذا، أنا بحاجة أن أعرف ذلك . من دون كلمة شكر واحدة، كما لو أن كل هذا طبيعي، كما لو أنني أدين للكاتب العظيم غولدمان بشيء . أتعلم ما الذي فعلته في عطلة نهاية الأسبوع الماضية؟ عمري خمس وسبعون سنة، وأعمل مرة كل أحدين في سوبر ماركت بمونتيري لزيادة دخلي، أجمع العربات من موقف السيارات لأضعها في مدخل المتجر . أعلم أن هذا لا يعد مجداً وأني لست نجماً مثلك، ولكنني أستحق ولو قدراً ضئيلاً من الاحترام، ألا تظن ذلك؟
- أنا آسف .

- آسف؟ لستَ آسفاً إطلاقاً! أنت لم تكن تعلم لأنك لم تُبالِ، يا مارك . . . لم تُبالِ بأمر أحد في أورورا أبداً . كل ما يهتمك هو المجد، لكن المجد له عواقبه!

- أنا آسف حقاً، يا إرني . تعال نتناول الغداء معاً إذا رغبت .
- لا أريد أن أتناول الغداء! أريدك أن تتركني وشأني! لديّ كتب لأرتبها . الكتب مهمة، أما أنت . . . فأنت لا شيء .

عدت لأختبئ في غوز كوف، مذعوراً . كان ماركوس غولدمان، ابن أورورا بالتبني، قد خان أسرته، رغماً عنه . اتصلت بدو غلاس وطلبت منه أن ينشر تكديباً .

- تكذيب لماذا؟ لم تنشر الصحف إلا ما كتبه أنت . وعلى أية حال، كان سيصدر ذلك بعد شهرين .

- لكن الصحف شوّهت كل شيء! لا شيء مما تم نقله وارد في

كتابي!

- لا تبالغ، يا مارك! عليك أن تبقى مركزاً على نصك، هذا ما يهم الآن، فلديك وقت محدود جداً. هل نسيت أننا تقابلنا منذ ثلاثة أيام وأنت وقعت عقداً بمليون دولار لتؤلف كتاباً في سبعة أسابيع؟
- أعرف! أعرف! لكن هذا لا يعني أن يكون الكتاب سوقياً!
- كتاب أُلّف في بضعة أسابيع هو كتاب أُلّف في بضعة أسابيع...

- إنها نفس المدة التي استغرقها هاري لكتابة أصول الشر.
- هاري هو هاري، إن فهمت قصدي.
- لا، لم أفهم.
- إنه كاتب كبير جداً.
- شكراً! شكراً جزيلاً! وماذا عني إذا؟
- أنت تعرف أن هذا ليس ما قصده... أنت كاتب... لنقل إنك كاتب... عصري، الناس يحبونك لأنك شاب مفعم بالنشاط، يواكب عصره. فالقراء لا ينتظرون منك أن تحصل على جائزة بوليتزر، هم يحبون كتبك لأنها تمثل ميولهم ولأنها تسليهم، وهذا أمر جيد أيضاً.

- أهذا رأيك في حقاً؟ أنني كاتب مسل؟
- لا تشوه كلامي، يا مارك. لكنك تعلم أن جمهورك معجب بك لأنك... شاب وسيم.
- شاب وسيم؟ هذا أسوأ!

- أنت تدرك ما أريد الوصول إليه، يا مارك! أنت تعكس صورة معينة، وكما قلت لك، أنت تمثل ميول الناس. الجميع يحبونك، فأنت الصديق الودود، والعاشق الغامض، والصهر المثالي... لذلك سيلقي قضية هاري كبير نجاحاً هائلاً. فكتابك لم يصدر بعد، إلا أنه حديث البلد! أنا لم أر شيئاً من هذا القبيل طوال مسيرتي المهنية.
- قضية هاري كبير؟

- إنه عنوان الكتاب .
- ماذا تقصد بـ عنوان الكتاب؟
- أنت من كتب ذلك على أوراقك .
- إنه عنوان مؤقت . لقد كتبتُ ذلك على الصفحة الأولى : عنوان مؤقت . م - و - ق ت ! إنها صفة تُستخدم عند الحديث عن شيء غير نهائي .

- ألم يخبرك بارناسكي؟ لقد ارتأى قسم التسويق أنه العنوان المثالي . لقد قرروا ذلك مساء أمس حين عقدوا اجتماعاً طارئاً بسبب التسريبات . لقد رأوا أنه من الأفضل استغلال التسريب كأداة للترويج ، فأطلقوا الحملة الإعلانية للكتاب هذا الصباح . ظننتُ أنك تعلم ، افتح الإنترنت .

- ظننتُ أنني أعلم؟ اللعنة ، يا دوغ ! أنت وكيل الأدبي ! لا ينبغي لك أن تظن ، بل أن تفعل ! أن تتأكد أنني على علم بما يجري حول كتابي !

أغلقت الخط وأنا أستشيط غضباً وهرعت نحو حاسوبي . كانت الصفحة الأولى لموقع شמיד وهانسون مخصصة للكتاب . كانت هناك صورة ملونة كبيرة لي وصور لأورورا بالأسود والأبيض ، مصحوبة بالكلمات التالية :

قضية هاري كبير

رواية ماركوس غولدمان عن اختفاء نولا كيلرغان

ستصدر في الخريف

احجز نسختك من الآن !

في الثانية بعد الظهر من اليوم نفسه ، كان موعد الجلسة التي دعا إليها مكتب المدعي العام بعد صدور نتائج فحص الخط . كان المصورون قد احتلوا سلالم قصر العدل ، في حين نقل مراسلو القنوات

التلفزيونية الذين يغطون الحدث التسريبات التي نشرتها الصحف. كان يُحكى الآن عن التراجع عن مقاضاة كبير، ما أثار فضيحة عارمة. قبل بدء الجلسة بساعة، اتصلت بروث لأخبره أنني لن آتي إلى المحكمة.

- هل أنت تختبئ، يا ماركوس؟ هل تهزأ بي؟ كفّ عن لعب دور المسكين: هذا الكتاب هو بركة للجميع. سيبرئ هاري، ويرسخ مسيرتك الأدبية، ويمثل قفزة نوعية لمسيرتي: فأنا لن أظل مجرد روّث المحامي بكونكورد، بل سأصبح روّث الذي يذكره كتابك الأكثر مبيعاً! هذا الكتاب جاء في وقته تماماً. وخاصة بالنسبة إليك. فقد مرّ على ما أعتقد حوالي سنتين منذ أن كتبت شيئاً؟

- إخرس، يا روّث! أنت لا تعرف عماذا تتحدث!

- وأنت، يا ماركوس! كفّ عن المراوغة! كتابك سيحقق نجاحاً هائلاً وأنت تعلم ذلك! فأنت ستكشف للبلد بأكمله لماذا هاري شخص منحرف؛ كنتَ تفتقر للإلهام، لم تكن تعرف عماذا ستكتب، وها أنت بصدد تأليف كتاب نجاحه مضمون.

- لم يكن ينبغي لهذه الصفحات أن تصل إلى الصحافة أبداً.

- لكن أنت من كتب هذه الصفحات. لا عليك، فأنا عازم على إخراج هاري من السجن اليوم. وسيكون ذلك بفضلك. أتصور أن القاضي يقرأ الصحف، فلن يصعب عليّ إقناعه بأن نولا لم تكن سوى عاهرة صغيرة.

صرخت قائلاً:

- لا تفعل ذلك، يا روّث!

- لم لا؟

- لأنها لم تكن كذلك. ولأنه كان يحبها! كان يحبها!

لكنه كان قد أغلق الخط، ورأيته بعد ذلك بقليل على شاشة

تلفازي، يصعد منتصباً سلالم قصر العدل، وتعلو وجهه ابتسامة عريضة. مد الصحفيون الميكروفونات في اتجاهه وسألوه عما إذا كان ما نُشر في الصحف صحيحاً: هل أقامت نولا كيلرغان علاقات مع كل رجال المدينة؟ هل سيعود التحقيق إلى نقطة الصفر؟ وكان هو يجيب بالإيجاب على كل الأسئلة المطروحة عليه، بفرح واضح.

كانت تلك الجلسة جلسة التحرير بالنسبة إلى هاري. لقد استمرت بالكاد عشرين دقيقة، ووفقاً لما قاله القاضي باتت القضية كبالون فرغ من الهواء. فكان الدليل الأساسي - أي المخطوطة - قد فقد كل مصداقية بما أن عبارة وداعاً، نولا حبيبتي لم تكن بخط هاري. أما العناصر الأخرى فتم كنسها مثل القش: لم تكن اتهامات تمارا كوين مدعومة بأي دليل مادي، والشيفروليه مونت كارلو السوداء لم تُعتبر دليلاً عند وقوع الأحداث. بدا التحقيق كإخفاق كبير، فقرر القاضي، بناءً على ما استجد من معطيات، الإفراج عن هاري بكفالة بقيمة نصف مليون دولار.

أثار تغير اتجاه القضية هذا هستيريا الصحفيين، حتى وصل بهم الأمر إلى التساؤل عما إذا كان المدعي العام قد أمر بالقبض على هاري ورماءه للرأي العام فقط بغرض إحداث ضجة إعلامية. كما شهد قصر العدل استعراضاً للطرفين: بدءاً بروث الذي أكد أنه اعتباراً من يوم الغد سيغدو هاري رجلاً حراً، ثم تلاه المدعي العام الذي حاول شرح منطق التحقيق الذي أجراه، دون أن يقنع أحداً.

وحين اكتفيت مما يدور من مناورات على الشاشة، خرجت لأركض. كنت بحاجة لأذهب بعيداً، لأجهد جسدي. كنت بحاجة لأن أشعر بنفسي حياً. ركضت حتى بلغت بحيرة مونتيبيري التي تعج بالأطفال والعائلات، وفي طريق العودة، حين كنت على وشك الوصول إلى غوز كوف، مرّت بجواري سيارة إطفاء مسرعة ووراءها أخرى ثم سيارة شرطة. رأيت حينذاك دخاناً كثيفاً يتصاعد فوق أشجار

الصنوبر ففهمت على الفور: كان المنزل يحترق. لقد جاء من أشعله لينفذ تهديداته.

ركضت كما لم أركض في حياتي، في محاولة يائسة لإنقاذ بيت الكاتب ذاك الذي لطالما أحببته. كان رجال الإطفاء قد بدأوا عملهم، إلا أن النيران الهائلة كانت تلتهم الواجهة. كان كل شيء يحترق. وعلى بعد بضع عشرات الأمتار من الحريق، على حافة الطريق، كان رجل شرطة يحدق في الزجاج الأمامي لسيارتي حيث كُتب باللون الأحمر: احترق، يا غولدمان، احترق.

*

في العاشرة صباحاً من اليوم التالي، كان الدخان لا يزال يتصاعد من آثار الحريق. كان الجزء الأكبر من المنزل قد دُمّر، وكان خبراء من شرطة الولاية يعملون وسط الانقراض، في حين كان فريق من رجال الإطفاء يحرصون على إخماد ما تبقى من نيران. ونظراً لكثافة النيران، اتضح أن البنزين، أو مادة مماثلة تساعد على الاشتعال، قد صُبّ في مدخل المنزل أسفل السقيفة، فانتشر الحريق على الفور. كانت الشرفة وغرفة المعيشة قد دُمّرتا بالكامل، كما المطبخ، أما الطابق الأول فقد نجا نسبياً من النيران، لكن الدخان وخاصة الماء الذي استخدمه رجال الإطفاء أحدثا به أضراراً جسيمة.

كنت كالشبح، لا أزال بملابس الرياضة، جالساً على العشب أتأمل الدمار. كنتُ قد قضيت ليلتي هناك، وعند قدمي حقيبة استخرجها رجال الإطفاء من غرفتي، فيها بعض الملابس وحاسوبي.

سمعت صوت سيارة تتوقف وأصوات تتصاعد من بين الحشود ورائي. كان هاري. كان قد أطلق سراحه للتو. كنت قد أخبرت روث، وكنت أعلم أنه أبلغه بالمأساة. مشى بضع خطوات إلى أن وصل إليّ، في صمت، ثم جلس على العشب وقال لي ببساطة:

- ماذا دهاك، يا ماركوس؟
- لا أعرف ماذا أقول لك، يا هاري.
- لا تقل شيئاً. انظر ماذا فعلت. لا داعي للكلمات.
- هاري، أنا...
- لاحظ العبارة المكتوبة على زجاج سيارتي الرينج روفر.
- سيارتك لم يصبها شيء؟
- لا.
- جيد. لأنك ستركبها وتغادر المكان فوراً.
- هاري...
- كانت تحبني، يا ماركوس! كانت تحبني! وكنت أحبها كما لم أحب بعدها. لماذا كتبت تلك الفظاعات؟ أتعلم ما هي مشكلتك؟ أنت لم تُحب يوماً! أبداً! تريد أن تكتب روايات حب لكنك لا تعرف شيئاً عن الحب! أريدك أن تغادر، الآن. إلى اللقاء.
- أنا لم أصف أو أتخيل يوماً أن تكون نولا كما وصفتها الصحافة. لقد سرقوا معنى كلماتي، يا هاري!
- ماذا دهاك لتسمح لبارناسكي أن يرسل تلك القذارات لكل الصحافة الوطنية؟
- كانت عملية سرقة!
- انفجر بضحكة ساخرة.
- سرقة؟ لا تقل لي إنك ساذج لدرجة أنك تصدّق الأكاذيب التي يقدمها لك بارناسكي! يمكنني أن أؤكد لك أنه هو من صوّر أوراقك اللعينة وأرسلها إلى الصحف.
- ماذا؟ لكن...
- قاطع كلامي.
- ماركوس: كنت أفضل لو أنني لم أقابلك أبداً. ارحل الآن.
- أنت في منزلي ولم تعد مرحباً بك فيه.

خيم صمت طويل . كان رجال الشرطة والإطفاء ينظرون إلينا .
أمسكت بحقيتي وركبت سيارتي وغادرت . اتصلت ببارناسكي على
الفور .

- أنا سعيد لسماع صوتك ، يا غولدمان ، قال لي . لقد عرفت للتو
بأمر منزل كبير ، فالخبر على جميع القنوات الإخبارية . أنا سعيد لأنك
بخير . لا أستطيع أن أطيل المكالمة ، فلديّ موعد مع مديري شركة
وارنر براذرز : هناك كُتاب سيناريو جاهزون لكتابة فيلم عن القضية على
أساس صفحاتك الأولى . إنهم مسرورون للغاية . أعتقد أنه يمكننا أن
نبيعهم الحقوق مقابل ثروة صغيرة .
قاطعته :

- لن يكون هناك كتاب ، يا روي .
- ماذا تقول ؟

- أنت من فعل ذلك ، أليس كذلك ؟ أنت من أرسل أوراقي إلى
الصحافة ! لقد أفسدت كل شيء !
- أنت متقلب مثل أحوال الطقس ، يا غولدمان . لا بل أسوأ ،
تعتقد نفسك نجم النجوم وهذا لا يعجبني على الإطلاق ! تؤدي عرضك
العظيم كمحقق ، ثم بسبب نزوة ما ، توقف كل شيء ! أتعلم ، سأعتبر ما
قلته ناتجاً عن الليلة العصبية التي قضيتها وأنسى هذه المكالمة . لن
يكون هنالك كتاب ! من تظن نفسك ، يا غولدمان ؟
- كاتب حقيقي . أن تكتب يعني أن تكون حراً .
ضحك ضحكة مصطنعة .

- من قال لك هذه التفاهات ؟ أنت عبد لمسيرتك الأدبية ،
ولأفكارك ، ولنجاحاتك . أنت عبد لوضعك . أن تكتب يعني أن تكون
تابعاً . لمن يقرأون لك ، أو لا يقرأون لك . الحرية ما هي إلا هراء ! ما
من أحد حر . فأنا أمسك بجزء من حريتك بين يدي كما يمسك
المساهمون في الشركة بجزء من حريتي بين أيديهم . هكذا هي الحياة ،

يا غولدمان. ما من أحد حر. لو كان الناس أحراراً، لكانوا سعداء. هل تعرف الكثير من الناس السعداء حقاً؟ (ولأنني لم أجب، واصل كلامه) أتعلم... الحرية مفهوم مثير للاهتمام. أعرف تاجراً في وول ستريت، ثري جداً وينجح في كل ما يقوم به. لقد أراد ذات يوم أن يصبح حراً. شاهد برنامجاً تلفزيونياً عن الحياة في ألاسكا وكان ذلك بمثابة صدمة بالنسبة إليه، فقرر أن يكون صياداً حراً وسعيداً. ترك كل شيء وسافر ليعيش في جنوب ألاسكا، بالقرب من رانغل. وتصور، هذا الرجل الذي نجح في كل شيء في الحياة، نجح في هذا التحدي أيضاً: لقد أصبح رجلاً حراً فعلاً. لا مسؤوليات، ولا أسرة، ولا منزل. بعض الكلاب وخيمة فحسب. كان الرجل الحر الوحيد الذي عرفته.

- كان؟

- كان. كان المسكين حراً لمدة أربعة أشهر، من شهر يونيو إلى شهر أكتوبر. ثم انتهى به المطاف بأن مات من البرد حين حل الشتاء، بعد أن أكل كل كلابه من فرط اليأس. ما من أحد حر، يا غولدمان، ولا حتى الصيادون في ألاسكا. نحن سجناء الآخرين وسجناء أنفسنا. بينما كان بارناسكي يتكلم، سمعت صفارة إنذار سيارة شرطة خلفي: كنت مطارداً من قبل سيارة شرطة، فأغلقت الخط وتوقفت على جانب الطريق معتقداً أنني ارتكبت مخالفة لاستعمالي الهاتف أثناء القيادة. لكن خرج الرقيب غاهالوود من السيارة واقترب من زجاج سيارتي وقال لي:

- لا تقل لي إنك ذاهب إلى نيويورك، أيها الكاتب.

- ما الذي يجعلك تعتقد ذلك؟

- لنقل إنك سلكت الطريق إلى هناك.

- لقد سرت في هذا الاتجاه دون أن أفكر.

- ممم. أهى غريزة البقاء؟

- شيء من هذا القبيل. كيف عثرت عليّ؟

- في حال لم تلاحظ، فإن اسمك مكتوب باللون الأحمر على مقدمة السيارة. ليس الآن التوقيت المناسب لتعود إلى ديارك، أيها الكاتب.

- لقد حُرق منزل هاري.

- أعرف ذلك. ولهذا أنا هنا، لا يمكنك أن تعود إلى نيويورك.

- لماذا؟

- لأنك شخص شجاع، ونادراً ما قابلت في مسيرتي المهنية شخصاً بهذه المثابرة.

- لقد سلبوا مني كتابي.

- لكنك لم تكتب هذا الكتاب بعد: مصيرك بين يديك! ما زال بإمكانك أن تفعل كل شيء! لديك موهبة الإبداع! فباشر بالعمل... واكتب عملاً عظيماً! أنت مقاتل، أيها الكاتب. أنت مقاتل، ولديك كتاب لتنجزه. ولديك الكثير لتقوله! وإذا سمحت لي، فقد أغرقني في المتاعب حتى أنفي! فمنصب المدعي العام على المحك، وأنا كذلك. فأنا من طلبت منه القبض على هاري سريعاً. ظننت أن اعتقالاً مبالغاً بعد ثلاثة وثلاثين عاماً سيجعله يلين ويعترف. لقد أخفقت كالمبتدئين. ثم أتيت إلى هنا بحذائك الملمّع الذي يساوي ثمنه راتبي الشهري. لن أؤدي مشهداً عاطفياً هنا على جانب الطريق، لكن... لا ترحل. يجب أن ننهي هذا التحقيق.

- ليس لديّ مكان لأقيم فيه. فالمنزل احترق...

- لقد قبضت مليون دولار لتوك. الأمر مذكور في الصحف. اذهب واستأجر غرفة في أحد فنادق كونكورد، وسأضيف وجبات الغداء الخاصة بي على حسابك. أنا أتضور جوعاً. هيا إلى العمل، أيها الكاتب. لدينا الكثير لتنجزه.

طوال الأسبوع التالي، لم تطأ قدمي أورورا. أقمت في جناح بفندق ريجنتس في وسط كونكورد، حيث قضيت أيامي في التحقيق وفي تأليف كتابي. لم أعرف أخبار هاري إلا من خلال روث، الذي أخبرني أنه استقر في الغرفة رقم 8 من فندق سي سايد، كما أخبرني أن هاري لم يعد يرغب في رؤيتي لأنني لطخت سمعة نولا. ثم أضاف:

- حقيقةً، لماذا أخبرت الصحافة بأكملها أن نولا كانت ساقطة صغيرة غير مرتاحة مع نفسها؟

حاولت أن أدافع عن نفسي:

- لم أخبرهم بشيء إطلاقاً! لقد كتبتُ بعض الصفحات وأعطيتها لروي بارناسكي اللعين الذي أراد أن يتأكد من أنني أتقدم في الكتابة، فرتب مسألة نشرها في الصحف مدعياً أنها سرقة.

- هذه روايتك إذاً...

- إنها الحقيقة، بحق السماء!

- على أية حال، برافو أيها الفنان. لم أكن لأفعل أفضل من ذلك!

- ماذا تقصد؟

- جعل الضحية مذنباً، إنها أنجح السبل لدحض اتهام ما.

- لقد أطلق سراح هاري على أساس نتيجة فحص الخط، وأنت تعلم ذلك.

- كما سبق أن قلت لك، يا ماركوس، فالقضاة ليسوا إلا بشراً، وأول ما يفعلونه في الصباح هو أن يقرأوا الجرائد وهم يشربون القهوة.

كان روث شخصاً عملياً لكنه لم يكن فظاً. حاول أن يواسيني فشرح لي أن هاري متأثر جداً بفقدانه غوز كوف، وأنه حين سيتمكن رجال الشرطة من إلقاء القبض على الفاعل، سيكون أفضل حالاً. كما أخبرني أنه كانت لدى رجال الشرطة معطيات جديدة بشأن هذه النقطة:

في اليوم الذي تلا الحريق، بعد إجراء تفتيش دقيق في أرجاء المنزل، تم العثور على صفيحة بنزين على الشاطئ عليها بصمات تم رفعها. لكنها مع الأسف لم تتطابق مع أي من الأشخاص في ملفات الشرطة، ورأى غاهالوود أن العثور على الجاني سيكون صعباً من دون المزيد من المعلومات. فبحسب رأيه، قد يتعلق الأمر هنا بمواطن عادي، ليست له أي سوابق جنائية، إلا أنه اعتبر أنه يمكن حصر دائرة المشتبه فيهم في المقيمين بالمنطقة، شخص من أورورا ارتكب فعلته في وضوح النهار فسارع إلى التخلص من الدليل، خشية أن يتم التعرف إليه.

كانت لدي ستة أسابيع لأقلب سير الأحداث وأجعل من كتابي كتاباً جيداً. كان الوقت قد حان لأقاتل وأجعل من نفسي الكاتب الذي لطالما أردت أن أكونه. فكرست نفسي لكتابي في الصباح، وعملت في بعد الظهر على التحقيق مع غاهالوود، الذي حوّل غرفتي في الفندق إلى ملحق لمكتبه، مستخدماً الحمالين في نقل صناديق مملوءة بالشهادات، والتقارير، وقصاصات الجرائد، والصور، والأرشيف.

عدنا بالعمل على التحقيق منذ البداية: أعدنا قراءة تقارير الشرطة، ودرسنا تصريحات جميع الشهود وقتذاك. رسمنا خارطة لأورورا والمناطق المجاورة، وقمنا بحساب كل المسافات، من منزل آل كيلرغان إلى غوز كوف، ومن غوز كوف إلى سايد كريك لين. وذهب غاهالوود إلى عين المكان ليتأكد من الوقت الذي يستغرقه الطريق مشياً وبالسيارة، بل وتأكد حتى من الوقت الذي استغرقته الشرطة المحلية لتصل بعد البلاغات، والذي اتضح أنه وقت قصير جداً.

- من الصعب أن ندين العمل الذي قام به الرئيس برات وقتذاك، قال لي. فالأبحاث تمت بمهنية عالية.

- أما عن هاري، فنعلم الآن أن العبارة المكتوبة على مخطوطته لم تكن بخط يده، أضفت. لكن لماذا تم دفن نولا في غوز كوف إذاً؟
- ليقوم القاتل بذلك على راحته على الأرجح، اقترح غاهالوود.

فقد ذكرت لي أن هاري أخبر الجميع أنه سيكون خارج أورورا لبعض الوقت.

- هذا صحيح. أعتقد إذاً أن القاتل كان يعلم أن هاري لم يكن في منزله؟

- ممكن، لكن عليك أن تعترف أنه من الغريب أن هاري، عند عودته، لم يلاحظ وجود حفرة بالقرب من منزله...

- لم يكن هاري في حالته الطبيعية، قلت مدافعاً. كان قلقاً وبائساً؛ كان يقضي وقته في انتظار نولا، فمن غير المستبعد أنه لم يلاحظ بعض التربة المقلوبة، خاصة في غوز كوف: فما إن تمطر قليلاً حتى تتحول الأرض إلى طين.

- قد أوافقك الرأي. القاتل يعلم إذاً أنه لن يأتي أحد ليزعجه هناك. وفي حال عُثر على الجثة، فمن سيُتهم حينئذٍ؟
- هاري.

- برافو، أيها الكاتب!

- لكن لماذا كُتبت تلك العبارة إذاً، سألت. لماذا كتابة وداعاً، نولا حبيبتي؟

- هذا هو سؤال المليون دولار، أيها الكاتب.

كانت مشكلتنا الأساسية هي أن خيوط التحقيق تذهب بنا في جميع الاتجاهات. بقيت العديد من الأسئلة المهمة عالقة، فكتبها غاهالوود على أوراق كبيرة.

- إليجاه ستيرن

لماذا دفع لنولا ليتم رسمها؟

ما الدافع لأن يقتلها؟

- لوثر كاليب
- لماذا رسم نولا؟
- لماذا كان يتسكع في أورورا؟
- ما الدافع لأن يقتل نولا؟
- ديفيد ولويزا كيلرغان
- هل ضربا ابنتهما بعنف شديد؟
- لماذا أخفيا محاولة انتحار نولا واختفاءها لأسبوع كامل؟
- هاري كبير
- مذنب؟
- الرئيس غاريث برات
- لماذا أقامت نولا علاقة معه؟
- الدافع لقتلها : هل هددته بأن تتكلم؟
- تمارا كوين تقول إن الورقة التي أخذتها من منزل هاري قد اختفت؟
- من الذي استولى عليها من خزانة كلاركس؟
- من الذي أرسل رسائل مجهولة المصدر إلى هاري؟
- من الذي يعرف بالأمر منذ ثلاثة وثلاثين عاماً ولم يقل شيئاً أبداً؟
- من الذي أضرم النار بغوز كوف؟
- من الذي ليس من مصلحته أن يتقدم التحقيق؟

في المساء الذي ثبت فيه غاهالوود هذه القصاصات على حائط غرفتي، أطلق تنهيدة ملؤها اليأس.

- كلما تقدمنا، قل اتضح الصورة، قال لي. أعتقد أن ثمة عنصراً أساسياً يربط هؤلاء الناس وتلك الأحداث بعضها ببعض. هذا هو مفتاح هذا التحقيق! إذا وجدنا هذه الصلة، فسنجد المذنب.

انهار على أحد المقاعد. كانت الساعة السابعة مساءً ولم تعد لديه الطاقة ليفكر. وكما في كل الأيام السابقة في نفس الموعد، استعددت لما شرعت فيه: العودة إلى ممارسة الملاكمة؛ وجدت صالة على بعد ربع ساعة بالسيارة وقررت أن أعود إلى الحلبة. لقد ذهبت إليها كل مساء منذ إقامتي في فندق ريجنتس، بعد أن نصحني بهذا النادي الحارس الذي كان هو نفسه يتدرب فيه.

- أين أنت ذاهب؟ سألني غاهالوود.

- إلى الملاكمة. أتود أن تأتي؟

- طبعاً لا.

رميت أغراضي في حقيبة وغادرت.

- ابقَ قدر ما تشاء، أيها الرقيب. تأكد فقط من إغلاق الباب خلفك.

- أوه، لا تقلق، لقد حصلت على نسخة عن المفتاح. هل ستذهب للملاكمة حقاً؟

- نعم.

تردد للحظة، ثم ما إن عبرت عتبة الباب، حتى ناداني:

- انتظرنِي، أيها الكاتب، سأتي معك.

- ما الذي جعلك تغير رأيك؟

- الرغبة في أن أنهال عليك بالضرب. لماذا تحب الملاكمة إلى هذا الحد، أيها الكاتب؟

- إنها قصة طويلة، أيها الرقيب.

يوم الخميس 17 يوليو، قمنا بزيارة نيل روديك، نقيب الشرطة الذي أشرف على التحقيق مع الرئيس برات عام 1975. كان الآن في الخامسة والثمانين من عمره، مقعداً، يقضي أيامه على كرسي متحرك في دار للمسنين على شاطئ المحيط. كان لا يزال يتذكر عمليات البحث المشؤومة عن نولا. قال إنها قضية حياته.

- تلك الفتاة التي اختفت، كان ذلك أمراً جنونياً، قال لنا. لقد رأتها امرأة وهي تخرج من الغابة، ملطخة بالدم، وأثناء مكالمتها مع الشرطة، كانت الفتاة قد اختفت إلى الأبد. وأكثر ما أدهشني وقتذاك هو الموسيقى الصاخبة التي شغلها الأب كيلرغان طوال الوقت، فلطالما أربكني هذا الأمر، ولطالما تساءلت كيف يمكن لأحد ألا يلاحظ أن ابنته قد اختطفت.

- الأمر كان اختطافاً في نظرك، إذاً؟ سأله غاهالوود.
- من الصعب الجزم في ذلك، فلم يكن هناك أدلة. هل كان ممكناً أن تكون الصغيرة قد أرادت الخروج للتنزه قليلاً، فسمحت لمجنون أن يقلّها في شاحنته؟ نعم، بطبيعة الحال.

- هل تذكر كيف كان الطقس أثناء عمليات البحث؟
- كان الطقس سيئاً جداً، كان الجو ممطراً وكان هناك ضباب كثيف. لماذا تسألني هذا السؤال؟

- لأعرف ما إذا كان من الممكن لهاري كبير ألا يلاحظ أن هناك من حفر في حديقته.

- هذا ممكن، فالمساحة شاسعة. هل لديك حديقة أيها الرقيب؟
- نعم.

- ما حجمها؟
- إنها صغيرة.

- هل تعتقد أنه من الممكن أن يحفر فيها أحدهم حفرة متواضعة الحجم أثناء غيابك، دون أن تلاحظ ذلك؟

- هذا ممكن فعلاً.

على طريق العودة إلى كونكورد، سألني غاهالوود عن رأيي.

- في نظري، المخطوطة تثبت أن نولا لم تختطف من منزلها، قلت. هي ذهبت لتلحق بهاري، فكانا قد اتفقا على موعد في فندق سي سايد؛ لقد فرت من منزلها ومعها الشيء الوحيد المهم: كتاب هاري الذي كانت قد احتفظت به معها. ثم تم اختطافها على الطريق. ابتسم غاهالوود.

- أعتقد أنني بدأت أحب هذه الفكرة. لقد هربت من منزلها، ما يشرح لماذا لم يسمع أحد شيئاً. سلكت الطريق رقم 1 لتذهب إلى فندق سي سايد، وحينذاك تم اختطافها. أو ركبت مع شخص كانت تثق به، فالقاتل كتب نولا حببتي، فهو كان يعرفها. عرض عليها أن يصطحبها بالسيارة وتحرش بها. قد يكون قد أوقف السيارة على جانب الطريق وراح يلمسها. قاومته فضربها وطلب منها أن تبقى هادئة. لكن لم تكن أبواب السيارة مقفلة فاستطاعت الهرب. أرادت أن تختبئ في الغابة، لكن من الذي يسكن بجوار الطريق رقم 1 وغابة سايد كريك؟ - ديورا كوبر.

- بالضبط! تبع المعتدي نولا تاركاً سيارته على جانب الطريق، فرأتهما ديورا كوبر واتصلت بالشرطة. في هذه الأثناء، لحق المعتدي بنولا في المكان الذي عُثر فيه على آثار دم وخصلات شعر؛ قاومته فضربها بوحشية، حتى أنه قد يكون اغتصبها. ثم وصلت الشرطة: راح الضابط ترافيس والرئيس برات يفتشان الغابة ويقتربان منه شيئاً فشيئاً. فسحب نولا إلى أعماق الغابة، إلا أنها استطاعت أن تفلت منه وتلجأ إلى منزل ديورا كوبر. أما ترافيس وبرات، فتابعوا تفتيش الغابة، وكانا بعيدين فلم يعلما بما يحدث. استقبلت ديورا كوبر نولا في مطبخها وهرعت إلى غرفة المعيشة لتتصل بالشرطة، وحين عادت، كان المعتدي هناك؛ كان قد دخل منزلها ليسترجع نولا. أنهى حياة كوبر بطلقة في

القلب وأخذ نولا معه. جرها إلى سيارته وألقى بها في الصندوق. من الممكن أنها كانت لا تزال حية، لكن فاقدة الوعي على الأرجح، فهي فقدت الكثير من الدم. وهنا تقاطع مع سيارة مساعد الشريف، وبدأت المطاردة. وبعد أن نجح في الإفلات من الشرطة، اختبأ في غوز كوف إذ كان يعلم أن المكان خالٍ وأن لا أحد سيأتي ليزعجه هناك، فرجال الشرطة كانوا يبحثون أبعد من ذلك، على طريق مونتبيري. ترك سيارته في غوز كوف ونولا بداخلها، بل قد يكون أخفاها في المرآب، ثم نزل إلى الشاطئ وعاد مشياً إلى أورورا. نعم، أنا واثق أن القاتل من أورورا: هو يعرف الطرق، ويعرف الغابة، ويعلم أن هاري غائب. يعلم كل شيء. عاد إلى منزله دون أن يلحظه أحد. اغتسل وغيّر ملابسه، وعندما وصلت الشرطة إلى منزل آل كيلرغان حيث أعلن الأب للتو عن اختفاء ابنته، التحق بالحشد الموجود في تراس أفينيو واختلط به. ولهذا لم نجد القاتل أبداً؛ فبينما كانت الشرطة تبحث عنه حول أورورا، كان هو في قلب الحدث، في أورورا نفسها.

- اللعنة، قلت مذهولاً. أكان هناك إذًا؟

- نعم، أعتقد أنه كان هناك طوال الوقت. وفي قلب الليل، عاد إلى غوز كوف عبر الشاطئ، إذ كانت نولا قد توفيت في ذلك الوقت على ما أعتقد، فدفنها في الحديقة عند حافة الغابة حيث لن يلحظ أحد أن الأرض قد حُفرت، ثم قاد سيارته وركنها في مرآبه، ولم يخرجها لفترة طويلة كي لا يثير الشكوك. كانت جريمة محكمة.

أذهلني هذا الاستنتاج.

- ماذا يعني ذلك بالنسبة إلى المشتبه فيه؟

- إنه رجل وحيد، استطاع أن يتصرف دون أن يتدخل فيه أحد ويسأله لماذا لم يعد يُخرج سيارته من المرآب. شخص يملك سيارة شيفروليه مونت كارلو سوداء.

تحمسْتُ لتحليله:

- يكفي إذاً أن نعرف من كان يملك سيارة شيفروليه في أورورا حينذاك، وسنمسك برجلنا!

هدأ غاهالوود من حماستي على الفور:

- لقد فكر برات في ذلك وقتذاك. لقد فكر في كل شيء، إذ ظهرت في تقريره قائمة بأسماء من يملكون سيارة شيفروليه في أورورا والمناطق المجاورة. وقد زار كل واحد منهم وجميعهم كانت لديهم دفعوة قوية، جميعهم عدا هاري كبير.

هاري مجدداً. كنا دائماً ما نعود إلى هاري. كان كل خيط جديد نحدده لكشف القاتل يقودنا إليه.

- وماذا عن لوثر كاليب؟ سألته مع بصيص من الأمل. ماذا كان نوع سيارته؟

هز غاهالوود رأسه.

- موستانغ زرقاء، رد.

تنهدت.

- في رأيك، أيها الرقيب، ماذا علينا أن نفعل الآن؟

- لم نستجوب أخت كاليب بعد. أظن أنه حان الوقت لنزورها، فهي الخيط الوحيد الذي لم نستكشفه بعد.

في ذلك المساء، بعد الملائمة، استجمعت شجاعتي وتوجهت إلى فندق سي سايد. كانت الساعة التاسعة والنصف مساءً تقريباً. كان هاري جالساً على كرسي من البلاستيك أمام الغرفة رقم 8، مستمتعاً بعذوبة السهرة وهو يحتسي مشروباً غازياً. لم يقل شيئاً حين رأيته، ولأول مرة، شعرت بالارتباك في حضوره.

- هاري... كنت بحاجة لأن أراك، لأن أخبرك كم أنا آسف بشأن كل هذه القصة...

أشار لي بأن أجلس على الكرسي إلى جانبه.

- هل ترغب في مشروب غازي؟ عرض عليّ.

- بكل سرور.

- الآلة في آخر الرواق.

ابتسمت وذهبت لأحضر لنفسني دايت كوكا كولا. وعند عودتي،
قلت له:

- هذا ما قلته لي أول مرة أتيت فيها إلى غوز كوف. كانت لديك
ليمونادة وعرضت عليّ كأساً، وحين قبلتُ، طلبت مني أن أذهب إلى
الثلاجة وأصبه بنفسني.

- كانت أوقات جميلة.

- نعم.

- ما الذي تغيّر، يا ماركوس؟

- لا شيء. كل شيء، لكن لا شيء. كلنا تغيرنا، العالم تغير.
لقد انهار مركز التجارة العالمي، وشنت أمريكا حرباً... لكن أنت لم
تتغير في نظري. أنت تظل أستاذي. تظل هاري.

- ما تغير يا هاري، هو هذا الصراع بين الأستاذ والتلميذ.

- نحن لا نتصارع.

- بل نحن نفعل. لقد علمتُك أن تؤلّف كتباً، وانظر ماذا تفعل بي
كتبك: إنها تؤذي.

- لم أرغب أبداً في أن أؤذيك، يا هاري. سنجد من أحرق غوز
كوف، أعدك بذلك.

- لكن هل سيعيد لي ذلك الثلاثين عاماً من الذكريات التي
خسرتها للتلوّ؟ لم يتبقّ من حياتي سوى الدخان! لماذا كتبت تلك
الفاظات عن نولا؟

لم أجب. بقينا صامتَيْن لبعض الوقت. ورغم الإضاءة الضعيفة
للمصابيح، لاحظ الجروح على قبضتي الناتجة عن ضرب كيس
الملاكمة.

- ماذا حدث ليديك؟ هل عدتَ إلى الملاكمة؟

- نعم.

- أنت تسدد ضرباتك بالجزء الخطأ من قبضتك، فلطالما كان ذلك نقطة ضعفك.

- لنذهب ونتلاكم، اقترحت عليه.

- كما تشاء.

نزلنا إلى المرآب. لم يكن هناك أحد. خلعنا قميصينا فأصبحنا عاريي الصدر. كان هاري قد فقد كثيراً من وزنه. تأملني:

- أنت وسيم حقاً، يا ماركوس. اذهب وتزوج، بحق السماء! اذهب وعش!

- لدي تحقيق لأنهيهِ.

- فليذهب تحقيقك إلى الجحيم!

وقفنا أحدهما في مواجهة الآخر وتبادلنا اللكمات؛ كان أحدهما يضرب، في حين حمى الآخر نفسه. كان هاري يلكم بحدّة.

- ألا تريد أن تعرف من قتل نولا؟ سألته.

توقف عن اللعب فجأة.

- هل تعرفه؟

- لا، لكن الصورة تتضح. سنذهب أنا والرفيق غاهالوود لرؤية أخت لوثر كاليب غداً في بورتلاند، ولدينا أناس آخرون لنستجوبهم في أورورا.

تنهد.

- أورورا... منذ خروجي من السجن، لم أرَ أحداً. وقبل بضعة أيام، وقفت لوقت طويل أتأمل المنزل المدمّر. قال لي أحد رجال الإطفاء إنه بإمكانني الدخول، فأحضرت بعض الأغراض وجئت مشياً إلى هنا، ولم أغادر منذ ذلك الوقت. سيهتم روث بالتأمين وما إلى

ذلك، فلم يعد بإمكانني الذهاب إلى أورورا. لم يعد بإمكانني أن أواجه هؤلاء الناس وأخبرهم بأنني كنت أحب نولا وبأنني ألّفت كتاباً من أجلها. بل لم يعد بإمكانني أن أنظر حتى إلى نفسي. يقول روث إن عنوان كتابك سيكون قضية هاري كبير.

- هذا صحيح. إنه كتاب يقول إن كتابك كتاب جميل. أنا أحب أصول الشر! فهو الكتاب الذي دفعني لأن أكون كاتباً.

- لا تقل ذلك، يا ماركوس!

- لكنها الحقيقة! إنه أجمل كتاب قرأته في حياتي، وأنت كاتبي

المفضل!

- اصمت، يا ماركوس! بالله عليك.

- سأؤلف كتاباً لأدافع عن كتابك، يا هاري. فحين علمت أنك

كتبته من أجل نولا، لقد صدمت في البداية بصراحة. ثم قرأته من جديد. إنه كتاب رائع! فقد قلت فيه كل شيء! خاصة في النهاية، حين وصفت الحزن الذي سيثقل كاهلك دائماً. لن أدع الناس يلوثون هذا الكتاب، فهو الذي صنعني. أتعلم، في ذلك اليوم، يوم الليمونادة، في زيارتي الأولى لك، حين فتحت تلك الثلاثية، تلك الثلاثية الفارغة، أدركت وحدتك. وفي ذلك اليوم، أدركت أن أصول الشر هو كتاب عن الوحدة. لقد كتبت عن الوحدة بطريقة استثنائية. أنت كاتب عظيم!

- كفى، يا ماركوس!

- كما أن نهاية الكتاب رائعة! فأنت تتخلى عن نولا: إنها اختفت

إلى الأبد، أنت تعرف ذلك، إلا أنك انتظرتها رغم ذلك... سؤالي الوحيد لك الآن، بعد أن فهمت كتابك حقاً، يخص العنوان؛ لماذا اخترت عنواناً بهذه القتامة لكتاب بهذا الجمال؟

- إنه أمر معقد، يا ماركوس.

- أنا هنا لأفهم...

- أمر معقد جداً...

- حدقنا أحداً بالآخر، في وضعية الاستعداد، كما لو كنا محاربين.
- لا أدري إن كان بإمكانني أن أغفر لك...، قال في الأخير.
- أن تغفر لي؟ لكنني سأعيد بناء غوز كوف! سأدفع كل التكاليف!
- بما سأجنيه من الكتاب، سنعيد بناء المنزل. لا يمكن أن تخرب صداقتنا هكذا!
- أخذ يبكي.
- أنت لا تفهم شيئاً، يا ماركوس. لست أنت السبب! فلا شيء نتيجة خطئك، ومع ذلك، فلا يمكنني أن أغفر لك.
- أن تغفر لي ماذا؟
- لا أستطيع أن أخبرك، فأنت لن تفهم...
- بالله عليك، يا هاري! لا داعي لكل هذه الألغاز! ما الذي يحدث؟
- مسح دموعه بظهر يده.
- أتذكر نصيحتي؟ سألني. حين كنت تلميذي، قلت لك يوماً:
- لا تُولف أبداً كتاباً إن لم تكن تعلم نهايته.
- نعم، أتذكر ذلك جيداً. وسأتذكرك إلى الأبد.
- وكيف ستكون نهاية كتابك؟
- إنها نهاية جميلة.
- لكنها تموت في النهاية!
- لا، الكتاب لا ينتهي بموت البطلة، بل تحدث أشياء جميلة بعد ذلك.
- ما هي؟
- الرجل الذي انتظرها لأكثر من ثلاثين عاماً، يعود ليحيا من جديد.

مقتطفات من: أصول الشر (الصفحة الأخيرة)

حين أدرك أن لا شيء ممكن أبداً، وأن الآمال لم تكن سوى أكاذيب، كتب إليها للمرة الأخيرة؛ فبعد رسائل الحب، كان الوقت قد حان لرسالة حزن. كان عليه أن يتقبل ذلك. من الآن فصاعداً، لن يفعل سوى انتظارها. سينتظرها طوال حياته. لكنه كان يعلم أنها لن تعود أبداً، كان يعلم أنه لن يراها بعد الآن، أنه لن يعثر عليها، ولن يسمعها. حين أدرك أن لا شيء ممكن أبداً، كتب إليها للمرة الأخيرة.

حبيبتي

هذه رسالتي الأخيرة. هذه كلماتي الأخيرة. أكتب لأقول لك وداعاً.

منذ الآن، لن يكون هناك من «نحن».

العشاق يفترقون ولا يعودون، فهكذا تنتهي قصص الحب.

حبيبتي، سأفتقدك، سأفتقدك كثيراً.

عيناى تبكيان. كل شيء فيّ يحترق.

لن نرى أحداً الآخر بعد الآن؛ سأفتقدك كثيراً.

أتمنى لك السعادة.

أقول لنفسي إن ما بيننا كان حلمًا، وإن علينا الاستيقاظ الآن.

سأفتقدك طوال حياتي.

وداعاً. أحبك كما لن أحب أبداً.



ذاك الذي كان يرسم اللوحات

«تعلم أن تحب إخفاقاتك، يا ماركوس، لأنها هي التي ستبنيك.
إخفاقاتك هي التي ستضفي الطعم على انتصاراتك».

كان الجو مشرقاً في بورتلاند، بولاية مين، في اليوم الذي زرنا فيه سيلا كاليب ميتشيل، أخت لوثر. كان ذلك يوم الجمعة 18 يوليو 2008. كانت عائلة ميتشيل تسكن منزلاً لطيفاً في حي سكني بالقرب من وسط المدينة. استقبلتنا سيلا في المطبخ حيث كان البخار يتصاعد من فنجانَي قهوة موضوعين على الطاولة، وإلى جانبهما ألبومات صور العائلة.

كان غاهاالوود قد أخبرها أمس بزيارتنا. ونحن في طريقنا من كونكورد إلى بورتلاند، حكى لي أنه حين اتصل بها، شعر بأنها كانت تنتظر اتصاله. «عرّفتُ بنفسي على أنني شرطي، وقلت لها إنني أحقق في مقتل ديورا كوبر ونولا كيلرغان، وإنني كنت بحاجة لمقابلتها لأطرح عليها بعض الأسئلة. بصفة عامة، يشعر الناس بالقلق عند سماعهم كلمتي شرطة الولاية: فيطرحون الأسئلة: يسألون عما حدث، وعما يعنيه في ذلك. أما سيلا ميتشيل، فقد أجابتنني ببساطة: تفضل غداً متى تشاء، سأكون في المنزل. من المهم أن نتحدث».

جلست قبالتنا في مطبخها. كانت امرأة جميلة، في الخمسينات من عمرها، إطلالتها راقية، وأم لطفلين. كان زوجها موجوداً أيضاً، إلا أنه ظل واقفاً بعيداً، كما لو كان يخشى أن يزعجنا.

- إذاً، سألتنا، هل كل هذا هو الحقيقة؟

- ما هو؟ استوضح غاهالوود.

- ما قرأته في الصحف... كل هذه القصص الرهيبة عن تلك الفتاة المسكينة من أورورا.

- نعم. لقد شوهت الصحافة الحقيقة بعض الشيء، لكن الأحداث حقيقية. سيدة ميتشيل، أنتِ لم تبدِ متفاجئة من اتصالي أمس...
بدا عليها الحزن.

- كما أخبرتك أمس على الهاتف، لم تكن الأسماء مذكورة في الجريدة، لكنني فهمت أن إ. س. هو إيلجاه ستيرن، وأن سائقه هو لوثر. (أخرجت من جيبها قصاصة جريدة وقرأت بصوت عالٍ وكأنها تحاول فهم شيء لم تفهمه): كان إ. س. أحد أغنى رجال نيو هامبشير، وكان يرسل سائقه إلى وسط المدينة ليأتي بنولا إليه في كونكورد. فبعد ثلاثة وثلاثين عاماً، أفادت صديقة نولا، التي لم تكن سوى طفلة آنذاك، أنها شهدت على أحد اللقاءات بين السائق ونولا، وأن نولا ذهبت معه كمن يذهب إلى حتفه. هذه الشاهدة وصفت السائق بأنه رجل مخيف، بجسد قوي ووجه مشوه. أعتقد أن وصفاً كهذا لا ينطبق إلا على أخي.

سكتتٌ وحدقت فينا. كانت تنتظر إجابة، واختار غاهالوود أن يكون صريحاً شفافاً.

- لقد عثرنا على لوحة لنولا كيلرغان عند إيلجاه ستيرن، قال لها. وبحسب ستيرن، أخوك هو الذي رسمها، إذ يبدو أن نولا قبلت أن تُرسم مقابل مبلغ من المال. كان لوثر يذهب ليصطحبها من أورورا إلى كونكورد وإلى ستيرن. نحن لا نعلم ماذا كان يحدث هناك، إلا أن لوثر رسم لوحة لها.

- لقد كان يرسم كثيراً! قالت سيلا. كان موهوباً جداً، كان بإمكانه أن يحقق نجاحات كبيرة في هذا المجال. هل... هل تشبهون في أن يكون هو قاتل نولا؟

- لنقل إنه على قائمة المشتبه فيهم، رد غاهالوود.

انهمرت الدموع على خديها.

- أعلم، أيها الرقيب، أذكر اليوم الذي توفي فيه. كان يوم جمعة في نهاية سبتمبر. كنت قد أتممت إحدى وعشرين سنة لتوي. تلقينا اتصالاً من الشرطة أبلغونا فيه أن لوثر توفي إثر حادث سير. أذكر جيداً حين رن الهاتف، ورفعت أُمي السماع. كنا أنا وأبي جالسين حولها. أجابت أُمي وهمست لنا: إنها الشرطة. سمعتُ بامعان ثم ردت بكلمة واحدة: حسناً. لن أنسى هذه اللحظة أبداً. على الطرف الآخر من الخط، كان ضابط قد أعلن لها وفاة ابنها، قال لها شيئاً من قبيل: يؤسفني، يا سيدتي، أن أنقل لك خبر وفاة ابنك في حادث سير، فأجابت: حسناً. أغلقت الخط بعد ذلك ونظرت إلينا وقالت: لقد توفي.

- ما الذي حدث؟ سأل غاهالوود.

- سقوط من ارتفاع ثلاثين متراً من الأجراف الساحلية لساغامور في ماساتشوستس. قيل إنه كان ثملاً.

- كم كان عمره؟

- ثلاثين عاماً... كان عمره ثلاثين عاماً. كان أخي رجلاً صالحاً، لكن... أعلمان، أنا سعيدة لأنكما أتيتما. أعتقد أنه يجب عليّ أن أحكي لكما شيئاً كان علينا أن نحكيه منذ ثلاثة وثلاثين عاماً. وبصوت مرتعش، حكّت لنا سيلا مشهداً جرى قبل الحادث بثلاثة أسابيع تقريباً. كان ذلك يوم السبت 30 أغسطس 1975.

*

30 أغسطس 1975، بورتلاند، مين

في ذلك المساء، كانت عائلة كاليب تنوي أن تتناول العشاء في هورس شو، المطعم المفضل لدى سيلا، للاحتفال بعيد ميلادها

الواحد والعشرين، إذ كانت قد ولدت في الفاتح من سبتمبر. كان الأب، جاي كاليب، قد حجز القاعة الخاصة في الطابق العلوي كمفاجأة لابنته، ودعا أصدقاءها وبعض الأقارب، ثلاثين شخصاً في المجموع، ومن بينهم لوثر.

وصل آل كاليب - سيلا، أبوها جاي، وأمها ناديا - إلى المطعم عند السادسة مساءً. كان جميع المدعوين ينتظرون سيلا في القاعة واحتفلوا بها عند دخولها. بدأ الحفل: شُغلت الموسيقى وصُبَّت الشامبانيا، ولم يكن لوثر قد وصل. فكر الأب أولاً في أنه قد يكون واجه عرقلة ما على الطريق، لكن عند السابعة والنصف، حين تم تقديم العشاء، لم يكن ابنه قد حضر بعد. لم يكن من عاداته أن يتأخر على المواعيد، فبدأ جاي يقلق. حاول الاتصال بلوثر على هاتفه في الغرفة التي يقيم فيها في مبنى ملحق لمنزل ستيرن، لكن لم يجب أحد.

فوّت لوثر العشاء، والحلوى، والرقص. وفي الواحدة صباحاً، عادت عائلة كاليب إلى المنزل، صامتين وقلقين، فلم يكن لوثر ليفوّت عيد ميلاد أخته أبداً. فعند وصولهم المنزل، أدار جاي الراديو على نحوٍ آلي، حيث ذكرت نشرة الأخبار عملية واسعة تقوم بها الشرطة في أورورا إثر اختفاء فتاة في الخامسة عشرة. كان اسم أورورا اسماً مألوفاً، إذ قال لوثر إنه يتردد إليها باستمرار للاعتناء بشجيرات الورد في منزل رائع يملكه ستيرن على الشاطئ هناك. لم يرَ جاي في ذلك إلا صدفة، وأصغى بإمعان إلى بقية النشرة وإلى أخبار عدة محطات أخرى ليرى ما إذا كان قد وقع حادث سير في المنطقة، لكن لم يُذكر أمر كهذا. ظل ساهراً جزءاً من الليل يفكر ما إذا كان عليه أن يبلغ الشرطة، أو يظل منتظراً في المنزل، أو يذهب إلى كونكورد، وانتهى به الحال أن نام مكانه على أريكة غرفة المعيشة.

في أول ساعات صباح اليوم التالي، ولمّا أنه لم ترده أي أخبار،

اتصل جاي بإليجاه ستيرن ليسأله عن ابنه، فأجاب ستيرن: «لوثر؟ هو ليس هنا، لقد ذهب في إجازة. ألم يخبركم؟». كان كل ذلك غريباً، فلماذا قد يغادر لوثر دون أن يخبرهم؟ غير قادر على انتظار الأخبار فحسب، قرر جاي أن يخرج ويبحث عن ابنه.

*

وبينما كانت سيلا ميتشيل تسترجع هذه الأحداث، راحت ترتجف. نهضت من مقعدها فجأة وأعدت قهوة جديدة.

- في ذلك اليوم، بينما ذهب أبي إلى كونكورد وبقيت أمي في المنزل تحسباً أن يأتي لوثر، خرجت لأقضي اليوم مع صديقاتي، وعدت إلى المنزل في الوقت متأخر. كان والدائي في غرفة المعيشة يتحدثان وسمعت والذي يقول لأمي: أعتقد أن لوثر ارتكب حماقة كبرى. سألته عما يجري، فأمرني ألا أذكر اختفاء لوثر لأحد، وخاصة الشرطة. قال إنه سيهتهم هو بالعثور عليه، وظل يبحث عنه مدة ثلاثة أسابيع من دون جدوى، إلى أن وقع الحادث. كبتت دموعها.

- ماذا حدث، يا سيدة ميتشل، سألهَا غاهالوود بصوت دافئ. لماذا قال والدك إن لوثر ارتكب حماقة؟ ولماذا لم يرغب في إخبار الشرطة؟

- إنه أمر معقد، أيها الرقيب، معقد جداً...

فتحت ألبومات الصور وحدثتنا عن عائلة كاليب: عن جاي، الأب اللطيف، وناديا، الأم، ملكة جمال مين السابقة التي علّمت أطفالها حسّ الذوق والجمال. كان لوثر الابن البكر، يكبرها بتسع سنوات، وكانا قد وُلدا في بورتلاند هما الاثنين.

أرتنا صور طفولتها: المنزل العائلي، العطل في كولورادو، المستودع الهائل لشركة أبيها الذي قضيا فيه هي ولوثر مواسم صيف

كاملة. وأظهرت مجموعة من الصور الأسرة في منتزه يوسيميتي عام 1963. كان لوثر في الثامنة عشرة من عمره، شاب وسيم، نحيف وأنيق. ثم رأينا صورة تعود لخريف عام 1974: عيد ميلاد سيلا العشرون. بدت على أفراد العائلة علامات الشيخوخة: كان جاي، الأب الفخور بعائلته، ستينياً بدينياً، وظهرت على وجه الأم تجاعيد راسخة. كان لوثر قد ناهز الثلاثين: كان وجهه مشوهاً.

تأملت سيلا هذه الصورة الأخيرة طويلاً.

- من قبل، كنا عائلة جميلة، قالت. من قبل، كنا سعداء جداً.

- قبل ماذا؟ سألها غاهالوود.

نظرت إليه كما لو أن الأمر بديهي.

- قبل الاعتداء.

- الاعتداء؟ كرر غاهالوود. أنا لم أكن على علم بذلك.

وضعت سيلا صورتَي أخيها جنباً إلى جنب.

- حدث ذلك في الخريف الذي تلا عطلتنا في يوسيميتي. انظر

إلى هذه الصورة... انظر كم كان وسيماً. أتعلم، كان لوثر شاباً مميزاً جداً؛ كان يحب الفن وكان موهوباً في الرسم. كان قد أنهى دراسته الثانوية وقُبل في كلية الفنون الجميلة في بورتلاند، وتنبأ له الجميع بأن يصبح فناناً عظيماً. كان فتى سعيداً. لكنها كانت فترة حرب فيتنام فتعيّن عليه الذهاب للخدمة العسكرية. قال إنه سيلتحق بكلية الفنون الجميلة عند عودته ويتزوج، فهو كان خاطباً وقتذاك. كان اسمها إيلانور سميث، زميلته من المدرسة الثانوية. كان فتى سعيداً، أقول لك. قبل تلك الليلة من سبتمبر 1964.

- ما الذي حدث في تلك الليلة؟

- هل سمعت عن عصابة فيلد غولز، أيها الرقيب؟

- عصابة فيلد غولز؟ لا، إطلاقاً.

- إنها التسمية التي أطلقتها الشرطة على مجموعة من الفاسقين
تفشوا في المنطقة آنذاك.

*

سبتمبر 1964

كانت الساعة العاشرة مساءً تقريباً. كان لوثر قد قضى سهرته عند
إليانور وكان عائداً إلى منزله مشياً. كان سيلتحق في الغد بأحد مراكز
الخدمة العسكرية. كان هو وإليانور قد قررا الزواج فور عودته، فتعاهدا
على الإخلاص ومارسا الحب للمرة الأولى على سرير إليانور الصغير،
في حين كانت أمها تعد لهما الكوكيز في المطبخ.

بعد أن غادر لوثر منزل آل سميث، التفت عدة مرات نحو المنزل
ورأى في ضوء مصابيح الشارع إليانور تلوح له بيدها من الشرفة
الأمامية. ثم سار عبر طريق لينكولن الهادئ في ذلك التوقيت وذى
الإضاءة الرديئة، إلا أنه كان الطريق الأقصر لبلوغ منزله. كان عليه قطع
ثلاثة أميال. تجاوزت سيارة وأضاءت مصابيحها الطريق أمامه، ثم
جاءت من خلفه بسرعة كبيرة سيارة ثانية، بدا ركبها في حالة هيجان،
إذ أطلقوا من النافذة صيحات عالية لتخويفه. لم يُبِدِ لوثر أي رد فعل
وتوقفت السيارة فجأة في منتصف الشارع، على بعد بضعة أمتار منه.
واصل لوثر مشيه، فماذا عساه أن يفعل غير ذلك؟ أكان عليه أن يقطع
الطريق إلى الجانب الآخر؟ حين تجاوز السيارة، سأله سائقها:

- هيه، أنت... هل أنت من هنا؟

- نعم، أجاوب لوثر.

فتلقى دفقة بيرة في وجهه.

- إن رجال مين أجلاف! صاح السائق.

أطلق الراكبون الصيحات. كانوا أربعة في المجموع لكن لم
يتمكن لوثر أن يرى وجوههم في العتمة. خمن أن أعمارهم تتراوح بين

الخامسة والعشرين والثلاثين، وأنهم سكارى وعدائيون. كان خائفاً، فواصل طريقه وقلبه يخفق. لم يكن يحب الشجار، ولم يكن يريد المشاكل.

- هيه! أنت، إلى أين أنت ذاهب، أيها الجلف؟

لم يجب لوثر وأسرع الخطى.

- عد إلى هنا! عد إلى هنا لنريك ماذا نفعل بالحقراء أمثالك.

سمع لوثر باب السيارة يُفتح وسائقها يصرخ: «أيها السادة، موسم صيد الأجلاف مفتوح الآن! من يمسك به سيربح معنا 100 دولار!». راح لوثر يركض بأقصى سرعته، متمنياً أن تمر سيارة وتنقذه، لكن لم يأت أحد. لحق به أحدهم وألقى به أرضاً وهو يصرخ: «لقد أمسكت به! أمسكت به! الـ 100 دولار من نصيبي!»، فانقضّ الآخرون على لوثر وانهالوا عليه بالضرب. وفيما كان ملقى على الأرض، قال أحد المعتدين: «من الذي يريد أن يلعب الكرة؟ أقترح أن نسدد أهداف فيلد غولز!»، فأطلق الباقون صيحات إثارة وحماس وراحوا يتناوبون على ركله على وجهه بعنف رهيب كما لو كانوا يركلون كرة قدم ليسددوا هدفاً. وحين انتهوا من اللعب، تركوه على جانب الطريق ليموت، إلا أنه بعد ذلك بأربعين دقيقة عثر عليه سائقُ دراجة نارية وطلب الإسعاف.

*

- بعد عدة أيام من الغيبوبة، استيقظ لوثر بوجه مهشم، أوضحت سيلا. لقد أُجريت له العديد من الجراحات الترميمية، لكن لم تنجح أيُّ منها في إعادة وجهه كما كان. قضى شهرين في المستشفى وخرج محكوماً عليه بالعيش بوجه مشوه وصعوبات في الكلام. لم يذهب إلى فيتنام بطبيعة الحال، ولم يفعل شيئاً بدلاً من ذلك. ظل قابعاً في المنزل طوال النهار؛ لم يعد يرسم، ولم تعد لديه المشاريع، وبعد ستة أشهر فسخت إليانور الخطوبة ورحلت عن بورتلاند. من يمكنه أن

يلومها؟ كانت في الثامنة عشرة من عمرها ولم تكن ترغب في التضحية بحياتها من أجل الاهتمام بلوثر الذي أصبح ظلاً يعاني من الاكتئاب. لم يعد إطلاقاً كما كان.

- وماذا عن المعتدين؟ سألها غاهالوود.

- لم يتم العثور عليهم أبداً. كانت هذه العصابة قد قامت بأفعال مماثلة في المنطقة من قبل، وفي كل مرة، تسلوا بتسديد الفيلد غولز، لكن ما فعلوه مع لوثر كان اعتداءهم الأكثر وحشية: كادوا يقتلونه. تحدثت كل الصحافة عن الحادث في ذلك الحين، واستنفرت الشرطة، ولم يسمع أحد عن العصابة بعد ذلك. لقد خافوا من أن يتم القبض عليهم على الأرجح.

- وماذا حدث لأخيك بعد ذلك؟

- طوال العامين اللاحقين، لزم لوثر المنزل طوال الوقت. كان مثل الشبح، لا يفعل شيئاً. كان أبي يظل في مستودعه أطول فترة ممكنة، وأمي تقضي معظم وقتها خارج المنزل. كانا عامين صعبين جداً. ثم، في أحد أيام 1966، قرع أحدهم جرس الباب.

*

1966

تردد قبل أن يفتح الباب: لم يكن يحتمل أن يرى وجهه أحد، لكنه كان وحده في المنزل وقد يكون الأمر مهماً. فتح الباب ووجد نفسه قبالة رجل في الثلاثينات من عمره، أنيق جداً.

- أمرحباً، قال الرجل. أعذر أنني قرعت الجرس هكذا لكن سيارتي تعطلت على بعد خمسين متراً من هنا. هل يمكنك مساعدتي؟

- ماذا حصل بالقط؟

- لا شيء خطيراً، ثقب في الإطار فحسب، لكنني لم أتمكن من استعمال رافعة السيارة.

وافق لوثر على أن يلقي نظرة. كانت السيارة كوبيه فاخرة، مركونة على جانب الطريق على بعد مئة متر من المنزل. كان مسمار قد ثقب الإطار الأمامي ناحية اليمين، ولم تعمل الرافعة لأنها لم تكن مشحمة جيداً، إلا أن لوثر استطاع استخدامها وتغيير الإطار.

- عمل رائع، قال الرجل. من حظي السعيد أنني ألتقيت بك.
ماذا تعمل؟ هل أنت ميكانيكي؟

- لا فيء. كنت أرغم من قبل، لكن وقع لي حادف.

- وكيف تكسب قوتك؟

- أنا لا أكفب شيئاً.

تأمله الرجل ومد له يده ليصافحه.

- اسمي إليجاه ستيرن. شكراً، أنا مدين لك على ما قمت به.

- لوفر كاليب.

- تشرفنا، يا لوثر.

حرق أحدهما بالآخر للحظة، ثم طرح عليه إليجاه السؤال الذي طارده منذ أن فتح له لوثر باب منزله.

- ماذا حدث لوجهك؟

- هل فمعت عن عصاة فيلد غولز؟

- لا.

- أشخاص ارتكبوا الاعتداءات، من باب التفلية. يضربون رؤوف

ضحايهم بأقدامهم كما لو أنهم يلعبون كرة القدم.

- أوه، يا للشناعة... أنا آسف.

هز لوثر كتفيه في استسلام.

- لا تجعلهم ينالون منك! قال صائحاً. إذا سددت لك الحياة

ضربة موجعة، فانتقم منها! هل ترغب في الحصول على وظيفة؟ أنا

أبحث عن شخص ليهتم بسياراتي ويكون سائقاً لي، وقد أعجبتني. فإذا

كان العرض يناسبك، فسأوظفك على الفور.

بعد ذلك بأسبوع، استقر لوثر في كونكورد، في مبنى الموظفين الموجود على أرض ستيرن الشاسعة.

*

اعتبرت سيلا لقاء أخيها بستيرن بمثابة المعجزة بالنسبة إلى أخيها. - بفضل ستيرن، أصبح لوثر عضواً في المجتمع من جديد؛ لديه وظيفة وراتب. استعادت حياته بعض المعنى، والأهم من ذلك أنه عاد للرسم. كانت علاقته بستيرن مميزة: كان سائقه، وموضع ثقته، وقد أقول صديقه أيضاً، إذ كان ستيرن قد استلم أعمال أبيه ويعيش بمفرده في منزله الشاسع، وأعتقد أنه كان سعيداً بصحبة لوثر. كانت علاقتهما قوية، وظل لوثر في خدمته مدة تسع سنوات، حتى وفاته. - سيدة ميتشيل، سأل غاهالوود، كيف كانت علاقتك بأخيك؟ ابتسمت.

- كان شخصاً مميزاً جداً. كان رقيقاً للغاية! يحب الزهور، والفن. لم يكن يليق به أن ينهي حياته كسائق ليموزين. أنا لست ضد السائقين طبعاً، لكن ما أريد قوله هو أن لوثر كان شخصاً استثنائياً! كان غالباً ما يأتي لتناول الغداء معنا أيام الأحاد. يأتي في الصباح ويغادر إلى كونكورد في المساء. كنت أحب أيام الأحاد تلك، خاصة حين كان يرسم في غرفته القديمة التي تحولت إلى مرسوم. كانت موهبته عظيمة، فما إن يبدأ في الرسم حتى ينبثق منه جمال خارق. كنت أجلس وراءه وأنظر إليه وهو يرسم. أنظر إلى تلك الخطوط الفوضوية التي ما إن تكتمل حتى تشكل مشاهد واقعية خلابة. في البداية، تشعر بأنه يرسم عشوائياً، وإذا بصورة تظهر فجأة وسط الخطوط، إلى أن يتخذ كل خط معنى خاصاً به. كانت لحظة رائعة، فكنت أطلب منه أن يواصل الرسم وأن يفكر في الالتحاق بكلية الفنون الجميلة من جديد، وأن عليه أن يعرض لوحاته، لكنه لم يعد يرغب في ذلك، بسبب وجهه

وطريقة نطقه. بسبب كل ما حدث. فقبل الاعتداء، كان يقول إنه يرسم لأن الرسم يسكنه من الداخل. وعندما عاد للرسم، قال إنه يرسم ليشعر بأنه أقل وحدة.

- أيمكن أن نرى بعضاً من لوحاته؟ سألها غاهالوود.

- نعم، بالطبع. لقد قام والذي بتجميع باقة من لوحاته تضم كل اللوحات التي ظلت في غرفته ببيورتلاند، والتي أخذها من غرفة لوثر عند ستيرن بعد وفاته. كان يقول إن بإمكاننا أن نهبها لمتحف ما، وقد تحظى بإعجاب الجمهور. لكنه اكتفى بتجميع الذكريات في صناديق أحفظ بها عندي منذ وفاة والذي.

اقتادتنا سيلا إلى الطابق السفلي حيث تكدست في إحدى الغرف صناديق كبيرة من الخشب. كانت هناك لوحات كبيرة، كما ملأت الرسومات والرسومات الإعدادية المكان. كان عددها هائلاً.

- الفوضى تعم المكان، اعتذرت لنا سيلا. الذكريات مكدسة هنا، فأنا لم أجرؤ على رمي أي شيء.

وهو يفتش بين اللوحات، ميز غاهالوود لوحة لامرأة شقراء.

- إنها إليانور، أوضحت لنا سيلا. هذه المجموعة رُسمت قبل الاعتداء. كان يحب أن يرسمها. كان يقول إن بإمكانه أن يرسمها طوال حياته.

كانت إليانور فتاة شقراء جميلة. ملحوظة لافتة للانتباه: كانت تشبه نولا كثيراً. كانت هناك العديد من اللوحات الأخرى لنساء شقراوات، جميعها مؤرّخة بعد الاعتداء.

- من هؤلاء النساء على تلك اللوحات؟ سألها غاهالوود.

- لا أعلم، ردت سيلا. إنهنّ من وحي خيال لوثر على الأرجح. هنا عثرنا على مجموعة من الرسومات الخطية التي رُسمت بالفحم، تعرفتُ في إحداها على مطعم كلاركس، حيث وقفت خلف المنضدة امرأة جميلة لكن حزينة. كانت تشبه جيني إلى حد كبير،

لكنني أرجعت ذلك إلى المصادفة، إلى أن قلبتُ الرسم ووجدت على ظهره تلك الكلمات: جيني كوين، 1974. فسألتها:

- لماذا كان أخوك مهووساً برسم النساء الشقراوات؟

- لا أدري، قالت ستيلا. حقاً...

رماها غاهالوود بنظرة لطيفة وجادة في آن واحد وقال لها:

- سيدة ميتشيل، حان الوقت لتخبرينا لماذا قال والدك، في مساء

يوم 31 أغسطس 1975، إنه يعتقد أن لوثر ارتكب حماقة.

أومات ستيلا برأسها.

*

31 أغسطس 1975

في التاسعة صباحاً، حين أغلق جاي كاليب الخط، أدرك أن هناك خطباً ما. كان إليجاه ستيرن قد أعلن له للتو أن لوثر أخذ إجازة مفتوحة. «أتبحث عن لوثر؟ سأله ستيرن مستغرباً. هو ليس هنا، اعتقدت أنك تعلم. - ليس هنا؟ أين هو إذا؟ انتظرناه أمس ليحضر عيد ميلاد أخته لكنه لم يأت. أنا قلق جداً. ماذا قال لك بالضبط؟ - قال إنه قد يضطر أن يكف عن العمل لديّ. حدث ذلك منذ يومين. - يكف عن العمل لديك؟ لماذا؟ - لا أعلم. اعتقدت أنك تعلم».

فور وضعه السماعة، أمسك بها جاي من جديد، ليبلغ الشرطة، لكنه لم يكمل حركته. انتابه حدس غريب. دخلت زوجته ناديا مكتبه.

- ماذا قال لك ستيرن؟ سألته.

- قال إن لوثر استقال يوم الجمعة.

- استقال؟ ماذا يعني استقال؟

تنهد جاي، منهكاً من الليلة التي قضاها.

- لا أدري، لا أفهم شيئاً مما يجري على الإطلاق. لا شيء...

يجب أن أذهب لأبحث عنه.

- أن تبحث عنه أين؟

هز كتفيه، إذ لم تكن لديه أدنى فكرة عن ذلك.

- ابقني هنا، أمر ناديا. في حال أنه عاد. وسأتصل بك كل ساعة لتبادل المستجدات.

التقط مفاتيح شاحنته وخرج دون أن يعرف حتى من أين سيبدأ، فقرر في النهاية أن يذهب إلى كونكورد. كان بالكاد يعرف المدينة فجال فيها عشوائياً حتى شعر بأنه تاه. مر عدة مرات أمام مركز الشرطة، لكن كل مرة أراد فيها الدخول لطلب المساعدة، كان يردعه شعورٌ بداخله، فانتهى به الأمر إلى أن يذهب إلى منزل إليجاه ستيرن، إلا أن هذا الأخير لم يكن موجوداً، فاقتاده موظف إلى غرفة ابنه. أمل جاي بأن يكون لوثر قد ترك رسالة ما، لكنه لم يجد شيئاً. كانت الغرفة مرتبة، ولم يكن هناك رسالة ولا أي علامة تفسر رحيله.

- هل أخبرك لوثر بشيء؟ سأل جاي الموظف الذي اصطحبه.

- لا، لم أكن هنا في اليومين الأخيرين، لكن قيل لي إن لوثر لن يأتي إلى العمل في الوقت الراهن.

- لن يأتي في الوقت الراهن؟ هل أخذ إجازة أم استقال؟

- لا أعرف ماذا أقول لك، يا سيدي.

كان كل هذا الارتباك حول لوثر غريباً. كان جاي الآن متأكداً أن امرأةً خطيراً قد حدث، جعل ابنه يتبخر في الهواء على هذا النحو. غادر منزل ستيرن وعاد إلى المدينة. توقف في مطعم ليتصل بزوجته ويأكل سندويتشاً. أخبرته ناديا أنه لم تكن لديها أخبار جديدة. وبينما هو يتناول طعامه، تصفح الجريدة: كانت كل الأخبار تدور حول ذلك الحدث في أورورا.

- ما هي قصة الاختفاء هذه؟ سأل صاحب المطعم.

- قضية قذرة... وقعت في بلدة على بعد ساعة من هنا: قُتلت

سيدة مسكينة واختطفت فتاة في الخامسة عشرة. كل أجهزة شرطة الولاية تبحث عنها...

- كيف نذهب إلى أورورا؟

- عليك أن تسلك الطريق 101 في اتجاه الشرق، وحين تصل إلى المحيط، تسلك الطريق رقم 1 في اتجاه الجنوب، وستجد نفسك في أورورا.

مدفوعاً بنوع من الحدس، توجه جاي إلى أورورا. على الطريق رقم 1، تم توقيفه مرتين من قبل حواجز أقامتها الشرطة، ثم حين سار بمحاذاة غابة سايد كريك، عاين بنفسه النطاق الواسع لعمليات البحث: كانت هناك سيارات إسعاف وشرطة بالعشرات، ورجال شرطة في كل مكان، وكلاب بوليسية، وجلبة كبيرة. قاد السيارة حتى وسط المدينة وبعد الميناء بقليل، توقف أمام مطعم يقع على الشارع الرئيسي ويعج بالناس. دخل المطعم وجلس عند المنضدة، حيث قدمت له القهوة امرأة شابة فاتنة. اعتقد للحظة أنه يعرفها، لكن كانت هذه المرة الأولى التي يأتي فيها إلى هنا. حلق فيها فابتسمت له، ثم رأى اسمها على شارتها: جيني. وفهم فجأة: إنها المرأة التي رسمها لوثر بالفحم على تلك اللوحة التي يحبها على نحو خاص! فهو يتذكر جيداً الكلمات المكتوبة على ظهر الرسم: جيني كوين، 1974.

- هل يمكنني مساعدتك، يا سيدي؟ تبدو تائهاً.

- أنا... إنه لأمر فظيع ما حدث هنا...

- نعم، مع الأسف... ما زلنا لا نعرف ماذا حدث للفتاة. إنها شابة صغيرة! عمرها خمسة عشر عاماً. أنا أعرفها جيداً، فهي تعمل هنا في أيام السبت. اسمها نولا كيلرغان.

- ما... ما اسمها؟ تلعثم جاي، الذي تمنى لو أنه أخطأ

السمع.

- نولا، نولا كيلرغان.

عند سماعه هذا الاسم، شعر بالدوار وبرغبة في التقيؤ. كان عليه أن يغادر هذا المكان. أن يذهب بعيداً. ترك عشرة دولارات على المنضدة وفرّ مسرعاً.

فور دخوله المنزل، رأت ناديا أن زوجها كان مضطرباً، فأسرعت نحوه وانهار هو بين ذراعيها.

- يا إلهي، جاي! ماذا حدث؟

- منذ ثلاثة أسابيع، ذهبت أنا ولوثر لصيد السمك. أتذكرين؟

- نعم، حينما اصطدتما سمك البلاك باس ذا اللحم الذي لا

يُأكل. لكن لماذا تحدثني عن ذلك؟

حكى جاي ذلك اليوم لزوجته. كان يوم الأحد 10 أغسطس 1975. كان لوثر قد جاء إلى بورتلاند مساء أمس؛ إذ كان قد اتفق مع والده على الذهاب باكراً للصيد عند بحيرة صغيرة. كان نهاراً جميلاً، والصيد وفيراً، وكانا قد اختارا بقعة هادئة لا يزعجهما فيها أحد. كانا يشربان البيرة ويتحدثان عن أمور الحياة.

- لا بد أن أخبرك، يا أبي، لقد قابلت امرأة رائعة.

- حقاً؟

- كما أقول لك. إنها افتشائية، تجعل قلبي يخفق، أعلم... إنها تحبني، لقد قالت لي ذلك. فأقدمها لكم يوماً وأنا وافق أنها فتعجبكم كثيراً.

ابتسم جاي.

- وما اسمها؟ سأله.

- نولا، يا أبي، افمها نولا كيلرغان.

ومتذكراً ذلك اليوم، قال جاي لزوجته: «نولا كيلرغان هو اسم الفتاة التي تم اختطافها في أورورا. أعتقد أن لوثر ارتكب حماقة كبرى».

عادت سيلا إلى المنزل في تلك اللحظة، فسمعت كلمات أبيها، فصرخت سائلة: «ماذا يعني ذلك؟ ماذا فعل لوثر؟». وبعد أن شرح لها أبوها الموقف، طلب منها ألا تتحدث عن الأمر مع أحد، إذ لم يكن ينبغي أن يربط أحد بين لوثر ونولا. ثم قضى الأسبوع التالي بأكمله في البحث عن ابنه: جال ولاية مين أولاً، ثم كل الساحل، من كندا إلى ماساتشوستس. وصل إلى المناطق النائية، البحيرات والأكواخ التي كان يحبها ابنه. قال لنفسه إنه قد يكون مختبئاً هناك، خائفاً ومرعوباً من مطاردة كل أجهزة الشرطة في البلاد. لكن لم يجد له أثراً. انتظره كل مساء، وانتبه لأدنى نأمة. وحين اتصلت الشرطة لتبلغهم عن وفاته، شعر بشيء من الارتياح وطلب من ناديا وسيلا ألا تتحدثا في الأمر إطلاقاً، حرصاً منه على ألا تتلوث ذكرى ابنه أبداً.



عندما أنهت سيلا كلامها، سألتها غاهالوود:

- هل تقولين إن لأخيك علاقة بخطف نولا؟

- لنقل إن سلوكه مع النساء كان غريباً... كان يحب أن

يرسمهن، خاصة النساء الشقراوات. أعلم أنه كان يرسمهن جلسة

أحياناً، في الأماكن العامة. لم أفهم أبداً ما كان يعجبه في ذلك...

نعم، أعتقد أنه قد يكون حدث شيء ما مع تلك الفتاة. اعتقد أبي أن

لوثر فقد صوابه، أن صدته تلك الفتاة فقتلها. فبعد أن اتصلت الشرطة

لتخبرنا بوفاته، بكى أبي طويلاً، وقال بين دموعه: «من الأفضل أنه

مات... فلو كنت عثرت عليه، أعتقد أنني كنت سأقتله، كي لا ينتهي

به المطاف على الكرسي الكهربائي».

أوما غاهالوود برأسه، وألقى نظرة سريعة على أغراض لوثر فوجد

دفتر ملاحظات.

- هل هذا خط أخيك؟

- نعم، إنها ملاحظات عن أحجام شجيرات الزهور... كان يهتم أيضاً بشجيرات الزهور عند ستيرن. لا أعلم لماذا احتفظت به.
- هل يمكن أن آخذه؟ سأل غاهالوود.
- تريد أن تأخذه؟ نعم، بالتأكيد. لكن أخشى ألا يكون ذا أهمية لتحقيقك؛ لقد تصفحته وهو ليس إلا دليلاً عن البستنة.
- أوما غاهالوود برأسه.
- في الحقيقة، يا سيدتي، عليّ أن أخضع خط أخيك لاختبار خطوط.

11

في انتظار نولا

«اضرب هذا الكيس، يا ماركوس. اضربه كما لو أن حياتك كلها تتوقف على ذلك. يجب عليك أن تلاكُم كما تكتب، وأن تكتب كما تلاكُم: يجب أن تعطي كل ما لديك، لأن كل مباراة، كما كل كتاب، قد تكون الأخيرة».

كان صيف عام 2008 صيفاً هادئاً جداً في أمريكا. كانت معركة الترشيحات لانتخابات الرئاسة قد انتهت في شهر يونيو، حين عيّن الديمقراطيون، أثناء الانتخابات الأولية لولاية مونتانا، باراك أوباما مرشحاً لهم، فيما اختار الجمهوريون جون ماكين منذ شهر مارس. كان التركيز الآن على تجميع القوى المناصرة: لن تُستأنف المواعيد المهمة إلا أواخر شهر أغسطس، مع المؤتمرين الوطنيين للحزبين التاريخيين للبلاد اللذين سيُنصَّبان رسمياً مرشحهما للبيت الأبيض.

هذا الهدوء النسبي قبل العاصفة الانتخابية التي ستؤدي إلى انتخابات يوم 4 نوفمبر أفسح المجال لقضية هاري كير لتحتل الصدارة على وسائل الإعلام، مثيرة جلبة لا مثيل لها في الرأي العام، الذي انقسم بين «مناصري كير» و«معادي كير»، أي أنصار نظرية المؤامرة أو أولئك الذين اعتبروا إطلاق سراح كير بضمانة مالية ناتجاً عن اتفاق مالي مع الأب كيلرغان. ومنذ نشر أوراقي في الصحافة، أصبح كتابي على كل لسان، وبات الجميع يتحدثون عن «جديد غولدمان الذي سيصدر في الخريف». أما إليجاه ستيرن، ورغم أن اسمه لم يُذكر صراحة في الأوراق، فقد تقدّم بدعوى تشهير هدفها إيقاف نشر الكتاب، في حين أعرب ديفيد كيلرغان عن نيته اللجوء للمحاكم، نافياً سوء معاملة ابنته نفيّاً قاطعاً. وفي خضم كل هذا الضجيج، كان

شخصان مستمتعين على نحوٍ خاص: بارناسكي وروث.

روي بارناسكي، الذي نشر فريق محاميه من نيويورك وصولاً إلى نيو هامبشير ليصد أي محاولة قضائية لمنع صدور الكتاب، كان في قمة الابتهاج: التسريبات، التي لم يعد هناك من شك في أنه كان هو من نسقها، ضمنت له مبيعات استثنائية وسمحت له أن يشغل الفضاء الإعلامي. كان يرى أن أسلوبه لم يكن أسوأ أو أفضل من غيره، أن مجال النشر انتقل من فن الطباعة النبيل إلى الجنون الرأسمالي للقرن الواحد والعشرين، وأن الكتاب الآن يُكتب لكي يباع، وأنه كي نبيع الكتب يجب أن نتحدث عنها، وأنه كي نتحدث عنها يجب الاستيلاء على الفضاء الإعلامي، الذي إذا لم نستول عليه بالقوة، فسيستولي عليه الآخرون. أن تأكل أو تُؤكل.

من الناحية القضائية، بات شبه مؤكد أن ملف القضية كان على وشك الزوال، كما كان بنجامين روث في طريقه إلى أن يصبح محامٍ العام وأن تعم شهرته البلاد. كان يقبل كل طلبات إجراء المقابلات، ويقضي جل وقته في استديوهات التلفزيون والراديو المحلية. كان مستعداً أن يقوم بأي شيء في سبيل أن يكون محور الأحاديث. «تخيل، يمكنني أن أقتاضي 1000 دولار بالساعة الآن، وكل مرة أظهر فيها في الصحف، أرفع سعر الساعة عشرة دولارات لزبائني المستقبلين. لا يهم ما تقوله في الصحف، يكفي أن تكون موجوداً. فالناس يتذكرون أنهم رأوا صورتك في نيويورك تايمز، لكنهم لا يتذكرون ما قلته». كان روث قد انتظر قضية القرن طوال مسيرته المهنية، وها هو قد عثر عليها أخيراً. والآن وقد أصبح تحت الأضواء، كان يقدم لوسائل الإعلام ما كانت ترغب في سماعه: تحدث عن الرئيس برات، وعن إليجاه ستيرن، وردد أن نولا كانت فتاة لعبوباً وأن هاري هو الضحية الحقيقية في هذه القضية. ولإثارة الجماهير، راح يلمح، مضيفاً تفاصيل من وحي خياله، أن نصف مدينة

أورورا كانت على علاقة حميمة مع نولا، حتى أنني اضطررت أن أتصل به لوضع النقاط على الحروف.

- يجب أن تتوقف عن نشر قصصك الإباحية، يا بنجامين. أنت تلطخ سمعة الجميع.

- هذا ما هو مقصود بالضبط، يا ماركوس، فمهمتي ليست غسل شرف كبير بقدر ما هي إثبات أن شرف الآخرين قذر ودنس. وفي حال وصلت القضية إلى المحكمة، فسأطلب شهادة برات، وسأستدعي إليجاه ستيرن وكل رجال أورورا ليقفوا أمام القاضي ويحكوا عن نزواتهم الشهوانية مع كيلرغان الصغيرة، وسأثبت في النهاية أن كل ما فعله هاري المسكين هو أنه وقع في فخ إغواء امرأة منحرفة، مثل الكثيرين من قبله.

- ما الذي تقوله؟ سألتها بانفعال. لم يكن الأمر كذلك إطلاقاً!
- هيا يا صديقي، دعنا نسمي الأشياء بمسمياتها! تلك الفتاة كانت ساقطة.

- أنت مثير للشفقة، قلت له.
- مثير للشفقة؟ كل ما فعلته هو أنني كررت ما قلته في كتابك، فأين الخطأ في ذلك؟

- هذا غير صحيح، وأنت تعرف ذلك جيداً! لم تكن نولا فتاة منحلة، وما كان يربطها بهاري هو قصة حب!
- الحب، الحب، دائماً الحب! الحب لا يعني شيئاً، يا غولدمان! إنه مناورة اخترعها الرجال كي لا يغسلوا ملابسهم بأنفسهم!

كان مكتب المدعي العام محط هجوم إعلامي شديد، ما أثقل الأجواء في مقر القسم الجنائي لشرطة الولاية، وقالت الشائعات إن حاكم الولاية بنفسه حث الشرطة، أثناء اجتماع ثلاثي، على حل القضية في أسرع وقت ممكن. ومنذ اعترافات سيلا ميتشيل، بدأت

الصورة تتضح لغاهالوود، فقد أشارت الأمور في اتجاه لوثر على نحوٍ متصاعد، وبات ينتظر نتيجة فحص الخطوط لتأكيد حدسه. لكن في غضون ذلك، كان بحاجة إلى المزيد من المعلومات، خاصة فيما يتعلق بجولات لوثر وتسكعه في أورورا، ولهذا السبب، قابلنا ترافيس داون يوم الأحد 20 يوليو ليخبرنا بما يعرفه في هذا الشأن.

لم أكن مستعداً للعودة إلى أورورا بعد، فوافق ترافيس على أن يقابلنا في مطعم قريب من مونتيري. توقعت أن يستقبلني بجفاء نظراً لما كتبه عن جيني، إلا أنه أبدى لطفاً شديداً تجاهي.

- أنا آسف على تلك التسريبات، قلت له. كانت ملاحظات شخصية، ولم يكن لشيء من كل هذا أن يُنشر أبداً.

- لا يمكنني أن ألومك، يا مارك...

- بل يمكنك...

- أنت قلت الحقيقة فحسب، فأنا أعلم أن جيني كانت مغرمة بكبير... أذكر كيف كانت تنظر إليه آنذاك... بل أعتقد أن تحقيقك على المسار السليم. على ذكر التحقيق، هل من جديد؟

غاهالوود هو من أجاب:

- الجديد هو أن لدينا شكوكاً جادة حول لوثر كاليب.

- لوثر كاليب... هذا المعتوه؟ أقصة اللوحة صحيحة إذاً؟

- نعم، يبدو أن الفتاة كانت تذهب عند ستيرن بانتظام. هل كنت

تعلم بشأن الرئيس برات ونولا؟

- تلك القصة المشينة؟ لا! حين علمت بها، سقطت من فرط

الدهشة! قد يكون ضل الطريق هنا، لكنه لطالما كان شرطياً كفواً، ومن غير الصائب أن نشك في الطريقة التي أدار بها التحقيق وعمليات البحث، كما قرأت في الصحافة.

- وما رأيك في الشكوك حول ستيرن وكبير؟

- لا أؤيدها. لقد قالت تمارا كوين إنها أبلغتنا بأمر كبير حينذاك، لكن لا بد من وضع الأمور في سياقها: ادعت أنها تعرف كل شيء، لكنها لم تكن تعرف شيئاً، ولم يكن لديها أي دليل على ادعاءاتها. كل ما قالته هو أنه كان لديها دليل ملموس، لكنه ضاع منها بطريقة غامضة. ما من شيء ذي مصداقية إذاً. وأنت تعلم جيداً، يا حضرة الرقيب، بأي حذر علينا التعامل مع الاتهامات المجانية. الأمر الوحيد الذي كان لدينا ضد كبير هو سيارة الشيفروليه مونت كارلو السوداء، ولم يكن كافياً إطلاقاً.

- أكدت لنا إحدى صديقات نولا أنها أخبرت الرئيس برات آنذاك بما كان يجري عند ستيرن.

- لم يخبرني برات بذلك أبداً.

- إذاً فكيف لنا أن نصدق أنه لم يعطل التحقيق؟ لاحظ غاهالوود.

- لا تقل على لساني ما لم أقله، يا حضرة الرقيب.

- ولوثر كاليب؟ ماذا يمكن أن نخبرنا بشأنه؟

- كان لوثر شخصاً غريب الأطوار. كان يضايق النساء، حتى أنني حشئت جيني على تقديم شكوى ضده بعد أن تصرف معها بعدوانية.

- ألم تشك فيه أبداً؟

- لا في الحقيقة. لقد ذكر اسمه في التحقيق وتأكدنا من طراز السيارة التي يملكها: موستانغ زرقاء على ما أذكر. وعلى أية حال، بدا من غير المحتمل أن يكون رجلنا.

- لماذا؟

- قبل اختفاء نولا بقليل، حرصت بنفسي ألا يأتي إلى أورورا

ثانيةً.

- ماذا تعني؟

بدا ترافيس محرراً فجأة.

- لنقل إنني... رأيته في مطعم كلاركس، كان ذلك في منتصف شهر أغسطس، أي مباشرة بعد أن أقنعت جيني بتقديم شكوى ضده. كان قد تحرش بها وترك كدمة فظيعة على ذراعها. أقصد أنه كان أذى حقيقياً. وحين رأيته أتجه نحوه، هرب مسرعاً، فطارده وأوقفته على الطريق رقم 1. وهناك... أنا... أعلم، أورورا مدينة هادئة، ولم أرغب في أن يتسكع هناك...

- ماذا فعلت؟

- لفتته درساً. لست فخوراً بذلك... و...

- وماذا، أيها الرئيس داون؟

- انهلْتُ عليه بالضرب، وحين أخذ يتلوى على الأرض من الألم، ثبتته في مكانه، وأخرجت مسدسي وقلت له إنني لا أرغب في رؤيته في أورورا طوال حياتي. كان يئن من الوجع وقال إنه لن يعود أبداً، وتوسل إليّ أن أتركه يذهب إلى حال سبيله. أعلم أنه ليس أسلوباً لائقاً، لكنني أردت أن أتأكد من أنه لن يعود إلى أورورا.

- وهل تعتقد أنه أطاعك؟

- بالتأكيد.

- إذا كنت أنت آخر من رآه في أورورا؟

- نعم. لقد نقلت البلاغ إلى جميع زملائي، مع مواصفات سيارته، ولم يظهر هناك مجدداً. ثم علمنا أنه توفي في ماساتشوستس بعد ذلك بشهر.

- ماذا كانت طبيعة الحادث؟

- لقد انحرفت سيارته عند منعطف على ما أعتقد. هذا كل ما أعلم. في الحقيقة، لم أهتم بالأمر كثيراً، ففي ذلك الوقت، كان لدينا ما هو أهم لنقوم به.

حين خرجنا من المطعم، قال لي غاهالوود:

- أعتقد أن تلك السيارة هي مفتاح اللغز. علينا أن نعرف من الذي كان من الممكن أن يقود شيفروليه مونت كارلو سوداء. أو علينا بالأحرى أن نطرح على أنفسنا السؤال التالي: هل كان من الممكن أن يكون لوثر كاليب وراء مقود سيارة مونت كارلو سوداء يوم 30 يوليو 1975؟

في اليوم التالي، عدتُ إلى غوز كوف للمرة الأولى منذ الحريق. ورغم الأشرطة التي وضعتها الشرطة في الفناء الأمامي لمنع الدخول إلى المنزل، فإنني عبرتها ودخلت. كان كل شيء مدمراً. في المطبخ، وجدت العلبة المكتوب عليها ذكرى من روكلاند، مين سليمة، فأفرغتها من قطع الخبز ووضعت فيها بعض الأغراض التي نجت من الدمار. وفي غرفة المعيشة، عثرت على ألبوم صور نجا بمعجزة فحملته معي إلى الخارج وجلست تحت شجرة، قبالة المنزل، لأشاهد الصور. في تلك اللحظة، وصل إرنى بينكاس، وقال لي ببساطة:

- لقد رأيت سيارتك في مدخل الطريق.

اقترب وجلس إلى جانبي.

- هل هي صور لهاري؟ سألني وهو يشير إلى الألبوم.

- نعم، لقد عثرت عليه في المنزل.

ساد صمت طويل. كنت أقلب الصفحات، حيث كانت معظم الصور تعود إلى الثمانينيات، وظهر على عدد منها كلبٌ أصفر من فصيلة لابرادور.

- كلب من هذا؟ سألته.

- كلب هاري.

- لم أكن أعلم أنه كان لديه كلب.

- كان اسمه ستورم. لقد عاش 12 أو 13 سنة.

ستورم. لم يكن هذا الاسم غريباً عليّ، لكنني لم أذكر السبب.

- ماركوس، واصل بينكاس، لم أرغب في أن أكون لئيمًا في المرة الأخيرة. أنا آسف إن كنت قد جرحتك.
- لا يهم.
- بل يهم. لم أكن أعلم أنك تلقيت التهديدات، هل هي بسبب كتابك؟
- ربما.
- لكن من فعل ذلك؟ سأل بسخط وهو يشير إلى المنزل المحترق.
- لا أحد يعلم. قالت الشرطة إن مادة مثل البنزين تساعد على الاشتعال قد استُعملت، وعُثرت على صفيحة فارغة على الشاطئ، لكن البصمات التي أخذت لا تطابق أي بصمات في ملفات الشرطة.
- لقد تلقيت التهديدات، وبقيت بعد ذلك إذا؟
- نعم.
- لماذا؟
- ولماذا أرحل؟ بدافع الخوف؟ الخوف شعور ينبغي احتقاره.
- قال بينكاس إنني شخص بديع، وقد أراد هو الآخر أن يكون شخصاً بديعاً في الحياة. لطالما آمنت زوجته بقدراته. لقد توفيت قبل بضع سنوات جراء ورم خبيث، وقالت له وهي على فراش الموت، وكأنه شاب أمامه مستقبل عظيم: «ستقوم بأشياء عظيمة في الحياة، يا إرني. أنا أو من بك. - أنا رجل عجوز... حياتي خلفي. - لم يفت الأوان، يا إرني. ما دمنا لم نمت، فالحياة أمامنا». لكن كل ما استطاع إرني فعله بعد وفاة زوجته هو الإحراز على عمل في سوبر ماركت بمونتيري لتسديد العلاج الكيماوي وصيانة قبرها.
- أنا أرتب عربات التسوق، يا ماركوس. أجدول في موقف السيارات بحثاً عن العربات التي تركها الزبائن، وأجمعها، وأواسيها، وأرتبها إلى جانب شقيقاتها في المدخل من أجل الزبائن التاليين.

العربات لا تُترك وحيدة أبداً، أو لا تُترك كذلك لفترة طويلة على الأقل. ففي كل متاجر العالم، هناك إرني ما يفتش عنها ويعيدها إلى عائلتها. لكن من يفتش عن إرني ويعيده إلى عائلته؟ لماذا نفعل مع عربات المتاجر ما لا نفعله مع البشر؟

- أنت محق. ما الذي يمكنني فعله من أجلك؟

- أرغب في أن أذكر في صفحة الشكر لكتابك. أرغب في أن يُذكر اسمي في الصفحة الأخيرة، كما يفعل الكتّاب غالباً. أرغب في أن يكون اسمي أول اسم يُدرج. بالأحرف العريضة. لأنني ساعدتك قليلاً في الحصول على معلومات. هل تعتقد أن هذا ممكن؟ ستكون زوجتي فخورة بي؛ زوجها الحبيب ساهم في النجاح العظيم الذي حققه ماركوس غولدمان، نجم الساحة الأدبية الجديدة.

- اعتمد عليّ، قلت له.

- سأقرأ لها كتابك، يا مارك. سأجلس إلى جانبها كل يوم وأقرأ لها كتابك.

- بل كتابنا، يا إرني. كتابنا.

سمعنا فجأة صوت خطوات من خلفنا: كانت جيني.

- رأيت سيارتك عند مدخل الطريق، يا ماركوس، قالت لي.

عند هذه الكلمات، ابتسمنا أنا وإرني. نهضتُ فاحتضنتني جيني كما لو أنها أمي، ثم نظرت إلى المنزل وانفجرت بالبكاء.

عند عودتي إلى كونكورد في ذلك المساء، مررت لزيارة هاري في فندق سي سايد. كان يتمرن أمام باب غرفته، عاري الصدر. كان يكرر بعض حركات الملاكمة. كان قد تغيّر كثيراً. قال لي حين رأيته:

- هيا لتلاكم، يا ماركوس.

- لقد أتيت لأتحدث إليك.

- سنتحدث أثناء الملاكمة.

مددت له علبة ذكرى من روكلاند، مين، التي عثرت عليها وسط
ركام المنزل.

- أحضرت لك هذه، قلت له. لقد ذهبت إلى غوز كوف. لا
يزال منزلك مليئاً بأغراضك... لماذا لا تذهب وتستردها؟

- ماذا تريدني أن أسترد؟

- الذكريات؟

- الذكريات تبعث على الحزن، يا ماركوس. فلمجرد رؤيتي تلك
العلبة، أشعر برغبة في البكاء!

أمسك بالعلبة بين يديه ثم احتضنها طويلاً.

- حين اختفت، قال لي، لم أشارك في عمليات البحث...
أتعلم ماذا كنت أفعل؟
- لا...

- كنت أنتظرها، يا ماركوس. كنت أنتظرها. كان البحث عنها
يعني أنها لم تعد موجودة. فانتظرتها، مقتنعاً أنها ستعود إليّ. كنت
متأكداً أنها ستعود يوماً، وكنت أرغب في أن تكون فخورة بي يوم
عودتها ذاك. لقد حضّرتُ نفسي لعودتها لمدة ثلاثة وثلاثين عاماً. ثلاثة
وثلاثين عاماً! كنت أشتري الشوكولاتة والزهور كل يوم، من أجلها.
كنت أعلم أنني لن أحب غيرها، فالحب، يا ماركوس، لا يأتي سوى
مرة واحدة في الحياة! وإذا كنت لا تصدقني، فهذا يعني أنك لم تحب
بعد. كنت أقضي أمسياتي على الأريكة أنتظرها وأقول لنفسي إنها
ستظهر فجأة كما كانت تفعل دائماً. وحين كنت أسافر لألقي
المحاضرات في جميع أنحاء البلاد، كنت أترك رسالة عند باب
المنزل: في محاضرة بساتل، سأعود الثلاثاء المقبل، في حال عادت
أثناء غيابي. وكنت دائماً ما أترك الباب مفتوحاً، دائماً. لم أقفله
بالمفتاح طوال ثلاثة وثلاثين عاماً. كان الناس يقولون إنني مجنون
وإنني سأعود يوماً لأجد منزلي قد أفرغه للصوص، لكن لا أحد يسرق

أحداً في أورورا، بنو هامبشير. أتعلم لماذا قضيتُ سنوات عمري على الطرق، أقبل كل دعوات المحاضرات التي أتلقاها؟ لأنني كنت أقول لنفسي إنني قد أعثر عليها. في كبرى المدن كما في أصغر الضيع، جبت هذه البلاد طولاً وعرضاً، حريصاً على أن تنشر الصحف المحلية خبر مجيئي، بل كنت أشتري أحياناً مساحات إعلانية من مالي الخاص. كل هذا لماذا؟ من أجلها. من أجل أن نلتقي من جديد. وأثناء كل محاضرة ألقيتها، كنت أتفحص الحضور بحثاً عن نساء شقراوات من سنّها. في كل مرة، كنت أقول لنفسي قد تكون هناك. وبعد كل محاضرة، كنت أقبل كل طلبات المقابلات التي تأتيني، لعل أحدها يكون منها. لقد بحثت عنها وسط الحضور لسنوات طويلة، باحثاً عن فتاة في الخامسة عشرة، ثم السادسة عشرة، ثم العشرين، ثم الخامسة والعشرين! وإذا كنت قد بقيت في أورورا، يا ماركوس، فهذا لأنني كنت أنتظر نولا. ثم عُثر عليها ميتة منذ شهر، مدفونة في حديقتي! لقد انتظرتها كل هذا الوقت في حين أنها كانت بجواري! هناك حيث أردت دائماً أن أزرع الكوبية من أجلها! ومنذ اليوم الذي عشروا عليها فيه وقلبي مفطور، يا ماركوس! لأنني فقدت حب حياتي! لأنني لو لم أطلب منها لقائي في ذلك الفندق اللعين، لربما بقيت على قيد الحياة! فلا تأتِ الآن حاملاً هذه الذكريات التي تفطر قلبي. كف عن هذا، أرجوك، كف عن هذا.

توجه نحو السلاّم.

- أين أنت ذاهب، يا هاري؟

- لألاكم. لم يعد لديّ سوى الملاكمة.

نزل إلى موقف السيارات وبدأ يقوم بحركات قتالية تحت نظرات رواد المطعم المجاور القلقة. لحقّت به فوقف في وضعية الاستعداد. حاول تسديد بعض الضربات المباشرة، لكن حتى حين كان يلاكم، لم يعد الأمر كما كان.

- لماذا أتيت إلى هنا؟ سألني بين لكمتين .

- لماذا؟ لأراك . . .

- ولماذا تريد أن تراني؟

- لأننا صديقان!

- هذا بالضبط ما لا تفهمه، يا ماركوس: لم يعد بإمكاننا أن

نكون صديقين .

- ما الذي تقوله، يا هاري؟

- الحقيقة. إنني أحبك مثل ابني، وسأحبك دائماً، لكن لم يعد

ممكناً أن نبقى صديقين في المستقبل.

- لماذا؟ بسبب المنزل؟ سأدفع التكاليف، قلت لك ذلك!

سأدفع!

- ما زلت لا تفهم، يا ماركوس. ليس هذا بسبب المنزل.

تشتت تركيزي للحظة، فسدد سلسلة من اللكمات على أعلى كتفي

اليمنى .

- لا تقلل من حذرك، يا ماركوس! لو كنتُ سددت هذه اللكمات

على رأسك، لكنتُ طرحتك أرضاً.

- لا يهمني حذري! أريد أن أعرف! أريد أن أفهم ماذا تعني لعبة

الألغاز هذه التي تلعبها معي!

- إنها ليست لعبة. حين ستفهم، ستكون قد حلت القضية.

توقفت عن الحركة.

- يا إلهي! عمّ تتحدث؟ أنت تخفي عني أشياء، أليس كذلك؟ لم

تقل لي الحقيقة كاملة؟

- لقد قلتُ لك كل شيء، يا ماركوس. الحقيقة بين يديك الآن.

- أنا لا أفهم.

- أعرف ذلك. لكن حين ستفهم، كل شيء سيختلف. أنت تعيش

مرحلة محورية في حياتك.

جلست على الإسمنت، مستسلماً، فراح يصرخ بأنه ليس هذا وقت الجلوس.

- انهض! انهض! صرخ فيّ. نحن نمارس فن الملاكمة النبيل!
لكن لم يعد يهمني فنه النبيل.
- الملاكمة لا تعني شيئاً بالنسبة إليّ إلا من خلالك، يا هاري!
هل تذكر بطولة الملاكمة لعام 2002؟
- طبعاً أتذكرها... كيف لي أن أنساها؟
- لماذا لن نظل صديقين إذاً؟
- بسبب الكتب. الكتب هي التي جمعتنا، وهي التي تفرقنا الآن.
كان هذا مكتوباً.

- مكتوباً؟ كيف؟
- كل شيء في الكتب... كنت أعلم أن هذه اللحظة ستأتي منذ
اليوم الذي رأيتك فيه، يا ماركوس.
- أي لحظة تتحدث عنها؟
- إنه بسبب الكتاب الذي تكتبه الآن.
- الكتاب؟ أنا مستعد للتخلّي عن الكتاب إذا كنتَ ترغب في
ذلك! أتريد أن ألغي كل شيء؟ حسناً، كل شيء ملغى الآن! انتهى أمر
الكتاب! كأنه لم يكن!
- هذا لن يجدي مع الأسف. إذا لم يكن هذا الكتاب، فسيكون
كتاباً آخر.

- هاري، ماذا تقصد؟ أنا لا أفهم شيئاً!
- ستنجز هذا الكتاب وسيكون كتاباً رائعاً، يا ماركوس! أنا سعيد
حيال ذلك، لا تُسئ فهمي. لكننا وصلنا إلى نقطة الافتراق. كاتب
يرحل، وآخر يولد. سوف تحمل الراية، يا ماركوس. ستكون كاتباً
عظيماً. لقد بعثَ حقوق مخطوطتك مقابل مليون دولار! مليون دولار!
ستصبح شخصاً مرموقاً، يا ماركوس، فلطالما عرفتُ ذلك.

- ما الذي تحاول قوله، بحق السماء؟

- المفتاح في الكتب، يا ماركوس. إنه أمام عينيك. انظر، انظر جيداً! أترى أين نحن؟

- نحن في موقف سيارات فندق!

- لا! لا، يا ماركوس! نحن في أصول الشر! وقد خشيتُ هذه اللحظة منذ أكثر من ثلاثين سنة.

*

صالة الملاكمة في حرم جامعة بوريوس، فبراير 2002

- أنت تخطئ في وضعية لكماتك، يا ماركوس. أنت تسدد اللكمات على نحو جيد، لكن إصبعك الأوسط يتخطى مكانه المناسب، ما يسبب احتكاكاً عند التصادم.

- لا أعد أشعر بذلك حين أرتمي قفازتي.

- عليك أن تعرف كيف تلامس بقبضتين عاريتين، فالفرازات لا تفيد سوى في ألا تقتل خصمك. لكنك عرفتَ لو كنتَ تسدد اللكمات لشيء آخر غير هذا الكيس!

- هاري... لماذا دائماً ما ألكم وحدي، في رأيك؟

- اسأل نفسك هذا السؤال.

- لأنني أخاف، على ما أعتقد، أخاف الهزيمة.

- لكن حين ذهبتَ إلى تلك الصالة في لويل تبعاً لنصيحتي، وسحقك يومذاك ذلك الأسود العملاق، بماذا شعرت؟

- بالفخر. شعرت بالفخر بعد ذلك. ففي اليوم التالي، حين نظرت إلى الكدمات على جسدي، أحببتها: كنت قد تحدت نفسي، وتجرات أن أقاتل!

- أنت تعتبر أنك ربحتَ إذًا...

- في الحقيقة، نعم. حتى وإن كنتُ قد خسرت المباراة تقنياً،
أشعر أنني ربحت في ذلك اليوم.
- هنا يكمن الجواب: لا يهم إن ربحت أم خسرت، يا مارك، بل
المهم هو الطريق الذي قطعته بين جرس الجولة الأولى وجرس نهاية
المباراة. فنتيجة المباراة ليست سوى معلومة للجمهور. من الذي يحق
له القول إنك خسرت إذا كنتَ أنت تشعر بأنك ربحت؟ الحياة مثل
سباق الركض، يا ماركوس: سيكون دائماً هناك من هو أسرع أو أبطأ
منك، لكن ما يهم في النهاية هو القوة التي قطعت بها طريقك.
- هاري، لقد رأيتُ هذا الإعلان في إحدى القاعات...
- هل هي بطولة الملاكمة الجامعية؟
- نعم... ستكون هناك كل الجامعات الكبرى: هارفارد...
بيل... وأنا... أنا أود أن أشارك فيها.
- سأساعدك إذاً.
- حقاً؟
- بالطبع. تستطيع أن تعتمد عليّ دائماً، يا ماركوس. لا تنسَ
ذلك أبداً. أنا وأنت فريق، مدى الحياة.

مكتبة

t.me/soramnqraa

البحث عن فتاة في الخامسة عشرة

(أورورا، نيو هامبشير، 1-18 سبتمبر 1975)

«هاري... كيف يمكننا نقل مشاعر لم نعشها؟

- هذا عملك تحديداً ككاتب. فأن تكتب يعني أن تكون قادراً على الشعور أكثر من غيرك، ثم نقل هذا الشعور لاحقاً. أن تكتب يعني السماح لقرائك أن يرون ما لا يستطيعون رؤيته أحياناً. فإذا كان الأيتام لا يحكون سوى قصص عن الأيتام، فسيكون الأمر سخيلاً. سيعني ذلك أنك لن تستطيع الكتابة عن أب، أو أم، أو كلب، أو طيار، أو عن الثورة الروسية، لأنك لست أباً، ولا أمّاً، ولا كلباً، ولا طياراً، وأنت لم تشهد الثورة الروسية. أنت لست إلا ماركوس غولدلمان. وإذا قيّد كل كاتب نفسه بهويته، لكان الأدب أمراً حزيناً ولفقد كل معناه. يحق لنا أن نتحدث عن كل شيء، يا ماركوس، عن كل ما يمسنا، ولا يحق لأحد أن يصدر الأحكام علينا حيال ذلك. نحن كُتّاب لأننا نقوم على نحوٍ مختلف بشيء يستطيع الجميع من حولنا فعله: الكتابة. هنا تكمن رهافة المهنة».

اعتقد الجميع أنهم رأوا نولا في لحظة أو في أخرى: في المتجر الرئيسي لبلدة مجاورة، في موقف الحافلات، عند منضدة مطعم. بعد أسبوع من اختفائها، وفي حين كانت عمليات البحث مستمرة، واجه رجال الشرطة عدداً كبيراً من الإفادات الخاطئة. في مقاطعة تشيشاير، توقف عرض لفيلم في السينما لأن أحد الحضور اعتقد أنه رأى نولا كيلرغان جالسة في الصف الثالث. وفي أرجاء مانشستر، اقتيد أب كان يصطحب ابنته الشقراء البالغة من العمر خمسة عشر عاماً إلى مركز الشرطة للتأكد من هويتها.

وعلى الرغم من تكثيفها، بقيت عمليات البحث من دون جدوى: لقد سمح تجنيد سكان أورورا بتوسيع عمليات البحث لتشمل المدن المجاورة، لكنها لم تحرز أي تقدم. كما وصل خبراء من مكتب التحقيقات الفيدرالي لتعزيز عمل الشرطة المحلية، وحددوا الأماكن التي ينبغي تمشيها أولاً وفقاً للتجربة والإحصائيات: المجاري المائية، ومداخل الغابات القريبة من مواقف السيارات، ومكبات النفايات. وقد بدت لهم القضية معقدة لدرجة أنهم استعانوا بوسيط روحاني كان قد حقق نجاحات في جريمتي قتل في أوريغون، لكن دون جدوى هذه المرة.

كانت مدينة أورورا تغلي، إذ اجتاحتها الصحافيون والمتطفلون من

كل مكان. وفي الشارع الرئيسي، كان مركز الشرطة يعج بنشاط مكثف: كانت منه تدار عمليات البحث، وفيه تُجمع وتُفرز المعلومات. لم تكن الهواتف تكف عن الرنين، غالباً بلا فائدة، وكانت كل مكالمات تستدعي التأكد منها مطولاً. تم التحقق من بعض الخيوط في ولايتي مين وماساتشوستس، حيث أرسلت فرق متخصصة وكلاب بوليسية، لكن دون نتيجة تذكر، وشيئاً فشيئاً، بدت التصريحات التي أدلى بها الرئيس برات والنقيب روديك للصحافيين مرتين في اليوم أمام مدخل مركز الشرطة أشبه باعتراف بالعجز.

كما أن أوروبا كانت محل مراقبة سرية، إذ كان ضباط فيدراليون متخفون وسط الصحافيين الذين أتوا من كل الولاية لتغطية الحدث يراقبون محيط منزل آل كيلرغان، ووضعوا هواتفهم تحت المراقبة. فإذا كان ذلك اختطافاً، كان الخاطف سيظهر، سيتصل أو يختلط بالناس الذين يأتون إلى تراس أفينيو لوضع رسائل دعم. وإذا لم يكن الأمر متعلقاً بفدية بل بمريض نفسي كما خشي البعض، فكان لا بد أن يقبضوا عليه في أسرع وقت قبل أن يعيد الكرة.

أبدى السكان تضامناً جميلاً: مشط الرجال المروج والغابات لساعات طويلة، كما فتشوا المجاري المائية. أخذ روبرت كوين يومي إجازة ليشارك في عمليات البحث، كما ترك إرني بينكاس المصنع قبل موعد الإغلاق بساعة، بموافقة من رئيسه، ليلحق بفرق البحث من فترة نهاية بعد الظهر حتى حلول الليل. وفي مطبخ كلاركس، أعدت تمارا كوين، وإيمي برات، وغيرهما من المتطوعات وجبات سريعة للمتطوعين. لم يكن لهن حديث إلا عن التحقيق.

- لدي معلومات! كررت تمارا. معلومات هامة!

- ماذا؟ ماذا؟ احكي لنا! قالت النساء بحماس وهنّ يحضرن

الساندويتشات.

- لا يمكنني إخباركن... فالأمر خطير للغاية.

فروت كلٌ منهن قصتها الصغيرة: لطالما شك الناس بأن هناك أمراً مريباً يجري في المنزل الكائن في 245 تراس أفينيو، وأنه من غير المستغرب ما آلت إليه الأمور. فقالت الأم فيليبس، والددة أحد زملاء نولا في المدرسة، إن أحد التلاميذ رفع أثناء الاستراحة قميص نولا على سبيل المزاح فرأى زملاؤها كدمات على جسد الصغيرة. كما حكّت الأم هاتاواي أن ابنتها نانسي كانت صديقة مقربة لنولا، وأنه جرت في الصيف سلسلة من الأحداث الغريبة، من بينها اختفاء نولا لأسبوع كامل، ظل فيه باب منزل آل كيلرغان مغلقاً في وجه الزائرين. «وتلك الموسيقى! أضافت السيدة كيلرغان. كنت أسمع كل يوم تلك الموسيقى الصاخبة تنبعث من المرآب، وأستغرب هذه الرغبة في صم أذان الحي بأكمله. كان عليّ أن أشتكي، لكنني لم أجروّ أبداً. قلت لنفسي... إنه الكاهن...».



الاثنين 8 سبتمبر 1975

كانت الساعة الثانية عشرة ظهراً تقريباً. كان هاري ينتظر في غوز كوف، والأسئلة ذاتها تدور في رأسه: ماذا حدث؟ ماذا جرى لها؟ أين قد تكون نولا؟ لماذا لم يعثر رجال الشرطة على أي أثر لها؟ مر أسبوع كامل وهو منعزل في منزله ينتظرها. كان ينام على أريكة غرفة المعيشة، منتبهاً لأدنى صوت يسمعه. لم يعد يأكل. شعر بأنه يفقد صوابه. كلما فكر في الأمر، ترددت نفس الفكرة: ماذا لو كانت نولا قد شوشت الخيوط المؤدية إليها؟ ماذا لو كانت افتعلت ذلك الاعتداء؟ بقع حمراء على وجهها وصرخات ليبدو الأمر وكأنه اختطاف: وفيما كانت الشرطة تبحث عنها في أورورا، كان بإمكانها الذهاب بعيداً والاستقرار في كندا بكل سهولة. وسرعان ما يظنونها ميتة ولم يعد يبحث عنها أحد. هل دبرت نولا كل هذه

المسرحية كي يعيش مرتاحين مدى الحياة؟ إذا كان الأمر كذلك، فلماذا لم تأت إلى الفندق في الموعد المحدد؟ هل وصلت الشرطة أسرع من المتوقع؟ هل اضطرت أن تختبئ في الغابة؟ وما الذي حدث عند ديورا كوبر؟ هل كانت هنالك علاقة بين الحادثين أم أنها مجرد مصادفة؟ وإذا لم تكن نولا قد اختطفت، فلماذا لم تتواصل معه حتى الآن؟ لماذا لم تلجئ إلى غوز كوف؟ كان يجبر نفسه على التفكير: أين يمكن أن تكون؟ في مكان يعرفه كلاهما فقط. مارثاز فينيارد؟ إنه بعيد جداً. ذكّرت العلبة الحديدية البيضاء في المطبخ برحلتها في مين في بداية علاقتهما. هل كانت مختبئة في روكلاندا؟ حالما خطرت له هذه الفكرة، التقط مفاتيح سيارته وهرع إلى الخارج. وهو يدفع الباب، ظهرت في وجهه جيني، على وشك أن تفرج الجرس. جاءت لترى ما إذا كان كل شيء على ما يرام، فقد مر وقت طويل منذ أن رأيته، فشعرت بالقلق. بدا لها في حالة يرثى لها: كان قد فقد بعض الوزن ويرتدي البدلة نفسها التي رأيته فيها في كلاركس قبل أسبوع.

- هاري، ما الذي حدث لك؟ سألته.

- إني أنتظر.

- ماذا تنتظر؟

- نولا.

لم تفهم، فقالت:

- آه نعم، يا لها من قصة فظيعة! الجميع في المدينة مشدوهون.

لقد مر أسبوع وما من إشارة. ما من أثر. هاري... تبدو بحالة مزرية، أنا قلقة بشأنك. هل أكلت؟ سأوضح لك الحمام وأجهز لك شيئاً لتأكله.

لم يكن لديه وقت ليضيعه مع جيني. كان عليه أن يعرف المكان الذي تختبئ فيه نولا. أبعداها عن طريقه بشيء من العجلة ونزل السلالم الخشبية المؤدية إلى المرآب وركب في سيارته.

- لا أريد شيئاً، قال لها ببساطة من الشباك المفتوح. أنا مشغول جداً ولا ينبغي أن يزعجني أحد.
- مشغول بماذا؟ سألت جيني بحزن.
- بالانتظار.

أدار محرك السيارة واختفى خلف صف من أشجار الصنوبر، فجلست جيني على سلالم الفناء الأمامي وراحت تبكي. كلما أحبته أكثر، شعرت بتعاسة أكبر.

في نفس اللحظة، دخل ترافيس داون مطعم كلاركس حاملاً باقة من الزهور. لم يرها منذ أيام، منذ الاختفاء. كان قد قضى الصباح في الغابة مع فرق البحث، ثم عندما ركب سيارة الدورية، رأى الزهور على الأرضية. كانت قد ذبلت قليلاً، إلا أنه شع برغبة ملحة في أن يحملها إلى جيني على الفور. كما لو أن الحياة قصيرة جداً. لكنها لم تكن موجودة في كلاركس.

جلس عند المنضدة فتوجهت نحوه تماراً فوراً كما كان الحال مؤخراً، كلما رأت زي شرطة.

- كيف تجري عمليات البحث؟ سألته بنبرة أم قلقة.
- لم نعر على شيء، يا سيدة كوين، لا شيء على الإطلاق.
- تنهدت وتأملت التقاسيم المنهكة للشرطي الشاب.
- هل تناولت غداءك، يا بني؟
- اممم... لا، يا سيدة كوين. في الواقع، كنت أرغب في رؤية

جيني.

- لقد خرجت لبعض الوقت.
- قدمت له كوباً من الشاي المثلج ووضعت أمامه مفرشاً ورقياً وشوكة وسكيناً، ثم لاحظت الزهور فسألته:
- أهذه من أجلها؟

- نعم يا سيدة كوين. وددت أن أطمئن أنها بخير. بعد كل ما جرى في الأيام الأخيرة...
- لن تتأخر أكثر من ذلك. لقد طلبتُ منها أن تعود قبل موعد تقديم الغداء لكنها تأخرت بطبيعة الحال... هذا الرجل سيُفقدُها عقلها...
- من هو؟ سأل ترافيس وقلبه ينقبض.
- هاري كبير.
- هاري كبير؟
- أنا واثقة أنها ذهبت إليه. لا أعلم ما الذي يجعلها تتوحد إلى هذا الوغد! على أية حال، لا ينبغي أن أتحدث معك في هذه الأمور. طبق اليوم هو سمك القد مع البطاطس المقلية...
- هذا رائع، يا سيدة كوين. شكراً لك.
- ربتت بيدها على كتفه على نحو ودي.
- أنت فتى طيب، يا ترافيس. وسأكون سعيدة إن حظيت ابنتي جيني بشخص مثلك.
- انصرفت إلى المطبخ وأخذ ترافيس يحتسي شايه المثلج. كان حزيناً.
- وصلت جيني بعد بضع دقائق. كانت قد أعادت وضع مستحضرات التجميل على عجل حتى لا يلاحظ أحد أنها بكّت. تسللت إلى وراء المنضدة، عقدت مئزرها، ثم لاحظت وجود ترافيس. ابتسم ومد لها باقة الزهور الذابلة.
- أعلم أنها لا تبدُ جميلة، قال معترفاً، لكن كان من المفترض أن أقدمها لك منذ عدة أيام. قلت لنفسِي إن البادرة هي التي تهم.
- شكراً، يا ترافيس.
- إنها زهور برية. أعرف مكاناً بالقرب من مونتيري حيث تنبت

- بكثرة. سأصطحبك إلى هناك إذا أردت. هل أنت بخير، يا جيني؟ لا تبدين على ما يرام. . .
- أنا بخير. . .
- هذه القصة الفظيعة هي التي تحزنك، أليس كذلك؟ هل أنت خائفة؟ لا تقلقي، فالشرطة في كل مكان الآن. ثم إني واثق أننا سنجد نولا.
- أنا لست خائفة. إنه أمر آخر.
- ما هو؟
- لا يهم.
- أهو بسبب هاري كبير؟ لقد أخبرتني والدتك أنك معجبة به.
- ربما. دعك من ذلك، يا ترافيس، فهو ليس بالأمر المهم.
- يجب. . . يجب أن أذهب إلى المطبخ، فأنا متأخرة وأمي ستوبخني من جديد.
- دفعت جيني الباب ودخلت المطبخ، وإذا بأمها هناك ترتب الصحون.
- لقد تأخرت مجدداً، يا جيني! أنا وحدي في الصالة، مع كل هذا الزحام.
- آسفة، يا أمي. . .
- ناولتها تماراً طبقاً من سمك القد والبطاطس المقلية.
- خذي هذا لترافيس، هيا.
- حاضر، يا أمي.
- أتعلمين، إنه شاب لطيف.
- أعلم ذلك. . .
- استدعيه إلى الغداء في المنزل يوم الأحد.
- إلى الغداء في المنزل؟ لا يا أمي، أنا لا أرغب في ذلك. إنه

لا يعجبني إطلاقاً. وسيجعله ذلك يتوهم أشياء، وهذا لن يكون لطيفاً مني.

- لا تجادلني! لم تقولي شيئاً من هذا حين وجدت نفسك وحدك قبل الحفل الراقص وجاء هو ليدعوك! هو معجب بك جداً، هذا واضح، وسيكون زوجاً مناسباً. انسي أمر كبير، بحق الجحيم! لن يكون هناك كبير! افهمي ذلك! كبير ليس رجلاً صالحاً! حان الوقت لأن تعثري على زوج، واشكري الله أن شاباً وسيماً مثله يغازلك رغم أنك ترتدين مئزراً طوال النهار.

- أمي!

افتعلت تمارا نبرة صوت حادة وغبية وراحت تقلد زمجرة الأطفال:

- أمي! أمي! كفي عن نحيب الأطفال هذا! ستبلغين الخامسة والعشرين قريباً! أتريدان أن تصبحي عانساً؟ كل صديقاتك تزوجن! وأنت؟ هه؟ كنت ملكة المدرسة الثانوية، فما الذي حدث بحق المسيح؟ كم أنا خائبة الأمل، يا ابنتي، خائبة الأمل فيك. سنتناول الغداء مع ترافيس يوم الأحد، انتهى الأمر. ستأخذين له هذا الطبق وتدعيه. وستنظفين الطاولة المقززة في الجزء الخلفي من الصالة، كي تتعلمي ألا تتأخري مرة أخرى!

*

الأربعاء 10 سبتمبر 1975

- أنفهمني يا دكتور، هناك ذلك الشرطي الجذاب الذي يغازلها. طلبتُ منها أن تدعوه إلى الغداء يوم الأحد. لم تكن ترغب في ذلك، لكنني أجبرتها.

- ولماذا أجبرتها، يا سيدة كوين؟

- هزت تمارا كتفها وتركت رأسها يسقط بكل وزنه على مسند الأريكة. منحت نفسها لحظة لتفكر.
- لأنني... لأنني لا أريد أن ينتهي بها المطاف وحيدة.
 - أنت تخشين أن تبقى ابنتك وحيدة مدى الحياة، إذاً.
 - نعم! تماماً! مدى الحياة!
 - وأنت، هل تخشين الوحدة؟
 - نعم.
 - ماذا تعني لك؟
 - الوحدة هي الموت.
 - وهل تخشين الموت؟
 - الموت، يا دكتور، يرعبني.

*

الأحد 14 سبتمبر 1975

انهالت الأسئلة على ترافيس حول مائدة آل كوين. أرادت تمارا أن تعرف كل شيء عن هذا التحقيق الذي لا يتقدم. وكان لدى روبرت بعض الغرائب ليشاركها، لكن في المرات القليلة التي تحدث فيها، أسكتته زوجته قائلة: «اسكت يا بوبو، هذا مضر لك كشخص مصاب بالسرطان». أما جيني، فبدت حزينة وبالكاد لمست طعامها. وحدها أمها احتكرت الحديث، لتتجراً أن تسأل أخيراً، وهي تقطع كعكة التفاح:

- هل لديكم قائمة من المشتبهين بهم، يا ترافيس؟
- في الحقيقة، ما زلنا نتخبط قليلاً في الوقت الراهن. إنه لجنون ألا يكون هناك أي دليل على الإطلاق.
- هل هاري كبير مشتبه فيه؟ سألت تمارا.
- أمي! اعترضت جيني.

- ماذا؟ ما عدتُ أجروُ على طرح سؤال في هذا المنزل؟ إذا كنتُ قد ذكرت اسمه، فهذا لأن لديّ أسباباً وجيهة لفعل ذلك، فهو شخص منحرف. منحرف، يا ترافيس! وإذا كان متورطاً في اختفاء تلك الصغيرة، فلن أفتاجاً على الإطلاق.

- ما تقولينه خطير، يا سيدة كوين، أجابها ترافيس. فلا يمكن قول كلام كهذا دون أدلة.

- كان لديّ دليل! صرخت وهي تستشيط غضباً. بل كانت لديّ ورقة مكتوبة بخط يده تدينه بقوة، في خزنتي، في المطعم! وأنا الوحيدة التي لديها المفتاح! أتعلم أين أحتفظ بالمفتاح؟ حول رقبتني! ولا أخلعه أبداً! أبداً! وأردت أن أفتح الخزانة ذات مرة لآخذ تلك الورقة اللعينة وأعطيها للرئيس برات، فلم تكن هناك! لم تكن في الخزانة! كيف يمكن ذلك؟ لا أدري! لقد اختفت بسحر ساحر!

- قد تكونين وضعتها في مكان آخر، قالت جيني.

- اخرسي، يا ابنتي. أنا لست مجنونة! هل أنا مجنونة، يا بوبو؟ هز روبرت رأسه بحركة لا تعني نعم ولا لا، ما أغضب زوجته أكثر.

- لماذا لا تجيب حين أسألك سؤالاً، يا بوبو؟

- بسبب السرطان، قال المسكين.

- حسناً، لن تأخذ الكعكة. فالطبيب قال إن الحلوى يمكن أن تنهي حياتك على الفور!

- لكنني لم أسمع الطبيب يقول ذلك، اعترض روبرت.

- أرايت! لقد جعلك السرطان أصم. ستنضمّ إلى الملائكة في غضون شهرين، يا بوبي المسكين.

حاول ترافيس أن يهدئ من التوتر بمواصلة الحديث:

- على أية حال، إذا لم يكن لديك دليل، فلن يجدي ذلك.

فتحقيقات الشرطة هي عمليات دقيقة وعلمية. وأنا أعلم ذلك جيداً،
فكنت الأول على الدفعة في أكاديمية الشرطة.
كان مجرد التفكير في أنها فقدت الورقة التي من شأنها أن تقضي
على هاري يجعل تمارا تستشيط غضباً. ولتهدئ نفسها، أخذت تقطع
كعكة التفاح بحركات حربية، فيما كان بوبو يبكي لأنه لم يكن يرغب
في أن يموت.

*

الأربعاء 17 سبتمبر 1975

استحوذ البحث عن الورقة المفقودة على فكر تمارا. قضت يومين
كاملين في البحث عنها في منزلها، وسيارتها، وحتى المرآب الذي لم
تكن تدخله أبداً. دون جدوى. في ذلك الصباح، وبعد تقديم الإفطار
في مطعم كلاركس، أغلقت على نفسها في مكتبها، فتحت الخزانة،
ووضعت محتوياتها على الأرض: كانت الوحيدة التي يمكنها فتح تلك
الخزانة، فلا يمكن أن تكون ضاعت الورقة. لا بد أن تكون هناك.
تأكدت من محتوياتها مجدداً، لكن من دون جدوى. أعادت الأشياء
إلى مكانها، مشدوّهة. في تلك اللحظة، طرقت جيني الباب وأطلّت
برأسها، فرأت أمها غارقة في العلبة الحديدية.

- ماذا تفعلين، يا أمي؟
- أنا مشغولة.
- أوه يا أمي، لا تقولي إنك تبحثين عن قصاصة الورق اللعينة
هذه؟

- اذهبي وحضّري السَّلَطات، يا ابنتي. كم الساعة؟
- الثامنة والنصف تقريباً.
- اللعنة! لقد تأخرت.
- عماذا؟

- لديّ موعد .

- موعد؟ لكن علينا أن نستقبل المشروبات اليوم . فالأربعاء الماضي . . .

- أنت فتاة كبيرة الآن ، ألا تعتقدين؟ قاطعتها أمها بحدة . لديك ذراعان وتعلمين أين تُخزّن المشروبات . فلست بحاجة إلى شهادة من هارفارد لتكدسي صناديق الكوكا كولا الواحدة فوق الأخرى ! أنا واثقة أنك ستقومين بالأمر على أكمل وجه . ولا تُظهري الغنج والدلال لعامل التوصيل كي يقوم بذلك بدلاً منك ! حان الوقت لأن تشمري عن ساعديك !

ثم التقطت تمارا مفاتيح سيارتها وخرجت دون أن تلقي ولو نظرة إلى ابنتها . وبعد ذلك بنصف ساعة ، توقفت شاحنة ضخمة خلف مطعم كلاركس ووضع عامل التوصيل شحنة ثقيلة من صناديق الكوكا كولا أمام مدخل الموظفين .

- هل تحتاجين المساعدة؟ سألها بعد أن وقّعت إيصال الاستلام .

- لا ، شكراً سيدي . أُمي تريدني أن أعتمد على نفسي .

- كما تشائين . يوماً سعيداً إذاً .

انطلقت الشاحنة وراحت جيني تحمل الصناديق الثقيلة الواحدة تلو الأخرى وتضعها في المخزن . شعرت برغبة في البكاء . وفي تلك اللحظة ، رآها ترافيس وهو يمر بسيارة الدورية ، فركن السيارة على الفور وترجل منها .

- هل أنت بحاجة إلى المساعدة؟ سألها .

هزت كتفها .

- لا عليك . لا بد أن لديك الكثير لتقوم به ، ردت دون أن تتوقف عن العمل .

حمل أحد الصناديق وحاول الاسترسال في الحديث معها .

- يقال إن وصفة الكوكا كولا سرية وإنها محفوظة في خزانة في
أتلانتا.

- لم أكن أعلم ذلك.

تبع جيني إلى المخزن ووضعها الصندوقين اللذين حملهما الواحد
فوق الآخر، وبما أنها لم تتكلم، واصل هو شرحه:

- يبدو أيضاً أن لدى الكوكا كولا تأثيراً إيجابياً على مزاج
الجنود. فمِنذ الحرب العالمية الثانية، يرسلونها بالصناديق للقوات
المتحركة خارج البلاد. لقد قرأتُ ذلك في كتاب عن الكوكا كولا.
أعني، قرأت ذلك من باب التسلية، فأنا أقرأ كتباً أكثر جدية أيضاً.
عادة إلى موقف السيارات. ركزت نظرها في عينيه.

- ترافيس...

- نعم، يا جيني؟

- ضمّني بقوة. خذني بين ذراعيك وضمّني بقوة! أشعر بأنني
وحيدة جداً! أشعر بأنني حزينة جداً! أشعر بالبرد حتى أعماق قلبي.
أخذها بين ذراعيه وضمّها بكل ما استطاع من قوة.

- ها هي ذي ابنتي تطرح عليّ الأسئلة، يا دكتور. لقد سألتني
اليوم أين أذهب كل أربعاء.

- وبم أجبتها؟

- بأن الأمر ليس من شأنها! وأن عليها أن تستلم صناديق الكوكا
كولا.

- أرى من صوتك أنك غاضبة.

- نعم! نعم! أنا غاضبة بالتأكيد، يا دكتور أشكروفت!

- غاضبة ممن؟

- من... من... من نفسي!

- لماذا؟

- لأنني وبّختها مجدداً. أتعلم، يا دكتور، نحن ننجب الأطفال ونرغب في أن يكونوا أسعد الناس، ثم تأتي الحياة وتقف في طريقنا!
- ماذا تقصدين؟

- إنها تطلب نصيحتي في كل صغيرة وكبيرة! فهي دائماً ما تحوم حولي وتسألني: ماما، كيف أفعل هذا؟ ماما، أين أضع هذا؟ ماما، ماما، ماما! لن أبقى لها إلى الأبد. في يوم ما، لن أعود موجودة لأعتني بها، أتفهمني يا دكتور؟! وحين أفكر في ذلك، أشعر بانقباض في بطني! كما لو أن معدتي تنعقد! إنه شعور مؤلم جسدياً ويقطع الشهية!

- أتقولين إنك تعانين من نوبات قلق، يا سيدة كوين؟
- نعم! نعم! إنها نوبات قلق! نوبات رهيبة! نحن نفعل كل ما بوسعنا من أجل أطفالنا، ونحاول أن نقدّم لهم الأفضل. لكن ماذا سيفعل أطفالنا حين نرحل؟ وكيف نتأكد أنهم سيكونون سعداء وأنه لن يصيبهم مكروه؟ مثل ما حصل لتلك الفتاة، يا دكتور! نولا المسكينة تلك، ماذا حدث لها؟ وأين عساها تكون؟



أين عساها تكون؟ لم تكن في روكلاند، ولا على الشواطئ، ولا في المطاعم، ولا في المحال. لم تكن في أي مكان. اتصل بفندق مارثاز فينيارد ليسأل ما إذا كان أحد الموظفين قد رأى فتاة شقراء، لكن موظف الاستقبال الذي تحدث إليه ظنّه مجنوناً. فانتظر إذأ، كل يوم وكل ليلة.

انتظر طوال يوم الاثنين.
انتظر طوال يوم الثلاثاء.
انتظر طوال يوم الأربعاء.
انتظر طوال يوم الخميس.

انتظر طوال يوم الجمعة.

انتظر طوال يوم السبت.

انتظر طوال يوم الأحد.

انتظر بحماس وأمل: ستعود. سيرحلان معاً. سيكونان سعيدين. فهي الوحيدة التي أعطت لحياته معنى. لثُحِرَق الكتب، والمنازل، والموسيقى، والناس: لم يهمه شيء ما دامت هي معه. كان يحبها: أن يحب يعني أن لا يخشى الموت ولا الصعاب ما دامت إلى جانبه. لذا فهو كان ينتظرها. وحين كان يحل الليل، كان يحلف للنجوم أنه سينتظرها إلى الأبد.

بينما كان هاري يرفض أن يفقد الأمل، لم يكن بوسع النقيب روديك سوى ملاحظة فشل عمليات الشرطة رغم ضخامة الوسائل المستخدمة. فقد مضى الآن أكثر من أسبوعين قلبوا فيهما الأرض والسماء، من دون جدوى. وخلال اجتماع مع مكتب التحقيقات الفيدرالي والرئيس برات، أقر روديك بالنتيجة المريرة التالية:

- الكلاب لم تجد شيئاً، والرجال لم يجدوا شيئاً. أعتقد أننا لن نجدها.

- أنا أوافقك الرأي إلى حد ما، رد مسؤول مكتب التحقيقات الفيدرالي. ففي هذا النوع من الحالات، إما أن نجد الضحية فوراً، حية أو ميتة، أو يكون هناك طلب فدية. وإذا لم يحدث أيُّ من هذين الأمرين، فتتضم القضية إلى قضايا الاختفاء التي لم تُحل والتي تتكدر فوق مكاتبنا سنة تلو الأخرى. ففي الأسبوع الأخير فقط، تلقى مكتب التحقيقات الفيدرالي خمسة بلاغات عن اختفاء أطفال في مختلف أنحاء البلاد، ولا وقت لدينا لمعالجة كل الحالات.

- لكن ماذا يمكن أن يكون قد حدث لتلك الفتاة؟ سأل برات الذي لم يكن يرغب في الاستسلام. أهى حالة فرار؟

- فرار؟ لا . وإلا لماذا شوهدت وهي مرعوبة وملطخة بالدم؟
هز روديك كتفيه واقترح مسؤول مكتب التحقيقات الفيدرالي أن
يذهبا لشرب البيرة معاً .

في اليوم التالي، مساء يوم 18 سبتمبر، أثناء آخر بيان صحفي
مشترك، أعلن الرئيس برات والتقيب روديك وقف عمليات البحث عن
نولا كيلرغان، على أن يظل الملف مفتوحاً لدى الفرقة الجنائية لشرطة
الولاية. لم يكن هناك أي اشتباه أو دليل : طوال ثلاثة أسابيع، لم يتم
العثور على أي أثر لنولا كيلرغان.

واصلت فرق من المتطوعين بقيادة الرئيس برات عمليات البحث
لبضعة أسابيع إضافية، حتى حدود الولاية، لكن دون جدوى . كانت
نولا كيلرغان قد تبخرت .

مونٽ كارلو سوداء

«الكلمات مفيدة، يا ماركوس. لكن لا تكتب كي تُقرأ:
بل اكتب كي تُسمع».

كنت أتقدم في كتابي . كانت الساعات التي أقضيها في الكتابة تؤتي ثمارها شيئاً فشيئاً، وشعرت بأنني أسترجع ذلك الشعور الذي لا يوصف والذي ظننت أنني فقدته إلى الأبد . كان الأمر أشبه باسترجاعي حساً أساسياً، فقدانه جعلني لا أحسن التصرف، وكأن أحداً ما ضغط على زر في عقلي فأعاد تشغيله . كأنني عدتُ إلى الحياة . كان إحساس الكتاب .

كنت أبدأ يومي قبل الفجر: كنت أذهب لأركض وأعبر كونكورد من طرف إلى آخر وفي أذنيَّ سماعتا جهاز الموسيقى . وعند عودتي إلى غرفتي في الفندق، كنت أطلب لترّاً من القهوة وأشرع في العمل . وكان بإمكانني الاعتماد على دينيس من جديد، فكنت قد استعدتها من شמיד وهانسون، بعد أن وافقت على العودة إلى العمل في مكتبي بففت آفينيو . كنت أرسل لها الأوراق التي كتبْتُها لتحررها . وعند الانتهاء من كل فصل، كنت أرسله لدوغلاس ليبيدي رأيه فيه . كان من الممتع رؤية إلى أي حد كان مهتماً بهذا الكتاب، إذ ظل جالساً أمام شاشة حاسوبه في انتظار الفصول المقبلة . ولم يكن يفوته أن يذكرني بموعد التسليم، مردداً: «إذا لم ننجز العمل في الموعد المحدد، فسيُهدَر دمنّا!». كان يقول «نحن» في حين أنه لن يُطال إطلاقاً في المسألة، إلا أنه كان يشعر بأنه معنيٌّ بالأمر مثلي تماماً .

أعتقد أن دوغلاس كان يتعرض لضغط شديد من قبل بارناسكي وأنه كان يحاول حمايتي: كان بارناسكي يخشى ألا أنجز الكتاب في الموعد المحدد من دون مساعدة خارجية، وهو ما عبّر عنه لي عدة مرات على الهاتف.

- يجب أن تستعين بكتاب ظل لتأليف هذا الكتاب، وإلا لن تستطيع إنجازه في الموعد المحدد. لديّ فرق هنا من أجل ذلك؛ كل ما عليك فعله هو إعطاؤهم الخطوط العريضة وهم سيكتبون بدلاً منك.

- أبدأً، تأليف هذا الكتاب هو مسؤوليتي أنا ولن أدع أحداً يفعل ذلك بدلاً مني.

- أوه، يا غولدمان! أنت لا تُطابق باعتباراتك الأخلاقية ومشاعرك الطبية تلك! الجميع اليوم يعتمدون على غيرهم للكتابة! فلان، مثلاً، هو لا يرفض فرقي أبدأً!

- فلان لا يكتب كتبه بنفسه؟

ضحك ضحكته الغبية المعتادة.

- بالطبع لا! كيف تريده أن يكتب بهذه الوتيرة بحق الجحيم؟ القراء لا يريدون أن يعرفوا كيف يكتب فلان كتبه، ولا من الذي يكتبها؛ كل ما يريدونه هو أن يحصلوا على كتاب فلان الجديد في بداية الصيف كي يأخذوه معهم في إجازاتهم. ونحن نوفر لهم ذلك. هذا ما يسمى بالحس التجاري.

- بل هو ما يسمى بغش الجماهير، قلت محتداً.

- غش الجماهير... هششششش يا غولدمان، كم تبالغ في الأمور!

أصررتُ أنه من غير الممكن أن يكتب هذا الكتاب أحدٌ غيري، فنقد صبره وأصبح فظاً.

- غولدمان، أعتقد أنني أعطيتك مليون دولار من أجل هذا

الكتاب اللعين، فانتظر منك أن تكون أكثر تعاوناً. وإذا رأيت أنك بحاجة إلى كُتّابي، فسنستعين بهم!

- اهدأ يا روي، ستحصل على الكتاب في الموعد المتفق عليه، شرط ألا تقاطع عملي باتصالاتك طوال الوقت.

حينذاك أصبح بارناسكي فظاً على نحو لا يحتمل.

- بحق الجحيم يا غولدمان، أتمنى أن تكون مدركاً أن رأسي على المحك بسبب هذا الكتاب اللعين! رأسي! على المحك! لقد استثمرت مبلغاً كبيراً، وأغامر بسمعة إحدى أكبر دور النشر في البلاد! فإذا لم تسر الأمور على ما يرام، وإذا لم يكن هناك كتاب بسبب نزواتك أو أي هراء آخر، وتسبب ذلك بسقوطي، فاعلم أنني سأسقطك معي! سأسقطك إلى أسفل سافلين!

- عُلِم، يا روي، عُلِم.

بعيداً عن صفاته الإنسانية الوضيعة، كان بارناسكي بارعاً في التسويق، إذ جعل من كتابي كتاب العام حتى قبل أن يصدر، بفضل حملة إعلانية هائلة زينت جدران نيويورك بأكملها، وهي لم تكن إلا في بدايتها. فبعد حريق منزل غوز كوف بقليل، قام بتصريح رنان: «في مكانٍ ما بأمريكا، هناك كاتب يعمل على كشف حقيقة ما حدث في أورورا عام 1975. ولأن الحقيقة قد تكون مزعجة، هناك من هو مستعد لفعل أي شيء ليسكته». وفي اليوم التالي، كتبت صحيفة نيويورك تايمز مقالاً عنونته: من الذي يريد رأس ماركوس غولدمان؟ قرأته أُمي بطبيعة الحال واتصلت بي على الفور:

- ماركي بحق السماء، أين أنت؟

- في كونكورد، بفندق ريجنتس، الجناح رقم 208.

- اسكت! صاحت مذعورة. لا تخبرني! لا أريد أن أعرف!

- أُمي، أنت من سألتني...

- إذا أخبرتني لن أستطيع أن أمنع نفسي من أن أخبر الجزار،

الذي سيخبر بدوره مساعده، الذي سيخبر أمه وهي ابنة عم حارس ثانوية فيلتون فستخبره بالتأكيد وهذا الحقيقير سيخبر الناظر، الذي سيتحدث عن الأمر في غرفة الأساتذة، وسرعان ما سيعلم الجميع في مونتكليير أن ابني يقيم في الجناح رقم 208 من فندق ريجنتس بكونكور، فسيأتي من يريد رأسك ليذبحك هناك أثناء نومك. وبالمناسبة، لماذا استأجرت جناحاً؟ هل لديك حبيبة؟ هل ستزوج؟ فنادت أبي، وسمعتها تصرخ: «نيثن، تعال اسمع، ماركي سيتزوج!».

- أمي، أنا لن أتزوج، وأنا وحدي في الجناح.
حينذاك لم يجد غاهالوود، الذي كان في غرفتي حيث يطلب فطوراً، أفضل من أن يصيح بصوت عالٍ: «هيه! أنا هنا!».
- من هذا؟ سألت أمي على الفور.
- لا أحد.

- لا تقل لا أحد! لقد سمعت صوت رجل! ماركوس، سأسألك سؤالاً طيباً مهماً جداً، وعليك أن تجيب من حملتك في بطنها تسعة أشهر بصراحة: هل أنت بصحبة رجل مثلي في غرفتك؟
- لا، يا أمي. إنه الرقيب غاهالوود، هو شرطي يحقق معي ويساهم في جعل فاتورتي لدى مطعم الفندق خيالية.
- هل هو عارٍ؟

- ماذا؟ بالطبع لا! إنه شرطي، يا أمي! نحن نعمل معاً.
- شرطي...؟ هل تتصور أنني بلهاء، أسمع موسيقى خلفك...
- أمي، إنه شرطي حقيقي.
- ماركي، بحق أجدادنا وإذا كنت حقاً تحب أمك اللطيفة، اطردها الرجل العاري من غرفتك.
- لن أطرده أحداً، يا أمي.
- أوه، ماركي، لماذا تتصل بي إذاً إذا كنت ستعني!

- أنت من اتصلت بي، يا أمي.
- لأننا أنا ووالدك نخشى عليك من هذا المجرم المجنون الذي يطاردك.
- لا أحد يطاردني. الصحافة تبالغ فحسب.
- أنا أنفقد صندوق البريد كل صباح وكل مساء.
- لماذا؟
- لماذا؟ لماذا؟ إنه يسألني لماذا! في حال كانت هناك قبلة!
- لا أعتقد أن أحداً سيضع قبلة عندكما، يا أمي.
- بل سنموت بسبب قبلة! ودون أن نذوق متعة أن نكون جدّين!
- هل أنت فخور بنفسك؟ منذ بضعة أيام، تبعت سيارة سوداء ضخمة والدك حتى المنزل، فهرع إلى الداخل وركنت السيارة في الشارع بالقرب منا.
- هل اتصلتما بالشرطة؟
- طبعاً. وصلت سيارتان تشغلان صفارة الإنذار عالياً.
- ثم؟
- كانوا الجيران. أولئك الشياطين اشتروا سيارة جديدة. حتى دون أن يخبرونا. سيارة جديدة! فيما الجميع يتكلم عن أزمة اقتصادية وشيكة، هم يشترون سيارة جديدة. أليس الأمر مريباً؟ أعتقد أن الرجل يتاجر في المخدرات أو شيء من هذا القبيل.
- أمي، ما هذه الحماقات التي تقولينها؟
- أنا أعرف ما أقوله جيداً! ولا تتكلم بهذه الطريقة مع أمك المسكينة التي قد تموت في أي لحظة، بسبب قبلة. أين وصلت في كتابك؟
- إنني أتقدّم فيه على نحو جيد.
- وكيف سينتهي؟ قد يكون من قتل الفتاة هو الذي يريد قتلك.
- إنها مشكلتي الوحيدة: لا أعلم كيف سينتهي الكتاب.

بعد ظهيرة يوم 21 يوليو، دخل غاهالوود إلى جناحي بينما كنت أكتب الفصل الذي قرر فيه هاري ونولا أن يرحلا معاً إلى كندا. كان في حالة من الإثارة الشديدة، وأخذ زجاجة بييرة من ثلاجة الغرفة.

- كنت عند إلبجاه ستيرن، قال لي.

- ستيرن؟ من دوني؟

- أود أن أذكرك أن ستيرن رفع دعوى قضائية ضد كتابك.

المهم، أنا هنا لأحكي لك ما حدث...

أخبرني غاهالوود أنه ذهب إلى منزل ستيرن من دون موعد مسبق كي لا تكتسب زيارته بعداً رسمياً وأن محامي ستيرن، بو سيلفورد، محام عضو في نقابة المحامين في بوسطن، هو الذي استقبله وهو يتصبّب عرقاً ويرتدي زياً رياضياً، وقال له: «أعطني خمس دقائق، أيها الرقيب. سأستحم وأكون معك».

- يستحم؟ سألت مستغرباً.

- كما أقول لك، أيها الكاتب. كان هذا المحامي يتجول في المنزل نصف عارٍ. جلست أنتظر في غرفة المعيشة إلى أن عاد مرتدياً بدلة هذه المرة ومعه ستيرن الذي قال لي: «لقد تعرفت على رفيقي إذاً، يا حضرة الرقيب».

- رفيقه؟ كررت. هل أنت بصدد إخباري بأن ستيرن...

- مثلي، ما يعني أنه لم يشعر أبداً بأي انجذاب نحو نولا كيلرغان.

- ماذا يعني ذلك؟ سألته.

- هذا هو السؤال الذي طرحته عليه، وكان منفتحاً للنقاش.

كان ستيرن منزعجاً من كتابي، إذ كان يرى أنني لا أعرف عما أتحدث، فاغتنم غاهالوود الفرصة واقترح عليه أن يضيف بعض التوضيحات على التحقيق:

- سيد ستيرن، على ضوء ما علمته للتو بشأن... ميولك

الجنسي، هل يمكن أن تشرح لي طبيعة العلاقة التي ربطت بينك وبين نولا؟

- لقد قلت لك منذ البداية، أجب ستيرن من دون موارد. كانت علاقة عمل.

- علاقة عمل؟

- أي أن يقدم لك شخص ما خدمات معينة وأن تدفع له مقابل ذلك. هي كانت تأتي إلى هنا لكي تُرسم.

- إذاً كانت نولا تأتي إلى هنا لكي تُرسم حقاً؟

- نعم، لكن لم تفعل ذلك من أجلي.

- من أجل من إذاً؟

- من أجل لوثر كاليب.

- من أجل لوثر؟ لماذا؟

- لمتعته الخاصة.

كان المشهد الذي حكاه لي ستيرن قد حدث ذات مساء من شهر يوليو 1975. لم يتذكر ستيرن التاريخ بالضبط، إلا أنه كان في أواخر الشهر. وبحسب استنتاجاتي، حصل ذلك مباشرة قبل رحلة مارثاز فينيارد.

*

كونكورد، أواخر شهر يوليو 1975

كان الوقت متأخراً. كان ستيرن ولوثر وحدهما في المنزل يلعبان الشطرنج على الشرفة. رن جرس الباب فجأة، فتساءلا عن يمكن أن يأتي في مثل هذه الساعة. ذهب لوثر ليفتح الباب وعاد إلى الشرفة وبصحبه فتاة شقراء رائعة الجمال، عيناها حمراوان من فرط البكاء. نولا.

- مساء الخير، يا سيد ستيرن، قالت نولا بخجل. أرجوك أن

تعذرني على مجيئي المفاجئ. اسمي نولا كيلرغان وأنا ابنة كاهن مدينة أورورا.

- أورورا؟ أنت جئت إلى هنا من أورورا؟ كيف وصلت إلى هنا؟
- استوقفت سيارة على الطريق، يا سيد ستيرن. كان لا بد لي أن آتي لأحدث إليك.
- هل نعرف أحدنا الآخر؟

- لا، يا سيدي، لكن لدي طلب على درجة كبيرة من الأهمية.
تأمل ستيرن تلك المرأة الصغيرة ذات العينين البراقنتين لكن الحزينتين التي جاءت إليه مساءً لطلب على درجة كبيرة من الأهمية: أجلسها على مقعد وثير وأحضر لها لوثر كأساً من الليمونادا وبسكويتاً.
- إني أسمعك، قال لها مستمتعاً بالمشهد، بعد أن شربت الليمونادا دفعة واحدة. ما هو الشيء المهم الذي تريد أن تطلبه مني؟

- مرة أخرى، يا سيد ستيرن، أرجو أن تعذرني على مجيئي في مثل هذه الساعة. لكنه أمر طارئ. جئت إليك بكل سرية لأطلب منك... أن توظفني.

- أوظفك؟ أوظفك... لفعل ماذا؟
- لفعل ما ترغب فيه، يا سيدي. سأفعل أي شيء تطلبه مني.
- أوظفك؟ كرر ستيرن. لماذا؟ هل أنت بحاجة إلى المال، يا صغيرتي؟

- في المقابل، أود أن تسمح لهاري كبير أن يبقى في غوز كوف.
- هل سيغادر هاري كبير غوز كوف؟
- حالته المادية لا تسمح له بأن يبقى. لقد أبلغ الوكالة العقارية بذلك. هو لا يستطيع دفع إيجار شهر أغسطس، لكنه يجب أن يبقى! من أجل الكتاب الذي شرع في تأليفه لتوه وأشعر أنه سيكون كتاباً رائعاً! وإذا رحل، فلن يكمله أبداً، وستتوقف مسيرته الأدبية! ستكون

خسارة كبيرة، يا سيدي، خسارة كبيرة! وهناك قصتنا أيضاً، أنا وهو! أنا أحبه، يا سيد ستيرن، أحبه كما لن أحب سوى مرة واحدة في حياتي! أعلم أن هذا سيبدو لك سخيفاً، كوني في الخامسة عشرة من عمري ولا أعرف شيئاً عن الحياة. قد أكون لا أعرف شيئاً عن الحياة، يا سيد ستيرن، لكنني أعرف قلبي! ومن دون هاري، أنا لا شيء.

ضمّت يديها لتتوسل إليه فسألها ستيرن:

- ماذا تنتظرين مني؟

- أنا لا أملك المال، وإلا لكنتُ سدّدتُ قيمة الإيجار ليبقي هاري في المنزل، لكن يمكنك أن توظفني! سأعمل لديك مدّة تكفي لأسدّد إيجار المنزل لبضعة أشهر إضافية.

- لدي ما يكفي من الموظفين في المنزل.

- سأفعل كل ما تريد. أو اسمح لي أن أسدّد لك الإيجار شيئاً فشيئاً: لديّ 120 دولاراً! (أخرجت الأوراق المالية من جيبها) هذا مجموع ادخاراتي. أنا أعمل في مطعم كلاركس أيام السبت، وسأعمل حتى أسدّد لك المبلغ بالكامل!

- كم تكسبين هناك؟

- دولارين في الساعة! بالإضافة إلى البقشيش! أجابت بفخر.

ابتسم ستيرن، متأثراً بطلبها. تأمل نولا بعنان: في الواقع، لم يكن بحاجة إلى قيمة إيجار منزل غوز كوف، وكان بإمكانه أن يترك كبير يستفيد من المنزل لبضع أشهر إضافية. هنا، طلب منه لوثر أن يتحدث إليه على انفراد، فذهبا إلى الغرفة المجاورة.

- إلي، قال كاليب، أرغب في أن أرسمها، أرفوك... أرفوك.

- لا، يا لوثر، لا، ليس مجدداً!

- أتوفل إليك... دعني أرفمها... لم أفعل ذلك منق وقت

طويل...

- لماذا؟ لماذا هي؟
- لأنها تذكرني بإليانور.
- إليانور من جديد! كفى! يجب أن تتوقف عن هذا الآن!
- بدأ ستيرن بالرفض، لكن لوثر أصر طويلاً، فاستسلم ستيرن في نهاية المطاف. عاد إلى الشرفة حيث كانت نولا تنقب في طبق البسكويت.
- نولا، لقد فكرت. أنا مستعد أن أترك هاري كبير في المنزل للفترة التي يريد لها.
- قفزت وعانقته بتلقائية.
- أوه، شكراً، شكراً، يا سيد ستيرن.
- لحظة، هنالك شرط...
- بالتأكيد! أيّ ما تريد، أنت طيب جداً، يا سيد ستيرن!
- ستكونين مودياً للوحة. لوثر من سيرسمك. ستجلسين عارية وهو سيرسمك.
- عارية؟ هل تريد أن أجلس عارية تماماً؟
- نعم، لكن من أجل الرسم فقط. لن يمسك أحد.
- لكن يا سيدي، أن أتعرى أمر محرج جداً... أقصد...
- (راحت تبكي). كنت أفكر في أداء بعض المهام الصغيرة مثل الاعتناء بالحديقة أو ترتيب المكتبة. لم أفكر في أنني... لم أفكر في هذا أبداً.
- مسحت خديها. حدّق ستيرن في تلك المرأة الصغيرة المليئة بالعدوبة التي كان يجبرها على التعري. تمنى أن يأخذها بين ذراعيه، لكن لم يكن ينبغي أن يترك مشاعره تتحكم به.
- إنه الثمن الذي أطلبه، قال بجفاء. أنت تجلسين عارية لغرض الرسم، وهاري يبقى في المنزل.
- أومأت برأسها.

- سأفعل، يا سيد ستيرن. سأفعل كل ما تريد. من الآن فصاعداً، أنا ملكك.

*

بعد مرور ثلاثة وثلاثين عاماً على هذا المشهد، شاعراً بالذنب لما فعل وكأنه يطلب التكفير عن ذنبه، اصطحب ستيرن غاهالوود إلى شرفة منزله، حيث أجبر نولا على الجلوس عارية بناء على طلب سائقه، إذا كانت تريد أن يبقى حب حياتها في أورورا.

- هكذا دخلت نولا حياتي، قال له. في اليوم الذي تلا زيارتها، حاولتُ الاتصال بكبير لأخبره بأنه يستطيع البقاء في غوز كوف، إلا أنني لم أستطع الوصول إليه. لم أعثر عليه مدة أسبوع كامل، حتى أنني طلبت من لوثر الذهاب والبقاء أمام المنزل لانتظاره، وتمكّن في النهاية من اللحاق به وهو في طريقه لمغادرة أورورا.

سأله غاهالوود حينذاك:

- لكن ألم يبدُ لك طلب نولا هذا غريباً؟ أو مسألة أن فتاة في الخامسة عشرة تعيش قصة حب مع رجل تجاوز الثلاثين وتأتي لتطلب منك معروفاً من أجله؟

- أتعلم، أيها الرقيب، لقد تحدثتُ عن الحب على نحو رائع... حتى أنني أنا نفسي لا أستطيع وصفه بتلك الكلمات. ثم إنني مثليّ. فهل لديك فكرة كيف كان يُنظر إلى المثلية في ذلك الوقت؟ بل الآن أيضاً... والدليل على ذلك أنني أخفي الأمر حتى الآن. لدرجة أنه حين أعلن غولدمان أنني ساديّ عجوز ولمّح أنني استغللت نولا، لم أجروء على قول شيء، بل أرسلت محاميّ إلى الجبهة، ورفعت دعوى قضائية، وحاولت منع صدور الكتاب، إلا أنه كان يكفي أن أخبر أمريكا أنني أنتمي إلى الطرف الآخر. لكن مواطنينا ما زالوا محافظين، ولديّ سمعة لأحافظ عليها.

أعاد غاهالوود الحديث إلى مساره الأساسي .

- كيف كان يتم اتفاقك مع نولا؟

- كان لوثر يتدبر أمر إحضارها من أورورا، إذ أخبرته بأنني لا أريد أن يكون لي علاقة بذلك . أصررت على أن يستخدم سيارته الخاصة، موستانغ زرقاء، وليس سيارة اللينكولن السوداء الخاصة بالعمل . وحين كنت أراه يذهب إلى أورورا، كنت أصرف كل العاملين في المنزل، إذ لم أكن أرغب في أن يعلم أحد بالأمر . كنت أشعر بخجل شديد . كما أنني رفضت أن يتم ذلك في الشرفة التي كان لوثر يستخدمها كمرسم، خشية أن يراه أحد، لذا كانت نولا تجلس في غرفة صغيرة مجاورة لمكتبي . كنت أدخل لأحييها حين تصل وقبل أن تغادر . كان هذا شرطي مع لوثر: أن أتأكد بنفسني أن الأمور تسير على ما يرام، أو لنقل، لا تسير على نحوٍ سيئ . أذكر جيداً أنها في المرة الأولى، كانت جالسة على أريكة مغطاة بملاءة بيضاء . كانت عارية، ومرتعشة، ومحرجة، ومرعوبة . صافحتها وإذا بيدها مثلجة . لم أبقَ في الغرفة أبداً، لكنني كنت دائماً على مقربة لأتأكد من سلامتها . بل وأخفيت بعد ذلك جهاز اتصال داخلي أستطيع من خلاله أن أستمع إلى ما يدور هناك .

- وماذا سمعت؟

- لا شيء . لم يكن لوثر ينطق بكلمة . كان قليل الكلام بطبيعته، وذلك بسبب فكه المكسور . كان يرسمها فحسب . هذا كل ما في الأمر .

- هو لم يلمسها إذًا؟

- أبداً! قلت لك ذلك، لم أكن لأسمح بذلك أبداً .

- كم من مرة أتت نولا إلى هنا؟

- لا أدري، حوالي عشر مرات .

- وكم من لوحة رسم؟

- واحدة فقط .

- تلك التي قمنا بمصادرتها؟

- نعم .

لقد بقي هاري في أورورا بفضل نولا إذاً . لكن لماذا شعر لوثر كاليب برغبة في أن يرسمها؟ ولماذا استسلم ستيرن، الذي كان مستعداً أن يترك هاري في المنزل دون مقابل، لرغبة كاليب وأجبر نولا على أن تجلس عارية للرسم؟ كانت هذه أسئلة لم يكن لدى غاهالوود إجابة عليها .

- لقد سألته، قال لي غاهالوود . «سيد ستيرن، هناك أمر لم أفهمه: لماذا أراد لوثر أن يرسم نولا؟ لقد قلت منذ قليل إنه فعل ذلك من أجل متعته الخاصة: هل تقصد أن هذا كان يحقق له متعة جنسية؟ كما أنك أشرت إلى إيلانور، هل هي حبيبته السابقة؟»، لكنه أغلق الموضوع وقال إنها قصة معقدة وإنني عرفت ما كنت بحاجة إلى معرفته، وإن الباقي ينتمي للماضي . لم أكن هناك بصفة رسمية، فلم أرغب في إجباره على الإجابة .

- أخبرتنا جيني بأن لوثر أراد أن يرسمها هي أيضاً، ذكرت غاهالوود .

- من كان إذاً؟ شخصاً مهووساً بفرش الرسم؟

- لا أدري، أيها الرقيب . هل تعتقد أن ستيرن استسلم لطلب لوثر لأنه كان منجذباً إليه؟

- خطرت لي هذه الافتراضية، فطرحنا السؤال على ستيرن . سألته عن طبيعة العلاقة التي كانت تربطه بلوثر كاليب، فأجاب بهدوء أنها علاقة صداقة محضة: «أنا رفيق مخلص للسيد سيلفورد منذ بداية السبعينيات، ولم أشعر تجاه لوثر إلا بالشفقة، وهو سبب توظيفي له . كان شاباً مسكيناً من بورتلاند، مشوهاً ومعاقاً بسبب تعرضه لعنف همجي . حياته دُمّرت بلا سبب . كان ملماً بالميكانيكا وكنت بحاجة إلى أحد ليهتم بسياراتي ويعمل سائقاً لي . وسرعان ما أصبحنا

صديقين، فقد كان شخصاً لطيفاً». أترى، أيها الكاتب، ما يحيرني هو هذه الصلة التي وصفها بالصدقة، فلديّ انطباع بأن هناك ما هو أكثر من ذلك. هي ليست علاقة جنسية، فأنا واثق من أنه لم يكذب حين قال إنه لم يكن منجذباً إلى كاليب. لا، الصلة بينهما هي أكثر... غريبة. هذا ما شعرت به حين وصف لي ستيرن مشهد استجابته لمطلب كاليب وطلبه من نولا أن تجلس عارية للرسم. جعله ذلك يشعر بالغثيان، إلا أنه قام به رغم ذلك، كما لو أن كاليب كان يمارس نوعاً من السلطة عليه. وبالمناسبة، لم يفلت الأمر من سيلفورد أيضاً؛ هو لم يكن قد تفوه بكلمة حتى تلك اللحظة، مكتفياً بالاستماع، لكن حين حكى ستيرن قصة الصغيرة وهي عارية ومرعوبة، والتي كان يأتي ليحييها قبل جلسات الرسم، قال له: «كيف ذلك، يا إيلي؟ كيف؟ ما هذه القصة؟ ولماذا لم تخبرني بها من قبل؟».

- وماذا عن اختفاء لوثر؟ سألته. هل تحدثت مع ستيرن بهذا الشأن؟

- تروّ أيها الكاتب، فقد احتفظت بالأهم حتى النهاية. فمن دون أن يقصد، لقد مارس سيلفورد ضغطاً على ستيرن. كان مشدوهاً لدرجة أنه لم يتصرف كمحام، بل راح يصرخ: «اشرح لي، يا إيلي! لماذا لم تخبرني بذلك أبداً؟ لماذا بقيت صامتاً طوال هذه السنين؟». كان إليجاه مربكاً كما يمكنك أن تتخيل، فرد أخيراً: «بقيت صامتاً، بقيت صامتاً لكنني لم أنس! لقد احتفظت بتلك اللوحة ثلاثة وثلاثين عاماً! كنت أذهب إلى المرسوم كل يوم، وأجلس على الأريكة، وأنظر إليها. كنت أواجه نظرتها وحضورها. كانت تحدّق فيّ، بنظرتها الشبحية تلك! كان هذا عقابي!».

سأل غاهالوود ستيرن طبعاً عن أي عقاب كان يتحدث.

- عقابي لكوني ساهمت في قتلها! صرخ ستيرن. أعتقد أنني حين وافقت على أن يرسمها لوثر عارية، أيقظت بداخله شياطين مخيفة...

أنا... أنا الذي طلبت من تلك الصغيرة أن تجلس عارية ليرسمها لوثر، فخلقت نوعاً من الصلة بينهما. فقد أكون مسؤولاً بشكل غير مباشر عن وفاة تلك الفتاة الصغيرة اللطيفة!

- ما الذي حدث، يا سيد ستيرن؟

ظل ستيرن صامتاً في البداية، ثم راح يراوغ في الحديث. كان واضحاً أنه لم يكن يعلم ما إذا كان عليه أن يوضح بما يعرفه أم لا. ثم قرر أن يتكلم:

- أدركتُ سريعاً أن لوثر كان متيماً بنولا وأنه أراد أن يعرف لماذا كانت هي بدورها متيمة بهاري. كان هذا الأمر يستنزفه، فأصبح مهووساً بكبير لدرجة أنه كان يختبئ في الغابة حول منزل غوز كوف ليراقبه. عرفت أنه أكثر من الذهاب إلى أورورا والإياب منها وأنه كان يقضي أياماً بأكملها هناك. شعرت بنفسي أفقد السيطرة على الوضع، فتبعته ذات يوم. وجدت سيارته مركونة في الغابة، على مقربة من غوز كوف. تركت سيارتي بعيداً عن الأنظار وتفحصت الغابة حتى رأيته، دون أن يراني هو. كان مختبئاً وسط مجموعة من الشجيرات، يراقب المنزل. لم أظهر له نفسي لكنني أردت أن ألقنه درساً، فقررت أن أذهب إلى غوز كوف وكأنني أقوم بزيارة مفاجئة لهاري، فسلكت الطريق رقم 1 ووصلت عبر طريق غوز كوف وكان شيئاً لم يكن. توجهت إلى الشرفة مباشرة محدثاً جلبة من حولي ليسمعني لوثر: «صباح الخير! صباح الخير، يا هاري!». لا بد أن هاري اعتقد أنني مجنون، وأتذكر أنه كان يصيح مثل المعتوه هو الآخر! قلت له إنني تركت سيارتي في أورورا وعرضت عليه أن يصطحبني إلى المدينة لنتناول الغداء معاً. قبل هاري عرضي لحسن الحظ، فانطلقنا. قلت لنفسي إن هذا سيتيح الفرصة للوثر ليغادر بعد أن أصابه الهلع. ذهبنا لنتغدى في مطعم كلاكس، حيث حكى لي هاري أنه رأى لوثر في أورورا في اليوم السابق، عند الفجر، وأنه أقله إلى غوز كوف بعد

إصابته بتشنج في العضلات أثناء الجري. سألني هاري عما كان يفعل لوثر في أورورا في ذلك الوقت المبكر، فغيرت الموضوع، لكنني كنت منشغلاً بالأمر: كان لا بد أن يتوقف ذلك. ففي ذلك المساء، أمرت لوثر ألا يذهب إلى أورورا مجدداً، موضحاً له أنه سيواجه المشاكل إذا ما استمر في الذهاب إلى هناك. لكنه استمر رغم ذلك، وبعد حوالي أسبوع أو أسبوعين، أخبرته بأنني لم أعد أرغب في أن يرسم نولا. نشب بيننا شجار رهيب. كان ذلك يوم الجمعة 29 أغسطس 1975. قال لي إنه لم يعد بإمكانه العمل لديّ وخرج من المنزل صافقاً الباب وراءه. اعتقدت أنه فعل ذلك من جرّاء الغضب، وأنه سيعود. وفي اليوم التالي، أي يوم 30 أغسطس 1975 سيّئ الذكر، خرجت باكراً جداً إذ كانت لديّ مواعيد خاصة، وعند عودتي في آخر النهار، حين أدركت أن لوثر لم يعد، انتابني إحساس منذر بالسوء، فخرجت لأبحث عنه. سلكت طريق أورورا، وكانت الساعة الثامنة مساءً تقريباً. وأنا في الطريق، تجاوزتني سلسلة من سيارات الشرطة، وعند وصولي إلى المدينة، كانت هناك حالة من الهيجان الفظيع: كان الناس يقولون إن نولا اختفت. سألت عن عنوان منزل آل كيلرغان، في حين أنه كان يكفي أن أتبع سيل الفضوليين وسيارات الإسعاف المتجهة إلى هناك. بقيت لفترة أمام منزلهم، وسط الزحام، مذهولاً، أتأمل المنزل الذي عاشت فيه تلك الفتاة اللطيفة، ذلك المنزل الهادئ ذا الألواح الخشبية البيضاء والأرجوحة المعلقة على شجرة كرز ضخمة. عدت إلى كونكورد مع حلول الليل وتوجهت إلى غرفة لوثر لأتحقق إن كان هناك، لكن لم يكن هناك أحد. لم يكن هناك سوى لوحة نولا التي كانت تحدق فيّ. كانت اللوحة منتهية، فحملتها ووضعتها في المرسم، ولم تتحرك من مكانها بعد ذلك. انتظرت لوثر طوال الليل، لكن من دون جدوى. وفي اليوم التالي، اتصل بي والده: كان يبحث عنه أيضاً، فقلت له إن ابنه غادر في اليوم السابق، دون أن أدلي بأي

تفاصيل . لا له ولا لغيره . فأنا لم أقل شيئاً بعد ذلك . لأن الإشارة إلى لوثر كاليب على أنه خاطف نولا كيلرغان كان يدينني أنا أيضاً ، على نحو ما . انتظرت لوثر لشهر كامل ، وبحثت عنه كل يوم ، إلى أن أخبرني والده أنه قُتل في حادث سير .

- هل تقول لي إنك تعتقد أن لوثر كاليب هو من قتل نولا؟ سأله غاهالوود .

أوما ستيرن برأسه .

- نعم ، أيها الرقيب . أنا أعتقد ذلك منذ ثلاثة وثلاثين عاماً .

كلام ستيرن الذي نقله لي غاهالوود جعلني عاجزاً عن الكلام في البداية . ذهبت لأحضر زجاجتي بيّرة أخريين من الشلاجة ، وشغلت جهاز التسجيل .

- يجب أن تعيد كل ما قلته لي ، أيها الرقيب . عليّ أن أسجله ، من أجل كتابي .

قَبِلَ بصدر رحب .

- كما تشاء ، أيها الكاتب .

أدّرت الجهاز ، وفي تلك اللحظة ، رن هاتف غاهالوود . ردّ فسمعته يقول ، والجهاز شاهد على أقواله : «أأنت متأكد؟ هل تأكدت من كل شيء؟ ماذا؟ ماذا تقول؟ يا إلهي!». طلب مني ورقة وقلم ، ودوّن المعلومة ثم أغلق الخط . ثم نظر إلي نظرة غريبة وقال :

- إنه المتدرب في الفرقة . . . طلبت منه أن يعثر على تقرير حادث لوثر كاليب .

- ثم؟

- وفقاً لذلك التقرير ، تم العثور على جثة لوثر كاليب في سيارة شيفروليه مونت كارلو سوداء مسجلة باسم شركة إليجاه ستيرن .

كان يوماً غائماً. كانت الشمس قد أشرقت منذ بضع ساعات، إلا أن الضوء كان خافتاً. كانت سحب كثيفة تخيم على المشهد. كانت الساعة الثامنة صباحاً حين غادر جورج تينت، صياد كركند، ميناء بليموث، بماساتشوستس، على متن قاربه وبصحبة ابنه. كانت منطقة الصيد الخاصة به تتمحور بمحاذاة الساحل، لكنه كان من القليلين الذين يرمون شباكهم في بعض أذرع البحر التي يهملها الصيادون الآخرون، إذ تعتبر صعبة المنال وخاضعة لتقلبات المد والجزر، فلا تؤتي ثمارها. دخل جورج تينت أحد تلك الأذرع في ذلك اليوم ليستعيد شبكتين كان قد وضعهما. وبينما هو يدير قاربه بالقرب من إليسفيل هاربور، انبهر ابنه بوميض من النور. كان شعاع شمس قد تسلل بين السحب وانعكس على شيء ما. لم يدم ذلك سوى جزء من الثانية، لكنه كان قوياً بما يكفي ليلفت انتباه الشاب الذي أمسك بمنظاره وراح يتفحص الصخور.

- ما الذي يحدث؟ سأله والده.

- هناك شيء ما هناك، على طرف الصخور. لا أدري ما هو، لكنني رأيت شيئاً يلمع بقوة.

مستنداً إلى مستوى المحيط نسبةً إلى مستوى الصخور، قدّر تينت أن المياه عميقة بما يكفي ليقرب من الصخور، فحاذاها بحذر. - هل بإمكانك تحديد ما هو هذا الشيء؟ سأل جورج تينت الذي أثير فضوله.

- إنه انعكاس بكل تأكيد، لكن على سطح شيء غير معتاد، من قبيل المعدن، أو الزجاج.

تقدما أكثر، ومع استدارتهما حول حاجز صخري، اكتشفا فجأة ما لفت انتباههما: «إلهي الرحيم!» صرخ الأب تينت، ثم هرع نحو جهاز اللاسلكي ليتصل بحرس السواحل.

عند الساعة الثامنة وسبع وأربعين دقيقة، تلقت شرطة ساغامور بلاغاً من حرس السواحل يفيد باكتشاف حادث مميت: كانت سيارة قادمة من الطريق المحاذي لمرتفعات إيسفيل هاربور قد تحطمت على الصخور. كان الضابط دارن وانسلو قد ذهب إلى موقع الحادث إذ كان يعرف تلك المنطقة جيداً: طريق صغير يمتد بمحاذاة جدار خطير جداً، يطل على منظر خلّاب، حتى أنه أقيم موقف للسيارات في أعلى نقطة، للسماح للسيّاح بأن يستمتعوا بالمشهد البانورامي. كان المكان رائعاً، لكن لطالما اعتبره الضابط وانسلو خطيراً لعدم وجود أي حواجز هناك لتحمي السيارات من السقوط. كان قد طلب من البلدية استدراك الأمر مراراً، لكن من دون جدوى، رغم الإقبال الكبير في الأمسية الصيفية. لم تكن هناك سوى لافتة واحدة تنبه المارة لتوخي الحذر.

حين وصل إلى موقف السيارات، لاحظ وانسلو وجود حافلة لحرس الغابات تشير حتماً إلى مكان وقوع الحادث. أوقف صفارة إنذار سيارته وركنها. كان اثنان من حرس الغابات يراقبان المشهد الذي يدور في الأسفل، حيث كان زورق تابع لحرس السواحل باسطاً ذراعه المتحركة بالقرب من الحاجز الصخري.

- يقولون إن هناك سيارة في الأسفل، قال أحد حراس الغابات لوانسلو، لكننا لا نرى شيئاً من هنا.

اقترب الشرطي من الحافة: كان المنحدر وعراً ومغطى بالأشواك، والعشب العالي، والثنيات الصخرية. كان من المستحيل رؤية أي شيء فعلاً.

- هل قلت إن السيارة أسفل هذه النقطة، سأله.

- هذا ما سمعناه على جهاز النجدة. وفقاً لموقع مركب حرس السواحل، أتخيل أن السيارة كانت في موقف السيارات، ولسبب أو لآخر، نزلت المنحدر. أتمنى ألا يكونوا مراهقين جاؤوا لتبادل القبل ليلاً ونسوا أن يرفعوا فرامل اليد.

- إلهي الرحيم، تتمم وانسلو، أتمنى أيضاً ألا يكونوا صبية صغاراً!
- تفحص الجزء الأعلى من موقف السيارات. كان هناك شريط عشبي بين نهاية الإسفلت وبداية المنحدر. بحث عن آثار لمرور السيارة، من قبيل أعشاب برية أو أشواك انتزعت لحظة نزولها.
- بحسب رأيك، هل السيارة سقطت مباشرة وعلى نحو مستقيم؟
- سأل حارس الغابات.
- على الأرجح. فلطالما طلبنا وضع حواجز هنا. باعتقادي، مَن سقطوا هم صبية أفرطوا في الشرب وسقطوا مباشرة. وإذا وضعنا جانباً تجرُّع بضع كؤوس من الكحول، فما من سبب لعدم التوقف بعد موقف السيارات.
- ابتعد الزورق عن الصخور، فرأى الرجال الثلاثة سيارة تتأرجح على طرف الذراع المتحرك. عاد وانسلو إلى سيارته ليتواصل مع حرس السواحل عبر جهاز اللاسلكي.
- ما نوع السيارة؟ سأل.
- إنها سيارة شيفروليه مونت كارلو سوداء.
- مونت كارلو سوداء؟ الرجاء تأكيد المعلومة. مونت كارلو سوداء؟
- نعم. مسجلة في نيو هامبشير، وفيها جثة داخلها، مشوهة تماماً.
- *
- كنا نسير منذ ساعتين في سيارة غاهالوود الكرايسلر، التابعة للشرطة. كان ذلك يوم الثلاثاء 22 يوليو 2008.
- هل تريد أن أقود أنا، أيها الرقيب؟
- بالتأكيد لا.

- أنت تقود ببطء شديد.
- أنا أقود بحذر.
- هذه السيارة هي سلة قمامة، أيها الرقيب.
- إنها سيارة شرطة الولاية، فالقليل من الاحترام إذا سمحت!
- إنها سلة قمامة الولاية إذاً. هل يمكن أن نستمع إلى الموسيقى؟
- ولا حتى في أحلامك، أيها الكاتب. نحن نعمل على تحقيق،
- لسنا في نزهة لفتيات.
- أتعلم، سأذكر ذلك في كتابي، أنك تقود مثل عجوز صغير.
- شغل الموسيقى، أيها الكاتب، وأدرها عالية جداً؛ لا أريد أن
- أسمع صوتك حتى نصل.
- ضحكت.
- حسناً، ذكرني من هو هذا الرجل، دارن...
- ... وانسلو. إنه ضابط شرطة في ساغامور. هو من استُدعي
- حين عثر صيادون على سيارة لوثر.
- شيفروليه مونت كارلو سوداء.
- تماماً.
- هذا جنون! لماذا لم يربط أحد بين الأمرين؟
- لا أدري، أيها الكاتب. وهذا تحديداً ما ينبغي توضيحه.
- ما أخبار وانسلو هذا؟
- لقد تقاعد منذ بضع سنوات، وهو يدير الآن مع ابن عمه ورشة
- لتصليح السيارات. هل تسجل؟
- نعم. ماذا قال لك وانسلو على الهاتف أمس؟
- ليس الكثير. بدا متفاجئاً من اتصالي. قال إننا سنجده في
- الورشة اليوم.
- ولماذا لم تستجوبه عبر الهاتف؟

- لا شيء يوازي حواراً وجهاً لوجه، أيها الكاتب، فالهاتف يفتقر إلى السمة الشخصية. الهاتف يصلح للكسالى أمثالك.

كانت الورشة في مدخل ساغامور. وجدنا وانسلو غارقاً في تصليح محرك سيارة بويك قديمة. أخرج ابن عمه من المكتب، وأجلسنا فيه بعد أن أزاح أكواماً من ملفات المحاسبة من فوق الكراسي كي نتمكن من الجلوس، وغسل يديه طويلاً في حوض جانبي، ثم أعد لنا القهوة.

- حسناً؟ سأل وهو يصبها في فناجين، ماذا حدث كي تأتي شرطة ولاية نيو هامبشير إلى هنا بحثاً عني؟

- كما قلت لك أمس، نحن نحقق في مقتل نولا كيلرغان، وتحديداً في حادث سير وقع في مقاطعتكم يوم 26 سبتمبر 1975.

- المونت كارلو السوداء، أليس كذلك؟

- صحيح. كيف عرفت أن هذا ما يهمنا؟

- أنتما تحققان في قضية كيلرغان، وأنا نفسي ظننت آنذاك أن ثمة صلة بينهما.

- حقاً؟

- نعم، ولهذا السبب أتذكر ذلك. أعني، على المدى الطويل، هناك قضايا ننساها وأخرى تبقى عالقة في الذاكرة، وهذا الحادث هو من الأمور التي نتذكرها.

- لماذا؟

- أتعلم، حين تكون شرطياً في مدينة صغيرة، فإن حوادث السير هي من أهم الأمور التي تديرها. ففي كل مسيرتي المهنية، الموتى الوحيدون الذين رأيتهم هم ضحايا حوادث سير. لكن الأمر كان مختلفاً هنا: فخلال الأسابيع السابقة، كنا كلنا قد أُخبرنا بعملية الخطف التي وقعت في نيو هامبشير، وكانت عمليات البحث جارية عن

سيارة شيفروليه مونت كارلو سوداء، وطلب منا أن نكون يقظين. أذكر أنني، طوال تلك الأسابيع، أمضيت دورياتي في البحث عن سيارة شيفروليه من هذا الطراز، ومهما كان لونها، كنت أوقفها وأفتشها، إذ قلت لنفسني إنه من السهل إعادة طلاء سيارة سوداء بلون آخر. باختصار، كنت ناشطاً في تلك القضية، مثلي مثل باقي شرطي المنطقة: كنا نريد أن نعثر على تلك الفتاة بأي ثمن. وفجأة، ذات صباح، وأنا في مركز الشرطة، تلقينا اتصالاً من حرس السواحل يخبروننا فيه عن العثور على سيارة أسفل صخور إيسفيل هاربور. وخمن ما نوع هذه السيارة؟

- مونت كارلو سوداء.

- تماماً، مسجلة في نيو هامبشير وبداخلها جثة. ما زلت أذكر اللحظة التي فتشت فيها تلك السيارة: كانت مسحوقة تماماً جراء السقوط وبداخلها رجل تحوّل إلى عصيدة. وقد جدنا أوراقه معه: لوثر كاليب. أذكر ذلك جيداً. وكانت السيارة مسجلة باسم شركة كبيرة في كونكورد: ستيرن المحدودة. فتشنا داخل السيارة بعناية شديدة: لم يكن هناك شيء يذكر، كما أن الماء تسبّب في أضرار كبيرة. لكننا عثرنا رغم ذلك على زجاجات مشروبات كحولية مهشمة، وعلى حقيبة فيها بعض الملابس في صندوق السيارة.

- حقيبة؟

- نعم، حقيبة صغيرة.

- وماذا فعلت بعد ذلك؟

- قمت بعملتي. قضيت الساعات اللاحقة في التحقيق. تساءلت عن من يكون هذا الرجل، وماذا كان يفعل هنا، ومتى سقط. قمت ببعض الأبحاث عن المدعو كاليب هذا وتخيل ماذا وجدت.

- شكوى مقدمة ضده بتهمة التحرش في مركز شرطة أورورا.

- تماماً! كيف عرفت؟

- عرفت فحسب .

- حينذاك، قلت لنفسي لا يمكن أن تكون هذه مصادفة. تحققت بدايةً ما إذا كان أحدهم أبلغ عن اختفائه، فمن خبرتي في حوادث السير، أعلم أنه دائماً ما يكون هناك أقارب قلقون وهو ما يسمح لنا بكشف هوية الميت. لكن في تلك الحالة، لم يكن هناك أي بلاغ. أمر غريب، أليس كذلك؟ فاتصلت بشركة ستيرن المحدودة لمعرفة المزيد. أخبرتهم بأنني عثرت على إحدى سياراتهم، وهنا، طلبوا مني أن أنتظر على الخط، ووجدت نفسي أتحدث إلى السيد إلبجاه ستيرن نفسه. وريث عائلة ستيرن. شرحت له الوضع وسألته ما إذا كانت إحدى سياراته مفقودة فأجاب بالنفي. أخبرته عن الشيفروليه السوداء وقال لي إنها السيارة التي يستخدمها سائقه حين لا يكون في الخدمة. فسألته متى كانت آخر مرة رأى فيها سائقه، فقال إنه ذهب في إجازة. «في إجازة منذ متى بالضبط؟»، سألته، فأجاب: «بضعة أسابيع». «في إجازة أين؟»، فأجاب أنه لا يعلم. بدا لي كل ذلك غريباً جداً.

- ماذا فعلت؟ سأله غاهالوود.

- بالنسبة إليّ، كنا قد وضعنا أيدينا على المشتبه فيه رقم واحد في قضية خطف نولا كيلرغان، فاتصلت فوراً برئيس شرطة أورورا.

- اتصلت بالرئيس برات؟

- الرئيس برات. صحيح. هذا هو اسمه. نعم، أخبرته عن المعلومات التي لديّ، فهو من كان يدير التحقيق آنذاك.

- ثم؟

- أتى في اليوم ذاته. شكرني ودرس الملف باهتمام. كان لطيفاً جداً. لقد فحص السيارة وقال إنه مع الأسف طراز مختلف عن طراز تلك السيارة التي رآها أثناء المطاردة، وإنه ليس متأكداً حتى ما إذا كانت شيفروليه مونت كارلو، فقد تكون نوفا، وهو طراز شبيه، وإنه سيتحقق من الأمر مع مكتب الشريف. وأضاف أنه تابع ملف كاليب

هذا، لكن كانت لديه ما يكفي من المعلومات ليتخلى عن هذا الخيط.
طلب مني أن أرسل له التقرير مع ذلك، وفعلت.
- إذًا، لقد أخبرت الرئيس برات وهو لم يتابع هذا الخيط من
البحث؟

- صحيح. كما قلت لك، لقد أكد لي أنني كنت مخطئاً. كان
واثقاً من ذلك. ففي الأخير، هو من كان يدير التحقيق، وكان يعرف ما
يفعل. فأقر أنه حادث سير عادي، وهذا ما كتبه في تقريره.
- ألم يبدُ لك ذلك غريباً؟

- في تلك اللحظة، لا. قلت لنفسي إنني تعجّلت. لكنني لم أنهِ
عملي عند هذا الحد: لقد أرسلت الجثة للطبيب الشرعي لأحاول فهم
ما الذي جرى، وما إذا كان الحادث قد وقع بسبب الإفراط في
الشرب، بسبب الزجاجات التي عثرنا عليها. لكن مع الأسف، لم
يستطع الطب الشرعي إثبات أي شيء، بسبب حالة الجثة الفظيعة
الناجمة عن السقوط العنيف وعن أضرار ماء البحر. أكرر لك أن الرجل
كان كالعصيدة. فكل ما استطاع الطبيب الشرعي قوله هو أن الجثة
كانت هناك منذ بضعة أسابيع. والرب وحده يعلم كم كانت ستظل هناك
لو لم يلحظ الصياد وجود السيارة. لقد أعيدت الجثة إلى العائلة بعد
ذلك، وكانت نهاية القصة، إذ كانت كل الشواهد تدفع للاعتقاد بأنه
حادث سير عادي. لكن بطبيعة الحال، مع كل ما علمت الآن، عن
برات والفتاة على وجه الخصوص، لم أعد واثقاً من شيء.

كان المشهد الذي حكاه دارن وانسلو مثيراً للدهشة فعلاً. بعد
لقائنا معه، ذهبنا أنا وغاهالوود إلى ميناء ساغامور لتناول الغداء. كان
ميناءً صغيراً، مجاوراً للمتجر الرئيسي ولبائع بطاقات بريدية. كان الجو
جميلاً، والألوان زاهية، والمحيط شاسعاً، وكانت من حولنا منازل
صغيرة ملونة، تلامس شاطئ المحيط أحياناً، ومحاطة بحدائق أنيقة.
تناولنا وجبة من شرائح اللحم مع البيرة في مطعم صغير، شرفته تمتد

داخل المحيط. كان غاهالوود يمزغ طعامه، شارد الذهن.

- ماذا يدور في رأسك، أيها الضابط؟ سألته.

- فكرة أن كل الشواهد تشير إلى أن لوثر هو المذنب. كانت معه حقيبة ملابس... كان ينوي الهرب وربما اصطحاب نولا معه. لكن خططه تعثرت: أفلتت منه نولا، فاضطر إلى قتل الأم كوبر، ثم ضرب نولا ضرباً مبرحاً بعد ذلك.

- أعتقد أنه هو؟

- نعم، أعتقد ذلك. لكن هناك أمور غير واضحة... لا أفهم لماذا لم يخبرنا ستيرن عن الشيفروليه السوداء. إنه تفصيل مهم. اختفى لوثر مع سيارة باسم الشركة ولا يقلق إليجاه حيال ذلك؟ ولماذا بحق الجحيم لم يحقق برات أكثر بشأن لوثر؟

- هل تظن أن الرئيس برات متورط في اختفاء نولا؟

- لنقل إنني متشوق لسؤاله لماذا تخلى عن خيط لوثر كاليب رغم تقرير وانسلو. أعني، قُدِّم له مشتبه به من ذهب، في سيارة شيفروليه مونت كارلو سوداء، وقرر هو أن لا علاقة بين الاثنين. أمر غريب جداً، أليس كذلك؟ وإذا كان يشك فعلاً في طراز السيارة، وإذا كانت فعلاً نوفا وليست مونت كارلو، كان عليه أن يخبر عن ذلك، إلا أنه في تقريره، لم يذكر سوى مونت كارلو سوداء...

ذهبنا إلى مونتيري بعد ظهيرة اليوم نفسه، إلى الفندق الصغير الذي كان يقيم فيه الرئيس برات. كان مبنى من طابق واحد، يحوي عشر غرف مصفوفة الواحدة بجوار الأخرى، مع موقف للسيارات لكل غرفة، أمام بابها. بدا المكان مقفراً، إذ لم تكن هناك سوى سيارتين، واحدة منهما أمام غرفة برات، سيارته ربما. طرق غاهالوود على الباب. لا إجابة. طرق بقوة أكبر. من دون جدوى. مرت خادمة غرف فطلب منها غاهالوود أن تفتح الباب بمفتاحها.

- مستحيل ، ردت عليه .
- ماذا تعني بمستحيل ؟ قال غاهالوود مستاءً وهو يظهر لها شارته .
- لقد أتيت لأنظف الغرفة عدة مرات اليوم ، أوضحت له . ظننت أن النزيل قد خرج دون أن أراه ، لكنه ترك مفتاحه في قفل الباب ، لذلك فمستحيل أن أفتحه . هذا يعني أنه بالداخل ، إلا إن كان قد خرج وصفق الباب تاركاً المفتاح في الداخل . يحدث ذلك للنزلاء المستعجلين ، لكن سيارته هنا .
- بدا على غاهالوود الانزعاج . طرق الباب بقوة أكبر وطلب من برات فتحه . ثم حاول أن يرى الداخل عبر النافذة إلا أن الستائر كانت مسدلة فحجبت الرؤية ، فقرر أن يكسر الباب . استسلم القفل لثالث ضربة قدم .
- كان الرئيس برات ممدداً على السجادة ، غارقاً في دمه .

المرسل المجهول

«مَن يجرؤ، يَفُزْ، يا ماركوس. ففكر في هذه المقولة كلما واجهت
اختياراً صعباً. مَن يجرؤ، يَفُزْ».

مقتطفات من قضية هاري كيبير

يوم الثلاثاء 22 يوليو 2008، شهدت مدينة مونتبيري الصغيرة التوتر نفسه الذي شهدته أورورا قبل بضعة أسابيع، بعد اكتشاف جثة نولا. توجهت إليها دوريات الشرطة من كل أنحاء المنطقة، وصولاً إلى فندق صغير بالقرب من المنطقة الصناعية. قيل وسط الحشد إن رجلاً قد قُتل، وهو رئيس شرطة أورورا سابقاً.

كان الرقيب غاهالود يقف عند باب الغرفة، رابط الجأش. انهمك عدة عناصر من الفرقة العلمية في فحص مسرح الجريمة، بينما اكتفى هو بالملاحظة. تساءلتُ عما كان يدور في رأسه في تلك اللحظة. استدار أخيراً، فرأى أنني أراقبه، جالساً على مقدمة سيارة شرطة. نظر إليّ نظرة ثور قاتل واتجه نحوي.

- ماذا تفعل بجهاز التسجيل هذا، أيها الكاتب؟
- أُملي المشهد من أجل كتابي.
- أتعلم أنك جالس فوق مقدمة سيارة شرطة؟



- ماذا تفعل بجهاز التسجيل هذا، أيها الكاتب؟

- أُملي المشهد من أجل كتابي.

- أتعلم أنك جالس فوق مقدمة سيارة شرطة؟

- أوه، أنا آسف، أيها الرقيب. ماذا لدينا؟

- أوقف جهاز التسجيل إذا سمحت.

أطعت أمره.

- وفقاً لمعلومات التحقيق الأولية، شرح غاهالوود، تلقى الرئيس

برات ضربات على مؤخرة الرأس. ضربة أو أكثر. بشيء ثقيل.

- مثل نولا؟

- نعم، على النحو نفسه. تعود الوفاة إلى أكثر من اثنتي عشرة

ساعة، ما يأخذنا إلى هذه الليلة. أعتقد أنه كان يعرف قاتله، ولا سيما

أنه ترك المفتاح في باب الغرفة. لقد فتح له على الأرجح، ومن

الممكن أن يكون قد انتظره. وُجِّهت الضربات على مؤخرة الرأس، ما

يعني أنه استدار: هو لم يشك في شيء، واستغل قاتله ذلك ليوجه له

ضربة قاضية. لم نجد الشيء الذي ضربه به، فلا بد أن القاتل أخذه

معه. قد يكون قضييماً من حديد أو شيئاً من هذا القبيل، ما يعني أن

الأمر لا يتعلق بمشاجرة عفوية، بل بفعل مخطَّط له. لقد أتى أحدهم

إلى هنا ليقتل برات.

- هل هناك شهود؟

- لا شهود. الفندق شبه مقفر. لم يرَ أو يسمع أحدٌ شيئاً. مكتب

الاستقبال يغلق عند الساعة السابعة مساءً، وهناك حارس من العاشرة

ليلاً إلى السابعة صباحاً، لكنه كان متسماً أمام شاشة التلفزيون، فلم

يلاحظ شيئاً. ولا توجد كاميرات طبعاً.

- من قد يكون فعل ذلك في رأيك؟ الشخص الذي أضرم النار

في غوز كوف؟

- ربما. على أية حال، هو شخص حماه برات على الأرجح، فخشي أن يتكلم هذا الأخير الآن. قد يكون برات عرف هوية قاتل نولا طوال هذا الوقت، فتمت تصفيته كي لا يتكلم أبداً.

- لديك فرضية، أليس كذلك، أيها الرقيب؟

- ما هو العامل الذي يربط بين كل هذه العناصر: غوز كوف، والشيقروليه السوداء... إن لم يكن ذلك هاري كبير؟...

- إlijah ستيرن؟

- إlijah ستيرن. أنا أفكر فيه منذ بعض الوقت وفكرت فيه مجدداً حين رأيت جثة برات. لا أدري إن كان ستيرن قد قتل نولا، لكن أتساءل ما إذا كان قد تستر على كاليب طوال ثلاثة وثلاثين عاماً. فذهابه الغامض في عطلة وتلك السيارة التي اختفت، والتي لم يبلغ عنها...

- فيم تفكر، أيها الرقيب؟

- أن كاليب مذنب وأن ستيرن متورط في هذه القضية. أعتقد أنه حين تم رصد كاليب في سايد كريك لين على متن الشيقروليه السوداء وتمكن من الهرب من برات أثناء المطاردة، ذهب ليختبئ في غوز كوف. كانت المنطقة بأكملها مغلقة، وهو يعلم جيداً أنه لن يتمكن من الفرار، وأنه لن يأتي أحد لبحث عنه هناك. لا أحد عدا... ستيرن. من المحتمل أن يكون ستيرن قد قضى نهاره في اجتماعات خاصة يوم 30 أغسطس 1975، كما أكد لنا. لكن حين عاد إلى منزله في المساء وتحقق من أن لوثر لم يعد بعد، بل والأسوأ من ذلك، أنه غادر في إحدى سيارات الشركة، وهي أكثر تمويهاً من سيارته المستأنف الزرقاء، كيف يمكننا تخيل أنه بقي مكتوف اليدين؟ المنطق يقول إنه خرج للبحث عن لوثر ليمنعه من ارتكاب أي حماقة. وأعتقد أن هذا ما فعله. لكن عند وصوله إلى أورورا، كان الأوان قد فات: كان هناك رجال شرطة في كل مكان وكانت المأساة التي خشوها قد وقعت

بالفعل . كان عليه أن يعثر على كاليب بأي ثمن ، وما هو المكان الذي ذهب إليه أولاً ، أيها الكاتب ؟
- غوز كوف .

- تماماً . إنه منزله وهو يعلم أن لوثر سيشعر فيه بالأمان ، بل قد يكون للوثر نسخة من المفاتيح . باختصار ، ذهب ستيرن ليرى ماذا يجري في غوز كوف وعثر على لوثر هناك .

*

30 أغسطس 1975 وفقاً لفرضية غاهالوود

وجد ستيرن السيارة الشيفروليه أمام المرآب ؛ كان لوثر منحنيًا على صندوق السيارة .

- لوثر! صاح ستيرن وهو يترجل من سيارته . ماذا فعلت ؟
كان لوثر مرعوباً تماماً .

- لقد . . . لقد تشاجرنا . . . لم أكن أرغب في أن أؤذيها .
اقرب ستيرن من صندوق السيارة ورأى نولا راقدة بداخله ومعها حقيبة جلدية ذات حزام يُعلّق على الكتف ؛ كان جسدها متكوراً ، ولم تكن تتحرك .

- لكنك . . . لكنك قتلتها . . .
تقياً ستيرن .

- كانت فتخبر الشرطة إن لم أفعل . . .

- لوثر! ماذا فعلت ؟ ماذا فعلت ؟

- فاعدني ، أرجوك . إلي ، فاعدني .

- يجب أن تهرب ، يا لوثر . إذا قبضت عليك الشرطة ، فسينتهي بك الأمر على الكرسي الكهربائي .

ثم لاحظ ستيرن قبضة مسدس على حزامه .

- لوثر! ما . . . ما هذا ؟

- الفيدة العجوز... العجوز رأت كل شيء.

- أي عجوز؟

- في المنزل هناك...

- يا إلهي! هل رآك أحد؟

- إلي، لقد تشاجرنا أنا ونولا، رفضت أن أقترب منها، فاضطرت أن أؤفيها، لكنها نجحت في الهرب. ركضت ودخلت إلى فلك المنزل... فدخلت أنا أيضاً، كنت أعتقد أن المنزل مهجور، لكنني وجدت تلك العجوز... اضطرت أن أقتلها.

- ماذا؟ ما الذي تقوله؟

- إلي، أرجوك، فاعدني!

كان يجب التخلص من الجثة. دون تضييع ثانية إضافية، أحضر ستيرن مجرفة من المرآب وشرع يحفر حفرة في الأرض. اختار مدخل الغابة حيث التربة رخوة ولن يلاحظ أحد، خاصة كبير، أن الأرض تغيرت. حفر بسرعة حفرة غير عميقة ونادى لوثر ليحضر الجثة، لكنه لم يرد. وجده جاثياً على ركبته أمام السيارة، غارقاً في قراءة رزمة من الأوراق.

- لوثر؟ ماذا تفعل بحق السماء؟

كان يبكي.

- إنه كتاب كبير... لقد حذفتني نولا عنه. لقد ألّف كتاباً من أجلها... إنه جميل حقاً.

- أحضره معك إلى هناك، لقد حفرت حفرة.

- انتظر!

- ماذا؟

- أريد أن أقول لها إنني أحبها.

- ماذا؟

- دعني أكتب لها كلمة. مجرد كلمة. أعطني قلمك. فندفنها بعد ذلك ثم فأختفي إلى الأبد.

تذمر ستيرن، لكنه أخرج قلمه من جيبه وأعطاه لكاليب الذي كتب على غلاف المخطوطة: وداعاً، نولا حبيبتي. ثم وضع بحرص شديد الكتاب في الحقيبة المعلقة حول رقبة نولا وحملها إلى الحفرة. ألقى بها فيها ثم أهال الرجلان التراب عليها حتى استوت الأرض من جديد، ونثرا فوقها بعض الأغصان والنبات العشبية والطحلب كي يكتمل التمويه.



- وماذا بعد ذلك؟ سألته.

- بعد ذلك، قال غاهالوود، أراد ستيرن أن يجد وسيلة لحماية لوثر، وكانت الوسيلة هي برات.
- برات؟

- نعم، أعتقد أن ستيرن كان على علم بما فعله برات بنولا. نحن نعلم أن لوثر كان يتسكع في غوز كوف، وأنه كان يتجسس على هاري ونولا: فمن المحتمل أنه رأى برات وهو يلتقط نولا على جانب الطريق ويجبرها على القيام بأمور شائنة، فأخبر ستيرن. في تلك الليلة إذاً، ترك ستيرن لوثر في غوز كوف وذهب ليقابل برات في مركز الشرطة: انتظر إلى وقت متأخر من الليل، إلى بعد الحادية عشرة ربما، حين انتهت عمليات البحث. كان يريد أن يكون بمفرده مع برات لبيتزته: طلب منه أن يترك لوثر يفلت من الحواجز الأمنية مقابل صمته عن مغامرته مع نولا. وقيل برات: وإلا ماذا كانت احتمالية أن يصل كاليب حتى ولاية ماساتشوستس دون أن يعترض طريقه أحد؟ لكن كاليب شعر بنفسه محاصراً، تائهاً، ليس لديه مكان ليذهب إليه. فاشترى الكحول وشرب حتى الثمالة، رغبة منه أن ينهي حياته، وقفز بسيارته من موقف

سيارات إيسفيل هاربور. وبعد بضعة أسابيع، حين تم العثور على السيارة، ذهب برات إلى ساغامور ليطمس القضية. تدبر الأمر بحيث لا يصبح كاليب موضع شك.

- لكن لماذا بدّد الشكوك حول كاليب طالما أنه مات؟

- بسبب ستيرن، فهو كان يعلم. بإبعاد الشبهات عن كاليب، كان برات يحمي نفسه.

- إذاً، ستيرن وبرات كانا يعرفان الحقيقة منذ البداية؟

- نعم. لقد دفنا هذه القصة في أعماق ذاكرتهما ولم يتقابلا مجدداً. تخلص ستيرن من منزل غوز كوف من خلال بيعه لهاري بثمان بخس ولم تطأ قدمه أورورا بعد ذلك، وطوال ثلاثة وثلاثين عاماً، اعتقد الجميع أن هذه القضية لن تُحل أبداً.

- إلى أن تم العثور على رفات نولا.

- وإلى أن أتى كاتب عنيد ليحرك هذه القضية. كاتب حاول أحدهم بكل الطرق منعه من اكتشاف الحقيقة.

- لقد أراد ستيرن وبرات طمس الحقيقة، إذاً. لكن من الذي قتل برات في هذه الحالة؟ ستيرن، حين رأى أن برات على وشك الانهيار وكشف الحقيقة؟

- ما زال علينا أن نكتشف ذلك. لكن لا تكتب كلمة واحدة عن كل هذا، أيها الكاتب، أمرني غاهالوود. لا أريد تسريباً جديداً في الصحف. سأنبش حياة ستيرن. سيكون من الصعب إثبات هذه الفرضية. على أية حال، هناك عامل مشترك بين كل هذه السيناريوهات: لوثر كاليب. وإذا كان هو من قتل نولا كيلرغان، فسنثبت ذلك...

- من خلال نتيجة فحص الخط؟

- تماماً.

- سؤال أخير، أيها الرقيب: لماذا أراد ستيرن حماية كاليب بأي ثمن؟
- هذا ما أرغب في معرفته، أيها الكاتب.

بدا التحقيق في مقتل برات معقداً: لم يكن لدى الشرطة أي دليل أو أي خيط في البحث. بعد مقتله بأسبوع، تم دفن جثة نولا، التي سُلم رفاتها لوالدها أخيراً. كان ذلك يوم الأربعاء 30 يوليو 2008. بدأت مراسم الدفن، التي لم أحضرها، في مقبرة أورورا في بداية بعد الظهر، تحت رذاذ غير متوقع وأمام جمع متناثر. وصل ديفيد كيلرغان بدراجته النارية إلى أمام القبر، دون أن يجروء أحد من الحاضرين على قول شيء. كانت الموسيقى تصدح في أذنيه من خلال سماعتَي الصوت، وكانت الكلمات الوحيدة التي نطق بها -بحسب ما وردني- : «لكن لماذا أخرجتموها من الأرض طالما ستعيدونها إليها؟». لم يبك. مكتبة سر من قرأ

وإذا لم أحضر مراسم الدفن، فهذا لأنني كنت، في اللحظة التي بدأت فيها، أقوم بما رأيته مهماً: ذهبت لأزور هاري وأكون إلى جانبه. كان جالساً في موقف السيارات، عاري الصدر تحت المطر الفاتر.

- تعال لتحتمي من المطر، يا هاري، قلت له.

- هم يدفنونها، أليس كذلك؟

- نعم.

- هم يدفنونها وأنا لست موجوداً حتى.

- هذا أفضل... من الأفضل ألا تكون موجوداً... نظراً لكل

هذه القصة.

- فلتذهب ثروة الناس إلى الجحيم! هم يدفنون نولا، وأنا لست موجوداً لأودعها، لأراها مرة أخيرة، لأكون معها. لقد انتظرت رؤيتها

ثلاثة وثلاثين عاماً، ولو لمرة أخيرة. أتعلم أين أود أن أكون؟

- في الدفن؟

- لا، في جنة الكتاب.

تمدد على الإسفلت، جامداً بلا حراك. تمددت إلى جانبه والمطر يتساقط علينا.

- ماركوس، أتمنى لو كنت ميتاً.

- أعلم ذلك.

- كيف لك أن تعلم ذلك؟

- الأصدقاء يشعرون بهذه الأمور.

خيم صمت طويل، ثم قطعتة قائلاً:

- قلت لي آخر مرة إننا لن نستطيع أن نبقي صديقين.

- هذا صحيح. نحن نودع أحداً الآخر شيئاً فشيئاً، يا ماركوس.

الأمر أشبه بأن تعلم أنني سأموت قريباً، وأن أمامك بضعة أسابيع لتتعود على ذلك. إنه سرطان الصداقة.

أغمض عينيه وفرد ذراعيه كما لو أنه مثبت على صليب. فعلت مثله. وبقينا هكذا ممددين على الإسفلت لفترة طويلة.

بعد ذلك بقليل، في اليوم نفسه، توجهت عند خروجي من الفندق إلى مطعم كلاركس لأحاول أن أتحدث إلى شخص حضر دفن نولا. كان المكان مقفراً: كان هناك عامل واحد ينظف المنضدة ببطء، وجد في نفسه القوة الكافية ليدير آلة ضغط البيرة ويقدم لي كوباً. لاحظت حينذاك أن روبرت كوين كان جالساً في آخر الصالة، يقرمش الفول السوداني ويحل الكلمات المتقاطعة في جرائد قديمة ملقاة على الطاولات. كان يختبئ من زوجته. توجهت إليه ودعوته لشرب كوب من البيرة، فقبل وانزاح على مقعده كي يفسح لي المجال لأجلس إلى جانبه. كانت التفاتة لطيفة منه، فقد كان بإمكانه أن أجلس قبالة، على

أحد الكراسي الشاغرة الكثيرة، لكنه أفسح لي المجال لأجلس إلى جانبه، على المقعد نفسه.

- هل حضرت دفن نولا؟ سألته.

- نعم.

- كيف كان الأمر؟

- شنيعاً. مثل كل هذه القصة. كان الصحفيون الحاضرون أكثر من الأقارب.

بقينا صامتين للحظة، ثم سأل كي يحادثني:

- ما أخبار كتابك؟

- إنه يتقدم، لكنني أعدت قراءته أمس، وأدركت أن هناك بعض النقاط بحاجة إلى أن تُوضَّح، بعضها تخص زوجتك. فهي أكدت لي أنه كانت بحوزتها ورقة تدين هاري، كُتبت بخط يده، وأنها اختفت بطريقة غامضة. أتعلم ماذا حصل لهذه الورقة؟

أخذ رشفة كبيرة من البيرة وابتلع حفنة من الفول السوداني قبل أن يجيب.

- احترقت. تلك الورقة اللعينة قد احترقت.

- ماذا؟ وكيف عرفت؟ سألته مشدوهاً.

- لأنني أنا من أحرقتها.

- ماذا؟ لكن لماذا؟ ولماذا لم تقل ذلك أبداً من قبل؟

هز كتفيه، ببساطة.

- لأن أحداً لم يسألني. زوجتي تحدثني عن هذه الورقة منذ ثلاثة وثلاثين عاماً، تصرخ، وتزار، وتقول: «لكنها كانت هنا! في الخزانة! هنا! هنا!». هي لم تقل أبداً: «روبرت، حبيبي، هل رأيت هذه الورقة؟». هي لم تسألني أبداً، لذا أنا لم أجبها أبداً.

حاولت إخفاء دهشتي ليستمروا في الكلام.

- ما الذي حدث إذاً؟

- بدأ كل شيء بعد ظهيرة يوم أحد: نظمت زوجتي حفلاً سخيلاً في الحديقة على شرف هاري كبير، لكن كبير لم يأت، فقررت وهي تستشيط غضباً أن تذهب لتقابله في منزله. أذكر هذا اليوم جيداً، كان يوم الأحد 13 يوليو 1975، وهو اليوم الذي حاولت فيه نولا الصغيرة الانتحار.

*

الأحد 13 يوليو 1975

روبرت! رooooooooووبرت!
دخلت تمارا إلى المنزل كالعاصفة وهي تصفق الهواء بورقة تمسكها بيدها. عبرت غرف الطابق الأرضي بحثاً عن زوجها، الذي كان يقرأ الجريدة في غرفة المعيشة.
- روبرت! لماذا لا تجيبني وأنا أناديك؟ هل أصبت بالصمم؟
انظر! انظر إلى هذه الفظاعات! اقرأ كم هي مقززة!
مدت له الورقة التي كانت قد سرقها لتوها من منزل هاري، فقرأها.

نولا، نولا حبيبتني، نولا حبي. ماذا فعلت؟ لماذا
ترغبين في الموت؟ أهو بسببي أنا؟ أنا أحبك، أحبك
أكثر من كل شيء. لا تتركيني. إذا متّ، فسأمت.
كل ما يهم في حياتي هو أنت، يا نولا. أربعة أحرف:
ن. و. ل. ا.

- أين وجدت هذه؟ سألها روبرت.
- عند ابن العاهرة ذاك، هاري كبير!
- هل سرقِ هذه الورقة من منزله؟
- أنا لم أسرق شيئاً: أنا أخذتها فحسب. كنت أعرف! أعرف أنه

منحرف حقير يحلم بصغيرة في الخامسة عشرة من عمرها! أشعر بالغثيان! أرغب في التقيؤ! أرغب في التقيؤ، يا بوبو، أسمعني؟ هاري كبير مغرم بفتاة صغيرة! هذا غير قانوني! إنه خنزير! خنزير! وكان يقضي وقته في كلاركس! ليراقبها، طبعاً! كان يأتي إلى مطعمي ليختلس النظر إلى مؤخرة طفلة!

أعاد روبرت قراءة النص عدة مرات. لم يكن هناك أي شك: ما كتبه هاري كبير هو كلمات حب، كلمات حب لفتاة في الخامسة عشرة من عمرها.

- ماذا ستفعلين بهذه الورقة؟ سأل زوجته.

- لا أعلم.

- هل ستخبرين الشرطة؟

- الشرطة؟ لا، يا بوبو. ليس الآن. أنا لا أريد أن يعرف الجميع أن هذا المجرم قد فضل فتاة في الخامسة عشرة على ابنتنا الرائعة جيني. أين هي بالمناسبة؟ هل هي في غرفتها؟

- تخيلي أن هذا الضابط الشاب، ترافيس داون، جاء بعد مغادرتك بقليل ليدعوها إلى الحفل الراقص. لقد ذهبنا إلى مونتيبيري لتناول العشاء. ها قد وجدت رفيقاً آخر للحفل. أليس هذا جميلاً...

- ليس جميلاً، ليس جميلاً، بل أنت من ليس جميلاً، يا بوبو المسكين! اغرب عن وجهي الآن! يجب عليّ أن أخبئ هذه الورقة، ولا أريد أن يعرف مكانها أحد.

أطاعها بوبو وذهب ليكمل قراءة جريدته تحت سقيفة الفناء الأمامي، لكنه لم يستطع القراءة، إذ كان عقله مشغولاً بما كانت زوجته قد اكتشفته للتو. هاري، الكاتب الكبير، يكتب كلمات حب لفتاة عمرها نصف عمره. نولا الصغيرة اللطيفة! كان هذا أمراً مزعجاً للغاية. أكان عليه أن يخبر نولا؟ أن يقول لها إن هاري هذا مليء

بحوافز غريبة، وقد يكون خطيراً؟ ألم يكن من الأفضل إخبار الشرطة؟
كي يفحصه طبيب ويعالجه؟

بعد ذلك بأسبوع، كان موعد حفل الصيف الراقص. وقف روبرت وتمارا كوين في ركن من القاعة، يشربان كوكتيلاً بدون كحول، حين لمحا هاري كبير بين الضيوف. «انظر، يا بوبو، قالت تمارا، ها هو ذا المنحرف!». راقباه طويلاً، في حين واصلت تمارا سيل الشتائم التي استطاع سماعها روبرت فقط.

- ماذا ستفعلين بهذه الورقة؟ سألها روبرت مجدداً.

- لا أدري. لكن من المؤكد أنني سأجعله يسدد دينه لي، فهو مدين للمطعم بخمسمئة دولار!

بدا هاري غير مرتاح؛ توجه إلى البار ليشرب شيئاً عله يستعيد رباط جأشه، ثم اتجه إلى الحمام.

- ها هو يتجه نحو الحمام، قالت تمارا. انظر، انظر، يا بوبو! أتعرف ماذا سيفعل؟

- سيفرغ أمعاءه؟

- بل سيتحسس عضوه وهو يفكر في تلك الفتاة!

- ماذا؟

- اسكت، يا بوبو، أنت تثرثر كثيراً، لا أريد أن أسمعك. ابقَ هنا إذا سمحت.

- إلى أين أنت ذاهبة؟

- لا تتحرك، وشاهد ما سأفعله.

وضعت تمارا كأسها على طاولة عالية وتوجهت إلى الحمام حيث دخل هاري لتوه، ودخلت إليه هي الأخرى. ثم خرجت منه بعد فترة وجيزة، وأسرعت لتتضم لزوجها من جديد.

- ماذا فعلت؟ سألها روبرت.

- اسكت، قلت لك! سأخبرك لاحقاً. اسكت وإلا ستكشف أمرنا.

أذاعت إيمي برات أنه يتعين على ضيوفها التوجه إلى طاولاتهم، فتحرك الحشد نحو الطاولات ببطء. في تلك اللحظة، خرج هاري من الحمام. كان يتصبب عرقاً، ومفزوعاً، واختلط بالمدعويين على الفور. - انظر إليه يهرع كالأرانب، تمتت تمارا. إنه مفزوع. - ماذا فعلتِ؟ أصرّ روبرت.

ابتسمت تمارا وهي تلعب في يدها بأحمر الشفاه الذي استخدمته لتوها على مرآة الحمام، وأجابت ببساطة: - لنقل إنني تركت له رسالة سيتذكرها مدى الحياة.

*

كنت جالساً في آخر صالة مطعم كلاركس، أستمع مذهولاً لرواية روبرت كوين.

- إذأ، زوجتك هي التي كتبت تلك الرسالة على المرأة؟ قلت له. - نعم، لقد أصبح هاري كبير هاجسها الأول. لم تعد تحدثني إلا عن هذه الورقة. قالت إنها ستوقع بهاري شرقة. وقالت إنه سرعان ما ستعلن عناوين الصحف: الكاتب الكبير هو منحرف كبير. وانتهى بها الأمر إلى الحديث عنها إلى الرئيس برات. فبعد الحفل الراقص بحوالي أسبوعين، أخبرته بكل شيء. - كيف عرفت؟ سألته.

تردد للحظة قبل أن يجيب:

- عرفت لأن... نولا هي من أخبرتني.

مكتبة

t.me/soramnqraa

*

كانت الساعة السادسة مساءً حين عاد روبرت من مصنع القفازات. ركن سيارته الكرايسلر القديمة في الممر كالعادة، وحين أوقف المحرك عدّل وضع قبعته في المرآة الأمامية ونظر نظرة البطل الذي على وشك تلقين درس للأشرار. هو يماطل منذ فترة عودته إلى المنزل، غير متحمس لهذه العودة، وكان يتلكأ أحياناً في الطريق كي يؤجل هذه اللحظة، فيتوقف عند بائع الآيس كريم مثلاً. وبينما هو يترجل من سيارته هذه المرة، سمع صوتاً خفيضاً يناديه من خلف الشجيرات. استدار باحثاً من حوله عن مصدر الصوت، فلاحظ وجود نولا، مختبئة بين شجيرات الورد.

- نولا؟ مرحباً يا صغيرتي، كيف حالك؟ سألها روبرت.

- يجب أن أتحدث إليك، يا سيد كوين. الأمر مهم جداً، قالت هامسة.

- ادخلي إذًا، سأعد لك عصير ليمون بارداً، واصل بصوت مرتفع.

أشارت له أن يخفض صوته.

- لا، أود أن أحدثك في مكان هادئ. هل يمكن أن نركب سيارتك ونسير قليلاً؟ هناك بائع هوت دوغ على طريق مونتبيري، سنكون مرتاحين هناك.

تفاجأ روبرت من طلبها هذا، إلا أنه لم يرفضه. ركب نولا سيارته، وانطلقا في اتجاه مونتبيري، ثم توقفا على بعد بضعة أميال أمام كشك خشبي للوجبات السريعة. اشترى روبرت بطاطس مقلية ومشروباً غازياً لنولا، واشترى لنفسه هوت دوغ وبيرة بدون كحول. جلسا إلى إحدى الطاولات الموضوعة على العشب.

- حسناً، يا صغیرتی؟ سأل روبرت وهو يتلع الهوت دوغ. ما هو الشيء الخطير لدرجة أنك لا تستطيعين شرب لیمونادة طازجة في المنزل؟

- أنا بحاجة إلى مساعدتك، يا سيد كوين. أعلم أن هذا يبدو لك غريباً لكن... حدث شيء في كلاركس اليوم، وأنت الوحيد الذي بإمكانه مساعدتي.

حكّت له نولا المشهد الذي حضرته بالصدفة قبل ساعتين. كانت قد ذهبت لمقابلة السيدة كوين في كلاركس لاستلام راتبها عن أيام السبت التي اشتغلتها قبل محاولتها الانتحار، وكانت السيدة كوين نفسها هي التي طلبت منها أن تمرّ عليها عند الاستطاعة. ذهبت نولا إلى المطعم في حوالي الساعة الرابعة عصراً، ولم تجد هناك سوى بضعة زبائن صامتين وجيني، التي كانت ترتب الأواني وأخبرتها بأن أمها في مكتبها، دون أن تشير إلى أنها لم تكن بمفردها. كان المكتب هو المكان الذي تدير فيه تمارا كوين محاسبة المؤسسة، وتحفظ بإيرادات المطعم في خزنته، وتتشاجر فيه على الهاتف مع الموردين المتأخرين، وتغلق على نفسها فيه بحجج واهية لتأخذ قسطاً من الراحة. كانت غرفة صغيرة، بابها مغلق طوال الوقت، ومكتوب عليه كلمة خاص، نصل إليها عبر ممر العاملين الموجود وراء الصالة الخلفية، والذي يؤدي إلى حمام الموظفين أيضاً.

حين وصلت أمام باب المكتب وكانت على وشك أن تطرق الباب، سمعت نولا أصواتاً. كان هناك أحد مع تمارا في الغرفة. كان صوتاً ذكورياً. أرهفت السمع وسمعت بعضاً من الحوار.

- إنه مجرم، أفهم؟ قالت تمارا. وقد يكون مفترساً جنسياً! يجب أن تفعل شيئاً حيال ذلك.

- هل أنت متأكدة أن هاري كبير هو من كتب هذه الكلمات؟
تعرفت نولا على صوت الرئيس برات.

- بل متيقنة، ردت تمارا. وبخط يده! هاري كيبير هذا معجب
بكيلرغان الصغيرة ويكتب عنها أموراً إباحية شنيعة. يجب أن تفعل شيئاً
حيال ذلك.

- حسناً فعلت بأنك أخبرتني، لكنك دخلت منزله بطريقة غير
قانونية، وسرقت تلك الورقة، فلا يمكنني فعل شيء حالياً.

- لا يمكنك فعل شيء؟ ماذا إذا؟ هل ستنتظر حتى يؤدي هذا
المعتوه الفتاة الصغيرة كي تتحرك؟

- أنا لم أقل ذلك، قال الرئيس برات مهدئاً إياها. سأبقي كيبير
تحت المراقبة، وفي هذه الأثناء، احتفظي بهذه الورقة جيداً، فلا يمكن
لي أن أحتفظ بها، فقد تسبب لي المشاكل.

- سأضعها في هذه الخزنة، قالت تمارا. لا يمكن لأحد فتحها،
فستكون في أمان هنا. أرجوك، أيها الرئيس برات، افعل شيئاً، كيبير
هذا مجرم قذراً! مجرم! مجرم!

- لا تقلقي، يا سيدة كوين. سترين ماذا نفعل بأمثاله هنا.
سمعت نولا وقع خطوات تقترب من الباب ففرت بسرعة من
المطعم.

تأثر روبرت بالقصة. قال في سره: مسكينة هذه الصغيرة، علمت
أن هاري يكتب حقارات غريبة عنها، ولا بد أن هذا تسبب لها
بصدمة. كانت بحاجة لأن تفضفض لأحد، فجاءت إليه؛ كان عليه أن
يكون على قدر المسؤولية، وأن يشرح لها أن الرجال غريبو الأطوار،
وهاري كيبير على الأخص، وأنه يجب عليها أن تبقى بعيدة عنه، وأن
تخبر الشرطة إذا كانت تخشى أن يؤذيها. هل سبق له أن آذاها، يا
تري؟ هل كانت تود أن تخبره بأنه تحرش بها؟ وهل سيكون قادراً على
مواجهة اعترافات كهذه، وهو غير قادر على ترتيب طاولة العشاء
بحسب زوجته؟ ابتلع قضمه من الهوت دوغ، وفكر في كلمات مواساة

قد يقولها لها، لكنه لم يتمكن من فعل ذلك، ففي اللحظة التي كان سينطق فيها، قالت:

- سيد كوين، يجب أن تساعدني على استرجاع هذه الورقة.
كاد يخنق بقطعة السجق.



- لا داعي لرسم توضيحي، يا سيد غولدمان، قال روبرت في آخر صالة كلاركس. تخيلتُ كلَّ شيء عدا ذلك: كانت تريدني أن أسترجع تلك الورقة اللعينة. هل ترغب في بيرة أخرى؟
- بكل سرور. نفسها، من فضلك. قل لي، يا سيد كوين، هل يزعجك أن أسجل أقوالك؟
- أن تسجل أقوالي؟ تفضل. إنها المرة الأولى التي يهتم فيها أحدٌ ما بكلامي.

نادى الموظف وطلب منه كوبي من البيرة، وأخرجت أنا جهاز التسجيل وشغلته.
- إذاً، فقد طلبتُ منك المساعدة أمام كشك الهوت دوغ ذاك، قلتُ مستأنفاً المحادثة.

- نعم. من الواضح أن زوجتي كانت مستعدة لفعل أي شيء لتدمير هاري كيبير، فيما كانت نولا مستعدة لفعل أي شيء لحمايته منها. أما أنا، فكنت مذهولاً مما سمعته في تلك المحادثة. كنت قد علمت لتوي بوجود قصة فعلية بين نولا وهاري، وأتذكر أنها نظرت إليّ بعينيها المشاكستين والجريئتين وقلت لها: «ماذا؟ ماذا تقصدين بـ استرجاع هذه الورقة؟». وأجابتنني: «إني أحبه، ولا أريد أن يتعرض للمشاكل. إذا كان قد كتب تلك الكلمات، فهذا بسبب محاولتي الانتحار. إنها غلطتي، لم يكن ينبغي أن أفعل ذلك. إني أحبه، هو كل ما لديّ، وكل ما يمكن أن أحلم به». ثم دار بيننا هذا الحوار عن

الحب: «أتعنين أنك أنت وهاري كبير... - نحن نحب بعضنا. - حب؟ ماذا تقولين؟ لا يمكن أن تحبيه! - ولمَ لا؟ - لأنه أكبر منك بكثير. - لا يهم العمر! - بل يهم طبعاً! - لا يجب أن يهم إذا! - هكذا تسير الأمور. الفتيات الصغيرات أمثالك لا غرض لهن برجال في عمره. - أنا أحبه! - لا تقولي الحماقات، وكللي البطاطس التي أمامك. - لكن، يا سيد كوين، إذا خسرت، فسأخسر كل شيء!». لم أصدق أذني، يا سيد غولدمان: كانت هذه الفتاة متيمة بحب هاري. والمشاعر التي أحست بها لم أعرفها أنا نفسي، أو لا أذكر أنني أحسست بها تجاه زوجتي. فأدركت في تلك اللحظة، بفضل تلك الفتاة ذات الخمسة عشر عاماً، أنني لم أعرف الحب أبداً. وأن الكثير من الناس لم يعرفوا الحب أبداً. وأنهم كانوا يكتفون بمشاعر طيبة، وبحياة روتينية، ويفوتون عليهم مشاعر رائعة، التي وحدها تمنح المعنى لحيواتهم. أحد أبناء إخوتي يعمل في إدارة الشؤون المالية في بوسطن، ويكسب كمأ هائلاً من الدولارات كل شهر. هو متزوج وله ثلاثة أطفال، وزوجة لطيفة، وسيارة فاخرة. الحياة المثالية! عاد ذات يوم إلى منزله وأخبر زوجته أنه سيهجرها، وأنه وجد الحب مع طالبة في جامعة هارفارد في سن ابنته، التقى بها في أحد المؤتمرات. قال الجميع إنه جن وإنه يريد أن يجدد شبابه مع تلك الفتاة. أما أنا، فأعتقد أنه عثر على الحب فحسب. يعتقد البعض أنهم يحبون بعضهم بعضاً، فيتزوجون. ويكتشفون الحب يوماً، دون أن يرغبوا حتى في ذلك، ودون أن يعوا ذلك، فيُصفعون به. يكون ذلك أشبه بالهيدروجين الذي يتصل مع الهواء، فينتج عن ذلك انفجار هائل، يطيح بكل شيء. ثلاثون سنة من الزواج المحيَّط تنفجر فجأة، كما لو أن خزاناً للصرف الصحي قيد الغليان قد انفجر، فلطح الجميع من حوله. إن أزمة منتصف العمر، أو جهلة الأربعين، أو شيطان الظهيرة، ليست سوى أناس أدركوا قيمة الحب متأخراً جداً، فقلب ذلك حياتهم.

- ماذا فعلت، إذًا؟ سألته.

- بالنسبة إلى نولا؟ رفضت. قلت لها إنني لا أرغب في التدخل في هذه القصة، وإنني لا أستطيع فعل شيء على أية حال. إن الورقة كانت في الخزانة وإن مفتاحها الوحيد كان يتدلى من رقبة زوجتي ليلاً نهاراً. كان الأمر محسوماً. توسلت إليّ وقالت إذا وضعت الشرطة أيديها على تلك الورقة، فسيعرض هاري لمشاكل خطيرة، وستنهار مسيرته الأدبية، وقد يُسجن أيضاً، في حين أنه لم يؤذ أحداً. أتذكر جيداً نظرتها الحارقة، وسلوكها، وحركاتها... كانت تسكنها عزيمة رائعة. أتذكر أنها قالت: «سيفسدون كل شيء، يا سيد كوين! إن سكان هذه المدينة مجانيين تماماً! إنهم يذكرونني بمسرحية ساحرات سالم لآرثر ميلر. هل قرأت لميلر من قبل؟». اغرورقت عيناها بدموع رقيقة، جاهزة لتنساب وتنهمر على خديها. كنت قد قرأت ميلر، وأتذكر العاصفة التي أثارتها المسرحية عند عرضها في برودواي. كان ذلك قبل إعدام الزوجين روزنبرغ. لقد هزتني تلك القضية لأن الزوجين روزنبرغ كان لهما آنذاك أطفال بعمر جيني تقريباً، وتساءلت عما قد يحدث لها إذا حُكم عليّ بالإعدام أنا أيضاً. شعرت بالارتياح لكوني لم أكن شيوعياً.

- لماذا جاءت نولا إليك، أنت بالذات؟

- لاعتقادها أنني أستطيع الوصول إلى الخزانة، على الأرجح. لكن لم يكن هذا صحيحاً. كما سبق أن قلت لك، كانت زوجتي هي الوحيدة التي بحوزتها المفتاح. كانت تحتفظ به - بحرص شديد - معلقاً بسلسلة متدلية بين ثدييها. أما أنا، فلم يعد مسموحاً لي الوصول إلى ثدييها منذ زمن بعيد.

- ماذا حدث إذًا؟

- قامت نولا بمدحي. قالت لي: «أنت ذكي وفطن، وستعرف

كيف تقوم بذلك». فانتهى بي الأمر إلى القبول، وقلت لها إنني سأحاول.

- لماذا؟ سألته.

- لماذا؟ من أجل الحب! كما سبق أن قلت لك، كانت في الخامسة عشرة وتحدث عن أمور لم أعرفها وربما لن أعرفها أبداً. رغم أن قصتها مع هاري أشعرتني بالغثيان في الحقيقة. فعلت ذلك من أجلها، وليس من أجله. وسألتها عما ستفعله بشأن الرئيس برات بما أنه كان على علم بكل شيء الآن، بغض النظر عن وجود دليل. نظرت في عيني مباشرة وقالت لي: «سأمنعه من إلحاق أي أذى. سأجعل منه مجرمًا». لم أفهم ما قالته وقتذاك. لكن منذ بضعة أسابيع، حين تم القبض على برات، أدركت أنه لا بد أن أموراً غريبة قد حدثت.

*

الأربعاء 6 أغسطس 1975

من دون أن يتفقا، تصرف كل منهما في اليوم التالي للقائهما. في حوالي الخامسة عصراً، اشترى روبرت كوين حبواً منومة من صيدلية في كونكورد. وفي الوقت نفسه، كانت نولا في مركز الشرطة، في مكتب الرئيس برات تحديداً، تعمل على حماية هاري بجعلها من برات مجرمًا، مورطة إياه فيما سيصبح دوامة طويلة ستدوم ثلاثة وثلاثين عاماً.

في تلك الليلة، نامت تمارا كوين ملء جفونها. بعد تناول العشاء، شعرت بإرهاق شديد، حتى أنها غفت دون أن تزيل مساحيق التجميل عن وجهها، ودخلت في سبات عميق. حدث ذلك بسرعة كبيرة، لدرجة أن روبرت خشي للحظة أن يكون قد وضع كمية كبيرة من المنوم في كوب الماء خاصتها فقتلها، لكن سرعان ما طمأنه الشخير المهيّب ذو الإيقاع العسكري الذي صدر عن زوجته. انتظر حتى الساعة

الواحدة صباحاً ليقوم بالمهمة: كان عليه أن يتأكد أن جيني نائمة وأن لا أحد سيراه في المدينة. حين حان وقت التصرف، هز روبرت زوجته بقوة ليتأكد أنها غير واعية: استمتع بكونها هامدة، وشعر لأول مرة بنفسه قوياً: التنين، ملقى على فراشه، لم يعد يبهر أو يخيف أحداً. فك السلسلة المعلقة حول رقبتها وأمسك بالمفتاح، منتصراً، كما أنه أمسك بثدييها بكلتا يديه، ولاحظ بأسف أنه لم يعد لذلك أي أثر عليه. غادر المنزل دون أن يصدر أدنى صوت. وكى لا يلفت انتباه أحد، استعمل دراجة ابنته. وبينما هو يقود الدراجة في الليل ومفاتيح مطعم كلاركس والخزنة في جيبه، شعر بنشوة الممنوع تتصاعد بداخله. لم يعد يعرف ما إذا كان يفعل ما يفعله من أجل نولا أو من أجل إيذاء زوجته. وبينما هو يعبر المدينة على الدراجة بسرعة كبيرة، شعر بنفسه حراً طليقاً، حتى أنه قرر الطلاق. كانت جيني قد أصبحت راشدة الآن، ولم يعد من سبب يجعله يستمر بالعيش مع زوجته. لقد نال ما يكفيه من طبع تلك الزوجة، ويحق له أن يبدأ حياة جديدة. قام بإطالة الطريق عمداً، ليستمتع بذلك الإحساس المبهج. حين بلغ الشارع الرئيسي، دفع دراجته كي يتسنى له تفقد الأرجاء: كانت المدينة نائمة بسلام. لم تكن هناك أضواء ولا أصوات. أسند دراجته إلى حائط، فتح المطعم، وتسَلَّل إلى الداخل، تنير طريقه المصابيح العامة التي اخترق ضوءها المكان عبر النوافذ الزجاجية. وصل إلى المكتب. هذا المكتب الذي لم يكن يُسمح له بدخوله أبداً من دون إذن واضح من زوجته، كان هو سيده الآن، يدوس عليه بقدميه ويجوب فيه، فهو الآن في أرض محتلة. أضاء المصباح اليدوي الذي أحضره معه وبدأ بتفقد الأرفف والملفات. كان يحلم بتفتيش هذا المكان منذ سنوات طويلة: ماذا قد تخفي فيه زوجته؟ أخرج بضعة ملفات وراح يقلبها بسرعة: تفاجأ بنفسه يبحث عن رسائل من عشاق، وتساءل ما إذا كانت زوجته تخونه. تخيل أن يكون الأمر كذلك بالفعل: فكيف يمكن لها أن تكتفي

به؟ لكنه لم يجد سوى أوامر شراء وأوراق محاسبية، فانتقل إلى الخزنة: خزنة من الفولاذ، ضخمة، علوها متر تقريباً، وترتكز على قاعدة خشبية. أدخل المفتاح في القفل وأداره، وارتعش وهو يسمع آلية الفتح تعمل. سحب الباب الثقيل، وسلط مصباحه على الداخل المكون من أربع طبقات. كانت هذه المرة الأولى التي يرى فيها هذه الخزنة مفتوحة، فارتعش جسده من الإثارة.

على الرف الأول، وجد وثائق من البنك، وآخر كشف محاسبة، وإيصالات استلام الطلبات، وكشوفات رواتب الموظفين.

على الرف الثاني، وجد علبة من الحديد الأبيض فيها حصيلة المطعم، وعلبة أخرى فيها مبالغ نقدية صغيرة للدفع للموردين.

على الرف الثالث، وجد قطعة من الخشب على هيئة دب. ابتسم: كان هذا أول شيء أهداه لمارا، في أول موعد لهما. كان قد أعد لهذه اللحظة بعناية، لأسابيع طويلة، بحيث عمل ساعات إضافية في محطة الوقود التي كان يعمل فيها آنذاك بالإضافة إلى دروسه، كي يصطحب مارا إلى أحد أفضل مطاعم المنطقة، عند جان-كلود، وهو مطعم فرنسي يقدم أطباق جراد البحر استثنائية. كان قد درس قائمة الطعام، وقام بحساباته ليعرف كم ستكلفه الوجبة لشخصين إذا اختارت أغلى الأطباق، وادخر حتى جمع ما يكفي من مال، ثم دعاها. في تلك الليلة، حين ذهب إلى منزل والديها ليصطحبها، وعلمت بوجهتهما، توصلت إليه ألا يهدر كل ماله من أجلها. «أوه، روبرت، أنت لطيف جداً، لكن هذا كثير، كثير جداً». وكي تقنعه بأن يصرف النظر عن ذلك المطعم الفاخر، اقترحت عليه أن يذهب إلى مطعم إيطالي صغير في كونكورد كانت تتوق إليه منذ وقت طويل. أكلا السباغيتي وشربا نبيذ الشبانتي، وذهبا إلى حفل في الجوار، وهما ثمليين قليلاً. وفي طريق العودة، توقفا عند شاطئ المحيط وانتظرا شروق الشمس، وعثر روبرت على قطعة من الخشب على هيئة دب

فأعطاها إياها حين تكورت في حضنه مع بشائر الفجر الأولى . قالت له إنها ستحتفظ بها إلى الأبد وتبادلا القبل لأول مرة .

متأثراً بقطعة الخشب، تابع روبرت استكشافه للخزنة، ووجد إلى جانبها عدداً من الصور له، على مدار السنين . وعلى ظهر كل صورة، كانت تمارا قد خربشت بعض الملاحظات، بما في ذلك الصور الحديثة . كانت أحدث صورة مؤرخة في شهر أبريل، عندما ذهباً ليحضرا سباق سيارات، يظهر فيها روبرت واضعاً منظاراً على عينيه، ويشاهد السباق . كانت تمارا قد كتبت على ظهرها : روبرت حبيبي، دائماً شغوف بالحياة . سأحبه حتى آخر نفس لي .

بعد الصور، كانت هناك تذكارات لحياتهما المشتركة : بطاقة دعوة حفل زفافهما، بطاقة ولادة جيني، صور من العطل، وأشياء صغيرة أخرى ظن أنها رمتها منذ زمن بعيد : هدايا صغيرة، دبوس صدر، مثقلة للورق كان قد اشتراها أثناء عطلة في كندا وتسببت له بتوبيخ لاذع : «لكن يا بوبو، ماذا سأفعل بأشياء تافهة كهذه؟» . وها هي ذي قد احتفظت بكل هذه الأشياء في خزنتها بعناية . فكر روبرت حينذاك أن ما تخفيه زوجته في هذه الخزنة هو قلبها، وتساءل عن سبب ذلك .

على الرف الرابع، وجد دفترأ سميكاً مجلداً، ففتحه : كانت هذه يوميات تمارا . كانت زوجته تكتب يومياتها، ولا علم له بذلك . فتح صفحة على نحو عشوائي وقرأ على ضوء مصباحه :

فاتح يناير 1975

احتفلنا بعيد رأس السنة في منزل آل ريتشاردسون .
درجة السهرة : 5/10 . لم يكن الطعام لذيذاً كما أن
عائلة ريتشاردسون مملة . لم ألاحظ ذلك أبداً من قبل .
أعتقد أن عيد رأس السنة هو فرصة جيدة لاكتشاف مَنْ
مِنْ أصدقائك مملون ومن ليسوا كذلك . أدرك بوبو

سريعاً أنني أشعر بالملل فأراد أن يسليني، فألقى ببعض النكات، وضحك الزوجان ريتشاردسون كثيراً، حتى أن بول ريتشاردسون دوّن إحدى النكات كي لا ينساها. أما أنا، فكل ما استطعت أن أفعله هو أن أوبخه. في السيارة، على طريق العودة، قلت له الفظايعات: «أنت لا تُضحك أحداً بنكاتك السخيفة. أنت بائس. من الذي طلب منك أن تقوم بدور المهرج، هه؟ ألسنت مهندساً في مصنع كبير؟ تحدث عن مهنتك، أظهر أنك شخص جاد وذو أهمية. أنت لست في سيرك!». ردّ قائلاً إن بول ضحك على نكاته، فطلبت منه أن يسكت، وأنني لا أريد أن أسمع صوته.

لا أدري لماذا أنا قاسية معه. أنا أحبه كثيراً، فهو لطيف ورقيق. لا أعرف لماذا أتصرف معه على هذا النحو. أنا أشعر بالذنب بعد ذلك، وأكره نفسي، وتصرفني معه يكون أكثر فظاظة.

في هذا اليوم الأول من العام، قررت أن أتغير. في الحقيقة، إنني أتخذ القرار نفسه كل عام ولا أطبقه أبداً. بدأت أزور الدكتور أشكروفت في كونكورد منذ بضعة أشهر. هو من نصحتني بكتابة يومياتي. لنا جلسة واحدة في الأسبوع، لا يعلم بها أحد. سأشعر بالخجل في حال عرف أحد أنني أتردد على طبيب نفسي. سيقول الناس إنني مجنونة. أنا لست مجنونة. أنا أعاني، أعاني لكن لا أعرف ما السبب. يقول الدكتور أشكروفت إن لدي قابلية لتدمير كل ما هو جيد لي. هذا ما نسميه التدمير الذاتي. يقول إنني أخاف الموت وقد يكون سلوكي مرتبطاً بذلك. لا أدري. كل ما أعرفه هو أنني

أعاني، وأنا أحب روبرت، ولا أحب سواه. ماذا كنت
سأصبح من دونه؟

أغلق روبرت الدفتر. كان يبكي. ما لم تستطع زوجته أن تخبره به
أبداً، كتبته هنا. كانت تحبه. كانت تحبه حقاً. لم تحب سواه. كانت
هذه أجمل كلمات قرأها في حياته. مسح عينيه كي لا يبيل الصفحات
وواصل القراءة. تمارا المسكينة، تمارا حبيبتي، التي تعاني في
صمت. لماذا لم تخبره بأمر الدكتور آشكروفت؟ إذا كانت تعاني، فأراد
أن يعاني معها، فلماذا تزوجها. مسح الرف الأخير من الخزانة بضوء
مصباحه فعثر على ورقة هاري، فعاد إلى الواقع فجأة. تذكر مهمته
وتذكر أن زوجته كانت ملقاةً على سريرها، مخدرة، وأنه كان عليه أن
يتخلص من تلك الورقة. شعر بالذنب حيال ما كان يفعله وكان على
وشك التخلي عن المهمة، حين فكر أنه بالتخلص من هذه الورقة،
ستهم زوجته بهاري كبير أقل وتهتم به أكثر. فهو من يهم. كانت
تحبه. كان هذا مكتوباً. هذا ما دفعه لياخذ الورقة ويخرج من كلاركس
بعد أن تأكد أنه لم يترك أي أثر لزيارته. عبر المدينة على دراجته
وتوقف في شارع صغير هادئ ليضرم النار بكلمات هاري، مستخدماً
ولاعته. نظر إلى الورقة وهي تحترق، ويسودّ لونها، وتتلوى لتصير لهباً
ذهيباً في البداية، ثم أزرق، وتختفي ببطء، وسرعان ما لم يتبقّ منها
شيء. عاد إلى المنزل وأعاد وضع المفتاح بين يدي زوجته، وضمها
طويلاً.

استغرق الأمر من تمارا يومين لتكتشف أن الورقة لم تعد حيث
وضعتها. ظنت أنها جنت: كانت متأكدة أنها وضعتها في الخزانة، إلا
أنها لم تكن هناك. لا أحد يمكنه الوصول إلى الخزانة، وكانت تحتفظ
بالمفتاح معها، ولم يقتحم أحد المكان. هل أتلقتها في المكتب؟ هل
وضعتها في مكان آخر على نحوٍ آلي؟ قضت ساعات تفتش الغرفة،

وتفرغ الملفات من محتوياتها وتملؤها من جديد، من دون جدوى .
كانت تلك الورقة الصغيرة قد اختفت بشكل غامض .



شرح لي روبرت كوين أنه حين اختفت نولا بعد ذلك ببضعة أسابيع، جن جنون زوجته .

- كانت تردد أنه لو كانت تلك الورقة لا تزال بحوزتها، لاستطاعت الشرطة أن تشتبه بهاري . وقال لها الرئيس برات إنه لا يستطيع أن يفعل شيئاً دون تلك الورقة . كانت مصابة بحالة من الهستيريا . كانت تقول لي مئة مرة في اليوم : «إنه كبير! إنه كبير! أنا أعلم ذلك، أنت تعلم ذلك، جميعنا يعلم ذلك! لقد رأيت هذه الورقة مثلي، أليس كذلك؟» .

- لماذا لم تخبر الشرطة بما عرفته؟ سألته . لماذا لم تقل لهم إن نولا جاءت إليك وحدثتك عن هاري؟ لربما كان خيطاً يمكنهم تتبعه .

- أردت أن أفعل ذلك . كنت ممزقاً . أيمكنك إيقاف جهاز التسجيل، يا سيد غولدمان؟
- طبعاً .

أوقفت الجهاز ووضعت في حقيبتني، فواصل :

- حين اختفت نولا، شعرت بالذنب . ندمت على حرق تلك الورقة التي تربطها بهاري . قلت لنفسني إنه بوجود تلك الورقة، كان بإمكان الشرطة أن تستجوب هاري، وأن تحقق معه . وفي حال لم يكن مذنباً، فلم يكن ليخشى شيئاً . فالتاس البريثون لا يخشون شيئاً، أليس كذلك؟ على أية حال، شعرت بالذنب، لذا رحت أكتب رسائل مجهولة المصدر، وأضعها عند باب منزله حين كنت أعلم أنه ليس هناك .

- ماذا؟ الرسائل مجهولة المصدر، كانت من فعلك أنت؟

- نعم . كنت قد حضّرت مخزوناً صغيراً منها، مستخدماً الآلة

الكاتبة الخاصة بسكرتيرتي في مصنع القفازات بكونكورد. أعرف ما فعلته بتلك الفتاة ذات الخمس عشرة سنة. وقريباً ستعرف المدينة بأكملها. كنت أحتفظ بالرسائل في الصندوق الأمامي لسيارتي، وكلّما صادفت هاري في المدينة، كنت أذهب إلى غوز كوف لأترك رسالة.

- لماذا؟

- لأريح ضميري. لم تكف زوجتي عن تكرار أنه هو المذنب، فصددتها. قلت لنفسي إنني إذا ضايقته وأخفته، فسيتهي به الحال إلى أن يعترف بجرمه. استمر ذلك بضعة أشهر، ثم توقفت.

- ما الذي دفعك إلى التوقف؟

- حزنه. بعد اختفاء نولا، كان حزيناً جداً... لم يعد الرجل نفسه. فقلت لنفسي لا يمكن أن يكون هو المذنب، فتوقفت.

كنت مشدوهاً مما سمعت، فسألته مجازفاً:

- أخبرني، يا سيد كوين، أنت من أضرم النار بمنزل غوز كوف؟ ابتسم، وكأنه استمتع بالسؤال.

- لا. أنت شخص ودود، يا سيد غولدمان، ولن أفعل بك ذلك. لا أدري أي عقل مريض قام بذلك. أنهينا البيرة.

- بالمناسبة، قلت، أنت لم تبادر إلى الطلاق في نهاية المطاف. هل تحسنت الأمور مع زوجتك؟ أقصد، بعد اكتشاف كل تلك التذكريات في الخزانة ودفتر يومياتها؟

- سارت الأمور من سيئ إلى أسوأ، يا سيد غولدمان. استمرت في توبيخي طوال الوقت، ولم تقل لي يوماً إنها تحبني. أبداً. طوال الأشهر ثم السنوات التي تلت، خدرتها بانتظام بالحبوب المنومة كي أذهب وأقرأ يومياتها، وأبكي على ذكرياتنا، على أمل أن تتحسن الأمور: قد يكون هذا هو الحب.

أومات برأسي موافقاً.

- ربما، قلت.

واصلت تأليف كتابي من جناحي في فندق ريجنتس. حكيت كيف فعلت نولا، وهي في الخامسة عشرة من عمرها، كل ما استطاعت لحماية هاري. كيف أنها ناورت، وغامرت، ووضعت نفسها على المحك ليتمكن هو من الحفاظ على المنزل ومواصلة الكتابة، وكى لا يزعجه أحد. وكيف أنها أصبحت شيئاً فشيئاً ملهمة تحفته الأدبية وحاميتها في آن واحد. كيف استطاعت أن تضع فقاعة من حوله لتتركه يركز على كتابته وتسمح له بابتكار عمل حياته. وبينما أنا أكتب، تفاجأت بأني اعتبرت نولا كيلرغان تلك المرأة الاستثنائية التي يحلم بها كل كُتّاب العالم. ومن نيويورك حيث كانت دينيس تحرر أوراقي بتفانٍ وحرص نادرين، اتصلت هذه الأخيرة بي ذات مساء لتقول لي:

- ماركوس، أعتقد أنني أبكي.

- لماذا؟ سألتها.

- بسبب تلك الصغيرة، نولا تلك. أعتقد أنني أحبها أنا أيضاً.

ابتسمت وأجبتها:

- أعتقد أن الجميع أحب نولا، يا دينيس. الجميع.

ثم، بعد ذلك بيومين، أي يوم 3 أغسطس، تلقيت هذا الاتصال من غاهالوود، وهو في قمة الإثارة:

- أيها الكاتب! صرخ قائلاً. لديّ نتائج المختبر. يا إلهي، لن تصدق أذنك! خط اليد على المخطوطة، إنه خط لوثر كاليب! ما من شك محتمل. لقد عرفنا المذنب، يا ماركوس، عرفنا المذنب!

بعد نولا

«قدّر الحب، يا ماركوس. اجعل منه غزوك الأجل، وطموحك الوحيد. فبعد الأشخاص، هناك أشخاص آخرون. وبعد الكتب، هناك كتب أخرى. وبعد المجد، هناك أمجاد أخرى. وبعد المال، هناك المزيد من مال. لكن بعد الحب، يا ماركوس، بعد الحب، لن يكون هناك سوى ملح الدموع».

لم تعد الحياة بعد نولا هي الحياة. يقول الجميع في أورورا إن المدينة غرقت ببطء في الاكتئاب والفرع من وقوع اختطاف جديد، في الشهور التي تلت اختفائها.

حل فصل الخريف بأشجاره الملونة، لكن لم يتسَنَّ للأطفال القفز في أكوام الأوراق الميتة المجمعة على حواف الأزقة، لأن الأهالي القلقين كانوا يراقبونهم على مدار الساعة. كانوا ينتظرون معهم قدوم حافلة المدرسة ويقفون في الشارع في موعد عودتهم. فابتداءً من الساعة الثالثة والنصف عصراً، كانت هناك صفوف من الأمهات على الأرصفة، واحدة أمام كل منزل، يشكلن حاجزاً بشرياً في الشوارع المقفرة، حارسات متفانيات ينتظرن وصول ذريتهن.

لم يعد يُؤذَن للأطفال أن يتحركوا بمفردهم، فالأيام الجميلة التي كانت تعج فيها الشوارع بأطفال فرحين يلهون ويصيحون قد ولت: لم يعد هناك مباريات للهوكي عند مداخل المرائب، ولا سابقات قفز على الحبل، ولا ألعاب حجلة كبيرة مرسومة بالطباشير على الإسفلت في الشارع الرئيسي، ولا دراجات مرمية على الرصيف أمام متجر عائلة هيندورف حيث يمكن شراء حفنة من السكاكر بربع دولار. حام في الشوارع الهدوء الحذر لمدن الأشباح.

أصبحت المنازل تُقفَل بالمفتاح، ومع حلول الليل، كان الآباء

والأزواج يقومون بدوريات لحماية أحيائهم وعائلاتهم، معظمهم مسلحاً بالعصي، فيما حمل البعض بنادق الصيد، وقد أكدوا أنه إذا استدعى الأمر، لن يترددوا في إطلاق النار.

فُقدت الثقة. كان المارّون بالمدينة، من سائحين وعابري طريق، يُستقبلون بجفاء ويُراقبون طوال الوقت. وكان الأسوأ هو ما يديه السكان من ريبة فيما بينهم. فكان الجيران، الذين جمعتهم صداقة منذ خمسة وعشرين عاماً، يتجسسون بعضهم على بعض، وتساءل الجميع عما كان يفعله الآخر مساء يوم 30 أغسطس 1975.

كانت سيارات الشرطة ومكتب الشريف تجول الشوارع ليلاً نهاراً، لكن وجود الشرطة المكثف كان مفزعاً، بقدر ما كان غيابها مقلقاً. وحين كانت سيارة فورد سواداء تابعة لشرطة الولاية تركن أمام المنزل رقم 245 في تراس أفينيو، كان الجميع يتساءل ما إذا كان النقيب روديك جاء حاملاً أخباراً جديدة. ظلت ستائر منزل آل كيلرغان مسدلة لأيام، ثم أسابيع، ثم أشهر. لم يعد ديفيد كيلرغان يقوم بواجباته في الأبرشية، فأُرسل كاهن آخر من مانشستر ليؤمن الخدمات في سانت جيمس.

ثم هبط على المدينة ضباب نهاية أكتوبر، فاجتاحت المنطقة سحب رمادية، كثيفة، ورطبة، وسرعان ما هطلت الأمطار، متواصلة وباردة. كان هاري يذبل وحيداً في غوز كوف، فكان قد مضى شهران من دون أن يراه أحد. كان يقضي أيامه محبوساً في مكتبه، يعمل على آله الكاتبة، منهمكاً بالأوراق المكتوبة بخط اليد والتي كان يراجعها ويطبّعها على الآلة بعناية. كان يستيقظ في الصباح الباكر، ويهتد نفسه بعناية: يحلق ذقنه ويرتدي ملابس أنيقة مع أنه يعلم أنه لن يخرج من منزله ولن يرى أحداً. كان يجلس إلى طاولته ويشرع في العمل، ولا يتوقف إلا ليحضر المزيد من القهوة، ويقضي ما تبقى من وقت في نسخ

ومراجعة وتصحيح نصوصه، وفي تمزيقها والبدء من جديد إن اقتضى الأمر.

لم يكن أحد يزعج وحدته سوى جيني. كانت تأتي كل يوم بعد الانتهاء من عملها، قلقلة لرؤيته ينطفئ ببطء. كانت تصل في حوالي السادسة مساءً، مبتللة تماماً، بعد عبورها المسافة بين سيارتها والمدخل الأمامي تحت المطر. كانت تحمل معها سلة مملوءة بالطعام الذي جمعته من كلاركس: سندويشات دجاج، بيض بالمايونيز، معكرونة بالجبن والكريمة يتصاعد منها البخار إذ كانت تحفظها بعناية في أطباق معدنية، وحلوى محشوة كانت تخفيها عن الزبائن ليبقى منها لهاري. كانت تقرع الجرس.

كان يهب عن كرسيه. نولا! نولا حبيبتي! ويركض نحو الباب. كانت واقفة أمامه، مشرقة ورائعة. كانا يلقيان بنفسيهما كل في حضن الآخر، يأخذها بين ذراعيه، ويلف بها حوله وحول العالم، ثم يتبادلان القبل. نولا! نولا! نولا! كانا يتبادلان القبل ويرقصان. كان الصيف الجميل، والسماء تتلألأ بأضوائها المبهرة قبل حلول الليل، وفوق رأسيهما تطير أسراب من النوارس تغني مثل العنادل. كانت تبتسم وتضحك، كان وجهها شمساً. كانت هناك، كان بإمكانه ضمها ولمس بشرتها ومداعبة وجهها، وشم عطرها والعبث بشعرها. كانت هناك، كانت حية، بل كانا حيين. «أين كنتِ؟»، سألها واضعاً يديه على يديها. «لقد انتظرتك! كنت خائفاً جداً! قال الجميع إن مكروهاً أصابك! قالوا إن الأم كوبر رأتك ملطخة بالدم بالقرب من سايد كريك! كانت الشرطة في كل مكان! لقد فتشوا الغابة! اعتقدت أن مكروهاً قد أصابك، وكدت أجن لعدم معرفتي بما حدث لك». كانت تضمه بقوة وتطمئنه: «لا تقلق، هاري حبيبي! لم يحدث لي شيء، أنا هنا. أنا هنا! نحن معاً، وإلى الأبد! هل أكلت؟ لا بد أنك جائع! هل أكلت؟».

- هل أكلت؟ هاري؟ هاري؟ هل أنت بخير؟ سألت جيني الشبح الشاحب والهزيل الواقف أمامها، والذي فتح لها الباب.

أعاده صوت الشابة إلى الواقع. كان الجو معتماً وبارداً، والمطر يهطل بقوة. كان الشتاء على الأبواب. كانت النوارس قد رحلت منذ وقت طويل.

- جيني؟ أهذه أنت؟ سأل واهناً.

- نعم، هذه أنا. لقد أحضرت لك بعض الطعام، يا هاري. يجب أن تتغذى، لست على ما يرام. لست على ما يرام إطلاقاً.

كان ينظر إليها، مبللة ومرتعشة، فدخلها إلى المنزل. لم تكن تبقى سوى فترة وجيزة، فقط ما يستغرقها من وقت لتضع السلة في المطبخ وتستعيد أطباق الأمس. وحين ترى أنه بالكاد أكل، كانت تعاتبه بلطف.

- هاري، يجب أن تأكل!

- أنا أنسى أحياناً، كان يرد عليها.

- كيف نستطيع أن ننسى أن نأكل؟

- إنه بسبب هذا الكتاب الذي أولفه... فأنا أغرق فيه وأنسى كل شيء آخر.

- لا بد أنه كتاب جميل جداً، كانت تقول له.

- كتاب جميل جداً.

لم تكن تفهم كيف يمكن للمرء أن يضع نفسه في حالة كهذه من أجل كتاب. في كل مرة، كانت تتمنى لو أنه يدعوها للبقاء وتناول العشاء معه. فداءً ما كانت تعد أطباقاً لشخصين، لكنه لم يلاحظ ذلك أبداً. كانت تظل واقفة لبضع دقائق، بين المطبخ وغرفة الطعام، لا تعرف ماذا تقول. كان يتردد في دعوتها لتبقى قليلاً، لكنه كان يقرر عكس ذلك لأنه لم يكن يريد أن تتعلق بآمال كاذبة. كان يعلم أنه لن

يحب ثانية أبداً. حين كان يخيم صمت مربك، كان يقول لها: «شكراً» ويتوجه إلى الباب ويفتحه ليدعوها للمغادرة.

كانت تعود إلى منزلها خائبة الأمل وقلقة، ويعدّها لها والدّها كوباً من الشوكولاتة الساخنة، يُذوّب فيه قطعة من حلوى المارشملو، ثم يوقد مدفأة غرفة المعيشة، فيجلسان على الأريكة قبالة النار، وتحكي له عن حالة هاري المزرية.

- لماذا هو حزين إلى هذه الدرجة؟ كانت تسأل والدها. يبدو على وشك الموت.

- لا أدري، كان يرد روبرت كوين.

كان يخشى الخروج. ففي المرات النادرة التي كان يغادر فيها غوز كوف، كان يجد عند عودته تلك الرسائل الشنيعة. كان شخص ما يتجسس عليه. شخص يريد إيذاؤه. شخص يترصد خروجه ليضع مظلوماً صغيراً في إطار الباب، وفي داخله الكلمات نفسها:

أعرف ما فعلته بتلك الفتاة ذات الخمس عشرة سنة.

وقريباً ستعرف المدينة بأكملها.

من؟ من الذي يريد النيل منه؟ من الذي يعرف ما بينه وبين نولا ويريد إيذاؤه الآن؟ كان الأمر يزعجه. فكلّما وجد فيها رسالة، كان يصاب بنوبات من الحمى. كان رأسه يؤلمه ويشعر بالقلق، كما تنتابه أحياناً نوبات من الغثيان والأرق. كان يخشى أن يُتهم بالحقاق الأذى بنولا. كيف له أن يثبت براءته؟ كان يتخيل أسوأ السيناريوهات: القبوع في السجن الفيدرالي لبقية عمره، أو أسوأ، الإعدام. أنتج عن ذلك شيئاً فشيئاً خوف مرضي من الشرطة: كانت رؤية زي شرطي أو سيارة شرطة كفيفة بجعله يشعر بتوتر شديد. ذات يوم، وهو يخرج من السوبر ماركت، رأى دورية تابعة لشرطة الولاية مركونة في موقف السيارات،

وبداخلها ضابط يتعقبه بنظره. حاول جاهداً أن يحافظ على هدوئه وأسرع الخطى نحو سيارته، حاملاً أغراضه. لكنه سمع فجأة صوتاً يناديه. كان رجل الشرطة. تظاهر هاري بأنه لم يسمع شيئاً. سمع صوت فتح باب السيارة من خلفه؛ ترجل الشرطي من سيارته. سمع وقع خطواته، ورنين حزامه المثقل بالأصفاد، وبمسدسة، وبهراوته. عند وصوله إلى سيارته، ألقى بأغراضه في الصندوق، عازماً على الفرار. كان يرتعش، ويتصبب عرقاً، ورؤيته ضبابية: كان مرعوباً تماماً. اهدأ، قال لنفسه، اركب السيارة، واختف. ولا تعد إلى غوز كوف. لكن لم يكن لديه الوقت ليفعل أي شيء: شعر بيد قوية تحط على كتفه.

لم يسبق له أن تشارك في حياته، فلم يكن يعرف كيف يتعارك. ماذا كان عليه أن يفعل؟ هل يدفعه بقوة، حالما يركب سيارته ويهرب؟ يسدد له اللكمات؟ أم يجرده من مسدسه ويُرديه؟ استدار، مستعداً لكل الاحتمالات، وإذ بالشرطي يمد له ورقة مالية من فئة عشرين دولار.

- لقد سقطت منك هذه، يا سيدي. ناديتك، لكنك لم تسمعني. هل أنت بخير، يا سيدي؟ وجهك شاحب...

- أنا بخير، رد هاري، أنا بخير. كنت... كنت... غارقاً في أفكار... شكراً... يجب... يجب أن أغادر.

حياه الشرطي بحركة ودودة من يده، ثم عاد إلى سيارته. كان هاري يرتعش.

في أعقاب تلك الحادثة، التحق هاري ببنادٍ للملاكمة، وراح يمارسها بانتظام. ثم قرر أن يعرض نفسه على طبيب نفسي، فاستفسر عن الأمر واتصل بالدكتور روجر آشكروفت في كونكورد، وهو أحد أفضل الأطباء النفسيين في المنطقة. اتفقا على لقاء أسبوعي كل أربعاء صباحاً، من الساعة 10:40 حتى الـ 11:30. لم يتحدث عن الرسائل مع الدكتور آشكروفت، لكنه تحدث عن نولا. دون ذكر اسمها. لكنه

استطاع لأول مرة أن يكلم أحداً عن نولا، وهو ما أراحه كثيراً. كان أشكروفت جالساً في مقعده الوثير، يستمع إليه باهتمام، ويعبث بالأوراق أمامه كل مرة ينطلق فيها في تأويل ما.

- أعتقد أنني أرى الموتى، قال هاري.

- لقد ماتت صديقتك، إذاً؟ استتج أشكروفت.

- لا أدري... وهذا ما يصيبني بالجنون.

- لا أعتقد أنك مجنون، يا سيد كبير.

- أنا أذهب إلى الشاطئ أحياناً وأنادي باسمها. وحين تخور قواي، أجلس على الرمل وأبكي.

- أعتقد أنك في حالة حداد. هناك جانبك العقلاني، الحاد، والواعي الذي يتصارع مع جانب آخر منك يرفض قبول ما هو غير مقبول في نظره. فحين يفوق الواقع قدرتنا على التحمل، نحاول تحريفه. قد يكون من المفيد أن أصف لك حبوباً مهدئة لتساعدك على الاسترخاء.

- لا، شكراً. عليّ أن أكون مركزاً على كتابي.

- حدثني عن هذا الكتاب، يا سيد كبير.

- إنها قصة حب رائعة.

- وعمّ تتحدث قصة الحب هذه؟

- عن حب بين شخصين، حب لا يمكن أن يتحقق.

- أهى قصتك أنت وصديقتك؟

- نعم. أنا أكره الكتب.

- لماذا؟

- إنها تؤذيني.

- انتهى الوقت. سنكمل حديثنا في الأسبوع المقبل.

- حسناً، شكراً دكتور.

ذات يوم، في قاعة الانتظار، رأى تمارا كوين وهي تخرج من عيادة الدكتور.

*

أنجزت مخطوطة الكتاب في منتصف شهر نوفمبر، بعد ظهيرة يوم معتم، بحيث لم يتبين ما إذا كان النهار أم الليل. رتب رزمة الأوراق السميكة بعناية وأعاد قراءة العنوان المكتوب بخط عريض على الغلاف:

أصول الشر

لهاري ل. كبير

شعر فجأة بحاجة ليخبر أحداً، فذهب إلى كلاركس بحثاً عن جيني.

- لقد أنهيت كتابي! قال لها، مبتهجاً. لقد جئت إلى أورورا لأؤلف كتاباً، وها هو قد انتهى! انتهى! انتهى! انتهى!

- رائع! ردّت جيني. أنا واثقة أنه كتاب عظيم. ماذا ستفعل الآن؟

- سأذهب إلى نيويورك لبعض الوقت، لأعرضه على الناشرين. أرسل نسخاً من المخطوطة إلى خمس دور نشر في نيويورك. وبعد أقل من شهر، اتصلت به الدور الخمس، التي رأت في العمل تحفة أدبية لا تفوت، وزايدت في محاولة لشراء الحقوق. بدأت حياة جديدة. وعيّن وكيلاً أدبياً ومحامياً، وقبل بضع أيام من أعياد الميلاد، وقّع عقداً خيالياً بقيمة 100000 دولار مع إحدى الدور. كان في طريقه إلى المجد.

عاد إلى غوز كوف يوم 23 ديسمبر على متن سيارة كرايسلر كوردوبا جديدة، إذ رغب في أن يقضي أعياد الميلاد في أورورا. وجد

رسالة مثبتة في إطار الباب، رسالة مجهولة المصدر وُضعت منذ عدة أيام، كانت آخر رسالة يتلقاها.

كان اليوم التالي مخصصاً لإعداد وجبة المساء: أعد ديكاً رومياً ضخماً، وفاصوليا مشوكة في الزبدة، وبطاطس محمرة في الزيت، كما صنع حلوى بالشوكولاتة والكريمة الطازجة. كانت تنبثق من مشغل الموسيقى أوبرا مدام بترفلاي. رتب المائدة من أجل شخصين، إلى جانب شجرة الميلاد. لم يلاحظ روبرت كوين الذي كان يراقبه خلف الزجاج المضرب، والذي أقسم في ذلك اليوم أن يكف عن إرسال رسائله.

بعد أن تناول العشاء، استأذن هاري من الطبق الفارغ أمامه واتجه إلى مكتبه ليعود منه بعد لحظات حاملاً صندوقاً كبيراً من الكرتون.

- هل هذا من أجلي؟ صاحت نولا.

- لم يكن من السهل العثور عليه، لكن ها هو ذا، أجاب هاري وهو يضع الصندوق على الأرض.

جثت نولا على ركبتيهما بالقرب من الصندوق. «ما هذا؟ ما هذا؟»، رددت وهي ترفع غطاء العلبة الذي لم يكن مختوماً. ظهر خطم ثم رأسٌ أصفر صغير. «جرو! إنه جرو! كلب بلون الشمس! أوه، يا هاري، هاري حبيبي! شكراً! شكراً!». أخرجت الكلب الصغير من العلبة وضمته بين ذراعيها. كان جرواً من فصيلة لابرادو عمره شهران ونصف الشهر. «سيكون اسمك ستورم!»، قالت للكلب. «ستورم! ستورم! أنت الكلب الذي لطالما حلمت به».

وضعت الكلب على الأرض، فراح يستكشف بيئته الجديدة وينبح، بينما حضنت هي هاري بامتنان.

- شكراً، يا هاري، كم أنا سعيدة معك. لكنني أشعر بالخجل، فأنا لم أحضر لك هدية.

- هديتي هي سعادتك، يا نولا.

ضمها بين ذراعيه، لكنه شعر بها تنزلق، وسرعان ما لم يعد يشعر بها، ولم يعد يراها. ناداها لكنها لم تجب. وجد نفسه وحيداً وسط غرفة الطعام، محتضناً ذراعيه. وفي الأسفل، عند قدميه، كان الجرو قد خرج من الصندوق وراح يلعب بأربطة حذائه.

*

صدر أصول الشر في يونيو عام 1976، ولاقى الكتاب نجاحاً هائلاً فور صدوره، كما أن النقاد أثنوا على هاري كيبر واعتبروه في عمر الخمسة وثلاثين أهم كُتّاب جيله.

وقبل صدور الكتاب بأسبوعين، ذهب ناشر هاري، مدركاً ما سيحقق الكتاب من نجاح، إلى أورورا بنفسه ليعيد هاري معه إلى نيويورك.

- كيبر، قيل لي إنك لا تريد الذهاب إلى نيويورك؟ سأله الناشر.
- لا يمكنني أن أغادر، قال هاري. فأنا أنتظر أحداً.
- تنتظر أحداً؟ ما الذي تقوله؟ إن أميركا بأكملها تنتظرك. سوف تصبح نجماً كبيراً!

- لا يمكنني أن أغادر، لديّ كلب.
- حسناً، سنأخذه معنا. ستري، سندلّله: ستكون لديه مربية، وطباخة، ومن يصطحبه للتنزه، ومن ينظفه. هيا، احزم حقائبك، وإلى المجد، يا صديقي.

وهكذا غادر هاري أورورا في جولة عبر البلاد دامت عدة أشهر، وسرعان ما لم يعد أحدٌ يتكلم إلا عنه وعن كتابه المدهش. كانت جيني تتابع أخباره من مطبخ كلاركس أو من غرفة نومها، من خلال الراديو والتلفزيون. كانت تشتري كل الصحف التي كتبت عنه، وتحتفظ بكل المقالات بعناية. وكلّما كانت تعثر على كتابه في متجر ما، كانت تشتريه، فكان لديها أكثر من عشر نسخ الآن. كانت قد قرأتها جميعاً. وتساءلت أحياناً ما إذا كان سيعود ليأخذها معه. فحين كان يمر ساعي

البريد، كانت تأمل أن يحمل لها رسالة منه، وحين كان يرن الهاتف، كانت تتمنى أن يكون هو المتصل. انتظرته طوال الصيف. وحين كانت تصادف سيارة تشبه سيارته، كان قلبها يخفق بقوة.

انتظرته طوال الخريف الذي تلا، وكلّما فُتح فيها باب المطعم، كانت تتخيل أنه عاد ليأخذها معه. كان حب حياتها. وأثناء انتظارها، لتشغل ذهنها، كانت تفكر في الأيام الخوالي التي كان يجلس فيها إلى الطاولة رقم 17 ويعمل على كتابه. هناك، بالقرب منها، كان قد كتب هذا العمل العظيم الذي تقرأ منه بضع صفحات كل ليلة. وفي حال رغب في الاستمرار في العيش في أورورا، يمكنه أن يأتي إلى هنا كل يوم: ستظل تعمل كنادلة، فقط لتكون إلى جانبه. لا يهم إن قدمت الهامبرغر طوال حياتها، ما دامت ستكون إلى جانبه. ورغم توبيخات أمها، إلا أنها طلبت أن تُصنع على نفقتها الخاصة لوحة معدنية ثبتتها على الطاولة رقم 17، محفور عليها:

على هذه الطاولة ألّف الكاتب هاري
كيبير، في صيف 1975، روايته الشهيرة
أصول الشر

يوم 13 أكتوبر 1976، احتفلت بعيد ميلادها السادس والعشرين. كان هاري في فيلادلفيا، كما قرأت في إحدى الصحف. لم تسمع عنه أبداً منذ أن غادر. في تلك الليلة، في غرفة المعيشة لمنزل آل كوين، وبحضور والديها، طلب ترافيس داون، الذي كان يتناول الغداء معهم كل يوم أحد منذ عام، طلب يد جيني للزواج. ولمّا كانت قد فقدت الأمل، وافقت على طلبه.

*

بعد الأحداث بعشر سنوات، كان طيف نولا واختطافها قد تلاشيا مع مرور الوقت، وكانت الحياة قد عادت إلى شوارع أورورا منذ زمن طويل: عاد الأطفال ليلعبوا الهوكي من جديد، كما عادت مسابقات القفز على الحبل، وظهرت ألعاب الحجلة على الأرصفة من جديد، كما تكدست مجدداً الدراجات أمام متجر عائلة هندروف.

في غوز كوف، في صباح أحد أيام الأسبوع الثاني من شهر يوليو، كان هاري جالساً على الشرفة، يستمتع بحرارة تلك الأيام الجميلة وهو يصصح أوراق روايته الجديدة؛ وكان الكلب ستورم نائماً بالقرب منه. مرّ سرب من النوارس فوقه، تعقبها بنظره حتى حطت على الشاطئ. نهض ليحضر من المطبخ قطع الخبز التي كان يضعها في علبة حديدية بيضاء مكتوب عليها: ذكرى من روكلاند، مين، ثم نزل إلى الشاطئ ليوزعها على الطيور، يتبعه ستورم العجوز الذي باتت حركته صعبة جراء وجع المفاصل. جلس على الحصى ليشاهد النوارس، وجلس الكلب إلى جانبه. داعبه طويلاً. «أوه، عزيزي ستورم العجوز المسكين، قال له، أصبحت تمشي بصعوبة، أليس كذلك؟ أنت لم تعد فتياً... أتذكر اليوم الذي اشتريتك فيه، كان ذلك قبل أعياد الميلاد لعام 1975... كنت كرة صغيرة من الزغب، لا تتعدى حجم قبضتي».

سمع فجأة صوتاً يناديه.

- هاري؟

كان هناك زائر على الشرفة، يناديه. دقق هاري النظر فيه فتعرف على إريك رندال، رئيس جامعة بوروس في ماساتشوستس. كان قد التقى به في إحدى الندوات قبل عام فنشأت بينهما علاقة ودية، وظلا على اتصال منذ ذلك الحين.

- إريك؟ أهذا أنت؟ ردّ هاري.

- هذا أنا.

- ابقَ هناك، أنا قادم.

لحق هاري بإريك على الشرفة في غضون ثوانٍ قليلة، يتبعه بصعوبة اللابرادور العجوز.

- لقد حاولت الاتصال بك، قال رئيس الجامعة مبرراً زيارته المفاجئة.

- قلّما ما أجيب على الهاتف، أجاب هاري مبتسماً.

- أهذه روايتك الجديدة؟ سأل إريك وقد رأى الأوراق المبعثرة على الطاولة.

- نعم، ستصدر في الخريف. أنا أعمل عليها منذ عامين... ما زلت أراجع البروفة، لكن أتعرف، أظن أن ما من شيء سأكتبه سيكون بمستوى أصول الشر.

حذق إريك بهاري، وقد بدا عليه التعاطف.

- في الواقع، قال له، لا يؤلّف الكُتّاب سوى كتاب واحد في حياتهم.

أوماً هاري برأسه موافقاً، وقدم القهوة لضيفه. ثم استقرا حول الطاولة وأوضح رندا:

- هاري، لقد سمحتُ لنفسِي أن آتي لزيارتك لأنني أتذكر أنك شاركتني رغبتك في أن تعلّم في الجامعة، وهناك مكان شاغر لأستاذ في قسم الآداب في جامعة بوروس. أعلم أنها ليست هارفارد، لكنها جامعة جيدة. فإذا كان المنصب يهَمُّك، فهو لك.

استدار هاري نحو الكلب ذي لون الشمس، وداعبه.

- أسمعت ذلك، يا ستورم، وشوش في أذنه، سأصبح أستاذاً في الجامعة.

مبدأ بارناسكي

- «أترى، يا ماركوس، الكلمات مهمة، لكنها لا تجدي نفعاً ولا تكفي أحياناً. يأتي وقت لا يرغب فيه البعض في الإنصات لك.
- ماذا يتعين عليّ فعله في هذه الحالة؟
 - أمسك بهم من ياقته، واضغط بكوعك على أعناقهم، بقوة.
 - لماذا؟
 - لتخنقهم. حين لا تعود الكلمات تُجدي نفعاً، اذهب وسدد بعض اللكمات من حولك».

في بداية شهر أغسطس 2008، وعلى ضوء النتائج الجديدة للتحقيق، قدّم مكتب المدعي العام لولاية نيو هامبشير تقريراً جديداً للقاضي المكلف بالقضية، يفيد بأن لوثر كاليب هو قاتل ديبورا كوبر ونولا كيلرغان، التي خطفها، وضربها حتى الموت، ودفنها في غوز كوف. على خلفية هذا التقرير، استدعى القاضي هاري كيبير لجلسة طارئة أسقط عنه فيها جميع الاتهامات الموجهة إليه، ما أعطى القضية صبغة مسلسل الصيف المشوق: هاري كيبير، النجم الذي انفصح ماضيه وجردّه من مجده، قد تمت تبرئته أخيراً بعد أن واجه حكماً بالإعدام، ودُمّرت مسيرته الأدبية.

واكتسب لوثر كاليب بعد وفاته سمعة سيئة، فانتشرت تفاصيل حياته على صفحات الجرائد ودخل اسمه لائحة كبار المجرمين في تاريخ أمريكا، وسرعان ما انصب اهتمام الرأي العام عليه، فنبشت حياته، وعرضت المجلات المصورة قصة حياته الشخصية، مع صور من الأرشيف اشتريتها من أقاربه: سنواته الهائلة في بورتلاند، موهبته في الرسم، الاعتداء العنيف الذي تعرّض له، تدهور حياته بعد ذلك. ألهمت رغبته في رسم النساء العاريات شغف الجماهير وطلب من الأطباء النفسيين شرحها وتوضيحها: أهو مرض معروف؟ هل مهّد لما تلا من أحداث مأسوية؟ سمحت تسريبات من الشرطة بنشر صور للوحة

التي عُثر عليها لدى إلبجاه ستيرن، والتي فتحت الباب لتكهنات جنونية: تساءل الجميع عن السبب الذي جعل ستيرن، رجل الأعمال النافذ والمحترم، يؤيد جلسات رسم فتاة عارية في الخامسة عشرة من عمرها. واتجهت الأنظار غير الراضية إلى المدعي العام للولاية، واهتمته بالتصرف المتهور واتهام كبير من دون وجه حق. بل اعتبر البعض أنه بتوقيعه قرار اعتقال كبير في أغسطس، يكون قد وقع على ورقة نهاية مسيرته المهنية. إلا أنه تم إنقاذ المدعي العام بفضل غاهالوود الذي، بصفته المسؤول عن التحقيق لدى الشرطة، تحمّل مسؤولياته كاملة، فدعا إلى مؤتمر صحفي ليشرح فيه أنه هو من اعتقل هاري كبير، لكن هو من حرّره أيضاً، وأن هذا ليس تناقضاً أو فشلاً بل دليل على أن العدالة أخذت مجراها على نحو سليم. «نحن لم نقم بحبس أحد بالخطأ، قال للجمع الغفير من الصحفيين. كانت لدينا شكوك وتبددت، وتصرفنا على نحو منطقي في الحالتين. هذا هو عمل الشرطة». ورداً على سؤال لماذا استغرق الأمر كل هذه السنوات لكشف الجاني، شرح نظريته عن الالتفاف: كانت نولا هي العنصر المحوري الذي التفّ حوله عددٌ من العناصر الأخرى، فكان لا بد من عزل هذه العناصر للوصول إلى الجاني، لكن هذا العمل لم يكن ممكناً إلا مع اكتشاف الجثة. «تقولون إن الأمر استغرق منا ثلاثة وثلاثين عاماً لنحل جريمة القتل هذه، لكن في الحقيقة، استغرق الأمر شهرين فقط. فقبل ذلك، لم تكن هناك جثة، وبالتالي لم تكن هناك جريمة. مجرد صبية مختفية».

كان بينجامين روث هو أسوأ من فهم الوضع. حين قابلته بالصدفة يوماً في قسم مستحضرات التجميل بأحد المراكز التجارية الكبرى في كونكوررد، قال لي:

- شيء لا يُصدق. لقد ذهبت لزيارة هاري في الفندق أمس، فبدا كما لو أن تبرئته من الاتهامات لا تسره حقاً.

- إنه حزين ، وضحت له .
- حزين ؟ لقد ربحنا وهو حزين ؟
- إنه حزين لأن نولا ماتت .
- لكنها ماتت منذ ثلاثة وثلاثين سنة .
- هي ماتت فعلياً الآن .
- لا أفهم ما تريد قوله ، يا غولدمان .
- هذا لا يفاجئني .
- المهم ، ذهبت لأطلب منه أن يقوم بالترتيبات اللازمة بشأن منزله : لقد تحدثت مع المسؤولين في شركة التأمين ، وسيأخذون كل شيء على عاتقهم ، لكن يجب أن يعيّن مهندساً وأن يقرر ماذا يريد أن يفعل ، لكنه بدا غير مهتم على الإطلاق . كلُّ ما قاله لي هو : «خذني إلى هناك» . فذهبنا إلى هناك . ما زال هناك الكثير من الأغراض في ذلك المنزل ، أتعلم ذلك ؟ لقد ترك كل شيء هناك ، الأثاث والأشياء التي لم تتضرّر . قال إنه لم يعد بحاجة إلى أي شيء . بقينا هناك أكثر من ساعة . ساعة أتلقت فيها حذائي البالغ ثمنه 600 دولار . أشرتُ إلى ما يمكنه استعادته ، خاصة من بين أثاثه القديم ، واقترحته عليه هدم أحد جدران غرفة المعيشة لتوسيعها ، كما ذكرته بأنه بإمكاننا أن نلاحق الولاية قضائياً للحصول على تعويضات عن الأضرار المعنوية التي تسببت بها هذه القضية ، وأنا يمكن أن نحصل على مبلغ طائل . لكنه لم يستجب لأي من ذلك . اقترحت عليه أن يطلب من شركة نقلٍ أن تأخذ كل ما هو بحالة جيدة وأن تقوم بتخزينه في مستودع ، وقلت له إنه كان محظوظاً لأنها لم تُمطر ولم يُسرق شيء ، لكنه أجاب بأن لا داعي لأي من ذلك . بل أضاف أنه لا يهم إذا سُرق المنزل ، فسيكون الأثاث مفيداً لأحد على الأقل . أتفهم شيئاً من كل ذلك ، يا غولدمان ؟
- نعم ، لم يعد المنزل يفيدني في شيء .
- لم يعد يفيدني ؟ لماذا ؟

- لأنه لم يعد هناك مَنْ ينتظره فيه .

- ينتظره؟ ينتظر من؟

- نولا .

- لكن نولا ماتت!

- تماماً .

هز روث كتفيه .

- في الواقع ، كنتُ على حق منذ البداية . كيلرغان الصغيرة هذه كانت فاسقة . كانت لديها علاقات مع كل رجال المدينة ، وكان هاري الضحية ، الرجل الرقيق الرومانسي الذي جنى على نفسه حين كتب لها رسائل حب ، بل ألّف لها كتاباً كاملاً .

ضحك ضحكة مجلجلة .

كان هذا أكثر مما أمكنني تحمّله . بحركة سريعة وبيد واحدة ، أمسكت بياقة قميصه ودفعته فسقطت بعض زجاجات العطر من الرفوف وتهشمت على الأرض . ثم ضغطت بساعدي الآخر على حنجرتي .

- لقد غيرت نولا حياة هاري! صرخت . وضحتُ بنفسها من أجله! أنا لن أسمح لك أن تردد للجميع أنها كانت فاسقة .

حاول أن يفلت مني لكن من دون جدوى . سمعت صوته المبحوح يختنق . تجمع حولنا بعض الناس وهرع نحونا بعض موظفي الأمن ، فأفلته في النهاية . كان وجهه أحمر مثل حبة طماطم ، وقميصه مجعداً .
تمتم :

- أنت . . . أنت . . . أنت مجنون ، يا غولدمان! مجنون مثل كبير!

يمكنني أن أقدم شكوى ضدك!

- افعل ما يحلو لك ، يا روث!

غادر وهو يستشيط غضباً ، وحين أصبح بعيداً ، صاح :

- أنت من قلت إنها فاسقة ، يا غولدمان! كان هذا في أوراقك ،

أليس كذلك؟ كل هذا هو خطؤك أنت!

كنت أريد لكتابي أن يصلح الكارثة التي نتجت عن نشر تلك الأوراق. بقي شهر ونصف الشهر على موعد صدوره الرسمي، وكان روي بارناسكي متشوقاً إلى أقصى الحدود: كان يتصل بي عدة مرات في اليوم ليشاركني حماسه.

- كل شيء مثالي! صاح أثناء إحدى محادثتنا. والتوقيت رائع! تقرير المدعي العام الذي صدر الآن، كل هذه الضجة، إنها ضربة حظ لا تُصدق. إذ بعد ثلاثة أشهر، ستبدأ الانتخابات الرئاسية، وحينذاك لن يهتم أحدٌ بكتابك، ولا بتلك القضية. أعلم، المعلومة هي سيل غير محدود في مساحة محدودة. إن حجم المعلومات متسارع، لكن الوقت الذي يعطيها كل شخص محدود وغير قابل للتمديد. كم من الوقت يكرسه المواطن العادي لذلك برأيك، ساعة في اليوم؟ عشرون دقيقة للجريدة المجانية في المترو صباحاً، ونصف ساعة على الإنترنت في المكتب، وربع ساعة أمام CNN مساءً قبل الخلود إلى النوم. ولملء هذا الحيز الزمني، هناك كمّ غير محدود من المادة. تقع الكثير من الأحداث الشنيعة حول العالم، لكن لا يتم ذكرها لأن لا وقت لذلك. لا يمكن الحديث عن نولا كيلرغان وعن السودان، الوقت لا يسمح بذلك، أفهم؟ مدة الانتباه: خمس عشرة دقيقة على CNN مساءً. لأن الناس يريدون مشاهدة مسلسلهم المفضل بعد ذلك. الحياة هي مسألة أولويات.

- أنت متشائم، يا روي، رددت عليه.

- لا، طبعاً لا! كف عن وصفي بكل العيوب! أنا واقعي، بكل بساطة. أما أنت فصائد فراشات رقيق، حالم يجوب السهوب باحثاً عن الإلهام. فلو كنتَ كتبتَ عملاً عظيماً عن السودان، فلم أكن لأنشره. لأن الناس لا يبالون! لا يبالون! نعم، يمكنك أن تعتبرني حقيراً، لكنني في الحقيقة ألبي طلب الجماهير. لا أحد يهتم بالسودان، وهذا هو واقع الأمر. اليوم، يتحدث الجميع عن هاري كير

ونولا كيلرغان، وعلينا الاستفادة من ذلك، فبعد شهرين، سيتحدث الناس عن الرئيس الجديد ولن يعود كتابك موجوداً. لكن سنكون قد بعنا منه ما يكفي من النسخ ليتسنى لك أن تنعم بحياة من الرفاهية في منزلك الجديد بجزر البهاما.

لا شك أنه كانت لدى بارناسكي موهبة في ملء المجال الإعلامي، فكان الجميع يتحدث عن الكتاب، وكلما تحدث عنه الناس، ضاعف هو حملاته الإعلانية، جاعلاً الناس يتحدثون عنه أكثر. قضية هاري كبير، كتاب المليون دولار، كما قدمته الصحافة. عرفت حينذاك أن الرقم الخيالي الذي عرضه عليّ والذي تحدثت عنه وسائل الإعلام كان في الواقع استثماراً إعلانياً: فبدلاً من أن ينفقه على الدعاية أو اللاقات، استخدمه في تأجيج الاهتمام العام حول الكتاب. هو لم يُخفِ ذلك حين سألته عن الأمر، وشرح لي نظريته حول الموضوع: بحسب رأيه، انقلبت القواعد التجارية مع ظهور الإنترنت وشبكات التواصل الاجتماعي.

- تخيل، يا ماركوس، كم يكلف إعلان واحد في المترو في نيويورك. يكلف ثروة. نحن ندفع أموالاً طائلة لإعلان مدته محدودة وعدد الناس الذين يرونه محدود أيضاً: إذ يجب أن يكون هؤلاء الناس في نيويورك وأن يستقلوا خط المترو هذا في هذه المحطة في حيز زمني معين. أما الآن، فيكفي أن تثير اهتمام الناس بطريقة ما لخلق «ضجة» كما يقال، وأن تجعلهم يتحدثون عنك، وتعتمد على هؤلاء الناس في الحديث عنك على وسائل التواصل الاجتماعي: فأنت تدخل هنا مجالاً إعلانياً مجانياً وغير محدود، حيث يتكفل أناس من العالم أجمع، حتى دون أن يعوا ذلك، بتأمين دعاية لك على مستوى الكوكب، أليس هذا مدهشاً؟ رواد فيسبوك هم أناس يقومون بإعلانات مجانية، ومن الغباء عدم استغلالهم.

- وهذا ما فعلته، أليس كذلك؟

- أني دفعْتُ لك مليون دولار؟ نعم. ادفع مبلغاً يليق بلاعب كرة قدم أو كرة سلة لشخصٍ مقابل تأليف كتاب، وكن متأكداً أن الجميع سيتحدثون عنه.

في نيويورك، في مقر شميد وهانسون، كان التوتر على أشده. كانت فرق بأكملها مجندة لإنتاج الكتاب ومتابعته. وصلني عبر البريد جهازٌ للاجتماعات الهاتفية، يخولني المشاركة من غرفتي في ريجنتس في كل الاجتماعات المنعقدة في مانهاتن. اجتماعات مع فريق التسويق المكلف بالترويج للكتاب، اجتماعات مع فريق الغرافيك المكلف بتصميم الغلاف، اجتماعات مع الفريق القانوني المكلف بدراسة كل الجوانب القانونية التي تخص الكتاب، وأخيراً اجتماعات مع فريق من كُتَّاب الظل كان بارناسكي يستخدمهم لبعض كتابه المشهورين، والذي أصرّ أن أعمل معهم.

الاجتماع الهاتفي رقم 2. مع كُتَّاب الظل:

- يجب أن يكون الكتاب منجزاً في غضون ثلاثة أسابيع، يا ماركوس، ردد بارناسكي للمرة العاشرة. بعد ذلك، سيكون لدينا عشرة أيام للتصحيح، ثم أسبوع للطباعة، ما يعني أننا سنغرق البلاد بالنسخ قبل نهاية شهر سبتمبر. هل ستستطيع فعل ذلك؟
- نعم، يا روي.

- إذا كنتَ بحاجة إلينا، يمكننا القدوم فوراً، صاح في الخلفية رئيس فريق كُتَّاب الظل، شخص يدعى فرانك لانكستر. سنستقل أول طائرة إلى كونكورد، بحيث نكون هناك لمساعدتك غداً.

سمعت الآخرين يصيحون من حوله: نعم، سيكونون هناك غداً وسيكون ذلك رائعاً.

- ما سيكون رائعاً هو أن تتركوني أعمل . سأنجز هذا الكتاب وحدي .

- لكنهم كفؤون، قال بارناسكي، فأنت نفسك لن ترى الفرق .
- نعم، أنت نفسك لن ترى الفرق، ردد فرانك . لماذا الكد في العمل في حين يمكنك ألا تفعل؟
- لا تقلقوا، سأسَلِّم العمل في الموعد المحدد .

الاجتماع الهاتفي رقم 4 . مع فريق التسويق :

- سيد غولدمان، قالت لي ساندرا من قسم التسويق، نحن بحاجة إلى صورٍ لك وأنت تكتب، وصور من الأرشييف مع هاري، وصور لأورورا . وملاحظاتك من أجل تأليف الكتاب أيضاً .
- نعم، كل ملاحظاتك، زايد بارناسكي .
- نعم . . . حسناً . . . لماذا؟ سألتُ .
- نود أن ننشر كتاباً عن كتابك، شرحت لي ساندرا . شيء أشبه بسجل يوميات، غنيّ بالصور . سينال نجاحاً كبيراً، سترى . فكلُّ مَنْ اشترى كتابك سيريد يوميات الكتاب أيضاً، والعكس صحيح .
تنهدت قائلاً :

- ألا تعتقدون أن لديّ حالياً ما هو أهم من تحضير كتابٍ عن كتاب لم أنه بعد؟
- لم تنه بعد! صرخ بارناسكي في هستيريا . سأرسل لك كُتَّاب الظل فوراً!
- لا ترسل أحداً، بحق السماء! دعني أنهي كتابي في هدوء .

الاجتماع الهاتفي رقم 6 . مع كُتَّاب الظل :

- لقد كتبنا أن كاليب بكى حين دفن الصغيرة، أعلن لي فرانك لانكستر .

- ماذا تعني بـ لقد كتبنا؟

- نعم، لقد دفن الفتاة وبكى. انهمرت الدموع على القبر، ما جعل الأرض طيناً. إنه مشهد مؤثر، سترى.

- لكن بحق السماء، هل طلبتُ منكم أن تكتبوا مشهداً مؤثراً عن كاليب وهو يدفن نولا؟

- لا... لكن قال لي السيد بارناسكي...

- بارناسكي؟ ألو، روي، هل أنت هنا؟ ألو؟ ألو؟

- همم... نعم، يا ماركوس، أنا هنا...

- ما معنى هذا الكلام؟

- لا داعي للتعصيب، يا ماركوس. لا يمكن أن أخطر بالآل يُنجز الكتاب في الوقت المحدد، لذلك طلبت منهم أن يباشروا في الكتابة، من باب الاحتياط فحسب. إذا لم يعجبك ما كتبوه، فلن نستخدمه. لكن تخيل ألا تتمكن من إنهاء الكتاب! سيكون هذا بمثابة عوامة نجاة!

الاجتماع الهاتفى رقم 10. مع الفريق القانوني:

- صباح الخير، يا سيد غولدمان، معك ريتشاردسون من القسم القانوني. لقد درسنا كل شيء ونؤكد لك الآتي: بإمكانك ذكر كل أسماء العلم في كتابك: ستيرن، وبرات، وكاليب، إذ كل ما تتحدث عنه ورد في تقرير المدعي العام وتناولته بدورها وسائل الإعلام. نحن محصنون، ولا من خطر يُذكر. لا وجود لأي اختراع أو تشهير. هناك حقائق فحسب.

- يقولون أيضاً إن بإمكانك أن تضيف مشاهد جنسية على شكل حلم أو خيال، أليس كذلك يا ريتشاردسون؟ أضاف بارناسكي.

- تماماً. لقد سبق لي أن قلتُ له ذلك. يمكن لشخصية كتابك أن تحلم بأنها تقوم بممارسات جنسية، ما سيتيح لك أن تضيف مشاهد جنسية إلى كتابك دون المخاطرة بملاحظات قانونية.

- نعم، القليل من الجنس، يا ماركوس، استأنف بارناسكي. قال لي فرانك إن كتابك جيد جداً لكن تنقصه بعض التوابل الحارة. فتاة في الخامسة عشرة وكبير الذي تجاوز الثلاثين وقتذاك. هيا! أضف بعض البهارات لوصفتك!

- أنت مجنون تماماً، يا روي، صحت به.

- أنت تفسد كل شيء، يا غولدمان، قال متنهداً. إن قصص النساء الصالحات تجعل الجميع يشعرون بالملل.

الاجتماع الهاتفي رقم 12. مع روي بارناسكي:

- ألو، روي؟

- روي من؟

- ماما؟

- ماركي؟

- ماما؟

- ماركي؟ أهذا أنت؟ من هو روي؟

- تباً، لقد أخطأت في الرقم.

- أخطأت في الرقم؟ يتصل بأمه، يقول تباً، ويقول إنه أخطأ في

الرقم؟

- ليس هذا ما قصدته، يا أمي. الأمر ببساطة أنني أردت أن

أتصل بروي بارناسكي، لكنني طلبت رقمك على نحوٍ آلي. ذهني مشتبك هذا الأيام.

- يتصل بأمه لأن ذهنه مشتبك... يا للروعة! نعطي الحياة لأبنائنا

وماذا نتلقى في المقابل؟ لا شيء.

- آسف، يا أمي، قبلي أبي. سأعيد الاتصال بك لاحقاً.

- انتظر!

- ماذا؟

- أليست لديك دقيقة لأملك المسكينة؟ أمك التي جعلت منك كاتباً جميلاً وعظيماً لا تستحق بضع ثوانٍ من وقتك؟ أتذكر جيريمي جونسون الصغير؟

- جيريمي؟ نعم، كنا معاً في المدرسة. لماذا تحدثيني عنه؟
- لقد توفيت أمه. أتذكر؟ ألا تعتقد أنه يتمنى أن يتصل بأمه التي في السماء مع الملائكة ويحدثها قليلاً؟ لا توجد خطوط هاتفية للسماء يا ماركي، لكن توجد خطوط هاتفية لمونتكلير! حاول أن تتذكر ذلك من وقت لآخر!

- جيريمي جونسون؟ لكن أمه لم تمت! هذا ما حاول أن يقنع الناس به لأنها كان لها زغب أسود على خديها أشبه بلحية الرجل. ولأن الأطفال كانوا يسخرون منها، قال إن أمه ماتت وإن تلك السيدة هي المربية.

- ماذا؟ مربية آل جونسون ذات اللحية هي الأم؟

- نعم، يا أمي.

سمعت أمي تنهض وتنادي أبي: «نيثن، تعال بسرعة، لدي نميمة لا بد أن تعرفها: السيدة ذات اللحية عند آل جونسون هي الأم! ماذا تعني بكنت تعلم؟ لماذا لم تخبرني؟».

- أمي، يجب أن أغلق الخط. لدي موعد هاتفي.

- ماذا يعني الموعد الهاتفي؟

- إنه موعد للتحدث على الهاتف.

- ولماذا لا نقوم بمواعيد هاتفية أنا وأنت؟

- المواعيد الهاتفية هي من أجل العمل، يا أمي.

- من هو روي هذا، يا حبيبي؟ أهو الرجل العاري الذي يختبئ في غرفتك؟ يمكنك أن تحكي لي كل شيء، فأنا مستعدة لأن أسمع أي شيء. لماذا ترغب في القيام بمواعيد هاتفية مع هذا الرجل القذر؟

- روي هو ناشري، يا أمي. أنت تعرفينه. لقد سبق لك أن قابلته في نيويورك.
- أتعلم، يا ماركوس، لقد تحدثت عن مشكلاتك الجنسية مع....
- هذا يكفي يا أمي، سأغلق الخط الآن. قبلي أبي.

الاجتماع الهاتفي رقم 13. مع فريق الغرافيك:

نُظِّمت جلسة عصف ذهني لاختيار الغلاف.

- يمكن أن يكون الغلاف صورة لك، اقترح ستيف، رئيس فريق الغرافيك.
- أو صورة لنولا، اقترح آخر.
- أو صورة لكاليب، قد يكون هذا مناسباً، ماذا تظن؟ اقترح ثالث.

- وماذا لو وضعنا صورة عن الغابة؟ اقترح أحد المساعدين.
- نعم، صورة داكنة ومقلقة، قد تكون فكرة لا بأس بها، قال بارناسكي.
- أو صورة رزينة، اقترحت من جهتي. مشهد لمدينة أورورا، وفي مقدمته صورة لطيفين قد يُعتَقَد أنهما هاري ونولا، يسيران جنباً إلى جنب على الطريق رقم 1.
- احذر الصور الرزينة، قال ستيف، إنها تُشعر القارئ بالملل، وما يُشعر بالملل لا يباع.

الاجتماع الهاتفي رقم 21. مع الفريق القانوني والغرافيك والتسويق:

سمعت صوت ريتشاردسون من القسم القانوني:

- أتريد الدوت؟
- هه؟ أنا؟ لا؟ أجبت.

- هو لا يخاطبك أنت، بل يخاطب ستيف من قسم الجرافيك،
أوضحت لي ساندرا من قسم التسويق.
- أيمن أن نتوقف عن الطعام ونكف عن مقاطعة النقاش باقتراح
فناجين القهوة والدونت؟ صاح بارناسكي. هل نحن نلعب هنا أم نصنع
كتاباً سيكون من الأكثر مبيعاً؟

*

بينما كان كتابي يتقدم بسرعة، كان التحقيق في مقتل الرئيس برات
يسير ببطء. لقد طلب غاهالوود أن يُزوّد فريقه بمحققين من الفرقة
الجنائية، إلا أنهم لم يحرزوا أي تقدم. لم يكن هناك أي دليل أو أي
أثر يمكن تتبعه. تناقشنا طويلاً حول هذا الموضوع في حانة للسائقين
عند مخرج المدينة، كان يلجأ إليها غاهالوود أحياناً ليسترىح ويلعب
البلياردو.

- إنه وكري، قال لي وهو يمد لي عصا كي ألعب معه. لقد أتيت
إلى هنا كثيراً في الآونة الأخيرة.

- لم تكن فترة سهلة، أليس كذلك؟

- الأمور أفضل الآن. لقد استطعنا حل قضية نولا كيلرغان على
الأقل، وهو الأهم. حتى وإن كانت لذلك عواقب أسوأ مما ظننت.
فالمدعي العام في موقف لا يُحسد عليه؛ هو دائماً ما يُلقى اللوم عليه
لأنه منتخب.

- وأنت؟

- طالما أن المحافظ راضٍ ورئيس الشرطة راضٍ، فالجميع
راضون. كما أن القيادات الكبرى تفكر في فتح قسم للملفات غير
المحلولة ويريدونني أن أنضم إليه.

- الملفات غير المحلولة؟ لكن أليس من المحبط ألا يكون هناك
مجرم ولا ضحية؟ هذه قصة أموات، في الحقيقة.

- بل قصة أحياء. في حالة نولا كيلرغان مثلاً، يحق للأب أن يعرف ماذا جرى لابنته، كما أن كبير كاد يُحاكم عن طريق الخطأ. يجب أن يكون بإمكان العدالة أن تنهي عملها، حتى ولو كان ذلك بعد الأحداث بسنوات.

- وماذا عن كاليب؟ سألته.

- أعتقد أنه شخص فقد صوابه. أعلم، في حالات كهذه، إما أن يكون الأمر متعلقاً بقاتل متسلسل، لكن لم تكن هناك حالة شبيهة بحالة نولا في المنطقة في العامين اللذين سبقا وتليا القضية، أو أن الجريمة تكون ضرباً من الجنون. أومأت برأسي.

- النقطة الوحيدة التي تزعجني هي برات. من الذي قتله؟ ولماذا؟ لا يزال هناك مجهول في هذه المعادلة، وأخشى ألا نتمكن من حلها أبداً.

- أما زلت تفكر في ستيرن؟

- لديّ شكوك فحسب. سبق لي أن شاركتك نظريتي القائلة إن هناك نقاطاً غامضة في علاقته بلوثر. ما هي طبيعة العلاقة التي جمعت بينهما؟ ولماذا لم يبلغ ستيرن عن اختفاء سيارته؟ هناك شيء غريب حقاً. أيمكن أن يكون متورطاً من بعيد؟ ممكن. - ألم تسأله؟

- بلى. لقد استقبلني مرتين بلطف شديد، وقال إنه يشعر بالارتياح منذ أن حكى لي عن قصة اللوحة. وأخبرني أنه كان يسمح أحياناً للوثر باستعمال الشيفروليه مونت كارلو لأغراض شخصية لأن سيارته الموستانغ الزرقاء لم تكن في حالة جيدة. لا أعلم إن كانت هذه الحقيقة، لكن بدا لي تفسيره منطقياً. بدا كل شيء منطقياً. لقد نقّبت في حياة ستيرن بدقة، ولم أجد شيئاً. وتحدثت إلى سيلا ميتشيل أيضاً، وسألته عما حدث لسيارة أخيها الموستانغ، فقالت إنها لا تعرف عنها

شيئاً. لقد اختفت تلك السيارة. ليس لديّ شيء ضد ستيرن، لا شيء يمكنه أن يجعلني أعتقد أنه متورط في القضية.

- لماذا قد يترك رجلُ أعمال مثل ستيرن سائقه يسيطر عليه؟ يستسلم لنزواته، يضع سيارته تحت تصرفه... هناك أمر يفلت مني.

- ومني أنا أيضاً، أيها الكاتب، أنا أيضاً.

وضعت كراتي على السجادة.

- يُفترض بكتابي أن يكون منتهياً في غضون أسبوعين، قلت له.

- حقاً؟ لقد كتبت بسرعة.

- ليس بسرعة كبيرة. قد تسمع أنه كتاب أُلّف في شهرين، لكنه استغرق مني سنتين في الحقيقة.

ابتسم غاهالوود.

*

في نهاية أغسطس 2008، انتهيت من كتابة قضية هاري كبير، كتاب سيحظى بنجاح هائل بعد ذلك بشهرين.

كان الوقت قد حان لأعود إلى نيويورك حيث كان بارناسكي يستعد للترويج للكتاب من خلال سلسلة من جلسات التصوير واللقاءات مع الصحفيين. وبمحض الصدفة، غادرتُ كونكورد في اليوم قبل الأخير من شهر أغسطس. وأنا على الطريق، مررت بأورورا لألتقي بهاري في الفندق الذي كان يقيم فيه. كان جالساً أمام باب غرفته كالعادة.

- أنا عائد إلى نيويورك، قلت له.

- إنه وداع إذاً...

- بل إنه إلى اللقاء. سأعود سريعاً. سأعيد الاعتبار لاسمك، يا هاري. امنحني بضعة أشهر وستعود الكاتب الأكثر تقديراً في البلاد.

- لماذا تفعل ذلك، يا ماركوس؟

- لأنك جعلت مني ما أنا عليه .
- وماذا إذا؟ تعتبر نفسك مديناً لي؟ جعلتُ منك كاتباً، لكنني كما يبدو لم أعد كاتباً في عيون الرأي العام، هل تحاول أن ترد لي ما سبق لي أن أعطيتك؟
- لا، أنا أَدافع عنك لأنني لطالما آمنتُ بك .
- مددت له مظلوماً ثقيلاً .
- ما هذا؟ سألني .
- كتابي .
- لن أقرأه .
- أريد موافقتك قبل أن أنشره . هذا الكتاب، إنه كتابك .
- لا، يا ماركوس . إنه كتابك أنت، وهنا تكمن المشكلة .
- وما هي المشكلة؟
- إنه أمر معقد، يا ماركوس . ستفهم يوماً .
- ماذا سأفهم، بحق السماء؟ هيا، تكلم! تكلم!
- ستفهم يوماً، يا ماركوس .
- خيّم صمت طويل .
- ماذا ستفعل الآن، يا هاري؟ سألته أخيراً .
- لن أبقى هنا .
- ماذا تعني بهنا؟ في هذا الفندق، في نيو هامبشير، في أمريكا؟
- أود أن أذهب إلى جنة الكُتّاب .
- جنة الكُتّاب؟ ما هذه؟
- جنة الكُتّاب هي المكان الذي تقرر فيه أن تعيد كتابة حياتك كما تتمنى أن تكون قد عشتها . فقوة الكُتّاب، يا ماركوس، تكمن في أنهم يقرروا نهاية الكتاب . لديهم القدرة على أن يُحيوا وأن يُميتوا، لديهم القدرة على تغيير كل شيء . لديهم في أناملهم قوة لا يدركون

- أهميتها. فيكفي أن يغمضوا أعينهم ليعكسوا مسار حياة بأكملها.
- ماركوس، ماذا كان سيحدث يوم 30 أغسطس 1975 لو...؟
- لا يمكن تغيير الماضي، يا هاري. لا تفكر في الأمر.
 - لكن كيف يمكنني ألا أفكر فيه؟
 - وضعتُ المخطوطة على الكرسي بجانبه وتظاهرت بالمغادرة.
 - عمّ يتحدث كتابك؟ سألني عندها.
 - إنها قصة رجل أحب امرأة شابة. كانت لها أحلام لهما معاً.
 - أرادت أن يعيشا معاً، وأن يصبح كاتباً كبيراً وأستاذاً جامعياً، وأن يكون لديهما كلب بلون الشمس. لكن ذات يوم، اختفت تلك الشابة ولم يُعثر عليها أبداً. وبقي الرجل في منزله، ينتظرها. أصبح كاتباً كبيراً، وأصبح أستاذاً جامعياً، وأصبح لديه كلب بلون الشمس. لقد فعل كل ما طلبته منه، وانتظرها. لم يحب غيرها أبداً. بوفاء، انتظر أن تعود. لكنها لم تعد أبداً.
 - لأنها ماتت!
 - نعم، لكن هذا الرجل يمكن أن يكف عن الحداد الآن.
 - لا، لقد فات الأوان. إنه في السابعة والستين.
 - لا يفوت الأوان أبداً كي نحب من جديد.
 - لوحث له بيدي بحركة ودية.
 - إلى اللقاء، يا هاري. سأتصل بك عند وصولي إلى نيويورك.
 - لا تتصل. سيكون هذا أفضل.
 - نزلت السلالم الخارجية المؤدية إلى موقف السيارات، وما إن فتحت باب السيارة، حتى سمعته يصيح من درابزين الطابق الأول:
 - ماركوس، ما هو تاريخ اليوم؟
 - 30 أغسطس، يا هاري.
 - وكم الساعة الآن؟
 - الحادية عشرة صباحاً تقريباً.

- لم يتبقَّ سوى ثماني ساعات، يا ماركوس!

- ثماني ساعات قبل ماذا؟

- قبل أن تصبح السابعة مساءً.

لم أفهم على الفور، فسألته:

- ما الذي سيحدث في السابعة مساءً؟

- لدينا موعد، أنا وهي، أنت تعلم ذلك. وستأتي. انظر، يا

ماركوس! انظر أين نحن! نحن في جنة الكُتَّاب. يكفي أن تكتب ليتغير كل شيء.

*

30 أغسطس 1975 في جنة الكُتَّاب

قررت ألا تسلك الطريق رقم 1، بل أن تحاذي المحيط بدلاً عن ذلك. سيكون هذا أكثر حذراً. كانت تجري على الحصى والرمل وهي تضم المخطوطة بين ذراعيها. كانت على مستوى غوز كوف تقريباً. تبقَّى لها ميلان أو ثلاثة لتصل إلى الفندق. نظرت إلى ساعتها: كانت السادسة وبضع دقائق. ستصل إلى موعدها في غضون خمس وأربعين دقيقة، كما هو متفق. واصلت السير حتى بلغت أطراف سايد كريك لين، فارتأت أن تعبر حافة الغابة وصولاً إلى الطريق رقم 1. صعدت من الشاطئ إلى الغابة متسلقة مجموعة من الصخور، ثم عبرت بحذر صفوف الأشجار، حريصة على ألا تمرق فستانها الأحمر الجميل. لمحت عبر الغطاء النباتي منزلاً في البعد: في المطبخ، كانت سيدة تعد كعكة التفاح.

التحقت بالطريق رقم 1، وقبل أن تخرج من الغابة، مرت سيارة مسرعة. كان هذا لوثر كاليب عائداً إلى كونكورد. واصلت سيرها لميلين إضافيين إلى أن وصلت إلى الفندق. كانت الساعة السابعة بالضبط. تسللت من موقف السيارات وصعدت السلم الخارجي. كانت

الغرفة رقم 8 في الطابق الأول. صعدت درجات السلم أربعاً أربعاً وطرقت الباب.

طرق أحدهم الباب. نهض مسرعاً عن السرير حيث كان جالساً ليفتح الباب.

- هاري، هاري حبيبي، صاحت حين رآته عند عتبة الباب.

قفزت معانقة إياه وأغرقتة بالقبلات، فحملها.

- نولا... أنت هنا، لقد أتيت! لقد أتيت!

نظرت إليه مستغربة.

- بالطبع أتيت! ما الذي تقوله؟

- لا بد أنني غفوت، فقد رأيت كابوساً بشعاً... كنتُ في هذه

الغرفة وكنت أنتظرك. انتظرتك لكنك لم تأت. انتظرت، وانتظرت ولم تأت أبداً.

احتضنته.

- يا له من كابوس بشع، يا هاري! أنا هنا الآن! أنا هنا إلى

الأبد.

تعانقا طويلاً، ثم قدم لها الزهور التي كانت في حوض الحمام.

- ألم تجلبي معك شيئاً؟ قال لها حين لاحظ أن لا أمتعة معها.

- لا شيء. كي لا نلفت الانتباه. سنشتري ما نحتاج إليه في

الطريق، لكنني أحضرت المخطوطة.

- لقد بحثت عنها في كل مكان!

- أخذتها معي لأقرأها... وأحببتها كثيراً، يا هاري. إنها تحفة

أدبية!

تعانقا مجدداً، ثم قالت:

- لنغادر! لنغادر بسرعة! لنغادر فوراً!

- فوراً؟

- نعم، أريد أن أبتعد من هنا، لا أريد أن أخطر بأن يُعثر علينا.
لنغادر فوراً، يا هاري، أرجوك.

كان الليل قد حل. كان يوم 30 أغسطس 1975. تسلل طيفان من الفندق ونزلا سريعاً السلالم الخارجية المؤدية إلى موقف السيارات، قبل أن يركبا سيارة شيفروليه مونت كارلو سوداء. سلكت السيارة الطريق رقم 1 في اتجاه الشمال. كانت تسير بسرعة كبيرة، وتختفي في الأفق. لم يعد من الممكن تبين شكل السيارة: باتت نقطة سوداء، ثم بقعة صغيرة، ثم بقعة ضوئية زائغة ناتجة عن مصباحيها، ثم اختفت تماماً.

لقد انطلقا نحو الحياة.

الجزء الثالث

جنة الكُتَّاب

(صدور الكتاب)

الفتاة التي هزّت أمريكا

«الكتاب الجديد، يا ماركوس، هو حياة جديدة تبدأ. كما أنه لحظة إثارة عظيمة: فأنت تمنح، لمن يريد أن يكتشفه، جزءاً من ذاتك. البعض سيحبّه، والبعض الآخر سيكرهه. البعض سيراك نجماً، والبعض الآخر سيحتقرك. البعض سيغار، والبعض الآخر سيهتم. أنت لا تكتب من أجلهم، يا ماركوس، بل من أجل كل هؤلاء الذين قضوا وقتاً ممتعاً بفضل ماركوس غولدمان. قد يبدو لك هذا إنجازاً متواضعاً، لكنه مهم بما يكفي. يرغب بعض الكتاب في تغيير وجه العالم، لكن من بإمكانه تغيير وجه العالم حقاً؟».

كان الجميع يتحدث عن الكتاب. لم يعد بإمكانني التحرك في
مانهاتن بسلام، ولا ممارسة رياضة الجري في الشارع من دون أن
يلتفت إليّ المارة قائلين بتعجب: «هيه، إنه غولدمان! الكاتب!»، بل
قد يركض بعضهم بضع خطوات ليلحقوا بي ويطرحوا عليّ الأسئلة التي
تدور في رؤوسهم: «هل ما ذكرته في كتابك هو الحقيقة؟ هل فعل
هاري كبير ذلك حقاً؟». وفي مقهى وست فيليدج الذي أرتاده عادة، لم
يعد بعض الزبائن يترددون في الجلوس إلى طاولتي للتحدث إليّ: «أنا
أقرأ كتابك الآن، سيد غولدمان، لا يمكنني التوقف! كان الأول
جيداً، أما هذا! هل دفع لك مليون دولار حقاً لتكتبه؟ كم عمرك؟
ثلاثون عاماً بالكاد؟ لم تكمل الثلاثين بعد؟ وها أنت قد جمعت كل
هذه الأموال!». أما حارس البناية التي أسكن فيها والذي كنت أراه
يتقدّم في قراءته للرواية كلما فتح لي الباب، فاحتجزي طويلاً أمام
المصعد بعد أن انتهى من قراءة الكتاب، ليفصح لي عن مكنون قلبه:
«أهذا ما حدث لنولا كيلرغان إذا؟ يا للفضاعة! لكن كيف يمكن أن
نصل إلى هنا، يا سيد غولدمان؟ هيه؟ كيف يكون هذا ممكناً؟».

منذ صدوره، تصدّر كتاب قضية هاري كبير قوائم الكتب الأكثر
مبيعاً في البلاد، وكان متوقعاً له أن يكون الكتاب الأكثر مبيعاً في
القارة الأمريكية برمتها. تحدثوا عنه في كل مكان: في التلفزيون،

والراديو، والصحف. أما النقاد، الذين كانوا مشككين في البداية، فأنثوا على موهبتي. وُصفت روايتي الجديدة بالعظيمة.

فور صدور الكتاب، سافرت في جولة ترويجية ماراثونية جابت بي البلاد في فترة أسبوعين فقط، إذ اعتبر بارناسكي أنها حدود الحيز الزمني المتاح لنا قبل أن تتجه الأنظار إلى واشنطن من أجل الانتخابات الرئاسية في 4 نوفمبر. وعند عودتي إلى نيويورك، ظلت أجوب استديوهات التلفزيون بوتيرة محمومة، استجابة لأجواء الحماس العام والتي امتدت حتى منزل والديّ، حيث تجمع الفضوليون والصحافيون ودقوا على الباب بلا توقف. وكى أبعدهما عن تلك الجلبة، أهديت والديّ سيارة تخييم ليحققا على متنها أحد أحلامهما القديمة المتمثلة بالذهاب إلى شيكاغو ومن ثم نزوراً إلى كاليفورنيا عبر الطريق 66.

على خلفية مقال نُشر في صحيفة نيويورك تايمز، لُقِّبت نولا بـ الفتاة التي هزّت أمريكا، وعكست رسائل القراء التي وردتني هذه المشاعر، إذ تعاطف الجميع مع تلك الفتاة البائسة والمعنّفة التي استعادت ابتسامتها حين التقت بهاري كير، والتي قاتلت، وهي في الخامسة عشرة من العمر، من أجله وسمحت له أن يكتب أصول الشر. ورأى بعض النقاد الأدبيين أن كتابه لا يُقرأ ولا يُدرَك على النحو الصحيح إلا على ضوء كتابي، وأتوا بمقاربة جديدة لا تمثل فيها نولا حُباً مستحيلاً، بل قوة المشاعر المطلقة. وهكذا عادت مبيعات أصول الشر، الذي كان قد سُحب من كل المكتبات قبل أربعة أشهر، لتنتقل من جديد. واستعداداً لموسم أعياد الميلاد، كان فريق التسويق لدى بارناسكي يعمل على مجلد يضم أصول الشر، وقضية هاري كير، وتحليلاً للنص بقلم شخص يدعى فرانك لانكستر.

أما عن هاري، فلم أسمع منه منذ أن تركته في فندق سي سايد، رغم أنني حاولت الاتصال به مراراً وتكراراً، لكن من دون جدوى.

كان هاتفه المحمول مغلقاً، وحين اتصلت بالفندق وطلبت الغرفة رقم 8، ظل الهاتف يرن دون إجابة. وبصفة عامة، ظللت بعيداً عن أوروبا، إذ لم أكن أرغب في معرفة كيف استقبل كتابي هناك. عرفت فقط، من خلال القسم القانوني لدى دار شמיד وهانسون أن الإيجاه ستيرن قام بكل ما في وسعه لملاحقتهم قضائياً، واصفاً الأجزاء التي تخصه بالتشهيرية، وخاصة تلك التي أتساءل فيها عن الأسباب التي دفعته ليس فقط للرضوخ لطلب لوثر بأن تجلس نولا عارية كي يرسمها، بل أيضاً لكونه لم يخبر الشرطة باختفاء سيارته المونت كارلو السوداء، علماً أنني كنت قد اتصلت به قبل صدور الكتاب لأحصل على روايته عن الأحداث، إلا أنه لم يكلف نفسه عناء الرد عليّ.

ابتداءً من الأسبوع الثالث من شهر أكتوبر، وكما توقع بارناسكي بالضبط، شغلت الانتخابات الرئاسية المجال الإعلامي بأكمله، فقلّ الطلب عليّ بشكل ملحوظ، وشعرتُ بالارتياح حيال ذلك. كنت قد عشت سنتين مرهقتين: نجاحي الأول، ثم مرض الكتاب، ثم هذا الكتاب الثاني أخيراً. شعرت بنوع من السكينة وبالحاجة إلى الذهاب في إجازة. وبما أنني لم أكن أرغب في السفر وحدي وأردت أن أشكر دوغلاس على دعمه لي، اشتريت تذكرتين إلى جزر البهاما لأقضي إجازة بصحبة صديق، وهو ما لم أفعله منذ الثانوية. أردت أن تكون الرحلة مفاجأة له، فأخبرته عنها ذات مساء حيث أتى لي شاهد معي مباراة رياضية، لكنه فاجأني هو باعتذاره عن الدعوة.

- كان ليكون هذا رائعاً، قال لي، لكنني دعوت كيلبي إلى جزر الكاريبي في نفس التوقيت.

- كيلبي؟ هل لا تزال معها؟

- نعم، طبعاً. ألم تكن تعلم؟ نحن نستعد للخطوبة، وسأطلب يدها هناك.

- أوه، هذا رائع! أنا سعيد من أجلكما حقاً. تهانني لكما!
- لا بد أنني بدوت حزينةً بعض الشيء، لأنه قال لي:
- مارك، لديك كل ما يتمناه المرء في الحياة، وقد حان الوقت كي لا تبقى وحيداً.
- أومات برأسي.
- كل ما في الأمر هو أنني... لم أواعد فتاة منذ فترة، قلت مبرراً.
- ابتسم.
- لا تقلق حيال ذلك.
- هذه المحادثة هي التي قادتنا إلى سهرة اليوم ما بعد التالي، الخميس 23 أكتوبر 2008، وهو المساء الذي انقلب فيه كل شيء.
- كان دوغلاس قد دبر لي موعداً مع ليديا غلور، التي علم من وكيلها أنها لا تزال تتوق إليّ، فأقنعتني أن أتصل بها واتفقنا أن نتقابل في حانة بسوهو. في حوالي الساعة مساءً، أتى دوغلاس إلى منزلي ليدعمني معنوياً.
- أأست جاهزاً بعد؟ قال إذ رأي عاري الصدر حين فتحت له الباب.
- لم أقرر بشأن القميص الذي سأرتديه، رددت، ممسكاً بقميصين.
- ارتد الأزرع، سيكون مناسباً.
- هل أنت متأكد أنني لا أرتكب خطأً بخروجي مع ليديا، يا دوغ؟
- أنت لن تتزوج الليلة، يا مارك. أنت ستشرب كأساً مع فتاة جميلة تعجبك وتعجبها. وستريان إذا ما كان الإعجاب بينكما ما زال موجوداً.
- وماذا سنفعل بعد الكأس؟
- لقد حجزت لك طاولة في مطعم إيطالي شهير. سأرسل لك العنوان في رسالة نصية.

ابتسمت .

- ماذا كنت سأفعل لولاك، يا دوغ؟

- أليس هذا ما يفعله الأصدقاء؟

في تلك اللحظة، رن هاتفني المحمول، ولم أكن لأجيب ربما لولا أنني رأيت اسم غاهالوود على الشاشة .

- ألو، حضرة الرقيب؟ سعيد لسماع صوتك .
بدا صوته متوتراً .

- مساء الخير، أيها الكاتب، آسف على الإزعاج . . .

- أنت لا تزعجني على الإطلاق .
بدا منزعجاً .

- أعتقد أن لدينا مشكلة كبيرة، أيها الكاتب .

- ماذا يجري؟

- يتعلق الأمر بوالدة نولا كيلرغان، تلك التي ذكرت في كتابك أنها كانت تضرب نولا .

- لويزا كيلرغان، نعم . ماذا عنها؟

- هل يمكنك الولوج إلى الإنترنت الآن؟ يجب أن أرسل لك رسالة إلكترونية .

توجهتُ إلى غرفة المعيشة وشغلت الحاسوب . فتحت بريدي الإلكتروني وأنا ما أزال على الخط مع غاهالوود . كان قد أرسل لي صورة لتوه .

- ما هذا؟ سألته . لقد بدأت أقلق .

- افتح الصورة . كنت قد حدثني عن ألاباما، أتذكر؟

- نعم، أذكر طبعاً . فقد جاءت عائلة كيلرغان من هناك .

- لقد أخفقنا، يا ماركوس . لقد نسينا تماماً أن ننظر في موضوع ألاباما، مع أنك نبهتني إلى الأمر!

نقرت على الصورة. كانت لشاهد في مقبرة، كُتب عليه :

لويزا كيلرغان

1969-1930

الزوجة والأم الحبيبة

صُعقت.

- رباه! قلت، لاهثاً. ماذا يعني ذلك؟

- أن والدته نولا توفيت عام 1969، أي قبل ست سنوات من

اختفاء ابنتها!

- من الذي أرسل لك هذه الصورة؟

- صحافي من كونكورد، سينشرها في الصحافة غداً، وأنت

تعلم، أيها الكاتب، كيف تسير هذه الأمور: في غضون ثلاث ساعات، ستقر البلاد بأكملها أن لا كتابك ولا التحقيق تمّا كما يجب.

في ذلك المساء، لم يكن هناك عشاء مع ليديا غلور. أخرج دوغلاس بارناسكي من اجتماع أعمال، كما أخرج بارناسكي ريتشاردسون من القسم القضائي من منزله، وعقدنا جلسة عاصفة لإدارة الأزمة في إحدى قاعات الاجتماعات لشميد وهانسون. كانت الصورة مأخوذة من إحدى الجرائد المحلية لمدينة جاكسون في ألاباما، وأرادت صحيفة كونكورد هيرالد إعادة نشرها. كان بارناسكي قد قضى ساعتين محاولاً إقناع رئيس تحرير كونكورد هيرالد بعدم نشر تلك الصورة على الصفحة الأولى لعدد اليوم التالي، لكن دون جدوى.

- أتتخيل ما سيقوله الناس حين يعرفون أن كتابك ما هو إلا مجموعة من الأكاذيب؟ صرخ في وجهي. بحق السماء، يا غولدمان! ألم تتأكد من مصادرك؟

- لم أعد أعرف شيئاً! شيء لا يُصدق! لقد حدثني هاري عن

الأم! حدثني عنها كثيراً. لم أعد أفهم شيئاً. كانت الأم تعتف نولاً! هو من قال لي ذلك! حدثني عن الضرب وعن تغطيس رأسها في الماء.

- وماذا يقول كبير الآن؟

- لم أتمكن من التحدث إليه. لقد حاولت الاتصال به عشر مرات على الأقل هذه الليلة. على أية حال، أنا لم أسمع عنه شيء منذ قرابة الشهرين.

- حاول مجدداً! تدبر الأمر! تحدث إلى أحدٍ يستطيع أن يجيبك! جد لي تفسيراً يمكنني أن أعطيه للصحافيين غداً صباحاً حين سيتهافتون عليّ!

في حوالي الساعة العاشرة مساءً، اتصلت أخيراً بإرني بينكاس.

- من أين أتيت بمعلومة أن أمها حية؟ سألني.

بقيت صامتاً لبعض الوقت، ثم رددت بغباء:

- لم يخبرني أحد أنها ماتت!

- لكن لم يخبرك أحد أنها على قيد الحياة!

- بلى! هاري قال لي ذلك.

- لقد خدعك إذاً. لقد جاء الأب كيلرغان إلى أورورا مع ابنته فقط. لم تكن هناك أم أبداً.

- لم أعد أفهم شيئاً! أشعر أنني جنت. ماذا سيُقال عني الآن؟

- أنك كاتب رديء، يا ماركوس. كل ما يمكنني قوله هو أننا لم نأخذك على محمل الجد هنا. رأيـناك تتنقل متبختراً بين الصحف والتلفزيون، وكنا نعلم في سرنا أن ما كتبه ما هو إلا هراء.

- لماذا لم ينبهني أحد؟

- ينبهك؟ ليقول لك ماذا؟ ليسألك ما إذا كنت قد أخطأت حين

تحدثت عن أمّ كانت ميتة بالفعل أثناء الأحداث؟

- كيف ماتت؟ سأله.

- لا أدري .

- لكن ماذا عن الموسيقى؟ والضرب؟ لدي شهود أكدوا لي ذلك .

- شهود على ماذا؟ على أن الكاهن كان يشغل الموسيقى عالياً ليضرب ابنته دون أن يزعجه أحد؟ نعم، هذا ما اعتقدناه جميعاً . لكنك ذكرت في كتابك أن الأب كيلرغان كان يختبئ في المرآب ويشغل الموسيقى عالياً بينما كانت الأم تضرب الصغيرة . لكن المشكلة هنا هي أن الأم لم تطأ قدمها أورورا أبداً لأنها توفيت قبل أن يرحل من ألاباما . فكيف لنا أن نصدق ما تقوله في باقي الكتاب؟ كما أنك وعدتني أنك ستذكر اسمي في صفحة الشكر . . .

- لقد فعلت !

- لقد ذكرت اسمي من بين أسماء أخرى : إ . بينكاس ، أورورا . كنت أريد أن يكون مكتوباً بالخط العريض . كنت أريد أن يتحدث عني الناس .

- ماذا؟ لكن . . .

أغلق الخط في وجهي . نظر إليّ بارناسكي نظرة خبيثة ، وأشار إليّ بإصبع مهدّد :

- غولدمان ، ستركب أول طائرة إلى كونكورد غداً ، وستحل لي هذا

- روي ، إذا ذهبت إلى أورورا ، فسيعدموني في الميدان العام . ضحك ضحكة عصبية .

- ستكون محظوظاً إذا اكتفوا بإعدامك في الميدان العام .

*

هل كانت الفتاة التي هزت أمريكا وليدة خيال عقل مريض لكاتب يفتقر إلى الإلهام؟ كيف أمكن لتفصيل كهذا أن يتم تجاهله بهذه الطريقة

البدائية؟ كانت المعلومة التي نشرتها جريدة كونكورد هيرالد والتي تناقلتها كل وسائل الإعلام قد زرعت الشك حيال حقيقة قضية هاري كبير برمتها.

ركبُ الطائرة صباح يوم الجمعة 24 أكتوبر إلى مانشستر، حيث وصلت في بداية فترة بعد الظهر. استأجرت سيارة في المطار وتوجهت مباشرة إلى كونكورد، إلى المقر الرئيسي لشرطة الولاية حيث انتظرني غاهالوود، الذي أطلعني على ما عرفه عن ماضي عائلة كيلرغان في ألاباما.

- تزوج ديفيد ولويزا كيلرغان عام 1955، أوضح لي. كان حينذاك كاهن أبرشية مزدهرة، ساعدت زوجته في تطويرها أكثر. ولدت نولا عام 1960، وما من حدث يذكر في السنوات التالية. لكن في إحدى ليالي صيف 1969، شب حريق في المنزل، نجت منه الفتاة لكن الأم توفيت على إثره. بعد ذلك ببضعة أسابيع، غادر الكاهن مدينة جاكسون.

- بضعة أسابيع؟ سألت متفاجئاً.

- نعم. لقد رحلا إلى أورورا.

- لماذا أخبرني هاري أن نولا كانت تُعَنَّف من قبل والدتها إذاً؟

- بل جري ذلك على يد أبيها على الأرجح.

- لا، لا! صرخت قائلاً، لقد حدثني هاري عن الأم! الأم من

قامت بذلك! ولديّ تسجيلات في هذا الشأن!

- دعنا نستمع إلى تلك التسجيلات إذاً، اقترح غاهالوود.

كنت قد أحضرت معي الأسطوانات الصغيرة. بسطتها على مكتب غاهالوود، ورحت أنفحص الملاحظات الصغيرة. كنت قد نظمتها بدقة، بحسب اسم الشخص وتاريخ التسجيل، لكنني لم أعثر على التسجيل المنشود. وحين أفرغت محتويات حقيبتي كاملة، وجدت أسطوانة

أخيرة من دون تاريخ، لم أكن قد انتبهت إليها. وضعتها في جهاز التسجيل فوراً.

- أمر غريب، قلت. لماذا لم أؤرّخ هذه الأسطوانة؟
شغّلت الجهاز وسمعت صوتي يعلن أننا كنا يوم الثلاثاء فاتح يوليو 2008. كنت أسجل هاري في قاعة الزيارات بالسجن.

- ألهذا أردتما الرحيل؟ هذا الرحيل الذي خطتتما
له معاً ليكون مساء يوم 30 أغسطس. لماذا؟
- آه، يا ماركوس، بسبب قصة رهيبة. هل أنت
تسجل الآن؟

- نعم.
- سأحكي لك فقرة خطيرة. لتفهم. لكنني لا أريد
أن يعرف أحد بذلك.
- اعتمد عليّ.

- أتعلم، حين كنا في مارتاز فينيارد، بدل أن تقول
نولا لوالديها إنها كانت تقضي عطلتها مع صديقتها،
قالت إنها فرت بكل بساطة. غادرت المنزل دون أن
تخبر أحداً. وحين رأيتهما من جديد في اليوم التالي
لعودتنا، بدت حزينة جداً، وأخبرتني أن أمها ضربتها.
قالت لي يومذاك إنها دائماً ما تعاقبها، ولأتفه الأسباب.
تضربها بمسطرة من حديد، وتملاً حوضاً بالماء
وتمسكها من شعرها وتغطس وجهها في الماء. كانت
تقول إنها تفعل ذلك لتحررها.

- لتحررها؟

- لتحررها من الشر. لم أصدقها في البداية، لكن
كانت الإثباتات والأدلة واضحة. فسألتها - من الذي

يفعل بك ذلك؟ - ماما. - ولماذا لا يتدخل والدك؟ -
«والدي يغلق على نفسه في المرآب ويصغي إلى
الموسيقى بصوت عالٍ جداً حين تعاقبني أمي. هو لا
يريد أن يسمع». لم يكن بإمكان نولا التحمل أكثر من
ذلك، يا ماركوس. أردت التدخل، أردت الذهاب
لمقابلة والديها. كان على هذا التعنيف أن يتوقف.
لكنها توسلت إليّ ألا أفعل. قالت إن هذا سيسبب لها
المتاعب، وإن والديها سيبعدانها عن المدينة فلن نرى
بعضنا بعد ذلك. لكن لم يكن من الممكن أن تستمر
الأمر على هذا النحو، لذلك، في نهاية شهر أغسطس،
يوم 20 أغسطس تقريباً، قررنا أن نرحل. سريعاً. وفي
سرية تامة طبعاً. وحددنا يوم 30 أغسطس لفعل ذلك.
كنا نريد أن نذهب بالسيارة إلى حدود كندا، ثم نعبر
حدود فيرمونت وصولاً إلى كولومبيا البريطانية، حيث
أردنا أن نعيش في كوخ من الخشب. حياة هادئة على
شاطئ بحيرة، لن يعرف بها أحد.

- أكان هذا هو السبب وراء رغبتكما في الرحيل معاً

إذاً؟

- نعم.

- لكن لماذا لا تريدني أن أخبر أحداً؟

- هذه ليست سوى بداية القصة، يا ماركوس، فقد

اكتشفت لاحقاً شيئاً رهيباً بشأن والدة نولا...

(سمع صوت جرس). أعلن صوت أحد الحراس

نهاية الزيارة.

- سنستأنف هذه المحادثة في الزيارة المقبلة، يا

ماركوس. إلى ذلك الحين، احتفظ بالقصة لنفسك.

- وما الذي اكتشفه بشأن والدته نولا؟ سأل غاهالوود بنفاد صبر.
- لا أذكر ما جاء بعد ذلك، رددت، مشوش الفكر وأنا أبحث بين الأسطوانات الأخرى.

توقفت فجأة، شاحب اللون، وصرخت:

- غير معقول!

- ماذا، أيها الكاتب؟

- كان هذا آخر تسجيل لهاري! لهذا السبب لا يوجد تاريخ على الأسطوانة! كنت قد نسيتَه تماماً! لم ننهِ تلك المحادثة أبداً! إذ بعد ذلك، جاءت اعترافات برات، ثم لم يعد هاري يرغب في أن أسجل أقواله وواصلت لقاءاتي معه وأنا أدون الملاحظات في مفكرتي. ثم حدثت قصة التسريبات وغضب مني هاري. كيف أمكنني أن أكون غيباً إلى هذا الحد؟

- يجب أن نتحدث إلى هاري، قال غاهالوود وهو يلتقط معطفه.
- يجب أن نعرف ماذا اكتشف بشأن لويزا كيلرغان.
- انطلقنا إلى فندق سي سايد.

- تفاجأنا حين فتحنا لنا امرأة شقراء طويلة باب الغرفة رقم 8 بدلاً من هاري. توجهنا إلى موظف مكتب الاستقبال، الذي قال ببساطة:
- لم يكن في الفندق أي هاري كبير مؤخراً.
- مستحيل، قلت له. لقد قضى عدة أسابيع هنا.
- بناءً على طلب غاهالوود، عاد الموظف إلى سجلات النزلاء على مدى الأشهر الستة الأخيرة، لكنه ظلّ متمسكاً بما قاله وردد:
- ليس هناك من هاري كبير.
- مستحيل! قلت، منفعلًا. لقد رأيته هنا! رجل طويل ذو شعر أبيض وأشعث.

- آه، ذاك! نعم، كان هناك رجل يتسكع في موقف السيارات، لكنه لم يستأجر غرفة هنا أبداً.

- بل كان في الغرفة رقم 8! قلت بنفاد صبر. أنا متأكد من ذلك. لقد رأيته جالساً أمام باب الغرفة عدة مرات.

- نعم، كان يجلس أمام الباب، وقد طلبت منه عدة مرات أن يغادر، لكنه كان كل مرة يعطيني ورقة مئة دولار! بهذا السعر، كان بإمكانه أن يبقى هناك قدر ما يشاء! كان يقول إن وجوده هنا يذكره بذكرات جميلة.

- ومتى كانت آخر مرة رأيته فيها؟ سأل غاهالوود.

- منذ بضعة أسابيع. أذكر أنه في اليوم الذي غادر فيه، أعطاني ورقة مئة دولار أخرى وطلب مني، في حال اتصل أحدهم وطلب أن أوصله بالغرفة رقم 8، أن أظاهر بأنني أحول المكالمة وأدع الخط يرن دون إجابة. بدا في عجلة من أمره. كان ذلك بعد الشجار مباشرة...

- الشجار؟ أي شجار؟ سأل غاهالوود. ما قصة هذا الشجار الآن؟ سأل غاهالوود.

- لقد تشاجر صاحبك مع رجل، عجوز صغير جاء في سيارته خصيصاً ليوبّخه. كان شجاراً عنيفاً، مع صراخ وما إلى ذلك. كنت على وشك التدخل، لكن العجوز ركب سيارته وغادر. وفي تلك اللحظة، قرر صاحبك أن يغادر هو الآخر. كنت سأطرده على أية حال لأنني لا أحب المشاكل. فالزبائن يشتكون، وأنا من يُلام.

- ماذا كان سبب ذلك الشجار؟

- شيء يتعلق برسالة ما، على ما أعتقد. «كان هذ أنت!»، صرخ العجوز في صديقك.

- رسالة؟ أي رسالة؟

- وكيف لي أن أعرف؟

- وبعد ذلك؟

مكتبة

t.me/soramnqraa

- غادر العجوز وفر صاحبك بعد ذلك فوراً.

- وهل تستطيع التعرف عليه؟

- العجوز؟ لا، لا أعتقد. لكن أسأل زملاءك. فقد عاد بعد ذلك غريب الأطوار هذا. كان يريد أن ينال من صديقك، على ما أظن. أنا أعرف شيئاً عن التحقيقات فأنا أشاهد الكثير من المسلسلات البوليسية على التلفزيون. كان صديقك قد رحل حينذاك لكنني شعرت بأن هناك شيئاً مريباً، فاتصلت بالشرطة ووصلت دوريتان بسرعة وحققوا معه، ثم تركوه. قالوا لا داعي للقلق.

اتصل غاهالوود بمركز الشرطة ليطلب منهم هوية الشخص الذي تم التحقيق معه مؤخراً في فندق سي سايد.

- سيتصلون بي حالما يحصلون على المعلومة، قال لي وهو يغلق الخط.

لم أكن أفهم شيئاً. مررت يدي في شعري، مردداً:

- غير معقول! غير معقول!

نظر إليّ موظف مكتب الاستقبال بفضول وسألني:

- هل أنت السيد ماركوس؟

- نعم، لماذا؟

- لأن صاحبك ترك لك مظروفاً. قال إن رجلاً شاباً سيأتي لبحث عنه وسيقول: «غير معقول! غير معقول!»، وإنه ينبغي أن أعطيه هذا إذا أتى.

ومد لي مظروفاً صغيراً من الورق البني، في داخله مفتاح.

- مفتاح؟ سأل غاهالوود. ولا شيء آخر؟

- لا شيء.

- مفتاح ماذا يا ترى؟

تفحصت شكله باهتمام ثم تعرفت إليه:

- إنه مفتاح خزانة الملابس في النادي الرياضي بمونتيري!

بعد ذلك بعشرين دقيقة، كنا في غرفة تغيير الملابس بالنادي .
كانت بداخل الخزانة رقم 201 رزمة من الأوراق المشبوبة، مصحوبة
برسالة صغيرة مكتوبة بخط اليد.

عزيزي ماركوس

إذا كنت تقرأ هذه السطور، فهذا يعني أن هناك حالة
من البلبلة والفوضى حول كتابك، وأنت بحاجة إلى
بعض الأجوبة.
قد يهملك هذا. هذا الكتاب هو الحقيقة.

هاري

كانت رزمة الأوراق عبارة عن مخطوطة كُتبت على الآلة الكاتبة،
ليست بسميكة، عنوانها :

نوارس أورورا

لهاري ل. كبير

- ماذا يعني ذلك؟ سألني غاهالوود.
- لا أدري. قد يكون عملاً غير منشور لهاري.
- الورق قديم، قال وهو يتفحص الصفحات بعناية.
تصفحت النص سريعاً.
- كانت نولا دائماً ما تتحدث عن النوارس، قلت. قال لي هاري
إنها كانت تحب النوارس. لا بد أن هناك صلة ما.
- لكن لماذا تحدّث عن الحقيقة؟ هل هو نص يروي ما وقع عام
1975؟

- لا أدري.

قررنا إرجاء دراسة النص إلى وقت لاحق والذهاب إلى أورورا.

لوحظ وجودي هناك فعبر المارة عن شعورهم بالازدراء تجاهي، كما أن جيني وبختني في العلن أمام مطعم كلاركس، غاضبةً من وصفي لأمها، ورافضةً أن تصدّق أن والدها هو من كتب الرسائل مجهولة المصدر الموجهة لهاري.

الوحيدة التي قبلت أن تتحدث إلينا هي نانسي هاتاواي، التي ذهبنا للقائها في متجرها.

- أنا لا أفهم، قالت نانسي. أنا لم أحدثك أبداً عن والدة نولا.
- لكنك حدثتني عن آثار الضرب التي لاحظتها على جسدها، وعن تلك المرة التي اختفت فيها نولا لمدة أسبوع في شهر يوليو، ومحاولة إقناعك بأنها مريضة.

- لكن لم يكن هناك سوى الأب، فهو من رفض أن أدخل المنزل حين اختفت نولا في ذلك الأسبوع من شهر يوليو. لم أحدثك أبداً عن الأم.

- لكنك حدثتني عن ضربات بمسطرة من حديد على ثدييها.
أتذكرين؟

- الضربات، نعم، لكنني لم أقل إن أمها هي التي كانت تضربها.
- لقد سجلتُ أقوالك! كان ذلك يوم 26 يونيو الماضي. الشريط معي، انظري، التاريخ مذكور عليه. أدركت جهاز التسجيل:

- ما تقولينه عن الكاهن كيلرغان غريب، يا سيدة هاتاواي. لقد قابلته قبل بضعة أيام، وأعطاني انطباعاً أنه شخص ودود.

- بإمكانه أن يعطي هذا الانطباع، أمام الناس على الأقل. كان قد استُدعي لإعادة إحياء أبرشية سانت جيمس التي كانت في حالة مزرية، بعد أن أبلى بلاء حسناً في ألاباما، على ما يبدو. وبالفعل، بعد أن

تولاها، سرعان ما أصبحت الأبرشية تعج بالناس في أيام الآحاد. لكن، خارج هذا السياق، من الصعب القول ما كان يحدث في منزل آل كيلرغان...

- ماذا تقصدين؟

- كانت نولا طفلة معنفة.

- ماذا؟

- نعم، كانت نولا تُضرب ضرباً مبرحاً، وأنا أذكر قصة فظيعة في هذا الشأن، يا سيد غولدمان. كان ذلك في بداية الصيف. كانت هذه المرة الأولى التي رأيت فيها كدمات كتلك على جسد نولا. كنا قد ذهبنا إلى غراند بيتش لنسبح. بدت نولا حزينة، فظننت أن الأمر متعلق بفتى، فقد كان هناك فتى في الصف العاشر يدعى كودي يغازلها. ثم اعترفت لي أنها كانت تُضايق في المنزل وتُنعت بالفتاة الشقية. سألتها عن سبب ذلك، فذكرت أحداثاً وقعت في ألاباما، لكنها رفضت قول المزيد. وحين غيرت ملابسها لاحقاً، رأيت كدمات فظيعة على ثدييها. وحين سألتها عنها، تصور أنها أجابتني: «إنها أُمي، لقد ضربتني يوم السبت بمسطرة من حديد». ومن شدة ذهولي، ظننت أنني أسأت الفهم، إلا أنها أصرت على أقوالها: «إنها الحقيقة. هي التي تقول لي إنني فتاة شقية». بدت نولا يائسة حقاً، فلم أصر على الموضوع. عدنا إلى منزلي بعد غراند بيتش ودهنت مرهماً على صدرها، وقلت لها إنه ينبغي لها التحدث عن والدتها مع أحد ما، مع ممرضة المدرسة مثلاً، السيدة ساندرز، لكن نولا أجابت بأنها لا ترغب في الخوض في ذلك أكثر.

- هنا! صرخت وأنا أوقف جهاز التسجيل. أترين؟ لقد تحدثت عن الأم.

- لا، قالت نانسي مدافعة عن نفسها. لقد شاركتك دهشتي حيال ذكر نولا لأمها فحسب. لأشرح لك أن ثمة خطباً ما في منزل آل كيلرغان. لقد كنت متأكدة أنك تعلم أنها ميتة.

- لكنني لم أكن أعلم! أقصد، كنت أعلم أن الأم ميتة، لكنني اعتقدت أنها ماتت بعد اختفاء ابنتها. وأذكر أن ديفيد كيلرغان قد أراني صورة لزوجته أول مرة زرته فيها. وأذكر أيضاً أنني فوجئت باستقباله اللطيف. فأذكر أنني قلت له شيئاً من قبيل: «وزوجتك؟»، فأجاب: «لقد ماتت منذ زمن بعيد».

- الآن وقد أنصتُ إلى الشريط، أتفهم أن تكونَ أسأت فهم بعض الأمور، يا سيد غولدمان. إنه سوء فهم رهيب، وأنا آسفة جداً حيال ذلك.

أعدت تشغيل الجهاز.

- ... السيدة ساندرز، لكن نولا أجابت بأنها لا

ترغب في الخوض في ذلك أكثر.

- ما الذي حدث في ألاباما؟

- لا أدري. لم أعرف ذلك أبداً. فنولا لم تخبرني.

- ألهذا علاقة برحيلهم من هناك؟

- لا أدري. كان بودي أن أساعدك، لكنني فعلاً لا

أدري.

- إنه خطئي أنا، يا سيدة هاتاواي. لقد ركزت على ألاباما بعد

ذلك...

- إذاً، فإذا كانت تُضرب، فوالدها هو من ضربها؟ سأل غاهالوود،

مربكاً.

فكرت نانسي لبرهة، وبدت تائهة شيئاً ما، ثم أجابت أخيراً:

- نعم. أو لا. لم أعد أعرف. كانت هناك كدمات على جسدها.
وحين سألتها عنها، قالت إنها كانت تعاقب في البيت.
- علامَ تعاقب؟

- هي لم تقل أكثر من ذلك، لكنها لم تقل إن والدها هو الذي
كان يضربها. في الواقع، لا أحد يعرف الحقيقة. لقد رأت أمي آثار
الضرب حين كنا على الشاطئ ذات يوم. وكانت هناك تلك الموسيقى
التي تصم الآذان والتي كان يشغلها بانتظام. كانت لدى الناس شكوك
في أن الأب كيلرغان يضرب ابنته، لكن لم يجرؤ أحد على التكلم.
فهو كاهن مدينتنا.

عند انتهاء محادثتنا مع نانسي هاتاواي، بقينا أنا وغازالوود
جالسين على مقعد أمام المحل، صامتين. شعرت باليأس.
- سوء فهم لعين! صحت أخيراً. كل هذا بسبب سوء فهم لعين!
كيف يمكنني أن أكون بهذا الغباء؟
حاول غازالوود مواساتي.

- اهدأ، أيها الكاتب. لا تكن قاسياً مع نفسك إلى هذا الحد.
جميعنا نرتكب الهفوات. لقد انشغلنا بخطر سير التحقيق لدرجة أننا لم
نر ما هو بديهي. الجميع مُعرّض للإخفاقات.
رن هاتفه في تلك اللحظة. كان ذلك مركز شرطة الولاية، يعيدون
الاتصال به.

- لقد عثروا على اسم الشخص الذي جاء إلى الفندق، همس لي
وهو ينصت إلى ما كان يقوله الشرطي.
بدا عليه الاستغراب، ثم أبعد السماعرة عن أذنه وقال لي:
- إنه ديفيد كيلرغان.

كانت الموسيقى العالية تنبعث من المنزل رقم 245 بتراس أفينو: كان الأب كيلرغان في منزله.

- لا بد أن نعرف ما الذي كان يريده من هاري، قال غاهالوود وهو يترجل من السيارة. لكن رجاء، أيها الكاتب، اتركني أنا أدير الحديث! حين فتشت سيارته في فندق سي سايد، وجدت الشرطةً بندقية صيد في سيارة ديفيد كيلرغان، لكن لم يكن ذلك مخالفةً لأن سلاحه كان مرخصاً. قال حينذاك إنه كان في طريقه إلى نادي الرماية، وتوقف لشراء قهوة من كافيتريا الفندق. لم يكن للشرطيين ما يقولون حيال ذلك، فأطلقوا سراحه.

- احصل على المعلومات منه، أيها الرقيب، قلت لغاهالوود ونحن نسير على الممشى المرصوف المؤدي إلى المنزل. أود أن أعرف ما قصة الرسالة هذه... كان كيلرغان قد أخبرني بأنه بالكاد يعرف هاري. أعتقد أنه كان يكذب؟
- هذا ما سنكتشفه، أيها الكاتب.

أعتقد أن الأب كيلرغان رآنا ونحن نتوجه نحو منزله لأنه فتح الباب قبل أن نقرع الجرس، حاملاًً بندقيته. كان يستشيط غضباً، وبدا وكأنه يرغب في قتلي. «لقد لطخت سمعة زوجتي وابنتي! راح يصرخ فيّ. أنت وغد وحقير!». حاول غاهالوود تهدئته، وطلب منه أن يضع بندقيته، موضحاً له أننا كنا هناك لمعرفة ماذا حدث لنولا فحسب. تجمع المارة إثر الصراخ والضجة لرؤية ما يجري. وسرعان ما تشكلت حلقة من الفضوليين أمام المنزل، بينما كان الأب كيلرغان لا يزال يصرخ فينا ويشير لي غاهالوود أن نبتعد ببطء. وصلت دوريتان تابعتان لشرطة أورورا، وصفارات الإنذار تصدح عالياً. ترجل ترافيس داون من إحداها، ولم يبدُ مسروراً برؤيتي إطلاقاً. «ألا تعتقد أنك تسببت بما يكفي من فوضى لهذه المدينة؟»، قال لي، ثم سأل غاهالوود عما إذا كان هناك سبب وجيه لوجود شرطة الولاية في أورورا، دون أن

يكون لديه علم مسبق. ولأنني كنت أعلم أن وقتنا كان محدوداً،
صرخت موجهاً كلامي للأب كيلرغان:
- أجبني، أيها الكاهن: كنت تشغل الموسيقى عالياً وتسرح
وتمرح كيفما تشاء، أليس كذلك؟
لَوْحَ ببنديته من جديد.
- أنا لم أرفع يدي عليها يوماً! هي لم تُعَنَّفْ أبداً! أنت حثالة، يا
غولدمان! سأוכל محامياً، وسأقاضيك!
- حقاً؟ ولماذا لم تفعل حتى الآن؟ لماذا لم تلجأ إلى القضاء؟ قد
لا ترغب في أن يُفَتَّشَ ماضيك. ما الذي حدث في ألاباما؟
بصق في اتجاهي.
- الحقراء أمثالك لا يمكن أن يفهموا، يا غولدمان!
- ما الذي حدث مع هاري في فندق سي سايد؟ ما الذي تخفيه
عنا؟
في تلك اللحظة، راح ترافيس يصرخ بدوره، مهدداً غاهالوود بأن
يخبر رؤساءه، فغادرنا.
سرنا في السيارة في صمت باتجاه كونكورد، ثم قال غاهالوود
أخيراً:
- ما الذي فاتنا، أيها الكاتب؟ ما الذي مر من تحت أعيننا، ولم
نره؟
- نحن نعلم الآن أن هاري كان يعرف شيئاً ما بشأن والدته نولا،
هو لم يخبرني عنه.
- ويمكن أن نخمن أن الأب كيلرغان يعرف أن هاري يعرف.
لكن ماذا يعرف بحق السماء!
- هل تعتقد، أيها الرقيب، أن الأب كيلرغان قد يكون متورطاً في
هذه القضية؟

كانت الصحافة مستمتعة بالمستجدات .

تطوّر جديد في قضية هاري كير: تناقضات في رواية
ماركوس غولدمان تضيفي الشك على مصداقية كتابه،
الذي احتفى به النقاد وقّده عرّاب النشر في شمال
أمريكا روي بارناسكي على أنه القصة الحقيقية للأحداث
التي أدت إلى مقتل نولا كيلرغان عام 1975 .

لم أكن أستطيع العودة إلى نيويورك دون أن أكون قد فككت لغز
تلك القضية، فلجأت إلى جناحي في فندق ريجنتس بكونكورد. كان
الشخص الوحيد الذي شاركته تفاصيل مكان إقامتي هو دينيس، كي
تطلعني على المستجدات في نيويورك وآخر التطورات المتعلقة بشبح
الأم كيلرغان.

في ذلك المساء، دعاني غاهالوود إلى العشاء في منزله. كانت
ابنتاه ناشطتين في حملة باراك أوباما وأعطتاني ملصقات لسيارتي. وفي
وقت لاحق، وأنا أساعد هيلين في غسل الأطباق بالمطبخ، قالت لي
إنني أبدو في حالة سيئة.

- لا أفهم ماذا فعلت، أوضحت لها. كيف أمكنني أن أخفق إلى
هذا الحد؟

- لا بد أن يكون هناك سبب وجيه لذلك، يا ماركوس. أتعلم،
بيري يؤمن بك كثيراً، ويقول إنك شخص استثنائي. أنا أعرفه منذ
ثلاثين عاماً، ولم يسبق له أن استخدم هذا المصطلح في وصف أحد
أبداً. أنا واثقة أنك قمت بعملك على أحسن وجه، وأن ثمة تفسيراً
منطقياً لتلك القضية.

في تلك الليلة، بقينا أنا وغاهالوود لساعات طويلة في مكتبه
ندرس المخطوطة التي تركها لي هاري. وهكذا اكتشفتُ روايته غير
المنشورة تلك، نوارس أورورا، وهي رواية رائعة حكى فيها هاري

قصته مع نولا. لم تكن مؤرّخة، إلا أنني قدّرت أن يكون قد كتبها بعد أصول الشر، لأنه إذا كان يحكي في هذا الأخير عن الحب المستحيل الذي لا يرى النور أبداً، ففي نوارس أورورا، روى كيف أن نولا ألهمته، وكيف لطالماً آمنت به، وكيف شجعتَه وجعلت منه الكاتب الكبير الذي أصبح عليه. لكن في نهاية هذه الرواية، نولا لا تموت: فبعد النجاح الذي حققته والثروة التي جمعتها، تسافر الشخصية الرئيسية، أي هاري، إلى كندا حيث تنتظره نولا في منزل جميل على شاطئ بحيرة.

في حوالي الثانية ليلاً، أحضر لنا غاهالوود القهوة وسألني:

- ما الذي يريد أن يخبرنا به من خلال كتابه؟

- إنه يتخيل حياته لو أن نولا لم تمت، قلت. هذا الكتاب هو جنة الكُتّاب.

- جنة الكُتّاب؟ ماذا يعني ذلك؟

- هي ما يحدث لك حين تنقلب قدرُك على الكتابة ضدك، فلا تعود تعرف ما إذا كانت شخصياتك تعيش حصراً في خيالك أم تعيش حقاً.

- وفيمّ يساعدنا ذلك؟

- لا أعلم. لا أعلم على الإطلاق. إنه كتاب جميل، وهو لم ينشره أبداً. لماذا احتفظ به في درج؟
هز غاهالوود كتفيه.

- ربما لم يجرؤ على نشره لأنه تحدث فيه عن فتاة مختفية، قال غاهالوود.

- ربما. لكن في أصول الشر، تحدث عن نولا أيضاً وهذا لم يمنعه من عرضه على الناشرين. ولماذا كتب لي: هذا الكتاب هو الحقيقة؟ حقيقة ماذا؟ نولا؟ ما الذي قصده بذلك؟ أن نولا لم تمت وأنها تعيش الآن في كوخ من خشب؟

- هذا ليس منطقياً، فالتحليل قاطعة: الهيكل العظمي الذي تم العثور عليه هو هيكل نولا، ما من شك في ذلك.
- ماذا إذا؟
- إذاً، نحن لم نتقدم في شيء، أيها الكاتب.

في صباح اليوم التالي، اتصلت بي دينيس لتخبرني بأن سيدة اتصلت بدار شמיד وهانسون، وأنهم حولوها إليها.

- كانت تريد أن تتحدث إليك، أوضحت دينيس. وقالت إنه أمر مهم.

- مهم؟ بأي شأن؟

- قالت إنها كانت زميلة نولا في المدرسة في أورورا، وإن نولا كانت تحدثها عن أمها.

*

كامبردج، ماساتشوستس، السبت 25 أكتوبر 2008

أشارت صورها في كتاب المدرسة للعام 1975 أن اسمها ستيفاني هندورف، وجاءت صورتها قبل صورة نولا بصورتين. كانت إحدى التلميذات اللواتي لم يعثر لهن إرني بينكاس على أثر، إذ كانت قد تزوجت من رجل بولوني الأصل وحملت اسم ستيفاني لارينياك، وكانت تسكن في منزل فخم بكامبردج، الحي الراقي لبوسطن. هناك قابلناها أنا وغاهالوود. كانت امرأة في الثامنة والأربعين، أي السن التي كان من المفترض أن تكون فيها نولا. كانت امرأة جميلة، تزوجت مرتين، وأم لثلاثة أطفال، علّمت تاريخ الفن في جامعة هارفارد، ولديها الآن معرض للفن التشكيلي خاص بها. ترعرعت في أورورا، وكانت في فصل نولا ونانسي هاتاواي وأخريات ممن قابلتهن أثناء تحقيقي. وأنا أصغي إليها وهي تسترجع ماضيها، قلت لنفسى إنها

ناجية. فكانت هناك نولا، التي قُتلت في سن الخامسة عشرة، وهناك ستيفاني التي تسنى لها أن تعيش، وأن تفتح معرضاً للفن التشكيلي، بل وأن تتزوج مرتين.

بسّطت بعض الصور لشبابها على الطاولة المنخفضة لغرفة المعيشة.

- أنا أتابع القضية منذ البداية، أوضحت لنا. أذكر جيداً اليوم الذي اختفت فيه نولا، أذكر كل شيء، مثلي مثل كل الفتيات اللاتي عشن في أورورا في تلك الفترة. لذلك، حين عثروا على جثتها وقبضوا على هاري، شعرت بنفسني معنية بالأمر. يا لها من قضية... لقد أحببت كتابك كثيراً، يا سيد غولدمان. لقد قمتَ بوصف نولا على نحوٍ بارع. فبفضلك، استرجعت نولا شيئاً ما. هل صحيح أن الكتاب سيتحول إلى فيلم؟

- ترغب وارنر براذرز في شراء الحقوق، رددت.

عرضت لنا الصور: حفل عيد ميلاد حضرته نولا أيضاً. كان ذلك عام 1973. استأنفت كلامها:

- كنا أنا ونولا مقربتين جداً. كانت فتاة لطيفة والجميع كانوا يحبونها في أورورا. لما عكسته هي ووالدها من صورة على الأرجح: الكاهن الأرمل اللطيف وابنته الطيبة، المبتسمة دائماً، والتي لا تشتكي أبداً. أذكر أن أمي، حين كنت أتصرف بشقاوة، كانت تقول لي: «احتذي بنولا الصغيرة مثلاً! تلك المسكينة. لقد فقدت أمها وهي دائماً راضية ومبتسمة رغم ذلك».

- سحقاً! كيف لم أدرك أن أمها كانت ميتة؟ وتقولين إنك أحببت كتابي؟ بل لا بد أنك تساءلت أي نوع من الكتاب الرديئين هذا! - إطلاقاً، بل على العكس تماماً! ظننتُ أنك قمتَ بذلك عمداً. لأنني عشتُ ذلك مع نولا.

- ماذا تقصدين بـ عشتُ ذلك مع نولا؟

- لقد حَدَّثَ شيءٌ غريبٌ جداً ذات يوم. حَدَّثْتُ جعلني أبتعد عن نولا.

*

مارس 1973

كان الزوجان هندورف يملكان المتجر الكبير في الشارع الرئيسي، حيث كانت ستيفاني تصطحب نولا أحياناً لتأكل بعض السكاكر من المخزن في الخفاء، وهو ما فعلته في بعد الظهر تلك: اختبأتا خلف أكياس الطحين وأكلتا السكاكر حتى شعرتا بألم في بطنهما، وضحكتا وكلتاهما تضع يدها على فمها كي لا يسمعهما أحد. لكن ستيفاني شعرت فجأة بأن شيئاً ما بنولا لم يكن على ما يرام، إذ تغيرت نظرتها ولم تعد تسمعها.

- نولا. هل أنت بخير؟ سألتها ستيفاني.

لا جواب. كررت ستيفاني سؤالها فقالت نولا أخيراً:

- أنا... أنا... يجب أن أعود إلى المنزل.

- الآن؟ لماذا؟

- أُمي تريدني أن أعود.

اعتقدت ستيفاني أنها لم تسمعها جيداً.

- هه؟ أمك؟

نهضت نولا، في حالة من الهلع، ورددت:

- يجب أن أعود!

- لكن... يا نولا، أمك ميتة!

هرعت نولا نحو باب المخزن، ولأن ستيفاني أمسكت بها من ذراعها، استدارت نولا وأمسكت بفستان ستيفاني.

- أُمي! صرخت مفزوعة. أنت لا تعرفين ماذا ستفعل بي! هي تقوم بمعاقبتي حين أتصرّف بشقاوة!

ثم فرت راكضة.

ظلت ستيفاني مشدوهة دقائق طويلة، ثم حكت المشهد لأمها في المساء، لكن السيدة هندروف لم تصدق شيئاً من ذلك، وراحت تداعب رأس ابنتها بحنان.

- أنا لا أعلم من أين تأتين بكل هذه القصص، يا حبيبتي. هيا، كفى تفاهات واذهبي لتغسلي يديك. لقد عاد والدك لتوه وسنتناول العشاء حالاً.

في اليوم التالي، بالمدرسة، بدت نولا هادئة ووديدة وتصرفت وكأن شيئاً لم يكن، فلم تجرؤ ستيفاني على ذكر ما حدث في اليوم السابق. ظل الحدث يشغل بالها فانتهى بها الأمر إلى التحدث عنه مع الأب كيلرغان، بعد ذلك بعشرة أيام تقريباً. ذهبت لتقابلة في مكتبه بالإبرشية حيث استقبلها بلطف شديد كالعادة. قدم لها العصير ثم أصغى إليها باهتمام، ظناً منه أنها جاءت إليه بصفته كاهن البلدة. لكن حين حكت له ما شهدت، لم يصدقها بدوره.

- لا بد أنك أسأت السمع، قال لها.

- أعلم أن الأمر يبدو جنوناً، يا أبانا، لكنها الحقيقة.

- هذا ليس منطقياً. لماذا قد تحكي لك نولا هذه الخرافات؟ ألا

تعلمين أن أمها ميتة؟ أتريدين أن تسببي لنا الألم جميعاً؟ أهذا ما تريدن؟

- لا، ولكن...

أراد ديفيد كيلرغان أن ينهي المحادثة، لكن ستيفاني أصرت، فتغيّر وجه الكاهن فجأة، على نحو لم يسبق لها أن رآته أبداً: لأول مرة، كان وجه الكاهن اللطيف قاتماً ومرعباً.

- لا أريد سماعك تتحدثين عن هذه القصة ثانية! قال لها. لا إليّ

ولا إلى أي شخص آخر، أسمعين؟ وإلا، سأخبر والديك بأنك كذابة صغيرة. وسأقول إنني أمستك متلبسة، تسرقين من مال الكنيسة. سأقول

إنك سرقت مني خمسين دولاراً. أنت لا تريدين المتاعب، أليس كذلك؟ كوني فتاة لطيفة إذاً.

*

توقفت ستيفاني عن الكلام. عبثت بالصور للحظة ثم التفتت نحوي.

- مع أنني لم أتحادث عن ذلك ثانية، إلا أنني لم أنس شيئاً من تلك الحادثة. أفنعت نفسي على مدار السنين أنني أسأت السمع، وأسأت الفهم، وأنه لم يحدث شيئاً من ذلك. ثم صدر كتابك، الذي ذكرت فيه تلك الأم المعنفة على أنها حية. لا يمكن أن أصف لك كم أراحني ذلك؛ أنت لديك موهبة عظيمة، يا سيد غولدمان. وحين بدأت الصحف تقول منذ بضعة أيام إنك تنشر التفاهات، قررت أن أتصل بك، لأنني أعرف أنك تقول الحقيقة.

- لكن أي حقيقة هذه؟ صحت قائلاً. كانت الأم ميتة منذ زمن بعيد.

- أعلم ذلك. لكنني أعلم أيضاً أنك محقّ.

- أعتقد أن والد نولا كان يضربها؟

- هذا ما كان يقال، على أية حال. فجميعنا في المدرسة لاحظ آثار الضرب على جسدها، لكن من الذي كان سيجرؤ على اتهام كاهننا؟ في أوروبا عام 1975، لم يتدخل الناس في شؤون الآخرين. ثم إن ذلك حصل في زمن مختلف، بحيث كان الجميع يتلقى صفقة من حين لآخر.

- هل تخطر لك معطيات أخرى؟ بشأن نولا أو الكتاب؟

راحت تفكر لبعض الوقت.

- لا، ردّت. عدا أنه من اللطيف أن نكتشف بعد كل هذه السنين أن هاري كبير هو من كانت نولا مغرمة به.

- ماذا تعنين؟

- أتعلم، كنت طفلة ساذجة... بعد حادثة المخزن، لم أعد أرى نولا إلا نادراً. لكن في الصيف الذي اختفت فيه، التقيت بها بانتظام. في صيف 1975 ذاك، كنت أعمل في متجر والدَي، الواقع قبالة مكتب البريد آنذاك، ورأيت نولا هناك طوال الوقت. كانت تذهب إلى هناك لترسل الرسائل. علمت ذلك لأنني سألتها ذات يوم، فاعترفت لي أنها مغرمة برجل وأنهما يتبادلان الرسائل. لم ترضَ أبداً أن تكشف هويته. كنت أعتقد أنه كودي، فتى في الصف العاشر يلعب في فريق كرة السلة. لم أنجح يوماً في قراءة اسم المرسل إليه، لكنني لمحت في إحدى المرات أن الوجهة كانت أورورا، فتساءلت عن مغزى مراسلة أحدٍ يقيم في أورورا، من أورورا نفسها.

حين غادرنا منزل ستيفاني لارينياك، نظر إليَّ غاهالوود بعينين حذرتين.

- ما الذي يجري، أيها الكاتب؟

- كنت سأطرح عليك السؤال نفسه، أيها الرقيب. في اعتقادك، ماذا علينا أن نفعل الآن؟

- ما كان علينا فعله منذ زمن طويل: أن نذهب إلى مدينة جاكسون في ألاباما. فلطالما طرحتَ السؤال الصحيح، أيها الكاتب: ماذا حدث في ألاباما؟

في الديار بالاباما

«حين تصل إلى نهاية الكتاب، يا ماركوس، قدّم لقرائك تطوّراً مفاجئاً أخيراً.

- لماذا؟

- لماذا؟ لتبقي قارئك يلهث حتى النهاية. الأمر أشبه بلعب الورق: يجب أن تحتفظ ببعض الأوراق الراجعة للنهاية».

جاكسون، ألاباما، 28 أكتوبر 2008

وذهبنا إلى ألاباما.

عند وصولنا إلى مطار موباييل، استقبلنا شرطيّ شاب من شرطة الولاية يدعى فيليب توماس، كان غاهالوود قد تواصل معه قبل بضعة أيام. كان يقف متأهباً، ينتظرنا في عنبر الوصول، مرتدياً زياً رسمياً وقبعة محكمة فوق عينيه. حيّا غاهالوود باحترام ثم نظر إليّ، ورفع قبعته قليلاً.

- هل سبق لي أن رأيتك؟ سألني. على التلفزيون ربما؟

- ربما، أجبت.

- سأساعدك أنا، تدخل غاهالوود قائلاً. إنه مؤلف الكتاب الذي يتحدث عنه الجميع. احذر منه، فهو قادر على إثارة فوضى لا يمكنك تخيلها.

- إذاً، عائلة كيلرغان هي نفسها التي تذكرها في كتابك؟ سألني الضابط توماس محاولاً إخفاء دهشته.

- صحيح، أجاب غاهالوود بدلاً مني. ابق بعيداً عن هذا الرجل،

أيها الضابط، فأنا نفسي كنت أنعم بحياة هادئة إلى أن التقيته.

كان الضابط توماس قد قام بدوره على أتم وجه، إذ كان قد حضر

لنا ملفاً عن عائلة كيلرغان بناءً على طلب غاهالوود، قرأناه في أحد المطاعم القريبة من المطار.

- وُلد ديفيد ج. كيلرغان في مونتغمري عام 1923، أوضح لنا توماس. درس فيها علوم اللاهوت قبل أن يصبح كاهناً ويأتي إلى مدينة جاكسون ليعمل في أبرشية ماونت بليزانت. تزوّج من لويزا بونفيل عام 1955، وسكنا منزلاً في حي هادئ بشمال المدينة. أنجبت لويزا بنتاً عام 1960 هي نولا. ولا من شيء جدير بالذكر طوال سنوات بشأن هذه العائلة المؤمنة والمسالمة في ألاباما، إلى أن حدثت تلك المأساة عام 1969.

- المأساة؟ ردد غاهالوود.

- حريق. احترق المنزل ذات ليلة، وتوفيت لويزا كيلرغان إثر ذلك الحريق.

كان توماس قد أرفق بالملف نسخاً من مقالات الصحف العائدة لتلك الفترة.

حريق مميت في لوور ستريت

توفيت امرأة بالأمس إثر حريق التهم منزلها في لوور ستريت. ووفقاً لرجال الإطفاء، قد يكون سبب هذه المأساة شمعة بقيت مشتعلة. لقد دُمّر المنزل بالكامل، والضحية هي زوجة كاهن من المنطقة.

أفاد تقرير الشرطة أن ليلة 30 أغسطس 1969، في حوالي الساعة الواحدة صباحاً، بينما كان الكاهن ديفيد كيلرغان إلى جانب أحد أبناء الأبرشية وهو يحتضر، باغت حريقٌ لويزا ونولا كيلرغان أثناء نومهما. وعند وصوله أمام المنزل، لاحظ الكاهن انبعاث دخان كثيف، فهرع إلى الداخل: كانت النيران تلتهم الطابق العلوي، إلا أنه استطاع أن

يصل إلى غرفة ابنته التي كانت في سريرها، شبه غائبة عن الوعي. حملها وخرج بها إلى الحديقة، وأراد أن يعود لينقذ زوجته، لكن النيران كانت قد امتدت إلى السلالم. كان الجيران قد تجمعوا أمام المنزل إثر سماع الصراخ، لكنهم عجزوا عن فعل أي شيء. وعند وصول رجال الإطفاء، كان الطابق العلوي قد احترق بالكامل، وكان اللهب ينبعث من النوافذ ويلتهم السقف، فعُثر على لويزا كيلرغان ميتة، اختناقاً. وخلص تقرير الشرطة إلى أن سبب الحريق شمعة بقيت مشتعلة، أضرمت النار في الستائر، فامتد الحريق إلى باقي المنزل المبني من ألواح الخشب. كما أن الأب كيلرغان أفاد أن زوجته اعتادت أن تشعل شمعة معطرة وتضعها على منضدة السرير قبل النوم.

- التاريخ! صحت وأنا أنظر إلى تقرير الشرطة. انظر إلى تاريخ الحريق، يا حضرة الرقيب.

- يا إلهي! 30 أغسطس 1969!

- كان لدى الضابط الذي تولى التحقيق في القضية شكوك حول الأب، أوضح توماس.

- كيف عرفت ذلك؟

- تحدثت إليه. اسمه إدوارد إيمرسون. هو متقاعد الآن، ويقضي أيامه في إصلاح مركبه أمام منزله.

- هل يمكن التحدث إليه، سأل غاهالوود.

- لقد أخذت منه موعداً بالفعل، وهو ينتظرنا عند الساعة الثالثة.

كان المفتش المتقاعد إيمرسون أمام منزله، منهمكاً في العمل على هيكل قارب خشبي. ولأن الطقس كان متقلباً، كان قد رفع باب مرآبه ليحتمي تحته. عرض علينا قنينة بيرة من كيس مفتوح ملقى على الأرض وتحدث إلينا دون أن يقطع عمله، موضحاً لنا أننا نحظى بكامل

انتباهه. استرجع الحريق الذي التهم منزل عائلة كيلرغان وردد ما عرفناه من تقرير الشرطة، دون المزيد من التفاصيل.

- في الحقيقة، كان ذلك الحريق أمراً غريباً، قال مختتماً كلامه.
- كيف ذلك؟ سأله.

- لقد اعتقدنا طويلاً أن ديفيد كيلرغان أضرم النار في منزله وقتل زوجته، فلم يكن هناك أي دليل على روايته للأحداث: أنه وصل في الوقت المناسب لينقذ ابنته، لكن متأخراً لينقذ زوجته. بدا احتمال أنه هو من أضرم النار في المنزل منطقياً، خاصة وأنه رحل عن المدينة بعد ذلك بأسابيع قليلة. احترق المنزل، وماتت زوجته، وفرّ هو. هناك شيء مريب في ذلك، لكن ما من دليل يخولنا اتهامه.

- إنه السيناريو نفسه مع اختفاء ابنته، لاحظ غاهالوود. في عام 1975، اختفت نولا عن وجه الأرض: هي قُتلت على الأرجح، لكن لا من دليل يخولنا على تأكيد ذلك.

- فيمَ تفكر، أيها الرقيب؟ سأله. أن الأب كيلرغان قتل زوجته، ثم ابنته؟ أظن أننا أخطأنا في تحديد الجاني؟
- إذا كان الأمر كذلك، فهي كارثة! قال غاهالوود وهو يختنق بكلامه. من يمكننا أن نستجوب، يا سيد إيمرسون؟

- من الصعب تحديد ذلك. يمكنكم أن تزورا أبرشية ماونت بليزانت. قد تكون لديهم سجلات لأبناء الأبرشية، ومن بينهم أشخاص عرفوا الأب كيلرغان. لكن بعد مضي تسع وثلاثين سنة على الأحداث... سيستغرق ذلك وقتاً طويلاً جداً.
- ليس لدينا الوقت، تذرّ غاهالوود.

- أعرف أن ديفيد كيلرغان كان مقرباً من طائفة دينية من المنطقة، وهم متمزتون يعيشون كجماعة في مزرعة كبيرة، على بعد ساعة من هنا. هناك عاش الكاهن بعد الحريق. أعرف ذلك لأنني كنت أذهب

إلى هناك لمقابلته أثناء التحقيق. لقد بقي هناك إلى أن غادر إلى أورورا. اطلب مقابلة الكاهن لويس إذا كان لا يزال موجوداً، فهو كان أشبه بالأب الروحي بالنسبة إليهم.

كان الكاهن لويس الذي تحدث عنه إيمرسون يدير جالية كنيسة المخلص الجديدة، فذهبنا إليها صباح اليوم التالي. جاء الضابط توماس ليصطحبنا من فندق هوليدي إن الواقع على طرف الطريق السريع حيث حجزنا غرفتين - واحدة على نفقة ولاية نيو هامبشير والأخرى على نفقتي الخاصة - وقاد بنا إلى أرض شاسعة كان جزء كبير منها عبارة عن حقول زراعية. وبعد أن ضللنا طريقنا في أحد حقول الذرة، صادفنا شخصاً على جرار زراعي أرشدنا حتى وصلنا إلى مجموعة من المنازل وأشار لنا إلى منزل الكاهن لويس.

استقبلتنا بوذ امرأة لطيفة وسمينة، أجلسنا في مكتب حيث انضم إلينا، بعد بضع دقائق، الأب لويس. كنت أعرف أنه في التسعين من عمره، لكنه بدا أصغر بعشرين سنة. بدا لطيفاً، ليس كما وصفه لنا إيمرسون.

- الشرطة؟ قال وهو يصافحنا الواحد تلو الآخر.

- شرطتنا ولايتي نيو هامبشير وألاباما، أوضح غاهالوود. نحن نحقق في مقتل نولا كيلرغان.

- يبدو لي أن الجميع لا يتحدثون إلا في هذا الموضوع مؤخراً.

- ألسنت أنت...؟ سألني وهو يصافحني ويحدّق فيّ.

- بلى، إنه هو، أجاب غاهالوود بتذمر.

- حسنٌ... كيف يمكنني مساعدتكم، يا سادة؟

بدأ غاهالوود الاستجواب.

- حضرة الكاهن لويس، إذا لم أكن مخطئاً، أنت عرفت نولا

كيلرغان.

- نعم. في الحقيقة، عرفتُ والديها جيداً. كانا شخصين لطيفين، مقربين من جاليتنا.

- ماذا تقصد بـ «جاليتكم»؟

- نحن تيار بروتستانتى، يا حضرة الرقيب. لا أكثر. لدينا مُثلنا المسيحية التي نشاركها. نعم، أعرف أن هناك من يصفنا بالطائفة. يزورنا موظفو الرعاية الاجتماعية مرتين في السنة ليتفقدوا بأنفسهم ما إذا كان أطفالنا يذهبون إلى المدرسة، ويحظون بتغذية جيدة، ويعاملون برفق. ويأتون ليروا ما إذا كنا نمتلك الأسلحة، أو نؤمن بتفوق العرق الأبيض. وهو أمر سخيف للغاية. فأطفالنا يرتادون المدرسة الثانوية، ولم أمسك بندقية يوماً، كما شاركت بحماس في الحملة الانتخابية للرئيس باراك أوباما في مقاطعتنا. ما الذي تريدون معرفته بالضبط؟

- ما حدث عام 1969، قال غاهالود.

- حطت أبولو 11 على سطح القمر، ردّ لويس. وهو انتصار كبير لأمريكا على العدو السوفيتي.

- أنت تعرف ما أقصد. الحريق الذي شبّ في منزل آل كيلرغان. ماذا حدث للويزا كيلرغان؟

مع أنني لم أكن قد نطقت بكلمة، حدّق فيّ لويس طويلاً، وتوجه إليّ بالكلام.

- لقد رأيتك كثيراً على شاشات التلفزيون في الآونة الأخيرة، يا سيد غولدمان. أعتقد أنك كاتب جيد، ولكن كيف لم تستعلم عن لويزا؟ ولهذا السبب أنت هنا، أليس كذلك؟ كتابك فقد مصداقيته، والهلع سيد الموقف الآن. صحيح؟ ما الذي جئت تبحث عنه هنا؟ تبرير لأكاذيبك؟

- الحقيقة، قلت ببساطة.

ابتسم بحزن.

- الحقيقة؟ أي حقيقة، يا سيد غولدمان؟ حقيقة الرب أم حقيقة البشر؟

- حقيقتك أنت. ما هي حقيقتك عن وفاة لويزا كيلرغان؟ هل قتل ديفيد كيلرغان زوجته؟

نهض لويس عن مقعده وتوجه نحو باب المكتب الموارب ليغلقه، ثم وقف أمام النافذة وراح يتأمل الخارج. ذكرني هذا المشهد على الفور بزيارتنا للرئيس برات. أشار إليّ غاهالوود أنه سيتولى الأمر.

- كان ديفيد رجلاً طيباً جداً، قال لويس أخيراً.

- كان؟ علّق غاهالوود.

- أنا لم أره منذ تسعة وثلاثين سنة.

- هل كان يضرب ابنته؟

- كلا، كلا! لقد كان رجلاً ذا قلب طاهر، رجلاً مؤمناً. حين وصل إلى ماونت بليزانت، كانت الأبرشية مقفرة. لكن بعد ذلك بستة أشهر فقط، كانت مكتظة بالناس كل صباح أحد. لم يكن ليؤدي زوجته ولا ابنته أبداً.

- من كانوا إذاً؟ سأل غاهالوود بصوتٍ خفيض. من كان آل كيلرغان؟

نادى الأب لويس زوجته، وطلب شاياً بالعسل للجميع، ثم عاد ليجلس في مقعده ونظر إلينا الواحد تلو الآخر، ثم قال بنظرة وديعة وصوت دافئ:

- أغمضوا أعينكم، يا سادة. أغمضوا أعينكم. نحن الآن في جاكسون، ألاباما، عام 1953.

*

كانت قصة من تلك التي تحبها أمريكا. في أحد أيام بداية عام 1953، وصل كاهن شاب قادم من مونتغومري إلى أبرشية ماونت بليزانت، في قلب مدينة جاكسون. كان يوماً عاصفاً: كانت ستائر من الأمطار تهطل من السماء، وكانت عواصف عنيفة تهز الشوارع. كانت الأشجار تتأرجح، والجرائد تطير في الهواء بعد أن أفلتت من يدي بائعها، فيما كان المارة يركضون من ملجأ إلى آخر، متقدمين وسط الطقس الرديء.

دفع الكاهن الشاب باب الأبرشية، فارتطم هذا الأخير من شدة الرياح: كان الداخل معتماً وبارداً جداً. تقدم ببطء وسط صفوف المقاعد. كان المطر يتسلل من السقف المثقوب، مكوناً بركاً مبعثرة على الأرضية.

كان المكان مقفراً تماماً، لم يكن فيه شخص واحد، ومحل الشموع، كانت هناك هياكل من الشمع القديم. تقدم نحو المذبح ونظر إلى المنبر، ثم وضع قدمه على الدرجة الأولى من السلم الخشبي ليصعده.

- لا تفعل ذلك!

انتفض إثر سماعه ذلك الصوت المنبعث من العدم. استدار فرأى رجلاً قصيراً وبديناً يخرج من العتمة.

- لا تفعل ذلك، ردد. السلالم مهترئة، وقد تهوي بك وتكسر رقبتك. أنت الكاهن كيلرغان؟

- نعم، أجب ديفيد، وهو يشعر ببعض الضيق.

- أهلاً بك في أبرشتك الجديدة. أنا الكاهن جيريمي لويس، أدير جالية كنيسة المخلص الجديدة. عند رحيل سلفك، طُلب مني أن أرعى هذه الأبرشية، وهي لك الآن.

- تصافح الرجلان بحرارة. كان ديفيد كيلرغان يرتعش.
- أترتعش؟ لاحظ لويس. أنت ميت من البرد! تعال، هناك مقهى عند زاوية الشارع. لنشرب القهوة ونتكلم.
- هكذا تعارف ديفيد كيلرغان وجيريمي لويس. في مقهى قريب، منتظرين مرور العاصفة.
- سمعت أن ماونت بليزانت لم تكن بخير، قال ديفيد كيلرغان مبتسماً ومتفاجئاً شيئاً ما، لكنني لم أتوقع ذلك في الحقيقة.
- نعم، لا أخفي عنك أنك على وشك استلام قيادة أبرشية في حال يرثى لها. فلا رعايا يأتون، ولا تبرعات تُقدَّم. يكاد المبنى ينهار. أمامك عمل جبار. أتمنى ألا يخيفك ذلك.
- سترى، أيها الكاهن لويس. لا تخيفني مثل هذه الأمور.
- ابتسم لويس. لقد أعجب بقوة شخصية محدثه الشاب والكاريزما التي تنبعث منه.
- هل أنت متزوج؟ سأله لويس.
- لا، أيها الكاهن لويس. ما زلت أعزب.

أمضى الكاهن كيلرغان ستة أشهر يجول على منازل رعية الأبرشية ليعرفهم بنفسه ويقنعهم بالعودة إلى مقاعد ماونت بليزانت أيام الآحاد. ثم جمع التبرعات لترميم سقف المكان، ولأنه لم يقاتل في حرب كوريا، شارك في مجهود الحرب على طريقته، من خلال وضع برنامج لإعادة تأهيل قدامى المحاربين. وشارك البعض بعد ذلك كمتطوعين من أجل ترميم قاعة الأبرشية المجاورة. وشيئاً فشيئاً، استُئنفت الحياة الجماعية، واستعادت أبرشية ماونت بليزانت رونقها السابق، وسرعان ما أصبح الكاهن كيلرغان النجم الصاعد لمدينة جاكسون، حتى أن أبناء الأبرشية رأوا أنه ينبغي له الانخراط في الحياة السياسية، إذ رأى البعض أن بإمكانه أن يحرز منصباً في البلدية، ومن ثم منصباً على

المستوى الفيدرالي، فقد يصبح سيناتوراً، من يدري، إذ كانت لديه المؤهلات لذلك.

ذات مساء من نهاية عام 1953، ذهب ديفيد كيلرغان لتناول العشاء في مطعم صغير بالقرب من الأبرشية، وجلس عند منضدة المطعم كما كان يفعل عادة، وإذا بصبية جالسة بجواره تستدير فجأة وتبتسم له إذ تعرّفته.

- مرحباً، أيها الكاهن.

ابتسم بدوره، بخجل.

- عذراً، يا آنستي. هل نعرف أحداً الآخر؟

انفجرت ضاحكة وعبثت بصفائرها الشقراء.

- أنا من رعية أبرشتك. اسمي لويزا، لويزا بونفيل.

شعر بالحرج لكونه لم يتعرّفها، فاحمر وجهه، ما جعلها تضحك من جديد. أشعل سيجارة ليستعيد رباطة جأشه.

- أيمكن أن أحصل على واحدة؟ سألته.

مدّ لها علبته.

- لن تخبر أحداً أنني أدخن، أيها الكاهن؟ قالت لويزا.

ابتسم.

- أعدك بذلك.

كانت لويزا ابنة إحدى الشخصيات البارزة في الأبرشية. بدأ هي وديفيد في المواعدة، ثم ما لبثا أن وقعا في الحب.

قال الجميع إنهما يشكلان ثنائياً رائعاً ومتناغماً. تزوجا عام 1955، وهما في قمة السعادة. كانا يرغبان في إنجاب العديد من الأطفال، ستة على الأقل، ثلاثة أبناء وثلاث بنات، أطفال ضاحكون ومرحون، يملؤون بالحياة منزلَ لوور ستريت الذي كانا قد انتقلا إليه لتوهما. لكن لويزا لم تحبل. استشارت العديد من المختصين، لكن

دون جدوى. وأخيراً، في صيف عام 1959، زفّ لها طبيبُها الخبر السعيد: كانت حاملاً.

يوم 12 أبريل 1960، في المستشفى العام لمدينة جاكسون، أنجبت لويزا كيلرغان طفلها الأول والوحيد.

- إنها بنت، أعلن الطبيب لديفيد كيلرغان الذي كان يذرع الرواق جيئةً وذهاباً.

- بنت! صاح الكاهن كيلرغان وقد غمرته السعادة. أسرع ليلتحق بزوجته التي كانت تحتضن المولودة الجديدة. عانقها ونظر إلى الرضیعة وعيناها لا تزالان مغمضتين. كان شعرها أشقر، مثل أمها.

- ماذا لو سمينها نولا؟ اقترحت لويزا.

أعجب الكاهن بالاسم فوافق.

- أهلاً بك، يا نولا، قال لابنته.

طوال السنوات اللاحقة، كانت عائلة كيلرغان مثلاً يُحتذى به في كل المناسبات. طيبة الأب، رقة الأم، وابنتهما الرائعة. لم يبخل ديفيد كيلرغان بجهوده: كان مفعماً بالأفكار والمشاريع، ويحظى بدعم زوجته دائماً. أيام الآحاد في فصل الصيف، كانت العائلة تذهب في نزهة عند جالية كنيسة المخلص الجديدة، مَحَبَّةً في الكاهن لويس، الذي ظلّ الكاهن كيلرغان على علاقة وطيدة به منذ لقاءهما الأول. كل من عاشرهم في تلك الفترة نظر إلى سعادة عائلة كيلرغان نظرة احترام وإعجاب.

*

- لم أعرف قط أناساً بدوا أكثر سعادة منهما، قال لنا الأب لويس. كان ديفيد ولويزا يتبادلان حباً مذهلاً. كان جنوناً. كما لو

أنهما خُلِقا ليحب أحدهما الآخر. وكانا والِدَيْن رائِعَيْن، كما أن نولا كانت طفلة مبهرة، مفعمة بالحوية والحلاوة. كانت أسرة تجعلك ترغب في أن تؤسس أسرتك، وتمنحك الأمل في الجنس البشري. كان من الجميل رؤية ذلك.

- لكن كل ذلك انقلب رأساً على عقب، قال غاهالوود.

- نعم.

- كيف؟

خيّم صمت طويل. تغيرت تعابير وجه لويس. نهض مجدداً وكأنه لم يكن قادراً على البقاء في مكانه، وخطا بضع خطوات في الغرفة.

- لماذا علينا الحديث عن كل هذا؟ سأل. كان ذلك منذ وقت طويل جداً...

- الأب لويس، ماذا حدث عام 1969؟

استدار الكاهن نحو صليب كبير معلق على الجدار، ثم قال لنا:

- لقد حاولنا طرد الأرواح الشريرة منها، لكن لم يسر الأمر على ما يرام.

- ماذا؟ سأل غاهالوود. عَمَّ تتحدث؟

- الصغيرة... نولا الصغيرة، لقد حاولنا طرد الأرواح الشريرة منها، لكن الأمر كان كارثياً. أعتقد أنه كان بداخلها الكثير من الشر.

- ما الذي تحاول قوله؟

- الحريق... ليلة الحريق. في تلك الليلة، لم تجرِ الأمور كما رواها ديفيد كيلرغان للشرطة بالضبط. كان فعلاً إلى جانب أحد أبناء الأبرشية وهو يحتضر، وعند عودته إلى منزله في حوالي الواحدة ليلاً، وجد المنزل مشتعلًا، لكن... كيف أشرح لكم... لم تجرِ الأمور كما رواها ديفيد كيلرغان للشرطة.

كان لويس غارقاً في نوم عميق، فلم يسمع جرس الباب. زوجته ماتيلدا هي التي فتحت الباب وعادت لتوقظه. كانت الساعة الرابعة فجراً. «جيريمي، استيقظ!»، قالت والدموع تملأ عينيها. «لقد حدثت مأساة... الكاهن كيلرغان هنا... لقد شب حريق. لويزا... لويزا ماتت!».

قفز لويس من السرير وتوجه إلى غرفة المعيشة حيث كان ديفيد كيلرغان منهاراً ويجهش بالبكاء. كانت ابنته إلى جانبه. أخذت ماتيلدا نولا لتنام في غرفة الضيوف.

- يا إلهي! ما الذي حدث، يا ديفيد؟ سأل لويس.

- لقد شب حريق... احترق المنزل وماتت لويزا. ماتت!

لم يعد ديفيد قادراً على تمالك نفسه؛ ترك دموعه تنهمر على خديه، جالساً في مقعده بلا حراك. كان كل جسده يرتعش. أعد له لويس كأساً كبيراً من الويسكي.

- ونولا؟ هل هي بخير؟ سأل.

- نعم، بفضل الرب. لقد فحصها الأطباء، ولم يصبها أي أذى.

اغرورقت عينا جيريمي لويس بالدموع.

- يا إلهي... ديفيد... أي مأساة هذه! أي مأساة!

وضع يديه على كتفي صديقه ليواسيه.

- أنا لا أفهم ما الذي حدث، يا جيريمي. كنت إلى جانب أحد

أبناء الأبرشية وهو يحتضر، وعند عودتي، كان المنزل يحترق. كانت النيران هائلة.

- أنت من أخرج نولا؟

- جيريمي... يجب أن أخبرك بشيء.

- ما هو؟ أخبرني بكل شيء، فأنا معك!

- جيريمي... حين وصلت إلى المنزل، كانت النيران تلتهم كل شيء... كانت قد وصلت إلى الطابق العلوي! أردت الصعود وإنقاذ زوجتي، لكن كانت السلالم مشتعلة! لم أستطع فعل شيء! لا شيء! - رباه! وماذا عن نولا إذا؟

صدرت من ديفيد كيلرغان حركة غثيان.
- قلت للشرطة إنني صعدت إلى الطابق العلوي وإنني أخرجت نولا من المنزل، ولكنني لم أستطع العودة لإخراج زوجتي...
- ليست هذه الحقيقة؟
- لا، يا جيريمي. عند وصولي، كان المنزل يحترق، ونولا... نولا كانت تغني تحت سقيفة الفناء الأمامي.

في صباح اليوم التالي، جلس ديفيد كيلرغان مع ابنته في غرفة الضيوف وحدهما. أراد أولاً أن يشرح لها أن أمها توفيت.
- حبيبتي، قال لها، أتذكرين مساء أمس؟ كانت هناك نيران، أتذكرين؟
- نعم.

- لقد حدث شيء خطير جداً. خطير جداً وحزين جداً. كانت أمك في غرفتها حين شبت النار.
- نعم، أعرف. أمي ماتت، أوضحت نولا. لقد كانت شريرة، لذا أشعلت النار في غرفتها.
- ماذا؟ ما الذي تقولينه؟

- جئت إلى غرفتها، كانت نائمة. بدت لي شريرة. إنها أم شريرة! شريرة! أردتها أن تموت فأخذت أعواد الشقاب من على منضدتها، وأشعلت النار في الستائر.
ابتسمت نولا لأبيها الذي طلب منها أن تردد ما قالت، فرددت

- نولا. في تلك اللحظة، سمع حركة من خلفه فاستدار. كان الأب لويس الذي جاء ليطمئن على الصغيرة قد سمع محادثتهما.
- أغلقا على نفسيهما في المكتب.
- نولا من أضرمت النار في المنزل؟ نولا قتلت أمها؟ قال لويس مشدوهاً.
- ششش! اخفض صوتك، يا جيريمي! قالت... قالت... إنها أضرمت النار في المنزل، لكن رباه! لا يمكن أن يكون هذا صحيحاً!
- هل نولا مسكونة بالشياطين؟
- الشياطين؟ لا! لا! لقد حدث أن لاحظنا لديها أنا وأمها سلوكيات غريبة أحياناً، لكن لا من شيء يُذكر.
- نولا قتلت أمها، يا ديفيد. هل أنت مدرك لخطورة الموقف؟
- كان ديفيد كيلرغان يرتعش. كان يبكي، ورأسه يدور، والأفكار تتقاذف في ذهنه. شعر برغبة في التقيؤ، فمدّ له جيريمي لويس سلة المهملات ليريح نفسه.
- لا تقل شيئاً للشرطة، يا جيريمي، أتوسل إليك!
- لكن الأمر خطير جداً، يا ديفيد!
- لا تقل شيئاً! بحق السماء، لا تقل شيئاً! إذا عرفت الشرطة، فسينتهي المطاف بنولا في مؤسسة إصلاحية، أو في مكان لا يعلم به إلا الرب. إنها في التاسعة من عمرها فقط...
- يجب أن تتلقى العلاج إذاً، قال لويس. نولا مسكونة بالشر، يجب أن تُشفى.
- لا، يا جيريمي، لا، أرجوك.
- يجب طرد الأرواح الشريرة التي تسكنها، يا ديفيد. إنه الحل الوحيد لنخلصها من الشر.

- عَزَّمْتُ عليها، أوضح لنا الأب لويس. حاولنا على مدار بضعة أيام أن نخرج الشيطان من جسدها.
- ما هذه الخرافات؟ قلت هامساً.
- لماذا تشكك في هذه الأمور؟ انتفض لويس قائلاً. نولا لم تكن نولا: كان الشيطان قد استولى على جسدها.
- ماذا فعلت لها؟ سأل غاهالوود.
- في العادة، تكون الصلوات كافية، يا حضرة الرقيب.
- دعني أخمن: في هذه الحالة، لم تكن كافية!
- كان الشيطان قوياً، لذلك قمنا بتغطيس رأسها في حوض من الماء المقدس، لننال منه.
- محاكاة التغطيس، قلت.
- لكن هذا أيضاً لم يكن كافياً. لذلك، وكى نسحق الشيطان ونجبره على الخروج من جسد نولا، قمنا بضربه.
- لقد ضربتم الصغيرة؟ انفجر غاهالوود قائلاً.
- لا، نحن لم نضرب الصغيرة، بل ضربنا الشر!
- أنت مجنون، يا لويس!
- كان علينا تخليصها منه! ظننا أننا نجحنا في ذلك، لكن نولا بدأت تتعرض لمختلف أنواع النوبات. بقيت هي وأبوها عندنا لبعض الوقت، لكن لم يعد بإمكاننا السيطرة على الصغيرة، فهي بدأت ترى أمها.
- هل تعني أن نولا كانت تعاني من الهلوسات؟ سأل غاهالوود.
- بل أسوأ من ذلك: بدأت تعاني من نوع من الانفصام في الشخصية، فتصبح أمها أحياناً، وتعاقب نفسها على ما فعلته. لقد عثرت عليها ذات يوم تصرخ في الحمام. كانت قد ملأت الحوض بالماء وتمسك بشعرها وتغطس رأسها في الماء المثلج. لم يكن من الممكن أن تستمر الأمور على هذه الحال، فقرر ديفيد أن يفر بعيداً،

بعيداً جداً. قال إن عليه أن يغادر جاكسون، ويغادر ألاباما، وإن البعد والزمن سيساعدان حتماً في تحسن حال ابنته. وفي تلك الفترة، سمعت أن أبرشية أورورا كانت بحاجة إلى كاهن، فلم يتردد ديفيد لحظة. وهكذا انتقل للعيش في الطرف الآخر من البلاد، في ولاية نيو هامبشير.



يوم الانتخابات

«ستخلل حياتك أحداث مهمة، يا ماركوس. اذكرها في كتبك. وإذا اتضح أنها كتب رديئة، فستكون على الأقل قد تضمنت بعض الصفحات من التاريخ».

مقتطف من صحيفة كونكورد هيرالد

بتاريخ 5 نوفمبر 2008

باراك أوباما يُنتخب الرئيس الرابع والأربعين للولايات المتحدة

فاز المرشح الديمقراطي باراك أوباما على منافسه الجمهوري جون ماكين، وأصبح بالتالي الرئيس الرابع والأربعين للولايات المتحدة. ولاية نيو هامبشير، التي فاز فيها جون كيري عام 2004 [...]

5 نوفمبر 2008

في اليوم التالي للانتخابات، عمّ الحماس والبهجة في نيويورك، حيث احتفل الناس في الشوارع بالفوز الديمقراطي حتى ساعة متأخرة من الليل، وكأنهم يتخلصون من آثار فترتي الحكم السابقتين. أما أنا، فلم أشارك في تلك الحمى الجماعية إلا من خلال شاشة التلفزيون في مكثبي، حيث كنت منعزلاً منذ ثلاثة أيام.

في ذلك الصباح، وصلت دينيس عند الساعة الثامنة مرتدية سترة أوباما، وشارة أوباما، وفي يدها فنجان أوباما ورزمة من ملصقات أوباما. «أوه، أنت هنا، يا ماركوس»، قالت وهي تعبر باب المدخل وترى أن كل شيء مضاء. «هل خرجت إلى الشارع ليلة أمس؟ يا له من فوز! لقد أحضرت لك ملصقات من أجل سيارتك». راحت تضع أغراضها على مكتبها وهي تتحدث، ثم أشعلت آلة القهوة وأطفأت المجيب الآلي، ودخلت مكثبي. اتسعت عيناها من الدهشة حين رأت حالة مكثبي، وصاحت:

- ماركوس، بحق السماء، ما الذي حدث هنا؟

كنت جالساً في مقعدي أتأمل أحد الجدران، والذي قضيت جزءاً من الليل أعطيه بملاحظات وبالرسومات البيانية للتحقيق، كما أنني

استمعت بلا انقطاع إلى تسجيلات هاري، ونانسي هاتاواي، وروبرت كوين.

- هناك شيء في هذه القضية لا أفهمه، قلت. سيصيني بالجنون.

- هل قضيت الليل هنا؟

- نعم.

- أو، يا ماركوس. ظننتُ أنك خرجتَ لتتسلى قليلاً، فأنت لم

تتسلَّ منذ وقت طويل. أهي روايتك التي تشغل بالك على هذا النحو؟

- بل ما اكتشفته الأسبوع الماضي هو ما يشغل بالي.

- وما الذي اكتشفته؟

- هذا بالضبط ما لستُ متأكداً منه. ماذا ينبغي لنا أن نفعل حين

ندرك أن شخصاً لطالما احترمناه واعتبرناه قدوة ومثلاً، خاننا وكذب

علينا؟

راحت تفكر للحظة ثم قالت:

- لقد عشت ذلك مع زوجي الأول. وجدته في السرير مع أعز

صديقاتي.

- وماذا فعلت؟

- لا شيء. لم أقل شيئاً. لم أفعل شيئاً. كنا في الهامبتونز حيث

كنا نقضي عطلة نهاية الأسبوع مع أعز صديقاتي وزوجها، في فندق

على شاطئ المحيط. وبعد ظهيرة يوم السبت، ذهبت لأتنزه وحدي

على الشاطئ، لأن زوجي قال إنه متعب. لكنني عدت قبل الوقت

المتوقع، إذ لم أستمع بالتنزه وحدي. عدت إلى غرفتي وفتحت الباب

بالمفتاح المغناطيسي، وحينذاك رأيتهما معاً في السرير. زوجي، مع

أعز صديقاتي. عجيبة هي هذه المفاتيح المغناطيسية، فهي تتيح لك

دخول الغرف دون أن تصدر أي صوت. لم يرياني ولم يسمعاني.

نظرت إليهما لبرهة، نظرت إلى زوجي وفي حضنه امرأة أخرى، ثم

خرجت من الغرفة دون أن أصدر أدنى صوت. تقيأت في حمام مكتب

الاستقبال، وخرجت لأتنزه ثانية. عدت بعد ساعة، وكان زوجي في حانة الفندق يشرب الجين ويضحك مع زوج أعز صديقاتي. تناولنا العشاء معاً، وتصرفت وكأن شيئاً لم يكن. وفي الليل، نام مثل الكتلة الجامدة، مدعياً أن كسل العُطل يرهقه. لم أقل شيئاً. لم أقل شيئاً طوال ستة أشهر.

- ثم طلبت الطلاق...
- لا، بل هجرني من أجلها.
- هل تندمين لأنك لم تفعلي شيئاً؟
- كل يوم.
- يجب أن أفعل شيئاً إذاً. أهذا ما تحاولين قوله؟
- نعم، افعل شيئاً، يا ماركوس. لا تكن غيباً بائساً مخدوعاً مثلي.
- ابتسمت.

- أنتِ أبعد ما تكونين عن الغباء، يا دينيس.
- ما الذي حدث الأسبوع الماضي، يا ماركوس؟ ماذا اكتشفت؟

*

قبل خمسة أيام

في 31 أكتوبر، أكد البروفيسور جدعون ألكانور، أحد أهم أساتذة علم نفس الأطفال في شرق البلاد والذي كان غاهاالوود يعرفه جيداً، ما غدا أمراً بديهياً: كانت نولا تعاني من اضطرابات نفسية مهمة.

في اليوم التالي لعودتنا من جاكسون، توجهنا أنا وغاهاالوود إلى بوسطن حيث استقبلنا ألكانور في مكتبه بمستشفى الأطفال. ووفقاً للمعطيات التي كنا قد أرسلناها له سابقاً، كان تشخيصه أن نولا كانت مصابة بفصام الطفولة.

- ماذا يعني هذا باختصار؟ سأله غاهالوود.

خلع الكانور نظارته ونظف الزجاجتين ببطء كما لو كان يفكر فيما سيقوله، ثم استدار نحوي:

- يعني أنني أعتقد أنك محقّ، يا سيد غولدمان. لقد قرأتُ كتابك منذ بضعة أسابيع. وعلى ضوء ما وصفته والمعطيات التي زوّدتني بها بيّري، يمكنني القول إن نولا كانت تفقد صلتها بالواقع أحياناً. وقد تكون قد أضرمت النار في غرفة أمها في إحدى تلك النوبات. ففي ليلة 30 أغسطس 1969 تلك، كانت صلتها بالواقع مشوشة: لقد رغبتُ في قتل أمها، لكن في تلك اللحظة، لم يكن القتل يعني شيئاً بالنسبة إليها، فاقترفت فعلاً لم تكن تعي تداعياته. وإلى هذا المشهد الصادم، ينضاف مشهد طرد الأرواح الشريرة الذي قد يكون قد تسبب في نوبات انفصام الشخصية، التي تصبح نولا أثناءها الأمّ التي قتلتها. وهنا يتعقد كل شيء: حين كانت نولا تفقد صلتها بالواقع، كانت ذكرياتُ أمّها وقتلها لها تأتي لتطاردها.

بقيت مذهولاً للحظة.

- أنت تقول إذًا...

أوماً الكانور برأسه قبل حتى أن أنهى جملتي، وقال:

- كانت نولا تضرب نفسها في نوبات انفصام الشخصية.

- لكن ما الذي يسبب تلك النوبات؟ سأله غاهالوود.

- التقلبات العاطفية القوية ربما: فترة من الضغط، حزن كبير، أو

ما وصفته في كتابك، يا سيد غولدمان: لقاءها بهاري كير الذي وقعت في حبه، ثم انسحابه من حياتها الذي دفعها للانتحار. نحن أمام حالة تقليدية. حين تغمرها المشاعر، تأتي النوبات، وحين تأتي النوبات، ترى أمّها، التي تأتي لتعاقبها على ما فعلته بها.

طوال تلك السنوات، لم تكن نولا وأمّها سوى شخص واحد.

كنا بحاجة أن يؤكد لنا الأب كيلرغان ذلك، فتوجه وفدنا الصغير يوم السبت الفاتح من نوفمبر إلى المنزل رقم 245 في تراس أفينيو: أنا وغازالوود وترفيس داون الذي أخبرناه بما عرفناه في ألاباما وطلب منه غازالوود الحضور ليهدي من روع الأب كيلرغان.

حين رأنا هذا الأخير أمام باب منزله، قال على الفور:

- ليس لديّ ما أقوله لكم. لا لكم، ولا لغيركم.

- بل أنا من لديّ ما أقوله لك، أوضح غازالوود بهدوء. أعرف

ما حدث في ألاباما في أغسطس 1969. أعرف بأمر الحريق، أعرف كلّ شيء.

- أنت لا تعرف شيئاً.

قال ترفيس:

- عليك أن تنصت إليهما، قال ترفيس. دعنا ندخل، يا ديفيد.

سيكون من الأفضل أن نتحدث بالداخل.

استسلم ديفيد كيلرغان؛ أدخلنا المنزل، وقادنا نحو المطبخ.

صبّ لنفسه قهوة دون أن يعرضها علينا، ثم جلس إلى الطاولة. جلس غازالوود وترفيس قبالة، فيما بقيت أنا واقفاً.

- ماذا إذا؟ سأل كيلرغان.

- لقد ذهبتُ إلى جاكسون، أجاب غازالوود، وتحدثت إلى

الكاهن جيريمي لويس. أعرف ما فعلته نولا.

- اخرس!

- كانت تعاني من فصام الطفولة. كانت تصاب بنوبات من

انفصام الشخصية. يوم 30 أغسطس 1969، أضرم النار في غرفة أمها.

- لا! صرخ ديفيد كيلرغان. أنت تكذب!

- في تلك الليلة، وجدت نولا تغني تحت سقيفة الفناء الأمامي،

وفهمت بعد ذلك ما حدث، فعملت على طرد الأرواح الشريرة منها ظناً

منك أن هذا يصب في مصلحتها، لكن كانت النتيجة كارثية، إذ تسبب لها ذلك في نوبات انفصام الشخصية، كانت تعاقب نفسها أثناءها، ففررت من ألاباما وعبرت البلاد على أمل أن تترك الأشباح وراءك، لكن شبح زوجتك لاحقك لأنه كان يحيا في رأس نولا .
انسابت دمعة على خده .

- كانت تصاب بنوبات أحياناً، قال بصوتٍ مختنق . لم يكن بمقدوري فعل شيء . كانت الأمّ والابنة في آن . كانت تضرب نفسها ثم تتوسل إلى نفسها بأن تتوقف .
- كنت تشغل الموسيقى عالياً وتغلق على نفسك في المرآب إذأً، لأن الأمر كان غير محتمل .

- نعم! نعم! كان غير محتمل! لم أكن أعرف ماذا أفعل . فابنتي، ابنتي الحبيبة، كانت مريضة جداً .

راح ينتحب فيما كان ترافيس ينظر إليه، مذعوراً مما كان يسمع .

- لماذا لم تعالجها؟ سأل غاهالوود .

- خشيت أن يأخذوها مني، أن يحبسوها! ثم إن النوبات خفت مع الوقت، حتي أنني ظننت لبضع سنوات أن ذكرى الحريق قد تلاشت، بل واعتقدت أن النوبات ستختفي تماماً، إذ كانت الأمور تتحسن تدريجياً . لكن فجأة، ودون أن أعرف السبب، بدأت تصاب بنوبات متتالية وعنيفة .

- كان ذلك بسبب هاري، قال غاهالوود . مثل لقاؤها به كمّاً هائلاً من المشاعر بالنسبة إليها .

- كان صيفاً فظيعاً، قال الأب كيلرغان . كنت أستشعر مجيء النوبات . كان بإمكانني التنبؤ بها . كانت رهيبة . كانت تضرب نفسها بمسطرة من حديد، على صدرها وعلى أصابعها، وتملاً حوضاً بالماء وتغطس رأسها فيه وهي تتوسل إلى أمها أن تتوقف، وتشتم نفسها على لسان أمها .

- تغطيس الرأس، أليس هذا ما فعلتم بها؟

- قال جيريمي لويس أن ليس من حل آخر! كنت قد سمعت أنه يدّعي طرد الأرواح الشريرة، لكننا لم نتحدث عن ذلك معاً أبداً. وفجأة، قال لي إن الشر تمكّن من جسد نولا وإنه ينبغي تخليصها منه، فوافقت فقط كي لا يشي بابنتي للشرطة. كان جيريمي مجنوناً تماماً، لكن ماذا كان بإمكانني أن أفعل؟ لم يكن أمامي خيار آخر... إنهم يسجنون الأطفال في هذا البلد!

- وفرارها من المنزل؟

- كان يحدث أن تهرب أحياناً، وقد تغيبت ذات مرة أسبوعاً كاملاً. كان ذلك في أواخر شهر يوليو 1975. ماذا كان عليّ أن أفعل؟ أن أبلغ الشرطة؟ وبم أخبرهم؟ بأن ابنتي كانت على وشك الجنون؟ أمهلت نفسي حتى نهاية الأسبوع قبل أن أبلغ الشرطة، وقضيت الأسبوع بأكمله وأنا أبحث عنها ليلاً نهاراً في كل مكان. ثم عادت بعد ذلك.

- وماذا حدث يوم 30 أغسطس؟

- أصيبت بنوبة عنيفة جداً، فأنا لم أرها في هذه الحالة أبداً. حاولت أن أهدئها، لكن محاولاتي باءت بالفشل. فأغلقت على نفسي في المرآب ورحت أصلح تلك الدراجة النارية اللعينة، وشغلت الموسيقى بأعلى صوت ممكن. بقيت مختبئاً لمعظم فترة بعد الظهر، والباقي، فأنتم تعرفونه: عندما ذهبت إلى غرفتها، لم تكن هناك... فخرجت لأبحث عنها في الحي، وسمعت أن فتاة قد شوهدت ملطخة بالدم بالقرب من سايد كريك لين، وفهمت أن الوضع خطير.

- فم فكرت في تلك اللحظة؟

- بصراحة، فكرت أن نولا فرت من المنزل وعليها آثار الضرر الذي ألحقته بنفسها، وأن ديبورا كوبر قد تكون رأتها وهي في حالة نوبة، إذ كنا يوم 30 أغسطس، أي تاريخ حريق منزلنا في جاكسون.

- هل سبق لها أن أصيبت بنوبات مشابهة في مثل هذا التاريخ؟
- لا.
- ما الذي يمكن أن يكون قد أطلق نوبة كهذه إذا؟
- تردد ديفيد قبل أن يجيب، فأدرك ترافيس أن عليه أن يحثه على الكلام.
- إذا كنت تعلم شيئاً، يا ديفيد، فيجب أن نخبرنا به. الأمر مهم.
- افعل ذلك من أجل نولا.
- حين دخلت غرفتها في ذلك اليوم، وجدت مظروفاً على السرير، مظروفاً مفتوحاً يحمل اسمها وفيه رسالة. أعتقد أن هذه الرسالة هي التي تسببت بالنوبة، فقد كانت رسالة انفصال.
- رسالة؟ لكنك لم تحدثنا أبداً عن هذه الرسالة! صرخ ترافيس.
- لأنها رسالة كتبها رجل بدا من أسلوبه أنه ليس في سن تسمح له بأن يعيش قصة حب مع ابنتي. ماذا كنت تريد؟ أن تظن المدينة بأكملها أن ابنتي نولا فاسقة؟ في ذلك الوقت، كنت واثقاً أن الشرطة ستعثر عليها وتعيدها إلى المنزل، وكنت سأعالجها هذه المرة، كنت سأعالجها حقاً!
- ومن كان كاتب رسالة الانفصال هذه؟ سأله غاهالوود.
- هاري كير.
- بقينا مشدوهين. نهض الأب كيلرغان واختفى لحظة قبل أن يعود ومعه علبة من الكرتون مليئة بالرسائل.
- لقد عثرتُ على الرسائل بعد اختفائها، مخبأة في غرفتها وراء لوح متهاذٍ. كانت نولا تتراسل مع هاري كير.
- أخذ غاهالوود رسالة على نحوٍ عشوائي وقرأها بسرعة.
- كيف عرفت أنه هاري كير؟ سأله. الرسائل غير موقعة...
- لأنها... لأنها النصوص الموجودة في كتابه.
- فتشت في العلبة: كانت تحتوي بالفعل على مراسلة أصول الشر،

أو على الأقل الرسائل التي تلقتها نولا . كان كل شيء هناك : الرسائل التي تخصهما ، ورسائل مشفى شارلوتس هيل . تعرفت على خط المخطوطة النقي والواضح ، فانتابني نوع من الفزع : كان كل هذا حقيقياً .

- ها هي ذي الرسالة الأخيرة السيئة الذكر ، قال الأب كيلرغان وهو يمد مظلوماً لغاهالوود .
قرأها ثم أعطاني إياها .

حببتي

هذه رسالتي الأخيرة . هذه كلماتي الأخيرة . أكتب
لأقول لك وداعاً .

منذ الآن ، لن يكون هناك من «نحن» .

العشاق يفترقون ولا يعودون ، فهكذا تنتهي قصص
الحب .

حببتي ، سأفتقدك ، سأفتقدك كثيراً .

عيناى تبكيان . كل شيء فيّ يحترق .

لن نرى أحداً الآخر بعد الآن ؛ سأفتقدك كثيراً .

أتمنى لك السعادة .

أقول لنفسى إن ما بيننا كان حلماً ، وإن علينا
الاستيقاظ الآن .

سأفتقدك طوال حياتي .

وداعاً . أحبك كما لن أحب أبداً .

- إنها الصفحة الأخيرة من أصول الشر ، أوضح لنا كيلرغان .
أومات برأسى . تعرفت إلى النص . كنت مشدوهاً .

- منذ متى وأنت تعلم أن نولا وهاري كانا يتراسلان؟ سأله غاهالوود.

- أدركت ذلك منذ بضعة أسابيع فقط. كنت في السوبر ماركت وكانت هناك نسخ من أصول الشر. كانوا قد سمحوا للتو ببيع الكتاب من جديد، فاشتريت نسخة، لا أعلم لماذا. كنت بحاجة أن أقرأ هذا الكتاب، لأحاول أن أفهم. وسرعان ما شعرت بأني سبق لي أن رأيت بعض الجمل. قوة الذاكرة أمر عجيب حقاً. وبفعل المثابرة والتركيز، اتضح كل شيء: كانت هذه الرسائل التي عثرت عليها في غرفة نولا. لم ألمسها منذ ثلاثين عاماً، لكنها انطبعت في مكان ما من ذهني. فأعدت قراءتها ثانية وهنا أدركت كل شيء... هذه الرسالة القذرة سببت لابنتي حزناً كبيراً، أيها الرقيب. قد يكون لوثر كاليب من قتلها، لكن في نظري، هاري كبير مذنب بالقدر نفسه: فلولا تلك النوبة، لما فرّت نولا من المنزل ولما صادفتُ كاليب.

- ولهذا السبب ذهبت لتقابل هاري في الفندق... استنتج غاهالوود.

- نعم! فقد تساءلت طوال ثلاثة وثلاثين عاماً عمن كتب تلك الرسائل اللعينة، وكان الجواب في مكتبات أمريكا طوال الوقت. توجهت إلى فندق سي سايد وتشاجرنا هناك. كنت غاضباً لدرجة أنني عدت إلى هنا لأحضر بندقيتي، لكن عند عودتي إلى الفندق، كان قد غادر. كنت سأقتله. كان يعرف أنها هشة لكنه دفع بها إلى الهاوية مع ذلك!

كنت مذهولاً.

- ماذا تعني بـ كان يعرف؟ سأله.

- كان يعرف كل شيء عن نولا، كل شيء! صرخ الأب كيلرغان.

- أتعني أن هاري كان على علم بنوبات نولا النفسية؟

- نعم! كنت أعلم أن نولا كانت تذهب إلى منزله أحياناً، حاملة

الآلة الكاتبة، لكنني كنت أجهل كل ما تبقى طبعاً! بل اعتقدت أنه من المفيد لها أن تعرف كاتباً. كان ذلك في العطلة الصيفية، وقد شغلها ذلك. إلى أن أتى إليّ كاتب النحس هذا، معتقداً أن زوجتي كانت تعنف نولا.

- أتى هاري إلى هنا ليقابلك في ذلك الصيف؟!
- نعم، في منتصف شهر أغسطس. قبل الاختفاء ببضعة أيام.

*

15 أغسطس 1975

كانت فترة بعد الظهر. من نافذة مكتبه، لاحظ الأب كيلرغان سيارة شيفروليه سوداء تركن في موقف سيارات الأبرشية. رأى هاري كبير يترجل منها ويتوجه بخطى سريعة نحو الباب الرئيسي للمبنى. تساءل عما قد يكون سبب زيارته: فمنذ وصوله إلى أورورا، لم يأت هاري إلى الأبرشية أبداً. سمع صوت صفق الباب، ثم وقع خطوات في الرواق، وبعد بضع ثوانٍ، رآه واقفاً عند باب مكتبه المفتوح.

- مرحباً هاري، يا لها من مفاجأة سارة.

- مرحباً، أيها الكاهن. هل أزعجك؟

- إطلاقاً، تفضل، أرجوك.

مكتبة

t.me/soramnqraa

دخل هاري الغرفة وأغلق الباب وراءه.

- هل كل شيء على مايرام؟ سأله الكاهن كيلرغان. تبدو مستاءً.

- جئت لأحدثك عن نولا...

- أوه، لقد أتيت في الوقت المناسب. كنت أريد أن أشكر. أنا

أعلم أنها تذهب عندك أحياناً، وهي دائماً ما تعود من هناك فرحة. أتمنى ألا يكون هذا مزعجاً بالنسبة إليك.

كان وجه هاري عابساً.

- لقد جاءت هذا الصباح . كانت تبكي ، وحكت لي كل شيء بشأن زوجتك . . .
- شحب وجه الكاهن .
- بشأن . . . زوجتي ؟ ماذا قالت لك ؟
- إنها تضربها ! وإنها تغطس رأسها في الماء المثلج !
- هاري ، أنا . . .
- انتهى الموضوع ، أيها الكاهن . أنا أعرف كل شيء .
- هاري ، الأمر أكثر تعقيداً من ذلك . . . أنا . . .
- أكثر تعقيداً ؟ هل ستحاول إقناعي بأن هناك سبباً وجيهاً يبرر إساءة معاملتكما لها ؟ هه ؟ سأذهب إلى الشرطة ، أيها الكاهن . سأخبرهم بكل شيء .
- لا ، يا هاري . . . أرجوك . . .
- بل سأذهب . ماذا تعتقد ؟ أنني لن أجرؤ على الإبلاغ عنك لأنك رجل دين ؟ بل أنت لا شيء ! أي نوع من الرجال يسمح لزوجته أن تعنف ابنته ؟
- هاري . . . اسمعني ، أرجوك . أعتقد أن ثمة سوء فهم رهيباً وأنه ينبغي أن نتحدث بهدوء .



- لا أعلم ما حكته نولا لهاري ، أوضح لنا الكاهن . لم يكن أول من شك في وجود أمور مريبة في منزلنا ، لكن حتى ذلك اليوم ، تعاملت مع زملاء لنولا في المدرسة ، أطفال كان بإمكانني التهرب من أسئلتهم بسهولة . لكن الأمر كان مختلفاً هذه المرة ، فاضررتُ أن أعترف له بأن والدته نولا لم تكن موجودة إلا في رأسها . توسلت إليه ألا يخبر أحداً ، لكنه راح يحشر أنفه في ما لا يعنيه ويقول لي ماذا عليّ أن أفعل مع

ابنتي . أرادني أن أعالجها! طلبت منه ألا يتدخل في ما لا يعنيه . . .
وبعد ذلك بأسبوعين، اختفت نولا .

- وتفاديت أن تلتقي بهاري طوال ثلاثة وثلاثين عاماً، لأنكما
الوحيدان اللذان يعرفان سر نولا .

- كانت طفلي الوحيدة، أفهم؟ أردت أن يحتفظ الجميع بذكرى
طيبة عنها، لا أن ينظروا إليها على أنها مجنونة . وهي لم تكن مجنونة!
بل هشة فحسب! ولو أن الشرطة علمت بأمر تلك النوبات، لما كانوا
بذلوا كل تلك الجهود ليعثروا عليها . كانوا ليقولون إنها مجنونة وإنها
فرت من منزلها!

استدار غاهالوود نحوي .

- ماذا يعني كل هذا، أيها الكاتب؟

- أن هاري كذب علينا: هو لم ينتظرها في الفندق، بل هو أراد
الانفصال عنها . كان يعلم منذ البداية أنه سيقطع علاقته بنولا . هو لم
يرغب يوماً في أن يهرب معها . يوم 30 أغسطس 1975، لقد تلقتُ
رسالة أخيرة من هاري قال لها فيها إنه رحل من دونها .

بعد اعترافات الأب كيلرغان، عدنا أنا وغاهالوود فوراً إلى المقر
الرئيسي لشرطة الولاية في كونكورد لنقارن الرسالة بالصفحة الأخيرة
للمخطوطة التي تم العثور عليها مع نولا: كانتا متطابقتين .
- كان قد حضر لكل شيء، صحت قائلاً . كان يعلم أنه ستركها .
كان يعلم منذ البداية .

أوماً غاهالوود برأسه، موافقاً .

- حين عرضتُ عليه الفرار، كان يعلم أنه لن يرحل معها . لم
يكن راغباً في الارتباط بفتاة في الخامسة عشرة .
- لكنها قرأت المخطوطة، قلتُ ملاحظاً .
- طبعاً، لكنها ظننتها رواية . لم تكن تعلم أن ما كتبه هاري هو

قصتهما وأن النهاية معروفة: هاري لم يكن يرغب فيها. قالت لنا ستيفاني لارينيّاك إنهما كانا يتبادلان الرسائل وإن نولا كانت تراقب مجيء ساعي البريد. ويوم السبت، أي يوم الفرار والانطلاق نحو السعادة مع حب حياتها، خرجت لتتفقد صندوق البريد مرة أخيرة. أرادت أن تتأكد أنه لا توجد رسالة منسية قد تكشف أمر فرارهما، لكنها وجدت هذه الرسالة منه، التي تخبرها بانتهاء قصتهما.

تفحص غاهالود المظروف الذي احتوى الرسالة الأخيرة.

- هناك عنوان على المظروف، لكنه ليس مختوماً ولا يحمل طابعاً بريدياً، أي أنه وُضع في صندوق البريد مباشرة.
- أتقصد أن هاري من وضعه هناك؟

- نعم. وضعه ليلاً على الأرجح، قبل أن يهرب بعيداً. قد يكون قام بذلك في آخر لحظة، ليلة الجمعة، كي لا تأتي إلى الفندق، كي تفهم أنه لن يكون هناك موعد. وحين اكتشفت رسالته يوم السبت، غمرتها موجة من الغضب الشديد، فأصيبت بنوبة فظيعة، وقامت بإيذاء نفسها، وكالعادة، أغلق الأب كيلرغان على نفسه في المرآب، مرعوباً. وحين عادت نولا إلى وعيها، ربطت بين الرسالة والمخطوطة، وأرادت تفسيراً لذلك، فحملت المخطوطة واتجهت إلى الفندق، آملة ألا يكون كل ذلك حقيقياً، وأن يكون هاري هناك. إلا أنها التقت بلوثر في الطريق، وحصل ما حصل.

- لكن في هذه الحالة، لماذا عاد هاري إلى أورورا في اليوم التالي لاختفائها؟

- عَلِمَ أن نولا اختفت، وكان قد ترك لها هذه الرسالة، فأصيب بالهلع. وكان قلقاً بشأنها بالطبع وربما شعر بالذنب، لكن أرجح أنه خاف أن يعثر أحدهم على الرسالة أو على المخطوطة وأن يقع في ورطة إزاء ذلك. فضّل أن يكون في أورورا ليتتبع تطور الأمور عن كثب، ويستعيد الأدلة التي قد تدينه.

كان عليّ العثور على هاري. كان لا بد أن أتحدث إليه. لماذا جعلني أعتقد أنه انتظر نولا فيما كان قد كتب لها رسالة وداع؟ أطلق غاهالوود عملية بحث موسّعة، على أساس تقارير بطاقاته المصرفية ومكالماته الهاتفية. لكن بطاقته المصرفية لم تُستخدم مؤخراً، وكذلك هاتفه. وحين درسنا قاعدة بيانات الجمارك، اكتشفنا أنه عبّر مركز ديري لاين في فيرمونت وأنه دخل كندا.

قال غاهالوود:

- لقد عبر الحدود مع كندا إذاً، قال غاهالوود. لماذا كندا؟
- إنه يظن أنها جنة الكُتّاب، رددتُ. ففي المخطوطة التي تركها لي، نوارس أورورا، انتهى به المطاف هناك مع نولا.
- نعم، لكنني أذكرك بأن كتابه لا ينقل الحقيقة. فلم تتوفّ نولا فحسب، بل يبدو أنه لم ينوِ أبداً الفرار معها. ومع ذلك، ترك لك هذه المخطوطة، التي يلتقي فيها هو ونولا في كندا. أين هي الحقيقة إذاً؟
- لا أفهم شيئاً! قلت متدمراً. لماذا فرّ، بحق الجحيم؟
- لأنه يخفي شيئاً، لا نعلم ما هو تحديداً.

لم نكن نعلم ذلك بعد، لكن لم تكن هذه خاتمة المفاجآت. كان حدثان مهمان سيحملان لنا سريعاَ الأجوبة على أسئلتنا. في المساء نفسه، أخبرت غاهالوود أنني سأستقل الطائرة صباحاً إلى نيويورك.

- ستعود إلى نيويورك؟ أنت مجنون تماماً، أيها الكاتب! نحن نكاد نصل إلى الهدف! أعطني بطاقتك الشخصية لأصدرها. ابتسمت.

- أنا لا أتخلى عنك، أيها الرقيب، لكن حان الوقت.
- حان وقت ماذا؟

- الذهاب للتصويت. أمريكا على موعد مع التاريخ.

*

يوم 5 نوفمبر، عند الساعة الثانية عشرة ظهراً، وفيما كانت نيويورك لا تزال تحتفل بفوز أوباما، كان لديّ موعد مع بارناسكي لتناول الغداء معاً في مطعم شيه بيير. كان فوز الحزب الديمقراطي قد حسن مزاجه: «أحب السود، السود الوسمين! إذا تمت دعوتك إلى البيت الأبيض، خذني معك. حسناً، ما هو الشيء المهم الذي تريد أن تخبرني به؟».

حكيت له ما اكتشفته عن نولا وعن تشخيصها بفصام الطفولة، فأشرق وجهه.

- المشاهد التي وصفتَ فيها تعنيف الأم لها، كانت نولا من تلحقها بنفسها في الحقيقة؟
- نعم.

- هذا رائع! صرخ بصوت سمعه كل المطعم. كتابك طليعي! القارئ نفسه يعيش حالة من التيه، فالأم موجودة، دون أن تكون موجودة حقاً! أنت عبقرى، يا غولدمان! عبقرى!
- لا! أنا أخفقت. تركت هاري يخدعني.

- هل كان هاري على علم بذلك؟
- نعم. وقد اختفى من على وجه الأرض.
- ماذا تعني؟

- ليس له أثر. يبدو أنه عبر الحدود إلى كندا. ترك لي رسالة ملغزة ومخطوطة غير منشورة عن نولا.

- هل لديك حقوق النشر؟
- عذراً؟

- المخطوطة غير المنشورة، هل لديك حقوقها؟ سأشتريها منك!

- يا إلهي، يا روي! هذا ليس الموضوع!

- آسف، كنت أستفسر فحسب.

- ثمة تفصيل ناقص. ثمة شيء لم أفهمه. قصة فصام الطفولة تلك، واختفاء هاري. هناك قطعة ناقصة في الأحجية، أعلم ذلك، لكنني تائه.

- أنت شخص قلق بطبيعتك، يا ماركوس، وصدقني، القلق لا يفيد في شيء. اذهب واستشر الدكتور فرويد ودعه يصف لك حبواً للاسترخاء. من جهتي، سأتصل بالصحافة وسنحرر بياناً صحفياً بشأن مرض الصغيرة. وسنجعل الجميع يعتقد أننا كنا نعلم بالأمر منذ البداية، لكنها كانت مفاجأة الشيف، وهي طريقة لإظهار أن الحقيقة تكمن في مكان آخر أحياناً، وأنه لا ينبغي أن ننخدع بالانطباعات الأولى. وسيُسخر من الذين هاجموك وسيقال إنك مؤلف طليعي عظيم. سيتحدث الناس عن كتابك من جديد، وسنبيع منه المزيد. ذلك أنه بضربة كهذه، حتى الناس الذين لم يرغبوا في شراء الكتاب لن يستطيعون مقاومة فضولهم لمعرفة الطريقة التي تكلمت بها عن الأم.

أنت عبقرى، يا ماركوس، هذا الغداء على حسابي!

- لست مقتنعاً، يا روي. امهلني بعض الوقت لأتحري أكثر.

- لكنك دائماً ما تكون غير مقتنع، يا صديقي المسكين! ليس لدينا الوقت للتحري أكثر، كما تقول. أنت شاعر، تعتقد أن الوقت الذي يمر له معنى، لكن الوقت الذي يمر هو إما مال نكسبه، أو مال نخسره. وأنا من أنصار الحل الأول. لكن، كما تعلم، لدينا منذ أمس رئيس جديد. وسيم، وأسود، ويحظى بشعبية عارمة. وبحسب تقديري، سنسمع عنه في كل مكان طوال الأسبوع المقبل. أسبوع كامل مخصص له حصرياً. فلا داعي للتواصل مع وسائل الإعلام في هذه الفترة، لأنها لن تخصص لنا ولو حيزاً صغيراً. إذاً، لن أتواصل مع الصحافة إلا بعد أسبوع، ما سيمنحك بعض الوقت. وبعد أسبوع،

سننشر قصة فصام الطفولة في ملاحق مخصصة لها. ولو كان لديّ متسع من الوقت، لكنّ طبعْتُ كتاباً صغيراً موجهاً للآباء والأمهات، من قبيل: تشخيص فصام الطفولة أو كيفية تجنب أن يصبح طفلك نولا كيلرغان جديدة وأن يحرقك حياً أثناء نومك. قد يحقق نجاحاً هائلاً. لكن لا وقت لدينا.

لم يكن أمامي سوى أسبوع واحد قبل أن يكشف بارناسكي كل شيء، أسبوع لأفهم ما أفلت مني. مضت أربعة أيام، أربعة أيام عقيمة. كنت أتصل بغاهالوود بلا توقف. كان التحقيق في مازق، لا يتقدم. ثم، ليلة اليوم الخامس، حصل شيءٌ غير مسار التحقيق. كان ذلك يوم 10 نوفمبر، بعد منتصف الليل بقليل. بالصدفة، أثناء دوريته، لاحق أحد رجال شرطة الطريق السريع، دين فورسايت، سيارة على طريق مونتيري-أورورا بعد أن تجاوزت إشارة وقوف وكانت تسير بسرعة تخطت السرعة المسموح بها. وكانت لتكون مخالفة عادية لو لم يستغرب الشرطي سلوك سائق المركبة، الذي بدا متوتراً وكان يتصبب عرقاً.

- من أين أنت قادم، يا سيدي؟ سأل الضابط فورسايت.

- من مونتيري.

- ماذا كنت تفعل هناك؟

- كنت... كنت عند أصدقاء.

- ما هي أسماؤهم؟

التردد وبصيص الهلع الذي رآه في نظرة السائق زادا من رغبة الشرطي، فسَلَط ضوء مصباحه على وجه الرجل ولاحظ خدشاً على خده.

- ماذا حدث لوجهك؟

- خدشني غصنُ شجرة منخفض لم أنتبه إليه.

لم يقتنع الشرطي بذلك.

- لِمَ تقود السيارة بهذه السرعة؟

- أنا... أنا آسف... لقد كنت متعجلاً. أنت محقّ، ما كان علي فعل ذلك.

- هل أنت ثمل، يا سيدي؟

- لا.

أثبت تحليل الكحول الفوري أن الرجل لم يشرب الكحول فعلاً. كانت المركبة مرخصة، وبتسليط مصباحه داخلها، لم يرَ الضابط علب العقاقير الفارغة التي عادة ما تملأ المقاعد الخلفية لسيارات المدمنين. ومع ذلك، قال له حدسه إن ثمة خطباً ما: شيء ما في سلوك الرجل، المتوتر والهادئ في آن، دفعه إلى أن يتحقق من الأمر أكثر. وإذا به يلاحظ شيئاً آخر: كانت يداه متسختين، وحذاؤه مغطى بالطين، وبنطاله مبتلاً.

- تخرج من سيارتك، يا سيدي، أمره فورسايت.

- لماذا؟ هه؟ هه؟ تلعثم السائق.

- أطع الأوامر وتخرج من سيارتك.

ماطل الرجل، فقرر الضابط فورسايت أن يخرج به بالقوة وأن يعتقله بتهمة رفض تنفيذ أوامر الشرطة. اقتاده إلى المقر المركزي لشرطة المقاطعة، حيث قام بنفسه بأخذ الصور النظامية ورفع البصمات إلكترونياً. جعلته المعلومة التي ظهرت على شاشة الحاسوب في حيرة من أمره للحظة. ومع أنها كانت الساعة الواحدة والنصف ليلاً، رفع سماعة الهاتف، معتبراً أن الاكتشاف الذي قام به لتوه مهم بما يكفي لكي يخرج من سريره الرقيب بيرى غاهالوود من الفرقة الجنائية التابعة لشرطة الولاية.

بعد ذلك بثلاث ساعات، أي حوالي الساعة الرابعة والنصف فجراً، أيقظني بدوري اتصالاً هاتفي.

- أيها الكاتب؟ غاهالوود على الخط، أين أنت؟
- حضرة الرقيب؟ رددت في شبه غيبوبة. أنا في سريري في نيويورك، أين تريدني أن أكون؟ ماذا يجري؟
- اصطدنا عصفورنا، قال ببساطة.
- عذراً؟
- الشخص الذي أضرم النار في منزل هاري... لقد أمسكنا به هذه الليلة.
- ماذا؟
- هل أنت جالس؟
- بل مُستلقٍ.
- هذا أفضل. لأن ما ستسمعه سيصدمك.

نهاية اللعبة

«قد ينتابك شعور بالإحباط أحياناً، يا ماركوس. هذا طبيعي. قلت لك إن الكتابة أشبه بالملاكمة، لكنها أشبه بالركض أيضاً. ولهذا أرسلك دائماً لتركض: فإذا كانت لديك القدرة العقلية لتركض مسافات طويلة، تحت المطر، وفي البرد، إذا كانت لديك القدرة لتكمل حتى النهاية، وتضع في ذلك كل قواك، وكل قلبك، وتصل إلى هدفك، فستكون قادراً على الكتابة. لا تترك التعب أو الخوف يمنعانك من ذلك. بل على العكس، استخدمهما لتتقدم».

سافرت بالطائرة إلى مانشستر في الصباح نفسه، مصدوماً مما عرفته لتوي. حطت الطائرة عند الساعة الواحدة ظهراً، ووصلتُ بعد خمس وأربعين دقيقة إلى المقر الرئيسي لشرطة كونكورد. قابلني غاهالوود عند مكتب الاستقبال.

- روبرت كوين! قلت عند رؤيته، غير مصدق. روبرت كوين هو من أضرم النار في المنزل إذآ؟ أهو من كان يرسل لي تلك الرسائل؟
- نعم، أيها الكاتب. بصماته تطابقت مع البصمات على صفيحة البنزين.

- لكن لماذا؟

- لا أعلم. هو لم يفتح فمه. يرفض أن يتكلم.
قادني غاهالوود إلى مكتبه وقدم لي القهوة. شرح لي أن الفرقة الجنائية فتشت منزل آل كوين في الصباح الباكر.

- ماذا وجدتم؟ سأله.

- لا شيء، رد غاهالوود. لا شيء على الإطلاق.

- وزوجته؟ ماذا قالت؟

- هذا أمر غريب: لقد وصلنا إلى المنزل في السابعة والنصف صباحاً، لكن لم نستطع إيقاظها. كانت نائمة ملء جفونها ولم تلحظ حتى غياب زوجها.

- إنه يخدرها .

- يخدرها؟!

- روبرت كوين يضع منوماً لزوجته لينيمها وليتصرف على راحته . وهذا ما فعله هذه الليلة على الأرجح ، كي لا تشك في شيء . لكن تشك في ماذا؟ ما الذي كان يفعله في قلب الليل؟ ولماذا كان مغطى بالطين؟ هل دفن شيئاً ما؟

- هنا يكمن اللغز... ومن دون اعترافات منه، لن أتمكن من توجيه له الاتهامات .

- لكن لدينا صفيحة البنزين تلك .

- زعم محاميه أن روبرت عثر عليها على الشاطئ . قال إنه كان يتنزه هناك مؤخراً ، وإنه رأى الصفيحة فأمسك بها وألقى بها بعيداً كي لا تزعج المارة . نحن بحاجة إلى المزيد من الأدلة وإلا سيتخلص منا محاميه بسهولة .

- من هو محاميه؟

- لن تصدق .

- أخبرني .

- بنجامين روث .

تنهدت .

- هل تظن إذاً أن روبرت كوين هو من قتل نولا كيلرغان؟

- لنقل إن كل شيء ممكن .

- دعني أتحدث إليه .

- هذا غير وارد .

في تلك اللحظة ، دخل رجل إلى المكتب دون أن يطرق الباب ، فاتخذ غاهاالوود وضع التأهب . كان ذلك لانسدين ، رئيس شرطة الولاية ، وبدا عليه الاستياء .

- لقد قضيت الصباح على الهاتف مع المحافظ، وبعض الصحفيين، ومحامي النحس ذاك، روث.
- صحفيون؟ بأي شأن؟
- بشأن هذا الرجل الذي قبضتم عليه الليلة.
- نعم، يا سيدي. أعتقد أنه تطور مهم في التحقيق.
- وضع الرئيس يداً ودية على كتف غاهالوود.
- بيرى... لا يمكننا الاستمرار على هذا النحو.
- ماذا يعني ذلك؟
- هذه القصة ستستمرّ إلى ما لا نهاية. فلنكن جديين، يا بيرى:
- أنت تنتقل من مذنب إلى آخر. قال روث إنه سيسبب فضيحة، كما أن المحافظ يريد أن يتوقف هذا الهرج. حان الوقت لإقفال الملف.
- لكن يا حضرة الرئيس، نحن لدينا معطيات جديدة! وفاة والدته نولا، ثم توقيف روبرت كوين. إننا على وشك العثور على شيء ما!
- كان كبير في البداية، ثم كاليب، والآن الأب، أو كوين هذا، أو ستيرن، أو العفريت! ماذا لدينا ضد الأب؟ لا شيء. ضد ستيرن؟ لا شيء. ضد روبرت كوين هذا؟ لا شيء.
- هناك صفيحة البنزين اللعينة تلك...
- قال روث إنه سيكون من السهل عليه إقناع القاضي ببراءة كوين. هل تنوي اتهامه رسمياً؟
- طبعاً.
- ستخسر إذاً، يا بيرى. مرة أخرى، ستخسر. أنت شرطي جيد، يا بيرى، بل الأفضل على الأرجح، لكن علينا أن نعرف كيف ننسحب أحياناً.
- لكن، يا سيدي الرئيس...
- لا تُفسد نهاية مسيرتك المهنية، يا بيرى... لن أخرجك بسحب القضية منك على الفور. من باب الصداقة، سأتيح لك أربعاً

وعشرين ساعة. غداً عند الخامسة مساءً، سأنتظرك في مكتبي لتبلغني رسمياً بأنك أغلقت قضية كيلرغان. أمامك أربع وعشرين ساعة إذا لتخبر زملاءك بأنك تفضل التخلي عن القضية، وتحفظ ماء وجهك. ثم خذ عطلة حتى نهاية الأسبوع، اقضِ وقتاً مع عائلتك، فأنت تستحق ذلك.

- سيدي الرئيس، أنا...

- علينا أن نعرف كيف ننسحب، يا بيري. أراك غداً.

خرج لانسدين من المكتب وسقط غاهالوود على مقعده. وكأن ما حدث لم يكن كافياً، تلقيت على هاتفي المحمول مكالمة من روي بارناسكي.

- مرحباً، يا غولدمان، قال مرحاً. غداً سيكون قد مضى أسبوع، كما تعلم.

- مضى أسبوع على ماذا، يا روي؟

- أسبوع. المهلة التي منحتك إياها قبل أن نقدم للصحافة التطورات الأخيرة بشأن نولا كيلرغان. هل نسيت؟ أتصور أنك لم تعثر على شيء جديد.

- اسمع، لدينا مسار جديد في التحقيق، يا روي. قد يكون من المجدي تأجيل مؤتمر الصحفي قليلاً.

- أوه! مسار جديد... مرة أخرى. حان الوقت للكف عن هذا الهراء. لقد دعوت الصحفيين غداً عند الخامسة مساءً. أعتد على حضورك.

- لن يكون ذلك ممكناً، فأنا في نيو هامبشير.

- ماذا؟ غولدمان، أنت عنصر الإثارة هنا! أنا بحاجة إليك!

- آسف، يا روي.

وأغلقت الخط.

- من كان هذا؟ سألني غاهالوود.

- بارناسكي، ناشري. يريد أن يدعو الصحافة غداً مساءً ليكشف عن المفاجأة الكبرى: الإعلان عن مرض نولا والتأكيد على أن كتابي كتاب عظيم لأننا نعيش فيه حالة ازدواجية الشخصية لدى فتاة في الخامسة عشرة.

- غداً في نهاية النهار إذاً، سنكون قد أخفقنا في كل شيء رسمياً.

كان أمام غاهالوود أربع وعشرون ساعة أخيرة، فلم يرغب في أن يهدرها. اقترح أن نذهب إلى أورورا ونستجوب تمارا وجيني لمحاولة معرفة المزيد عن روبرت كوين.

ونحن في الطريق، اتصل بترافيس ليعلمه بمجيئنا، فوجدناه أمام منزل آل كوين. كان في حالة ذهول تام.

- أهى حقاً بصمات روبرت تلك التي عُثرت على الصفيحة؟ سأل ترافيس.

- نعم. أجب غاهالوود.

- تبا! أنا لا أصدق! لماذا قد يكون فعل ذلك؟

- لا أدري.

- أعتقد... أعتقد أنه متورط في مقتل نولا؟

- كل الاحتمالات واردة. ، كيف حال جيني ومارا؟

- في حال سيئة، سيئة جداً! إنهما تحت تأثير الصدمة. وأنا

كذلك. إنه كابوس! كابوس حقيقي!

جلس على مقدمة سيارته، وقد بدا عليه الضيق.

- ما الخطب؟ سأله غاهالوود الذي شعر بأن شيئاً ما لم يكن على

ما يرام.

- حضرة الرقيب، لم أكف عن التفكير منذ الصباح... فقد

أيقظت هذه القصة كمّاً هائلاً من الذكريات لديّ.

- أي نوع من الذكريات؟

- كان روبرت كوين مهتماً بالتحقيق عن كذب. ففي تلك الفترة، كنت أرى جيني كثيراً، وأتناول الغداء في منزل آل كوين أيام الآحاد. وكان يتحدث معي عن التحقيق طوال الوقت.

- ألم تكن زوجته من تحدث في الموضوع طوال الوقت؟
- على المائدة، نعم. لكن فور وصولي، كان الأب يقدم لي زجاجة من البيرة على الشرفة ويجعلني أتكلم. هل كان هناك مشتبّه فيه؟ هل كان هناك مسار للتحقيق؟ وبعد الوجبة، كان يصطحبني إلى سيارتي فتحدث مطولاً، حتى أنه كان يصعب عليّ التخلص منه.
- هل أنت تقول لي...

- أنا لا أقول لك شيئاً، لكن...

- لكن ماذا؟

فتش في جيبه وأخرج صورة فوتوغرافية.

- لقد وجدت هذا الصباح هذه الصورة في أحد ألبومات العائلة التي تحتفظ بها جيني في منزلنا.

كانت الصورة لروبرت كوين إلى جانب سيارة شيفروليه مونت كارلو سوداء، أمام مطعم كلاركس. كان مكتوباً على ظهر الصورة: أورورا، أغسطس 1975.

- ماذا يعني ذلك؟ سأله غاهالوود.

- لقد سألت جيني عن الأمر، فقالت إن والدها كان يرغب في شراء سيارة في ذلك الصيف، ولكنه لم يكن متأكداً من الطراز، فقام بزيارة عدة معارض سيارات، وقد استطاع أن يجرب طرازات مختلفة أثناء عطل نهاية الأسبوع.

- من بينها مونت كارلو سوداء؟ سأله غاهالوود.

- من بينها مونت كارلو سوداء، أكد ترافيس.

- هل يعني ذلك أنه يوم اختفاء نولا، كان من الممكن أن يكون روبرت كوين يقود تلك السيارة؟

- نعم .

مرر غاهاالوود يده في شعره ، وطلب أن يحتفظ بالصورة .

- ترافيس ، قلت بعد ذلك ، نود أن نتحدث إلى تمارا وجيني ، هل هما بالداخل؟

- نعم ، طبعاً ، تفضلاً . هما في غرفة المعيشة .

كانت تمارا وجيني منهارتين على أريكة . قضينا أكثر من ساعة نحاول أن نجعلهما تتكلمان ، لكنهما كانتا مصدومتين لدرجة أنهما كانتا غير قادرتين على استجماع ذهنيهما . وأخيراً ، بين نوبتي بكاء ، استطاعت تمارا أن تحكي لنا أمسيتهما بالأمس . كانت هي وروبرت قد تناولا العشاء باكراً ، ثم شاهدوا التلفزيون .

- هل لاحظت شيئاً غريباً في سلوك زوجك؟ سألها غاهاالوود .

- لا . . . بل نعم . حاول جاهداً أن يشربني فنجاناً من الشاي . لم أكن أرغب في الشاي ، لكنه ظل يردد : « اشربي ، يا حلوتي ، اشربي ، إنها أعشاب مهضمة ، ستريحك » . فشربت أعشابه اللعينة في الأخير ، وغفوت على هذه الأريكة .

- كم كانت الساعة آنذاك؟

- حوالي الحادية عشرة على ما أظن .

- وبعد ذلك؟

- وبعد ذلك ، ثقب أسود . نمت كما لو كنت ميتة . وحين استيقظت ، كانت الساعة السابعة والنصف صباحاً . كنت لا أزال على هذه الأريكة ، وكان رجال الشرطة يطرقون باب منزلي .

- سيدة كوين ، هل صحيح أن زوجك كان يفكر في شراء سيارة مونت كارلو؟

- لا . . . لا أدري ، نعم . . . ربما ، لكن . . . أعتقد أنه آذى الصغيرة؟ أعتقد أنه هو؟

عند هذه الكلمات ، هرعت إلى الحمام لتتقيأ .

لم تكذ تلك المحادثة تؤدي إلى مكان، فغادرنا دون أن نعرف المزيد. كان الوقت يداهمنا، فاقترحت على غاهالوود ونحن في السيارة أن نواجه روبرت بالصورة، التي تمثل دليلاً ضده.

- هذا لن يفيد بشيء، ردّ غاهالوود. فروث يعلم أن لانسدين يتراجع، فسينصح روبرت بالاستمرار في الصمت. فلن يتكلم روبرت. وغداً عند الخامسة مساءً، سيُوقَّف التحقيق وصديقك بارناسكي سيؤدي مسرحيته أمام شاشات البلاد بأكمله. سيكون روبرت كوين حراً ونصبح نحن أضحوكة أمريكا. مكتبة سرّ من قرأ - إلا إذا... .

- إلا إذا حصلت معجزة، أيها الكاتب. إلا إذا علمنا ما كان يفعله روبرت كوين أمس فتصرف بتلك العجلة. قالت زوجته إنها نامت عند الساعة الحادية عشرة، وقبضنا عليه في منتصف الليل تقريباً، أي مرت ساعة فقط، فنعرف على الأقل أنه كان في المنطقة، لكن أين؟ لم يرَ غاهالوود سوى شيء واحد لنقوم به: أن نذهب إلى المكان الذي قبض فيه على روبرت كوين ونحاول تعقب خط السير الذي اتبعه، حتى أنه استدعى الضابط فورسايت إلى الميدان رغم أن هذا الأخير كان في إجازة. التقينا به بعد ساعة، عند مخرج أورورا، فقادنا إلى نقطة على طريق مونتيري.

- كان هنا، قال لنا.

كان الطريق مستقيماً، ومحشوراً بين صفين من الأشجار الصغيرة. لم يفدنا ذلك بشيء.

- ماذا حدث بالضبط؟ سأله غاهالوود.

- كنت قادماً من مونتيري في دورية روتينية، حين اقتحمت هذه السيارة طريقي فجأة.

- ماذا تقصد بـ اقتحمت طريقك؟

- من جهة التقاطع على بعد خمسمئة أو ستمئة متر أعلى الطريق.

- أي تقاطع؟
- لا أعلم مع أي طريق يتقاطع، لكنه تقاطع بكل تأكيد، وفيه إشارة توقّف. أعرف أنها إشارة توقّف لأنها الوحيدة في هذا الجزء من الطريق.
- أتقصد إشارة التوقّف الموجودة هناك؟ سأل غاهالوود وهو ينظر بعيداً.
- إشارة التوقّف الموجودة هناك، أكد فورسايت.
- فجأة، تسارع كل شيء في رأسي، فصحت:
- إنه طريق البحيرة!
- ماذا؟ أي بحيرة؟ سأل غاهالوود.
- إنه التقاطع مع الطريق المؤدي إلى بحيرة مونتييري.
- صعدنا الطريق حتى بلغنا التقاطع، ثم سلكنا طريق البحيرة حيث وصلنا بعد مئة متر إلى موقف السيارات. كانت شواطئ البحيرة في حالة مزرية، إذ كانت أمطار الخريف العاصفة قد حرثت ضفافها، بحيث كان كل شيء طيناً.



الأربعاء 12 نوفمبر 2008، الساعة الثامنة صباحاً

- وصل عدد من سيارات الشرطة إلى موقف سيارات البحيرة. كنا أنا وغاهالوود ننتظر في سيارته منذ فترة، وعند رؤية الشاحنات الصغيرة التي تحمل فرق الغواصين، سألته:
- هل أنت متأكد مما تقوم به، أيها الرقيب؟
- لا، لكن ليس لدينا من خيار آخر.
- كانت هذه الورقة الأخيرة المتبقية لنا؛ كانت نهاية اللعبة. لقد جاء روبرت كوين إلى هنا، وتقدم في الطين إلى أن وصل إلى حافة الماء. لقد أتى ليلقي بشيء ما في البحيرة، أو كانت هذه فرضيتنا على الأقل.

ترجّلنا من السيارة لننضم إلى الغواصين الذين كانوا يستعدون .
أعطى قائد الفريق بعض التعليمات إلى رجاله ، ثم توجه بالحديث إلى
غاهالوود :

- ما الذي نبحث عنه ، أيها الرقيب ؟
- كل شيء ، وأي شيء . وثائق ، سلاح ، لا أدري . شيء له صلة
بقضية كيلرغان .

- أنت تعلم ، أيها الرقيب ، أن هذه البحيرة مكب للنفايات ، أليس
كذلك ؟ فلو أمكنك أن تكون أكثر تحديداً . . .

- أعتقد أن ما نبحث عنه بديهي بما يكفي ليلتقطه رجالك إذا
رأوه ، لكنني لا أعرف ما هو بالضبط .

- وفي أي مستوى من البحيرة ، برأيك ؟
- الضفاف المباشرة . لنقل مسافة رمية من على الشاطئ . أقترح
الجزء المقابل من البحيرة ، فكان المشتبه به مغطى بالطين ، كما كان
على وجهه خدش ، بسبب غصن شجرة منخفض على الأرجح . لقد
أراد بكل تأكيد إخفاء ذلك الشيء في مكان لن يرغب أحد في الاقتراب
منه . فأعتقد أنه ذهب إلى الجهة المقابلة المحاطة بالشجيرات
والأشواك .

بدأت عمليات التنقيب ، فوقفنا عند حافة الماء على مقربة من
موقف السيارات ، نراقب الغواصين وهم يختفون في الماء . كان البرد
قارساً . مرت ساعة دون أن يحدث شيء يُذكر . وقفنا إلى جانب قائد
فريق الغواصين مباشرة ، نستمع إلى المكالمات القليلة على جهاز
اللاسلكي .

عند التاسعة والنصف ، اتصل لانسدين بغاهالوود ليوبخه . كان
صوته عالياً لدرجة أنني سمعت المحادثة عبر الهاتف .

- قل لي إن هذا لا يحدث فعلاً ، يا بيرري !

- ما الذي لا يحدث ، يا حضرة الرئيس ؟

- هل أمرت باستحضار غواصين؟

- نعم، يا سيدي.

- أنت مجنون، أنت تحرق نفسك، يا بيرى. بإمكانى إيقافك عن العمل بسبب هذه المبادرة! سأنظم مؤتمراً صحفياً عند الساعة الخامسة مساءً، وستكون موجوداً. وأنت من سيعلم أن التحقيق انتهى عند هذه النقطة. ستتدبر أمرك مع الصحفيين، فأنا لن أحميك بعد الآن، يا بيرى! لقد طفح الكيل!

- حسناً، يا سيدي.

أغلق الخط، وبقينا صامتين.

مضت ساعة أخرى، بقيت أثناءها عمليات البحث عقيمة. لم تغادر مكاننا أنا وغازالوود رغم الصقيع. قلت له أخيراً:
- أيها الرقيب، ماذا لو...

- اصمت، أيها الكاتب. لا تتكلم، أرجوك. أنا لا أرغب في سماع أي من تساؤلاتك وشكوكك.

انتظرنا مجدداً. وفجأة، صدر صوت غير معتاد من جهاز اللاسلكي الخاص برئيس فريق الغواصين. كان يحدث أمر ما. صعد بعض الغواصين إلى سطح الماء، فسادت حالة من الإثارة وهرع الجميع نحو حافة البحيرة.

- ماذا يحدث؟ سأله غازالوود رئيس فريق الغواصين.

- لقد عثروا عليه! عثروا عليه!

- عثروا على ماذا؟

على بعد عشرة أمتار من الضفة، كان الغواصون قد عثروا لتوهم، وسط الوحل، على مسدس من عيار 38. وعلى عقد من ذهب مكتوب عليه اسم نولا.

في منتصف اليوم نفسه، جلسْتُ خلف الزجاج في قاعة التحقيقات

بالمقر الرئيسي لشرطة الولاية، أستمع لاعترافات روبرت كوين بعد أن وضع أمامه غاهالوود المسدس وعقد الذهب اللذين عُثر عليهما في البحيرة.

- أهذا ما كنت تفعله الليلة الماضية؟ سأله بصوت يكاد يكون رقيقاً. تتخلص من أدلة تدينك؟

- كيف... كيف فعلتم ذلك؟

- لقد انتهت اللعبة، يا سيد كوين. انتهت بالنسبة إليك. وسيارة المونت الكارلو السوداء، كان ذلك أنت، أليس كذلك؟ سيارة لمعرض سيارات، غير مدرجة في أي سجلات. لم يكن أحد ليصل إليك أبداً، لولا أن خطرت لك الفكرة الغبية بأن تلتقط لنفسك صورة إلى جانبها.

- أنا... أنا...

- لماذا، هه؟ لماذا قتلت تلك الفتاة؟ وتلك السيدة المسكينة؟

- لا أدري. أعتقد أنني لم أكن أنا. كان حادثاً في حقيقة الأمر.

- ما الذي حدث؟

- كانت نولا تمشي على طرف الطريق وعرضتُ عليها أن أقربها قليلاً. قبلتُ وركبت السيارة... ثم... كنت أشعر بالوحدة في الحقيقة، فأردت أن أداعب شعرها قليلاً... ففرّت إلى الغابة. اضطررت أن أتبعها لأطلب منها ألا تخبر أحداً، ثم دخلت منزل ديورا كوبر لتحتمي فيه. كنت مضطراً إلى فعل ذلك، وإلا كانتا ستتكلمان.

كانت... كانت لحظة ضياع!

ثم انهار بعد ذلك.

حين خرج من قاعة التحقيقات، اتصل غاهالوود بترافيس ليخبره بأن روبرت كوين وقّع على اعترافات كاملة.

- سيكون هناك مؤتمر صحفي عند الخامسة مساءً، قال له، ولم أكن أرغب في أن تعلم بالأمر من قناة التلفزيون.

- شكراً، يا حضرة الرقيب، أنا... ماذا ينبغي أن أقول لزوجتي؟
- لا أدري، لكن عليك أن تخبرها سريعاً، فالخبر سينتشر كالنار في الهشيم.
- سأفعل.

- حضرة الرئيس داون، أيمكنك أن تأتي إلى كونكورد من أجل بعض التوضيحات بشأن روبرت كوين؟ أنا لا أرغب في فرض ذلك على زوجتك أو حماتك.

- طبعاً. أنا في الخدمة الآن، ولديّ حادث سير لأعمل عليه.
ويجب أن أتحدث إلى جيني. فالأفضل أن آتي مساءً أو غداً.
- تعال متى تشاء غداً، فلم يعد هناك من أمر عاجل الآن.
أغلق غاهالوود الخط، وبدا مرتاحاً.
- والآن؟ سألته.

- الآن، سأدعوك لأكل شيئاً، فأعتقد أننا استحققنا ذلك.
تناولنا الغداء في كافيتريا مركز شرطة الولاية. بدا غاهالوود شارد الذهن، فهو لم يلمس طبقه. كان قد احتفظ بالملف معه، وضعه على الطاولة، وظل يتأمل صورة روبرت كوين مع المونت كارلو لربع ساعة، فسألته:

- ما الذي يشغل بالك، أيها الرقيب؟
- لا شيء. أتساءل فقط لماذا حمل كوين مسدساً معه... لقد أخبرنا أنه التقى بالفتاة صدفةً على الطريق وهو يقوم بجولة بالسيارة. فهو إما خطط لكل شيء مسبقاً، السيارة والمسدس، أو أنه التقى بنولا صدفةً، لذا أتساءل لماذا كان يحمل سلاحاً ومن أين أتى به.
- أعتقد أنه كان قد خطط لكل شيء، لكنه أراد أن يقلل من شأن اعترافاته؟

- محتمل.

ظل يتأمل الصورة. قَرَّبها من وجهه ليتفحص التفاصيل عن كثب. وفجأة، لاحظ شيئاً ما، وتغيرت تعابير وجهه، فسألته:
- ما الأمر، أيها الرقيب؟
- عنوان الجريدة...

انتقلتُ إلى جانبه من الطاولة لأنظر إلى الصورة. أشار بإصبعه إلى صندوق الجرائد في خلفية الصورة، بجوار مطعم كلاركس. إذا تأملنا بدقة، بإمكاننا أن نقرأ عنوان الصفحة الأولى:

نيكسون يستقيل

- لقد استقال ريتشارد نيكسون في أغسطس 1974! صاح غاهالوود. هذه الصورة لا يمكن أن تكون قد التقطت في أغسطس 1975!

- لكن من الذي كتب ذلك التاريخ الخطأ على ظهر الصورة؟
- لا أدري، لكن هذا يعني أن روبرت كوين يكذب علينا، وأنه لم يقتل أحداً!

ركض غاهالوود خارجاً من الكافيتريا، وهرع نحو السلم الذي صعد درجاته أربعاً أربعاً، ثم توجه إلى جناح الزنانات حيث طلب أن يقابل روبرت كوين فوراً.

- مَنْ تحمي؟ صرخ غاهالوود ما إن لمحّه عبر قضبان الزنانة. أنت لم تجرب سيارة المونت كارلو في أغسطس 1975! أنت تحمي أحداً ما، وأريد أن أعرفه من هو! أهى زوجتك؟ ابنتك؟
بدا اليأس على روبرت، وتمتم دون أن يتحرك من على الدكة المبطنة الذي كان يجلس عليها:

- جيني، أنا أحمي جيني.
- جيني؟ ردد غاهالوود في ذهول. هل ابنتك هي التي...
أخرج هاتفه واتصل بأحد الأرقام.

- بمن تتصل؟ سألته.
- بترافيس داون. كي لا يخبر زوجته. فإذا علمت أن والدها قد اعترف بكل شيء، فستشعر بالهلع وتفرّ.
لم يجب ترافيس على هاتفه المحمول، فاتصل غاهالوود بمخفر شرطة أورورا ليصلوه به عن طريق اللاسلكي.
- هنا الرقيب غاهالوود من شرطة ولاية نيو هامبشير، قال للشرطي. يجب أن أتحدث فوراً إلى الرئيس داون.
- الرئيس داون؟ اطلبه على هاتفه المحمول، فهو ليس في الخدمة اليوم.
- كيف ذلك؟ لقد تكلمت معه قبل قليل، وقال إنه مشغول بحادث سير.
- مستحيل، يا حضرة الرقيب. أكرر لك أنه ليس في الخدمة اليوم.
أغلق غاهالوود الخط شاحب الوجه، وأطلق إنذاراً عاماً على الفور.

*

تم توقيف ترافيس وجيني داون بعد بضع ساعات في مطار بوسطن-لوغان، حيث كانا على وشك المغادرة على متن طائرة متجهة إلى كاراكاس.
كانت ساعة متأخرة من الليل حين غادرنا أنا وغاهالوود مقر شرطة الولاية بكونكورد، حيث كان حشد من الصحفيين ينتظرون عند مخرج المبنى، فانقضوا علينا فور خروجنا. اخترقنا الحشد دون أن ندلي بأي تعليق، وركبنا سيارة غاهالوود مسرعين. قاد السيارة في صمت.
- إلى أين نحن ذاهبان، أيها الرقيب؟ سألته.
- لا أدري.

- ماذا يفعل رجال الشرطة في لحظات كهذه؟
- إنهم يشربون. وماذا عن الكُتَّاب؟
- يشربون أيضاً.

قاد بنا حتى حانته المفضلة عند مخرج كونكورد، حيث جلسنا إلى المنضدة وطلبنا كأس ويسكي مزدوجة، وكان شريط الأخبار على شاشة التلفزيون وراءنا يعلن الخبر:

ضابط في شرطة أورورا يعترف بقتل نولا كيلرغان



حقيقة قضية هاري كير

«الفصل الأخير من الكتاب، يا ماركوس، يجب أن يكون الأجمل دائماً».

نيويورك، الخميس 18 ديسمبر 2008
بعد مرور شهر على اكتشاف الحقيقة

كانت هذه آخر مرة رأيته فيها.
كانت الساعة التاسعة مساءً. كنت في المنزل أستمع إلى
تسجيلاتي حين قَرَعَ الجرس. فتحت الباب، فحدق أحداً بالآخر في
صمت، ثم قال أخيراً:

- مساء الخير، يا ماركوس.
- أجبت بعد ثانية من التردد:
- اعتقدت أنك ميت.
- أوماً برأسه موافقاً:
- أنا لم أعد سوى شبح.
- أترغب في القهوة؟
- بكل سرور، هل أنت وحدك؟
- نعم.
- لا ينبغي أن تظل وحدك.
- تفضل بالدخول، يا هاري.
- توجهتُ إلى المطبخ لأعد القهوة، وانتظر هو في غرفة المعيشة،
متوتراً ويعبث بإطارات الصور المصفوفة على رفوف مكتبتني. حين

عدت بإبريق القهوة والفنجانين ، كان ينظر إلى صورة لنا معاً يوم حفل تخرجي من جامعة بوروس .

- هذه أول مرة آتي فيها إلى منزلك ، قال .

- غرفة الضيوف جاهزة من أجلك منذ عدة أسابيع .

- كنت تعلم أنني سأتي ، هه ؟

- نعم .

- أنت تعرفني جيداً ، يا ماركوس .

- الأصدقاء يعرفون هذه الأمور .

ابتسم ابتسامة حزينة .

- شكراً على حسن الضيافة ، يا ماركوس ، لكنتي لن أبقى .

- لماذا أتيت إذا ؟

- لأودّعك .

حاولت إخفاء اضطرابي وصببت القهوة في الفنجانين .

- إذا تركتني ، فلن يكون لدي أي أصدقاء ، قلت له .

- لا تقل ذلك . أنت أكثر من صديق ، يا ماركوس ، لقد أحببتك

كابن لي .

- لقد أحببتك كأب لي ، يا هاري .

- رغم الحقيقة ؟

- الحقيقة لا تغيّر شيئاً مما يمكن أن نشعر به تجاه الآخر ، وهذه

مأساة المشاعر العظيمة .

- أنت محق ، يا ماركوس . أنت تعرف كل شي إذا ؟

- نعم .

- كيف عرفت ؟

- انتهى بي الأمر إلى الفهم .

- كنت الوحيد الذي باستطاعته كشف أمري .

- هذا ما كنت تكلمني عنه حين كنا في موقف سيارات الفندق ،

السبب بأن لا شيء سيظل على حاله بيننا، كنت تعلم أنني سأكتشف كل شيء.

- نعم.

- كيف وصلت بك الأمور إلى هنا، يا هاري؟

- لا أدري...

- لديّ تسجيلات الفيديو للتحقيقات مع ترافيس وجيني داون. هل

تود مشاهدتها؟

- نعم، من فضلك.

جلس على الأريكة ووضعتُ الأسطوانة المدمجة في الجهاز، فظهرت جيني على الشاشة. كانت تُصوّر وجهها إلى الكاميرا في قاعة بمقر شرطة ولاية نيو هامبشير. كانت تبكي.

*

مقطع من استجواب جيني ك. داون

الرفيق ب. غاهالوود: سيدة كوين، منذ متى تعرفين الحقيقة؟
جيني ك. داون (باكية): أنا... أنا لم أشك في شيء أبداً! حتى ذلك اليوم الذي عُثِر فيه على جثة نولا في غوز كوف. كانت المدينة في حالة من الهيجان الشديد، وكان مطعم كلاركس يعج بالناس: زبائن وصحافيون جاؤوا ليطرحوا الأسئلة. كان جحيماً. شعرت بإرهاق شديد فعدت إلى المنزل أبكر من العادة، لأرتاح. كانت هناك سيارة لا أعرفها أمام منزلنا. دخلت المنزل وسمعت أصوات صراخ. تعرفت على صوت الرئيس برات. كان يتشاجر مع ترافيس. لم يسمعاني.

12 يونيو 2008

- ابقِ هادئاً، يا ترافيس! وعظ برات. لن يفهم أحدٌ

شيئاً، وسترى بنفسك.

- كيف يمكنك أن تكون واثقاً إلى هذا الحد؟
- كبير هو من سيتلقى كل الضربة! فقد عثروا على
الجنة بجوار منزله! كل شيء يدينه.
- تَبَّأ، ماذا لو تمت تبرئته؟
- لن يحدث ذلك، يجب ألا نتحدث عن هذه القصة
بعد الآن، مفهوم؟
أحسّت جيني بحركة، فاخبتأت في غرفة المعيشة.
رأت الرئيس برات يغادر المنزل، وما إن سمعت صوت
محرك سيارته، حتى هرعت إلى المطبخ حيث وجدت
زوجها منهاراً.
- ما الذي يحدث، يا ترافيس؟ لقد سمعتُ كل
حديثكما! ماذا تخفي عني؟ ماذا تخفي عني بشأن نولا
كيلرغان؟

جيني ك. داون: هنا حكى لي ترافيس كل شيء. أراني العقد
وقال إنه احتفظ به طوال هذا الوقت كي لا ينسى ما فعله، فأخذت
العقد وقلت له إنني سأهتم بكل شيء. أردت أن أحمي زوجي، أردت
أن أحمي زوجي. لطالما كنت وحيدة، أيها الرقيب. ليس لي أطفال.
ليس لي أحد سوى ترافيس. لم يكن بإمكانني المخاطرة بأن أفقده...
كنت أمل أن يُغلق الملف سريعاً وأن يُتَّهم هاري... لكن راح
ماركوس غولدمان ينبش في الماضي، متأكداً من براءة هاري. كان
محققاً، لكن لم يكن بوسعي أن أتركه يكتشف الحقيقة، فقررت أن
أرسل له تلك الرسائل... أضرمت النار في سيارة الكورفيت اللعينة
تلك، لكنه لم يأبه لتهديداتي، فقررت أن أضرم النار في المنزل.

الرقيب ب. غاهالوود: لماذا فعلت ذلك؟

روبرت كوين: من أجل ابنتي. بدت قلقة جداً جراء حالة الهيجان التي انتابت المدينة منذ اكتشاف جثة نولا. لاحظت أنها مهمومة، وأنها تتصرف على نحوٍ غريب. كانت تترك المطعم من دون سبب. وفي اليوم الذي نشرت فيه الجرائد أوراق غولدمان، كانت تستشيط غضباً. كان الأمر مخيفاً. فحين رأيته، وأنا أخرج من حمام الموظفين، تسلل من المطعم عبر الباب الخلفي، قررت أن أتعبها.

الخميس 10 يوليو 2008

ركنْتُ سيارتها على طريقي داخل الغابة. تراجلت من السيارة مسرعةً، ممسكةً بصفيحة البنزين وعبوة الطلاء. كانت قد حرصت على ارتداء قفازين للبستنة كي لا تترك أي بصمات. تعقبها عن بعد، بصعوبة. وحين تخطى حافة صفوف الأشجار، كانت قد لطخت سيارة الرينج روفر وراحت تصب البنزين أسفل السقيفة في الفناء الأمامي.

- جيني، توقفي! صرخ لها والدها.

أشعلت عود كبريت بسرعة وألقت به على الأرض، فاشتعل مدخل المنزل فوراً، حتى أنها تفاجأت من كثافة النيران واضطرت أن تتراجع لبضعة أمتار وهي تحمي وجهها. أمسكها والدها من كتفيها.

- جيني! أنت مجنونة!

- لن تفهم، يا أبي! ماذا تفعل هنا؟ ارحل! ارحل!

انتزع الصفيحة من بين يديها.

- اهربي! أمرها. اهربي قبل أن يُقبض عليك.
اختفت وسط الغابة وعادت إلى سيارتها. كان عليه
أن يتخلص من الصفيحة، لكن الهلع كان يمنعه من
التفكير، فهرع نحو الشاطئ في الأخير، وأخفاها وسط
الشجيرات.

مقطع من استجواب جيني ك. داون

الرقيب ب. غاهالوود: وبعد ذلك؟
جيني ك. داون: توسلت لأبي بأن يظل خارج هذه القضية، فلم
أرغب في أن يتورط فيها.
الرقيب ب. غاهالوود: لكنه كان متورطاً بالفعل. ماذا فعلتِ
حينذاك؟

جيني ك. داون: ازداد الضغط على الرئيس برات بعد اعترافه
بإرغام نولا على القيام بممارسات شائنة. فبعد أن كان مطمئناً على
نفسه، أصبح على وشك الانهيار. كان سيترف بكل شيء، فلزم
التخلص منه، واستعادة السلاح.
الرقيب ب. غاهالوود: كان قد احتفظ بالسلاح إذًا...
جيني ك. داون: نعم، كان سلاح الخدمة الخاص به. منذ
البداية...

مقطع من استجواب ترافيس داون

ترافيس داون: لن أسامح نفسي أبداً على ما فعلته، يا حضرة
الرقيب. مرت ثلاثة وثلاثون سنة وأنا أفكر في الموضوع. ثلاثة
وثلاثون سنة وأنا مسكون به.
الرقيب ب. غاهالوود: ما لا أفهمه هو أنه رغم كونك شرطياً،
احتفظت بذلك العقد، مع أنه دليل إدانة قاطع.

ترافيس داون: لم يكن بمقدوري التخلص منه؛ كان ذلك العقد عقابي، تذكيري بالماضي. منذ 30 أغسطس 1975، لم يمر يوم دون أن أغلق على نفسي في مكان ما لأتأمله. ثم، ما كانت احتمالية أن يعثر عليه أحد؟

الرقيب ب. غاهالوود: وماذا عن برات؟

ترافيس داون: كان سيتكلم. فمِنذ أن اكتشفت أمره مع نولا، كان مرعوباً. لقد اتصل بي ذات يوم وأراد مقابلي. التقينا على الشاطئ. أخبرني بأنه يرغب في الاعتراف بكل شيء، وفي إبرام اتفاق مع المدعي العام، وأنّ عليّ فعل الشيء نفسه لأن الحقيقة كانت ستظهر إلى العلن على أية حال. وفي مساء اليوم نفسه، ذهبت لأزوره في الفندق. حاولت أن أعيده إلى رشده لكنه رفض. أراني مسدسه القديم من عيار 38 والذي كان يحتفظ به في درج منضدة السرير، وقال إنه سيسلمه لك في اليوم التالي. كان سيتكلم، يا حضرة الرقيب، فانتظرت حتى استدار وقتلته بضربة هراوة، وأخذت المسدس وهربت.

الرقيب ب. غاهالوود: ضربة هراوة؟ كما فعلت مع نولا!

ترافيس داون: نعم.

الرقيب ب. غاهالوود: نفس السلاح؟

ترافيس داون: نعم.

الرقيب ب. غاهالوود: أين هي؟

ترافيس داون: إنها هراوة الخدمة خاصتي. هذا ما قرناه أنا وبرات وقتذاك: قال إن أفضل طريقة لإخفاء أسلحة الجرائم هي جعلها على مرأى من الجميع. كان المسدس والهراوة اللذان حملناهما في حزامينا ونحن نبحث عن نولا سلاحَي الجريمة.

الرقيب ب. غاهالوود: لماذا تخلصتَ منهما إذًا؟ وكيف أصبح

المسدس والعقد في حوزة روبرت كوين؟

ترافيس داون: ضغطتُ عليّ جيني فاستسلمت. فهي لم تعد تنام

منذ وفاة برات. كانت على وشك الانهيار. قالت إنه لا ينبغي لنا الاحتفاظ بهما في منزلنا، وإنه إذا وصل التحقيق في مقتل برات إلينا، فسينتهي أمرنا. أقنعتني في النهاية، ونويت أن آخذهما وألقي بهما في البحر حيث لن يجدهما أحد أبداً، لكنها ارتعبت وتصرفت دون أن تسألني وطلبت من والدها أن يهتم بالأمر.

الرقيب ب. غاهالوود: لماذا والدها؟

ترافيس داون: أعتقد أنها لم تكن تثق بي، فأنا لم أتمكن من التخلص من العقد طوال ثلاثة وثلاثين سنة، فخشيت ألا أكون قادراً على فعل ذلك. كما أنها لطالما كانت لديها ثقة مطلقة بوالدها، الذي اعتبرته الشخص الوحيد القادر على مساعدتها. ثم إنه بعيد كل البعد عن الشبهات.. روبرت كوين اللطيف.

10 نوفمبر 2008

دخلت جيني مسرعة إلى منزل والديها. كانت تعرف أن والدها بمفرده. وجدته في غرفة المعيشة.
- أبي! صاحت قائلة، أبي، إني بحاجة إلى مساعدتك!

- جيني؟ ماذا حدث؟
- لا تطرح الأسئلة. أحتاج منك أن تتخلص من هذا.

مدّت له كيساً من البلاستيك.

- ما هذا؟

- لا تسأل. ولا تفتحه. الأمر في غاية الخطورة.
أنت الوحيد الذي يمكنه مساعدتي. أريد منك أن تلقي بهذا في مكان لا يصل إليه أحد.
- هل تواجهين المشاكل؟

- نعم، أعتقد ذلك.
- حسناً، سأفعل، يا حبيبتي. لا تقلقي. سأفعل كل ما بوسعي لأحميك.
- إياك أن تفتح الكيس، يا أبي. تخلص منه فحسب.
لكن ما إن غادرت ابنته، حتى فتح روبرت الكيس، فذُعر مما اكتشفه بداخله. وخوفاً من أن تكون ابنته قاتلة، قرر أن يذهب ليلاً ليلقي بمحتوى الكيس في بحيرة مونتييري.

مقطع من استجواب ترافيس داون

ترافيس داون: حين علمتُ أنه تم القبض على الأب كوين، عرفت أن الأمر انتهى. وأنه يجب التصرف. قلت لنفسي إنه يجب أن نظهره على أنه المذنب، مؤقتاً على الأقل. فكنت أعرف أنه يريد أن يحمي ابنته وأنه سيصمد يوماً أو اثنين، حالما نصل أنا وجيني إلى بلد لا تسلّم المطلوبين. فرُحْتُ أبحث عن دليل ضد روبرت وفتشت في ألبومات صور العائلة التي تحتفظ بها جيني، آملاً أن أعثر على صورة له هو ونولا، فأكتب على ظهرها شيئاً يدينه. وهنا عثرت على تلك الصورة مع المونت كارلو السوداء، التي شكلت مصادفة هائلة! فدونت التاريخ بالقلم على أنه أغسطس 1975 وحملتُها إليك.
الرقيب ب. غاهالوود: أيها الرئيس داون، حان الوقت لتحكي لنا ماذا حدث حقاً يوم 30 أغسطس 1975...

*

- أوقف ذلك، يا ماركوس. أوقف ذلك أرجوك! صرخ هاري.
أطفأتُ التلفزيون على الفور. كان هاري يبكي. نهض من على

الأريكة والتصق بالنافذة. كان الثلج يتساقط في ندف كبيرة، وبدت المدينة خلافة بأضوائها.

- أنا آسف، يا هاري.

- نيويورك مكان رائع، قال هامساً. لطالما تساءلتُ كيف كانت ستكون عليه حياتي لو بقيت هنا بدلاً من الذهاب إلى أورورا في بداية صيف 1975.

- ما كنتَ لتعرف الحبَّ أبداً.

تأمل المشهد الليلي.

- كيف فهمتَ، يا ماركوس؟

- فهمتُ ماذا؟ أنك لم تكتب أصول الشر؟ بعد القبض على ترافيس داون بقليل، عادت الصحافة لتكتب عن القضية من جديد، وبعد ذلك ببضعة أيام، تلقيت اتصالاً من إليجاه ستيرن. كان يريد أن يقابلني للضرورة.

*

الجمعة 14 نوفمبر 2008

منزل إليجاه ستيرن، بالقرب من كونكورد، في ولاية نيو هامبشير

- شكراً على مجيئك، يا سيد غولدمان.

استقبلني إليجاه ستيرن في مكتبه.

- لقد تفاجأتُ باتصالك، يا سيد ستيرن. كنت أعتقد أنك لا تحبني كثيراً.

- أنت شاب موهوب. هل ما يُقال في الصحف عن ترافيس داون هو الحقيقة؟

- نعم، يا سيدي.

- يا للقدارة...

أومأت برأسي، ثم قلت له:

- لقد أخطأت فيما يتعلق بكاليب، وأنا آسف على ذلك.
- أنت لم تخطئ. فبحسب فهمي، مثابرتك هي التي سمحت
للشرطة بأن تنهي التحقيق في الأخير. وهناك شرطي يحلف
باسمك... ييري غاهالوود، هذا اسمه على ما أظن.
- لقد طلبتُ من ناشري أن يسحب النسخ المتبقية من قضية هاري
كبير من المكتبات.

- أنا سعيد لسماع ذلك. هل تنوي كتابة نسخة مصحّحة؟
- هذا ممكن. لا أعرف الصيغة بعد، لكن سَتُحَقَّقُ العدالة. لقد
حاربت للدفاع عن سمعة كبير، وسأحارب أيضاً للدفاع عن سمعة
كاليب.

ابتسم.

- ولهذا السبب أردت أن أقابلك، يا سيد غولدمان. يجب أن
أخبرك بالحقيقة، فستفهم لماذا لم أضع اللوم عليك حين اعتقدت
لبضعة أشهر أن كاليب هو الجاني: فأنا نفسي عشت ثلاثة وثلاثين عاماً
مقتنعاً بأن لوثر هو مَنْ قتل نولا كيلرغان.
- حقاً؟

- لقد كان لديّ يقين مطلق، م. ط. ل. ق.
- ولماذا لم تخبر الشرطة بذلك؟
- لم أكن أرغب في قتل لوثر مرة ثانية.
- لا أفهم ما تود قوله لي، يا سيد ستيرن.
- كان لوثر مهووساً بنولا. كان يقضي وقته في أورورا
يراقبها...

- أعلم ذلك. أعلم أنك فاجأته ذات مرة في غوز كوف، لقد
قلت ذلك للرقيب غاهالوود.

- أعتقد أنك لا تقدّر هوس لوثر حق قدره. في شهر أغسطس
1975 ذاك، كان يقضي أيامه في غوز كوف، مختبئاً في الغابة،

يتجسس على هاري ونولا؛ على الشرفة، وعلى الشاطئ، وفي كل مكان. في كل مكان! كان قد جُنَّ تماماً. كان يعلم كل شيء عنهما. كل شيء! وكان يحدثني عنهما طوال الوقت. يوماً بعد يوم، أخبرني بما فعلاه وبما قالاه، وحكى لي كل قصتهما: أنهما التقيا على الشاطئ، وأنهما كانا يعملان على كتاب، وأنهما سافرا معاً لأسبوع كامل. كان يعرف كل شيء! كل شيء! شيئاً فشيئاً، أدركت أنه يعيش قصة حب من خلالهما، قصة الحب التي لن يستطيع أن يعيشها هو بسبب شكله المنفر، كان يعيشها بالوكالة، لدرجة أنني لم أكن أراه طوال اليوم، فانتهى بي الأمر إلى أن أقود سيارتي بنفسي لأذهب إلى مواعيدي!

- آسف على المقاطعة، يا سيد ستيرن، لكن هناك شيء لا أفهمه: لماذا لم تطرد لوثر؟ أعني، هذا غير منطقي: يبدو وكأنك أنت من كنت تنصاع لأوامر موظفك، حين أراد أن يرسم نولا، أو حين كان يتغيب عن عمله ويقضي النهار في أورورا. اعذرني على السؤال، لكن ما الذي كان بينكما؟ هل كنتما...

- عاشقَيْن؟ لا.

- لماذا هذه العلاقة الغريبة إذاً؟ فأنت رجل ذو نفوذ، أي لست من النوع الذي قد يستغله أحد، ومع ذلك...

- لأنني كنت مديناً له. أنا... أنا... ستفهم سريعاً. كان لوثر مهووساً بهاري ونولا إذاً، وساءت الأمور شيئاً فشيئاً. وذات يوم، عاد وهو في حالة يرثى لها، وأخبرني أن شرطياً من أورورا ضربه ضرباً مبرحاً لأنه ضبطه يتسكع هناك كالعادة، حتى أن نادلة من مطعم كلاركس قدمت شكوى ضده. كانت تلك القصة على وشك أن تؤدي إلى كارثة، فقلت له إنني لا أريده أن يذهب إلى أورورا بعد ذلك، وإنني أريده أن يذهب في إجازة، أن يقضي بعض الوقت مع عائلته في مين أو أي مكان آخر، وإنني سأتكفل بالتكاليف...

- لكنه رفض .

- هو لم يرفض فحسب، بل طلب مني أن أعيره سيارتي لأنه كان من السهل التعرف على سيارته الموستانغ الزرقاء بحسب قوله . رفضت طبعاً وقلت له إن هذا يكفي، فصرخ قائلاً: «أنت لا تفهم، يا إلهي، إنهما سيرحلان! بعد عشرة أيام، سيرحلان معاً إلى الأبد! إلى الأبد! لقد قررا ذلك على الشاطئ! قررا أن يرحلا يوم 30 أغسطس! يوم 30 أغسطس سيختفيان إلى الأبد! أريد أن أودّع نولا فحسب، إنها أيامي الأخيرة معها . لا يمكنك أن تحرمي منها وأنا أعلم أنني سأفقدوها» . تمسكت بموقفي وراقبته عن كثب . إلى أن جاء يوم 29 أغسطس اللعين . في ذلك اليوم، بحثت عن لوثر في كل مكان، لكنني لم أجده، رغم أن سيارته الموستانغ كانت في مكانها المعتاد . ثم أخبرني أحد الموظفين أخيراً بأن لوثر خرج في إحدى سياراتي، سيارة مونت كارلو سوداء . كان لوثر قد قال له إنني أذنت له بذلك، ولأن الجميع كانوا يعرفون أنني لا أرفض له طلباً، لم يستغرب أحد . جننت يومذاك، وذهبت إلى غرفته فوراً فعثرت على تلك اللوحة لنولا التي أشعرتني بالغثيان، ثم وجدت في صندوق تحت سريره كل تلك الرسائل . . . رسائل كان قد سرقها . . . مراسلات بين نولا وهاري أخذها من صناديق البريد على الأرجح . انتظرتة إذاً وحين عاد في نهاية النهار، شب بيننا شجار رهيب . . .

صمت ستيرن وحدّق في الفراغ .

- ماذا حدث؟ سألته .

- أردت . . . أردت أن يكف عن الذهاب إلى هناك، أتفهم! أردت أن يتوقف هذا الهوس بنولا! وهو لم يرغب في أن يغير شيئاً! كان يقول إن ما بينه وبين نولا أقوى من أي شيء! وأن لا أحد يمكنه أن يمنعهما من أن يكونا معاً . فقدت صوابي، وأمسكنا أحدهما بالآخر، وضربته . أمسكته من ياقته وصرخت وضربته، ونعته بالجلف، فسقط

أرضاً، وراح يتلمس أنفه الذي كان ينزف. كنت مصعوقاً. ثم قال لي... قال لي...

لم يعد ستيرن قادراً على الكلام، وبدأ عليه الاشمتزاز.

- ماذا قال لك، يا سيد ستيرن؟ سألته كي يستعيد خيط حديثه.

- قال لي: «كان ذلك أنت!». صرخ: «كان ذلك أنت! كان ذلك أنت!». ظللت متسماً في مكاني، مذهولاً، فيما فر هو. راح ليأخذ بعض الأغراض من غرفته وغادر في الشيفروليه السوداء قبل أن تصدر مني أي ردة فعل. كان... كان قد تعرف إلى صوتي.

كان ستيرن يبكي الآن، وقد شدّ قبضتيه من كثرة الحنق.

- تعرف إلى صوتك؟ رددت. ماذا تقصد؟

- في... في فترة ما، كنت أجتمع مع أصدقائي القدامى من هارفارد. كان ذلك نوعاً من الأخوة الغبية. كنا نذهب إلى مين لنقضي عطلة نهاية الأسبوع: نقضي يومين في أفخم الفنادق، نشرب ونأكل الكرنكند. كنا نحب الشجار ونحب ضرب المساكين العزل. كنا نقول إن أهل مين أجلاف، وإن مهمتنا في هذه الحياة هي جلدتهم. لم نكن في الثلاثين بعد، وكنا من أبناء الأثرياء المدللين، المغرورين. كما كنا عنصرين بعض الشيء، وتعسين، وعنيفين. ابتكرنا لعبة اسمها فيلد غول تتمثل في ضرب ضحايانا على رؤوسهم كما لو كنا نشوط كرة قدم. وفي أحد أيام عام 1964، بالقرب من بورتلاند، كنا غاية في الهيجان والشمالة. اعترضنا طريق شاب، وكنت أنا من يقود السيارة... توقفت وعرضت على أصحابي أن نتسلى قليلاً...

- هل أنت من اعتدى على كاليب؟

انفجر:

- نعم! نعم! أنا لم أسامح نفسي أبداً! استيقظنا في صبيحة اليوم التالي في جناح فندقنا الفاخر، نعاني من صداع الكحول. كانت الصحف قد كتبت عن الاعتداء: كان الشاب في غيبوبة. كانت الشرطة

تبحث عنا في كل مكان، وأطلقوا علينا اسم عصابة فيلد غولز، فقررنا ألا نتحدث في الأمر مجدداً وأن ندفن هذه القصة في أعماق ذاكرتنا، لكنني كنت مسكوناً بها: على مدى الأيام والشهور التالية، لم أفكر إلا في تلك القصة. لقد أنهكتني. بدأت أذهب إلى بورتلاند لأعرف ماذا حلّ بهذا الشاب المسكين الذي عتفناه. مضى عامان على هذا النحو، وذات يوم، لم أعد أتحمل، فقررت أن أوفر له عملاً وفرصة ليخرج مما هو فيه. فادعيت أن عجلة سيارتي بحاجة إلى التغيير، وطلبت منه المساعدة، ووظفته كسائق. أعطيته كل ما أراه. . . أسست له مرسماً في شرفة منزلي، وأعطيته المال، وأهديته سيارة، لكن أياً من هذا لم يخفف من شعوري بالذنب. كنت دائماً ما أرغب في فعل المزيد! كنت قد دمرت مسيرته كرسام تشكيلي، فموّلت كل المعارض الممكنة، وسمحت له بأن يرسم لأيام كاملة أحياناً. ثم بدأ يقول إنه يشعر بالوحدة، وأن لا أحد يرغب فيه. قال إن الشيء الوحيد الذي يمكن أن يفعله مع امرأة هو أن يرسمها. كان يرغب في رسم الشقراوات، قال إن ذلك يذكره بخطيبته السابقة، قبل الاعتداء. فاستأجرت له عدداً من العاهرات الشقراوات ليرسمهن. لكن ذات يوم، في أوروبا، التقى بنولا ووقع في غرامها. قال إنها المرة الأولى التي يحب فيها بعد خطيبته. ثم أتى هاري، الكاتب الموهوب والشاب الوسيم، الشخص الذي لطالما رغب لوثر في أن يكونه. ووقعت نولا في غرام هاري، فقرّر لوثر أن يكون هاري. . . أما أنا، فماذا كنت تريدني أن أفعل؟ كنتُ قد سلبت منه حياته، وأخذت منه كل شيء. هل كان بإمكانني أن أمنعه من أن يحب أيضاً؟

- كان كل ذلك لتخفف من شعورك بالذنب إذاً؟

- سمّه ما شئت.

- يوم 29 أغسطس. . . ماذا حدث بعد ذلك؟

- حين أدرك لوثر أنني كنت أحد المعتدين عليه. . . حزم حقيبته

وفّر في المونت كارلو السوداء، وسرعان ما خرجت لألحق به. كنت أود أن أشرح له، وأن يسامحني، لكنني لم أجده. بحثت عنه طوال النهار، وجزءاً من الليل، لكن من دون جدوى. كنت أشعر بذنب رهيب. أملت أن يعود هو من تلقاء نفسه، لكن في اليوم التالي، أعلن الراديو اختفاء نولا كيلرغان، وكون الجاني يقود سيارة شيفروليه سوداء... فلا داعي للتوضيح أكثر من ذلك. قررت ألا أتحدث في الأمر مع أحد، كي لا يصبح لوثر مشتبهاً فيه، أو ربما لأنني كنت مذنباً مثله تماماً. ولهذا السبب لم أحتمل مجيئك إلى هنا لتوقظ أشباح الماضي، لكن ها أنا أكتشف في نهاية المطاف، بفضلك أنت، أن لوثر لم يقتل نولا. والأمر كان كما لو أنني لم أقتلها أيضاً، فقد أرحمت ضميري، يا سيد غولدمان.

- وماذا عن سيارة الموستانغ؟

- هي في المرآب، مغطاة بغطاء مشمع. لقد أخفيتها هناك طوال ثلاثة وثلاثين عاماً.

- والرسائل؟

- احتفظت بها هي الأخرى.

- أود أن أراها، لو سمحت.

أزال ستيرن لوحة عن الجدار، وكشف عن باب خزانة صغيرة ففتحها وأخرج منها علبة أحذية مليئة بالرسائل. وهكذا اكتشفت كل المراسلات بين هاري ونولا، تلك التي سمحت بكتابة أصول الشر. تعرفت فوراً على الرسالة الأولى التي كانت افتتاحية الكتاب. رسالة يوم 5 يوليو 1975، رسالة ملؤها الحزن والشجن، كتبها نولا حين نبذها هاري وعلمت أنه قضى سهرة 4 يوليو مع جيني داون. في ذلك اليوم، دسّت في إطار الباب مظروفاً يحوي الرسالة وصورتين التقطتا في روكلاند، واحدة لسرب من النوارس على شاطئ البحر، والأخرى لهما معاً أثناء نزهة قاما بها.

- كيف استطاع لوثر الحصول على كل هذا، بحق الجحيم؟
سألته.

- لا أعلم، ردّ ستيرن. لكن لن أتفاجأ أن يكون قد دخل منزل هاري.

سرحت في أفكاري: قد يكون لوثر سرق هذه الرسائل في الأيام التي غاب فيها هاري عن أورورا. لكن لماذا لم يخبرني هاري أن هذه الرسائل اختفت؟ طلبت أن آخذ الرسائل معي وأذن لي ستيرن بذلك. غمرني شك رهيب.

*

مواجهاً نيويورك، كان هاري يبكي في صمت، وهو يستمع إلى قصتي.

- حين رأيت تلك الرسائل، قلت مواصلاً كلامي، تسارع كل شيء في رأسي. فكرتُ في كتابك الذي تركته في خزانة النادي الرياضي: نوارس أورورا، وأدركت ما لم أره طوال هذا الوقت: ليست هناك من نوارس في أصول الشر! كيف أفلت مني ذلك؟ ولا نورس واحد. في تلك اللحظة، فهمتُ أنك لم تكتب أصول الشر. الكتاب الذي كتبته أنت وطبعته نولا على الآلة الكاتبة. لقد تأكدتُ من ذلك حين طلبتُ من غاهالوود مقارنة الخط الذي كُتبت فيه الرسائل التي تلقتها نولا مع الرسالة المكتوبة على المخطوطة التي عُثر عليها مع جثتها، وحين اتضح أنها متطابقة، أدركت أنك استخدمتني حين طلبتُ مني حرق مخطوطتك المكتوبة بخط اليد، إذ لم يكن ذلك خطك... فأنت لم تؤلف الكتاب الذي جعل منك كاتباً مشهوراً! بل سرقة من لوثر!

- اصمت، يا ماركوس!

- هل أنا مخطئ؟ لقد سرقت كتاباً! ما هي أخطر جريمة يمكن لكاتب أن يرتكبها؟ أصول الشر: لهذا اخترت هذا العنوان للكتاب! فأننا لم أفهم أبداً لماذا اخترت عنواناً كثيباً كهذا لقصة بهذا الجمال! لكن ليست لهذا العنوان علاقة بالكتاب، بل علاقة بك أنت. فأنت لطالما قلت لي أن ليست للكتاب علاقة بالكلمات، بل بالبشر. هذا الكتاب هو أصول الشر الذي نخر فيك أنت، شر الندم والدجل!

- كفى، يا ماركوس! اصمت الآن!

كان يبيكي، لكنني تابعت رغم ذلك:

- ذات يوم، وضعتُ نولا مظروفاً عند باب منزلك. كان ذلك يوم 5 يوليو 1975. مظروف فيه صور للنوارس ورسالة مكتوبة على ورقها المفضل، تحدثك فيها عن روكلاند وتقول إنها لن تنسأك أبداً. كانت تلك هي الفترة التي حاولت فيها أن تكف عن مقابلتها. لكن هذه الرسالة لم تصلك أبداً، لأن لوثر، الذي كان يراقب منزلك، أخذها حالما غادرت نولا. وهكذا، ابتداءً من ذلك اليوم، بدأ يرسل نولا. لقد ردّ على هذه الرسالة على أنه أنت. وكانت ترد، معتقدة أنها تكتب إليك، إلا أنه كان يسرق الرسائل من صندوق البريد الخاص بك، فيكتب إليها بدوره، منتحلاً شخصيتك. ولهذا السبب كان يتسكع حول منزلك. اعتقدت نولا أنها تراسلك أنت، وأصبحت تلك المراسلات مع لوثر كاليب أصول الشر. لكن، يا هاري، كيف استطعت...

- كنت مرعوباً، يا ماركوس! في ذلك الصيف، لم أكن قادراً على الكتابة. اعتقدت أنني لم أتمكن من ذلك أبداً. كتبت هذا الكتاب، نوارس أورورا، لكنني وجدته رديئاً. قالت نولا إنها أحبته كثيراً، لكن هذا لم يطمئنني. كنت أدخل في نوبات غضب عنيفة. كانت تطبع أوراقى المكتوبة بخط اليد على الآلة الكاتبة، فأعيد قراءتها ثم أمزقها. كانت تتوسل إليّ أن أكف عن فعل ذلك: «لا تفعل ذلك»، فأنت موهوب حقاً! أرجوك أكمله! هاري حبيبي، أنا لن أحتمل فكرة

ألا تكمله!». لكنني لم أكن مؤمناً بنفسِي. اعتقدتُ أنني لن أصبح كاتباً أبداً. ثم جاء لوثر كاليب ذات يوم ليدق على بابي. قال إنه لم يكن يعلم إلى من يتوجه، فأتى إليّ أنا: كان قد ألّف كتاباً ويود أن يعرف ما إذا كان يستحق أن يُرسل إلى دور النشر. أتفهم، يا ماركوس، كان يعتقد أنني كاتب كبير من نيويورك وأني أستطيع مساعدته.

*

20 أغسطس 1975

- لوثر؟

لم يخف هاري دهشته وهو يفتح باب المنزل.

- مرحباً، هاري.

خيم صمت محرج.

- هل يمكنني مساعدتك في شيء، يا لوثر؟

- لقد جئت لطلب شخصي. أنا بحاجة إلى نصيحة.

- نصيحة؟ تفضل. هل ترغب في الدخول؟

- فُكراً.

جلس الرجلان في غرفة المعيشة. كان لوثر متوتراً. كان يحمل معه مظروفاً سميكاً، ضمه إلى صدره.

- حسناً، يا لوثر؟ ماذا لديك؟

- لقد كتبت... كتبت كتاباً، قفة حب.

- حقاً؟

- نعم، ولا أعرف ما إذا كان جيداً. أقفد، كيف نعرف إن كان

يفتح النشر؟

- لا أدري. إذا شعرت أنك قدمت أفضل ما لديك... هل النص

معك؟

- نعم، لكنها نفخة بخط اليد، قال لوثر معذراً. انتبهت إلى فلك

الآن. لدي نفخة أخرى مطبوعة على الآلة الكاتبة، لكنني أخطأت في المظروف وأنا أخرج من البيت. أتريد أن أفهب لأحضره وأعود لاحقاً؟

- لا، أرني ما لديك.

- لكن...

- هيا، لا تكن خجولاً، فأنا واثق أنك تكتب بشكل مقروء.

مد له المظروف، فأخرج منه هاري الأوراق وتصفح بعضها، مذهولاً بجمال الكتابة.

- هل أنت من كتب هذا؟

- نعم.

- رباه... إنها كتابة رائعة، كيف فعلت ذلك؟

- لا أعرف، إنها كتابتي.

- اتركها لي، إذا أمكن. سأقرأها وأعطيك رأيي فيها بصراحة.

- حقاً؟

- بالتأكيد.

وافق لوثر بكل سرور وانسحب، لكن بدلاً من مغادرة غوز كوف، اختبأ وسط الشجيرات وانتظر نولا كما يفعل دائماً. وصلت بعد ذلك بقليل، سعيدة برحيلهما القريب. لم تلاحظ الطيف الجاثي وراء الشجيرات، الذي كان يراقبها. دخلت إلى المنزل من الباب الرئيسي، دون أن تفرق الجرس، كما باتت تفعل كل يوم.

- هاري حبيبي! صاحت معلنة عن نفسها.

لا جواب. بدا المنزل خالياً. نادى من جديد. صمت مطبق.

عبرت غرفة الطعام وغرفة المعيشة، دون أن تعثر عليه. لم يكن في مكتبه. ولا على الشرفة. فنزلت السلم وصولاً إلى الشاطئ وراحت تناديه. قد يكون ذهب ليسبح في المحيط؟ كان يفعل ذلك أحياناً حين يعمل كثيراً. لكن لم يكن هناك أحد على الشاطئ. شعرت بالهلع

يجتاحها: أين عساه أن يكون؟ عادت إلى المنزل ونادته مجدداً. لا أحد. تفقدت جميع غرف الطابق الأرضي، ثم صعدت إلى الطابق العلوي. ولما فتحت باب غرفة النوم، وجدته جالساً على السرير، يقرأ رزمة من الأوراق.

- هاري! أنت هنا؟ أنا أبحث عنك في كل مكان منذ عشر دقائق...

انتفض حين سمعها.

- عذراً، يا نولا، كنت أقرأ... لم أسمعك.

نهض، جمع رزمة الأوراق التي كان يمسك بها، ووضعها في درج منضدة السرير. ابتسمت.

- وما الشيء المشوّق الذي كنت تقرأه بشغف، لدرجة أنك لم تسمعي أنادي اسمك في كل أرجاء المنزل؟
- لا شيء ذا أهمية.

- أهى تتمة روايتك؟ أرني!

- لا شيء ذا أهمية. سأريك إياها في الوقت المناسب.
نظرت إليه نظرة تمرد.

- أنت متأكد أن كل شيء على ما يرام، يا هاري؟
ضحك.

- كل الأمور بخير، يا نولا.

خرجاً إلى الشاطئ، إذ كانت تريد أن ترى النوارس. فتحت ذراعيها عن آخرهما، كما لو كانا جناحين، وراحت تجري راسمة دوائر كبيرة.

- كم أود أن أطير، يا هاري. لم يتبق سوى عشرة أيام. عشرة أيام وسنطير! سنغادر مدينة النحس هذه إلى الأبد!

كانا يظنان نفسيهما وحيدين على الشاطئ. لم يشك هاري ولا نولا

أن لوثر كاليب كان يراقبهما من الغابة، من أعلى الصخور. انتظر حتى عادا إلى المنزل ليخرج من مخبئه: ركض بمحاذاة طريق غوز كوف وعاد إلى المستانغ المركونة على طريق الغابة الموازي. ذهب إلى أورورا وركن سيارته أمام مطعم كلاركس، وهرع إلى الداخل: كان لا بد أن يتحدث إلى جيني. كان لا بد لأحدهم أن يعرف بالأمر. كان لديه حدس داخلي سيئ. لكن لم تكن جيني ترغب في رؤيته.

- لوثر؟ لا ينبغي بك أن تكون هنا، قالت له إذ وقف أمام المنضدة.

- جيني... أنا آف على ما حذف ذلك الصباح، ما كان يجب أن أمفك بذراعك كما فعلت.

- لديّ كدمة جراء ذلك...

- أنا آف.

- يجب أن تغادر الآن.

- لا، لحظة...

لقد قدمت شكوى ضدك، يا لوثر. طلب مني ترافيس أن أتصل به في حال عدت إلى المدينة، ليتولى أمرك بنفسه، فمن الأفضل أن تغادر قبل أن يراك هنا.

بدت على العملاق خيبة الأمل.

- قدمت شكوى ضدي؟

- نعم، لقد أزعجتني ذلك الصباح...

- لكن يفب أن أحذفك عن شيء مهم.

- ما من شيء مهم، يا لوثر، هيا ارحل...

- إنه بشأن هاري كبير...

- هاري؟

- نعم، قل لي رأيك في هاري كبير...

- لماذا تحدثني عنه؟

- هل تفقین به؟
- هل أثق به؟ نعم، طبعاً. لماذا تسألني هذه السؤال؟
- يغب أن أخبرك بأمر ما...
- تخبرني بأمر ما؟ ما هو؟
- في اللحظة التي كان سيرد فيها لوثر، ظهرت سيارة شرطة في الساحة المقابلة لمطعم كلاركس.
- إنه ترافيس! صرخت جيني. اهرب، يا لوثر، اهرب! لا أريد لك المتاعب!



- ببساطة، قال هاري، كان هذا أجملَ كتاب قرأته في حياتي. ولم أكن أعلم حتى أنه من أجل نولا! فلم يرد اسمها فيه. كانت قصة حب خارقة للعادة. لم أر كاليب بعد ذلك أبداً، فلم يُتَح لي أن أعيد له نصه، إذ طرأت الأحداث التي تعرفها. وعرفتُ بعد شهر أن لوثر كاليب توفي إثر حادث سير، فيما كانت بحوزتي النسخة الأصلية لعملٍ أعرف أنه عظيم، فقررت أن أقدمه على أنه عملي، وهكذا بنيت مسيرتي الأدبية وحياتي على أساس كذبة. لكن كيف كان لي أن أتخيل النجاح الذي سيحققه هذا الكتاب؟ نجاح نخر فيّ طوال حياتي! وها هي ذي الشرطة، بعد ثلاثة وثلاثين عاماً، تعثر على جثة نولا وتلك المخطوطة في حديقتي. في حديقتي! في تلك اللحظة، خشيت أن أخسر كل شيء، فقلت إنني ألقت هذا الكتاب من أجلها.
- خشيت أن تخسر كل شيء؟ فضلت أن تُتَّهم بالقتل على أن تكشف حقيقة تلك المخطوطة؟

- نعم! نعم! لأن حياتي كلها عبارة عن كذبة، يا ماركوس!
- نولا لم تأخذ تلك النسخة من منزلك إذاً، وإنما قلت ذلك كي لا يشكك أحد في كونك المؤلف.

- نعم، لكنني لطالما تساءلت من أين أتت النسخة التي كانت معها.

- لقد وضعها لوثر في صندوق بريد منزلها، قلت له.

- في صندوق البريد؟

- كان لوثر يعلم أنك ستهرب مع نولا، إذ سمعكما تتحدثان عن الأمر على الشاطئ. كان يعلم أن نولا سترحل من دونه، فهكذا أنهى روايته: مع رحيل البطلة. لقد كتب لها رسالة أخيرة، رسالة يتمنى لها فيها حياة سعيدة، وهذه الرسالة مدرجة في المخطوطة الأصلية التي سيحضرها لك لاحقاً. كان لوثر يعرف كل شيء. لكن في يوم الرحيل، في ليلة 29 أغسطس على الأرجح، أراد لوثر أن يستكمل الحلقة: أراد أن يختتم قصته مع نولا كما اختتم مخطوطته، فوضع رسالة أخيرة في صندوق بريد آل كيلرغان. أو بالأحرى، رزمة أخيرة من الأوراق: رسالة الوداع والمخطوطة المطبوعة على الآلة الكاتبة، لتعلم كم كان يحبها. ولأنه يعلم أنه لن يراها بعد ذلك أبداً، كتب على الغلاف: وداعاً، نولا حبيبتي. ولا بد أن يكون قد انتظرها حتى الصباح ليتأكد بنفسه أن نولا هي من ستستلم البريد، كما كان يفعل دائماً. لكن حين وجدت نولا المخطوطة والرسالة، ظنت أنهما منك، فاعتقدت أنك لن تأتي إلى الموعد المحدد، وانهارت وأصيب بنوباتها المرضية.

انهار هاري على الأريكة، ممسكاً قلبه بكلتا يديه.

- احكِ لي، يا ماركوس! احكِ لي أنت. أريدها أن تكون كلماتك أنت! فلطالما انتقيت كلماتك بعناية! احكِ لي ماذا حدث يوم 30 أغسطس 1975.

*

ذات يوم من نهاية شهر أغسطس، قُتلت فتاة في الخامسة عشرة من عمرها في مدينة أورورا. كانت تدعى نولا كيلرغان. كل الأوصاف التي سستمعونها عنها تقدمها على أنها فتاة مفعمة بالحياة والأحلام.

من الصعب اختصار الأسباب التي أدت إلى وفاتها بأحداث يوم 30 أغسطس 1975. فقد يكون بدأ كل شيء قبل عدة سنوات. في الستينيات، حين لم يرصد والدان المرض الذي يستقر في طفليهما. أو ربما في ليلة من عام 1964، حين تشوه شاب بفعل عصاة من الأوغاد السكارى، فحاول أحدهم، ليخفف من شعوره بالذنب ويكفر عن ذنبه، أن يتقرب سرّاً من ضحيته. أو في تلك الليلة من عام 1969، حين قرر أبٌّ أن يكتّم سرّ ابنته. أو ربما بدأ كل شيء بعد ظهيرة أحد أيام شهر يونيو 1975، حين التقى هاري كيبر بنولا كيلرغان ووقعا في الحب.

إنها قصة والدّين لم يرغباً في رؤية الحقيقة بشأن ابنتهما. إنها قصة وريث ثري انحرف قليلاً في سنوات شبابه، فدمّر أحلام شابٍّ آخر وعاش مسكوناً بشعوره بالذنب منذ ذلك الحين. إنها قصة رجل حلم بأن يصبح كاتباً كبيراً، وترك طموحه يلتهمه ببطء.

فجر يوم 30 أغسطس 1975، توقفت سيارة أمام المنزل رقم 245 بتراس أفينيو. كان لوثر كاليب قد أتى ليوّدّع نولا. كان مشتت الذهن تماماً؛ لم يعد يعلم ما إذا كانا قد أحبا أحدهما الآخر أم أنه حلم بذلك، كما أنه لم يعد يعلم ما إذا كانا قد كتبا كل هذه الرسائل. لكنه كان يعلم أن نولا وهاري اتفقا على الهروب معاً في هذا اليوم. هو أيضاً كان يرغب في مغادرة نيو هامبشير، وأن يرحل بعيداً، بعيداً عن ستيرن. اختلطت أفكاره في ذهنه: فالرجل الذي أعاد له طعم الحياة كان هو نفسه من سلبها منه. كان يعيش كابوساً. وكان الشيء

الوحيد المهم في تلك اللحظة هو أن ينهي قصة حبه . كان عليه أن يعطي نولا الرسالة الأخيرة . كان قد كتبها قبل عشرة أيام ، في اليوم الذي سمع فيه نولا وهاري يتفقدان على الهروب يوم 30 أغسطس . كان قد أسرع في إنهاء كتابه ، حتى أنه أعطى النسخة الأصلية لهاري كبير : كان يريد أن يعرف ما إذا كان يستحق النشر . لكن لم يعد شيء يستحق أي عناء الآن . حتى أنه لم يسترجع نصه من هاري . لقد احتفظ بنسخة مطبوعة على الآلة الكاتبة ، قام بشبكها على نحو أنيق من أجل نولا . كان يوم 30 أغسطس ذاك اليوم الذي وضع فيه في صندوق بريد آل كيلرغان الرسالة الأخيرة التي كانت ستختتم قصتهما ، ومعها المخطوطة كي لا تنساه نولا . أي عنوان يمكن أن يعطيه للرواية؟ لم تكن لديه أدنى فكرة . على أية حال ، لن يكون هناك كتاب ، فلماذا يختار له عنواناً؟ فاكثفى بإهداء على الغلاف ، متمنياً لها رحلة سعيدة : وداعاً ، نولا حبيبتني .

ركن السيارة في الشارع وانتظر أن يطلع النهار ، وأن تخرج من منزلها . كان يريد التأكد من أنها هي من ستأخذ الكتاب فحسب . فمنذ أن بدأت مراسلتهم ، كانت هي التي تخرج لتأخذ البريد . انتظر ، متخفياً بقدر ما استطاع : فلم يكن ينبغي أن يراه أحد ، خاصة ذلك الوحش ترافيس داون ، وإلا كان سيُلْقَنه درساً . كان قد تلقى ما يكفيه من الضرب لبقية حياته .

عند الحادية عشرة ، خرجت من منزلها أخيراً . نظرت من حولها كالعادة . كانت مشرقة ، ترتدي فستاناً أحمر ، فاتنة . هرعت نحو صندوق البريد وابتسمت حين رأت الرسالة والرزمة . أسرع لتقرأ الرسالة وترنحت فجأة ، ثم ركضت نحو المنزل وهي تبكي . هما لن يرحلا معاً ، هاري لن ينتظرها في الفندق ، فرسالته الأخيرة كانت رسالة وداع .

التجأت إلى غرفتها وانهارت على سريرها من فرط الحزن . لماذا؟

لماذا كان ينبذها؟ لماذا جعلها تعتقد أنهما سيحبان أحدهما الآخر إلى الأبد؟ راحت تتصفح المخطوطة: ما هذا الكتاب الذي لم يحدثها عنه أبداً؟ انهمرت دموعها على الورق ولطخته. كانت هذه رسائلهما، كانت كل رسائلهما هنا، وأتت الرسالة الأخيرة لتختتم الكتاب: كان يكذب عليها منذ البداية. هو لم يخطط أبداً للهروب معها. كان رأسها يؤلمها، وكانت تبكي بغزارة. أرادت أن تموت من شدة الوجع. فُتح باب غرفتها بهدوء. كان والدها قد سمعها تبكي.

- ماذا يحدث، يا حبيبتي؟

- لا شيء، يا أبي.

- لا تقولي لا شيء، أنا أرى أن ثمة هناك شيئاً ما...

- أوه، يا أبي! أنا حزينة، حزينة جداً!

ألقت بنفسها في حضن الأب كيلرغان.

- اتركها! صاحت لويزا كيلرغان فجأة. هي لا تستحق الحب!

اتركها، يا ديفيد!

- توقف، يا نولا... لا تفعلي ذلك مجدداً، أرجوك.

- اصمت، يا ديفيد. أنت ضعيف، وغير قادر على التصرف!

سأضطر أن أقوم بالعمل بنفسى!

- نولا! بحق السماء! اهدئي! اهدئي! لن أسمح لك بأن تؤذي

نفسك من جديد!

- اتركنا، يا ديفيد! انفجرت لويزا قائلة وهي تدفع زوجها بحركة

عنيفة.

تراجع نحو الردهة، عاجزاً تماماً.

- تعالي إلى هنا، يا نولا! صرخت الأم. تعالي إلى هنا! سترين

ما سأفعله بك!

انغلق الباب، والأب كيلرغان مغلوب على أمره. لم يكن

باستطاعته إلا أن يسمع عبر الباب ما كان يحدث.

- أرجوك، يا أمي! توقفي! توقفي!
- خذي هذا! هذا ما نفعله بالفتيات اللواتي قتلن أمهاتهن!
هرع الأب كيلرغان إلى المرآب وأدار مشغل الموسيقى ورفع الصوت إلى أقصاه.

تعالَت الموسيقى في المنزل وفي أرجائه طوال النهار، ورمق المارة النوافذ بنظرات مستنكرة، وتبادل البعض نظرات تشي بأنهم يعلمون ما يجري في منزل آل كيلرغان.

لم يتحرك لوثر من مكانه. ظل مختبئاً في سيارته، وسط صفوف السيارات المركونة على طول الأرصفة، ولم يرفع عينيه عن المنزل. لماذا بكّت؟ ألم تحب رسالته؟ وماذا عن كتابه؟ ألم تحبه هو الآخر؟ لماذا البكاء؟ لقد بذل كل ما بوسعه. لقد كتب لها كتاباً عن الحب، ولا ينبغي بالحب أن يسبب البكاء.

انتظر على هذه الحال حتى السادسة مساءً. لم يكن يعلم ما إذا كان عليه أن ينتظر أن تخرج من جديد، أم أن يذهب ويقرع جرس المنزل. كان يريد أن يراها، وأن يقول لها إنه لا ينبغي بها أن تبكي. وإذ به يراها في الحديقة: كانت قد خرجت من النافذة. راقبت الشارع كي تتأكد أن أحداً لا يراها، ثم سارت على الرصيف. كانت تحمل حقيبة من الجلد على كتفها، ثم راحت تركض فجأة، فأدار لوثر محرك السيارة.

توقفت الشيفروليه السوداء بمحاذاتها.

- لوثر؟ قالت نولا.

- لا تبكي... أنا فنت فقط لأقول لك ألا تبكي.

- أوه، يا لوثر، لقد حدث لي أمر محزن جداً... خذني معك!

خذني معك!

- إلى أين أنت ذاهبة؟

- بعيداً عن العالم.

ودون حتى أن تنتظر جواب لوثر، ركبت وجلست في المقعد الأمامي.

- هيا بنا، يا لوثر! يجب أن أذهب إلى فندق سي سايد. مستحيل ألا يكون يحبني! فنحن نحب أحداً الآخر كما لا يمكن لأحد أن يحب!

أطاعها لوثر. لم يلحظ هو ولا نولا سيارة دورية الشرطة المتجهة نحو التقاطع. كان ترافيس داون يمر للمرة الألف أمام منزل آل كوين، منتظراً أن تكون جيني وحدها ليقدّم لها باقة الأزهار البرية التي قطفها من أجلها. تفاجأ حين رأى نولا تصعد في تلك السيارة التي لا يعرفها، ثم تعرف إلى لوثر في مقعد السائق. انتظر أن تبتعد الشيفروليه، ثم تعقبها: لم يكن ينبغي أن تغيب عن نظره، لكنه حرص ألا يلتصق بها. كان ينوي أن يفهم السبب الذي جعل لوثر يقضي كل هذا الوقت في أورورا. هل كان يأتي ليراقب جيني؟ لماذا اصطحب نولا؟ هل كان ينوي ارتكاب جريمة؟ أمسك بميكروفون جهازه اللاسلكي وهو يقود السيارة: أراد أن يطلب قوات إضافية، ليتأكد من الإمساك بلوثر في حال تعقدت عملية القبض عليه. لكنه تراجع عن ذلك: لم يكن يرغب في وجود زميل معه، بل أراد معالجة الأمر بطريقته الخاصة، فأورورا مدينة هادئة وكان سيحرص على أن تبقى كذلك. كان سيلقن لوثر درساً يتذكره مدى الحياة. ستكون هذه المرة الأخيرة التي تطفأ فيها قدمه المدينة، وتساءل مجدداً كيف أمكن لجيني أن تقع في حب هذا الوحش.

- أنت من كتب تلك الرسائل؟ قالت نولا بتمرد حين سمعت تفسيرات كاليب في السيارة.

- نعم... .

مسحت دموعها بظهر يدها.

- لوثر، أنت مجنون! لا يجوز سرقة رسائل الناس! ما فعلته سيء جداً!

طأطأ رأسه، خجلاً.

- أنا آف. . . شعرت بوحدة شديدة. . .

وضعت يداً ودية على كتفه القوية.

- لا يهم، يا لوثر! لأن هذا يعني أن هاري ينتظرني! إنه ينتظرني! سنرحل معاً!

ولمجرد هذه الفكرة، أشرق وجهها.

- أنت محظوظة، يا نولا، أنتما تحبان أحكما الآخر. . . هفا يعني أنك لن تفكري بالوحدة أبداً.

كانا يسيران على الطريق رقم 1 الآن، ومرا أمام التقاطع مع الطريق المؤدية إلى غوز كوف.

- وداعاً غوز كوف! صاحت نولا بسعادة. هذا المنزل هو المكان الوحيد هنا الذي أحفظ بذكريات جميلة عنه.

انفجرت ضاحكة. وضحك لوثر بدوره. كان هو ونولا يفترقان، لكنهما كانا يفترقان بؤدً. سمعا فجأة صفارة إنذار سيارة شرطة من خلفهما. كانا قد اقتربا من الغابة، حيث أراد ترافيس توقيف لوثر وتلقيه درساً، إذ لن يراهما أحد هناك.

- إنه ترافيس! صرخ لوثر. إذا أمفك بنا، فقد انتهينا!

انتاب الذعر نولا فوراً.

- لا، الشرطة لا! أوه، يا لوثر، افعل شيئاً، أرجوك!

زادت الشيفروليه من سرعتها، إذ كانت سيارة قوية، فاستاء ترافيس وأمر لوثر عبر مكبر الصوت أن يتوقف على جانب الطريق.

- لا تتوقف! أسرع! أسرع! توسلت إليه نولا.

فأسرع لوثر أكثر، وابتعدت الشيفروليه عن سيارة ترافيس أكثر. وبعد غوز كوف، كان هناك عدد من المنعطقات على الطريق رقم 1، فعبرها لوثر بمهارة بحيث سبقه بمسافة أكبر، وسمع صفارة الإنذار تبتعد.

- فيطلب قوات إضافية، قال لوثر.
- إذا أمسك بنا، فلن أغادر أبداً مع هاري!
- فنهرب عبر الغابة إذاً. فالغابة شائعة ولن يعفر علينا أحد فيها، وفتتمكنين من الوفول إلى فندق في فايد. وإذا أمفكوا بي، يا نولا، لن أقول شيئاً. لن أقول إنك كنت معي، فتفتطيعين الهرب مع هاري.
- أوه، يا لوثر...

- عديني بأن تحتفظي بكتابي! عديني بأن تحتفظي به كذكرى مني!
- أعدك!

عند هذه الكلمات، أدار لوثر مقود السيارة بعزم فتوغلت السيارة في الغابة عبر صفوف الأشجار، قبل أن تتوقف وراء شجيرات كثيفة، ليرجلا منها على عجل.

- اركضي! أمر لوثر نولا. اركضي!
شقا طريقهما عبر الشجيرات الشائكة، فتمزق فستان نولا وحُذش وجهها.

اغتاظ ترافيس، إذ لم يعد يرى الشيفروليه السوداء، فزاد من سرعته أكثر ولم يلاحظ الهيكل الأسود المتخفي وسط الشجيرات الكثيفة، فأكمل سيره على الطريق رقم 1.

كانا يركضان عبر الغابة، نولا في المقدمة ولوثر خلفها، والذي كان من الأصعب عليه التسلل عبر الغصون المنخفضة بسبب بنيته الضخمة.

- اركضي، يا نولا! لا تتوقفي! صرخ قائلاً.

وصلا إلى حدود الغابة دون أن يدركا ذلك. كانا على حافة سايد كريك لين.

كانت ديبورا كوبر تراقب الغابة من نافذة مطبخها، فبدا لها فجأة أنها رأت حركة ما، فنظرت بانتباه أكثر ورأت فتاة تجري بأقصى سرعتها، يتبعها رجل، فهرعت نحو الهاتف واتصلت بالشرطة.

كان ترافيس قد توقف لتوه على جانب الطريق حين تلقى اتصالاً من مركز الشرطة: شوهدت فتاة بالقرب من سايد كريك لين، يتبعها رجل على ما يبدو. أكد الضابط تلقيه البلاغ واستدار بسيارته في اتجاه سايد كريك لين، مطلقاً صفارة الإنذار. بعد نصف ميل، لفت انتباهه انعكاسٌ ضوئي: زجاج سيارة! إنها الشيفروليه السوداء، متخفية وسط الشجيرات! توقف واقترب من المركبة والمسدس في يده: كانت فارغة، فعاد فوراً إلى سيارته وتوجه إلى منزل ديبورا كوبر.

توقفا بالقرب من الشاطئ ليستعيدا أنفاسهما.

- أعتقد أننا بخير؟ سألت نولا لوثر.

أصاخ السمع: لم يعد يسمع أي صوت.

- من الأفضل أن ننتظر هنا قليلاً، فنحن في أمان بالغابة.

كان قلب نولا يخفق بشدة. كانت تفكر في هاري. وكانت تفكر

في أمها. كانت تفتقد أمها.

- فتاة ترتدي فستاناً أحمر، أوضحت ديبورا كوبر للضابط

ترافيس. كانت تركض في اتجاه الشاطئ، ويتعقبها رجل. لم أرَ جيداً، لكنه كان قوي البنية.

- إنهما هما! قال لها. أيمن أن أستخدم هاتفك؟

- بالتأكيد.

اتصل ترافيس بالرئيس برات في منزله.

- سيدي الرئيس، آسف على إزعاجك أثناء إجازتك، لكن لدي قضية غريبة. لقد صادفت لوثر كاليب في أورورا...
- مجدداً؟

- نعم، لكن هذه المرة، ركبت نولا كيلرغان معه في السيارة. حاولتُ أن أعترض طريقه، لكنه أفلت مني. هرب داخل الغابة ومعه نولا الصغيرة. أعتقد أنه آذاها، يا حضرة الرئيس. الغابة شاسعة ووحدي، لن أستطيع فعل شيء.
- يا إلهي! حسناً فعلت باتصالك بي! سآتي على الفور.

- سنذهب إلى كندا، فأنا أحب كندا. وسنسكن في منزل جميل يطل على بحيرة. سنكون سعيدين للغاية.
ابتسم لوثر. كان جالساً على جذع شجرة، يستمع إلى أحلام نولا.

- إنه مشروع جميل.
- نعم، كم الساعة الآن؟
- الفادفة وخمفة وأربعون دقيقة تقريباً.
- يجب أن أتحرك إذاً، فموعدني في السابعة، في الغرفة رقم 8. على أية حال، لم نعد نخشى شيئاً الآن.
لكن في تلك اللحظة، سمعا أصواتاً.
- الشرطة! قالت نولا مذعورة.

كان الرئيس برات وترافيس يفتشان الغابة. سارا بمحاذاة المدخل، بالقرب من الشاطئ. تقدما في الغابة، وكل منهما ممسك بهراوته.

- اذهبي، يا نولا، قال لوثر. اذهبي، وفأبقى أنا هنا.

- لا! لن أتركك!

- اذهبي، بحق الفمء! لديك ما يكفي من وقت كي تصلي إلى الفندق وفيكون هاري هناك! اهربا، بفرعة! اهربا بأقصى فرعة ممكنة! اهربا، وكونا فعيدين.

- لوثر، أنا...

- الوداع، يا نولا، كوني فعيذة. أحبي كتابي كما تمنيتُ أن تحييني أنا.

كانت تبكي. لوحثُ له بيدها واختفت بين الأشجار.

تقدم الشرطيان بخطى سريعة، وبعد بضع مئات الأمتار، لمحا طيفاً.

- إنه لوثر! صرخ ترافيس. إنه هو!

كان جالساً على الجذع، لم يتحرك. هرع ترافيس نحوه وأمسك به من ياقته.

- أين الفتاة؟ سألوه وهو يهزه.

- أي فتاة؟ سأل ترافيس.

حاول أن يحسب في رأسه الوقت الذي تحتاج إليه نولا لتصل إلى الفندق.

- أين نولا؟ ماذا فعلت بها؟ ردد ترافيس.

ولأن لوثر لم يجب، أمسك الرئيس برات بإحدى ساقيه من الخلف وضربه ضربة عنيفة بالهراوة فكسر ركبته.

سمعت نولا صراخاً، فتوقفت عن الركض فوراً وارتعدت. كانوا قد عثروا على لوثر ويضربونه الآن. ترددت للحظة: كان عليها أن تعود أدراجها، كان عليها أن تُظهر نفسها لرجال الشرطة، فمن الظلم أن

يتعرض لوثر للمتاعب بسببها. أرادت أن تعود إلى جذع الشجرة، لكنها شعرت فجأة بيد تمسك بكتفها. فاستدارت وانتفضت:
- أمي؟

كان لوثر ملقى على الأرض، بركبتين مكسورتين، وينوح من الألم. تناوب عليه ترافيس وبرات، مسددين له ركلات وضربات بالهراوة.

- ماذا فعلت بنولا؟ صرخ ترافيس. هل أذيتها؟ هه؟ أنت معتوه لعين، أليس كذلك؟ لم تستطع منع نفسك من إيذائها!
كان لوثر يصرخ وجعاً، ويتوسل إلى الشرطيين أن يكفوا.

- أمي؟

ابتسمت لويزا كيلرغان لابتتها بحنان.

- ماذا تفعلين هنا، يا حبيبتى؟ سألتها.

- لقد هربت.

- لماذا؟

- لأنني أرغب في اللحاق بهاري، أنا أحبه كثيراً.

- لا يجوز أن تتركي أباك وحيداً، سيكون حزيناً جداً من دونك.

لا يمكنك أن ترحلي هكذا...

- أمي... أمي... أنا آسفة لما فعلته بك.

- أنا أسامحك، يا حبيبتى. لكن يجب أن تكفي عن إيذاء نفسك

الآن.

- حسناً.

- أتعديني؟

- أعدك، يا أمي. ماذا عليّ أن أفعل الآن؟

- عودي إلى أبيك، فهو بحاجة إليك.

- لكن ماذا عن هاري؟ لا أريد أن أخسره.

- لن تخسريه. فهو سينتظرك.

- حقاً؟

- نعم، سينتظرك مدى الحياة.

سمعت نولا صرخات أخرى. لوثر! ركضت بأقصى سرعتها، عائدة أدراجها إلى جذع الشجرة. كانت تصرخ، تصرخ بأعلى صوتها، كي يكف الضرب. ظهرت من بين الشجيرات. كان لوثر ممدداً على الأرض، ميتاً، وكان الرئيس برات والضابط ترافيس واقفين، مشدوهين. كان الدم في كل مكان.

- ماذا فعلتما؟ صرخت نولا.

- نولا؟ قال برات، لكن...

- لقد قتلتما لوثر!

انقضت على الرئيس برات الذي دفعها بصفعة، فسال الدم من أنفها على الفور. كانت ترتعش من الخوف.

- أنا آسف، يا نولا، تمتم برات. لم أقصد أن أؤذيك.

- تراجعتم إلى الخلف.

- لقد... لقد قتلتما لوثر!

- انتظري، يا نولا!

لكنها هربت بأقصى سرعتها. حاول ترافيس أن يمسكها من شعرها، فانتزع منها بضع خصل من الشعر الأشقر.

- تبا، أمسك بها! صاح برات لترافيس. أمسك بها!

انطلقت تركض وسط الأغصان التي خدشت خديها، وعبرت الصف الأخير من الأشجار. منزل. منزل! هرعت نحو باب المطبخ وأنفها لا يزال ينزف. كان وجهها ملطخاً بالدم حين فتحت لها ديورا كوبر باب منزلها وأدخلتها إليه، مذعورة.

- النجدة، قالت نولا وهي تتحب. اطلبي النجدة.

هرعت ديبورا إلى الهاتف مجدداً، لتخبر الشرطة.

شعرت نولا بيد تطبق على فمها. حملها ترافيس بحركة قوية. حاولت الإفلات منه، لكنه كان يمسك بها بإحكام. لم يتسنَّ له الخروج بها من المنزل، إذ عادت ديبورا كوبر إلى غرفة المعيشة، وأطلقت صرخة فزع عند رؤيته.

- لا تقلقي، تمت ترافيس، أنا من الشرطة. كل شيء على ما يرام.

- النجدة! صاحت نولا وهي تحاول الإفلات منه. لقد قتلنا رجلاً! هذان الشرطيان قتلنا رجلاً! هناك رجل ميت في الغابة!

مرت لحظة لا يمكن تحديد مدتها، حدّق أثناءها ترافيس وديبورا كوبر أحدهما في الآخر في صمت: لم تجرؤ هي على الاندفاع إلى الهاتف، ولم يجرؤ هو على الهرب. ثم سُمع دوي طلقة نار وسقطت ديبورا كوبر أرضاً. كان الرئيس برات قد قتلها لتوه بمسدس الخدمة الرسمي.

- أنت مجنون! صرخ ترافيس. مجنون تماماً! لماذا فعلت ذلك؟
- ليس لدينا من خيار، يا ترافيس. أنت تعلم جيداً ما كان سيحدث لنا لو تحدثت العجوز... .

كان ترافيس يرتعش.

- ماذا سنفعل الآن؟

- لا أدري.

رغم شعورها بالرعب، استجمعت نولا طاقة اليأس لديها واستغلت تلك اللحظة الزائفة لتفلت من قبضة ترافيس، وقبل أن يتسنى للرئيس برات التحرك، خرجت مسرعة من المنزل عبر باب المطبخ، لكنها فقدت توازنها على الدرج وسقطت أرضاً. نهضت من جديد،

لكن قبضة الرئيس برات القوية أمسكت بها من شعرها، فصرخت وعضت ذراعه الممدودة بالقرب من وجهها. أفلتها برات، لكن لم يتسنَّ لها الهروب، إذ سدد لها ترافيس ضربة بهراوته على مؤخرة رأسها، فتهاوت على الأرض. تراجع ترافيس، مرتاعاً. كان الدم في كل مكان. وكانت هي ميتة.

ظل ترافيس منحنياً على جسدها للحظة، شاعراً بالغثيان. أما برات، فكان يرتعش، فيما سُمعت تغريدات العصافير الآتية من الغابة.

- ماذا فعلنا، أيها الرئيس؟ همس ترافيس، مشدوهاً.

- اهدأ، اهدأ. ليس هذا الوقت المناسب للذعر.

- نعم، أيها الرئيس.

- يجب التخلص من كاليب ونولا، وإلا فالكرسي الكهربائي في انتظارنا، أفهمت؟

- نعم، أيها الرئيس. وماذا عن كوبر؟

- سنجعلهم يعتقدونها جريمة قتل. عملية سطو انتهت على نحوٍ مأسوي. ستفعل ما أقوله لك بالضبط.

كان ترافيس يبكي الآن.

- حاضر، أيها الرئيس. سأفعل كل ما يتوجب فعله.

- قلت لي إنك رأيت سيارة كاليب بالقرب من الطريق رقم 1.

- نعم، والمفاتيح فيها.

- جيد جداً. سنضع الجثتين في السيارة، وستخلص أنت منهما،

اتفقنا؟

- حاضر.

- سأطلب قوات إضافية فور مغادرتك، كي لا يشك فينا أحد.

علينا التصرف بسرعة، اتفقنا؟ وحين تصل الدورية، ستكون أنت قد ابتعدت، وفي خضمّ الفوضى، لن يلحظ غيابك أحدٌ.

- حسناً، أيها الرئيس... لكنني أعتقد أن الأم كوبر اتصلت بالنجدة مرّة ثانية.

- اللعنة! يجب أن نسرع إذاً!

- جرّاً جثتي لوثر ونولا حتى الشيفروليه، ثم ركض برات عبر الغابة باتجاه منزل ديبورا كوبر وسيارات الشرطة، وأمسك بجهازه اللاسلكي ليخبر مركز الشرطة بأنه عثر لتوه على ديبورا كوبر مقتولة بطلقة رصاص.

استقر ترافيس في مقعد القيادة لسيارة الشيفروليه وأدار محركها. وفي اللحظة التي خرج فيها من بين الشجيرات، تقاطع مع دورية لمكتب الشريف كان مركز الشرطة قد طلب منها التوجه إلى المكان بعد الاتصال الثاني لديبورا كوبر.

كان برات يهّم بالاتصال بمركز الشرطة حين سمع صفارة إنذار قريبة، كما أعلن عبر الجهاز اللاسلكي عن مطاردة على الطريق رقم 1 بين سيارة تابعة لمكتب الشريف وسيارة شيفروليه مونت كارلو سوداء شوهدت في أرجاء سايد كريك لين، فردّ الرئيس برات أنه سينضم إلى المطاردة فوراً. أدار محرك السيارة، شغل صفارة الإنذار، وسلك طريق الغابة المحاذية. وحين بلغ الطريق رقم 1، كاد يصطدم بسيارة ترافيس، فنظر كل منهما إلى الآخر للحظة، مرعوبين.

ونجح ترافيس، أثناء المطاردة، في جعل سيارة مساعد الشريف تنحرف عن الطريق، والتحق بالطريق رقم 1 باتجاه الجنوب، ثم انعطف عند الطريق المؤدية إلى غوز كوف. تعقبه برات متظاهراً بأنه يلاحقه، ومعطياً عبر اللاسلكي مواقع خاطئة، مدعياً أنه على طريق مونتبيري. أسكت صفارة الإنذار وسلك طريق غوز كوف، والتحق بترافيس أمام المنزل. ترحل الرجلان من سيارتهما، مذعورين.

- أليس من الجنون التوقف هنا؟ قال برات.

- كبير ليس هنا، ردّ ترافيس. أعرف أنه خارج المدينة لبعض الوقت. لقد أخبر جيني كوين بذلك، وهي أخبرتني بدورها.
- لقد طلبت حواجز على كل الطرق، كنت مضطراً إلى فعل ذلك.

- اللعنة! اللعنة! قال ترافيس متأوهاً. أنا محاصر! ماذا سنفعل؟
نظر برات من حوله، ولاحظ المرآب الفارغ.
- اترك السيارة هناك، أقفل الباب، وعد سريعاً إلى سايد كريك لين عن طريق الشاطئ. اذهب وتظاهر بأنك تفتش منزل الأم كوبر، وسأواصل أنا المطاردة من جهتي. سنتخلص من الجثتين هذه الليلة.
هل لديك سترة في سيارتك؟
- نعم.

- ارتدّها إذاً، فأنت ملطخ بالدماء.
بعد ربع ساعة، بينما تقاطع برات بالقرب من مونتييري مع القوات الإضافية، كان ترافيس، مرتدياً ستروته ومحاطاً بزملائه، يحيط محيط سايد كريك لين حيث عُثر على جثة ديورا كوبر بأشرطة الشرطة.

في قلب الليل، عاد ترافيس وبرات إلى غوز كوف. دفنا نولا على بعد عشرين متراً من المنزل، إذ كان برات والنقيب روديك قد حددا محيط التفتيش، الذي لم تكن غوز كوف جزءاً منه، ما يعني أنه لم يأت أحدٌ ليفتش المكان. كانت حقيبة الجلد لا تزال معلقة على كتف نولا، فدفناها معها دون حتى أن يتحققا مما بداخلها.

بعد أن ردما الحفرة، انطلق ترافيس بالسيارة الشيفروليه واختفى على الطريق رقم 1، وجثة لوثر في الصندوق، وصولاً إلى ولاية ماساتشوستس، حيث أوقفه حاجزان للشرطة على الطريق.
- أوراق المركبة، قال رجال الشرطة بتوتر في كل مرة، عند رؤيتهم السيارة.

وفي كل مرة، كان ترافيس يخرج شارته.

- شرطة أورورا، أنا أعمل على القضية وأبحث عن المجرم.

فحياً الرجال زميلهم باحترام وتمنوا له التوفيق في مهمته.

قاد السيارة وصولاً إلى مدينة صغيرة ساحلية يعرفها جيداً: ساغامور. سلك الطريق بمحاذاة المحيط على مرتفعات إليسفيل هاربور، حيث كان موقف سيارات مقفر، يطل على مشهد رائع أثناء النهار، ولطالما رغب في اصطحاب جيني إلى هناك في نزهة رومانسية. أوقف السيارة، ووضع لوثر وراء مقعد القيادة، وسكب في جوفه كحولاً من نوع رديء، ثم وضع مبدل السرعة على وضع الحياد، ودفع السيارة. تحركت ببطء في البداية على المنحدر العشبي الصغير، قبل أن تعبر الحافة الصخرية وتختفي في العدم محدثة صوتاً معدنياً مدوياً. نزل الطريق بعد ذلك لبضع مئات أمتار، حيث كانت سيارة تنتظره على جانب الطريق، فركب وجلس في مقعد الراكب. كان ملطخاً بالدم ويتصبب عرقاً.

- لقد أنجز الأمر، قال لبرات الذي كان وراء مقعد القيادة.

أدار الرئيس برات المحرك.

- لا ينبغي أن نتحدث أبداً عما حدث، يا ترافيس. وحين سيعثرون على السيارة، سيتوجب علينا طمس الأمر. أن لا يكون لدينا مشتبه فيه هو الطريقة الوحيدة لضمان سلامتنا. مفهوم؟
أوماً ترافيس برأسه ووضع يده في جيبه وشدّ على العقد الذي انتزعه سراً من رقبة نولا لحظة دفنها. عقد جميل من الذهب مكتوب عليه اسم نولا.

*

كان هاري قد جلس على الأريكة من جديد.

- لقد قتلا نولا، ولوثر، وديبورا كوبر إذاً.

- نعم، وتدبرا الأمر بحيث لا تُحل القضية أبداً. هاري، كنت تعلم أن نولا كانت تعاني من نوبات نفسية، أليس كذلك؟ فقد تحدثت في الأمر مع الأب كيلرغان حينذاك...

- كنت أجهل قصة الحريق، لكنني علمت أن نولا تعاني من الهشاشة النفسية حين ذهبت إلى منزل آل كيلرغان لأحل مسألة التعنيف الذي كانا يمارسانه عليها. كنت قد وعدت نولا ألا أتحدث في الأمر مع والديها، لكن لم يكن بإمكانني البقاء مكتوف اليدين، أفهم؟ حينذاك فهمت أن الوالدين كيلرغان هما عبارة عن الأب كيلرغان وحده، الذي كان أرملاً منذ ست سنوات، وكان مربكاً تماماً. كان... كان يرفض أن يرى الحقيقة، فكان عليّ أن آخذ نولا بعيداً عن أورورا، لأعالجها.

- كان الهروب من أجل معالجتها إذاً...

- بالنسبة إليّ، أصبح ذلك السبب الأساسي. كنت سأعرضها على أطباء كفؤين، وكانت ستشفى! لقد كانت فتاة استثنائية، يا ماركوس! كانت ستجعل مني كاتباً عظيماً، وكنت سأطرد منها تلك الأفكار السيئة! لقد ألهمتني! وأرشدتني! لقد أرشدتني طوال حياتي. فأنت تعرف ذلك، هه؟ تعرفه أكثر من أي شخص آخر!

- نعم، يا هاري. لكن لماذا لم تخبرني بأيّ من ذلك؟

- أردت أن أخبرك، وكنت سأخبرك لولا تلك التسرّيات لكتابك! اعتقدت أنك خنت ثقتي، كنت غاضباً منك، فأردتُ لكتابك الفشل: كنت أعلم أن لا أحد سيأخذ كلامك على محمل الجد بعد اكتشاف قصة الأم. نعم، هذه هي الحقيقة، أردت لكتابك الثاني أن يفشل، كما حدث لكتابي الثاني في الواقع.

بقينا صامتين للحظة.

- أنا نادم، يا ماركوس. نادم على كل شيء. لا بد أنك خائب الأمل فيّ...

- لا .

- بل أعلم أنك كذلك . فلطالما وضعت أملاً كبيراً فيّ ، أنا الذي بنيتُ حياتي على كذبة .

- لطالما كنتُ معجباً بك لما كنتَ عليه ، يا هاري . ولا يهم ما إذا كنتَ قد كتبتَ ذلك الكتاب أم لا . هاري الإنسان هو مَنْ علمني الكثير عن الحياة . وهذا ، لا يمكن لأحد أن ينكره .

- لا ، يا ماركوس . أنت لن تنظر إليّ بعد الآن كما كنت تفعل من قبل ! وأنت تعلم ذلك . فأنا لست سوى خدعة كبيرة ! مدّع ! ولهذا السبب قلت لك إننا لن نستطيع أن نبقى صديقين : لقد انتهى كل شيء ، يا ماركوس . انتهى كل شيء . أنت في طريقك لأن تصبح كاتباً رائعاً ، وأنا لم أعد شيئاً . أنت كاتب حقيقي ، وأنا لم أكن كذلك يوماً . أنت حاربت من أجل كتابك ، وحاربت لتجد الإلهام من جديد ، وتجاوزت كل العقبات ! أما أنا ، فحين كنت في نفس الظروف ، لقد خُنتُ !

- هاري ، أنا ...

- هكذا هي الحياة ، يا ماركوس . وأنت تعلم أنني محقّ . أنت لن تستطيع أن تنظر في وجهي بعد الآن ، وأنا لن أستطيع أن أنظر إليك دون أن أشعر بغيرة جارفة ومدمرة ، لأنك نجحت حيث أنا أخفقت .

ضممني إلى صدره .

- هاري ، همست ، أنا لا أريد أن أخسرك .

- أنت ستعرف كيف تتدبر أمرك ، يا ماركوس ، فقد أصبحت شاباً رائعاً . وكاتباً رائعاً . وستكون بخير ، أنا واثق من ذلك . الآن ، سيفترق طريقانا إلى الأبد . هذا ما يُسمى بالقدر . لم يكن قدري أن أصبح كاتباً عظيماً ، رغم أنني حاولت أن أغيره : سرقت كتاباً ، وكذبت طوال ثلاثة وثلاثين عاماً . لكن القدر لا يمكن ترويضه : فهو دائماً ما ينتصر في النهاية .

- هاري ...

- أما قدرك أنت، يا ماركوس، فلطالما كان أن تصبح كاتباً عظيماً. فلطالما عرفت ذلك. ولطالما عرفت أن اللحظة التي نعيشها الآن كانت آتية.

- ستظل دائماً صديقي، يا هاري.

- أكمل كتابك، يا ماركوس. هذا الكتاب عني، أكمله! الآن وأنت تعرف الحقيقة كاملة، أخبر بها العالم أجمع، فالحقيقة ستخلصنا جميعاً. اكتب حقيقة قضية هاري كبير، وخلصني من الشر الذي ينخر فيّ منذ ثلاثة وثلاثين عاماً. إنه آخر شيء أطلبه منك.

- لكن كيف لي أن أفعل ذلك؟ فأنا لا أستطيع أن أمحو الماضي.

- لا، لكنك تستطيع أن تغير الحاضر. وهذه هي قوة الكتاب. أتذكر جنة الكتاب؟ أنا أعلم أنك ستصرف على النحو الصحيح.

- هاري، أنت من كبرتني! أنت من جعلت مني ما أنا عليه الآن! - بل إنه وهم. أنا لم أفعل شيئاً، يا ماركوس. لقد عرفت كيف تكبر وحدك.

- لا! هذا غير صحيح! لقد اتبعت نصائحك! اتبعت نصائحك الإحدى والثلاثين! هكذا ألقت كتابي الأول! والتالي! نصائحك الإحدى والثلاثون، يا هاري، أتذكرها؟ ابتسم ابتسامة حزينة.

- أذكرها طبعاً، يا ماركوس.

مكتبة

t.me/soramnqraa

*

بوروس، أعياد الميلاد 1999

- ميلاد مجيد، يا ماركوس.

- أوه، هدية؟ شكراً، يا هاري. ما هي؟

- افتحها. إنه جهاز تسجيل على أسطوانات صغيرة. إنها أحدث

تكنولوجيا، على ما يبدو. أنت تقضي كل وقتك في تدوين الملاحظات التي أقولها لك، وبعد ذلك، تضيع منك فأضطر إلى تكرارها. فقلت نفسي إنه سيمكنك تسجيل كل شيء الآن.

- رائع، هيا، لنبدأ.

ماذا؟

- أعطني نصيحةً أولى. سأسجل كل نصائحك بحرص شديد.

- حسناً، أي نوع من النصائح؟

- لا أدري... نصائح للكتاب. وللملاكين. وللرجال.

- كل هذا؟ حسناً. كم نصيحة تريد؟

- مئة على الأقل!

- مئة؟ يجب أن أحتفظ ببعض منها لنفسي لتكون لديّ أشياء أعلمك إياها فيما بعد.

- ستكون لديك دائماً أشياء تعلمني إياها، فأنت هاري كبير العظيم.

- سأعطيك إحدى وثلاثين نصيحة. سأعطيك إياها على مدار السنوات المقبلة. لن أعطيك إياها دفعة واحدة.

- لماذا إحدى وثلاثين؟

- لأن الحادية والثلاثين هي سن مهمة. فتشكّلك أول عشر سنين كطفل. وتشكّلك سن العشرين كشخص راشد. لكن سن الثلاثين ستجعل منك رجلاً، أو لا. وسن الحادية والثلاثين تعني أنك تخطيت هذه المرحلة. كيف تتخيل نفسك في سن الحادية والثلاثين؟

- مثلك.

- لا تقل الحماقات. هيا، سجل. سأعطيك النصائح في ترتيب تنازلي. نصيحة رقم إحدى وثلاثين: ستكون نصيحة تخص الكتب. إذاً، رقم 31: الفصل الأول، يا ماركوس، أساسي. إذا لم يحبه القراء، فلن يقرأوا بقية كتابك. بم تنوي أن تبدأ كتابك؟

- لا أعرف، يا هاري. أعتقد أنني سأستطيع ذلك يوماً؟
- تستطيع ماذا؟
- أن أؤلف كتاباً.
- أنا متأكد من ذلك.



- حدّق فيّ وابتسم.
- إذاً، يا ماركوس: بغض النظر عن سنك، لقد نجحت. أصبحت رجلاً مبهرّاً. أن تصبح «المبهر» لم يكن شيئاً، لكن أن تصبح شخصاً مبهرّاً كان تتويجاً لصراع طويل ورائع مع نفسك. أنا فخور جداً بك.
- ارتدى سترته وعقد وشاحه.
- أين أنت ذاهب، يا هاري؟
- عليّ أن أذهب الآن.
- لا تذهب! ابق!
- لا أستطيع...
- ابق، يا هاري، ابق قليلاً!
- لا أستطيع.
- أنا لا أريد أن أخسرك!
- إلى اللقاء، يا ماركوس. كنت أنت أجمل لقاء في حياتي.
- إلى أين أنت ذاهب؟
- يجب أن أنتظر نولا في مكان ما.
- ضممني إلى صدره مرة أخرى.
- جدّ الحبّ، يا ماركوس. الحب يعطي معنى للحياة. فحين نحب، نكون أقوى. نكون أكبر. ونذهب أبعد.
- هاري! لا تتركني!
- إلى اللقاء، يا ماركوس.

غادر. ترك الباب مفتوحاً وراءه، وتركته أنا على هذه الحال طويلاً. لأنها كانت المرة الأخيرة التي رأيت فيها أستاذي وصديقي هاري كبير.

*

مايو 2002، نهائي البطولة الجامعية للملاكمة

- جاهز، يا ماركوس؟
- أنا مرعوب، يا هاري.
- أنا واثق من ذلك، وهذا أفضل. فلا يمكنك الفوز إذا لم تكن مرعوباً. لا تنس، لاكم كما لو أنك تؤلف كتاباً... أتذكر؟ الفصل 1، الفصل 2...
- نعم. 1، نضرب، 2، نصرع...
- جيد جداً، يا بطل. هيا، جاهز؟ ها، إنه نهائي البطولة، يا ماركوس! النهائي! منذ فترة قريبة، لم تكن تلاكُم سوى الأكياس، وها أنت قد وصلت الآن إلى نهائي البطولة! سمعتَ المعلّق الرياضي: «ماركوس غولدمان ومدربه هاري كبير من جامعة بوروس». نحن! هيا، إلى الأمام!

- انتظر، يا هاري.
- ماذا؟
- لديّ هدية لك.
- هدية؟ أنت واثق أنها اللحظة المناسبة؟
- تماماً. أريدك أن تأخذها قبل المباراة. إنها في حقيبتي، خذها. لا أستطيع أن أعطيك إياها بنفسِي بسبب قفازي.
- إنها أسطوانة؟
- نعم، إنها تجميع لجمالِك الإحدى والثلاثين الأكثر أهمية! عن الملاكمة، والحياة، والكتب.

- شكراً، يا ماركوس على هذه اللفتة المؤثرة. جاهز للقتال؟
- أكثر من أي وقت مضى.
- هيا بنا اذاً.
- انتظر، لا يزال هناك سؤال أطرحه على نفسي...
- ماركوس! لقد حان الوقت!
- لكنه مهم! لقد أعدت الاستماع إلى كل نصائحك وأنت لم
تجب عليه أبداً.
- حسناً، تفضل.
- هاري، كيف نعرف أن كتاباً قد انتهى؟
- الكُتُب مثل الحياة، يا ماركوس، هي لا تنتهي أبداً.

الخاتمة

أكتوبر 2009

(عام بعد صدور الكتاب)

«الكتاب الجيد، يا ماركوس، لا يقاس بكلماته الأخيرة فحسب، بل بأثر مجمل الكلمات التي سبقتها. بعد أن ينتهي القارئ من قراءة كتابك بنصف ثانية، بعد أن يكون قد قرأ آخر كلمة منه، يجب أن يحس بشعور قوي يجتاحه؛ وللحظة، لا ينبغي أن يفكر إلا في كل ما قرأه، أن ينظر إلى الغلاف ويبتسم ابتسامة تشوبها مسحة حزن لأنه سيفتقد كل الشخصيات. الكتاب الجيد، يا ماركوس، هو الذي نحزن لأننا انتهينا من قراءته».

شاطئ غوز كوف، 17 أكتوبر 2009

- هناك شائعة تقول إن لديك مخطوطة جديدة، أيها الكاتب.
- هذا صحيح.
- كنا جالسَيْن قبالة البحر، أنا وغازالوود، نشرب البيرة.
- النجاح الكبير الجديد لماركوس غولدمان العظيم! عم يتحدث؟
- ستقرأه على الأرجح، فأنت مذكور فيه.
- حقاً؟ أيمكن أن ألقى نظرة؟
- ولا في أحلامك، أيها الضابط.
- على أية حال، إذا كان رديئاً، فستسدد لي ثمنه.
- غولدمان لم يعد يسدد، أيها الضابط.
- ضحك.
- أخبرني، أيها الكاتب، كيف أتيت بفكرة إعادة بناء هذا المنزل وجعله إقامة للكُتَّاب الشباب؟
- إنها فكرة خطرت لي فحسب.
- بيت هاري كبير للكُتَّاب. جميل. أنتم يا معشر الكُتَّاب شعب يعيش حياة هائلة. تأتون إلى هنا لتشهدوا المحيط وتؤلفوا الكتب، إنها مهنة تروق لي أيضاً... هل رأيت المقال في عدد اليوم لـ نيويورك تايمز؟

- لا .

أخرج من جيبه صفحة من جريدة وبسطها، وراح يقرأ:

- صفحة خاصة: نوارس أورورا، الرواية الجديدة التي لا بد من قراءتها. لوثر كاليب، الذي اتجهم بالخطأ بقتل نولا كيلرغان، كان كاتباً عبقرياً لم نعرف عن موهبته شيئاً. دار النشر شמיד وهانسون تحقق العدالة وتعيد إليه حقه بعد وفاته، بنشرها روايته الخلافة التي كتبها عن علاقة نولا كيلرغان وهاري كبير. هذه الرواية الرائعة تحكي كيف استلهم هاري كبير من علاقته مع نولا كيلرغان ليكتب أصول الشر. توقف وانفجر ضاحكاً.

- ماذا هناك، أيها الضابط؟ سألته.

- لا شيء. أنت عبقرى، يا غولدمان! عبقرى!

- ليست الشرطة وحدها من تحقق العدالة، أيها الضابط. أنهينا شرب البيرة.

- سأعود إلى نيويورك غداً، قلت له. أوماً برأسه.

- قم بزيارتنا من وقت لآخر. أقصد، هذا سيسعد زوجتي على نحو خاص.

- بكل سرور.

- بالمناسبة، أنت لم تخبرني. ما هو عنوان كتابك الجديد؟ حقيقة قضية هاري كبير.

بدا شارد الذهن. عدنا إلى سيارتنا. شقَّ السماء سربٌ من النوارس، تتبعناه بنظرنا للحظة. ثم سألني غاهالوود من جديد:

- وماذا ستفعل الآن، أيها الكاتب؟

- قال لي هاري ذات يوم: «أعط معنى لحياتك. شيثان يعطيان المعنى للحياة: الكتب والحب». لقد وجدتُ الكتب. بفضل هاري، وجدتُ الكتب. والآن، سأذهب لأبحث عن الحب.

جامعة بورس

معربة عن شكرها لـ

ماركوس غولدمان

الفائز ببطولة الجامعة في الملاكمة

لعام 2002

ومدربه

هاري كيبر

شكر

أتوجه بالشكر من أعماق قلبي لإرني بينكاس، في مدينة أورورا
بولاية نيو هامبشير، لمساعدته القيمة.

في شرطة ولاية نيو هامبشير وألاباما، أتوجه بالشكر للرقيب بيرى
غاهالوود (الفرقة الجنائية لشرطة الولاية بنيو هامبشير) والضابط فيليب
توماس (فرقة الطرق السريعة لشرطة ولاية ألاباما).

وأخيراً، أتوجه بشكر خاص لدينيس، مساعدتي، التي لولاها لما
أنهيت هذا الكتاب.

الفهرس

7 يوم الاختفاء (السبت 30 أغسطس 1975)

استهلال

9 أكتوبر 2008 (33 عاماً بعد الاختفاء)

الجزء الأول

مرض الكُتّاب

(ثمانية أشهر قبل صدور الكتاب)

31. في ثنایا الذاكرة 15

30. المُبهر 41

29. هل يمكن الوقوع في حب فتاة في الخامسة عشرة؟ 65

28. أهمية أن تعرف كيف تسقط

(جامعة بوروس، ولاية ماساتشوستس، 1998-2002) ... 89

27. هنا... حيث زُرعت زهور الكويتية 113

26. ن. و. ل. ا.

(أورورا، نيو هامبشير، السبت 14 يونيو 1975) 145

159	25. بشأن نولا
185	24. ذكريات العيد الوطني
201	23. من عرفوها جيداً
229	22. تحقيق الشرطة
251	21. عن صعوبة الحب
273	20. يوم الحفل في الحديقة
291	19. قضية هاري كبير
	18. مارثاز فينيارد
321	(ماساتشوستس، أواخر شهر يوليو 1975)
341	17. محاولة هروب
	16. أصول الشر
369	(أورورا، نيو هامبشير، 11-20 أغسطس 1975)
395	15. قبل العاصفة

الجزء الثاني

شفاء الكتاب

(تأليف الكتاب)

421	14. يوم 30 أغسطس 1975
439	13. العاصفة
469	12. ذاك الذي كان يرسم اللوحات
489	11. في انتظار نولا
	10. البحث عن فتاة في الخامسة عشرة
505	(أورورا، نيو هامبشير، 1-18 سبتمبر 1975)

523	9. مونت كارلو سوداء
551	8. المرسل المجهول
581	7. بعد نولا
595	6. مبدأ بارناسكي

الجزء الثالث

جنة الكتاب

(صدور الكتاب)

619	5. الفتاة التي هزّت أمريكا
649	4. في الديار بألاباما
667	3. يوم الانتخابات
689	2. نهاية اللعبة
707	1. حقيقة قضية هاري كير

الخاتمة

757	أكتوبر 2009 (عام بعد صدور الكتاب)
763	شكر

مكتبة

t.me/soramnqraa

جويل ديكر

حقيقة قضية هاري كيبير

كاتب مشهور يلقّن دروساً في الكتابة لتلميذه الطموح،
تلميذ وفيّ يقرّر مساعدة أستاذه وإنقاذ سُمعته،
مدينة صغيرة على ساحل المحيط،
فتاة اختفت قبل ثلاثة وثلاثين عاماً،
وسباق لكشف... حقيقة قضية هاري كيبير!



الكتاب الجيد، يا ماركوس، هو الذي نحزن لأننا انتهينا من قراءته.

الدرس # 31: الفصل الأول، يا ماركوس، أساسي. إذا لم يحبه القراء،
فلن يقرأوا بقية كتابك.

الدرس # 23: لا تكتب إلا خيلاً. فالباقى لن يجلب لك سوى المتاعب.

الدرس # 11: يجب أن تعطي كل ما لديك، لأن كل مباراة، كما كل كتاب،
قد تكون الأخيرة.

الدرس # 8: مَنْ يجرو، يُفّر، يا ماركوس. فكّر في هذه المقولة كلما
واجهت اختياراً صعباً. مَنْ يجرو، يُفّر.

الدرس # 5: الكتاب الجديد، يا ماركوس، هو حياة جديدة تبدأ. البعض
سيحبّه، والبعض الآخر سيكرهه. البعض سيراك نجماً، والبعض
الآخر سيحتقرك. البعض سيغار، والبعض الآخر سيهتم.

الدرس # 4: حين تصل إلى نهاية الكتاب، يا ماركوس، قدّم لقرائك تطوّراً
مفاجئاً أخيراً. لتبقي قارئك يلهث حتى النهاية.

الدرس # 1: الفصل الأخير من الكتاب، يا ماركوس، يجب أن يكون
الأجمل دائماً.

مكتبة

t.me/soramnqraa

المركز الثقافي العربي



الدار البيضاء: ص. ب. 4006 (سيدنا)
markaz.casablanca@gmail.com